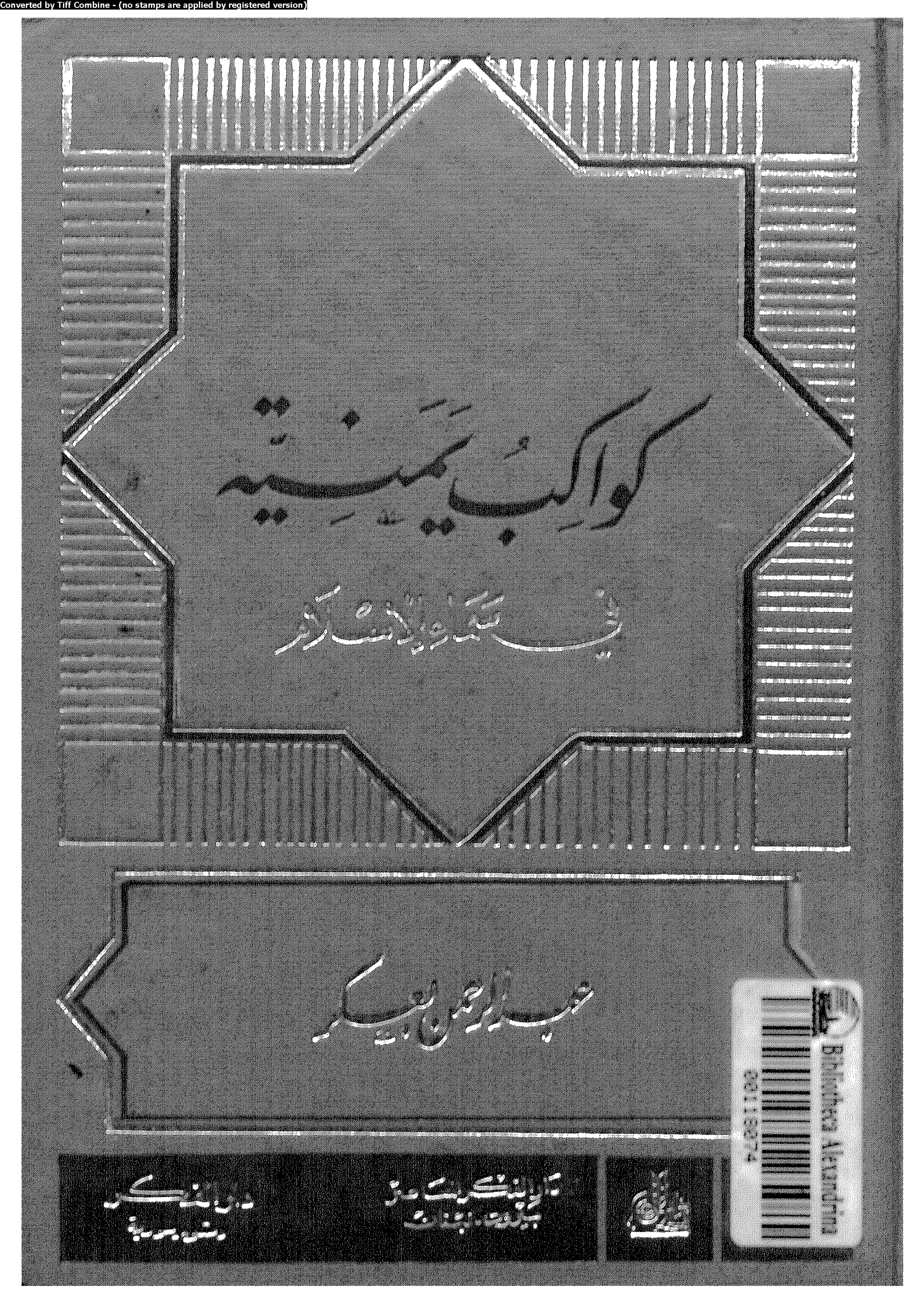

كواكب يمنية
في سماء الإسلام
عبد الرحمن بعكر
دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان
دار الفكر
دمشق - سورية
Bibliotheca Alexandrina











بسم الله الرحمن الرحيم

كواكب يمنية

في سماء الإسلام



عبد الرحمن بعكر

كواكب يمنية في سماء الإسلام

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

الكتاب ١٣
الطبعة الأولى ١٤١٠ هـ = ١٩٩٠ م

لبنان - بيروت - ساقية الجنزير ، خلف الكارلتون ، ص . ب ٥١٤٩٧
ص . ب (١٣٦٠٦٤) هاتف (٨٦٠٧٣٩) تلكس : FIKR 44316 LE

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، وصلى الله على خاتم النبيين، سيدنا محمد وآله وصحبه والتابعين. وبعد:

فإذا كانت أقوى المؤثرات في حياة الإنسان هي العقيدة، صحيحةً تستمر وتفضي إلى خير، أو باطلة تنقطع وتفضي إلى شر.

وإذا عرفنا أن العقائد الصحيحة هي تلك التي جاء بها المرسلون، صلوات الله عليهم، مؤيدة بالوحي من الله تعالى.

وعرفنا أن المرسلين كانوا قبل النبي الخاتم ﷺ، يبعثون إلى قبائلهم وأقوامهم، وأن الرسالة العالمية إلى البشرية كافة هي تلك التي جاء بها نبي الإسلام... اتضح لنا أن أهم حدث شهدته هذه الأرض وعرفه تاريخ الإنسان، هو مولد هذه الرسالة العظمى والدين الخالد.

ولكي نعرف أنفسنا نحن اليمنيين، ونعرِّف غيرنا بنا، فلن يكون ذلك بإحياء التراث الحِمْيَري السبئي والتنويه بمجدهما على ما فيه من سبْق علمي وزراعي وصناعي وعمراني وتشريعي وعسكري؛ لأن ذلك المجد محصور بمكانه وزمانه، فلم يتعد اليمن وإنسانها. ولكن معرفتنا لأنفسنا كما ينبغي، وتعريفنا للآخرين بنا كما يجب، يأتي عن طريق معرفة موقف اليمن من ذلك الحدث العالمي العظيم المستمر (الإسلام).

وفي غير تبجح، كـانت اليمن من البذرات الأولى لهـذا الدين عن طـريق زيد بن حارثة الكلبي القضاعي، والشهيدين ياسر وسمية وولدهما عمار، وكـانت القابلة التي ولد الإسلام على يدها في بيعتي العقبـة، وكانت الحـاضنة له، الذابـة عنه في دار الأنصار الذين تبّوؤوا الدار والإيمان من قبل، وكانت الناشرة له في الخضراء واليابسة من هذه الدنيا.

ولقـد شهدتُ في صفـوف العامـة والناشئـة من يعـدّ مجـد اليمن الـوحيـد محصوراً في سبأ وحِمْيَر، ويَرى تاريخها الإسلامي عُطْلاً من شرف الإسهام، خلْواً من مدعاة المباهاة والمكاثرة؛ بسبب جهلهم لسابقة قومهم ولاحقتهم بهذا الدين، وبسبب الركام الذي أقيم ويقام لدفن تاريخ اليمن في الإسلام، فلا تركيز إلّا على أسوأ الأحداث وأنكد الأشخاص، كالأسود وردته التي عدوها إصلاحاً، وابن الفضل وقرمطيته التي عدّوها فلاحاً وما شابه ذلك.

هذا على صعيد من ذكرت، أما على صعيـد المطلعـين والمسهمين في كتـابة تاريخ اليمن الإسلامي من أوائلنا الأفاضل والمحدثين ـ جـزاهم الله خيراً ـ فقـد لحـظت اعتبارهم للوفـود الفاتحـة التي خرجت من اليمن في عهـد الصـديق ومن بعـده حدثـاً كان وانتهى، ولا عـلاقة لنـا به من قـريب أو بعيد إلا فيما يهتم به بعض المؤرخين.

وعجبت لهذا الموقف أسفاً، كما عجبت لموقف شعراء أبناء اليمن النازحين مباركاً ومؤيداً؛ إذ ما أكثر النصوص الشعرية التي كانت تعانقني في ثنايا السـطور والصفحات في كل كتب الأدب العـربي الإسلامي، وفيهم من نـزح اباؤهـم عن اليمن قبل الإسلام بقرون، بَلْهَ أبناء الفاتحين حديثي العهد بالخروج من اليمن، كحسان الأنصاري، والطرماح الطائي، ودعبل الخزاعي، وكعب الأشقر الأزدي، إلى كثير من الأسماء التي سطّ بها المكان والزمان، كابن هانىء الأزدي، وابن رشيق مولى آل باديس الحميريين، إلى جانب عناية علماء الحديث ـ أحسن الله إليهم ـ

بتصحيح الأنساب والحرص على إلحاق كل رجل بقومه، وسيمر بك في مكانه ـ إن شاء الله ـ ما أثير حول يمنية الأوزاعي وطارق بن زياد وابن خلدون وغيرهم، مما يعكس أهمية الأمر لدى علماء الأمة وأعلامها.

وكنت كلما تصفحت ـ أو بالأصح أُملي علي ـ معجم تراجمي إسلامي، أدهش لوفرة رصيد اليمن من العلماء والمصلحين في الأصقاع ونسيان قومهم لهم. وقد جاء الإسلام ليطامن غلواء العرب بالأنساب، ويخفف من اعتزازهم بها، محلاً محلها الإكثار من صالح الأعمال، ومقيماً مُقامها الكلمة المأثورة: «من أبطأ به حسبه لم يسرع به نسبه» وكان ذلك أمراً ضرورياً لوحدة الأمة واجتماع الكلمة. ولكن الإسلام لم يَنْه عن معرفة القوم لأصولهم ربطاً لأحساب الأخلاف بمكارم الأسلاف، وفي الحديث «تعلموا من النسب ما تعرفون به أحسابكم وتصلون به أرحامكم» وعن عمر أنه قال: «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبيط السواد؛ إذا سئل أحدهم عن نسبه قال: أنا من قرية كذا».

وتمسكنا في هذا الكتاب باتصال وشيجة اليمن بأبنائها النازحين قبل الإسلام وبعده، لم يكن بدعة ابتدعناها فينتقدها ناقدٌ ويثرب عليها حاقد، وإنما هي واقع عرفه النبي ﷺ منهم، وأقره وأكده، ففي الحديث أنه سئل ﷺ عن سبأ ما هو: أبلد أم رجل أم امرأة فقال: «بل رجل ولد له عشرة، فسكن اليمن منهم ستة، والشام أربعة». أما اليمانيون فكندة ومذحج والأزد وأنمار وحمير والأشعريون، وأما الشاميون فلخم وجذام وغسان وعاملة. وقال ﷺ: «إني لأجد نفس ربكم من قبل اليمن» وفسره العلماء بأن الله ينفس عن المسلمين بأهل اليمن الأنصار، ومن جاء بعدهم. وكان أبو هريرة الدوسي إذا جاءه رجل من جذام قال: «مرحباً بأصهار موسى وقوم شعيب» تكريماً لقومه جذام. ووقف الأبرش الكلبي في مجلس معاوية مفاخراً بقومه اليمن: «لنا ربع البيت ومنا حاتم طيء، ومنا المهلب بن أبي صفرة» ولم نورد هذا إلا لتوضيح صحة ما ذهبنا إليه، من استقصاء أخبار القوم في جنبات الأرض وجمعها من بطون الأسفار.

جهد التراجميين اليمنيين

وبالإمكان الجزم في اطمئنان أن التراجميين اليمنيين قد غطوا الأربعة عشر قرناً تدويناً لعلمائها وفضلائها، واستعراضاً لأحوالهم، إن لم يكن لكلهم فللكثرة الكاثرة منهم، وهم بعد ذلك متفاوتون في رحابة الاهتمام، وسعة الاطلاع: فمنهم من حصر نفسه في نطاق مذهب فقهي أو فكري، كما صنع يوسف بن الحسين صاحب (نسمة السحر فيمن تشيع وشعر) فاستقصى أخبار مشايعيه في تشيعه داخل اليمن وخارجها، وأهمل من خالف مشربه وإن كانوا أكثر جودة وأعلى درجة، وكالعلامة إبراهيم بن القاسم صاحب (طبقات الزيدية) وعذر هذا أنه رحمه الله وجد قوماً قبله اتبعوا نهجاً مذهبياً في التراجم فذهب وراءهم.

ومنهم من انتقى نوعاً فأفرد تأليفه فيه ووقفه عليه، كما صنع الشيخ الولي عبد الله اليافعي في (مرآة الجنان)، ومن بعده أحمد الشرجي في (طبقات الخواص) والبريهي في (صلحاء اليمن). ولن أثرب عليهم فإني نهجت في هذا الكتاب منهجهم.

ومنهم من اعتنى بكل اليمن على مختلف مذاهبه ومشاربه، كمحمد بن يوسف الجندي الذي يعد بحق حافظ تراجم اليمن لسبعة قرون، فإنه جمع في كتابه (السلوك) تراجم علماء اليمن وملوكها ووزرائها، وصدّره بنبذة من الأخبار في فضل العلماء والملوك وسيرة النبي ﷺ، ثم تكلم عن العلماء والقضاة والأدباء أولاً، ثم الملوك والوزراء ثانياً، ورتبه على الطبقات، والطبقة الأخيرة منها على أربعة مخاليف: تهامة ثم الجند ثم صنعاء ثم حضرموت، وابتدأ بذكر

من دخل اليمن من فقهاء الصحابة ومن بعدهم؛ من التابعين وتابعي التابعين ومن بعدهم، إلى آخر سنة٧٣ ا. هـ.

وقد تيسر لي الوقوف عليه ـ والحمد لله ـ مطبوعاً بتحقيق القاضي محمد علي الأكوع، وكما خدم الجندي القرون السبعة الأُوَل بحفظ تراجمها،خدم المؤرخ السيد محمد بن محمد زبارة أربعة القرون الأُخر بحفظ تراجمها.

وكان أوسع القوم أُفقاً وأرحبهم اهتماماً، إمامَ السنة والتفسير، وشيخ علماءاليمن، أبا علي محمد بن علي الشوكاني صاحب (البدر الطالع بمحاسن مَن بَعْد القرن السابع). ترجم فيه أربع مئة وواحداً وأربعين علماً من أعلام أمة الإسلام في مختلف أرجاء المعمورة طوال ستة قرون، وكأنه بذلك أراد إكمال مشوار (وفيات الأعيان) التي انتهت تراجمها بأهل القرن السابع.

ولا ننسى الدور الريادي لابن سمرة الجعدي؛ فقد كان سباقاً بطبقاته في موضوعه.

وإن المتمعن في التراث التراجمي اليمني لتأخذه هذه الغبطة والإعجاب بالجهد الضخم والمحصلة الواسعة، التي لم يظفر بها إلا القليل من الشعوب العربية والإسلامية، ولقد كان لي من تلك التراجم منتجع واسع خصب أشرت إليه في مكانه.

منتجعات أخرى

ولقد ضاعف الله المنة وتيسير المهمة، بمراجع إسلامية شفت وكفت؛ فمن المطولات التاريخيةُ: الكامل لابن الأثير والبداية والنهاية لابن كثير، ومن المعاجم التراجمية: الإصابة لابن حجر العسقلاني، والاستيعاب لابن عبد البر، وصفة الصفوة لابن الجوزي، وتهذيب الأسماء للنووي، والوفيات لابن خلكان، ومعجم الأدباء لياقوت، والضوء اللامع للسخاوي، وتذكرة الحفاظ لمؤرخ الإسلام الذهبي، والتفسير والمفسرون للدكتور المعاصر محمد الذهبي وغير ذلك، مما أشرت إليه في مكانه من الكتاب، إلى جانب مؤلفات أخرى قديمة وحديثة موضحة في ثبت المراجع آخر الكتاب.

وكنت كلما استمليت صفحاتها أجدني أواجه بأكثر من علم يمني لا يخلو من علم أو عمل، ولا أفرغ من الاستملاء الا وقد أطل عليَّ جماعات بعضهم في أقصى الشرق، وبعضهم في أقصى الغرب، وبعضهم بين بين، وأحس أن كلهم يستشهدني على نسيان قومه له، وطول التنائي الزماني والمكاني عن الدار، وكأنما لسان حالهم جميعاً:

ألا أيها الركب اليمانون عرجوا
عـلينا فقد أمسى هوانا يمانيا

قفوا خبروا، هل سال نعمان بعدنا
وحب إلينا بطن نعمان واديا

فعقدت العزم بعد الاستعانة بالله على جمع شتاتهم، وتقريب نائيهم، وإبراز غامرهم، وقضيت في ذلك الشهور والسنوات قبل بدء التأليف.

تقاسيم الكتاب

ثم أمضيت شهوراً ثلاثة مع فريق مبارك، عاش معي الساعات الطويلة، بحثاً وإملاءً علي وتحريراً عني، ذكرتهم في آخر الكتاب.

والكتاب يتكون من أربعة أبواب:

الأول: صفحات عطرة مع شمس الهدى، والخير والنور، محمد ﷺ وبعض من معجزاته الخالدة، ومع صحابته وتابعيه. وضعته تبركاً به، وربطاً لقافلة علماء اليمن، من العلماء والفضلاء بهادي الأمة، وسراج الظلمة، محمد ﷺ.

الثاني: في صفحات قلائل قدمتُ خلالها اليمن؛ جغرافياً، وإنساناً بخصائصه التأريخية التي تميزه بين قومه وعالمه.

ثالثاً: الإشراق الأول؛ من وفود الإيمان في العهد النبوي، إلى سقوط بغداد وأواخر العهد العباسي.

رابعاً: الإشراق الثاني؛ من منتصف القرن السابع، إلى منتصف القرن الرابع عشر، مقتصراً على من ثبت لهم فضل؛ من علم وعمل، متجنباً ذكر من كان لهم مشاركة في الفتن أو شبهة أو شائبة، وكذا عدم الاعتناء بأمر الشعراء؛ لأنني أردت وحرصت أن يكون العنوان (كواكب يمنية في سماء الإسلام) اسماً ومسمى. ولا أغضُّ بهذا من الشعر والشعراء؛ فأنا واحد منهم، ولكنه العمل بما قيل: لكل مقام مقال. وعدد تراجم هذا الكتاب بوفوده وأفراده وفذلكاته

وعناقيده، مفصلة بـالجدول المـوضح آخـر المقدمـة. ولا أدعي بهذا استقصـاءً ولا استيعاباً فـيها إلى ذلك سبيـل، وإنما هـو تقديم النمـوذج الشاهـد بفضل اليمن، ومكانتها المتفوقة؛ إيمانياً وجهادياً وعلمياً، وهذا بدوره يجرنـا لتوضيـح الأغراض المتوخاه من الكتاب.

أغراض الكتاب

١ ـ توضيح السبق الإيماني والجهادي الذي تجلى في حياة هذا الشعب مع مطلع بشائر الإسلام على لسان البطل المؤمن سيف بن ذي يزن، والشيخ المعمر عسكلان بن عواكل الحميري، ووفود الإيمان التي تسابقت مبايعة مجاهدة، وتأكيد التفوق العلمي، والتألق الروحي فيها فصلناه في ثنايا الكتاب، وأن هذا الشعب ولد مفطوراً على الإيمان؛ فلا بد أن يظل مستودعه الخالد ومعقله الصامد مهما تألبت قوى الشر، وتداعت نوابح الإلحاد.

٢ ـ توضيح أن وحدة اليمن ورخاءه، تمت واستمرت في ظل الاسلام؛ فبعد أن عبثت حرائق ذي نواس وأخاديده بالمؤمنين، مما كان سبباً لتمزيق اليمن واحتلال الأحباش لها، إلا أن المحرر المؤمن سيف بن ذي يزن تمكن ـ بفضل الله ـ من توحيدها مدة حكمه القصير، ثم عادت الفتنة تدمرها وتمزق أوصالها، حتى جاء نبي الإسلام ﷺ وأسلم باذان، فأقره النبي على ولايته لصنعاء، وأناط به سائر اليمن، فجمعها بعد شتات، ومن بعده ولده شهر، حتى إذا ما كانت ردة الأسود ـ لعنه الله ـ لم تعمر أكثر من شهور، فأحرق الحرث والنسل، وأزهق من الأرواح، وسفك من الدماء، وهتك من الأعراض، ما الله به عليم. وكانت الدائرة عليه، وارتفعت ثانية «لا إله إلا الله محمد رسول الله» وأعاد الفاروق معاذاً إلى اليمن، فدوّن مخاليفها، ونظم جباية الزكاة وتوزيعها، حتى فاض الخير، وتدافع هو والفاروق فائض الزكاة لموسمين؛ إذ أرسل إليه أولاً نصف الزكاة فأباها عمر، حتى علم أن معاذاً ما بعث إليه إلا عند ما لم يجد أحداً في

اليمن محتاجاً إليه. ثم بعث في الموسم الثاني كامل الصدقة، لما تم لليمن رخاؤها وانعدام الفقير فيها، واستمر أمر اليمن بعد ذلك في شد وجذب؛ بسبب الصراع الأموي والعلوي والزبيري، حتى كانت جائحة ابن الفضل القرمطي.

ويكفيك أن صنعاء كانت قبل دخوله فيها - كما ذكر الرازي في تأريخه - كانت تبلغ بيوتها مئة وعشرين ألف بيت عدا المساجد والحمامات، ويزيد سكانها عن ربع مليون نفس، فما خرج منها إلا وهي أطلالَ.

وجاء من بعده بحين الصليحي، وهو وإن كان قد وحّد أجزاء اليمن، لكنه وحدها لنفسه، ولمولاه العبيدي، وراجع - إذا شئت - هتك أسرار الباطنية للحمادي، لترى الإرهاب الفكري والديني الذي ساد عهده هذا في نطاق صنعاء.

وإذا نظرنا إلى زبيد، فسنجدها امتُحنت من ابن الفضل بما امُتحنت به صنعاء. وجاء النجاحيون، وكان أفضلهم الملك الخيِّر المثقف الشاعر جياش الذي يقول عن زبيد:

لله أيام الحصيب ولا خلت
تلك المعاهد من صباً وتصابي

ما العيش إلا ما أحاط بسوحه
بغضا الهويب وشاطىء الاهواب

فإذا بعلي بن مهدي، يستأصل دولة النجاحيين، معلناً عما جاء به عهده السعيد لزبيد.

أدرنا على درب الحصيب صواعقاً
يحاكي صداها موبقات الصواعق

ولم يكتفي بتدمير زبيد، وإنما أحرق مدينة إب والجند، كما ستجده مفصلاً في مكانه من هذا الكتاب ولسنا بهذا ندافع عن النجاحيين وغيرهم من الدول الحاكمة، وإنما نشير إلى ما يصنعه أنصار الأفكار المنحرفة، وأتباع الدعوات الباطلة.

٣ ـ توضيح الحجم الضخم الذي قدمته اليمن لنشر الدعوة، وإسقاط الحائلين بينها وبين بني الإنسان في هذه الدنيا.

ويكفينا أن نذكر موسى بن نصير وطارق بن زياد والمهلب ابن أبي صفرة وعبد الرحمن الغافقي والسمح الخولاني، لنعرف أي قادة كبار قدمتهم اليمن لنشر دين الله.

كما أردنا من هذا الكتاب أيضاً توضيح الحجم الضخم الذي أنجزته اليمن علمياً في خدمة القرآن والسنة والفقه؛ ففي مجال الحديث كان لليمن أعلامها المبرزون من حفاظ الأمة أمثال أبي داود السجستاني، واسمه الكامل سليمان بن الأشعث الأزدي، وسليمان بن أحمد اللخمي المشهور بالطبراني، والقاضي عياض اليحصبي.

هذا في الخارج، أما في الداخل، فعبد الرزاق بن همام الصنعاني، وشيخه مسند اليمن معمر بن راشد، وأبي قرة موسى بن طارق اللحجي، ومحمد بن إسماعيل بن أبي الصيف الزبيدي، الذي جمع فيها جمع أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً من أربعين مدينة.

وفي مجال الفقه والتشريع أئمة أعلام أمثال: مالك بن أنس الأصبحي، وإبراهيم النخعي، وإبراهيم بن يزيد الكلبي المشهور بأبي ثور، وعبد الرحمن الأوزاعي.

وفي الداخل محمد بن إبراهيم الوزير، وإسماعيل ابن أبي بكر المقري، ومحمد بن علي الشوكاني وأمثالهم...

وفي مجال اللغة وعلومها وآدابها: الخليل بن أحمد الفراهيدي، ومحمد بن يزيد المبرد، ومحمد بن دريد وأمثالهم، ممن جمعتهم صفحات هذا الكتاب، وقدمتهم باقة بل إكليلاً يتوج هام اليمن، ليعرف الجيل ريادة آبائه فيتخذهم قدوة، ويتسامى إلى الأوج الأعلى الذي تبوأته اليمن في تاريخ هذه الأمة.

٤ ـ كما أردنا من هذا الكتاب توضيح النجدة المذخورة في بلد الإيمان، فعند سقوط الخلافة العباسية على يد التتار وانسدال أسجاف الظلام على كثير من بقاع الإسلام، قامت اليمن لمهمتها الريادية، فكان المظفر الرسولي أول ملوك الإسلام اهتماماً بما يجري بين جيش مصر المسلم وجيش التتار الكافر، إذ بعث خمس مئة فارس بخيلهم وسلاحهم يرابطون في مصر على نفقة اليمن.

واستمر الرسوليون، ومن بعدهم الطاهريون إلى أوائل القرن العاشر يقومون بأمر الحرمين إنفاقاً وتعليماً للعقول، وتهذيباً للأخلاق، وتسامياً بالروح. وأوفى المراجع في هذا المعنى، هو (الضوء اللامع) للسخاوي باعتباره شاهد عيان، وقد أوردنا منه ما تيسر لنا.

تصحيح الفهم لمعنى الولاية، ودور الأولياء الذين سطعت أشعتهم في حندس القرن السابع، ذلك القرن الذي شهد كارثتي الهجوم الصليبي والتتري. فكانوا بحق امتداداً مباركاً للمدرسة التي أسسها المصلح الكبير عبد القادر الجيلاني، كغيرهم من تلامذته المصلحين المنتشرين في أصقاع الأرض.

ولقد أُسيء فهم الولاية والأولياء لدى البعض قديماً؛ بسبب مقالة الحلول والاتحاد التي تنسب إلى بعض الأفراد، وبسبب التصوف الفلسفي الذي يعزى إلى ابن عربي، وبسبب حلقات السماع، وما كان يحدث فيها من رقص لدى بعضهم.

كما أُسيء فهم الولاية والأولياء لدى البعض حديثاً؛ بسبب الطابع المادي للحضارة القائمة الجاحدة للإشراقات الروحية، وبسبب أيضاً من الممارسات الخاطئة للدجالين المشعوذين الذين خلطوا السحر والطلسمات، بالولاية والكرامات التي لا يتقبلها الحال الفكري والذوقي لهذا العصر، وإن كنت مؤمناً بها وبطلاقة المشيئة الالهية القادرة على الإتيان بالخوارق متى شاءت، وكيفما شاءت، ولكنه التقيد بالأدب النبوي: «خاطبوا الناس على قدر عقولهم».

وأهم ما حرصت على إبرازه وتوضيحه، هو الدور الأبوي لأولئك الآباء المصلحين الذين قاموا بخدمة المجتمع اليمني طوال سبعة قرون؛ يطعمون الجائعين، ويكسون العارين، ويعالجون المرضى، ويعلمون الجاهلين، ويأدبون المنحرفين، إذ أن الولي الحق هو ذلك الذي جمع بين رسوخ العلم، ونقاء الروح، واستقامة العمل، فهو المفتي للكبار، والمعلم للصغار، والمطفىء للفتن إذا قامت، وللحروب إذا شبّت.

وباختصار كانوا الدولة الشعبية حين غابت، وأهملت الدولة الرسمية. ولك أن تذكر واحداً منهم، كأحمد بن موسى العجيل، الذي كان ينظم موكب الحاج[1] اليمني، ويحرس المحمل من تهامة إلى الحرمين. فتراه يقوم مقام فرقة من الجيش كاملة العدة والعتاد.

أو تذكر مصلحاً كالشيخ علي البعداني نزيل الحرمين، وهو يتلقى تبرعات ملوك الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، ونفقات الأسخياء الخيرين من المسلمين، فينفقها جميعاً في عمران الحرمين، والمدارس، والأربطة، والمجاورين بها، فتراه يقوم بمفرده مقام منظمة عالمية، للإغاثة والإسكان.

أو تذكر رجلاً مصلحاً كالشيخ أحمد بن علوان، وهو يتعقب أخطاء الدولة، ويحاسبها على مظالمها، ويواجه أكبر ملك إسلامي استقل بحكم اليمن الطبيعية من عمان إلى نجران، وهو المظفر يوسف بن عمر الرسولي بمثل قوله:

عار عليك عمارات تشيدها ... وللرعية دور كلها دمن

فتراه يقوم بمفرده مقام مجلس شعبي كامل، رقابة ومحاسبة.

وعلى ذكر العدل نختم مقدمتنا هذه بكلمة قصيرة عن مكانة التوحيد والعدل.

---

(١) كان بكر بن عمر الفرساني الموزعي، ثم عمر الأكسع، قائدي محمل الحاج اليمني قبل ابن العجيل. ذكره الشرجي.

التوحيد والعدل قوام الكون والدين

إن الحق الذي قامت به السموات والأرض، له عينان ينظر بهما، وشفتان ينطق بهما ورئتان يخفق بهما، ويدان يبطش بهما، ورجلان يمشي بهما، هما التوحيد والعدل. وأي فصل بينهما يعتبر تشويهاً لجماله، وتعطيلاً لفاعليته.

وكما فرض الحق سبحانه وتعالى تعميق التوحيد في المشاعر والوجدان، والتحقق به، فرض أيضاً تحقيق العدل وهيمنته على كل شؤون الحياة؛ حكماً وقضاءً واجتماعاً.

وليت شعري، ما الذي ينتظره داعية مسلم من مجتمع يرهقه الظلم، وتطحنه الأخطاء، وهو ينطلق في الحديث عن التوحيد، واليوم الآخر، ويختنق عن أنْ ينبس ببنت شفة عن مظالم قائمة، وآلام طاحنة؟!. ألا إن من أوجب الواجبات أن نعلم جميعاً أن أولئك الذين يعظون من المنابر، ويتصدرون حلقات الدرس، ليسوا إلا الدعاة النظريين، والتوجهيين لهذا الدين، أما رجال الدعوة التنفيذيون، فهم أولئك الذين بيدهم مقاليد الأرواح والدماء والأعراض.

وبهذا الفهم نستطيع أن نعرف قوله ﷺ: «إن عدل ساعة، خير من عبادة أربعين سنة».

وإنني لأذكّر بما كان من أمر اليهودي المختصم مع الإمام علي بشأن الدرع، فإنه وهو الأشد عداوة بهره نزاهة القاضي، وانقياد الإمام، وعدل الإسلام، فأسلم. وكذلك ما كان من إسلام عشرين ألف يهودي ومجوسي

ونصراني يوم مات إمام السنة أحمد بن حنبل؛ بسبب العدل الذي أقامه، والحق الذي طبقه.

وإذا عرفنا فرقة متطرفة عريقة في القتال، كالخوارج كيف أنهم جاؤوا إلى الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز مختارين لما رأوا عدله، وهم الذين عجزت الجيوش المتكاثرة أن تفل حدهم، أو تخضد شوكتهم.

وإذا عرفنا أيضاً ما كان يردده الوليد الشاري الخارج في خلافة هارون:

أنا الوليد بن طريف الشاري
قسورة لا يصطلى بنار
أخرجني جوركم من داري

اتضح أن فقدان العدل هو الذي قوض الأنظمة، ودمر المجتمعات.

وهناك اليوم في عالم العروبة والإسلام فريتان كبيرتان ترددان صباح مساء في وقاحة، وغباء، أولاهما: فرية قديمة ترددها كثير من الأنظمة بأنها إسلامية القلب والقالب، قرآنية الباطن والظاهر، بينما الحقيقة أنه لم يبق للإسلام فيها غير الأسماء والعناوين في الحكم والإدارة، كما في الاجتماع والتجارة.

والفرية الثانية: وهي حديثة تتداولها أنظمة أخرى تريد أن تجعل من الديمقراطية ديناً، وإذا ما ذهبت لترى مفهوم الديمقراطية الذي يعنيه حكم الشعب لنفسه، فلن تشهد إلا أفواهاً ملجمة، ورؤوساً مطأطئة لا تملك إلا أن تردد ما يقال لها كما تقول الببغاء، بينما عدوها الإسرائيلي الذي يجمع أكثر من مئة دولة، استطاع أن يقيم نظاماً يكفل لأي فرد فيه أن ينقدَ رئيس الدولة، ويحاسبه، سواء في البرلمان، أو من أعمدة الصحافة، أو غيرها، فمتى يا ترى يستقيم صراط رب العالمين؟

فاللهم قيض لهذه الأمة من يلم شعثها، ويجمع كلمتها، ويصدق معك، ومع نفسه ومعها، إنك على كل شيء قدير.

٧ محرم الحرام سنة ١٤٠٥ هـ



الباب الأول

محمد رسول الله والذين معه



الشمس والتوابع

محمد ﷺ :﴿يا أيها النبي، إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه، وسراجا منيراً﴾ وقد وصف الحق سبحانه وتعالى الشمس بأنها سراج فقال: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً، وجعل فيها سراجاً، وقمراً منيراً﴾ وعلى هذا فإذا كانت الشمس نجماً يضيء الآفاق، فإن محمداً ﷺ نجم يضيء الأعماق، صلوات الله، وسلامه عليه.

ألا له الخلق والأمر

إن الإيمان لطيفة إلهية، يلقيها الحق جل وعلا في القلوب التي يعلم استحقاقها لذلك، وجدارتها به. وأهم سمات ذلك الاستحقاق، وتلك الجدارة، هو تواضع القلب للحق، وتفتحه للنور، إذ إن البصيرة الفطرية المودوعة في النفس البشرية: ﴿بل الإنسان على نفسه بصيرة، ولو ألقى معاذيره﴾ هي قبس الرحمة، ومصباح الهداية، ومحطة الاستقبال والإرسال، فإذا ما أسدلت عليها حجب الكبر، ومعاذير الغرور، ظلت في ليل بهيم، وعذاب مقيم، حتى يتداركها الله بنفحة منه، أو تطفئها الأهواء المتغلبة، والآثام المتعاقبة: ﴿أفرأيتَ مَنْ اتَّخذَ إلَهَهُ هَوَاه، وأَضَلَّهُ اللهُ على عِلْمٍ، وَخَتَمَ على سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ، وَجَعَلَ على بَصَرِهِ غِشَاوَةً، فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أفلاَ تَذَكَّرُونَ﴾.

والكبر الذي يفسره الحديث بأنه بطر الحق، وغمط الناس، حاجز كثيف مظلم، يحرم البصائر والقلوب تفتحها. ونقيضه التواضع؛ وهو فضيلة قلبية،

تمنح صاحبها تطلعاً إلى النور، واستجابة للرشد، وإقبالاً على الخير، وتلك نعمة كبرى، يرزقها السعداء، ويحرمها الأشقياء، والبذرة الأولى المباركة التي تنبت في القلب:﴿شجرةٍ طيبةٍ، أَصْلُهَا ثابتٌ، وفَرْعُها في السَّماءِ، تُؤْتي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ، بِإِذْنِ رَبِّها﴾ هذه البذرة المباركة هي الإيمان بحقيقة الحقائق، وكلية الكليات (الله جلا وعلا): ﴿ وَمَنْ يُؤمن باللهِ، يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾، و: ﴿ الَّذينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ، يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمانِهِمْ ﴾.

ومتى استقرت هذه الحقيقة في القلب، وتغلغلت في المشاعر والأمشاج، كان الثواب العلوي عليها مزيداً من الهدى، وفيضاً من السنا، تتسامى به الذات، وتشرق به الجنبات: ﴿ والَّذينَ اهتَدَوْا زادَهُمْ هُدَى، وَآتاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾. وبمزيد من المجاهدة، والعمل الصالح، تتوالى الآلآء، ويتنامى العطاء، وتعلو المقامات، وعلى رأسها مقام الإحسان الذي ييسره الله لمن يشاء من عباده.

ومن معطيات الإيمان بالرب الخالق الرزاق، المحي المميت، الأول الآخر، الظاهر الباطن، الإقرار بتفرده وحده بالعلم الشامل الكامل، السابق اللاحق: ﴿ وَسِعَ كُلَّ شَيء عِلْماً ﴾، و: ﴿ والله يعلم، وأنتم لا تعلمون ﴾. والإقرار بتفرده وحده بحق الاصطفاء، والاختيار: ﴿ وربك يخلق ما يشاء ويختار ﴾ ومن ثمَّ التسليم له، والانقطاع اليه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتي ونُسُكِي، وَمحْيَايَ وَمَمَاتي، للهِ رَبِّ العَالمين، لا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ ﴾.

التفاضل

والتفاضل قانون عام أصيل في بناء هذا الكون، بارز في مخلوقاته، مشاهد في الجمادات والنباتات، والحيوان والإنسان؛ ففي المكان تفضيل لبقاع معينة اختصها الله بالفضل والتقديس: ﴿لا أُقْسِمُ بِهَذا البَلَدِ، وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذا البلد﴾. و: ﴿ وهَذا البَلَدِ الأَمينِ ﴾.

وفي الزمان ليالٍ وأيام، اختصها الله بالفضل والبركات: ﴿ والفَجْرِ، وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ و: ﴿ وما أَدْرَاكَ ما لَيْلَةُ القَدْرِ؟ لَيْلَةُ القَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾.

وفي الجمادات: ﴿وَمِنَ الجبَالِ جُـدَدٌ بِيضٌ، وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْـوَانُهَا، وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾. وفي النَّباتِ:﴿وفي الأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ، وَجَنَّـاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنْوانٌ، وَغَيْرُ صِنْوَانٍ، يُسْقَى بماءٍ واحِدٍ، وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا على بَعْضٍ في الأُكُلِ﴾.

وفي الحيوان: ﴿والله خَلَقَ كُلَّ دَابّـةٍ مِنْ ماءٍ، فمِنْهُمْ مَنْ يمْشي عَـلَى بَطْنِـهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشي عَلى أَرْبَعٍ﴾.

وفي الإنسان ﴿أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءِ اللّيْلِ، سَاجِـداً وَقَائِمـاً، يَحْذَرُ الآخِـرَةَ، وَيرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الّذينَ يَعْلَمُونَ والّذينَ لا يَعْلَمُـونَ. إنَّما يَتَـذَكَّرُ أُوْلُو الأَلْبَابِ﴾.

فـلا غـرو إذاً أن يختص الله من يشـاء من عبـاده بمقـام النبـوة، وعـظمـة الرسالة، والله أعلم حيثُ يجعل رسالته.

افتقار الأرض إلى الرسالة

للبشر كـل البشر مطالب لا يستغنى عنهـا، ولا يستبدل بهـا هي: المـأكـل والملبس والمسكن، والتعليم والعبـادة والنكاح، والعمـل والعـلاج والتعبـير، وفي الأرض رحابة للسكنى والزراعة، وفي مياهها الينابيع المخزونة، ومن أعلاها ما تفيضه السماء عليها في مختلف الفصول، وعلى تعاقب العصـور. فما الـذي جعل الإنسان لا يرى في سعة الأرض إلا مضيقاً لا يتسـع لغيره، ولا يـرى في رخائهـا إلا شحاً لا يكفي سواه، ولا يرى في المساواة بين البشر إلا خبالاً لا يصلحـه إلا استبداده، وعنجهيته؟

إنها الأنانية، أحالت سعادته شقاءً، ورخاءه اكفهراراً، وعمرانه دماراً، فما هي هذه الأنانية، والتاريخ البشري على طوله منذ كان، وحتى الآن يعرض هذه الأنانية في أطر خمسة :

أنانية الفرد: وأقرب أمثلتها إلى ذاكرة العرب ما صنعته كليب وائل؛ من احتكار الحمى، واحتجاز المراعي . . وكم في التأريخ أمثال كليب أمس واليوم.

وأنانية الأسرة: وأقرب ما نعرفه منها، ذلك الادعاء الأجوف الذي تشدّق به ملوك وأباطرة ونبلاء أوربا وهو أنهم خُلقوا من رأس الإله، وخلق غيرهم من قدمه.

وأنانية القبيلة: وكلنا يعرف ما كان يردده ابن أم كلثوم:

إذا بلغ الرضيع لنا فطاماً،
يخر له الجبابر ساجدينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً
ويشرب غيرنا كدراً وطينا
لنا الدنيا، ومن أمسى عليها
ونبطش حين نبطش قادرينا

وفي عالم اليوم اختفى كيان القبيلة، وحل محله كيان الحزب الطبقي أو القومي، ومن ذا الذي يجهل ما صنعته طبقية ماركس، وفاشستية موسوليني، ونازية هتلر؟ ومن ذا الذي يجهل أيضاً ما جنته الولايات الحزبية على وحدة أمة الإسلام، وسلامة أراضيها، وطهارة مقدساتها طوال نصف قرن، ولا زال الشوط دامياً والمدى مكفهراً؟

وإذا كانت الأنانية هي داء الإنسانية الوبيل فهل اهتدى تاريخ الإنسانية الطويل إلى علاج لذلك الداء؟ إن التاريخ يجيب على هذا التساؤل، مشيراً إلى الدين والقانون كعلاج جربته الأرض، وكان لها معه خبرات ونتائج.

وإن الفارق الأساسي بين الدين والقانون، أن الأول جاء من لدن خبير حكيم أرسل رسله، وأنزل كتبه أخْذاً بيد الإنسان إلى بحبوحة الخير، ومرافىء السلامة، ومشارف النور.

وأن الثاني جاء من وضع حفنة من البشر، أملته أفهامهم المحدودة، وأهواؤهم الملتوية، فجاء مداراة للنزوات وتستراً على النزعات، وتملقاً لها.
وعنوان هذه النقطة يبحث عن توضيح افتقار الأرض إلى الرسالة فكيف؟

لقد بحث الكثيرون عن جواب ذلك، واستمدوا شواهدهم من واقع الأرض قبل البعثة المحمدية، وأجدني ملتمساً ذلك من شواهد العصر؛ لأنها أحفل وأقرب إلى الذهن، فهو يكتوي بنارها، ويعيش في دخانها واختناقاتها، ولا نعيد إلى الذاكرة أهوال الحربين العالميتين اللتين طحنت الملايين وشوهتهم، وإنما نشير إلى أقرب القضايا المعاشة، وفي مقدمتها سباق التسلح الرهيب الذي أرهق الأرض بلاءً وفناءً.

وأتجه الآن شطر الفضاء، مستغلاً الفتوحات العلمية فيه لأجعله مجالاً آخر لهذا السباق الرهيب، متجاوزين ذلك الحد الذي نعاه عليهم المعري:

أزعجتم السابح في لجه
أقلقتم في الجوذات الجناح

إلى مجال أوسع، ومخاطر أفظع.

وإلى جانب سباق التسلح، تلك الأزمة الإقتصادية التي تطحن بكلكلها صدر العالم الثالث؛ نتيجة لفوائد القروض الربوية المرتفعة يوماً فيوماً، مما جعل نصف العالم أو يزيد عَمَلة مسخرين لحفنة من أصحاب رؤوس الأموال الضخمة المتحكمة في اقتصاديات هذه الدنيا، ووراء ذلك طوفان الحركات الإرهابية، والتنظيمات السرية، والدعوات الفلسفية، والأحزاب السياسية، التي لم تدع خضراء ولا يابسة إلا وابتلعتها بشرورها، وأحرقتها بنارها.

بل إننا إذا تجاوزنا ذلك إلى المزية الوحيدة التي يفخر بها عالم اليـوم، وهي مزية الديمقراطية، وتعمقنا حقيقتها في أعرق مواطنها (بريطانيا)، لوجدنا أن هذه الـديمقراطيـة أصبحت عبئاً عـلى الفضيلة، وإرهاقاً لهـا، وليس سلمـاً إليهـا؛ فبسبب حرص الأحزاب على اكتساب أصوات الناخبين، رأينا سلطتهم التشريعية تقنّن للشذوذ الجنسي، وتعترف بوجود ما يسمى بالجنس الثالث.

أمـا في الشرق حيث القمع والسحق، فـبرغم ستين عـامـاً من الإسكـات والكبت ارتفعت أصوات الاحتجاج، وصيحات الاستنكار على لسان الكثـير من علمائهم أمثـال زاخروف الـذي يدعى بـأبي القنبلة الهيدروجينيـة، والـذي يعيش منفياً بسيبريا.

أما عالم العروبة والإسلام، فحـدث ولا حرج؛ فقـد بلغ السيل الـزبى، وجاوز الحزام الطُبيين. ولو فصلنا القـول، لخرجنـا عن نطاق الكتـاب. فقل لي بـربك، وهـذه الأرض تعيش صباح مسـاء مثقلة بهذه الأعبـاء والأرزاء: أليست شـواهد الحـال ولسان المقـال تنطق، بـل تصيـح بمليـون لسـان ولسـان نـاشـدة الخلاص، باحثة عن مخرج صدق؟.

الشمس والتوابع، محمد رسول الله والذين معه

يقول علماء الفلك: إن المجرة القـريبة منـا تتكون من ألف مليـون نجم، وملايين من الكـواكب، وإن شمسنا هـذه واحدة من ألـوف أمثالهـا. وإذا كانت الشمس ضرورة حياتية لكل الأحياء، فإن النبوة والـرسالـة عمومـاً، ومحمداً ﷺ خصوصاً، ضرورة حياتية لكل الناس.

ولسنا هنا نضع كتاباً في السيرة، وإنمـا نتبرك بـالإشارة إلى ومضـات معينة من العظمة المحمدية تنسيقاً وربطاً لما بعد هذا الباب من سائر الكتاب.

وأول ما يلفت النظر، هو تلك البداية المتواضعة الصارفة عادة لأنظار البشر المنافية لموازينهم، البعيدة عن مقاييسهم، فهو اليتيم الفقير الأمي، في الأمة الفقيرة الأمية المستضعفة. فكيف يواجه علماء أهل الكتاب، ووارثي الحضارات الرومانية والفارسية واليونانية، ويتصدى لعظماء الأرض؟ تلك هي البداية المتواضعة، التي شاءتها القدرة الإلهية توجيهاً للبشر إلا أن كل المظاهر الأرضية لا ثقل لها في ميزان الله، ما لم تكن متصلة بالله. ومن جانب آخر، نجد كل أسباب العظمة الحقة تنقاد مكتملة له، قائمة فيه، متحققة به، فيتم له ـ بأمر الله وعونه ـ إلغاء وثنية الجاهلية الأولى، ومثنوية زرادشت الفارسية، وتثليث الصليبية، وعنصرية الصهيونية، ويجتث غطرسة الأكاسرة، وطغيان القياصرة، ويقيم عقيدة التوحيد والتقوى، وشريعة العدل والشورى، ودولة الإنسانية الرشيدة الواحدة.

ونجده ﷺ حامل ميراث النبوة التي بلغ أفرادها مئة وأربعة وعشرين ألف نبي، من لدن آدم إلى عيسى عليهم السلام، وميراث الرسالة التي بلغ أفرادها ثلاث مئة وخمسة عشر رسولاً، من لدن نوح إلى محمد صلوات الله عليهم أجمعين.

كما نشهده محققاً للكمالات البشرية، من الأزل إلى الأبد، فهو سيد ولد آدم، والأسوة الحسنى، والقدوة الفضلى، والمثل الأعلى الذي صنعت على يده، وبرزت بتربيته خير أمة أخرجت للناس.

ونستعرض شيئاً من أحداث حياته بعد البعثة حتى الوفاة، فنشهد القدرة الإلهية، وهي تحقق به قَدَرَ الله في مصير البشرية، منذ مبعثه حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ونشهد أول ما نشهد في مسيرة هذه الدعوة تركيزاً خاصاً، وعناية فائقة بتعميق أصل الأصول في هذا الدين، وهو التوحيد المتضمن لتحرير الرقاب،

والضمائر من كل السلطات، والمعتقدات غير الدّينونة المفردة للإله الحق وحده، جلّ جلاله.

وإلى جانب تحقيق ذلك الأصل الكلي نشهد تعميقاً آخر لركن ركين في هذه العقيدة هو الإيمان باليوم الآخر بما افترضه الله على الجماعة الأولى من قيام الليل كاملاً كما بيّنه مطلع سورة المزمل ولم يأت الترخيص إلا بعد انقضاء العام حيث نزلت آخر آيات السورة مرخصة فيما نزلت به أولى آياتها. وفي الأعوام التالية لأعوام البعثة، وتألب الكبراء على المستضعفين، انصب الاهتمام على تحرير الأرقاء، وإطعام المعدمين، والصبر على الأذى، وإعتزال الكبراء.

وكانت جهود الصديق رضي الله عنه حثيثة مثمرة في إعتاق العشرات من الأرقاء، ذكوراً وإناثاً. ثم يشتد الأذى، ويتراءى الجهاد في العهد المكي الذي ألزم المسلمون فيه بكف أيديهم، واحتساب ما ينزل بهم.

ويتراءى ذلك الجهاد متمثلاً في الهجرة الأولى إلى الحبشة، في السنة الخامسة للنبوة، ويبتدىء المسيرة عشرة رجال، وأربع نسوة في مقدمتهم: عثمان بن عفان وأهله، ويصبحون واجب الجماعة المقيمة في مكة، المثابرة على العبادة، واهتبال فرص المواسم والاحتفالات للدعوة إلى الله. ثم يتعين البحث عن منطلق أمين للدعوة، ومركز مكين للدولة.

وتكون الهجرة، ويأتي عامها الثاني مشتملاً على الكثير من الواجبات المضاعفة لخيرية الجماعة، وقربها من الله، والظفر على أعدائها. وينزل الأمر بتحويل القبلة إلى البلد الأمين، ومقام إبراهيم. ويفرض الصوم، ويؤذن بالقتال وتحدد زكاة الفطر.

وفي العام الرابع ينزل تحريم الخمر، وحكم المواريث.

وفي العام الخامس يفرض الحجاب، وفي العامين السادس والسابع تقوم الهدنة مع قريش، ويتم إنهاء النفوذ اليهودي بافتتاح خيبر. ويبعث الدعاة إلى

ممالك وأرجاء الدنيا ثم يقبل العام التاسع، وفيه ينزل تطهير المسجد الحرام من المشركين، وتحديد العلاقات مع مشركي العرب، ومع أهل الكتاب بالدخول في الإسلام، أو أداء الجزية.

وأخيراً يأتي العام العاشر، وقد انتظمت وحدة الجزيرة، بدخول الناس في دين الله أفواجاً، ويأمر النبي ﷺ بتحريق مسجد الضرار قطعاً لدابر الفرقة، حتى ولو كانت متسترة بواجهة دينية. وتجتمع الصفوف، وترتفع الراية عالية، متجهة شطر الروم، ومحددة مسار المواجهة.

كمال الشريعة واستمراريتها معجزة خالدة

لا أحسب كمال الشريعة الإسلامية، واستمراريتها، بحاجة إلى توكيد بعد دخول قرنها الخامس عشر، ومواجهتها لمطالب العصر المتقلبة، وأوضاعه المتغيرة، وأحواله المستجدة، دون ضيق بها، أو حرج منها، وهناك للإنسان ـ أي إنسان ـ دوائر خمس أعطتها الشريعة أحكامها اللازمة، وتوجيهاتها المناسبة، ففي دائرة ذات الفرد أرشدته إلى ما ينفع، ويزكي دينه وعقله، وجسمه وعرضه وماله، وفي دائرة الأسرة أرشدته لواجباته؛ ابناً وأخاً وزوجاً وأباً وعائلاً.

وفي دائرة المجتمع أبانت له ما يجب له فيه، وما يجب عليه.

وفي دائرة الأمة ونعني بها أمة العقيدة، لا أمة التراب والعرق واللون كشفت له عن واجباته نحوها، بالمحافظة على وحدتها، واستقلالها، وسلامتها.

وفي دائرة العالم؛ علمته أن الأرض كلها لله، والناس عباد الله، واجبهم جميعاً التعاون، لإقامة الحق، وتحقيق السلام. ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ، اتَّقُوا رَبَّكُمُ الذي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَثَّ مِنْهَا رِجَالاً كَثِيراً

وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللهَ الَّذي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ، إنَّ اللهَ كانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ ﴿يا أَيُّها النَّاسُ، ادْخُلُوا في السِّلْم كَافَّةً، وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ، إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾. ووراء هذه الدوائر الخمس مقاصد للدين خمسة: -

١ - الإخلاص: ولا يقبل الله عملاً بغيره ﴿وما أُمِرُوا إلا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، و «إنّما الأعمال بالنيات وإن الله لا ينظر إلى أعمالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم».

٢ - الطهر: وهو نوعان:

طهر فعل: يطهر الله به الروح والعقل والجسم والمال بما افترضه؛ من التوحيد والصلاة، والصوم والزكاة، والحج والجهاد.

وطهر الترك: وهو تنزيه الأذن عن سماع الحرام؛ من غيبة، ونميمة، وزور، وكف العين عن النظر إلى الحرام، وحبس الفم عن أكل الحرام، والقول به، ومنع اليد من تناول الحرام، وصون الرجل عن إتيان الحرام، وتحصين الفرج من كل حرام.

٣ - الوحدة: وربما ظن الكثيرون أن فكرة الالتقاء العالمي إنما ولدت في هذا العصر، بينما هي مبدأ أصيل في دين الإسلام ﴿يا أَيُّهَا النَّاس، إنّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى، وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾؛ ولهذا فهو يحرم الفرقة، ويسفه دعاتها ﴿إِنّ الَّذينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ، وَكَانُوا شِيَعاً، لَسْتَ مِنْهُمْ في شَيْءٍ﴾. ويحث المسلمين على قيام الدولة الواحدة، الجامعة لأمرهم، الموحدة لصفهم.

وأسس الوحدة في هذا الدين هي: وحدة الألوهية ﴿وإِلَهُكُمْ إِلهٌ وَاحِدٌ﴾. ووحدة الرسالة ﴿قُولُوا آمَنّا باللهِ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنا، وَمَا أُنْزِلَ إلى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ، وَمَا أُوتي مُوسَى وَعِيسى، وَمَا أُوتي النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لا نفرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُون﴾. ووحدة الوجهة

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلعَالَمِينَ﴾ ووحدة الجنس «كلكم لآدم، وآدم من تراب».

٤ ـ السماحة واليسر: وهذا مقصد هام من مقاصد الإسلام، ربما عَمِل على حجبه سوء الفهم، وانحراف الأهواء. ولو استقصينا شواهده من الكتاب والسنة، لاستوفت كتاباً.

فالحق جلّ وعلا يقول ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْرَ﴾، ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. ورسول الإسلام صلوات الله عليه، وسلامه يقول: «يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا».

ويقول: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق. ولن يشادّ الدين أحدٌ إلا غلبه، فإن المنبتّ لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى».

ومرّ مع الفاروق ذات يوم بمقراة (حوض ماء) ليشربا منها، فنادى عمر صاحبها: «هل وردت على مائه السباع» قال النبي ﷺ: «يا صاحب المقراة، لا تخبره لها ما في بطونها، وما بقي لنا طهور وشراب».

ورجع من غزاة، فاستقبلته إحدى نساء المسلمين قائلة: «يا رسول الله، إني نذرت إذا أرجعك الله ظافراً أن أضرب على رأسك بالدف». فقال لها ﷺ: «أوفي بنذرك».

والشواهد في هذا كثيرة، فقد كان يحب الرفق في الأمر كله.

٥ ـ تكريم الروح: وفي هذا يقول الحق جلّ وعلا: ﴿وَمَنْ قَتَلَ نَفْساً فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

وبينما كان النبي ﷺ جالساً مروا عليه بميت، فوقف، فقالوا: «إنما هي جنازة يهودي» فقال: «سبحان الله أليست نفساً».

وفي الحديث أن الله غفر لبغي سقت كلباً ظامئاً، فأنقذته من

التلف؛ ولهذا نجده ﷺ يأمر من أراد أن يذبح ذبيحة أن يحد شفرته، ويريح ذبيحته، كما نراه ينهى عن اتخاذ الطيور غرضاً للرمي لمجرد التلهي بقتلها، بل إنه من رفقه ﷺ بالحيوان، ينهى عن تحميله فوق طاقته، وينهى عن الفصل بين الأمهات والبنين عند البيع.

هذا، وإن من روافد تجدد الشريعة، واستمرارية حيويتها، باب الاجتهاد المفتوح إلى يوم القيامة لمسايرة التطور البشري في كل عصر، وكذا ما يبعثه الله على رأس كل قرن من المجددين لأمر هذا الدين، مضافاً إلى ذلك عالمية الإسلام التي تتجاوز العرق واللون، إلى استيعاب كل سكان المعمورة.

وخلال التاريخ الطويل رأينا لهذا الدين عمالقة أفذاذاً أمثال: يوسف بن تاشفين، وعبد المؤمن بن علي، وصلاح الدين، وقطز، والظاهر بيبرس، وأمثالهم. رفع الله درجاتهم، وأجزل لهم الثواب.

ولو لم يكن لمحمد ﷺ إلا معجزة قوله إنه خاتم النبيين والمرسلين، ثم تمضي عشرات القرون وشمس كل يوم وقمره يشهدان بصدق ما قال، فلا نبي بعده، ولا كتاب بعد كتابه لكان في ذلك معجزة خالدة، يهتدي بها المتشككون، ويشرق إيمانهم بصدق نبوته ﷺ.

معجزة الانصهار والانتشار

خلال ثلاثة عشر عاماً قضاها النبي ﷺ في مكة، أمكن له خلالها إنشاء القاعدة الوطيدة لأمة الإسلام.

وخلال عشرة أعوام بعدها، أمكن له إقامة الالتحام الوثيق بين جناحي الإسلام؛ المهاجرين، والأنصار، وإجلاء اليهود، والفتح المبين الذي احتشد فيه ـ ولأول مرة في تاريخ العرب ـ جيش قوامه عشرة آلاف مجاهد.

ولم يمض على لحاق النبي ﷺ بالرفيق الأعلى ثلاثة أعوام، حتى كانت المواجهة الكبرى الفاصلة مع الروم باليرموك بجيش مسلم قوامه أربعون ألف مجاهد. وبعده بفترة، كانت المواجهة الفاصلة مع الفرس بجيش مماثل لذلك العدد، أو يزيد، وانطلق جيش الإسلام، مشرقاً ومغرباً.

ومن أبرز قواده في الشرق: المثنى بن حارثة، وسعد بن أبي وقاص، والنعمان بن مقرن، وأبو موسى الأشعري، والأحنف بن قيس، والمهلب ابن أبي صفرة، وقتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم، في خطٍ زمني طويل.

وكان قادة الجيش الفاتح للشام، ومصر وما والاها غرباً حتى الأندلس: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وشرحبيل بن حسنة، وأبو عبيدة بن الجراح، وعقبة بن نافع، وموسى بن نصير، وطارق بن زياد، وعبد الرحمن الغافقي، في خطٍ زمنيٍ طويل.

ولم يهل عام ٩٣ هـ حتى كان الفتح قد بلغ منتهاه شرقاً وغرباً. وما كان لذلك الفتح أن يتم بتلك السرعة المذهلة، لولا فضل الله، ووعده بنشر هذا الدين، وظهوره على الدين كله، ولولا تلك الأسس المتينة التي أرستها التربية المحمدية في نفوس المؤمنين. وأبرز تلك الأسس: التقوى، والإيثار.

ولن نذكر إيثار السابقين الأولين، وإنما نعيد إلى الذاكرة ما كان من إيثار عكرمة، وعمه الحارث بن هشام، لزملائهم الصرعى يوم اليرموك بالماء، حتى توفوا ـ رضي الله عنهم ـ دون أن يشرب واحد منهم.

ولن نذكر أيضاً تقوى السابقين الأولين وزهدهم، وإنما نعيد إلى الذاكرة أيضاً ذلك المثل الرفيع، الذي ضربه الجيش الفاتح للمدائن، والغانم لكنوز كسرى، وهي أغلى مجوهرات الدنيا وكنوزها، فأرسلوها إلى الفاروق الذي قال: «إن قوماً أدوا هذا لأمناء».

ومع التقوى والإيثار ذلك التواضع، وتلك البساطة التي تربى عليها

المسلمـون، فكانت شعارهم وفخارهم، فلم يـرضوا عنهـا بديـلاً، ولم تستخفهم نشـوة النصر، وخمار الـظفر. مضـافاً إلى مـا سبق تلك الروح العمليـة التي طبع عليها المجتمع الإسلامي الأول بعيداً عن كل جدل أو مماحكة أو مراء.

ولا شك أن الجهاد الذي جمع له المسلمون طاقاتهم الفكرية والجسمية، كان العامل الرئيسي في خلو حياة أولئك القوم من الجدل العقيم الناتج ـ عـادة ـ عن البطالة والفراغ

ولقد استفاد المسلمون من ذلك الجهاد ـ إلى جانب الفتـح، ونشر دين الله ـ فائدتين عظيمتين؛ أولا هما: أن وجود ذلك العـدد الضخم من أبناء الجـزيرة، ومن أبناء البلاد المفتوحة خلال سنوات الجهـاد أتاح للجميـع معرفـة كتاب الله، وأحكام الدين، والتخلق بأخلاقه على أيـدي أولئك التـلاميذ الأفـذاذ للمدرسـة المحمدية من السابقين الأولين

والفائدة الثانية، هي بروز تلك المواهب العـظيمة من القيـادات الكريمـة، التي لم يسبق لها مواجهة، وممارسة لحروب الجيـوش الكبرى التي لا عهـد للعرب بها، فأضاءت أسماء لامعة في سماء التاريخ العسكري ممن ذكرناهم آنفاً.

وعـلى رأس تلك الأسس كلها عـظمة العـدل، وبركـة الشورى التي حث عليها الكتاب، وطبقتها السيرة المحمدية في أكثر من واقعة في حياة المسلمين.

ولا أحسبني بحـاجة إلى سـوق أمثلة عن مكانـة الشورى في حيـاة القوم، وتمسكهم بها، وتطبيقهم لها، كما لا أحسبني بحاجة إلى ذكـر أمثلة عن العدل في حياتهم؛ فذلك أشهر من أن يذكر، وإنما أذكر هنـا واقعتين جـديرتـين بالاعتبـار والاقتداء:

أولا هما: ما روى من أمر عمر بن عبد العزيز لعامله بسمرقند سليـمان بن أبي السري، من عقد مجلس القاضي جميع بن حاضر لسماع ظلامة أهل سمرقند من قتيبـة بن مسلم أيام استيـلائه عـلى مدينتهم، والخـروج منها، وتخيـيرهم بعد

الخروج من المدينة بما يرتضونه لأنفسهم من المصالحة، مع جيش الإسلام أو الفتح عنوة.

أما الحادثة الثانية فهي النص الطويل لما صنعه عمر، وما اعتزمه من تحقيق الأمن الغذائي، والعدل الاجتماعي لكل أبناء الإسلام حتى الأطفال منهم، نقتطفه من (الكامل) لابن الأثير ليعرف من لا يعرف حكم الإسلام الحق في المال، واهتمامه بسد عوز كل فرد في دولة الإسلام قال ص ٣٥٠: «في سنة خمس عشرة فرض عمر للمسلمين الفروض، ودون الدواوين، وأعطى العطايا على السابقة، وأعطى صفوان بن أمية والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو في أهل الفتح، أقل ما أخذ من قبلهم فامتنعوا من أخذه، وقالوا: «لا نعترف أن يكون أحد أكرم منا» فقال: «إنني إنما أعطيتكم على السابقة في الإسلام، لا على الأحساب» قالوا: «فنعم إذاً»وأخذوا.

وخرج الحارث وسهيل بن عمرو بأهليهما نحو الشام. فلم يزالا مجاهدين حتى أصيبا في بعض تلك الدروب، وقيل ماتا في طاعون عمواس. ولما أراد عمر وضع الديوان قال له علي وعبدالرحمن بن عوف: «ابدأ بنفسك» قال: «لا، بل أبدأ بعم رسول الله ﷺ ثم الأقرب فالأقرب»، ففرض للعباس وبدأ به، ثم فرض لأهل بدر خمسة آلاف[1]، ثم فرض لمن بعد بدر إلى الحديبية أربعة آلاف، ثم فرض لمن بعد الحديبية، إلى أن أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف في ذلك: من شهد الفتح، وقاتل مع أبي بكر، ومن ولي الأيام قبل القادسية كل هؤلاء ثلاثة آلاف. ثم فرض لأهل القادسية وأهل الشام ألفين، وفرض لأهل البلاء النازع منهم ألفين وخمس مئة، فقيل له: «لو ألحقت أهل القادسية بأهل الأيام» فقال: «لم أكن لألحقهم بدرجة من لم يدركوا» وقيل له: «قد سويت من

---

(١) في الأصل لابن كثير تكرار رقم العطاء في سائر النصوص مما يدلّ أن ذلك هو قدر العطاء للواحد لا للجماعة.

بعدت داره بمن قربت داره، وقاتلهم عن فنائه»، فقال: «من قربت داره أحق بالزيادة لأنهم كانوا ردءاً للحتوف، وشجاً للعدو. فهلا قال المهاجرون مثل قولكم حين سوينا بين السابقين منهم والأنصار فقد كانت نصرة الأنصار بفنائهم، وهاجر إليهم المهاجرون من بعد».

وفرض لمن بعد القادسية واليرموك ألفاً ألفاً، ثم فرض لروادف المثنى خمس مئة خمس مئة، ثم لروادف الليث بعدهم ثلاث مئة ثلاث مئة سوى كل طبقة في العطاء، قويهم وضعيفهم، عربهم وعجمهم. وفرض لروادف الربيع مئتين وخمسين وفرض[1] لمن بعدهم وهم أهل هجرو العباد على مئتين، وألحق بأهل بدر أربعة من غير أهلي الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان.

وكان فرض للعباس خمسة وعشرين ألفاً، وقيل اثني عشر ألفاً وأعطى نساء النبي ﷺ عشرة آلاف إلا من جرى عليها الملك، فقال نسوة رسول ﷺ: «ما كان رسول الله ﷺ يفضلنا عليهن في القسمة فسو بيننا» ففعل، وفضل عائشة بألفين لمحبة رسول الله ﷺ إياها فلم تأخذ، وجعل نساء أهل بدر في خمس مئة، ونساء من بعد ذلك إلى الأيام ثلاث مئة، ونساء أهل القادسية مئتين، ثم سوى بين النساء بعد ذلك، وجعل الصبيان سواء على مئة، ثم جمع ستين مسكيناً وأطعمهم الخبز فأحصوا ما أكلوا، فوجدوه يخرج من جريبتين، ففرض لكلِّ إنسان منهم ولعياله جريبتين في الشهر.

وقال عمر قبل موته: «لقد هممت أن أجعل العطاء أربعة آلاف: ألفاً يجعلها الرجلُ في أهله، وألفاً يزودها معه، وألفاً يتجهز بها، وألفاً يترفق بها»، فمات قبل أن يفعل وقال له قائل عند فرض العطاء: «يا أمير المؤمنين لو تركت في بيوت الأموال عدة لكون إن كان». فقال: كلمة ألقاها الشيطان على فيك، وقاني الله شرها، وهي فتنة لمن بعدي، بل أعدَّ لهم ما أعدَّ الله ورسوله. طاعة

(١) سقط هنا ما يلي (روادف الربيع على مئتين وخمسين وفرض).

الله ورسوله همـا عدّتنـا التي بها أفضنـا إلى ما تـرون، فإذا كـان المـال ثمن دين أحدكم ملكتم». أ. هـ.

وتحقيق هذا الرخاء معجزة نبوية، لما قاله ﷺ لعدي بن حاتم: «ليفيضن هذا المال حتى لا يوجد من يأخذه، وليبلغنّ هذا الأمر مبلغ الليل والنهار».

جيل الموالي معجزة ثالثة

اتخذ الكثيرون من المستشرقين موضوع الرق مطعناً، لا يفتؤون يـوسعونـه بـأقلامهم في هجـاءاتهم، التي لا تنتهي على الإسـلام. وفي مقدمتهم كليمـروفان فلوتن صاحب كتاب (السيادة العربية). وإذا نظرنا حال الـرق في الأمم الغابـرة والديانات السابقة والفلسفات القـديمة، أدْهَشْنـا أولئك الحـاقدين عـلى موضـوع الـرق قبل الإسـلام، وعرفنـا معنى تركيـزهم ضد هـذا الدين في مـوضوع كـان الإسلام وحده هو المعالج الحقيقي له، والمجاهد على إعادة الإنسانية إلى المستضعفين المعذبين في الأرض.

ومن تلخيص قيّم للأستاذ عباس العقاد في كتابه (حقائق الإسلام وأباطيل خصـومـه) ص ٢٨٥، (شرع الإسلام العتق، ولم يشرع الـرق؛ إذ كـان الـرق مشروعاً قبل الإسلام في القوانين الوضعية والدينية بجميع أنواعه، رق الأسر، في الحـروب، ورق السبي. في غارات القبـائـل بعضهـا عـلى بعض، «ورق البيـع والشراء»، ومنه رق الاستدانة أو الوفاء بالديون وكانت اليهودية تبيحه، ونشـأت المسيحية ـ وهو مباح ـ فلم تحرمه، ولم تنظر إلى تحريمه في المستقبـل، وأمر بـولس الرسول العبيد بإطاعة سادتهم كما يـطيعون السيـد المسيح، فقـال في رسالتـه إلى أهـل أفسس: «أيها العبيـد، أطيعوا سـادتكم حسب الجسد بخـوف ورعدة، في بساطة قلوبكم كما للمسيح، ولا بخـدمة العـين كمن يرضى النـاس، بل كعبيـد المسيح عاملين مشيئة الله من القلب، خادمين بنية صالحة كـما للرب ليس للناس عالمين أن مهما عمل واحد من الخير، فذلك يناله من الـرب، عبداً كـان أم حراً».

وأوصى الرسول بطرس بمثل هذه الوصية، وأوجبها آباء الكنيسة بأنّ الرق كفّارة من ذنوب البشر، يؤديها العبيد لما استحقوه من غضب السيد الأعظم.

وأضاف القديس الفيلسوف توما الاكويني رأي الفلسفة إلى رأي الرؤساء الدينيين، فلم يعترض على الرق بل زكّاه، لأنه على رأي أستاذه أرسطو حالة من الحالات التي خلق عليها بعض الناس بالفطرة الطبيعية، وليس مما يناقض الإيمان أن يقنع الإنسان من الدنيا بأهون نصيب.

ومذهب أرسطو في الرق أن فريقاً من الناس مخلوقون للعبودية، لأنهم يعملون عمل الآلات التي يتصرف فيها الأحرار ذوو الفكر والمشيئة، فهم آلات حية تلحق في عملها بالآلات الجامدة، ويحمد من السادة الذين يستخدمون تلك الآلات الحية أن يتوسموا فيها القدرة على الاستقلال والتمييز، فيشجعوها ويرتقوا بها من منزلة الأداة المسخرة إلى منزلة الكائن، العاقل، الرشيد.

وأستاذ أرسطو (أفلاطون) يقضي في جمهوريته الفاضلة بحرمان العبيد حق (المواطنة)، وإجبارهم على الطاعة، والخضوع للأحرار من ساداتهم، أو من السادة الغرباء. ومن تطاول منهم على سيد غريب، أسلمته الدولة إليه ليقتص منه كما يريد.

وقد شرعت الحضارة اليونانية نظام الرق العام، كما شرعت نظام الرق الخاص، أو تسخير العبيد في خدمة البيوت والأفراد، فكان للهياكل في آسيا الصغرى أرقاؤها الموقوفون عليها. وكانت عليهم واجبات الخدمة والحراسة، ولم يكن من حقهم ولاية أعمال الكهانة والعبادة العامة.

وانقضى على العالم عصور بعد عصور، وهذا النظام شائع في أرجائه بين الأمم المعروفة في القارات الثلاث، ينتشر بين أمم الحضارة، وقبائل البادية التي تكثر فيها غارات السلب والمرعى، ويقل انتشاره بين الأمم الزراعية عند أودية الأنهار الكبرى؛ كوادي النيل، وأودية الأنهار الهندية

إلا أن الأمم في الأودية الهندية كانت تـأخذ بنـظام (الطبقـة المسخرة)، أو (الـطبقـة المنبـوذة) وهي في حكم الـرقيق العـام من وجهـة النـظر إلى المكـانـة الاجتماعية، والحقوق الانسانية.

وعـلى هذه الحـالة كـان العالم كله يـوم مبعث الدعـوة الإسلاميـة من قبل الصحراء ليس فيه من يستغرب هذه الحالة، أو من يشعر بحاجة إلى تعديـل فيها حيث يكثر الأرقاء، أو حيث يقلون، ففي البلاد التي كثر فيها عدد الأرقاء كانت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية فيها مرتبطة بأعمال الرقيق في البيوت، والمزارع، والمـرافق العامـة، فلم يكن تغيير هـذه الأوضاع مما يخـطر عـلى البـال، ولم يكن تغييرها مستطاعاً بين يوم وليلة، لو أنه خطر على بال أحد

وفي البلاد التي قل فيها عدد الأرقاء لم تكن هناك مسـألة حـازبة أو معجلة تسمى (مسألة الرقيق)، وتستدعي من ذوي الشأن اهتماماً بالتغيير والتعديل.

وكان عدد الأرقاء قليلاً في البادية العـربية بـالقياس إلى أمم الحضـارة؛ إذ كان عددهم بـين المسلمين الأوائـل لا يزيـد على عـدد الأصابـع في اليدين، فلم يكن بدعاً من الدين الجديد أن يترك الحالة في الصحراء العربية، وفي العالم عـلى ما كانت عليه حالـة لا يستغربهـا أحد، ولا يفكـر أحد في تغيـيرها أو تعـديلها، ولكنه لم يتركها، ولم يغفلها، ولم يؤجلهـا بين الإغضـاء والاستحسان لهـوانها وقلة جدواها، بل جرى فيها على دأبه في علاج المساوىء الاجتماعية والأخلاقية، يصلح منها ما هو قابل للإصلاح في حسنه، ويمهد للتقدم إلى المزيد من الإصلاح مع الزمن كلما تهيأت دواعيه.

تلك هي الوصايـا المجملة للديانـات والفلسفات السـابقة، فكيف الحـال لدى الإسلام؟ فنقـول: نزل القـرآن ينبه أتبـاعه إلى أن السيـد والعبد من نفس واحدة ﴿والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض﴾، وأن ميـزان الله لجميع البشر، لا يهتم بعرق أو محتد أولـون، وإنما ﴿أكـرمكم عند الله أتقـاكم﴾. وفي أكثر من

موقف حرص النبي ﷺ على تعميق تلك الحقيقة في نفوس المسلمين «لا فضل لعربي على أعجمي، وكلكم لآدم وآدم من تراب».

ومن ذا الذي ينسى قولته الخالدة لأبي ذرّ، حين نهر بلالاً ونبزه بأنه ابن السوداء، فجاء الجواب النبوي «طف الصاع إنك إمرؤ فيك جاهلية»؟!.

تلك هي بعض التقريرات القرآنية والنبوية، فهل من شيء عن المواقف العملية؟ أجل، فقد جاء الإسلام لإنهاء عبودية البشر للبشر، وكانت أولى التضحيات التي بذلت في طريق الجهاد الإسلامي هي تضحيات المستضعفين.

فقد كان أول شهيدين في تاريخ الإسلام هما: ياسر وزوجه سمية. وأول شهيد سقط في بدر هو مهجع مولى عمر. وأول قائد لأول مواجهة إسلامية ضد الروم هو زيد بن حارثة. وأول جيش سار في خلافة أبي بكر هو بقيادة أسامة. فلما استشهد الفاروق، عهد بأن يؤم المسلمين في الصلاة (صهيب)، وفيهم الستة أصحاب الشورى.

وكان يقول في لحظاته الأخيرة: «وددت لو أن سالماً، مولى حذيفة حياً، لعهدت إليه». وحين أمر عمر بمحاسبة القائد المظفر خالد بن الوليد ومحاكمته، كان بلال هو الذي أقدم على نزع عمامته عن رأسه ومناقشته.

ذلك غيض من فيض حال الموالي في العهدين النبوي والراشدي، أما حالهم في العهد التابعي، فيكفيك أن تذكر أسماءً: كعكرمة مولى ابن عباس، ونافع مولى ابن عمر، والحسن البصري، ومحمد بن سيرين، وسعيد بن جبير، ومجاهد بن جبر، وأبي العالية، لترى كيف ملؤوا سماء العلم رواية وإفتاءً، وسماء العبادة تهجداً وزهداً.

ووراء أولئك جيل آخر من أعلام الإسلام الذين سارت الأمة من بعدهم على اجتهادهم حتى اليوم أمثال: أبي حنيفة النعمان والليث بن سعد وعبد الله ابن المبارك، وأسد بن الفرات فاتح صقلية، ومكحول علامة الشام، ومحمد بن

إسماعيل البخاري أمير المؤمنين في الحديث، وإسحاق بن راهويه، رضي الله عنهم.

ونختتم الحديث الموجز عن الموالي بذكر بعض أولوياتهم، التي سجلها لهم مؤرخ الإسلام الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ: يزيد بن أبي حبيب مولى الأزد أول من أدخل علم الحلال والحرام إلى مصر، وكان عبد الملك بن جريج وسعيد بن أبي عروبة أول من صنفا الكتب، وكان يحيى بن عبد الحميد أول من صنف المسند بالكوفة، ومسدد أول من صنف المسند بالبصرة.

وما أكثر مساهمات الموالي في صرح الإسلام، علماً وعملاً.

وفي ذلك كله مصداق قوله ﷺ: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواماً، ويضع به آخرين».

وتلك معجزة محمدية، تشهد إلى يوم الدين بأنه الصادق المصدوق ﷺ.

أطباء بلا مصحات

كان القرن الأول الهجري قرن الجهاد والفتح. وكان القرن الثاني قرن الانتقال، من الدولة الأموية بطابعها العربي إلى الدولة العباسية بطابعها الفارسي.

واستبحر العمران، وانتشرت المدنية، وبدأ عهد تدوين العلوم الإسلامية، وبعده بقليل مباشرة ترجمة الثقافات الأجنبية. وفاض المجتمع البغدادي بكل أخلاط العالم حينذاك، وعج بكل ما فيه من مساوىء وحسنات.

وإذا كانت قد ولدت في العهد الأموي أفكار القدرية والجهمية والاعتزال والرفض والإرجاء والخوارج، فقد شبت هذه كلها في العهد العباسي. وأضيفت إليها ظلمات أخرى، كالقرمطية والراوندية والشعوبية، وكثر الناعقون هنا وهناك بشتىٰ الأصوات والدعوات.

ولو كان هذا الدين ـ كما يقول الضالون المضلون ـ أحبو له ارستقراطية لاصطياد القطيع وتسخير الدهماء، لدفن في مخادع الشهوات الملوكية، وأسمار الملذات الأميرية، ولكنه كان رحمة الله لإنقاذ البشرية من كل الويلات.

فرأينا البيوت المتوارية والقرى النائية، تحتضن مصابيح الهدى، وشموع التقوى التي جعلت ـ بفضل الله ورحمته ـ محاريب الصلاة ومنابر الوعظ مصحات علاج، ومراكز تعليم وتوجيه، ودعوة واحتجاج. فانحنى مذعوراً منها، متزلفاً إليها.

واستمرت تلك المصابيح والشموع على تطاول القرون، وتعاقب الأجيال، ينبوع الخير، والوقاية الأمينة المحصِّنة لروح الأمة وعقلها.

ولك أن تنظر في كتب مثل (صفة الصفوة) لأبي الفرج بن الجوزي، والبداية والنهاية لابن كثير، ووفيات الأعيان لابن خلكان، وتذكرة الحفاظ للذهبي، لترى عشرات بل مئات المصلحين والمصلحات من صفوف الأمة، الذين هم بحق ورثة الأنبياء وحراس وحي السماء

وحسبنا أن نشير إلى ما ذكره الإمام محيي الدين النووي ـ رحمه الله، ورضي عنه ـ في ترجمة الإمام أحمد بن حنبل من أنه أسلم يوم وفاته عشرون ألفاً من اليهود والنصارى وما ذكره الحافظ الذهبي عن أبي الفرج بن الجوزي ـ رحمه الله، ورضي عنه ـ من أنه أسلم على يده مئة ألف وتاب على يده مئة ألف آخرون، لنرى عظمة الدور الذي يقوم به العالم العامل في خدمة دينه ومجتمعه وأمته.

وسنذكر هنا نفراً من العباد والزهاد في بعض أقطار الإسلام، وكيف كان يهدي بهم الله أقواماً، ويؤدب بهم جبابرة.

قال ابن كثير في البداية والنهاية ص ٨٩ في سياق ترجمته للمعتضد العباسي:

«وروى ابن عساكر عن أبي الحسين النوري أنه اجتاز بزورق فيه خمر مع ملاح، فقال: «ما هذا؟ ولمن هذا؟» فقال له: «هذه خمر المعتضد». فصعد أبو الحسين إليها، فجعل يضرب الدنان بعمود في يده حتى كسرها كلها إلا دناً واحداً تركه، واستغاث الملاح، فجاءت الشرطة، فأخذوا أبا الحسين فأوقفوه بين يدي المعتضد، فقال له: «من أنت؟» فقال: «أنا المحتسب» فقال: «ومن ولاك الحسبة؟»، فقال: «الذي ولآك الخلافة يا أمير المؤمنين» فأطرق رأسه ثم رفعه، فقال: «ما الذي حملك على ما فعلت؟». فقال: «شفقة عليك لدفع الضرر عنك». فأطرق رأسه ثم رفعه، فقال: «ولا شيء تركت منها إلا دناً واحداً لم تكسر؟» فقال: «لأنني إنما أقدمت عليها فكسرتها إجلالاً لله تعالى، فلم أبال أحداً، حتى إذا انتهيت إلى هذا الدن دخل نفسي إعجاب من قبيل أني قد أقدمت على مثلك فتركته» فقال له المعتضد: «اذهب فقد أطلقت يدك، فغيِّر ما أحببت أن تغيره من المنكر». فقال له النوري: «الآن انتقض عزمي عن التغيير» فقال: «ولم؟» فقال: «لأني كنت أغير عن الله، وأنا الآن أغير عن الشرطي» فقال: «سل حاجتك؟» فقال: «أحب أن تخرجني من بين يديك سالماً». فأمر به فأخرج، فصار إلى البصرة، فأقام بها مختفياً خشية أن يشق عليه أحد في حاجة عند المعتضد فلما توفي المعتضد رجع إلى بغداد».

وذكر القاضي أبو الحسن محمد بن عبد الواحد الهاشمي عن شيخ من التجار قال: «كان لي على بعض الأمراء مال كثير فماطلني ومنعني حقي، وجعل كلما جئت أطالبه حجبني عنه، ويأمر بغلمانه يؤذونني، فاشتكيت عليه إلى الوزير، فلم يفد ذلك شيئاً. وإلى أولياء الأمر من الدولة، فلم يقطعوا منه شيئاً وما زاده ذلك إلا منعا وجحوداً. فأيست من المال الذي عليه، ودخلني هم من جهته، فبينما أنا كذلك وأنا حائر إلى من أشتكي، إذ قال لي رجل: «ألا تأتي فلاناً الخياط إمام مسجد هناك». فقلت: «وما عسى أن يصنع خياط مع هذا الظالم، وأعيان الدولة لم يقطعوا فيه؛ فقال لي: «هو أقطع وأخوف عنده من جميع

من اشتكيت إليه. فاذهب إليه، لعلك أن تجد عنده فرجاً» قال: «فقصدته غير محتفل في أمره، فذكرت له حاجتي، وما لقيت من هذا الظالم فقام معي، فحين عاينه الأمير، قام إليه وأكرمه واحترمه، وبادر إلى قضاء حقي الذي عليه، فأعطانيه كاملاً من غير أن يكون منه إلى الأمير كبير أمر، غير أنه قال له: «ادفع إلى هذا الرجل حقه، وإلا أذنت...»، فتغير لون الأمير ودفع إلي حقي.

قال التاجر: فعجبت من ذلك الخياط، مع رثاثة حاله، وضعف بنيته، كيف انطاع ذلك الأمير له.

ثم إني عرضت عليه شيئاً من المال، فلم يقبل مني شيئاً، وقال: «لو أردت هذا، لكان لي من الأموال ما لا يحصى». فسألته عن خبره، وذكرت له تعجبي منه، وألححت عليه، فقال: «إن سبب ذلك، أنه كان عندنا في جوارنا أمير تركي من أعالي الدولة، وهو شاب حسن، فمرت به ذات يوم امرأة حسناء قد خرجت من الحمام، وعليها ثياب مرتفعة ذات قيمة، فقام إليها، وهو سكران، فتعلق بها يريدها على نفسها ليدخلها منزله، وهي تأبى عليه، وتصيح بأعلى صوتها: «يا مسلمين أنا امرأة ذات زوج، وهذا رجل يريدني على نفسي، ويدخلني منزله. وقد حلف زوجي بالطلاق ألّا أبيت في غير منزله، ومتى بت ها هنا طلقت منه، ولحقني بسبب ذلك عار لا تدحضه الأيام، ولا تغسله المدامع».

قال الخياط: «فقمت إليه، فأنكرت عليه، وأردت خلاص المرأة من يديه، فضربني بدبوس في يده، فشج رأسي. وغلب المرأة على نفسها، وأدخلها منزله قهراً، فرجعت أنا فغسلت الدم عني، وعصبت رأسي، وصليت بالناس العشاء، ثم قلت للجماعة: إن هذا قد فعل ما قد علمتم، فقوموا معي إليه لننكر عليه ونخلّص المرأة منه، فقام الناس معي فهجمنا عليه في داره، فثار إلينا في جماعة من غلمانه، بأيديهم العصي والدبابيس يضربون الناس.

وقصدني من بينهم فضربني ضرباً شديداً مبرحاً حتى أدماني، وأخرجنا من منزله ونحن في غاية الإهانة، فرجعت إلى منزلي، وأنا لا أهتدي إلى الطريق من شدة الوجع وكثرة الدماء، فنمت على فراشي، فلم يأخذني نوم، وتحيرت ماذا أصنع حتى أنقذ المرأة من يده في الليل لترجع فتبيت في منزلها، حتى لا يقع على زوجها الطلاق؟ فألهمت أن أؤذن الصبح في أثناء الليل لكي يظن أن الصبح قد طلع، فيخرجها من منزله فتذهب إلى منزل زوجها، فصعدت المنارة، وجعلت أنظر إلى باب داره وأنا أتكلم على عادتي قبل الأذان هل أرى المرأة قد خرجت. ثم أذنت فلم تخرج، ثم صممت على أنه إن لم تخرج أقمت الصلاة حتى يتحقق الصباح، فبينا أنا أنظر هل تخرج أم لا؟ إذ امتلأت الطريق فرساناً ورجالة وهم يقولون: «أين الذي أذن هذه الساعة؟»، فقلت: «ها أنا ذا وأنا أريد أن يعينوني عليه». فقالوا انزل، فنزلت، فقالوا: «أجب أمير المؤمنين». وأخذوني وذهبوا بي لا أملك من نفسي شيئاً، حتى أدخلوني عليه، فلما رأيته جالساً في مقام الخلافة، ارتعدت من الخوف، وفزعت فزعاً شديداً. فقال: ادْنُ. فدنوت، فقال لي: «ليسكن روعك، وليهدأ قلبك». وما زال يلاطفني، حتى اطمأننت، وذهب خوفي. فقال: «أنت الذي أذنت هذه الساعة... وقد بقي من الليل أكثر مما مضى منه، فتغر بذلك الصائم والمسافر والمصلي، وغيرهم». فقلت: «يؤمنني أمير المؤمنين حتى أقص عليه خبري؟». فقال: «أنت آمن». فذكرت له القصة، قال: «فغضب غضباً شديداً، وأمر بإحضار ذلك الأمير والمرأة من ساعته، على أي حال كانا. فأُحضرا سريعاً، فبعث بالمرأة إلى زوجها مع نسوة من جهته ثقات، ومعهن ثقة من جهته أيضاً. وأمره أن يأمر زوجها بالعفو والصفح عنها والإحسان إليها، فإنها مكروهة ومعذورة ثم أقبل على ذلك الشاب الأمير، فقال له: «كم لك من الرزق، وكم عندك من المال، وكم عندك من الجواري والزوجات؟». فذكر له شيئاً كثيراً، فقال له: «ويحك، أما كفاك ما أنعم الله به عليك، حتى انتهكت حرمة الله، وتعديت حدوده، وتجرأت

على السلطان. وما كفاك ذلك أيضاً، حتى عمدت إلى رجل أمرك بالمعروف ونهاك عن المنكر، فضربته وأهنته وأدميته. فلم يكن له جواب. فأمر به، فجعل في رجله قيد، وفي عنقه غل. ثم أمر به، فأدخل في جوالق. ثم أمر به، فضرب بالدبابيس ضرباً شديداً حتى خفت. ثم أمر فألقي في دجلة، فكان ذلك آخر العهد به. ثم أمر بدراً صاحب الشرطة أن يحتاط على ما في داره من الجواهر والأموال التي كان يتناولها من بيت المال. وقال لذلك الرجل الصالح الخياط: «كلما رأيت منكراً صغيراً كان، أو كبيراً، ولو على هذا ـ وأشار إلى صاحب الشرطة ـ فأعلمني، فإن اتفق اجتماعك بي وإلا فعلى ما بيني وبينك الأذان فأذن في أي وقت كان، أو في مثل وقتك هذا». قال: «فلهذا لا آمر أحداً من هؤلاء في الدولة بشيء إلا امتثلوه، ولا أنهاهم عن شيء إلا تركوه خوفاً من المعتضد. وما احتجت أن أؤذن في مثل تلك الساعة إلى الآن».

بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد

أبو الحسن الزاهد ويعرف بالحمال، وكانت له كرامات كثيرة، وله منزلة كبيرة عند الناس، وكان لا يقبل من السلطان شيئاً وقد أنكر يوماً على ابن طولون شيئاً من المنكرات، وأمره بالمعروف. فأمر به فألقى به بين يدي الأسد، فكان الأسد يشمه ويحجم عنه فأمر برفعه من بين يديه، وعظمه الناس جداً، وسأله بعض الناس عن حاله حين كان بين يدي الأسد، فقال له: لم يكن على بأس. قد كنت أفكر في سؤر السباع، واختلاف العلماء فيه «هل هو طاهر أم نجس؟».

قالوا: وجاء رجل فقال له: إن لي على رجل مئة دينار، وقد ذهبت الوثيقة، وأنا أخشى أن ينكر الرجل فأسألك أن تدعو لي بأن يرد الله علي الوثيقة. فقال بنان: «إني رجل قد كبرت سني، ورق عظمي، وأنا أحب الحلوى، فاذهب فاشتر لي منها رطلاً وأتني به، حتى أدعو لك» فذهب الرجل

فاشترى الرطل، ثم جاء به إليه. ففتح الورقة التي فيها الحلوى، فإذا هي حجته بالمئة دينار. فقال له: «أهذه حجتك؟». فقال: «نعم»، قال: «خذ حجتك، وخذ الحلوى وأطعمها صبيانك».

ولم تكن الأندلس خالية من الربّانيين والزهّاد، فما أكثر أعلامها، وما أشهر مواقفهم.

ومنهم يحيى بن يحيى الليثي، صاحب الفتوى المشهورة لملك الأندلس، الذي أتى زوجته في نهار رمضان.

ومنهم أحمد بن عبد البّر صاحب (الاستيعاب)، وعلي بن أحمد بن حزم صاحب (المحلى)، والمنذر بن سعيد البلوطي الذي لم يهب عبد الرحمن الناصر، بل وبخه على رؤوس الأشهاد فيما أنفقه على عمارة الزهراء، حتى أبكاه والناس ينظرون.

ومن مناقب هذا العالم الرباني، أنه حين طلب منه الاستسقاء لجدب الأندلس وقف خطيباً.

وكان أول ما تكلم به بعد السلام تلاوة قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُم سُوءاً بِجَهَالَةٍ، ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ، فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وجعل يرددها، حتى بكى، وأبكى المصلين. وهطلت الدموع التائبة، وأقبلت القلوب المنيبة إلى بارئها، فنزل الغيث، وسال الماء، وعادوا يخوضون فيه.

قاموس الأمة معجزة رابعة

بعث النبي الخاتم ﷺ أمياً في أمة أمية، لا يعرف الكتابة والقراءة فيها غير أفراد قليلين معدودين بأصابع اليدين.

وبقي قرآنها وحديثها، وفقهها ولغتها وتاريخها محفوظاً في الصدور، متداولاً بالشفاه إلا استثناءات نادرة.

ومن منتصف القرن الثاني وحتى أواخر القرن الثالث كان [illegible]
بمختلف أنواعها. واكتمل للأمة دائرة معارفها، وقاموس علومها، [illegible]
الكريم وعلومه، من قراءات، وتفسير، وناسخ ومنسوخ. [illegible]
وابتكار مصطلحه الذي هو من خصوصيات هذه الأمة، وعلم نقد [illegible]
جرح أو تعديل، وتدوين أصول الفقه وفروعه المتميزة بين [illegible]
عرفها الإنسان في تاريخه الطويل، وتدوين السيرة. وعلم [illegible]
بعلومها الخمسة، من نحو وصرف، وبيان ومعان وبديع، إلى [illegible]
العلوم الإنسانية والكونية التي كان لعلماء الإسلام فيها ابتكار [illegible]

ولقد كان علم الحديث أكثر العلوم حفزاً للهمم، [illegible]
وكان رجاله الغرة في الأمة والإكليل في الرأس. وإليك هذا [illegible]
واحد منهم:

«إبراهيم بن عبد الله بن مسلم الكجي: أحد المشايخ [illegible]
يحضر مجلسه خمسون ألفاً ممن معهم محبرة سوى النظارة [illegible]
مستملين، كل يبلغ صاحبه ويكتب بعض الناس [illegible]
بعشرة آلاف حديث، تصدق بصدقة.

ولما فرغ من قراءة السنن عليه عمل مأدبة، [illegible]
«شهدت اليوم على رسول الله ﷺ، فقبلت شهادتي [illegible]
لله عز وجل؟»

وكان اقتصار الرجل على علم واحد منقصة لا [illegible]
يقول ابن خلكان ج ٢ ص ٤٣٢: «حدثنا أبو حاتم [illegible]
أهل الكوفة، ولم أر في عمال السلطان أبرع [illegible]
لي: «يا سجستاني، من علماؤكم بالبصرة؟» قلت: [illegible]
الأصمعي، والمازني أعلمنا بالنحو، وهلال الرأي أفقهنا، [illegible]

بـالحديث، وأنـا ـ رحمك الله ـ أنسب إلى علم القـرآن، وابن الكلبي من أكتبنـا للشروط».

قال: فقال لكاتبـه: «إذا كـان غداً فـاجمعهم إلي» قال: فجمعنـا، فقال: «أيكم المازني؟» فقال أبو عثمان: «ها أناذا» قـال: «هل يجـزي في كفارة الـطهارة عتق عبد أعور؟»، قال المازني: «لست صاحب فقه، أنا صاحب عربية». قال: «يا زيادي، كيف يكتب بين بعل وامرأة خالعها على الثلث من صداقها؟» قال: «ليس هذا من علمي، هذا من علم هلال الرأي». قال: «يا هـلال، كم أسند ابـن عـون عن الحسن؟»، قـال: «لـيس هــذا من عـلمي، هــذا مـن علم الشاذكوني». قـال: «يا شـاذكوني، من قـرأ ﴿ألا إنهم يثنون صـدورهم﴾ قال: «ليس هـذا من علمي، هذا من علم أبي حـاتم». قـال: «يـا أبـا حـاتم، كيف تكتب كتاباً إلى أمير المؤمنين تصف خصاصة أهل البصرة، وما أصابهم بي وتسأله النـظر بالبصرة؟». قلت: «لست صـاحب براعـة وكتابـة، أنا صـاحب قرآن». قال: «ما أقبـح بالـرجل ينعـاطى العلم خمسين سنـة، لا يعرف إلا فنـاً واحداً، حتى إذا سئل عن غيره لم يحـل فيه، ولم يمر! لكن عالمنا بالكوفة الكسائي لو سئل عن هذا كله لأجاب» ا. هـ.

ومن هنا كان ظهور علماء موسوعيين على امتداد القـرن الرابـع وإلى القرن التاسع، وكانت تلك الفترة هي مرحلة التدوين المـوسوعي في شتى العلوم. ولـو أردنا ذكر الموسوعيـين من علماء الأمة في ذلـك العصر لخرجنـا عن المقصود، وفي كتب التراجم الغناء لمن أراد.

ونختتم هذه الإتمامـة العجلة بالتنبيـه على مسلمـة قائمـة حتى اليوم لـدى الكثيرين، وهي أن اكتشاف كروية الأرض لم يكن إلا بعـد مجيء العالم البـولوني كوبر نيكوس في القرن السادس عشر، بينما الحقيقة أن علماء الإسلام اهتدوا إلى ذلك أوائل القرن الثالث الهجري، وأشبعوا القضيـة تحقيقاً وتـطبيعاً. وإليـك ما يقوله ابن خلكان في ذلك:

قال في ترجمته لبني موسى، وما كان من أمرهم مع المأمون في ذلك: ومما اختصوا به في ملة الإسلام، وأخرجوه من القوة إلى الفعل، وإن كان أرباب الأرصاد المتقدمون على الإسلام قد فعلوه، ولكنه لم يُقل: إن أحداً من أهل هذه الملة تصدى له وفعله إلا هم. وهو أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها، ورأى فيها أن دور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل كل ثلاثة أميال فرسخ، فيكون المجموع ثمانية آلاف فرسخ، فلو وضع طرف حبل على أي نقطة من الأرض، وأدرنا الحبل على كرة الأرض، حتى انتهينا بالطرف الآخر إلى ذلك الموضع من الأرض، والتقى طرفا الحبل، ومسحنا ذلك الحبل، لكان طوله أربعة وعشرين ألف ميل

فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فسأل بني موسى المذكورين عنه، فقالوا: «نعم هذا قطعياً» فقال: «أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا؟». فسألوا عن الأراضي المتساوية في أي البلاد هي، فقيل لهم: صحراء سنجار ووطأة الكوفة. وخرجوا إلى سنجار وجاؤوا إلى الصحراء المذكورة، فوقفوا في موضع منها، وأخذوا ارتفاع القطب الشمالي ببعض الآلات، وضربوا في ذلك الموضع وَتِداً، وربطوا فيه حبلاً طويلاً، ثم مشوا إلى الجهة الشمالية على الاستواء من غير انحراف إلى اليمين واليسار على حسب الإمكان.

فلما فرغ الحبل نصبوا في الأرض وتداً آخر، وربطوا فيه حبلاً طويلاً، ومشوا إلى جهة الشمال أيضاً كفعلهم الأول، ولم يزل ذلك دأبهم حتى انتهوا إلى موضع أخذوا فيه ارتفاع القطب المذكور، فوجدوه قد زاد على الارتفاع الأول درجة. فمسحوا ذلك القدر الذي قدروه من الأرض بالحبل، فبلغ ستة وستين ميلاً وثلثي ميل، فعلموا أن درجة من درجة الفلك يقابلها من سطح الأرض ستة وستون ميلاً وثلثان.

ثم غادروا إلى الموضع الذي ضربوا فيه الوتد الأول، وشدوا فيه حبلاً، وتوجهوا إلى جهة الجنوب، ومشوا على الاستقامة، وعملوا كما عملوا في جهة الشمال من نصب الأوتاد وشد الجبال حتى فرغت الحبال، التي استعملوها في جهة الشمال، ثم أخذوا الارتفاع فوجدوا القطب الشمالي قد نقص عن ارتفاعها الأول درجة، فصح حسابهم، وحققوا ما قصدوه من ذلك وهذا إذا وقف عليه من له يد في علم الهيئة ظهر له حقيقته

ومن المعلوم أن عدد درجات الفلك ثلاث مئة وستون درجة؛ لأن الفلك مقسوم باثني عشر برجاً، وكل برج ثلاثون درجة فتكون الجملة ثلاث مئة وستين درجة، فضربوا عدد درجات الفلك في ستة وستين ميلاً وثلثين، أي التي هي حصة كل درجة، فكانت الجملة أربعة وعشرين ألف ميل وهي ثمانية آلاف فرسخ، وهذا محقق لا شك فيه.

أقوى من التتار

إن أمر التتار وما صنعوه بالمسلمين غني عن التكرار، وما يمكننا أن نشير إليه، هنا هو ما يحدث للكثيرين من الاستهانة بأمر العدو وتجاوز الحد في معاملته، مما يثير الحفائظ، ويبعث الفتنة، وأكبر من ذلك تجاوز الحكم الشرعي العادل في التعامل مع الآخرين.

ونحن اليوم وبعد ثمانية قرون من ذلك الطوفان الأحمر نود لو أن خوارزم شاه ـ رحمه الله، وغفر له ـ استغنى عن أموال التجار القادمين من التتار، وأحسن معاملة رسلهم كما أمر الإسلام، وأحسن تقدير قوة خصمه، وضعف الدولة الإسلامية ـ وعلى الأخص دار الخلافة، قبل مهاجمة عقر دار التتار وسبْي ذراريهم ـ أقول: نود ذلك مع تسجيل مناقب ذلك القائد المسلم البطل وارث دولة السلاجقة، وملك ما بين العراق إلى تركستان، التي يسير السائر فيها عدة

شهور دون أن يقطعها؛ فلقد بدأ ظهور التتار سنة ٦١٧ ـ، وكانت أولى ضحاياهم من بلاد المسلمين جوهرتي الشرق (بخاري وسمرقند)، اللتين نالتا من إرهابية جنكيزخان ـ لعنه الله ـ الفظائع والويلات.

واستمر انطلاقهم في بلاد الإسلام حرقاً وقتلاً وتدميراً طوال تسعة وثلاثين عاماً قبل وصولهم إلى دار الخلافة. فلو كان لتلك الدار بقية من حياة، لكان بوسعها أن تدبر الأمر طوال تلك السنوات، ولكن بطانة السوء وعلى رأسها ابن العلقمي الرافضي ـ لعنه الله ـ كانت مشغولة وشاغلة للخليفة عن أمر الأمة بما يجري داخل بغداد من المهاترات الصبيانية، والمشاغبات المقيتة بين الروافض والسنة، وحرائق الكرخ والرصافة.

وإنه لمما يقتل النفس غماً أن نرى المستعصم ـ غفر الله له ـ مشغولاً بأمر الإمام أحمد بن الحسين المعروف بأبي طير، الذي ظهر في اليمن، ويحث المظفر الرسولي على الفتك به بينما بساط الإسلام يطوىٰ في الشرق [ويقدرون فتضحك الأقدار] فيلتقي النعيّان بمنطقة ظفار اليمنية؛ أحدهما من المظفر الرسولي إلى المستعصم العباسي بقتل أحمد بن الحسين، والثاني بسقوط بغداد، وقتل الخليفة المستعصم. فهل في ذلك من ذكرى لمدّكر، وعالم الإسلام يعيش اليوم فترة مشابهة لتلك الحقبة في ظلامها وشؤمها؟.

وشاء الله أن يكون جيش مصر الذي ورد الأثر بالاستكثار من جنده، وإنه في رباط إلى يوم القيامة رافع لواء النصر وماحي السّبة والعار، فكتب الله له الظفر بقيادة سيف الدين الشهيد قطز وببركة الميامين من العلماء العاملين أمثال العز بن عبد السلام وصحبه الأبرار.

وإذا كانت بغداد احترقت بنار التتار ودمويتهم سنة ٦٥٦، فإنّ النصر المظفر تم للمسلمين بعد عامين فقط بعين جالوت في رمضان سنة ٦٥٨، وقتل القائد العام للتتار (كتبغانوين)، وبمقتله انتهت انتصارات التتار، وبدأت هزائمهم، وانقسام صفهم.

وتمت المعجزة الكبرى للإسلام بدخول أولئك الوحوش الهمج في دين الله، بعد سبع سنوات من هزيمتهم بعين جالوت على يد أول ملوكهم إسلاماً الملك بركة السعيد، الذي ترجم له ابن كثير فقال: «السلطان بركة خان بن تولي بن جنكيزخان، وهو ابن عم هولاكو. وقد أسلم بركة خان هذا، وكان يحب العلماء والصالحين. ومن أكبر حسناته كسره لهولاكو، وتفريق جنوده. وكان يناصح الملك الظاهر، ويعظمه، ويكرم رسله إليه، ويطلق لهم شيئاً كثيراً. وقد قام في الملك بعده بعض أهل بيته وهو منكو تمر بن طغان بن بابون تولي بن جنكيزخان، وكان على طريقته ومنواله ولله الحمد».

وإذا علمنا التنافس اللاهث بين البوذية والنصرانية على اكتساب ولاء التتار لهما، والتفرد بدخولهم في معتقدهم، ثم كانت النتيجة أن كتب الله انضمامهم للدين الذي حاربوه، والأمة التي دمروها، لرأينا ما أودعه الله في دينه الإسلام؛ من مقاومة عجيبة، وحيوية ظافرة تحيل الخصْم صديقاً، والكاشح شقيقاً.

وفي كتاب (ربانية لا رهبانية) للداعية المسلم أبو الحسن علي الحسن الندوي لقطة مفيدة في تاريخ التتار مع الإسلام بعنوان (قصة تاريخية تشبه أسطورة خيالية) قال في ص ٣٤:

«أسلم سلطان (كاشغر) الذي كان يسمى «تغلق تيمورخان» (١٣٤٧ م - ١٣٦٣ م) على يد الشيخ (جمال الدين) الذي جاء من بخارى.

وكان من خبره أنه كان مع رفقة له في رحلته فمروا بأرض السلطان، التي كان قد حماها للصيد وهم لا يشعرون. وأمر بهم الملك فأوثقوا وعرضوا عليه، وقال وقد استشاط غضباً: «كيف دخلتم في حماي من غير إذن؟». فاعتذروا بعدم علمهم. ولما علم الملك أنهم إيرانيون، قال: «حتى الكلب أفضل من الإيرانيين». قال الشيخ: «صدق الملك لولا أن الله أكرمنا بالدين الحق، لكنا أذل من الكلاب».

وتحير الملك ومضى للصيد وبقيت الكلمة تشغل فكره، وأمر بعرضهم عليه بعد الصيد. ولما رجع خلا بالشيخ وقال: «فسِّر لي ما قلت لي، وأخبرني ما تعني بالدين الحق». وفسر شيخ الإسلام في حماسة وقوة تفسيراً رق له قلب السلطان، وصور الكفر تصويراً بشعاً هائلاً فزع منه السلطان، وأيقن أنه على ضلال وخطر، ولكن السلطان رأى أنه لو أعلن الإسلام، لما استطاع أن يُدخل قومه في الإسلام، ورجا الشيخ أن ينتظر، حتى إذا سمع أنه ولي الملك، وجلس على أريكة الحكم زاره.

وكانت المملكة «الجفتانية» قد توزعت في إمارات متعددة واستطاع «تغلق تيمور» أن يجمعها، ويكون منها مملكة كبيرة.

ورجع الشيخ «جمال الدين» إلى بلاده ومرض مرضاً شديداً. ولما حضرته الوفاة دعا ولده «رشيد الدين»، وقال له إن «تغلق تيمور» سيكون في يوم من الأيام ملكاً عظيماً. فإذا سمعت بذلك تزوره، وتقرئه مني السلام، وتذكره، بما وعدني به؛ (من اعتناق الإسلام).

وكان كذلك فقد بويع «تغلق تيمور» بالملك وجلس مكان أبيه، ودخل الشيخ «رشيد الدين» في المعسكر لينفِّذ وصية أبيه. ولكنه لم يخلص إلى الملك فاحتال.

وبدأ يوماً يؤذن بصوت عال عند خيمة السلطان في الصباح الباكر، فطار نوم السلطان وغضب، وطلب الشيخ «رشيد الدين». وحضر الشيخ وبلغ السلطان تحية والده، وكان السلطان على ذكر منه. فنطق بالشهادتين وأسلم، ثم نشر الإسلام في رعيته، وأصبح الإسلام ديانة الأقطار التي كانت تحت سيطرة أولاد (جفتان بن جنكيزخان). أ. هـ.

ولقد أسبغ الله نعمه على التتار فتتابعت فيهم الأجيال الصالحة والدعاة المصلحون. ومن أولئك الدعاة الأمير الشهيد نوروز، الذي كان سبباً في إسلام

جيل كامل من قومه، ومعهم ملكهم قازان من أحفاد جنكيزخان.

يقول ابن كثير عن هذا «وكان نوروز هذا من خيار أمراء التتر عند قازان، وكان ذا عبادة وصدق في إسلامه، وأذكاره ـ وتطوعاته، وقصده الجيد ـ رحمه الله وعفا عنه.

ولقد أسلم على يـديه منهم خلق كثير لا يعلمهم إلا الله، واتخذوا السبح والهياكل وحضروا الجمع والجماعات، وقرؤوا القرآن. والله أعلم».

وقد ذكر الإمام الشوكاني في (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع) تـرجمة لقـازان في حرف الغـين ذكر فيهـا . . خبر إسـلامه، ومـا كان من افتتـانه بـالخاتـون وفتوى تـوروز في ذلك. فـأثنى الشوكـاني على فقـه نوروز وإخـلاصـه للإسلام وحسن اجتهاده.

وقازان هذا هو الذي هاجم دمشق أواخر القرن السابع، وخرج إليـه وفد أهل دمشق من كبار العلماء وعلى رأسهم شيخ الإسلام ابن تيمية.

ولا بأس في الاقتطاف مما ذكره أبو الحسن الندوي من مواجهة ابن تيمية ـ رضي الله عنه ـ لقازان، فإنه درس ما أحوج علماء الإسلام وقادته إليه.

قال في كتابه عن أحمد بن تيمية ص ٥٠: «في يوم الاثنين ٣ ربيع سنة ٦٩٩ هـ اجتمع ممثل أهل دمشق، وسفير الإسلام ابن تيمية بقازان طاغيـة التتار في بلدة النبـك. ولنترك الشيـخ كمال الـدين بن ألانجـا الـذي رافق ابن تيميـة، وحضر معه إلى قازان يتحدث عن هذا اللقاء:

«كنت حـاضراً مع الشيخ فجعل يحـدث السلطان بقول الله ورسـولـه في العدل وغيره، ويرفع صوته على السلطان، ويقرب منه في أثناء حديثه، حتى لقد قرب أن تلاصق ركبته ركبة السلطان، والسلطان مـع ذلك مُقبـل عليه بكليتـه، مصغ لما يقول، شاخص إليه لا يعرض عنه».

وإن السلطان من شدة ما أوقـع الله له في قلبـه، من المحبة والهيبـة سأل:

«من الشيخ؟ فإني لم أر مثله، ولا أثبت قلباً منه، ولا أوقع من حديثه في قلبي، ولا رأيتني أعظم انقياداً لأحد منه». فأخبر بحاله، وما هو عليه من العلم والعمل. فقال الشيخ للترجمان: قل لقازان «أنت تزعم أنك مسلم، ومعك قاضٍ وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا فغزوتنا، وأبوك وجدك كافران وما عملا الذي عملت، عاهدا فوفيا وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت وجرت».

ثم خرج من بين يديه مكرماً معززاً بحسن نيته الصالحة، من بذل نفسه في طلب حقن دماء المسلمين، وبلغه الله تعالى ما أراده.

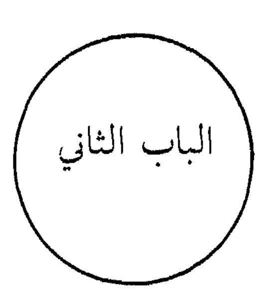
وكان أيضاً سبباً لتخليص غالب أسارى المسلمين من أيديهم، وردهم على أهلهم وحفظ حريمهم».

وقال أيضاً ص ٥١ : «وأخبر قاضي القضاة أبو العباس أنهم لما حضروا مجلس قازان، قدم لهم طعاماً فأكلوا منه إلا ابن تيمية، فقيل: لِمَ لا تأكل؟ فقال: «كيف آكل من طعامك وكله مما نهبتم من أغنام الناس وطبختموه بما قطعتم من أشجار الناس؟».

ثم إن قازان طلب منه الدعاء، فقال في دعائه: «اللهم إن كنت تعلم أنه إنما قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وجاهد في سبيلك، فأن تؤيده وتنصره. وإن كان للملك والدنيا والتكاثر، فأن تفعل به وتصنع.

فكان يدعو عليه، وقازان يؤمن على دعائه ونحن نجمع ثيابنا خوفاً أن يقتل فيطرطس بدمه.

ثم لما خرجنا قلت له: «كدت تهلكنا معك ونحن ما نصحبك من هنا». فقال: «وأنا لا أصحبكم» فانطلقنا عصبة، وتأخر فتسامعت به الخواتين والأمراء، فأتوه من كل فج عميق. وصاروا يتلاحقون به ليتبركوا برؤيته، فما وصل إلا في نحو ثلاث مئة فارس في ركابه، وأما نحن فخرج علينا جماعة وشلحونا.



البلدة الطيبة



البلدة الطيبة

كمدخل لا بد منه للحديث عن اليمن، نتكلم بإيجاز عن خصائصه الجغرافية والتاريخية.

ومما لاحظه الدارسون للغة العرب وفي مقدمتهم الأستاذ العقاد شاعرية مفرداتها حيث تتحد الحقيقة بالمجاز، ويلتحم الواقع بالخيال.

ومن هذه المفردات (السراة) مدلولها اللغوي الأصلي فقار الظهر، فأطلقها الجغرافيون الأقدمون على السلسة الجبلية الممتدة من لحج إلى الطائف، فاصلة نجد اليمن عن تهامته. والمعدل الوسطي لعرض السراة يبلغ ثلاثة أيام للماشي، تتخللها القمم الشامخة، والمدرجات الرائعة، والحقول الخصبة، والوديان المتغلغلة في أحشاء هذه السلسلة تغلغل الشرايين في جنبات الجسم، وهي الوديان النافذة غرباً، الناقلة إلى سهول تهامة أمطار السراة وأنهارها. ووديان تنفذ إلى نجد اليمن شرقاً وتلقاء الجنوب.

فإذا ما انتقلنا إلى أطراف اليمن البحرية، وجدناه يطل على البحر الأحمر غرباً وبحر العرب جنوباً، متحكماً في بوابة المندب الهامة للملاحة العالمية. وموقعه العام من جزيرة العرب هو جنوبها الغربي.

ومن هنا فإنه طوال فترات التاريخ ظل بعيداً عن مدار الدول الكبرى قديماً وحديثاً، فأكسبه ذلك البعد النسبي فوائد جمة منها: الاستقلال الفكري والسياسي، والسلامة من التأثيرات الأجنبية السيئة.

وإننـا لنشهد ذلـك بيناً أكـثر ما يكـون في عصرنا الحـاضر، إذ نرى بلدان الشمال الإفريقي المتاخمة لأوربا أكثر ابتلاءً بالغزو الفكري، والسيـطرة العسكريـة والسياسية للأجانب.

خصائص تأريخية

(أ) (الإيمان يمانٍ) أ. د

في ضـوء هذا النـبراس النبوي نتتبـع المسار الإيمـاني في البلدة الـطيبـة من خلال القصص القرآني وحده، غير ملتفتين إلى أقوال الإخباريين الناطقين بدافع المغالاة في يمنيتهم، مفاخرة ومكاثرة للآخرين.

ولا نقصد بهذا التتبع نفخاً في الرماد، وتمدحاً بـالأجداد، ـ أستغفـر الله ـ، وإنما التأكيد للعراقة الإيمانيـة في هذا البلد وبـأصدق شـاهد ﴿تنـزيل من حكيم حميد﴾، وليعلم من لا يعلم المدى الزمني الضارب في أعـماق تاريـخ أجيال هـذا الشعب الغابرة والعامرة.

ونعيـد هنا مـا ذكرنـاه في غير هـذا الكتاب، من أن المـلاحظ الدقيق يجـد لليمن ـ والحمد لله ـ مكانـة خاصـة في القصص القرآني من حيث تغـطيته لعـدة أدوار تاريخية للعقيدة في اليمن، إذ ذكر عاد وثمود، وهما قبيلتان يمنيتان غابرتان كانتا موطن الرسالتين التاليتين لرسالة نوح عليه السلام، وقد ورد ذكرهما في القرآن أكثر من ثماني عشرة مرة ومع أنهما في غالب أفرادهما لم تستجيبـا لرسـوليهما هـود وصالـح عليهما السـلام، إلا أن نخبة مختـارة كانت هي النـواة المؤمنـة التي تكاثرت فيما بعد. ويكفي أن نذكر قـوله تعـالى عن صالـح وقومـه ﴿قال الـذين استكبروا للذين استضعفوا أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قال الذين استضعفوا: إنا بما أرسل به مؤمنون﴾. وعن هود وقومه ﴿ فنجيناه والذين آمنوا معه برحمة منا﴾.

ذلـك هو حـديث القرآن عن عـاد الأولى، وكان مـوطنهـا بـالأحقـاف من حضرموت. وقد أفردت سورة كاملة باسم ذلك الموطن.

ولا يعنينا أمر ثمـود؛ لأنها بنزوحهـا إلى الشمال خـرجت عن دائرة اليمن، الذي هو موضوع البحث.

أمـا الدور التـاريخي الثـاني الـذي سجله القصص القـرآني، فهـو إسـلام بلقيس وقومها على يد سليمان عليه السلام.

وبهذا الصدد نشير إلى أن سليمان اتبع معها ومع قومهـا أسلوباً في الـدعوة إلى الله مكافئاً لاعتزازهم بقوتهم وحضارتهم ﴿ألّا تعلوا علي وأتونـي مسلمين﴾. فهو الأمر بالانقياد للإسلام، والتحذير من التعالي. ثم أعاد وفد الهدية مصحوباً بالتهديد المرعب ﴿ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها، ولنخرجنهم منهـا أذلة وهم صاغرون﴾.

ثم انتقل من التهديد والتلويح بالقوة إلى الكشف لبلقيس وقومها عن مكانته كنبي مرسل، وما آتاه الله من الإمكانيات المسخرة، التي تعجز عنها قوى البشر. فأراها عرشها الذي حضر إليه قبل أن يرتد إليه طرفه، فكان جوابها مفصحاً عن عقلهـا وفهمها لمقـامه الكـريم ﴿قـالت كـأنـه هـو وأوتينـا العلم من قبلهـا وكنـا مسلمين﴾.

وبسبب رواسب الشرك في نفسها ترددت في الإسلام لله وحده، حتى أراها معجزة ثانية، وهي الصرح الممرد من قوارير، عندها انتهت كل الشكوك والاعتزاز بالذات، وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين.

أما الدور التاريخي الثالث، فهو الذي ورد في سورة سبأ وخـراب السد لـما أعرض القوم عن الاستجابة لربهم، وأبطرتهم النعمة.

وأكثر المفسرون لقوله تعالى: ﴿ذلك جزينـاهـم بكفرهم، وهـل نجازي إلا الكفور﴾. يذهبون إلى أنه كفران نعمه بدليل اعترافهم بالله بقولهم: ﴿ربنا باعد بيننا وبين أسفارنا﴾.

ولقد كان خراب السد حدثاً مصيرياً مستمر الأثر في حياة اليمن حتى الآن.

ننتقل بعد هذا إلى الدور التاريخي الرابع، الذي حدث على يد آخر ملوك حمير اليهودي ذي نواس، وجريمته المنكرة بالأخدود الذي أحرق به معتنقي المسيحية، وكان سبباً من أسباب احتلال الحبشة لليمن.

تلك هي بإيجاز الأدوار الأربعة للعقيدة في يمن الإيمان، من عاد حتى قرب البعثة المحمدية. ومنها نعرف المسار الطويل للإيمان في اليمن المبارك الميمون.

(ب) الحكمة يمانية

في تاريخ العرب قبل الإسلام كانت اليمن من العرب بمثابة اليونان من أوروبا تفوقاً علمياً وثقافياً وصناعياً وزراعياً وعسكرياً.

ففي الزراعة كانوا مهرة السدود؛ بمصارفها ومحابسها وقنوات الري الباقية آثارها حتى اليوم.

وفي الصناعة كانوا سادة صناعةَ الأقمشة والأسلحة والمواعين الضرورية بمختلف أنواعها. وكانوا أيضاً يمارسون ما يسمى اليوم (بالصناعة الاستخراجية)، فهم يستخرجون الذهب والفضة والرصاص والنحاس من مناجمها المعروفة معهم.

واستمر ذلك إلى عهد أبي محمد الحسن الهمداني صاحب كتاب (الجوهرتين)، الذي لا يزال حبيس المكتبات الأوروبية، ولا يزال القارىء اليمني فضلاً عن الغربي يتلهف إلى قراءته.

وفي العمران كانوا ولا زالوا بناة القصور الشامخة التي بلغ بعضها من الإرتفاع إلى ما يسمونه اليوم (بناطحات السحاب)، وحصونهم المنيعة في رؤوس الجبال لا تزال حتى اليوم باقية.

وفي الثقافة كانوا أصحاب الخط المسند الذي يجيدونه، قراءة وكتابة. وهم أول من استعمل التأريخ في أعمالهم ودواوينهم.

وفي الإدارة والتشريع كانوا على جانب كبير من دقة النظام؛ الإداري والشوري والمالي الذي يبهر أكثر الأمم تقدماً.

إلى جانب ما كان لهم من مهارة في ما يسمى (بالفنون الجميلة) كالشعر والرسم وغيره تلك لمحة مجملة عن الحكمة التي كانوا أربابها الموصوفين بها.

(جـ) الهجرة

وأول ما يذكره الذاكر عن موجات الهجرة من اليمن إلى خارجه هي تلك الموجة، التي نزحت فيها طيء ولخم وجذام وعاملة وقضاعة وتنوخ إلى أطراف الجزيرة وبلاد العراق. وكذلك الموجة الثانية التي نزحت فيها غسان والأزد إلى مشارف الجزيرة وأواسطها، والشام والخليج.

ثم كانت الموجة الثالثة إبان الفتح الإسلامي، حين جاءت بقضها وقضيضها ملبية دعوة الصديق رضي الله عنه، والتي انتشرت في أرجاء الأرض مالئة جنبات المشرق والمغرب، وبقيت لها آثار تحمل أسماء قبائل يمنية صميمة؛ كخولان وهمدان وكندة والكلاع.

وها نحن اليوم نشهد الجاليات اليمنية منتشرة في أصقاع المعمورة، وبعضها يصل إلى عشرات الألوف، تعمر الدنيا وتحيي الموات، وتحقق النماء وتكتسب الخبرات. وذلك شيء إن دلّ، فإنما يدل على الحيوية الزاخرة، التي يفيض بها كيان هذا الشعب، منذ كان وحتى الآن.

(د) الريادة والنجدة

كان هذا الشعب ولا يزال ـ والحمد لله ـ منبع الأمة، ونهر تجددها، وطاقة تفوقها. وليس هذا تبجحاً وطنياً ولا مباهاة طائفية، وإنما هو استنطاق الحقائق وتأكيد الوقائع، ولسان حال الأحداث.

وسنرى ـ إن شاء الله ـ في الموضوعات القادمة ما يؤكد ذلك في مجالات الفتوحات العلمية والعسكرية والإصلاحية، التي يزخر بها تاريخ الأمة.

وبحسبنا هنا أن نلفت النظر إلى ما أسهم به هذا الشعب بواسطة موجاته البشرية المتتابعة إلى أقاليم العروبة والإسلام، في عهد الجاهلية وفي زمن الفتح، وماتلا ذلك عبر أدوار تاريخ هذه الأمة.

ولما اشتد ضغط التتار على مصر والشام، كانت فرسان اليمن في مقدمة خطوط المواجهة؛ إذ كان المظفر يوسف ابن عمر الرسولي، يحرص على المشاركة الفعلية في صد هجماتهم وتعزيز جند الإسلام.

ويذكر الخزرجي في (العقود اللؤلؤية) أن المظفر بعث إلى الظاهر بيبرس بخمس مئة فارس مزودين بكامل عدتهم، وظلوا مرابطين في مصر بعد الظاهر بيبرس، واليمن تدفع نفقاتهم على بعد الشقة وصعوبة المواصلات.

وحادثة طريفة أوردها ابن كثير في (البداية والنهاية) تؤكد ما نحن بصدده.

وقال في ص ١٤ ج ٦ «فيها جرت كائنة غريبة عظيمة، ومصيبة عامة، وهي أنَّ رجلاً من المصريين من أصحاب الحاكم اتفق مع جماعة من الحجاج المصريين على أمر سوء، وذلك أنه لما كان يوم النفر الأول، طاف هذا الرجل بالبيت، فلما انتهى إلى الحجر الأسود جاء ليقبّلهُ، فضربه بدبوس كان معه ثلاث ضربات متواليات، وقال: «إلى متى نعبد هذا الحجر، ولا محمد ولا علي يمنعني مما أفعله، فإنني أهدم اليوم هذا البيت». وجعل يرتعد فاتقاه أكثر الحاضرين وتأخروا عنه. وذلك لأنه كان رجلاً هائلاً جسيماً، أحمر اللون أشقر.

وعلى باب الجامع من الفرسان وقوف ليمنعوه ممن يريد منعه من هذا الفعل وأراده بسوء، فتقدم إليه رجل من أهل اليمن معه خنجر فوجأه بها، وتكاثر الناس عليه فقتلوه وقطعوه قطعاً وحرقوه بالنار».

وقد ذكر الجندي هذه الحادثة في سلوكه، وأن هذا الرجل كان من سكاسك الجند.

وذكر الشرجي أن الوالي سفيان الأبيني كان فيمن أخرجوا الصليبيين من دمياط، وأن صفي الدين بن أبي المنصور المصري نوَّه بفتح دمياط على يد سفيان، ولعل ذلك كان آخر دولة الأيوبيين.

إرهاصات يمنية قبل الاسلام

كانت أوضاع الإنسانية عامة، والعرب خاصة، تبحث عن منقذ يطهّرها من الكفر والشرك، وينقذها من الظلم والإثم، ويحررها من الخرافة والوهم. فلا غرو أن يتطلع علماء الكتابين المستقيمون، من الأحبار والرهبان بحثاً للوافدين، واستقصاءً للقاصدين عن خاتم النبوات ووارث الرسالات ومحقق الكمالات، محمد ﷺ.

ولا غرو أن يتسابق العرب الذين لا عهد لهم بذلك الاسم الكريم لإطلاقه على مواليدهم، رجاء أن يكون الواحد منهم هو المنقذ المنتظر.

ويعرف العرب ولأول مرة أربعة مواليد يحملون هذا الاسم في سنة مولده ﷺ، أو قبيلها بقليل.

وفي اليمن ذات الاطلاع على الكتاب، والاعتناق للديانتين اليهودية والنصرانية، كان التطلع شديداً والترقب مستمراً لسطوع شمس ذلك الرسول العظيم. وكان يطيب لسيف بن ذي يزن أن يدعو عبد المطلب بابن أختنا، نظراً لأن أمه من بني النجار اليمنية.

ومما يسوغ لنا نقله لمتانة سنده ومصداقية مصدره، هو ما أورده ابن كثير من بشرى سيف لعبد المطلب عند وفوده، للتهنئة مع وفد قريش، وبعد نعته للمولود العظيم بالصفات المحددة لديه. وقد عزاه ابن كثير عن الحافظ

الخرائطي وعن الحافظ ابن نعيم إلى ابن عباس رضي الله عنهما. فإليك بعضاً مما دار بين سيف وعبد المطلب:

قال سيف: «هذا حينه الذي يولد فيه أوقد، واسمه محمد، يموت أبوه وأمه ويكفله جده وعمه، ولدناه مراراً والله باعثه جهاراً، وجاعل له منارا وأنصاراً يعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض ويستبيح بهم كرائم الأرض، يكسر الأوثان ويخمد النيران، يعبد الرحمن ويدحر الشيطان. قوله فصل وحكمه عدل، يأمر بالمعروف ويفعله، وينهى عن المنكر ويبطله».

فقال عبد المطلب: «أيها الملك. عز جدك وعلا كعبك، ودام ملكك وطال عمرك، فهذا بخاري، فهل الملك سار لي بإفصاح؟ فقد أوضح لي بعض الإيضاح». فقال ابن ذي يزن: «والبيت ذي الحجب، والعلامات على النقب، إنك يا عبد المطلب لجده غير كذب».

فخرّ عبد المطلب ساجداً، فقال: «ارفع رأسك، ثلج صدرك وعلا أمرك، فهل أحسست شيئاً مما ذكرت لك». فقال: «أيها الملك، كان لي ابن وكنت به معجباً وعليه رفيقاً، فزوجته كريمة من كرائم قومه آمنة بنت وهب، فجاءت بغلام سميته محمداً، فمات أبوه، وأمه وكفلته أنا وعمه». قال ابن ذي يزن: «إن الذي قلت لك كما قلت، فاحتفظ بابنك، واحذر عليه اليهود؛ فإنهم له أعداء. ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً واطوِ ما ذكرت لك، دون هؤلاء الرهط الذين معك، فإنني لست آمن أن تدخل لهم النفاسة من أن تكون لكم الرياسة، فيطلبون له الغوائل وينصبون له الحبائل، فهم فاعلون أو أبناؤهم.

ولولا أني أعلم أن الموت مجتاحي قبل مبعثه، لسرت بخيلي ورجلي، حتى أصير يثرب دار مملكته، فإني أجد في الكتاب الناطق والعلم السابق، أن بيثرب استحكام أمره وأهل نصرته وموضع قبره.

ولولا أني أقيه الآفات وأحذر عليه العاهات لأعلنت على حداثة سنه أمره، ولأوطأت أسنان العرب عقبه. ولكنه صار ذلك إليك عن غير تقصير بمن معك».

قال: «ثم أمر لكل رجل منهم بعشرة أعبد وعشرة إماء وبمئة من الإبل وحليتين من البرود، وبخمسة أرطال من الذهب وعشرة أرطال فضة، وكرش مملوء عنبراً. وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال له: «إذا حال الحول فأتني». فمات ابن ذي يزن قبل أن يحول الحول.

كما أورد خبر الأوس بن حارثة أخي الخزرج قبيل وفاته، فكانت وصيته لولده مالك، في كلام طويل وأبيات كثيرة آخرها الأبيات التالية، التي أخبر فيها بمبعث صاحب الرسالة الخاتمة، وحث ولده وقومه على نصره:

ألم يأت قومي أن لله دعوةً   يفوز بها أهل السعادة والبر
إذا بُعث المبعوث من آل غالب   بمكة فيما بين مكة والحجر
هنالك، فابغوا نصره ببلادكم   بني عامرٍ إن السعادة في النصر

وفي الإصابة تأليف الإمام الحافظ أحمد بن علي العسقلاني ـ باختصار ـ عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف الصحابي المشهور، قال: سمعت أبي يقول: «سافرت إلى اليمن قبل البعثة بسنة. فنزلت على (عسكلان بن عواكن الحميري)، وكان شيخاً كبيراً قد أنسيء له في العمر، حتى عاد كالفرخ وهو يقول:

إذا ما الشيخ صُمّ فلم يكلم،   وأودى سمعه الإجدايا،
فذاك الداء ليس له دواء   سوى الموت المنطق بالرزايا

قال عبد الرحمن: وكنت إذا قدمت نزلت عليه. فلا يزال يسألني عن مكة وأحوالها، وهل ظهر فيها من خالف دينهم أو لا حتى قدمت القدمة التي بعث النبي ﷺ وأنا غائب فيها، فنزلت عليه، فقعد وقد شد عصابة على عينيه فقال

لي: «انتسب يا أخا قريش». فقلت: «أنا عبد الرحمن بن عوف بن عبد بن عوف بن الحارث بن زهرة». قال: حسبك، قال: «ألا أبشرك ببشارة وهي خير لك من التجارة» قلت: «بلى». قال: «أتيتك بالمحجَّبة وأبشرك بالمرغبة، إنَّ الله قد بعث في الشهر الأول من قومك نبياً ارتضاه صفياً، وأنزل عليه كتاباً وفياً، ينهي عن عبادة الأصنام ويدعو إلى الإسلام، يأمر بالحق ويفعله وينهى عن الباطل ويبطله، وهو من بني هاشم. وإن قومك لأخواله.

يا عبد الرحمن آزره وصدقه، واحمل إليه هذه الأبيات:

أشهد بالله ذي المعالي وفالق الليل والصباح
إنك في الشرف من قريش وابن المفدى من الذباح
أرسلت تدعو إلى يقين ترشد للحق والفلاح.

قال عبد الرحمن: فلقيت أبا بكر؛ فكان لي خليطاً، فأخبرته الخبر، فقال لي: «هذا محمد بن عبد الله بعثه الله إلى خلقه رسولاً فائته وهو في بيت (خديجة) فأخبرته، فقال: «أمَّا أن أخا حمير من خواص المؤمنين، ورب مؤمنٍ بي ولم يرني، ومصدقٍ بي وما شهدني».

عن ثوبان أن نبي الله قال: «إني ليعقد حوضي أذود عنه لأهل اليمن لا أزال أضرب بعصاي حتى يرفض عليهم». (رواه مسلم).

أوسمة من السماء

في الحديث الذي أخرجه الإمام محمد بن جرير الطبري وأبو حاتم عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ، فَسَوفَ يَأتي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، أَذِلَّةً عَلى المُؤْمِنِينَ، أَعِزَّةً عَلَى الكَافِرِينَ، يُجَاهِدُون في سَبِيلِ الله وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ. ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ سأل أناس النبي ﷺ: من

هم؟ فأجاب: «هم رجال من قوم هذا وأشار إلى أبي موسى». والأحاديث الواردة في فضل اليمن وأهله أوصلها العلامة محمد بن عبد المجيد بن خلف القرشي المصري إلى أربعين حديثاً، كما ذكره الحافظ عبد الرحمن الديبع في كتابه (قرة العيون) نقتصر منها على ما تيسر لنا الحصول عليه، منبهين إلى أن الإسلام جاء لإخلاص الولاء، وتمحيض النصح لله ولرسوله وللمؤمنين، غير مقيمٍ لاعتبارات الذات والأسرة والقبيلة وزناً، إذا كانت تصطدم مع حق الله وحق رسوله والمؤمنين.

وكيف لا، وقد ربّى الإسلام أتباعه على التجدد لله ولدينه، فقاتلوا الأبناء والآباء يوم بدر نصراً لله وإحراقاً لكل ما عداه. وقال النبي ﷺ قولته الخالدة: «وليس منا من دعا إلى عصبية».

ولما كان الواقع العربي يومذاك لا يستغني عن القبيلة، كرباط تنظيمي لا بد منه، فقد أقر الإسلام ذلك التنظيم على أن يكون وسيلة لرفع كلمة الله، وليس غاية تصطدم معها. وعلى هذا فإليك الأحاديث في فضل اليمن وأهله:

١ ـ روى الشيخان عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتاكم أهل اليمن. هم أرق أفئدة، وألين قلوباً. الإيمان يمان والحكمة يمانية» وفي رواية: «والفقه يمان».

٢ ـ وعن الشيخان أن رسول الله ﷺ قال: «الإيمان ها هنا»، وأشار بيده إلى اليمن.

٣ ـ روى الطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن جابر قال: «سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿فَسَوفَ يَأْتي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾. قال: «هؤلاء قوم من اليمن ثم من كندة ثم من السكون ثم من تجيب».

٤ ـ وعن أبي هريرة قال: «إن رجلاً من قيس جاء إلى النبي ، فقال: «ألعن حمير». فأعرض عنه. وأعاد عليه فقال: «رحم الله حمير أفواههم سلام، وأيديهم طعام، وهم أهل أمن وإيمان».

٥ ـ روى الترمذي عن أنس عن النبي ﷺ قال: «الأزد أسد الله في الأرض. يريد الناس أن يضعوهم، ويأبى الله إلا أن يرفعهم. وليأتين على الناس زمان يقول الرجل فيه: «يا ليت أبي كان أزدياً، ويا ليت أمي كانت أزدية» .

وروى أحمد عن أبي هريرة قال: «نعم القوم الأزد. طيبة أفواههم برة أيمانهم، نقية قلوبهم» .

وهناك أحاديث أخرى لم يتيسر جمعها هنا، ومنها قوله ﷺ عن الأشاعر «أنهم إذا أرملوا، أجمعوا زادهم واقتسموه بالسوية فأنا منهم، وهم مني» .

فنكتفي بما ورد، «وحسبك من الطوق ما أحاط بالعنق» .

وقد خص النبي ﷺ في بعض الآثار قبائل بالدعاء لها كقوله، «اللهم صلّي على السكاسك والسكون والأملاك أملوك ردمان، وعلى خولان العالية» .

والسكاسك في عرفنا اليوم هي جهة تعز ، وما إليها. والسكون من بلاد أبين .

نبذة عن القبائل اليمنية

وبما أننا سنمر مع القارىء ـ بإذن الله ـ في الأبواب التالية بكثير من القبائل والأفخاذ والعشائر، ممن بقيت منابتهم في اليمن، وممن انتشروا في أرض الله وخارجها، فمن المفيد أن نقدم بين يدي حديثنا عنهم نبذة جامعة ونافعة، لتكون بمثابة الخارطة القبلية لدى القارىء. نقتطفها من كتاب (المقتطف في تاريخ اليمن) للقاضي عبد الله الجرافي، فقد أوردها موجزة واضحة، من ص ١٨ إلى ص ٢٣ :

«ولا تختلف علماء الأنساب في أن قحطان هو أبو اليمن، وهو قحطان بن عابر، وهو هود عليه السلام. وقد تفرع من ولد سبأ بن يشجب بن يعرب بن

قحطان حمير وكهلان. ولكل منهما بطون كثيرة، منها ما خرج من اليمن وانتشر في بلاد العرب الأخرى، ومنها لا يزال باقياً إلى وقتنا هذا.

على أن أشهر بطون كهلان هو الأزد، وكانوا في بادية اليمن، وهم أولاد الأزد بن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان. وقد تفرقوا بعد خراب السَّد. ومنهم: بارق، وألمع، وغامد، ودوس. وهؤلاء هم أزد شنوءة، وقد سكنوا في سَراة عسير. ومن الأزد أيضاً: العتيك وقد سكنوا عمان؛ ولذلك يقال لهم: أزد عمان، للتفرقة بينهم وبين أزد شنوءة».

ويستمر الجرافي في مقتطفه قائلاً: ومن الأزد: الغساسنة آل جفنة الذين ملكوا بلاد الشام، والأوس والخزرج الذين ملكوا المدينة. ومنهم أيضاً خزاعة الذين نزلوا مرّ الظهران، وسوف يأتي ذكر السبب في خروجهم وتفرقهم في البلدان.

ومن كهلان: همدان بن أوسلة بن مالك بن زيد بن كهلان، ومن همدان القبيلتان العظيمتان اللتان تعتبران من أشهر قبائل اليمن وأشدها بأساً، وهما: حاشد وبكيل، ابنا جُشم بن حُبران بن نوف بن همدان. ومساكنهم في الشمال ما بين مدينتي صنعاء وصعدة. وتقع منازل بكيل غالباً في مشارف منازل حاشد، كما تقع منازل حاشد في الغرب من بكيل.

ومن بطون بكيل أولاد أرحب بن الدعام الأكبر، ونهم ومرهبة وسفيان بن أرحب وأولاد شاكر وهم: وائلة وأختها دهمة.

ومن دهمة ذو غيلان الساكنون جبل برط، وهم: ذو محمد وذو حسين.

وقد قال الهمداني في صفة الجزيرة عند ذكر جبل برط: إن أهلة هم أنجد همدان، وحماة العورة، ومنعة الجار، ويسمون باسم قريش همدان. وبطون حاشد كثيرة منها عذر والعصيمات وخارف وبنو صريم، ومنهم أيضاً على ما ذكره أكثر النسابين وادعة. وقد قيل: إنهم من الأزد، وقيل: إنهم من حمير، والأول

أصح. ومنازلهم في بلاد حاشد. ومنهم أيضاً من يسكنون في بلاد صعدة.

وقد قال الهمداني في الجزء العاشر من كتابه (الإكليل): «إنما جاءت الغباوة من وادعة في قولهم نحن من الأزد من أمهم أم الغيث بنت عدي بن ثعلبة بن كنانة بن بارقة بن عمرو بن عامر بن مزيقيا الأزدي».

ومن حاشد أيضاً قبيلة يام المشهورة، التي يسكن أفرادها وادي نجران وما حوله. كما أن من حاشد كذلك قبيلة حجور بن عليان والأهنوم وحجة وبنو شاور.

ومن كهلان مذحج، وهم أولاد مالك: ابن أدد بن غريب بن زيد بن كهلان.

ومن مذحج قبائل عنس ومراد والحدا والحكم بن سعد العشيرة وزُبَيْد بأرض خبان، وزُبَيْد شمال نجران. ومن قراهم تثليث مسكن عمرو بن معد يكرب الزُبَيْدي.

ومن عنس، عمار بن ياسر الصحابي، ومن مراد: أويس بن عامر: القرني التابعي المشهور، وقيس بن المكشوح، وفروة بن مسيك الوافد على النبي ﷺ.

ومن مذحج أيضاً: بنو الحارث بن كعب وصدا والنخع. ومساكن النخع في البيضاء، وصدا بينها وبين حضرموت.

ومن كهلان: الأشاعرة من ولد الأشعر بن عريب بن زيد بن كهلان، ومساكنهم بوادي زبيد في تهامة.

ومن الأشاعرة أبو موسى الأشعري الصحابي المعروف، الوافد على النبي ﷺ، في جماعة من أصحابه بعد غزوة خيبر.

ومن كهلان كندة وطيء وخثعم وبجيلة ولخم وجذام.

ومن لخم: نصر بن ربيعة أبو الملوك المناذرة بالحيرة.

أما بطون حمير، فترجع إلى بطنين: البطن الأولى: الهميسع أبو الملوك التبابعة والأقيال والأذواء والمثامنة والعباهلة.

والبطن الثاني: مالك وهو أبو قُضاعة ومن تفرع منها. وهذا هو المشهور في نسب قضاعة. ومن النساب من يدخل قضاعة في عدنان، وقد قال القاضي نشوان في كتابهِ (شمس العلوم)؛ وإنما كان ذلك أيام العصبية في وقت معاوية وابنه يزيد، اللذين بذلا لرؤسائهم. فلما بلغ قضاعة ذلك، غضبوا غضباً شديداً، وأنكروا ذلك الأمر أشد إنكار، فحشدوا واجتمعوا، ثم دخلوا مسجد دمشق يوم الجمعة على يزيد وهم يرتجزون ويقول راجزهم:

يا أيها الداعي ادعنا وابشر، وكن قضاعياً، ولا تنزر
نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاعة بن مالك بن حمير
النسب المعروف غير المنكر من قال قولاً غير ذا تنصّر

ثم قالوا ليزيد: إنا قوم من أهل اليمن يسعنا ما يسعهم ويضيق عنا ما ضاق عنهم، فألحقنا بهم». قال: «قد فعلت».

ومن ولد الهيمسع قبيلة يحصب والأشعوب وذو الكلاع، ومن هذه الأخيرة انحدر بنو وائل الذين كانوا ملوك وُحاظة وذورُ عين ومن ذي عين الأملوك وآل مهدي ملوك عُتُمه والشراحيون، الذين كانوا ملوك وُصاب. ومن أشهرهم عبد الله بن يوسف الشراحي، الذي كان معاصراً للخليفة المأمون، ولم يدن له بغير سكة.

ومن الهيمسع أيضاً يافع وهم بطون كثيرة، وسبأ الأصغر ومنه آل الكرندي ملوك المعافر، وأصحاب حصن الدملوه، ومنه ذو حوال جد آل يعفر الذين تولوا الملك في مخلاف أقيام شبام وكوكبان. ومن سبأ الأصغر ذي يهر صاحب حصن بيت حنبص بجبل حضور، ومن ذريته الشيخ أبو نصر أستاذ الحسين بن أحمد الهمداني مؤلف كتاب «الإكليل»، وقد هرب أبو نصر هذا إلى

صعدة أيام أبي الملاحف القرمطي، قائد جيش علي بن الفضل لما قصد بيت حنبص، وضرب حصن ذي يهر كما ذكر ذلك القاضي نشوان في «شمس العلوم».

ومن الهيمسع التابعيون والسحول وجهران والشوافي ووحاظه وبعدان وميتم وآل ذي مناخ، ومنهم الأمير جعفر بن إبراهيم بن محمد ذي المُثْلَة المناخي، وإليه ينسب مخلان جعفر لا إلى جعفر ابن زياد كما قال القاضي عمارة اليمني في كتابه (المفيد).

وأما بطون قضاعة فخولان بن عمر بن الحاف بن قضاعة في بلاد صعدة، وخولان التي في مشارف صنعاء. ويقال لهم خولان العالية. وقد قال القاضي نشوان: «إنهم سموا بهذا الاسم؛ لأن خولان كلها كانت بمأرب في صرواح، وهو قصر لهم. ولما ارتفع بعضهم إلى الجبال الكائنة شرقي صنعاء، أطلق عليهم هذا الاسم. وأما سائرهم فبقي بمأرب حتى خرجوا فيما بعد إلى صعدة، وقد قال شاعر خولان العالية في ذلك:

أيها السائل عن أنسابنا
نحن خولان بن عمرو بن قضاعة
نحن بنو حمير في ذروتها
ولنا المرباع فيها والرباعة

ومن خولان العالية أبو مسلم الخولاني، واسمه: عبد الرحمن بن مشكم، وكان من خيار التابعين. وقيل إن خولان العالية من خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عُريب بن زيد بن كهلان؛ لأنهم لو كانوا من خولان قضاعة، لما قيل لهم: «خولان العالية». وهم أنفسهم معترفون بأنهم من قضاعة، ولأن اسم خولان العالية إنما أتى من الخلاف في البلاد لا من الفرق في النسب، كما تقول العرب طيء السهل وطيء الجبل، وأزد شنوءة، وأزد عمان، وهمدان البون وهمدان الحجاز، وزبيد نجران وزبيد

اليمن، وعذر مطرة وعذر شعب، ونحو ذلك. . . وهذا كثيرٌ لا يحصى» انتهى.

ومن قضاعة أيضاً بنو شهاب، أهل المخلاف المسمى باسمهم في جبل حضور، كما قال القاضي نشوان سعيد، وقيل: من كندة.

ومن قضاعة مهرة بن حيدان وبنو جماعة وبنو مجيد، وكان ملوكاً فيما بين عدن وعمان.

ومن قضاعة أيضاًسحار ورازح وبنو منبه والصيعر وغيرهم. وتسكن تهامة اليمن قبيلة عك المشهورة وأفرادها، ولد عك بن عدنان بن عبد الله بن الأزد في أصح القولين. ويقال أيضاً: إنهم ولد عك بن عدنان أخي معد. وقد قال القاضي نشوان بن سعيد في (شمس العلوم): «إن الأمر ليس كذلك، وإنما سبب نسبهم في معدّ أن غسان وقت خروج الأزد من مأرب نزلوا تهامة وبها عك فتلاحمت عك وغسان، واقتتلوا، فقتلت غسان عك قتلاً ذريعاً، وأجلتها عن الكثير من أوطانها. فمن ثمة انتفت عك من اليمن، وانتسبت في عدنان».
وقد قال القاضي نشوان:

ألم تر عك هامة الأزد أصبحت   مذبذبة الأنساب بين القبائل
وعقت أباها الأزد واستبدلت به   أباً لم يلدها في القرون الأوائل

وعك بطون كثيرة بتهامة منها: عبس ونمافق والقمري والجرابح والحجبا والواعظات والزعلية وبنو جامع والعجيبة من قبائل اللحية، وصليل والعبسية وغيرهم. . .

ومن القبائل التي تسكن بلاد اليمن، قبائل الزرانيق والمعازبة وهؤلاء يتفرعون إلى بطون كثير.

ومن قبائل تهامة قبيلة بني مروان والمسارحة والحارث وغيرهم. ومنها أيضاً قبيلة الصبيحة ، وهم الأصابح من حمير . ومنهم الإمام مالك بن أنس الأصبحي ، إمام دار الهجرة ، وصاحب المذهب الشهير .

ومن سكان تهامة في الشمال الحكميون من أولاد الحكم بن سعد العشيرة، وينسب لهم مخلاف الحكم، ونسبهم في مذحج كما سبق.

ظواهر عامة في التاريخ اليمني

أسلفنا الحديث عن عراقة اليمن الإيمانية، وأنه الشعب الوحيد في العالم، الذي دخل في دين الله أفواجاً بغير قتال. وتحدثنا عن ريـاداته ونجـدته، وغير ذلك من الخصائص السالفة.

ونحب هنا أن نذكر ظواهر عامـة يلحظهـا المتأمـل في تاريـخ هذا الشعب بمختلف أطواره، وهي من البروز والوضوح بما لا يرقى إليه شك، ولا يدور حوله خلاف:

(١) يجـد المتتبع لمـا كتبه الأوربيـون المعنيون بـاليمن قبـل الإسـلام أنهم يطلقون اسم العربية السعيدة على الرقعة الممتدة شرقاً من الخليج، وجنوبـاً بحر العـرب، وغربـاً البحر الأحمـر، وشمالاً بـادية الشـام[1]، مستغرقـة لأكثر أقـاليم الجزيرة.

والذي حملهم على ذلك هو النفوذ المتطاول للحضارات اليمنية المتعاقبة من تلك التي تسمى بالبائدة كعاد وثمـود وما تـلاهما من حضـارات المعينية والسبئيـة والحميرية، فقد كانت كلها ممالك تصل الهند بالحبشة ودول البحر الأبيض المتوسط، كمصر والشام.

والـظاهرة التي نسجلهـا بهذا الصـدد هي: أن المتتبـع لخـطوات التـاريـخ المتنقلة على رمال اليمن وجبالها يعد أن بداياتها عـادة تأتي من الشرق زاحفـة إلى الغرب، فقد كانت عاد الأولى تسكن في المنطقة بين حضر موت والبحـرين. ولما

---

(١) تبدأ حدود العربية السعيدة عند بطليموس حوالي عشرة كيلومترات جنوب العقبة وتمتد حدودها عبر صحراء النفوذ حتى يصاقب الخليج.

كتب الله عليها الزوال هي وطاغيتها الخلجان، جاءت من بعدها عاد الثانية، التي يذكر المؤرخون أنها تتكون من المؤمنين الناجين مع هود عليه السلام، والوافد العائد بعد الاستسقاء بالبيت الحرام.

وكان ملكهم فيما يذكرون (لقمان) استقر قرارهم مما يلي أرض عاد الأولى غرباً. واستمر ملكهم قروناً حتى تزاحموا مع ثمود، التي كانت مستقرة فيما بين عسير وشمال اليمن الشرقية.

وحين حالت دولة عاد الثانية، ونزحت ثمود لأسباب مجهولة إلى شمال الجزيرة بوادي القرى وأرض الحجر، قامت دولة معين. وكان مستقرها فيما يلي أرض عاد الثانية غرباً، وهي ما نعرفه الآن بالجوف.

وقامت عاصمتهم الأولى (معين) في القرن الرابع عشر قبل الميلاد ثم عاصمتهم الثانية قرناو.

ومع مطلع القرن التاسع قبل الميلاد نرى السبئيين يقيمون دولتهم الباذخة في منطقة غربية مجاورة لأرض معين هي (صرواح) و (مأرب) ودام لها الأمر سبعة قرون، ثم شاخت وحل محلها في منطقة أكثر قرباً إلى الغرب هي (ريدان ظفار) عاصمة الحميرين، التي بزغت في مطلع القرن الثاني قبل الميلاد، وغربت أواخر القرن الخامس الميلادي.

ولعل هذا الزحف المطّرد للحضارة اليمنية من مشارقها إلى مغاربها يدل على ابتعادهم عن الرقعة الصحراوية، التي كانت تتوسع قرناً فقرناً فيما يسمى اليوم (بالربع الخالي)، والحرص على الاقتراب من المرافىء الغربية الجنوبية نظراً لتحول الخط التجاري العالمي من الصحراء إلى البحر.

وها نحن اليوم وأنا أكتب هذا مطلع سنة ١٤٠٥ هـ وبعد سنة ١٩٨٥ م نشهد سطوع شمس الحضارة اليمنية المعاصرة من رمال مأرب وواحات الجوف.

وقـد ظهرت البوادر المؤكدة لوجود ثروة نفطية كـافية لـلاستهلاك المحـلي، ووافية للتصدير الخارجي[1]. كما نشهـد ابن اليمن الأصيل النـازحَ عنها أسـلافُه منـذ مئات السنـين، السلطان الشهم الشيخ زايـد بن سلطان آل نهيّان الأزدي، رئيس دولة الإمارات المتحدة السبع، والذي لا يزال فيـما أخبرني عـارف لمناطقنـا الشرقية وادٍ بها يحمل اسم آل نهيان شاهداً بالمكانة العريقة لأسرة هذا الـرجل في ذاكرة اليمن وجغرافيته.

أقـول ها نحن نشهـد الشيخ زايـد، ومعه الـرئيس العقيـد عـلي عبـد الله صالح رئيس الجمهورية، والقائد العام للقوات المسلحـة، والأمين العـام للمؤتمر الشعبي العام، يضعان حجر الأساس لإقامة وإعادة سد مـأرب العظيم، الـذي يعيد إلى أرض الجنتين رخـاءَها ومجـدها، ـ إن شـاء الله ـ. وسيسقي ستين ألفَ هكتـار، أي ما يسـاوي مساحـة وادي مور، الـذي هو أكـبر وديان تهـامة، بـل ميزاب اليمن الأعظم، كما وصفه أبو محمد الحسين بن أحمد الهمداني[2].

(٢) إذا تصفحت كتـاباً كـ(الآثـار البـاقيـة) لأبي الـريحـان البـيروني، أو (السيرة) لعبد الملك بن هشام المعافري أو (معجم البلدان) لياقوت وهو جغـرافي أكثر منه تاريخي تشهد الكثير من الحوادث، التي يسـوقونها لـك مبثوثـة في البقاع والأصقاع عن وقائع تبّع حسان، وشمر يرعش، وأسعد ملكي كرب، وأمثالهم في معاركهم التي خاضوها، وظفروا فيها داخل الجزيرة وخارجها.

ومع المناقشات الوجيهة التي أبداهـا ابن الأثير في كـامله لبعض المبالغـات الإخبارية عن وقائع القوم، فإنه يسلم بتفرد اليمن بالسيادة داخل الجزيرة، وعلى أطراف العراق والشام.

---

(١) في يـوم السبت ٣ شعبان سنـة ١٤٠٦ هـ ١٢/٤/١٩٨٦ م ضخت مصفـاة مـأرب أول إنتـاج بترولي بحضور الرئيس علي عبد الله صالح.

(٢) في يوم الاثنين ٢٨ رجب ١٤٠٦ هـ ٧/٤/١٩٨٦ م اختزن سد مأرب السيول القادمة من عدة جهات، بينما لا يزال العمل فيه متواصلاً، افتتحه الرئيس علي عبد الله صالح والشيخ زايد بن سلطان يوم الأحد ٢٠ ربيع الآخر سنة ١٤٠٧ هـ ٢١/١٢/١٩٨٦ م.

ومما هو ثابت تأريخياً في غير جدلٍ أو شكوك ما أقامته ثمود من حضارة في الحجر والمعلى، مما لا يزال شاخصاً بأثالث شمالي غربي الجزيرة ومما هو ثابت أيضاً حضارة آل جفنة الغسانيين بحوران والبلقاء وما وراء ذلك، وحضارة التنوخيين والمناذرة ببلاد الرافدين.

ولم يكونوا كما يصورهم البعض مجرد تابعين أذلاء لأكاسرة الفرس وقياصرة الروم، وإنما كانت لهم الشوكة المرهوبة لدى رجال الدولتين العظيمتين في عالم ما قبل الإسلام.

ويذكر المؤرخون الأوربيون قبل المؤرخين العرب، ما أصاب أهل القسطنطينية من ذعر عند مرآهم للحارث بن جبلة الأعرج، فخامة منظره وموكبه. ويذكرون أن جستنيون عندما أصابه الخرف كان لا يجد جلساؤه ما يوقظون به حواسه، إلا ذكر الحارث فينتبه ويثوب.

هذا مجمل سريع لحضارة القوم على أطراف الجزيرة وبلاد الهلال الخصيب، أمّا داخل الجزيرة، فإن موجات الهجرة المتدافعة من أعماق اليمن إلى أواسط الجزيرة وجوانبها الشرقية والغربية وإنك تذكر مثلاً: طيء، الأشعر، بجيلة، جذام الأزد، عاملة، كندة، لخم، نصير، مذحج، همدان، مازن، غسان، أزد شنوءة، الأوس، الخزرج، خزاعة.

وتذكر أيضاً أن بكر بن وائل حين أجهدها عسف التنوخيين، لجؤوا إلى تبع حسان ليعين ملكاً عليهم من قومه. فبعث معهم حجر بن عدي الكندي، فأقام مملكة لكندة في نجد، ثم تجاوز نجد إلى أواسط الجزيرة، حيث عين الحارث بن عمرو بن حجر ثلاثة من أولاده ملوكاً هنالك. وهم: حجر بن الحارث علىٰ بني أسد بن جذيمة وغطفان، شرحبيل بن الحارث على قيس عيْلان وطوائف غيرها، سلمة بن الحارث على تغلب والنمر بن قاسط.

نخلص من هذا الاستعراض السريع إلى تقرير حقيقتين تاريخيتين تفضيان إلى ظاهرة هي المقصودة في هذه النقطة.

فأما الحقيقتان، فأولاهما: أن اليمن هي وحدها التي أقامت للعرب قبل الإسلام حضارات، فلا تزال دواوين حسان والنابغة وعدي بن زيد العبادي وطرفة بن العبد تفيض بها، كما لا تزال نقوشها وبعض عمائرها تروي للناظرين مجداً أثيلاً وتفوقاً بارزاً.

والحقيقة الثانية هي: أن الجزيرة وحدة لا تقبل التجزئة، يعيش فيها كل أبناء العروبة في غير تفاضل أو تمييز. فقد أرتادها اليمنيون، كما استقربها الحجازيون والنجديون، وتواطؤوا أكنافها معاً. وما يقال عن صراع المضرية والحميرية والعدنانية والقحطانية، ليس إلا أحداثاً عرضت وانتهت، كما تحدث بين أبناء الأسرة الواحدة، والمجتمع الواحد.

ورغم أن الحسّ القبلي الضيق عمقها، وعمقتها الثارات، والأحقاد المتوارثة، إلا أن الشريط الطويل للتاريخ يكشف لنا عن كثرة الفترات التاريخية، التي شهدت تعاونهم وتآلفهم في أكثر من جيل وأكثر من قبيل.

والظاهرة التي نستخلصها من كل ذلك هي: خيرية ويُمْن اتحادهم وتعاونهم. فقد تعاونت خزاعة اليمنية مع قريش المضرية ضد جرهم اليمنية، وتمّ بهذا الاتحاد المبارك عمران البيت الحرام، بعد أن أساءت جرهم القيام به.

والحادثة الثانية المباركة لاتحادهم: هي تلك التي تمت بين المهاجرين القرشيين والأنصار اليمنيين، وأقاموا دولة الإسلام الأولى.

كما نتج عن تضافر اليمنية والقيسية انتشار دين الله، في مشارق الأرض ومغاربها كان ذلك في صدر الإسلام، واستمر مدد الخير في العصور المتأخرة ـ كما ستوضحه لنا الأبواب التالية من الكتاب ـ في القرن السابع وحتى القرن التاسع على يد ملوك أمثال: المنصور عمر بن علي بن رسول وولده المظفر، يوسف

والمجاهد علي، وعلى يد قيادات شعبية هذبها الدين، وزكاها العلم، وصقلها الإخلاص أمثال: محمد البعداني وغيرهم، ممن سيمر بك خبرهم قريباً، ـ إن شاء الله ـ.

ولم تحدث الفرقة الحقيقية بين أبناء الجزيرة إلا قريباً؛ حين أصيب العالم الإسلامي بعدوى الحضارة الحديثة، فوضعت الحدود، وأقيمت السدود التي ما أنزل الله بها من سلطان.

واليوم ونحن نشهد أحطاراً تتألب، وأعداءً تتكالب على الجزيرة، قصبة دار الإسلام ومنبعه الأول، فنجد أننا ملزمين بالعودة إلى خيرية الوحدة ويمنها، ويلتقي اليمني بالحجازي، والنجدي بالتهامي، تحت راية القرآن. فالكل جند الله وأبناء الأب الواحد والعقيدة الواحدة.

ولو أنك بحثت عن محتد قبائل شمالية؛ كحرب وشمر وعتيبة[1]، لوجدت أرُومتها اليمنية، وأوشاجها الوثيقة بارزة هنا وهناك، فهيعلا يا أبناء الإسلام.

٣ ـ والظاهرة الثالثة التي نسجلها بارزة في تاريخ اليمن بعد الإسلام تتلخص: في أنك تشهد ثلاث مدن يمنية تتناوب مجد اليمن العلمي، في أدوار أربعة، لكل دور ثلاثة قرون أو يزيد قليلاً.

فمع أن اليمن تجاوبت من أقصاها إلى أقصاها متسابقة إلى اعتناق الإسلام، والتحلي بآدابه، والتطبيق لأحكامه، والتزود من ثقافته طوال القرن الأول وما تلاه، إلا أن صنعاء تميزت بوفرة علمائها، الذين سطعوا في سماء الإسلام على امتداد القرون، الأول، والثاني، والثالث.

ونكتفي بالإشارة إلى أهم ما أنجبتهم خلال هذا الدور أمثال: طاوس بن كيسان ووهب بن منبه، ومعمر بن راشد الأزدي وعبد الرزاق بن همام،

---

(١) يؤكد علماء الأنساب أن حدب هي من كهلان وأن شمر فرع من طيء وكلتاهما يمنيتان.

وإسحاق بن إبراهيم الدبري، وهشام بن يوسف، وعبد الملك الذماري، وأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني.

ومع مقدم القرن الرابع وحتى القرن السابع، تفردت الجند بعلمائها الأعلام، وزعامتها الفكرية لسائر اليمن، إذ أنجبت خلال تلك الفترة أعلاماً مبرزين، علماً وعملاً أمثال زيد بن عبد الله اليفاعي، ناشر كتب أبي إسحاق الشيرازي، وحاملها إلى اليمن. وزيد بن الحسن الفائشي والحافظ أبي بكر العرشاني، ويحيى بن أبي الخير العمراني صاحب (البيان)، الذي حمله أهل بغداد حين ورد إليهم على الرؤوس، وفي أطباق الذهب. وسيف السنة أحمد بن محمد البريهي، والمصلح الشهير أحمد بن علوان، وأبو الحسن علي الأصبحي صاحب (المعين)، والقاضي مسعود القرّي قاضي ذي أشرف، ومقيم العدل على السلطان طغتكين بن أيوب في القصة، التي ستجد تفاصيلها أثناء الكتاب، وأمثالهم.

ويأتي دور زبيد وزعامتها الفكرية لليمن، من بعد القرن السابع وحتى القرن التاسع وشطراً من العاشر، إذ تجد نفسك أمام قمم مبرزة، علمياً وإصلاحياً أمثال: إبراهيم بن زكريا الشويري وإسماعيل بن محمد الحضرمي، وأحمد بن موسى العجيل، وأبي الغيث بن جميل، الذي أطلق عليه معاصروه وبحق (شمس الشموس)، وإسماعيل بن أبي بكر المقرىء والحسين بن عبد الرحمن الأهدل، ومحمد بن نور الدين الموزعي ويحيى العامري، وأمثالهم كثير.

وعلى حين لم نسمع أواخر القرن التاسع وأواخر القرن العاشر، إلا بأفذاذ قلائل أمثال محمد بن إبراهيم الوزير في صنعاء، وعبد الرحمن الديبع في زبيد، ومحمد الأشخر في الضحي إلا أن صنعاء تعود مرة ثانية إلى زعامتها الفكرية والإصلاحية، فتبهرنا بعمالقة أمثال الحسن بن أحمد الجلال وصالح بن مهدي المقبلي، وعبد القادر البدري وأحمد بن محمد قاطن ومحمد بن إسماعيل الأمير،

وعبد القادر بن أحمد وإمام السنة محمد بن علي الشوكاني، ورئيس العلماء أحمد بن محمد الكبسي، وكثير غيرهم.

وهذا التناوب الميمون بين مدن اليمن يجعلنا نتطلع شغفاً ولهفاً إلى أفق اليمن في إشراقها الثالث، الذي نرجو ضارعين إلى ذي الجلال والإكرام أن يمده بالإلق الساطع، فيملأ سماءنا الفكرية بل وسماء الإسلام كافة، بكواكب يمنية أكثر إشراقاً وتألقاً وما ذلك على الله بعزيز.

(٤) إذا كانت الريادة خصيصة يمنية بسبب الذخر الروحي والسبق الحضاري، الذي توفر لليمن، فإن الموقع البعيد نسبياً من عواصم الإسلام الكبرى بغداد، ودمشق، القاهرة، جعل الأحداث والأفكار الدخيلة تأتي إلى اليمن متأخرة بعد أن تكون آثارها السيئة قذ ظهرت في الأقطار المتقدمة شمالاً، مما يهيىء لليمن فرصة الاستفادة من تجارب الآخرين، والتوقي مما أصابهم، وتلك نعمة كبرى أنعمها الله سبحانه على البلد، فله الحمد.

فلقد ظهرت الخوارج في أربعينات القرن الأول، ولكنها لم تدخل اليمن على يد عبد الله بن يحيى الكندي إلا في العقد الثاني من القرن الثاني، وظهر التشيع أيضاً في نفس فترة ظهور الخوارج، ولكنه لم يدخل اليمن كمنهج فكري إلا أواخر القرن الثالث على يد الهادي يحيى بن الحسين ولقد دارت المفاخرة بين المضرية واليمنية في القرن الأول على لسان الكميت بن زيد، والطرماح بن حكيم، ومن بعدهما في القرن الثاني على لسان دعبل وشعراء المولدين، ولكن أصداءه لم تظهر في اليمن إلا في أوليات القرن الرابع على لسان أبي محمد الحسن الهمداني، وهي نفس الفترة التي ظهرت فيها الإسماعيلية على يد منصور بن حوشب، والقرمطية على يد علي بن الفضل. ولم يظهر الفكر المعتزلي في اليمن كمنهج متكامل إلا في القرن السادس على يد جعفر بن أحمد بن عبد السلام، مع أنه قد ظهر غيرها في أوليات القرن الثالث، وكذلك شأن التصوف الفلسفي الذي تبناه ابن عربي في القرن السادس، فإنه لم يدخل اليمن إلا في القرن

التاسع على يد ابن الكرماني، فتصدى له علماء الشريعة، وأنقذوا البلاد من إصابته.

وما أشبه الليلة بالبارحة فإن الدعوات الهدامة المعاصرة والأحزاب السياسية المنتشرة لم تجد لها موطئاً في اليمن إلا بعد أن ظهرت آثارها الوبيلة في غيرها من الأقطار، الأمر الذي جعل هذا البلد أكثر حذراً من أخطارها، وتوقياً من شرورها. وهو بعون الله قادر على التحصن منها و التخلص من آثارها، والله المستعان.

ولعل وجود الميثاق الوطني المشبع بروح الإسلام، عقيدة وشريعة، يحول بين اليمن وبين محن الفرقة التي أصيبت بها غيرها من البلدان.

(٥) لليمن شاطئان غربي وجنوبي، يطلان على جزر كثيرة تمتد من فرسان ودَهلك في البحر الأحمر إلى الشحى وما جاورها في بحر العرب. وقد ذكرها الهمداني مفصلةً في صفة الجزيرة. ونلحظ أن دولتي الزياديين والنجاحيين كانتا الأكثر اهتماماً بالملاحة وإنشاء القوة البحرية، فنالت اليمن من ذلك خيراً كثيراً حتى إن الملكة النجاحية الصالحة (علم) كانت تحج بأهل اليمن في مراكبها البحرية فتكفيهم مشقة النهب، الذي كان منتشراً في البر بسبب تمرد القبائل.

أما في الدولتين الصليحية والرسولية فقد قل الاهتمام بالقوة البحرية، حتى إن الصليحي لم يجد ما يمكنه من القبض على النجاحيين وهم على مقربة منه في دَهلك، وحتى إن الحجاج في أواسط العهد الرسولي والطاهري، لم يكونوا بالغي البلد الحرام، إلا في خفارة ابن العجيل وأبناء الشيخ مرزوق، إلى قدوم مصطفى النشار الوالي العثماني في القرن العاشر، فأنشأ لحجاج اليمن محملاً كمحمل مصر والشام، وكانت غلطة عامر بن عبد الوهاب الطاهري بسبب مشورة الشرف الموزعي أنْ رفض إعانته الجراكسة في كمران، الذين أرسلهم (قانصوه الغوري) ملك مصر لمحاربة البرتغال، فأدى إلى دخولهم تهامة اليمن، واستيلائهم على جبالها.

ولقد كانت سنة ٩٢٣ من السنوات التاريخية الحافلة، ففيها انتهى حكم الطاهريين على يد الجراكسة الغوريين، كما انتهى حكم الغوريين لمصر على يد سليم العثماني وكما تمكن برسباي الغوري مس قتل عامر الطاهري، تمكن أهل الحُبَيْش بالتقيد من قتل رسباي، واسترداد ما اغتصبه من أهل صنعاء وتعز وأب وذمار وزبيد. وكانت حمولة ٨ آلاف جمل.

أما غلطة الأئمة فإنهم ساروا على إهمال غيرهم، فلم يقيموا أية قوة بحرية، مما جعل البرتغاليين والفرنسيين ومن بعدهم الإنجليز يضربون المخاء، ويستولون على (ميون) وعدن.

وما أحوجنا اليوم للتنبه إلى هذا الجانب الهام، والاهتمام بإنشاء القوة البحرية الرادعة، واستعادة السيطرة، والتحصين للجزر اليمنية التي يسرح الأعداء فيها ويمرحون، لا سيما وقد زاد تسابق الأعداء على ممرات الملاحة العالمية، ونشر دعواتهم الإجرامية. وبهذا الصدد ننّبه العلماء إلى خطورة ما تجره غلطة بعضهم عن أوضاع العالم، الفكرية والسياسية والاقتصادية والعسكرية، فيشتغلون بالخلافات الفرعية البسيطة، مثيرين حولها زوابع الفرقة والخصام بين أبناء الملة الواحدة فينتج عن ذلك غفلة أبناء الوطن عما يكيده أعداؤهم لهم، ويتخاذلون عن مواجهة عدوهم فبينما كانت المطرفية تختلف مع الزيدية حول التحسين والتقبيح، تفاقم الأمر إلى استغاثة ابن النساخ المطرفي[1] بالخليفة العباسي ضد عبد الله بن حمزة، فكان ذلك سبب دخول الأيوبيين. وبينما كانت صنعاء مشغولة بالخلافات المذهبية حول التأمين، ورفع اليدين عند تكبيرة الإحرام، كانت الفرنس تدك المخاء، وسفن الإنجليز تستولي على ميون وعدن وكمران، فالله الله يا علماء الإسلام.



الباب الثالث

الإشراق اليمني الأول



الإشراق اليمني الأول:

لليمن طوال عهدها الإسلامي إشراقات ثلاثة لكل منها شوطه، الذي به يبدأ وإليه ينتهي، حددنا كلاً منها على ضوء المعطيات العلمية والفكرية والسياسية القائمة، والأحداث التاريخية الحاسمة.

فيبدأ الإشراق الأول بفجر الإسلام شاملاً ـ قدر المستطاع ـ الإنجازات الجهادية والعلمية والإصلاحية لليمن، في أرجاء رقعة الإسلام، وينتهي بمنتصف القرن السابع قبل سقوط بغداد في أيدي التتار.

ويبدأ الإشراق الثاني من منتصف القرن السابع إلى منتصف القرن الرابع عشر، حيث كانت خميرة البعث الإسلامي، والتحرك الوطني تضع أقدامها على الطريق، وتتحسس المسار إلى المستقبل.

ويبدأ الإشراق الثالث من منتصف القرن الرابع عشر وإلى ما شاء الله أن يكون؛ فنحن اليوم نعيش بواكير النهوض، وتباشير الانطلاق المتجدد المتصاعد بإذن الله؛ آملين أن يكون لليمن ريادة العودة كما كان لها ريادة البدء في مطلع الإسلام، وأن يحقق الله لها وبها قيام دولة الإسلام العالمية، وما ذلك على الله بعزيز.

نازحون ووافدون ومقيمون

وسيمتاز حديثنا في الإشراق الأول بتصنيف اليمنيين إلى ثلاثة أقسام:

١ ـ أولئك الذين غادروا اليمن قبل الإسلام، واستقروا في أرجاء الجزيرة وأطراف العراق والخليج والشام، ورأينا تسميتهم بـ (النازحين).

٢ ـ أولئك الذين استجابوا لداعي الله بعد البعثة والهجرة وسنوات الفتح، ورأينا تسميتهم بـ (الوافدين)، ولم نشأ أن نقصر عليهم الفتح دون غيرهم؛ لأنهم اشتركوا مع إخوانهم النازحين، ومع سائر قبائل العرب؛ من مضر وربيعة وعبد القيس، وكانوا جميعاً عمود الفتح وجناحيْه.

٣ ـ أولئك الذين استقروا في اليمن، وكانوا المقيمين بها والعامرين لها، علماً وإيماناً وإصلاحاً ورأينا. . تسميتهم بـ (المقيمين).

غير أن في النفس من اعتراض معترض على التمسك بيمنتهم رغم تطاول الأمد عليهم. ولمثل هذا الاعتراض نوضح دواعي التمسك بانتسابهم الأصيل.

لماذا هذا الإصرار على يمنيتهم؟

وننظر إلى هذا الأمر في عهد النبي ﷺ، فنرى أنه مع التركيز العميق الدائم على اجتثاث الحمية العصبية والإلحاح المتصل على إفراد الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين، إلَّا أن وجود القبائل والاعتزاز بها والاحتفاظ بتكوينها ظل مستمراً، وكان شاعر الإسلام (حسان بن ثابت) رضي الله عنه يجهر بقوله:

أمّا سألتَ فإنا معشر نجب ... الأزد نسبتنا، والماء غسان
شم الأنوف لهم مجدٌ ومكرمة ... كانت لهم كجبال الطور أركان

وفي سنوات الفتح كان الاحتفاظ بزعامته القبلية وأفرادها ضرورة إدارية وعسكرية تماماً، كضرورة احتفاظ اللواء بقيادته وجنوده.

أما في العهد الأموي فإن العودة إلى شعر النقائض القبلية والتنابز العشائري، أذكى النار التي كانت خافتة في العهدين: النبوي والراشدي، وكما قال الأخطل النصراني:

ذهبت قريش بالمكارم كلها والـلؤم تحت عمائم الأنصار

سمعنا عظيماً، كالنعمان بن بشير وهو صحابي ابن صحابي رضي الله عنهما يقول في قصيدة طويلة:

وإني أنا النعمان أمسيت بارزاً
لِيَعرفُني في الناس من هو عالم
فمن سبأ أصلي وفرعي ومحتدي
تنازعني منها الجدود الأكارم
لنا من بني قحطان سبعون تبعاً
أطاعت لها بالخرج منها الأعاجم

والنعمان هذا هو الذي طلب من جنود اليمن المرابطين بحمص وكانوا فيما يقول صاحب الأغاني عشرين ألف جندي أن يدفعوا لأعشى همدان درهماً عن كل واحد منهم؛ لما امتدحه أيّام ولايته، ووصلاً لرحم يمنيته. كما سمعنا سعد بن قيس بن عبادة رضي الله عنهما يقول عن حادثة مباراته مع الروم، وفي موقف معاوية رضي الله عنه:

وإني من القوم اليمانيين سيد
وما الناس إلا سيد ومسود

وإذا تجاوزنا الأمويين إلى أيام الخليفة العباسي العاشر المتوكل، سمعنا أبا عبادة البحتري الطائي يقول في رائعته عن إيوان كسرى، موضحاً ومبرراً تعاطفه مع الفرس:

ذاك عندي، وليست الدار داري
باقترابٍ منها، ولا الجنس جنسي

غير نعمي لا أهلها عند أهلي
غرسوا من زكائها خير غرس

أيدوا ملكنا، وشدوا قوانا
بكماة تحت السنور خُمس

وأعانوا على كتائب أرياط
بطعن على النحور ودعس

وسنرى كيف اختلف العلماء حول نسب الإمام الأوزاعي، مما يعكس حرص القوم على النسب. والشواهد كثيرة في شعر ابن رشيق القيرواني، وابن هانئ الأندلسي والملك المنصور بن أبي عامر المعافري والملك المعتمد بن عباد اللخمي، يستطيع الرجوع إليها من أحب الوقوف عليها.

والحق: إن عصبية الحجاج بن يوسف لثقيف وجهده للوقيعة بآل المهلب، كانت مضاعفة سيئة لإشعال نار العصبية، التي كان من خبرها ما كان. والحق أيضاً؛ أنه ظهر ـ والحمد لله ـ في صفوف القادة اليمنيين من تسامى على العصبية الضيقة، وتحلى بالروح الإسلامية الحقة. وارتضى قيادتهم كل أفراد الجيش المسلم. منهم في الشرق مثلاً الجراح بن عبد الله الحكمي، ومحمد بن جرير البجلي. ومنهم في الغرب أمثال: السمح بن مالك الخولاني وعبد الرحمن بن عبد الله الغافقي، ممن سنتوسع في الحديث عنهم قريباً، إن شاء الله.

تنبيه

بعد الذي أسلفناه من تقسيم اليمنيين بهذا الباب إلى وافدين، ونازحين، ومقيمين، ننبه إلى أننا سنقصر الذكر على من له جهاد يـذكر، أو عبـادة تؤثر، أو علم يزبر، مضر بين صفحاً عمن أثاروا فتنة أو نعقوا بناعقة الفرقة؛ لأن غرضنا من هذا تقديم أسوة السلف للخلف، وقدوة الأجداد للأحفاد.

وسنـرتب الكـلام في هـذا البـاب عـلى عهـود أربعـة: العهـد النبـوي ثم الـراشدي ثم الأمـوي ثم العباسي، بـادئين بعـون الله وتوفيقـه بذكـر الوافـدين فالنازحين لكل عهد على حدة، وبعد استيفاء العهود الأربعة سنأتي بالمقيمين طوال الأربعة عهود، ثم نختم الباب بالمناقب والريادات.

وفيـما يتعلق بجناحي الإسـلام الأوس والخزرج وهم عـلى التقسيم الـذي أسلفنـاه يعـدون من النـازحـين، إلا أن الله ـ ولـه الحمـد ـ قـد نشر ذكـرهم في الأمصار، وملأ به بطون الأسفار. فنكتفي بذكـر من انفرد منهم بمنقبـة روحية أو علمية، أمّا ما عدا الأنصار من النازحين فسنذكـر ـ بعون الله ـ من امتـاز بتبريـز جهادي أو علمي أو إصلاحي، والله المستعان.



في العهد النبوي

بعد مقتل سيف بن ذي يزن الذي أعاد لليمن وحدته ودولته المركزية والذي استمر حكمه خمسة عشر عاماً، عاد الشتات والتمزق الذي كان سائداً قبل غزو الأحباش، وقام الاحتلال الفارسي مقام الاحتلال الحبشي. وإلى جانب التمزق السياسي كان التذبذب العقائدي لاصطراع اليهودية والنصرانية، وصنمية العشائر ومجوسية المحتل. فكان ظهور الإسلام بلسانٍ عربي، وعلى يد هاشمي قرشي هو وقومه في ذروة العرب، حسباً ونسباً وسدانة لبيت إبراهيم، المعبد الأول الجامع لكل العرب، كان ظهور ذلك بشرى الخلاص المرتقب جمعاً للشتات وتخليصاً من المحتل، وقبل هذا وذاك تطهيراً للقلوب؛ ووصلاً لها بإلٰهها جل جلاله.

ومن هنا كانت الاستجابة اليمنية السريعة لدين الله بمجرد أن وصلت رسائل النبي ﷺ إلى ملوك اليمن وأقيالها في العام السابع بعد صلح الحديبية.

بيد أن مصادر تذكر نفراً من اليمنيين كانوا سباقين قبل ذلك إلى الدخول في دين الله خلال سنوات البعثة، ومنهم: أبو موسى الأشعري وسعد بن مالك الهمداني وقيس بن الحصين الحارثي.

وبعد الوقوف على مراجع يمنية وغير يمنية تناولت خبر دخول اليمن في الإسلام، رأيت الاكتفاء بمراجع خمسة هي أمهات تاريخ الإسلام: الكامل لابن الأثير، البداية والنهاية لابن كثير، الإصابة لابن حجر، تهذيب الأسماء للنووي، وهو وإن كان مقصوراً على أسماء وردت في كتب الفقه، إلا أنه مصدر موثوق يمكن

الاطمئنان إليه. وخامسها: زاد المعاد لابن قيم الجوزية، رحمهم الله جميعاً.

والذي حملني على الاهتمام بهذا الأخير في موضوع تاريخي ربما ظن الكثيرون أنه لا علاقة له به ـ هو أنني وجدت أكثر المراجع اليمنية تقف بعدد الوفود اليمنية الداخلة في دين الله إلى خمسة وفود، بينما وصل بها ابن القيم ـ وهو الإمام المحقق في كل فن تناوله ـ إلى أكثر من ستة عشر وفداً داخلاً فيها بعض وفود اليمنيين النازحين. ولهذا فمرجعنا إليه في تعداد الوفود، مستفيدين من المراجع الأخرى في التراجم الشخصية، فعلى اسم الله نبدأ معيدين إلى الذهن أننا لا نؤرخ، وإنما نختار ما نرجو من إيراده نفعاً للقارىء وذكراً لما أهمل في الكثير من الدراسات التاريخية، مع ما فيه من خير وأثر جميل.

وفد الأشاعرة

الثابت تاريخياً أن أبا موسى أسلم على يد النبي ﷺ، وعاد فأسلم أهله وقبيلته، واختار عدداً من القوم هاجر بهم فنزلوا الحبشة، ثم قدموا مع جعفر بن أبي طالب مَقدمَه إلى النبي عند فتح خيبر.

وورد في السير أن وفد الأشاعر قدم في العام العاشر، ولعل ذلك وفد من بقي في اليمن ولم يهاجر مع أبي موسى. وعن هذا الوفد قال ابن القيم في كلام طويل عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فقال: أتاكم أهل اليمن كأنهم السحاب، هم خيار من في الأرض، فقال رجل من الأنصار: إلا نحن يا رسول الله، فسكت، ثم قال: إلا أنتم» كلمة ضعيفة.

وفي صحيح البخاري: أن نفراً من بني تميم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ، فقال: أبشروا يا بني تميم، فقالوا: أبشرتنا، فأعطنا. فتغير وجه الرسول ﷺ. وجاء نفر من أهل اليمن فقال: اقبلوا البشرى، إذ لم يقبلها بنو تميم. قالوا: قد

قبلنا. ثم قالوا: يا رسول الله جئنا لنفقه في الدين، ونسألك عن أول هذا الأمر. فقال: «كان الله، ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء».

وفي التهذيب من ترجمة أبي موسى أن اسمه عبد الله بن قيس الأشعري، وأمه طيبة بنت وهب، امرأة من عك أسلمت وتوفيت بالمدينة. قدم على رسول الله ﷺ في مكة قبل هجرته إلى المدينة فأسلم، ثم هاجر إلى الحبشة، ثم هاجر إلى رسول الله ﷺ مع أصحاب السفينتين بعد فتح خيبر، فأسهم لهم منها ولم يسهم منا لأحد غاب عن فتحها غيرهم.

قال الحافظ أبو بكر بن أبي داود السجستاني في كتابه (شريعة القارىء): «لأبي موسى مع حسن صوته فضيلة ليست لأحد من أصحاب رسول الله ﷺ، هاجر ثلاث هجرات، هجرة من اليمن إلى رسول الله ﷺ بمكة، وهجرة من مكة إلى الحبشة، وهجرة من الحبشة إلى المدينة».

قال غيره: واستعمله رسول الله ﷺ على زبيد وعدن وساحل اليمن، واستعمله، عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الكوفة والبصرة، وشهد وفاة أبي عبيدة بالأردن، وخطبة عمر بالجابية، وقدم دمشق على معاوية فروى له عن رسول الله ﷺ ثلاث مئة وستون حديثاً، اتفق البخاري ومسلم منها على خمسين، وانفرد البخاري بخمسة عشر ومسلم بخمسة عشر.

توفي بمكة. وقيل بالكوفة سنة خمسين، وقيل سنة إحدى وخمسين، وقال الهيثم والواقدي سنة اثنتين وأربعين. وقال البخاري: قال أبو نعيم سنة أربعة وأربعين، وكذلك قال أبو بكر بن أبي شيبة، وزاد: وهو ابن ثلاث وستين سنة.

وقال قتادة: «بلغ أبا موسى أن قوماً يتأخرون من الجمعة لعدم وجود ثياب حسنة، فخرج إلى الناس في عباءة. وكان أبو موسى قدم البصرة والياً من جهة عمر بن الخطاب سنة سبع عشرة بعد عزل المغيرة، ثم كتب إليه عمر أن يسير

إلى الأهـواز، فأتـاها ففتحهـا عنوة، وقيـل صلحاً، وافتتـح أصبهان سنـة ثلاث وعشرين» .

وفي سـيرة ابن هشام أن النبي ﷺ أعـطى الرايـة يوم أوطـاس لأبي عـامـر الأشعري، فقاتل، ثم رمي في ركبته فقتـل، فأخـذ الرايـة ابن عمه أبـو موسى، ففتح الله على يده وبرزت في الأشاعرة وجوه كريمة وأعلام عظام، ربما مررنا بهـا في مكانها إن شاء الله .

ومن الأشاعرة: أبـو مالـك كعب بن عاصم وعيـاض بن غنم الأشعري، وكلاهما صحابيان، ـ رضي الله عنهما ـ.

وفد همدان

وعن وفـد همدان قـال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «وقـدم عليـه وفـد همـدان، منهم: مالك بن النمط ومالك بن أنفع وضمام بن مـالك وعمـرو بن مالـك، فلقوا رسول الله ﷺ يوم مرجعه من تبوك، وعليهم مقطعات الحبرات والعمائم العدنية على الرواحل المهرية الأرحبية، ومالك بن النمط يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ ويقول:

إلـيـك جـاوز سـواد الـريـف في هـبـوات الـصـيـف والخـريـف
مخططات بحبال الليف

وذكروا له كلاماً حسنـاً فصيحاً. فكتب لهم رسـول الله : أقطعهم فيـه ما سألوه. وأمـر عليهم مالـك بن النمط، واستعمله على من أسلم من قـومه وأمـره بقتال ثقيف. وكان لا يخرج لهم سرح إلا أغاروا عليه.

وقد روى البيهقي بإسنـاد صحيح من حـديث ابن إسحاق عن البـراء أن النبي ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى أهل اليمن يدعـوهم إلى الإسلام. قـال البراء: فكنت فيمن خرج مع خالد بن الوليد، فأقمنا ستة أشهر يدعوهم إلى الإسـلام،

فلم يجيبوه. ثم إن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأمره أن يعقب خالداً إلا رجلاً ممن كان مع خالد أحب أن يعقب مع علي رضي الله عنه فليعقب معه. قال البراء: فكنت فيمن عقب مع علي، فلما دنونا من القوم خرجوا إلينا فصلى بنا علي بن أبي طالب، ثم صفنا صفاً واحداً، ثم تقدم بين أيدينا وقرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ، فأسلمت همدان جميعاً، فكتب علي رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ، بإسلامهم. فلما قرأ رسول الله ﷺ الكتاب خر ساجداً ثم رفع رأسه فقال: السلام على همدان، السلام على همدان.

وأصل الحديث في صحيح البخاري، وهذا أصح مما تقدم. ولم تكن همدان أن تقاتل ثقيفاً ولا تغير على سرحهم؛ فإن همدان باليمن وثقيفاً بالطائف. ا. هـ. وقال في الإصابة بعد كلام طويل «استوفى معناه ابن القيم فيما سبق». وكان مالك بن نمط شاعراً محسناً وهو القائل:

ذكرت رسول الله في فحمة الدجى ونحن بأعلى رحرحان وصلدد
حلفت برب الراقصات إلى منى صوادر بالركبان من هضب قردد
بأن رسول الله فينا مصدق رسول أتى من عند ذي العرش مهتد
وما حملت من ناقة فوق رحلها أشد على أعدائه من محمد
وأعطى إذا ما طالبُ العرف جاءه وأمضى بحد المشرفي المهند

قلت: وسيأتي في ترجمة نمط بن قيس بن مالك أنه الوافد، وقيل أبوه قيس بن مالك. والذي يجمع الأقوال أنهم وفدوا جميعاً، فقد ذكر الحسن بن يعقوب الهمداني في كتاب نسب همدان في هذه القصة أنهم كانوا مئة وعشرين نفساً ذكره الرشاطي عنه.

وفي الإصابة أيضاً عن ترجمته لنمط بن قيس نجد ذكر نسبه قال: «وقيل: هو قيس بن مالك بن نمط، وذكره الرشاطي عن الهمداني. وقال الطبري: وفد قيس بن مالك، وقيل: إن الوافد نمط بن قيس بن مالك، وبه جزم ابن الكلبي

وساق نسبه، وذكر أن النبي ﷺ أطعمه طعمة تجري على ولده باليمن إلى اليوم. قلت: وتقدم ذكره مالك بن وقش، وكان الجميع وفدوا، فقد حكى الهمداني أن وفد أرحب كانوا مئة وعشرين نفساً» اهـ. ولهمدان في الإسلام نبأ عظيم بل أنباء، سنمرُّ بها في مكانها، إن شاء الله.

وفد كندة

هذا هو الوفد الثالث من الوفود اليمنية المشهورة، التي وفدت على النبي ﷺ في العام العاشر عند منصرفه من تبوك.

قال ابن القيم: «قدم الأشعث بن قيس على الرسول ﷺ في ثمانين أو ستين راكباً من كندة، فدخلوا عليه ﷺ قد رجلوا جمعهم، وتسلحوا ولبسوا جباب الحبرات مكففة بالحرير. فلما دخلوا قال رسول الله ﷺ: «أولم تسلموا». قالوا: «بلى» قال: «فما هذا الحرير في أعناقكم»؟ فشقوه ونزعوه وألقوه. ثم قال الأشعث: «يا رسول الله نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار»، فضحك رسول الله ﷺ ثم قال: «ناسب بهذا النسب ربيعة بن الحارث، والعباس بن عبد المطلب.

قال الزهري وابن إسحاق: كانا تاجرين، وكانا إذا سارا في أرض العرب فَسُئلا من أنتما؟ قالا: نحن بنو آكل المرار. يتعززون بذلك في العرب ويدفعون به عن أنفسهم، لأن بني آكل المرار من كندة كانوا ملوكاً. قال رسول الله ﷺ: «نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا، ولا ننتفي من أبينا».

وفي المسند من حديث حماد بن سلمة عن عقيل بن طلحة عن مسلم بن مسلم عن الأشعث بن قيس قال: قدمنا على رسول الله ﷺ، وفد كندة، ولا يرون إلا أني أفضلهم. قلت: يا رسول الله ألستم منا؟ قال: «لا، نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفي من أبينا».

وكان الأشعث يقول: «لا أوتي برجل نفى رجلاً من قريش من النضر بن كنانة إلا جلدته الحدّ».

قال ابن القيم: إن للنبي ﷺ جدة من كندة هي: أم كلاب بن مرة، وهي التي عناها الأشعث» اهـ.

وفي الإصابة قال ابن حجر بعد كلام طويل في ترجمة الأشعث لما قدم الأشعث أسيراً على أبي بكر أطلق وثاقه وزوجه أخته، فاخترط سيفه، ودخل سوق الإبل فجعل لا يرى جملاً ولا ناقة إلا عرقبه، فصاح الناس: كفر الأشعث. فلما فرغ طرح سيفه وقال: «إني والله ما كفرت، ولكن زوجني هذا الرجل أخته، ولو كنا في بلادنا كانت وليمةً غير هذه. يا أهل المدينة كلوا، يا أصحاب الإبل تعالوا، خذوا شرواها». ثم شهد اليرموك بالشام والقادسية وغيرها بالعراق، وسكن الكوفة، وشهد مع علي صفين، وله معه أخبار.

قال خليفة وأبو نعيم وغير واحد مات بعد قتل علي بأربعين ليلة، وصلى عليه الحسن بن عليّ، وقيل: مات سنة اثنتين وأربعين.

وفي الطبراني من طريق أُبيّ الإسرائيلي الملاى عن أبي إسحاق ما يدل على أنه تأخر عن ذلك؛ فإن أبا إسحاق كان صغيراً على عهد علي. وقد ذكر في هذه القصة أنه كان له على رجل من كندة دين، وأنه دخل مسجدهم فصلى الفجر، فوضع بين يديه كيس وحلة ونعل، فسأل عن ذلك فقالوا: «قدم الأشعث الليلة من مكة». وفيه أيضاً من وجه آخر استأذن الأشعث على معاوية بالكوفة وعنده الحسن بن علي وابن عباس، فذكر قصته. لكن هذا لا يدفع ما تقدم.

وقال أبو بكر حسان الزيادي مات وله ثلاث وستون سنة.

ومن رجال كندة المشهورين المقداد بن عمرو الكندي كما صحح نسبه النووي، وهو سابع أربعة فرسان يوم بدر، والمقدام بن معدي كرب الكندي

صحابي استقر بالشام، وحجر بن عدي الكندي كان من كبار أنصار علي، فتح مرج عذراء على أبواب دمشق وقتل شهيداً.

وفد بجيلة

يرجح ابن حجر قدوم بجيلة قبل السنة العاشرة، ويستدل على ذلك بأن جرير بن عبد الله البجلي كان هو الذي يستنصت الناس للنبي ﷺ في حجة الوداع. ومسكن بجيلة معروفة اليوم بجهة وادي مور وما جاوره. وكان مقدم جرير مع خمسين رجلاً من قومه، وهو الذي تولى إزالة (ذي الخلصة) صنم خثعمُ بأمر الرسول ﷺ، كما تم على يده فتح حلوان بالعراق وأصيب في إحدى عينيه بمعركة نهاوند، وكانت بينه وبين معاوية صلة، فأراد الصلح بين علي بن أبي طالب ومعاوية فلم يتم له ذلك. ويقال: إنه حدثت ملاحاة بينه وبين الأشتر النخعي بسبب ذلك، فاعتزل الفريقين واستقر بقرقيسيا الواقعة بين نهري الخابور والفرات. قال النووي بعد سرد الكثير من ترجمته: «وفي رواية قال: انطلق فحرّقها بالنار، ثم بعث جرير إلى رسول الله ﷺ رجلاً يبشره فبرك رسول الله ﷺ على خيل أحمس ورجالها خمس مرات» ومناقبه كثيرة.

ومن مستطرفاته أنه اشترى له وكيل فرساً بثلاث مئة، درهم، فرآها جرير فتخيل أنها تساوي أربع مئة فقال لصاحبها: أتبيعها بأربع مئة؟ قال: نعم. ثم تخيل أنها تساوي خمس مئة فقال: أتبيعها بخمس مئة؟ ثم قال: نعم، ثم تخيل إليه أنها تساوي ست مئة ثم سبع مئة ثم ثمان مئة، فاشتراها بثمان مئة رضي الله عنه.

وفد مراد ومأرب

وفد الأبيض بن حمّال المأربي على النبي ﷺ فأكرم الرسول ﷺ وفادته، وأفرشه رداء؛ كما وفد فروة بن مسيك العطيفي المرادي على النبي ﷺ بعد واقعة رزم، التي كانت بين مراد وهمدان، ولعلها كانت قبيل العام العاشر

للهجرة. وكان فروة مغاضباً بعدها لأحلافه من كندة، الذين خذلوا قومه في حربهم مع همدان، وفي ذلك يقول:

لما رأيت ملوك كندة أعرضت
كالرجل خان الرجل عرق نسائها
وجهت راحلتي أريد محمداً
أبغي فواضلها وحسن ثرائها

وقد واساه النبي ﷺ، وبشره أن هزيمة قومه في يوم الرزم خير، وزيادة في إسلامهم. وعهد إليه بعمل مراد وزبيد، وهو - رضي الله عنه - الذي اختطّ جبّانة صنعاء القديمة، ووضع مصلى له بجوارها، ولا تزال حتى اليوم حارة بين صنعاء تعرف باسم (مسيك).

وقد بحثنا عن تاريخ وفاته، ومكان قبره، فلم أجد شيئاً.

ومن مراد خرج خير التابعين أويس بن عامر القرني الذي أوصى النبي ﷺ عمر بن الخطاب بالتماس دعائه واستغفاره.

وفد دوس

كان الطفيل بن عمرو الدوسي شاعر دوس وسيدها قد أسلم على يد النبي ﷺ في أوائل البعثة، وعاد إلى قومه داعياً وحديثه طويل نقتصر منه على ما كان بعد نطقه بالشهادتين على يد رسول الله ﷺ، وما أكرمه الله به قال: وقلت: يا نبيّ الله إني امرؤ مطاع في قومي، وإني راجع إليهم فداعيهم إلى الإسلام، فادع الله لي أن يجعل لي آية. قال: فخرجت إلى قومي حتى إذا كنت بثنية على الحاضر وقع نور بين عيني مثل المصباح، قلت: اللهم في غير وجهي، أي أخشى أن يظنوا أنها مُثلة وقعت في وجهي لفراق دينهم. قال: فتحول فوقع في رأس سوطي كالقنديل المعلق، وأنا أهبط إليهم من الثنية حتى جئتهم وأصبحت

فيهم، فلما نزلت أتاني أبي وكان شيخاً كبيراً، فقلت: إليك عني يا أبت فلست مني ولست منك. قال: ولِم يا بني؟ قلت: قد أسلمت وتابعت دين محمد. قال: يا بني فديني دينك. قال: فقلت: اذهب فاغتسل وطهر ثيابك، ثم تعال حتى أعلمك ما علمت. قال: فذهب فاغتسل وطهر ثيابه ثم جاء، فعرضت عليه الإسلام فأسلم، ثم أتتني صاحبتي فقلت لها: إليك عني فلست منك ولست مني. قالت: لِمَ بأبي وأمي. قلت: فرَّق الإسلام بيني وبينك، أسلمت وتابعت دين محمد. قالت: فديني دينك. قال: قلت: فاذهبي فاغتسلي ففعلت، ثم جاءت فعرضت عليها الإسلام فأسلمت، ثم دعوت (دوساً) إلى الإسلام فأبطؤوا عليّ، فأتيت رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله إنه قد غلبني على دوس الزنى فادع الله عليهم. فقال: اللهم اهد دوساً. ثم قال: ارجع إلى قومك فادع إلى الله وارفق بهم، فرجعت إليهم، فلم أزل بأرض دوس أدعوهم إلى الله، ثم قدمت على رسول الله ﷺ بخيبر فنزلت المدينة بسبعين أو ثمانين بيتاً من دوس، ثم لحقنا برسول الله ﷺ بخيبر، فأسهم لنا مع المسلمين. قال: ابن إسحاق: فلما قبض رسول الله ﷺ، وارتدت العرب، خرج الطفيل مع المسلمين حتى إذا فرغوا من طليحة سار مع المسلمين إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو بن الطفيل فقال لأصحابه إني قد رأيت رؤيا فأعبروها لي، رأيت أن رأسي قد حلق، وأنه قد خرج من فمي طائر، وأن امرأة لقيتني فأدخلتني في فرجها، ورأيت أن ابني يطلبني طلباً حثيثاً. ثم رأيته حبس عني قالوا: خيراً رأيت. قال: أما والله إني قد أولتها قالوا: وما أولتها؟ قال: أما حلق رأسي فوضعه، وأما الطائر الذي خرج من فمي فروحي، وأما المرأة التي أدخلتني في فرجها فالأرض تحفر فأغيب فيها، وأما طلب ابني إياي وحَبْسُه عني فإني أراه سيجهد لأن يصيبه من الشهادة ما أصابني. فقتل الطفيل شهيداً باليمامة، وجرح ابنه جرحاً شديداً، ثم قتل عام اليرموك شهيداً في زمن عمر رضي الله عنه.

ومن دوس كان أكثر الصحابة حفظاً للسنة ورواية لها أبو هريرة

عبد الرحمن بن صخر الدوسي رضي الله عنه، وكان إسلامه عام خيبر.

وفد خولان

سبق الحديث الذي ورد فيه دعاؤه ﷺ لخولان العالية، ووجدت في زاد المعاد تفصيلاً لخبر وفدهم، فرأيت إيراده بنصه لما فيه من الفائدة خاصة في ذكر الفتنة التي كانت للأصنام، وما بلغ من تلبيس إبليس بواسطتها:

«وقدم عليه ﷺ في شهر شعبان سنة عشر وفد خولان وهم عشرة، فقالوا: يا رسول الله نحن على من ورائنا من قومنا، ونحن مؤمنون بالله عز وجل، ومصدقون برسوله، وقد ضربنا إليك آباط الإبل، وقد ركبنا حزون الأرض وسهولها ـ والمنة لله ولرسوله علينا ـ وقدمنا زائرين لك. فقال رسول الله ﷺ: «أما ما ذكرتم من مسيركم إليّ فإن لكم بكل خطوة خطاها بعير أحدكم حسنة، وأما قولكم (زائرين) فإنه من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة. قالوا: يا رسول الله هذا السفر الذي لا نقوى عليه. ثم قال رسول الله ﷺ: ما فعل عم أنس؟ ـ وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه ـ قالوا: شر بدلنا الله به ما جئت به، وقد بقيت منا بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به. ولو قدمنا عليه لهدمناه، إن شاء الله؛ فقد كنا منه في غرور فتنة. فقال لهم رسول الله ﷺ: وما أعظم ما رأيتم من فتنة؟ قالوا: لقد دأبتنا سنتنا حتى أكلنا الرمة، فجمعنا ما قدرنا عليه، وابتعنا به مئة ثور ونحرناها لعم أنس قرباناً في غداة واحدة، وتركناها تردها السباع ونحن أحوج إليها من السباع، فجاءنا الغيث من ساعتنا. ولقد رأينا العشب يواري الرجال، ويقول قائلنا: أنعم علينا عم أنس، وذكروا لرسول الله ﷺ ما كانوا يقسمون لصنمهم هذا من أنعامهم وحروثهم، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له وجزءاً لله بزعمهم. قالوا: كنا نزرع الزرع فنجعل له وسطه فنسميه له، ونسمي زرعاً آخر حجرة لله، فإذا مالت الريح فالذي سميناه لله جعلناه لعم أنس، وإذا

مالت الريح فالذي جعلناه لعم أنس لم نجعله لله. فذكر لهم رسول الله: «أن الله أنزل علي في ذلك ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً﴾ الآية».
قالوا: وكنا نتحاكم إليه فيتكلم. فقال رسول الله ﷺ: «تلك الشياطين تكلمكم. وسألوه عن فرائض الدين فأخبرهم، وأمرهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحسن الجوار لمن جاوروا، وأن لا يظلموا أحداً. قال: فإن الظلم ظلمات يوم القيامة. ثم ودعوه بعد أيام وأجازهم، فرجعوا إلى قومهم فلم يحلوا عقدة حتى هدموا عم أنس».

وفد صداء

قبيلة يمنية تنسب إلى مذحج القبيل اليمني المشهور، المنتشرة أفخاذه وفروعه في مشارق اليمن وشمالها حتى الغرب، حيث تلتقي مع خثعم وبجيلة والحكم بن سعد العشيرة، وكلها مذحجية. ومن مذحج أيضاً مراد والحدا والنخع وزُبيد، ـ بضم الزاي ـ. وكان النبي ﷺ قد عقد الرّاية لسعد بن عبادة ـ رضي الله عنه ـ للتوجه إلى صدا، فقدم أحدهم وتعهد بمن خلفه من قومه. وبقية الخبر نسمعه من ابن القيم ـ رضوان الله عليه ـ.

قال: فقدم على رسول الله ﷺ رجل منهم وعلم بالجيش، فرد رسول الله ﷺ سعد بن عبادة من صدرقناة، وخرج الصدائي إلى قومه، فقدم على رسول الله ﷺ خمسة عشر رجلاً منهم، فقال سعد بن عبادة: يا رسول الله دعهم ينزلوا عليَّ. فنزلوا عليه، فحياهم وأكرمهم وكساهم، ثم راح بهم إلى رسول الله ﷺ فبايعوه على الإسلام فقالوا: نحن لك على من وراءنا من قومنا. فرجعوا إلى قومهم، ففشا فيهم الإسلام، فوافى رسول لله ﷺ منهم مئة رجل في حجة الوداع. ذكر هذا الواقدي عن بعض بني المصطلق.

وذكر عن حديث زياد بن الحارث الصدائي أنه الذي قدم على رسول الله ﷺ، فقال له: أردُدِ الجيش وأنا لك بقومي. فردهم. قال: وقدم وفد

قومي عليه، فقال لي: يا أخا صداء إنـك لمطاع في قـومك قـال: قلت: بلى يـا رسـول الله منْ مَنّ الله ومَنّ رسولـه. وكان زيـاد هذا مـع رسـول لله ﷺ في بعض أسفاره. قال: فاعتشي رسول الله ﷺ ـ أي سار ليلاً ـ واعتشينا معه، وكنت رجـلاً قوياً. قال: فجعل أصحـابه يتفـرقون عنـه ولزمت غـرزه، فلما كان في السحـر قـال: أذن يا أخـا صـداء. فـأذنت عـلى راحلتي، ثم سرنـا حتى ذهبنـا، فنـزل لحاجته. ثم رجع فقال: يا أخا صداء هل معـك ماء قـال: قلت: معي شيء في الإداوة فقال: هاته. فجئته بـه، فقال: صب فصببت مـا في الإداوة في العقبة، فجعل أصحابه يتلاحقون، ثم وضع كفه على الإناء فرأيت بين كل إصبعـين من أصابعه عينـاً تفور، ثم قـال: يا أخـا صداء لـولا أني أستحي من ربي عز وجـل سقينا وأسقينا. ثم توضأ وقال: أذن في أصحابي من كـانت له حـاجة بـالوضـوء فليرد. قـال: فوردوا عن آخـرهم ثم جاء بـلال يقيم فقال: إن أخـا صداء أذن ومن أذن فهو يقيم فأقمت، ثم تقدم رسول الله ﷺ فصـلى بنا وكنت سـألته قبـل أن يؤمـرني على قـومي ويكتب لي بذلـك كتابـاً ففعل. فلما فـرغ من صلاتـه قام رجل يشتكي من عامله فقال: يا رسول الله إنه أخذنا بـذحول كـانت بيننا وبينـه في الجاهلية. فقال رسول الله ﷺ: لا خير في الإمارة لـرجل مسلم. ثم قـام آخر فقال: يا رسـول الله أعطني من الصـدقة. فقـال رسول الله ﷺ: إنّ الله لم يكـل قسمتهـا إلى ملك مقرب ولا نبي مـرسل، حتى جـزأها ثـمانية أجـزاء، فإن كنت جزءاً منها أعـطيتك، وإن كنت غنيـاً عنها فـإنما هي صـداع في الرأس، وداء في البطن. فقلت في نفسي: هاتان خصلتان حين سألت الإمـارة وأنا رجـل مسلم. وسألته من الصدقة وأنا غني عنها. فقلت: يا رسول الله هذان كتابـاك فاقبلهـما. فقـال رسول الله ﷺ: ولِمَ؟ فقلت: إني سمعتـك تقول لا خـير في الإمارة لـرجل مسلم وأنا مسلم. فقال: وسمعتـك تقول من سـأل من الصدقـة وهو غني عنهـا فإنما هي صداع في الرأس، وداء في البطن وأنا غني، فقـال رسول الله ﷺ: أمَـا إن الذي قلت كما قلت. فقبلهما رسول الله ثم قال لي: دلني على رجل من قومك

استعمله. فدللته على رجل منهم فاستعمله. قلت: يا رسول الله إن لنا بئراً إذا كان الشتاء كفانا ماؤها، وإذا كان الصيف قل علينا، فتفرقنا على المياه، والإسلام اليوم فينا قليل ونحن نخاف، فادع الله عز وجل لنا في بئرنا فقال رسول الله ﷺ: ناولني سبع حصيات فناولته، فَحركَهُنَّ بيده ثم دفعهن إليّ وقال: إذا انتهيت إليها فألق فيها حصاة وسمِّ الله قال: ففعلت، فما أدركنا لها قعراً حتى الساعة».

الأزد

قبيل يمني مشهور متعدد الأماكن في أرجاء اليمن، كما أنه متعدد الأماكن في أرجاء الجزيرة، وفد منهم على النبي ﷺ وفدان: أحدهما كان على رأسه صرد بن عبد الله الأزدي، صحابي أسلم على يد النبي ﷺ، وولاه أمر جرش المعروفة اليوم (بلجرشي) فحاصرهم ليدخلوا في دين الله، ثم تركهم وعاد بجيشه فحسبوه منهزماً، فرجع إليهم فأوقع بهم عند جبل يقال له (كشر) وهو الذي قال عنه ﷺ: في أي بلاد الله جبل يقال له (كشر) تذبح عنده بدن الله. وكان من أهل جرش رجلان حاضرين، فأوعز إليهما الصديق والفاروق أن يطلبا دعاء رسول الله بالكف عنهم، فدعا وعادا إلى قومهما فوجدا الواقعة بينهم وبين صدد في اليوم نفسه والساعة، التي أخبر فيها رسول الله ﷺ.

ومكث صرد عاملاً للنبي على جرش حتى وفاة النبي.

أما الوفد الثاني فهو الذي كان على رأسه سويد بن الحارث الأزدي، وخبره طريف نورده من زاد المعاد قال: «وفدت سابع سبعة من قومي على رسول الله ﷺ، فلما دخلنا عليه وكلمناه أعجبه ما رأى من سمتنا وزيّنا فقال: ما أنتم؟ قلنا: مؤمنون. فتبسم رسول الله ﷺ وقال: إن لكل قول حقيقة. فما حقيقة قولكم وإيمانكم قلنا: خمس عشرة خصلة؛ خمس منها أمرتنا بها رسلك أن نؤمن بها، وخمس أمرتنا أن نعمل بها، وخمس تخلقنا بها في الجاهلية فنحن عليها

الآن إلا أن تكره منها شيئاً فقال: رسول الله: وما الخمس التي أمرتكم بها رسلي أن تؤمنوا بها؟ قلنا: أمرتنا أن نؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت. قال: فما الخمس التي أمرتكم أن تعملوا بها؟ قلنا: أمرتنا أن نقول لا إله إلا الله، ونقم الصلاة، ونؤتي الزكاة، ونصوم رمضان، ونحج البيت الحرام من استطاع إليه سبيلاً. فقال: وما الخمس التي تخلقتم بها في الجاهلية؟ قالوا: الشكر عند الرخاء، والصبر عند البلاء، والرضا بمُر القضاء، والصدق في مواطن اللقاء، وترك الشماتة بالأعداء. فقال رسول الله ﷺ: حكماء علماء كادوا من فقههم أن يكونوا أنبياء. ثم قال: وأنا أزيدكم خمساً فيتم لكم عشرون خصلة، إن كنتم كما تقولون؛ فلا تجمعوا ما لا تأكلون، ولا تبتنوا ما لا تسكنون، ولا تنافسوا في شيء أنتم عنده غداً تزولون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون وعليه تعرضون، وارغبوا فيما عليه تقدمون وفيه تخلدون. فانصرف القوم من عند رسول الله ﷺ، وحفظوا وصيته وعملوا بها».

بنو الحارث بن كعب

مساكنهم بنجران، ومن سادتهم بنو عبد المدان المشهورون بالصباحة والفصاحة والجسامة، وفيهم يقول حسان بن ثابت:

وقد كنا نقول إذا بصرنا ... بذي جسدٍ يعدو ذي بيان
كأنك أيها المعطى لساناً ... وجسماً من بني عبد المدان

وهم اليوم يعرفون ببلحارث، بعث إليهم النبي ﷺ خالد بن الوليد في السنة العاشرة، وأسلموا وقدموا معه إلى النبي ﷺ.

وفيهم قيس بن الحصين ذي القصة، ويزيد بن عبد المدان، ويزيد بن المحجّل، وعبد الله بن قراد وشداد بن عبد الله. وقال لهم رسول الله ﷺ: بم كنتم تغلبون من قاتلكم في الجاهلية؟ قالوا: لم نكن نغلب أحداً. قال؛ بلى. قالوا: كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ أحداً بظلم. قال: صدقتم. وأمر عليهم

قيس بن الحصين، فرجعوا إلى قومهم في بقية من شوال، أو من ذي القعدة. فلم يمكثوا إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول الله ﷺ.

وفد تجيب

وهم فرع كريم من كندة، مساكنهم بحضرموت، انتشروا أيام الفتح الإسلامي بمصر، وشمالي إفريقية، والأندلس. ولوفدهم خبر من حقه أن يروى بكامله ننقله من (الهدى) لابن القيم: «وقدم عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ وفد تجيب، وهم من السكون ثلاثة عشر رجلاً قد ساقوا معهم صدقات أموالهم، التي فرض الله عليهم فسرُّ بهم رسول الله ﷺ وأكرم منزلهم، وقالوا: يا رسول الله سقنا إليك حق الله في أموالنا. فقال رسول الله ﷺ: ردوها فاقسموها على فقرائكم. قالوا: يا رسول الله ما قدمنا عليك إلا بما فضل عن فقرائنا. فقال أبو بكر: يا رسول الله ما وفد من العرب بمثل ما وفد به هذا الحي من تجيب. فقال رسول الله ﷺ: إن الهدى بيد الله عز وجل، فمن أراد به خيراً شرح صدره. وسألوا رسول الله ﷺ أشياء فكتب لهم بها، وجعلوا يسألونه عن القرآن والسنن فازداد رسول الله ﷺ بهم رغبة، وأمر بلال أن يحسن ضيافتهم. فأقاموا ولم يطيلوا اللبث فقيل لهم: ما يعجبكم؟ فقالوا: نرجع إلى مَن وراءنا فنخبرهم برؤيتنا رسول الله ﷺ وكلامنا إياه وما رد علينا. ثم جاؤوا إلى رسول الله ﷺ يودعونه، فأرسل إليهم بلال فأجازهم بأرفع ما كان يجيز به الوفود. قال: هل بقي منكم أحد؟ قالوا: نعم غلام خلفناه على رحالنا هو أحدثنا سناً. قال: أرسلوه إلينا. فلما رجعوا إلى رحالهم قالوا للغلام: انطلق إلى رسول الله ﷺ فاقض حاجتك منه، فإنا قد قضينا حوائجنا منه وودعناه. فأقبل الغلام حتى أتى رسول الله فقال: يا رسول الله إني امرؤٌ من بني أبذي من الرهط الذي أتوك آنفا قضيت حاجتي يارسول الله ؟ قال : وما حاجتك ؟ قال : إن حاجتي ليست كحاجة أصحابي وإن كانوا قدموا راغبين في الإسلام، وساقوا ما ساقوا

من صـدقاتهم. وإني والله مـا أعملني من بلادي إلا أن تسـأل الله عـز وجـل أن يغفـر لي ويـرحمني، وأن يجعـل غنـاي في قلبي فقـال رسـول الله ﷺ وأقبـل إلى الغلام: اللهم اغفر له وارحمه واجعـل غناه في قلبـه. ثم أمر لـه بمثل مـا أمر بـه الرجل من أصحابه، فـانطلقـوا راجعين إلى أهلهم، ثم وافـوا رسول الله ﷺ في الموسم بمنى سنة عشر فقالوا: نحن بنو أبذي. فقال رسول الله ﷺ: ما فعل الغلام الذي أتاني معكم؟ قالوا: يا رسول الله ما رأينا مثله قط، وما حدثنا بأقنع منه بما رزقه الله، لو أن الناس اقتسموا الدنيا ما نظر نحوها، ولا التفت إليها. فقال رسول الله ﷺ: الحمد لله إني لأرجو أن يموت جميعاً. فقال رجل منهم: أو ليس يموت الرجل جميعاً يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: تشعب أهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل أجله أن يدركه في بعض تلك الأودية فلا يبالي الله عز وجل في أيها هلك. قالوا: فعاش ذلك الغـلام فينا عـلى أفضـل حـال، وأزهـده في الـدنيـا، وأقنعـه بمـا رزق، فلما تـوفي رسول الله ﷺ ورجع من رجع من أهل اليمن عن الإسلام، قام في قومه فذكرهم الله والإسلام فلم يرجع منهم أحد. وجعل أبو بكر الصديق يذكره ويسألهم عنه، حتى بلغه حاله وما قام به، فكتب إلى زياد بن لبيد يوصيه به خيراً».

بنو المنتفق والنخع

ذكر الزركلي في الأعلام أن المنتفق من هوازن. وفي (الهدى) لابن القيم ما يشعـر أن بني المنتفق يمنيون مسـاكنهم بين مـذحج وخثعم، كـان لوافـدهم خـبر طويل مـع النبي ﷺ أورده الحافظ بـن القيم في (الـزاد) بطولـه كما عقب بتفسـير مفرداته، ونوه بشأن ذلك الحديث قائلاً:

«هذا حديث كبير جليل تنادى جلالته وفخامته وعظمته على أنـه خرج من مشكـاة النبوة لا يعـرف إلا من حديث عبـد الـرحمن بن المغـيرة بن عبـد الـرحمن المدنـي رواه عنه إبراهيم بن حمزة الزبيري، وهما من كبار علماء المدينة ثقتان محتج بهما في الصحيح احتج بهما إمام السنة». إلى آخر ما قاله.

أما النخع فمساكنهم فيما يعرف اليوم بمحافظة البيضاء، كان آخر من وفد إلى الرسول ﷺ في مئتي رجل، وأكرم نزلهم. ومنهم: أبو بسرة النخعي الصحابي الذي ورد عنه الأثر قال؛ أقبل رجل هو نباتة بن يزيد النخعي كما في البداية من اليمن، فلما كان ببعض الطريق نفق حماره، فقام وتوضأ ثم صلى ركعتين ثم قال: «اللهم إني جئت من الدثينة مجاهداً في سبيلك وأبتغي مرضاتك، وأنا أشهد أنك تحيي الموتى، وتبعث من في القبور، لا تجعل لأحد عليّ منّة، أطلب إليك اليوم أن تحيي لي حماري». قال: فقام الحمار ينفض أذنيه.

ولليمن وفادات كثيرة من بلاد الحكم بن سعد العشيرة، الذين كان على رأسهم عبد الجد وغيرهم. وسننتقل الآن إلى ذكر وفدا اليمنين النازحين، وفي مقدمتهم طيء الأجواد.

وفد طيء

قدم وفد طيء على النبي ﷺ، وعلى رأسه زيد الخير الذي أثنى عليه النبي ﷺ، وأقطعه أرضاً وعاجلته الحمى عند منصرفه من المدينة فمات. أما سيد طيء وجوادها وابن جوادها فهو عدي بن حاتم الطائي، أغارت إحدى سرايا المسلمين على بلاده وكان من السبايا أخته، التي أكرم النبي ﷺ مثواها وأعادها، فأخبرت أخاها بما لقيت. فتوجه، إلى المدينة، وأخذه النبي من المسجد إلى إحدى حجره، وأجلسه على وسادته وقال له فيما قال: «أسلم تسلم»، قلت: إن لي ديناً. قال؛ أنا أعلم دينك منك، ألست ترأس قومك، قلت: بلى، قال: ألست تأكل المرباع. قلت: بلى، قال: فإن ذلك لا يحل في دينك. ثم قال: أسلم تسلم، قد أظن أنه إنما يمنعك غضاضة تراها ممن حولي، وأنك ترى الناس علينا ألباً واحداً. قال: هل أتيت الحيرة: قلت: لم آتها وقد علمت مكانها. قال: يوشك أن تخرج الظعينة منها بغير جوار، حتى تطوف بالبيت، ولتفتحن علينا كنوز كسرى بن هرمز فقلت: كسرى بن هرمز.

قال: نعم، وليفيض المال حتى يهم الرجل من يقبل صدقته. قال عدي: فرأيت اثنتين الظعينة وكنت في أول الخيل إغارة على كنوز كسرى. وأحلف بالله لتجيئن الثالثة.

وعن عدي قال: «ما أقيمت الصلاة منذ أسلمت إلا وأنا على وضوء». وقال الشعبي عن عدي بن حاتم: «أتيت عمر في أناس، فجعل يعرض للرجل، ويعرض عني، فاستقبلته فقلت: أتعرفني؟ قال: نعم، آمنت إذ كفروا، وعرفت إذ نكروا، ووفيت إذ غدروا، وأقبلت إذ أدبروا. إن أول صدقة بيضت وجوه أصحاب رسول الله ﷺ صدقة طيء» أخرجه أحمد.

جذام وقضاعة وغسان

لما بعث ﷺ رسله إلى الملوك والعظماء، كان ممن استجاب لدعوته فروة بن عمرو الجذامي أمير معان من بلد الشام من قبل الروم، وأهداه بغلة بيضاء، ولما علم الروم بإسلامه طلبوه إليهم، فأصر على إسلامه، فقتلوه صبراً، وآخر ما قال:

بلغ سراة المسلمين بأنني سلم لربي أعظمي ومقامي

ووفد قوم من سعد بن هزيم من قضاعة على النبي ﷺ فأسلموا، وكان متأخراً على ركائبهم صغيرٌ يخدمهم. ولما سأل النبي هل منهم أحد قالوا خادم صغير لنا فدعا به، وأخذ بيعته، وبرَّك عليه بدعوات متواليات، وجعله أميراً عليهم، وكان يصلي بهم.

ووفد عليه ﷺ في رمضان في السنة العاشرة ثلاثة من غسان أسلموا، وعادوا إلى قومهم يدعونهم إلى دين الله فلم يستجيبوا لهم، ومات اثنان منهم مسلمين وبقي الثالث، حتى كان الفتح وزوال أمر الروم، فكان يكرمه قائد جيوش الإسلام في الشام أبو عبيدة ابن الجراح.

ولليمنيين النازحين كثير من الوفادات على النبي ﷺ، لم يَتَسَنّ لنا استيعابهم في هذه العجالة، وربما مررنا بزعمائهم فيما هو آت من الصفحات.

وحدة اليمن ورخاؤه في ظل النبوة

مع انبثاق البعثة المحمدية كانت اليمن شراذم ممزقة يحكمها أكثر من ملك وأمير، فهناك ذو الكلاع الحميري والحارث بن عبد كلال وأخوه نعيم، والنعمان ذو رعين، وزرعة ذو يزن، وملوك كندة من آل معاوية الأكرمين، إلى جانب الحاكم الفارسي باذان.

كما كانت الحروب القبلية منتشرة في كل مكان، وأشهرها يوم الرزم بين مذحج وهمدان، الذي يقال: إنه كان في نفس السنة التي فيها (بدر)، وامتدت بفضل الله ورحمته يد النبوة تبرىء الأسقام، وتمسح الآلام.

واستقام لليمن في عهد النبوة ولأول مرة من عهد بلقيس وأسعد ملكي يكرب الكيان اليمني الواحد من مهرة حيدان إلى نجران. وكان الحاكم الفارسي (باذان) الذي أمره كسرى بالقبض على النبي العربي فاتحة خير، وعنوان هداية، فدخل في دين الله وأسلم بإسلامه الكثيرون، بعد أن تحققت له نبوة محمد ﷺ بصدق مقتل (كسرى) على يد ولده (شيرويه) واجتمع لباذان بأمر النبي ﷺ كل أمر اليمن، كما حكاه في (الكامل) ابن الأثير.

ولما توفي (باذان) وضع الإسلام تقسيمه الإداري لليمن، فعين أبا موسى الأشعري على مأرب، وعمر بن حزام في نجران، والطاهر بن أبي هالة ـ ربيب النبي ﷺ وابن زوجته خديجة ـ على عك، والأشعر وعكاشة بن ثور على السكاسك والسكون، وزياد بن لبيد البياضي على حضرموت، وشهر بن حوشب على همدان، وشهر بن باذان على صنعاء، وفروة بن مسيك على ما بين نجران وزبيد.

ولما رجع النبي ﷺ من حجة الوداع ومرض مرضه الأول قبل مرض الوفاة، وثب الأسود العنسي ـ لعنه الله ـ من أعالي الجَوف على نجران، واستولى على صنعاء، وقتل أميرها شهر بن باذان، واغتصب زوجته، وطارد الصحابة، معاذاً وأبا موسى، اللذين لاذا بحضرموت. ولجأ الطاهر بن أبي هالة إلى جبال عك، واستطارت نار العنسي من البحرين إلى نجران إلى عدن، كما قال ابن الأثير. وانخدع بفتنته عظيمان من عظماء اليمن هما: عمرو بن معدي كرب الزبيدي، وقيس بن عبد يغوث بن هبيرة المعروف بابن مكشوح. واستمرت فتنته بين الثلاثة والأربعة أشهر.

وورد أمر النبي ﷺ مع الصحابي الجليل وبر بن يحنس، إلى فيروز وجشنس وذاذويه الديلميين ومن معهم مِن المؤمنين، بمواجهة الأسود والقضاء عليه، مصادمة أو غيلة. وانضم إليهم قيس بن عبد يغوث لما غاضبه الأسود وتنكر له، وأعانتهم زوجة شهر بن باذان التي اغتصبها الأسود.

وتمكن فيروز من قتل عدو الله الأسود الكذاب، ووردت البشائر، ونزل الوحي قبلها على النبي ﷺ بانتهاء أمر الأسود.

ومما ينبغي توضيحه هو أن معاذاً كان هو القائم بأمر الدعوة في أرجاء اليمن، ولما حدثت الفتنة أمهر معاذ إلى السكون من كندة لتتم منعته بهم، ولما منَّ الله بقتل الأسود تداعى المؤمنون من أطراف اليمن، واجتمعوا في صنعاء، فجاء معاذ وأبو موسى من حضرموت، وأقبل فروة الذي كان منحازاً بفئة من المؤمنين، لما ضايقه عمرو بن معدي كرب وقيس بن عبد يغوث على أمر مذحج وانتزعاه منه جاؤوا جميعاً وارتفع الأذان في صنعاء. نشهد أن لا إله إلا الله، ونشهد أن محمداً رسول الله، ونشهد أن الأسود عبهلة كذاب. وتقدم معَاذ يؤم الناس في الصلاة، وطورد أتباع الأسود في كل مكان قتلاً وأسراً.

ولكن ما كادت تهدأ القلوب لمقتل الكذاب حتى ورد الخبر بوفاة

النبي ﷺ. ومادت الأرض بمن عليها واضطرب كل ساكن فيها. وعاد قيس بن عبد يغوث إلى فتنته الأولى، وتحرك لإخراج أبناء فارس المسلمين من اليمن، وكأنما كان الأمر لديه معرة طائفية وحماساً عرقياً وعنجهية جاهلية، كما نراها اليوم في كثير من الأوطان. وقتل ذاذويه حليفه بالأمس على قتل الأسود، وثبت له فيروز وفروة ومعاذ وأبو موسى في مشارق اليمن، والطاهر بن أبي هالة في مغاربها الذي احتفظ بالأسر الفارسية، التي كان قيس قد نفاها من صنعاء، ومنهم أولاد فيروز.

وقدم المهاجر بن أبي أمية الذي كان النبي ولاه اليمن قبل وفاته، وهو أخو أم المؤمنين أم سلمة، فأمضى الصديق ولايته وتمكن من القبض على عمرو بن معدي كرب وقيس بن عبد يغوث، كما تمكن زياد بن لبيد من القبض على الأشعث. وأرسلوا جميعاً إلى الصديق فجددوا إسلامهم، وكفروا عما سبق بصدق البلاء في اليرموك والقادسية وليلة الهرير المشهورة، التي كان لابن معدي كرب ولابن مكشوح يد بيضاء وموقف كريم.

بعد هذا نعود إلى معاذ الداعية الأول والعام لكل أرجاء اليمن فنجده يعود أيام خلافة الصديق إلى المدينة. ولما تولى عمر أعاده إلى اليمن ثانية، وكان معاذ ـ رضي الله ـ قد وضع أول مرة في التاريخ ديواناً عاماً لمستحقي الزكاة من الأصناف الثمانية، فأفرد لكل مخلاف مستحقيه من الزكاة وباشر صرفها. وفاضت الخيرات على يده، ففضل نصف الزكاة فبعثها إلى الفاروق، ولم يقبلها عمر حتى أكد له معاذ أنه لم يبعث إليه إلا ما فضل عن الحاجة. وفي العام الثاني بعث إليه كامل الصدقة لاستغناء الناس عنها في كل أرجاء اليمن، كما نقله الفربري.

وتلك هي الرحمة الإلهية والبركة المحمدية التي تم بها رخاء اليمن ووحدته في عهد النبوة. ومن المؤسف أن الكثيرين ممن يتناولون تاريخ هذه الفترة يمرون بها لماماً، دون توضيح حقيقة ما أنعم الله به على اليمن في عهد النبوة، من

الرخاء الشامل، والإيمان الكامل، والوحدة العامة التي لم تكتمل له في عهد من العهود. فجزى الله محمداً عن المسلمين عامة وعن اليمن خاصة خير ما جزى الله به نبياً عن أمته، وأحيانا الله على شريعته وأماتنا على ملته، وحشرنا في زمرته، إنه كريم حليم.



في العهد الراشدي

لما أسندت الخلافة إلى ﴿ثاني اثنين إذ هما في الغار﴾ الثاني التالي المحمود مشهده:

وأول الناس حقاً صدّق الرسل

أبي بكر عبد الله بن عثمان التيمي ـ رضي الله عنه وأرضاه ـ بعث أنس بن مالك إلى ملوك اليمن وأقيالها للنفرة نصراً لدين الله، فاستجابت اليمن كافة، وكان أولهم نهوضاً ذا الكلاع الحميري السميفع بن باكوراء الذي لم يتلبث، بل نهض من فوره واستنفر قومه، وكان طليعة جيش اليمن الذي خرج من كل مخاليف اليمن بالأهل والولد. وكان الخليفة الصديق والفاروق وأبو الحسن علي بن أبي طالب على مشارف المدينة يستقبلون جيش الفتح اليمني، وعلى رأسه صناديد اليمن وأقيالها. وبلغ تعداد الجيش يومذاك عشرين ألفاً، وتتابع المدد بعدها أرسالاً إلى ما بعد العهد الراشدي وأوائل العهد الأموي.

ولم يتيسر لي مرجعٌ صحيح يحدد العدد الذي انتهى إليه وفود جيش الفتح اليمني، ولكن ما ذكره ياقوت في (معجم البلدان) من أن اليمنيين الذين تديروا الكوفة كانوا اثنتي عشر ألفاً. وما ورد في الأغاني من أن جيش اليمن المرابط بحمص أيام ولاية (النعمان بن بشير) كانوا عشرين ألفاً، وكذا ما ورد في غيرهما من أن همدان ومذحج والنخع وكندة انضمت إلى جيش علي، وكانت فتوحاتها غالباً في المشرق، وأن عك[1] والأشعر وحمير كانت في جيش معاوية وفتوحاتها غالباً في

(١) ذكر ياقوت في مادة الفسطاط أن جيش الفتح الأول لمصر مع عمرو بن العاص كان أربعة آلاف كلهم من عك.

المغرب، وأن تجيب والصدف كان مستقرهما بمصر، وما جاورها غرباً من شمال إفريقيا كل هذا يعطينا إمكانية ترجيح أن جيش اليمن في أوائل الفتح الإسلامي كان لا يقل عن أربعين ألف مقاتل عدا إخوانهم اليمنيين النازحين من القبائل التي أسلفنا ذكرها. فالتحم بعضهم ببعض وأصبحوا يشكلون الأكثرية في جيش الإسلام. وربما أوردنا في حديثنا عن العهد الأموي ما يوضح ذلك.

وسنورد في حديثنا هنا عن العهد الراشدي بعضاً من أعلام اليمن الذين لمعت أسماؤهم، وكان لهم دور جهادي وعلمي إبان العهد الراشدي.

أبو مسلم الخولاني

ونبتدىء ذكر الأعلام في العهد الراشدي بمجاهد عظيم، كان له نبأ عظيم مع الأسود العنسي، ـ لعنه الله ـ. وهو إن كان توفي في العهد الأموي إلا أن كرامته وقعت في العهد النبوي والراشدي، وهو عبد الله بن ثوب الخولاني من خولان ببلاد اليمن، دعاه الأسود العنسي إلى أن يشهد أنه رسول الله فقال له: لا أسمع، أشهد أن محمداً رسول الله. فأجج له ناراً، وألقاه فيها، فلم تضيره وأنجاه الله منها، فكان يشبّه بإبراهيم الخليل. ثم هاجر فوجد رسول الله ﷺ قد مات فقدم على الصديق فأجلسه بينه وبين عمر، وقال له عمر: الحمد لله الذي لم يُمتْني حتى أرى في أمة محمد من فُعل به كما فعل بإبراهيم، خليل الله، وقبّله بين عينيه. وكانت له أحوال ومكاشفات.

وفي البداية والنهاية أيضاً، الجزء السادس ص ٥٦ أن أبا مسلم الخولاني جاء إلى دجلة وهي تُرْمى بالخشب من مدها، فمشى على الماء، والتفت إلى أصحابه وقال: «هل تفقدون من متاعكم شيئاً فندعو الله عز وجل» توفي سنة ٦٢ هـ.

العلاء الحضرمي

كان العلاء الحضرمي ـ رضي الله عنه ـ من السابقين إلى الإسلام. وعلى يده أسلمت البحرين وأميرها المنذر بن ساوي. لما جاءهم حاملاً لرسالة النبي ﷺ، وعهد إليه النبي ﷺ بأمر البحرين، ومن بعده أبو بكر ثم عمر. ولما انطلق جيش الفتح تلقاء الشرق بعد نصر القادسية، أحب العلاء نيل شرف الفتح، فبعث جنداً من لدنه عبروا الخليج، وأوغلوا في أرض فارس. ولما حاصرهم الفرس بعث عمر بنجدة لهم من البصرة، ولكن العلاء لم يتوقف عن فكرةالغزو، فعادوا الكرة وكان هو نفسه قائد الجيش ففتح وظفر.

وقد أورد ابن كثير ـ رحمه الله ـ رواية أنس بن مالك الذي كان أحد جنود العلاء. فلنستمع إليه:

قال أنس أدركت في هذه الأمة ثلاثاً لو كانت في بني إسرائيل لما تقاسمتها الأمم قلنا: ما هي يا أبا حمزة؟ قال: كنا في الصفة عند رسول الله ﷺ، فأتته امرأة مهاجرة ومعها ابن لها قد بلغ، فأضاف المرأة إلى النساء، وأضاف ابنها إلينا، فلم يلبث أن أصابه وباء المدينة فمرض أياماً ثم قبض، فغمضه النبي ﷺ وأمر بجهازه. فلما أردنا أن تغسله قال: يا أنس أئت أمه فأعلمها؛ فأعلمتها. قال: فجاءت حتى جلست عند قدميه فأخذت بهما، ثم قالت: اللهم إنني أسلمت لك طوعاً وخالفت الأوثان زهداً، وهاجرت لك رغبة. اللهم لا تشمت بي الأعداء عبدة الأوثان، ولا تحملني من هذه المصيبة ما لا طاقة لي بحمله. قال: فوالله ما انقضى كلامها حتى حرك قدميه، وألقى الثوب عن وجهه، وعاش حتى قبض الله رسوله ﷺ، وحتى هلكت أمه. قال: ثم جهز عمر بن الخطاب جيشاً، واستعمل عليهم العلاء بن الحضرمي. قال أنس: وكنت في غزاته فأتينا مغازينا فوجدنا القوم قد بدروا بنا، فصفوا آثار الماء والحر شديد، فجهدنا العطش ودوابنا، وذلك يوم الجمعة. فلما مالت الشمس لغروبها صلى بنا ركعتين

ثم مد يده إلى السماء، وما نرى في السماء شيئاً. قال: فوالله ما حط يده حتى بعث الله ريحاً وأنشأ سحباً، وأفرغت حتى ملأت الغُدُر والشعاب، فشربنا وسقينا ركابنا واستقينا ثم أتينا عدونا وقد جاوزوا خليجاً في البحر إلى جزيرة، فوقف على الخليج وقال: يا علي يا عظيم، يا حليم يا كريم. ثم قال: أجيزوا بسم الله. قال: فأجزنا ما يبل الماء حوافر دوابنا، فلم نلبث إلا يسيراً فأصبنا العدو عليه، فقتلنا وأسرنا وسبينا، ثم أتينا الخليج فقال مثل مقالته، فأجزنا ما يَبُلّ الماء حوافر دوابنا. قال: فلم نلبث إلا يسيراً حتى رمي في جنازته. قال: فحفرنا له وغسلناه ودفناه، فأتى رجل بعد فراغنا من دفنه فقال: هذا خير البشر، وهذا ابن الحضرمي. فقال: إن هذه الأرض تلفظ الموتى، فلو نقلتموه إلى ميل أو ميلين إلى أرض تقبل الموتى. فقلنا: ما جزاء صاحبنا أن نعرضه للسباع تأكله. قال: فاجتمعنا على نبشه، فلما وصلنا إلى اللحد إذا صاحبنا ليس فيه وإذا اللحد مد البصر نور يتلألأ. قال: فأعدنا التراب إلى اللحد ثم ارتحلنا.

قال البيهقي رحمه الله. وقد روى عن أبي هريرة في قصة العلاء بن الحضرمي في استسقائه ومشيهم على الماء دون قصة الموت بنحو من هذا.

وذكر البخاري في (التاريخ) لهذه القصة إسناداً آخر وقد أسنده ابن أبي الدنيا عن أبي كريب بن محمد بن فضيل عن الصلت بن مطر العجلي عن عبد الملك ابن سهم عن سهم بن منجاب قال: غزوت مع العلاء بن الحضرمي، فذكره، وقال: في الدعاء يا عليم يا حليم، يا علي يا عظيم، إنا عبيدك، وفي سبيلك نقاتل عدوك، اسقنا غيثاً نشرب منه، ونتوضأ. وإذا تركناه فلا تجعل لأحد فيه نصيباً غيرنا. وقال في البحر: اجعل لنا سبيلاً إلى عدوك. وقال في الموت: اخف جثتي، ولا تطلع على عورتي أحداً فلم يقدر عليه. والله أعلم. توفي سنة ٢١ هـ.

عمار بن ياسر العبسي (... - ٣٧ هـ)

هو الشهيد ابن الشهيدين، رفع ابن حجر في الإصابة نسبه إلى يام بن عنس، وهو فرع من مذحج قال:

«أبو اليقظان حليف بني مخزوم، وأمه سمية مولاة لهم. كان من السابقين الأولين هو وأبوه، وكانوا ممن يعذب في الله. فكان النبي ﷺ يمر عليهم فيقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة». واختلف في هجرته إلى الحبشة، وهاجر إلى المدينة وشهد المشاهد كلها، ثم شهد اليمامة فقطعت أذنه بها، ثم استعمله عمر على الكوفة، وكتب إليهم أنه من النجباء من أصحاب محمد.

قال عاصم عن زر عن عبد الله: «إن أول من أظهر إسلامه سبعة...» فذكر منهم عماراً. أخرجه ابن ماجة.

وعن وبرة عن همام عن عمار قال: «رأيت رسول الله ﷺ وما معه إلا خمسة أعبد وامرأتان وأبو بكر». أخرجه البخاري.

وعن علي قال: «استأذن عمار رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: إئذنوا له، مرحباً بالطيب المطيب».

وفي رواية أن علياً قال ذلك، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن عماراً ملىء إيماناً إلى مشاشة، أخرجه الترمذي وابن ماجة، وسنده حسن.

عن خالد بن الوليد قال: كان بيني وبين عمار كلام فأغلظت له، فشكاني إلى النبي ﷺ، فجاء خالد فرفع رسول الله رأسه وقال: «من عادى عماراً عاداه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله».

وفي الترمذي عن عائشة مرفوعاً: ما خُيّر عمار بين أمرين إلا اختار أيسرهما.

وعن حذيفة رفعه: «اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر واهتدوا بهدي عمار. أخرجه الترمذي وابن ماجة، وقال الترمذي حسن.

وتواترت الأحاديث عن النبي ﷺ أن عماراً تقتله الفئة الباغية. وأجمعوا على أنه قتل مع علي بصفين سنة سبع وثلاثين، واتفقوا على أنه نزل فيه. ﴿إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان﴾. وَرَوَى عن النبي ﷺ عدّة أحاديث، وروى عنه من الصحابة: «أبو موسى وابن عباس وعبد الله، وأبولاس الخزاعي وأبو الطفيل وجماعة من التابعين» ا. هـ.

شرحبيل بن حسنة (... ـ ١٨ هـ)

«أحد أمراء الأرباع، وهو أمير فلسطين، وهو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن قطن الكندي حليف بني زهرة، وحسنة أمه نسب إليها وغلب عليه ذلك.

أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة، وجهزه الصديق إلى الشام فكان أميراً على ربع الجيش، وكذلك في الدولة العمرية، وطعن هو وأبو عبيدة وأبو مالك الأشعري في يوم واحد سنة ثماني عشرة. له حديثان، روى ابن ماجه أحدهما في الوضوء وغيره» ا. هـ (نقلاً عن البداية والنهاية لابن كثير).

ذو الكلاع الحميري (... ـ ٣٧ هـ)

هو السميفع بن باكورا، أحد ملوك اليمن الكبار، ولا يزال يعرف حتى اليوم بخلاف كامل يحمل اسم الكلاع وهو بلد (العدين) وما جاوره، مشتمل على الخيرات والجنات، وهو من أخصب بلدان اليمن. قال ابن حجر في (الإصابة) بعد أن ساق نسبه والاختلاف من خول صحبته.

«كان يكنى أبا شرحبيل، وقيل أبا شراحيل، وقال الهمداني: اسمه يزيد

قال: وبعث إليه النبي ﷺ جرير بن عبد الله فأسلم وأعتق لـذلك أربعـة آلاف، ثـم قدم المدينة ومعه أربعة آلاف أيضاً فسأله عمر في بيعهم فأصبح وقد أعتقهم، فسأله عمر عن ذلك فقال: إني أذنبت ذنباً عظيماً فعسى أن يكون ذلك كفـارة. قال: وذلك أني تواريت مدة ثم أشرفت فسجد لي مئة ألف.

وروى يعقوب ابن شـيبة بإسناد له عن الجراح بن منهال قـال: كان عنـد ذي الكـلاع اثنـا عشر ألف بيت من المسلمـين، فبعث إليـه فقـال: بعنـا هؤلاء نستعين بهم على عـدو المسلمين فقـال: لا هم أحرار. فـأعتقهم كلهم في ساعـة واحدة.

قال أبو عمر: لا أعلم له صحبة إلا أنه أسلم، واتبـع في حياة النبي ﷺ، وقدم في زمن عمر فروى عنه، وشهد صفين مع معاوية وقتل بها.

وروى أبو حذيفة في الفتوح من طريق أنس بن مالك، أن أبا بكر بعثه إلى اليمن يستنفرهم إلى الجهاد، فرحل ذو الكلاع ومن أطاعه من حمير.

قلت: وأخـرج أبو نعيم في تـرجمته حـديثاً فيـه: «سمعت رسول الله ﷺ» وقد غلب على ظني أنه غيره فأفردته فيما مضى.

وقال سيف: كان الكلاع في يوم اليرموك على كردوس.

وقال هشام بن الكلبي عن أبيـه عن أبي صالـح: كان يـدخل مكـة رجال معممون من جمالهم مخافة أن يفتن بهم منهم ذو الكلاع» اهـ.

وفي (الكامل) لابن الأثير أن ذا الكلاع لما رأى عماراً يوم صفين إلى جانب علي قال لعمرو بن العاص له ما معناه: إن وجود عمار في صف علي شاهد بـأنهم هم الفئة العادلة، فأخـبره عمرو: أن عـماراً سينضم فيها بعـد إليهم، فاقتنـع ذو الكلاع بما سمع. وفي الأيام التالية قتل ذو الكلاع قبل مقتل عمار ثم قتل عـمار، فنقل ابن الأثير أن عمراً قال: إنه لا يدري بـأيهما يفـرح؛ أبقتل عـمار، أم بقتل ذي الكـلاع، إذ أنه كـان يخشى انضمام ذي الكـلاع بقبيله إلى صف الإمام عـلي

وفي هذا ما يشهد أنه كان مخدوعاً في قتاله ﴿ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا. ربنا إنك رؤوف رحيم﴾.

أويس القرني (... - ٣٧ هـ)

هذا هو التابعي الجليل، والرباني الكبير الذي نطقت بفضله الآثار، وتواترت بكرامته الأخبار، ترجمة الإمام أبو الفرج ابن الجوزي في (صفة الصفوة) ترجمة ضافية نقتطف منها: فقرات. قال: «أويس بن عامر القرني المرادي، كان عمر بن الخطاب إذا أتت عليه أمداد أهل اليمن سألهم: هل فيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى عليه أويساً فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مراد ثم قَرَن؟ قال: نعم. قال: كان بك برص فبرئت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرىء منه إلا موضع درهم. له والدة هو بها بار، لو أقسم على الله عز وجل لأبّره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل». فاستغفر لي. فاستغفر له، فقال عمر - رضي الله عنه ورحمه الله -: أين تريد؟ قال: الكوفة. فقال: ألا أكتب لك إلى عاملي فيستوصي بك. قال: لأن أكون في غبراء الناس أحب إلي. قال: فلما كان من العام المقبل، حج رجل من أشرافهم فوافق عمر، فسأله عن أويس: كيف تركته؟ قال: تركته رث الهيئة قليل المتاع. فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليك أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن، كان به برص فبرىء إلا موضع درهم، له والدة هو بها بار، ولو أقسم على الله عز وجل لأبره. فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل» فلما قدم الكوفة أتى أويساً فقال: استغفر لي. فقال: أنت أحدث عهداً بسفر صالح، فاستغفر لي. لقيت عمر؟ قال: نعم. فاستغفر له، ففطن له الناس فانطلق على وجهه قال أسير: وكسوته بُرداً، فكان إذ رآه إنسان عليه قال: من أين لأويس هذا

السبرد؟ انفرد بإخراج هذا الحديث مسلم عن أبي هريرة. قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يحب من خلقه الأصفياء الأخفياء الأبرياء، الشعثة رؤوسهم، المغبرة وجوههم، الخمصة بطونهم، الذين إذا استأذنوا على الأمراء لم يؤذن لهم، وإن خطبوا المتنعمات لم ينكحوا، وإن غابوا لم يفتقدوا، وإن طلعوا لم يُفرح بطلعتهم، وإن مرضوا لم يعادوا، وإن ماتوا لم يشهدوا». قالوا: يا رسول الله كيف لنا برجل منهم؟ قال: ذاك أويس القرني. قالوا: وما أويس القرني؟ قال: أشهل ذو صهوبة، بعيد ما بين المنكبين، معتدل القامة، آدم شديد الإدمة، ضارب بذقنه إلى صدره، رام ببصره إلى موضع سجوده، واضعٌ يمينه على شماله، يتلو القرآن يبكي على نفسه، ذو طمرين لا يؤبه له، متزر بإزار صوف ورداء صوف، مجهول في أهل الأرض، معروف في السماء، لو أقسم على الله لأبرَّ قسمه. ألا وإن تحت منكبه الأيسر لمعة بيضاء، ألا وإنه إذا كان يومُ القيامة قيل للعباد: ادخلوا الجنة، ويقال لأويس: قف، فاشفع فيشفعه الله في مثل ربيعة ومضر. يا عمر يا علي إذا أنتما لقيتماه فاطلبا إليه أن يستغفر لكما، يغفر الله لكما. قال: فمكثا يطلبانه عشر سنين لا يقدران عليه. ولما كان في آخر السنة التي هلك فيها عمر، قام على أبي قبيس فنادى بأعلى صوته: يا أهل الحجيج من اليمن، أفيكم أويس؟ فقام شيخ كبير طويل اللحية فقال: إنا لا ندري ما أويس، ولكن ابن أخ لي يقال له أويس، وهو أخمل ذكراً، وأقل مالاً، وأهون أمراً من أن نرفعه إليك، وإنه ليرعى إبلنا، حقير بين أظهرنا. فعمي عليه عمر كأنه لا يريده وقال: إنَّ ابن أخيك هذا البحر منا. قال: نعم. قال: أين يصان؟ قال: أراك عرفات. قال فركب عمر وعلي سراعاً إلى عرفات، فإذا هو قائم يصلي إلى شجرة والإبل حوله ترعى، فشدا حماريهما، ثم أقبلا إليه فقالا: السلام عليكم ورحمة الله. فخفف أويس الصلاة ثم قال: السلام عليكما ورحمة الله. قالا: من الرجل؟ قال: راعي إبل وأجير قوم. قالا: لسنا نسألك عن الرعاية، ولا عن الإجارة، ما اسمك؟ قال: عبد الله. قالا: قد علمنا أن

أهل السماوات والأرض كلهم عبيد الله، ما اسمك الذي سمتك أمك؟ قال: يا هـذان ما تـريدان إليّ؟ قـالا: وصف لنا محمـد ﷺ أويساً القـرني، فقـد علمنـا الصهوبة والشهولة، وأخبرنا أن تحت منكبـك الأيسر لمعة بيضـاء فأوضحهـا لنا، فإن كانت بك فأنت هو. فأوضح منكبه فـإذا اللمعة، فـابتدراه يقبـلانه وقـالا: نشهد أنك أويس القرني، فاستغفر لنا يغفر الله لك. قال: ما أخص باستغفاري نفسي ولا أحـداً من ولـد آدم، ولكنـه في الـبر والبحـر من المؤمنـين والمؤمنـات، والمسلمين والمسلمات. يا هـذان قد شهـر الله لكما حـالي، وعرفكـما أمري، فمن أنتما؟ قال علي عليه السـلام: أما هـذا فعمر أمـير المؤمنين، وأما أنا فعـلي بن أبي طالب فاستوى قائماً وقال: السلام عليك يـا أمير المؤمنـين ورحمة الله وبـركاتـه، وأنت يـا علي بن أبي طـالب، فجزاكـما الله عن هـذه الأمـة خـيراً. قـالا: وأنت فجزاك الله عن نفسك خيراً. فقال له عمر: مكانك يرحمك الله حتى أدخـل مكة فآتيك بنفقة من عطائي، وفضل كسوة من ثيـابي، هذا المكـان ميعاد بيني وبينـك. قال: ميعاد بيني وبينك لا أراك بعد اليوم، فعرفني ما أصنع بالنفقة ومـا أصنـع بالكسوة، أما ترى عليّ إزاراً من صوف ورداء من صوف، متى تراني أخرقها؟ أما ترى أن نعليَّ مخصوفتان، متى تراني أبليهما؟ إني قد أخذت من رعايتي أربعة دراهم، حتى تراني آكلها؟ يـا أمير المؤمنـين إن بين يـدي ويديـك عقبةً كؤوداً لا يجاوزها إلا ضامر مخف مهزول، فأخفف رحمك الله. فلما سمع عمر ذلك ضرب بدرته الأرض ثم نادى بأعـلى صوتـه: ألا ليت عمر لم تلده أمـه، يا ليتهـا كانت عاقراً لم تعـالج حملها. ألا من يأخذها بما فيها ولهـا؟ ثم قال: يـا أمير المؤمنـين، خذ أنت ها هنا حتى آخذ أنا هاهنـا: فولى عمر نـاحية مكـة، وساق أويس إبله فـوافى القـوم بـإبلهم، وخـلى عن الـرعـايـة وأقبـل عـلى العبـادة حتى لحق بـالله عز وجل.

وقال: قال هـرم بن حيان: فلما بلغني ذلـك قدمت الكـوفة، فلم يكن لي هم إلا طلبه، حتى سقطت عليه جالساً على شاطىء الفرات نصف النهار

يتوضأ، فعرفته بالنعت الذي نعت به لي، فإذا رجل نحيل آدم شديد الإدمة، أشعث، محلوق الرأس، مهيب المنظر، فسلمت عليه فرد ونظر إلي، ومددت يدي لأصافحه فأبى أن يصافحني، فقلت: رحمك الله يا أويس وغفر لك، كيف أنت؟ وخنقتني العبرة من حبي إياه ورقتي عليه لما رأيت من حاله، حتى بكيت وبكى. قال: وأنت، فحياك الله، لا إله إلا الله سبحان ربنا، إن كان وعد ربنا لمفعولاً. فقلت: ومن أين عرفت اسمي واسم أبي وما رأيتك قبل اليوم ولا رأيتني؟ قال: نبأني العليم الخبير، عرفت روحي روحك، وحَين كلمت نفسي نفسك: إن المؤمنين يعرف بعضهم بعضاً، ويتحابون بروح الله عز وجل، وإن لم يلتقوا إن نأت بهم الدار، وتفرقت بهم المنازل. حدثني رحمك الله عن رسول الله ﷺ: قال: إني لم أدرك رسول الله ﷺ، ولم يكن لي معه صحبة، بأبي وأمي، رسول الله، ولكني قد رأيت رجالاً قد رأوه، ولست أحب أن أفتح على نفسي هذا الباب، أن أكون محدثاً أو قاضياً أو مفتياً في نفسي، شغلٌ عن الناس. فقلت: أي أخي، اقرأ عليَّ آيات من كتاب الله عز وجل أسمعها منك، وأوصني بوصية أحفظها عنك، فإني أحبك في الله فأخذ بيدي وقال: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، قال: ربي وأحق القول قول ربي عز وجل، وأصدق الحديث حديث ربي عز وجل. ثم قرأ: ﴿وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين، ما خلقناهما إلا بالحق﴾ إلى قوله: ﴿العزيز الرحيم﴾ فشهق شهقة، فنظرت إليه وأنا أجيبه قد غشي عليه، ثم قال: يا هرم بن حيان، مات أبوك حيان ويوشك أن تموت أنت، فإما إلى الجنة وإما إلى النار. ومات أبوك آدم، وماتت أمك حواء يابن حيان ومات نوح نبي الله، ومات إبراهيم خليل الله، ومات موسى نجي الله، ومات داود خليفة الرحمن، ومات محمد رسول الله ﷺ وعلى جميع الأنبياء، ومات أبو بكر خليفة رسول الله ﷺ، ومات أخي وصديقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه. فقلت له: يرحمك الله! إن عمر لم يمت. قال: بلى، قد نعاه إلي ربي عز وجل، ونعى

إلى نفسي، وأنا وأنت في الموق، ثم صلى على النبي ﷺ ودعـا بدعـوات خفاف، ثم قال: هذه وصيتي إياك؛ كتاب الله، ونعي المـرسلين، ونعي صالـح المؤمنين، فعليك بذكر الموت، ولا يفـارقن قلبك طـرفة عـين ما بقيت، وأنـذر قومـك إذا رجعت إليهم، وانصح الأمة جميعاً، وإياك أن تفارق الجماعة فتفارق دينك وأنت لا تعلم فتـدخل النـار، وادع لي ولنفسك. ثم قـال: اللهم، إن هـذا زعم أنـه يحبني فيـك، وزارني من أجلك، فعرفني وجهـه في الجنة، وأدخله عـلى دارك دار السلام، واحفظه ما دام حياً، وأرضه من الدنيا باليسـير، واجعله لما أعـطيته من نعمتـك من الشاكـرين، واجزه عني خـيراً. ثم قال: السـلام عليك ورحمـة الله وبركاته لا أراك بعد اليـوم إن شاء الله تعـالى، رحمك الله، فـإني أكره الشهـرة، والوحدة أحب إلي، لأني كثيـر الغم ما دمت مـع هؤلاء الناس. فـلا تسأل عني، ولا تطلبني، واعلم أنك مني على بال وإن لم أرك وتراني، واذكرني وادع لي، فإني سأدعو لك وأذكرك، إن شاء الله تعالى، فانطلق أنت ها هنا حتى آخـذ أنا هنـا. فحرصت على أن أمشي معـه ساعـة فأبى عـليّ، ففارقتـه أبكي ويبكي، فجعلت أنظر إليه حتى دخل بعض السكك. ثم سألت بعد ذلك وطلبته فلم أجـد أحداً يخبرني عنه بشيء، وما أتت عليّ جمعة إلا وأراه في منامي مرة أو مرتين.

وقـال الشعبي: مـر رجـل من مـراد عـلى أويس القـرني فقـال: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحمد الله عز وجل. قال: كيف الزمـان عليك؟ قـال: كيف الزمان على رجل إن أصبح ظن أنه لا يمسي، وإن أمسى ظن أنه لا يصبح، فمبشر بالجنة أو مبشر بالنار، يا أخا مراد، إن الموت وذكره لم يترك لمؤمن فـرحاً، وإن علمه بحقوق الله لم يترك له فضة ولا ذهباً، وإن قيامه لله بـالحق لم يترك لـه صديقاً».

وعن عمار بن سيف الضبي قال: لحق رجل بأويس القرني فسمعه يقول: اللهم إني أعتذر إليك اليوم من كل كبد جائعة؛ فإنه ليس في بيتي من الطعام إلا ما في بطني، وليس في بيتي شيء من الرياش إلا ما على ظهري قال: وعلى ظهره

خرقة قد تردى بها. قال: فأتاه رجل فقال له: كيف أصبحت؟ أو كيف أمسيت؟ فقال: أصبحت أحب الله، وأمسيت أحمد الله، وما تسأل عن حال رجل إذا هو أصبح ظن أنه لا يمسي، وإذا أمسى ظن أنه لا يصبح، إن الموت وذكره لم يدع لمؤمن فرحاً، وإن حق الله في مال الله لم يدع له من ماله فضة ولا ذهباً، وإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لم يدع للمؤمن صديقاً، نأمرهم بالمعروف فيشتمون أعراضنا، ويجدون على ذلك أعواناً من الفاسقين، حتى والله لقد رموني بالعظائم، وايم الله لا أدع أن أقوم لله فيهم بحقه، ثم أخذ الطريق.

وقال: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نادى رجل من أهل الشام يوم صفين: أفيكم أويس القرني؟ قال: قلنا: نعم، وما تريد منه؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أويس القرني خير التابعين بإحسان وعطف دابته، فدخل مع أصحاب علي عليه السلام».

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: نادى منادٍ يوم صفين: أفي القوم أويس القرني؟ فوُجد في قتلى علي عليه السلام. (قال المؤلف هذا هو الصحيح).



في العهد الأموي

(أ) مع الذين أنعم الله عليهم

تعرضت اليمن خلال الصراع بين العلويين والزبيريين والأمويين للكثير من الحملات التي أودت بحياة المئات. وكان أهم تلك الحملات ما قام به بسر بن أرطاة أيام معاوية من المذابح في صنعاء وكان من ضحاياها طفلان من أبناء عبيد الله بن العباس عامل الإمام علي في اليمن، وهما اللذان يعرفان حتى اليوم في صنعاء بالشهيدين، وقد أقيم جامع يحمل هذا الاسم.

أما الحملة الأخرى فهي التي قام بها عبد الملك بن عطية السعدي ضدّ عبد الله بن يحيى الكندي أواخر الدولة الأموية وكان الكندي قد استولى على صنعاء في ألفي رجل، كما استولى أبو حمزة الشاري على المدينة.

تلك أهم الوقائع في اليمن.

أما حال اليمنيين المتواجدين في الجزيرة والشام والعراق وما والاهما، فقد كان بين مد وجزر مع أطراف الصراع. ومن ذا الذي يجهل دهاء معاوية، وبعد نظره، ومقدرته الفائقة على اكتساب الأنصار بإغداق الأموال وإسناد الأعمال، حتى تمكن من احتواء الكثير من اليمنيين؟ ويقال: إنه كان يختص شعراء اليمانية بإغداق العطاء حتى عاتبه في ذلك الشاعر القيسي مسكين الدارمي:

أخاك أخاك، إن من لا أخا له
كساع إلى الهيجا بغير سلاح

فإن ابن عم المرء فاعلم جناحه
وهل ينهض البازي بغير جناح

ولم يكتفِ معاوية بذلك كله، وإنما أكده بالإصهار إلى القبيلة اليمنية (كلب)، فتزوج ميسون بنت بحدل الكلبي التي أنجبت له ابنه الوحيد يزيد، ولما تصالح الحسن مع معاوية كان أول شروط الصلح الأمان لمن كان معه ومع أبيه الإمام علي، والتزم معاوية بذلك ووفى به. وكان أهم أنصار الإمام هم همدان وكندة، فبذل معاوية كل ما في صدره من حلم وأكثر ما في يده من ولاية وعطاء، لتألف همدان والحصول على ودها.

وما أكثر المواقف الصعبة التي كان يمر بها زعماء اليمن المتمسكون بإبائهم، المفاخرون بمحتدهم.

وسنكتفي بحادثتين رواهما أبو محمد الهمداني في المجلد الثاني من (الإكليل) عمن استحذى له معاوية: «راشد بن عمرو الجديدي من بني الجديد، سيد الأزد وشريفها. قال المداني: وفد راشد بن عمرو على معاوية فاستشرفه، فأقبل على من عنده فأجلسه معه على السرير، وحدثه طويلاً، فلما نهض اتبعه بصره حتى خرج، وأقبل على من عنده من قريش فقال: أيسركم أن يكون هذا من قريش. قالوا: وما يسوؤنا من ذلك؟ قال: لو كان من قريش لنازعني في الخلافة، وإني له الآن لخائف، وما الرأي إلا أن أرمي به في نحر العدو. فولاه وأغزاه بلد السند، فدخل مكران والقيقان، وفيه يقول الشاعر:

غزا السند ميمون النقيبة، حازم،
من الأزد، جلدٌ، للصعاليك رافع
ترى عينه ما لا يرون إذا سما
بعيني قطامي خضيب الأشاجع[1]
وإن الجديدي بن عمرو على الكرى
وعند السُرى صقر بعلياء، واقع

(١) هكذا في الأصل وفيه اقواء.

وعاتب عتبة أخاه معاوية لرفقه باليمانية فقال معاوية لآذنه: ادخل أرث من بالباب بزة. فخرج الآذن فوجد رجلاً ذا طمار لا تكاد تواريه فقدمه. فلما مثل بين يدي معاوية قال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. فرد عليه معاوية وأمره بالقعود، ثم أقبل عليه يسأله قال: أنت من الذين بدلوا نعمة الله كفراً فأبدلهم الله بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل، وشيء من سدر قليل؟ قال: إني لمن تلك البلدة، ومن نسل أولئك القوم، ولكنك يا معاوية من القوم الذين قالوا لنبيهم محمد ﷺ: ﴿اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو أئتنا بعذاب﴾ وإنا لأهل الجنة التي وصفها الله، والعرش الذي عظمه الله، وأنتم أهل النجعة التي صغرها الله وذمها بمخمتها وجوعها. فقال: (لايلاف قريش) السورة وأنشأيقول:

تفاخرنا قريش، ونحن كنا قسمنا الفخر في عليا نزار
ففخر العالمين لنا فبعض وهبناه وآخره عواري

ووثب فأجلسه معاوية واعتذر إليه ووصله، وقال لأخيه وأهل بيته: هذا ما منيتمونا به، وعرضتمونا له» ا. هـ.

ولما شكى أهل الكوفة عبد الرحمن بن عبد الله الثقفي لشربه الخمر، ولّاه خاله معاوية مصر فطرده منها الصحابي الجليل معاوية بن حديج التجيبي، ثم قدم على معاوية وكان إذا وفد عليه وضعت قباب الريحان، فأقبل حتى دخل على معاوية وبين يديه بنية له فقال: من هذه يا أمير المؤمنين؟ قال بنية لي. قال: نحها عنك فوالله إنّهنّ يلدْن الأعداء، ويقربْن البعداء. فقال معاوية: أما على ذلك، ما مرض المرضى ولا بكى الموتى مثلهن أحد. وأم الحكم في ناحية تسمع الكلام فقالت: يا أمير المؤمنين من هذا المتكلم؟ قال: بخ هذا معاوية بن حديج. فقالت: لا حيا الله ولا قرب، أنت الفاعل في ابني ما فعلت؟ قال: على رسلك يا أم الحكم، أما والله لقد تزوجت فما استكرمت وولدت فما أنجبت،

أردت أن يلينا ابنك هذا الفاسق فيسير فينا في إخواننا من أهل الكوفة ما كان الله ليرى ذلك، ولا يرى أمير المؤمنين ذلك منا، ولو أراد لضربناه ضرباً يصأصىء منه، وإن كره ذلك أمير المؤمنين. فقال له معاوية: عزمت عليك لما سكت.

ولما كان انتهاء دولة معاوية وولده يزيد وقيام عبد الله بن الزبير بالإمارة في مكة، جنح إليه أهم رجال معاوية وهو الضحاك بن قيس، الذي اشتجر مع مروان بن الحكم في (مرج راهط). وكان أكثر الخيرين من رجالات العصر هم أولئك الواقفون إلى جانب ابن الزبير لكونه صحابياً ابن صحابي، فهو أجدر المتنافسين بالخلافة؛ ولذلك وقف إلى جانبه النعمان بن بشير الأنصاري الصحابي ابن الصحابي، وأمر شرحبيل بن ذي الكلاع بالانضمام مع جيشه إلى الضحاك بن قيس وكذلك صنع ناتل بن قيس الجذامي والي فلسطين، وزفر بن الحارث الكلابي وأصله من كندة كما قال ابن الأثير، وهو والي قنسرين. ووقفت قبائل يمنية كالسكاسك والسكون وغسان وكلب إلى جانب الضحاك وأسفرت المعركة عن قتل الضحاك وغلبة مروان، ومن بعده قتل أحد الكلبيين النعمان بن بشير، وفر ناتل بن قيس إلى ابن الزبير، كما لاذ زفر بن الحارث بقرقيسيا شمال العراق واستقر بها.

وقد وهم بعض المؤرخين فظن زفر قيسياً لموالاته لهم، وليس الأمر كذلك، فإن زفر كان متقيداً ببيعته لابن الزبير، وقد ظل على ذلك حتى قدم عبد الملك بن مروان طالباً له إلى قرقيسيا، فلم يذعن بل أمر ولده هذيل أن يطأ بفرسه أطناب خيمة عبد الملك. وخرج هذيل فعلاً ووطأ ما أمره به أبوه وعاد مظفراً، وفيه يقول:

ولست أبالي من أتاه حمامه
إذا ما المنايا عن هذيل تجلت

تـراه أمـام الخيـل أول فـارس
ويضرب في أعـجـازهـا إن تـولـت

ولما تصالح زفر مع عبد الملك اشترط عدم المشاركة في حرب ابن الزبير، وأرسل معهم ولده هـذيل. ولما التقى الجيشان انضم إلى إبراهيم بن الأشتر في جيش مصعب حتى انتهى أمر الزبيريين.

كما كان لليمن موقف آخر مع عبد الملك هو ذلك الذي كان مع عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث، وقيادته لجيش القراء، وخبره الطويل المشهور مع الحجاج.

وفي عهد الوليد كان في مقدمة جيش الشام الغازي للروم جيش عفير بن زرعة بن سيف بن ذي يزن، وإسماعيل بن سعيد الهمداني، وعياش بن عبد الله المرهبي وخبرهم بالتفصيل في (الإكليل).

وفي عهد سليمان كان وزيره المقرب هو التابعي الصالح رجاء ابن حيوة الكندي، وهو الذي أشار عليه باستخلاف عمر بن عبد العزيز، أما أبرز المقربين إلى عمر من اليمانية إلى جانب رجاء، فهو محمد بن جرير البجلي الذي جعله عمر قائداً لجيشه في حرب الخوارج، والجراح بن عبد الله الحكمي الذي اختاره عاملاً لطبرستان وما والاها.

ويظهر من استعراض ابن الأثير للأحداث حينذاك أن تواجد اليمنيين في جيش الفتح كان كثيفاً، إذ أنه لما عزل القاسم بن محمد عن ولاية السند كان خليفته يزيد بن أبي كبشة السكسكي، ومن بعده حبيب بن المهلب بن أبي صفرة، وكان في جيش قتيبة بن مسلم عشرة آلاف يقودهم عبد الله بن حوذان وسبعة آلاف بقيادة جهم بن زحر، عدا من كان في جيش المهلب والحارث بن عميرة الهمداني وأمثالهم.

ولما تولى يزيد بن عبد الملك كانت المواجهة مع خصمه يزيد بن المهلب

وجاء هشام بن عبد الملك، فكان أول ما يتقرب به إلى اليمانية تولية خالد بن عبد الله القسري، الذي يذكر له التاريخ فتكه بالجعد بن درهم، أول القائلين بخلق القرآن، وكان أخذ بدعته ـ كما قال ابن كثير ـ عن بنان بن سمعان عن طالوت بن أخت لبيد بن أعصم، وهو زوج ابنته. أخذها لبيد عن يهودي باليمن، وأخذها عن الجعد إلى الجهم بن صفوان الخزري. وقد قتل الجهم على يد سلام بن أحوز والي مرو، وأخذها عن الجهم بشر المريسي، وأخذها عنه أحمد بن أبي دؤاد قاضي المأمون.

ولما ظهرت تلك القولة وأمثالها من العظائم طارده بنو أمية، حتى قبض عليه خالد القسري. وفي يوم عيد الأضحى وقف خالد في جامع الكوفة خطيباً فقال: أيها الناس ضحوا يقبل الله ضحاياكم، فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يكلم موسى تكليماً، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيراً، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر.

ولما كانت تولية الوليد ـ الفاسق ـ ابن يزيد بن عبد الملك، كان يزيد بن عنبسة السكسكي هو الذي فتك به. ومن خبره ما أورده ابن الأثير.

قال في المجلد الرابع ص ٢٦٨: «قال يزيد بن عنبسة السكسكي: كلمني. قال: يا أخا السكاسك ألم أزد في أعطياتكم؟ ألم أرفع المؤن منكم؟! ألم أعطِ فقراءكم؟ ألم أخدم زمناكم؟! فقال: إنا ما ننقم عليك في أنفسنا، إنما ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله، وشرب الخمر، ونكاح أمهات أولاد أبيك، واستخفافك بأمر الله، قال: حسبك يا أخا السكاسك، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت، وإن فيما أحل الله سعة عما ذكرت. ورجع إلى الدار وجلس وأخذ مصحفاً فنشره يقرأ فيه، وقال: يوم كيوم عثمان. فصعدوا على الحائط وكان أول من علاه يزيد بن عنبسة، فنزل إليه فأخذ بيده وهو يريد أن يحبسه ويؤامر فيه، فنزل من الحائط عشرة، منهم منصور بن جمهور وعبد السلام اللخمي، فضربه

عبد السلام على رأسه، وضربه السندي بن زياد بن أبي كبشة في وجهه، واحتزوا رأسه» ا. هـ.

ذلك هو التطواف المجمل السريع لليمنيين في عهد الأمويين عدا من كان منهم في غرب إفريقيا والأندلس، إذ أننا سنورد أخبارهم في تراجمهم تفصيلاً، إن شاء الله.

وقد كان لليمن إلى جانب المجاهدين الفاتحين علماء عاملون أشرقت بهم صفحات التاريخ وأضاءت بهم عتمات الأحداث لا نستطيع استيعابهم ذكراً، وسنأتي بما منّ الله وأعان من فضلائهم.

ومع دخول العهد الأموي انتهى تقسيمنا لليمنيين إلى وافدين ونازحين، فقد استقر قرارهم جميعاً خارج اليمن، وأصبحوا مهاجرين مرابطين في الثغور، ومرتادين للحواضر.

ومراجعنا في الأسماء المثبتة بعد هذا هي المراجع الخمسة السالفة، مضافاً إليها (صفة الصفوة) للإمام أبي الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، (وتذكرة الحفاظ) لمؤرخ الإسلام الذهبي.

معاوية بن حديج (... - ٥٢ هـ)

معاوية بن حديج الصحابي التجيبي الكندي تولى مصر لمعاوية وولده يزيد. قال الزركلي في الأعلام: «كان ممن شهد حرب صفين مع معاوية، وولي غزو المغرب مراراً، آخرها سنة ٥٠. واستولى على صقلية، وفتح بنزرت، وأعيد إلى ولاية مصر، وعزل عنها سنة ٥١، وتوفي بها. وبقيت فيها ذريته الى القرن الثامن للهجرة. له في إفريقيا آثار؛ منها آبار في القيروان تعرف بآبار حديج. توفي سنة ٥٢ هـ».

عمرو بن قيس السكوني

والسكون من كندة. قال صاحب (صفة الصفوة) في ترجمته: «كان من العباد الزهاد، وكانت له حلة بمئتي درهم يلبسها إذا قام إلى صلاة الليل، وكان إذا خرج إلى المسجد وضع يمينه على شماله مخافة الخيلاء. روى عن معاذ وعبادة بن الصامت والعرباض بن سارية وغيرهم. قال أحمد: آية في الزهد.

حدثنا أبو اليمان حدثنا أبو بكر بن حكيم بن عمير وضمرة بن حبيب قالا: قال عمر بن الخطاب: من سره أن ينظر إلى هدي رسول الله ﷺ فلينظر إلى هدي عمرو بن الأسود» ا. هـ. ولم يذكر تاريخ الوفاة.

صفوان بن عسال المرادي

قال النووي في (تهذيب الأسماء) مترجماً له: ـ

الصحابي رضي الله عنه مذكور في المختصر في (الأحداث) وفي (المهذب) وفي (الأوسط) في مسح الخف: وعسال بفتح العين والسين، وهو مرادي كوفي غزا مع رسول الله اثنتي عشرة غزوة، ومن مناقبه أن عبد الله بن مسعود روى عنه، وروى عنه جماعات من التابعين» ا. هـ ولم يذكر تاريخ الوفاة.

مرة بن شراحيل الهمداني

يقال له مرة الطيب، ومرة الخير، روى عن أبي بكر وعمر وعلي وابن مسعود وغيرهم، كان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة، فلما كبر صلى أربع مئة ركعة. ويقال: إنه سجد حتى أكل التراب جبهته. فلما مات رؤي في المنام ـ وقد صار ذلك المكان نوراً ـ فقيل له: أين منزلك؟ فقال: بدار لا يظعن أهلها ولا يموتون.

طلحة بن مصرف الهمداني (ت ـ ١١٢ هـ)

ترجمه النووي في (التهذيب) فقال:

«هو أبو محمد وقيل: أبو عبد الله طلحة بن مصرف بن عمرو بن كعب بن مجدب بن معاوية بن سعيد بن الحارث بن ذهل بن سلمة بن دؤل بن حنبد بن يام بن رافع اليامي. ويقال: الأيامي الهمداني الكوفي التابعي الإمام. سمع ابن أبي أوفى وأنَساً وجماعة من التابعين. روى عنه ابنه محمد وأبو إسحاق السبيعي، وإسماعيل بن أبي خالد ومنصور بن المعتمر والأعمش، وخلائف من الأئمة. واتفقوا على جلالته وإمامته، ووفور علمه بالقرآن وغيره، وورعه.

قال أحمد بن عبد الله وغيره: كان طلحة من أقرأ أهل الكوفة وخيارهم.

وقال عبد الله ابن إدريس: كانوا يسمون طلحة (سيد القراء). وروينا عن أحمد بن عبد الله قال: اجتمع قراء الكوفة في منزل الحكم بن عتيبة فأجمعوا على أن أقرأ أهل الكوفة طلحة بن مصرف. فبلغه ذلك فغدا إلى الأعمش يقرأ عليه ليذهب ذلك الاسم.

وروينا عن عبد الملك بن أبحر قال: ما رأيت له الفضل عليهم. وقال حريش بن سليمان: شهدت أبا إسحاق وسلمة بن كهيل وحبيب بن أبي ثابت وأبا معشر كلهم يقول: ما رأيت مثل طلحة، وما أدركت مثل طلحة. وقال شعبة: كنت في جنازة طلحة فقال أبو معشر: ما ترك بعده مثله. توفي سنة اثنتي عشرة، وقيل ثلاث عشرة، وقيل عشر ومئة».

علقمة بن قيس أبو شبل النخعي

كان من أكابر أصحاب ابن مسعود وعلمائهم، وكان يشبه بابن مسعود. وقد روى علقمة عن جماعة الصحابة وعنه خلق من التابعين.

طارق بن شهاب الأحمسي البجلي (٠٠ ـ ٨٣ هـ)

ترجمه النووي في التهذيب فقال:

«الصحابي مذكور في (المهذب) في (باب الردة) هو أبو عبد الله طارق بن شهاب بن عبد شمس بن سملة الكوفي البجلي الأحمسي، منسوب إلى أحمس بن الغوث بن أنمار. أدرك الجاهلية، وصحب النبي ﷺ، وغزا في زمن أبي بكر وعمر ثلاثاً وثلاثين أو ثلاثاً وأربعين غزوة، وروى عن الخلفاء الأربعة، وابن مسعود وسلمان وخالد وأبي موسى وحذيفة، وروى عنه جماعات من التابعين منهم: قيس بن مسلم، ومخارق بن عبد الله، وإسماعيل بن أبي خالد، وسليمان بن ميسرة، وغيرهم. سكن الكوفة، وتوفي سنة ثلاث وثمانين».

قبيصة بن ذؤيب (٠٠ ـ ٨٦ هـ)[١]

قال النووي في (تهذيب الأسماء) مترجماً له:

«التابعي المذكور في (المهذب) في ميراث الجدّة وفي (دية الهاشمية) وهو أبو سعيد، ويقال: أبو إسحاق قبيصة بن ذؤيب بن حلحلة بن عمرو بن كليب بن إصرام الخزاعي المدني. ولد عام الفتح، وقيل عام الهجرة، والمشهور عام الفتح، وهو تابعي سمع زيد بن ثابت وأبا الدرداء وأبا هريرة، وروى عن أبي بكر الصديق وعمرو بن العاص وعمر وعبد الرحمن بن عوف، وعبادة بن الصامت وجابر وابن عباس، وتميم الداري وعائشة وأم سلمة، رضي الله عنهم مرسلاً. روى عنه رجاء بن حيوة والزهري ومكحول، وخلائق من التابعين، وغيرهم، وأجمعوا على توثيقه وجلالته.

قال الشعبي: «قبيصة من أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت». وقال محمد بن سعيد: «سمع من عثمان بن عفان، وكان آثر الناس عند عبد الملك بن

(١) وقيل توفي ٨٧ هـ.

مروان، وكان على خاتمه، وكان البريد إليه، وكان يقرأ الكتب إذا وردت ثم يدخلها إلى عبد الملك فيخبره بما فيها، وكان ثقة، مأموناً، كثير الحديث». وقال مكحول: «ما رأيت أعلم من قبيصة». وقال أبو الزناد، فيما رواه عنه الأعمش: «كان فقهاء المدينة سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير وقبيصة بن ذؤيب، وعبد الملك بن مروان قبل أن يدخل في الإمارة». توفي في خلافة عبد الملك سنة ست أو سبع وثمانين».

قيس بن أبي حازم البجلي (٠٠ ـ ٨٤ هـ)[1]

من أوفى المراجع في ترجمته هو التهذيب للنووي قال:

مذكور في (المختصر) و (المهذب) في خراج السواد. هو أبو عبد الله، قيس بن أبي حازم واسمه عبد عوف بن الحارث، وقيل اسمه عوف الأحمسي البجلي الكوفي التابعي، الجليل المخضرم، أدرك الجاهلية، وجاء ليبايع النبي ﷺ فتوفي النبي وهو في الطريق، وأبوه صحابي. روى قيس عن العشرة، أصحاب رسول الله ﷺ.

هكذا رويناه عن الحافظ عبد الرحمن بن يوسف بن خراش، والحاكم أبي عبد الله، وغيرهما قال ابن حراش وغيره: «وليس في التابعين من روى عن العشرة غير قيس». وقال أبو داود: «أجود الناس إسناداً قيس بن أبي حازم». توفي سنة أربع وثمانين، وقيل سبع وثمانين، وقيل ثمان وسبعين، رحمه الله.

مالك بن عبد الله الخثعمي

قال النووي في (التهذيب) مترجماً له:

«ابن سنان بن سرح بن عمرو، أبو حكيم الخثعمي من أهل فلسطين. وهو صحابي وقيل تابعي، وكان صالحا كثير الصلاة بالليل، وكان أمير الجيوش

(١) وقيل توفي سنة ٨٧ هـ.

في غزو الروم أربعين سنة أيام معاوية، وقبلها وبعدها أيام يزيد وأيام عبد الملك». ولم يذكر النووي تأريخ وفاته.

محمية بن جزء الزبيدي

ترجمه النووي في (التهذيب) فقال: -

الصحابي رضي الله عنه هو محمية بن جزء بن عبد يغوث بن عويج بن عمرو بن زبيد الأصغر الزبيدي. قال أبو نعيم: هو عم عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي. وكان محمية قديم الإسلام، وهو من مهاجرة الحبشة وتأخر رجوعه منها، وأول مشاهده المريسيع. وثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ استعمله على الأخماس، رضي الله عنه».

معيقيب الدوسي (٠٠ - ٣٥ هـ)

ودوس من أزد الشراة: قال النووي في ترجمته:

«هو معيقيب بن أبي فاطمة الدوسي، أسلم قديماً بمكة، وهاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، ثم هاجر إلى المدينة. شهد بدراً، وكان على خاتم رسول الله ﷺ، واستعمله أبو بكر وعمر رضي الله عنهما على بيت المال، وروي له عن رسول الله ﷺ سبعة أحاديث، اتفقا على حديث واحد وهو المذكور في (المهذب) وهو النهي عن مس الحصى، ولمسلم آخر وهو الذي سقط من يده خاتم رسول الله ﷺ في بئر أريس في المدينة في خلافة عثمان، ومن حين سقط اختلفت الكلمة بين المسلمين، وكان الخاتم كالأمان. توفي معيقيب في آخر خلافة عثمان، وقيل في سنة أربعين في خلافة علي رضي الله عنه وله عقب أ. هـ. وقد خرج من دوس صحابيون كبار، منهم أبو هريرة عبد الرحمن بن دوس بن صخر الدوسي، ولشهرته المستفيضة اكتفينا بالتنويه به والإشارة إليه».

وائل بن حجر الكندي

أبو هنيدة وائـل بن حجر بن ربيعـة بن يعمر الحضرمي ، كـذا قالـه ابن عبد الـبر. وقـال الحـافظ أبـو القـاسم بن عسـاكـر: وائـل بن حجـر بـن سعـد بن مسروق بن وائل بن ضمغج بن وائل بن ربيعة بن وائل بـن النعمان بن زيد، كان من ملوك حمـير، ويقـال للملك منهم: قيّـل، وجمعـه: أقيـال. وكـان أبـوه من ملوكهم. وفد وائل على رسول الله ﷺ وكان رسول الله بشر أصحابه بقدومه قبل وصـوله بـأيام، وقـال: «يأتيكم وائـل بن حجر من أرض بعيـدة من حضرمـوت طائعاً ذاعناً في الله عز وجل وفي رسول الله، وهو بقية الأقيال». فلما دخل رحب به، وأدناه من نفسـه، وبسط له رداءه، وأجلسـه عليه مـع نفسه وقـال: «اللهـم بارك في وائل وولده». وأصعده معه على المنبر وأثنى عليه، واستعمله على بلاده، وأقطعه أرضاً، وأرسل معاوية بن أبي سفيان وقال: أعطه إياه.

روي له عن رسول الله ﷺ أحد وسبعون حديثاً، روى مسلم منهـا ستة، ولم يرو البخاري له شيئاً.

نزل الكوفة وعاش إلى أيام معاوية، ووفد عليه وأجلسه معه على السرير، وشهد معه صفين. وكانت معه راية حضرموت.

روى عنه ابناه: علقمة وعبد الجبار، وقيل: لم يسمعه عبد الجبـار. وروى عنـه أيضـاً كليب بن شهــاب، وحجـر بن عنبس، وعبــد الـرحمن اليحصبي، وغيرهم..

يزيد بن الأسود السكوني

أحد ربانيي اليمن، ترجمه ابن كثير في (البداية والنهاية) فقال:

«كـان عابـداً زاهداً صـالحاً، سكن الشـام بقريـة (زبدين) وقيـل بقـريـة (جـرين)، وكـانت لـه دار داخـل بـاب شرقي. وهـو مختلف في صحبتـه، ولـه

روايات عن الصحابة. وكان أهل الشام يستسقون به إذا أقحطوا، وقد استسقى به معاوية والضحاك بن قيس، وكان يجلسه معه على المنبر. قال معاوية: قم يزيد، اللهم إنّا نتوسل إليك بخيارنا وصلحائنا. فيستقي الله فيسقون. وكان يصلي الصلوات في الجامع بدمشق، وكان إذا خرج من القرية يريد الصلاة بالجامع في الليلة المظلمة يضيء له إبهام قدمه، وقيل أصابع رجليه كلها، حتى يدخل الجامع، فإذا رجع أضاءت له حتى يدخل القرية. وذكروا أنه لم يدع شجرة في قرية (زبدين) إلا صلى عندها ركعتين، وكان يمشي في ضوء إبهامه في الليلة المظلمة ذاهباً إلى صلاة العشاء بالجامع بدمشق وآتياً إلى القرية، وكان يشهد الصلوات بالجامع بدمشق لا تفوته به صلاة. مات بقرية (زيدين) أو (جرين) من غوطة دمشق، رحمه الله تعالى».

عبيدة السلماني (٠٠ ـ ٧٢ هـ)[١]

ترجمه الحافظ الذهبي في (التذكرة) فقال:

«وهو عبيدة بن عمرو، ويقال ابن قيس بن عمرو السلماني المرادي أبو عمرو الكوفي، وسلمان بطن من مراد، أسلم عبيدة في حياة النبي ﷺ، وروى عن ابن مسعود وعلي وابن الزبير، وحدث عنه جماعة من التابعين. وقال الشعبي: «كان يوازي شريحاً في القضاء». قال ابن نمير: «كان شريح إذا أشكل عليه أمر كتب إلى عبيدة فيه وانتهى إلى قوله» وقد أثنى عليه غير واحد.

وكانت وفاته في هذه السنة سنة اثنتين وسبعين، وقيل سنة ثلاث، وقيل سنة أربع، فالله أعلم. وقد قيل أن مصعب بن الزبير قتل فيها، والله أعلم».

وفي التهذيب للنووي قال:

«التابعي الكبير يقال له (السلماني) نسبة إلى بني سلمان بطن من مراد. قال

---

(١) وقيل إنه توفي سنة ٧٣ هـ أو ٧٤ هـ.

ابن أبي داود السجستاني: أسلم عبيدة قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين ولم يره، وسمع عمر بن الخطاب وعلياً وابن مسعود وابن الزبير وهو مشهور بصحبة علي. روى عنه الشعبي والنخعي وأبو الحصين وابن سيرين وآخرون. نزل الكوفة، وورد المدينة، وحضر مع علي قتال الخوارج، وكان أحد أصحاب ابن مسعود الذين يقرؤون ويفتون. وكان شريح إذا أشكل عليه شيء أرسلهم إلى عبيدة، وكان ابن سيرين من أروى الناس عنه. قال ابن سيرين: «أدركت الكوفة وبها أربعة يعدون للفقه؛ فمن بدأ بالحارث ثنى بعبيدة، ومن بدأ بعبيدة ثنى بالحارث، ثم علقمة الثالث، وشريح الرابع. وإن أربعة أحسنهم شريح لخيار». قال ابن سيرين: «ما رأيت أشد توقياً من عبيدة». وقال ابن نمير: «كان شريح إذا أشكل عليه الأمر كتب إلى عبيدة وانتهى إلى قوله». توفي عبيدة سنة اثنتين وسبعين، وقيل ثلاث أو أربع».

الأسود بن يزيد النخعي (ت ـ ٧٥ هـ)

قال ابن كثير في (البداية) مترجماً له: ـ

«صاحب ابن مسعود، وهو الأسود بن يزيد النخعي من كبار التابعين، ومن أعيان أصحاب ابن مسعود، ومن كبار أهل الكوفة. وكان يصوم الدهر، وقد ذهبت عينه من كثرة الصيام. وقد حج البيت ثمانين حجة وعمرة، وكان يهل من الكوفة. توفي سنة خمس وسبعين. وكان يصوم حتى يخضّر ويصفر، فلما احتضر بكى فقيل له: ما هذا الجزع؟ فقال: «مالي لا أجزع، ومن أحق بذلك مني، والله لو أنبئت بالمغفرة من الله لأهابن حياء من ما قد صنعت. إن الرجل ليكون بينه وبين الرجل الذنب الصغير فيعفو عنه، فلا يزال مستحيياً منه».

وقال النووي في التهذيب: «الإمام الصالح أخو عبد الرحمن بن يزيد وابن أخي علقمة بن قيس، وكان أسن من علقمة، وهو خال إبراهيم النخعي الفقيه، رأى أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وروى عن علي

وابن مسعود ومعاذ وأبي موسى وعائشة. وروى عنه ابنه عبد الرحمن بن الأسود وأخوه عبد الرحمن بن يزيد وإبراهيم النخعي وآخرون. قال أحمد بن حنبل: هو ثقة من أهل الخير. واتفقوا على توثيقه وجلالته. وروينا عن ميمون بن أبي حمزة قال: سافر الأسود بن يزيد ثمانين حجة وعمرة لم يجمع بينهما، وسافر ابنه عبد الرحمن ثمانين حجة وعمرة لم يجمع بينهما. وروينا أنّ ابنه عبد الرحمن كان يصلي كل يوم سبع مئة ركعة، وكانوا يقولون: إنه أقل أهل بيته اجتهاداً، وإنه صار عظماً وجلداً، رضي الله عنهم».

شريح القاضي (ت ـ ٧٨ هـ)

أول من حمل لقب قاضٍ في الاسلام ترجمة ابن كثير فقال: ـ

ابن قيس أبو أمية الكندي، وهو قاضي الكوفة. وقد تولى القضاء لعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب، ثم عزله علي، ثم ولاه معاوية ثم استقل في القضاء إلى أن مات في هذه السنة. وكان رزقه على القضاء في كل شهر مئة درهم، وقيل خمس مئة درهم، وكان إذا خرج إلى القضاء يقول: سيعلم الظالم حظ من نقص. وقيل: إنه كان إذا جلس للقضاء قرأ هذه الآية: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى﴾. وكان يقول إن الظالم ينتظر العقاب، والمظلوم ينتظر النصر وقيل: إنه مكث قاضياً نحو سبعين سنة. وقيل: إنه استعفى من القضاء قبل موته بسنة، فالله أعلم. وأصله من أولاد الفرس الذين كانوا باليمن، وقدم المدينة بعد موت النبي ﷺ. توفي بالكوفة وعمره مئة وثمان سنين.

وقد روى الطبراني قال: حدثنا علي بن عبد العزيز حدثنا عارم أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد بن شعيب بن الحجاب عن إبراهيم التيمي قال: كان شريح يقول: «سيعلم الظالمون حق من نقصوا، إن الظالم ينتظر العقاب وإن المظلوم ينتظر النصر». ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن علية عن ابن عون عن

إبـراهيم وقـال الأعمش: اشتكى شريـح رجله فـطلاهـا بـالعســل، وجلس في الشمس فدخل عليه عواده فقالوا: كيف تجدك؟ فقال: صالحاً، فقالوا: ألا أريتها الطبيب. قال: قد فعلت. قالوا: فـاذا قال لـك؟ قال: وعـد خيراً. وفي روايـة أنه خـرج بإبهـامه قـرحة، فقـالوا: ألا أريتهـا الطبيب؟ قـال: هو الـذي أخرجها.

وقال الأوزاعي: حدثني عبـدة بن أبي لبابـة قال: «كـانت فتنة ابن الـزبير تسع سنين، وكان شريح لا يختبر ولا يستخبر». ورواه ابن ثوبان عن عبيـدة عن الشعبي عن شريح قال: «لمـا كانت الفتنـة لم أسأل عنهـا» فقال رجـل: لو كنت مثلك مـا بـاليت متى مت». قـال شريـح: «فكيف بمـا في قلبي!» وقـد رواه شقيق بن سلمـة عن شريـح قـال: «في الفتنـة مـا أستخـبرت ولا أخـبرت، ولا ظلمت مسلمـاً ولا معاهـداً ديناراً ولا درهمـاً». فقال أبـو وائل: «لـو كنت عـلى حـالك لأحببت أن أكـون قدمت». فـأومى إلى قلبه فقـال: كيف يهـدأ؟». وفي رواية: «كيف بما في صدري تلتقي الفتاتـان وإحداهمـا أحب إليَّ من الأخرى». وقال لقوم رآهم يلعبون: مالي أراكم تلعبون؟ قالوا: فرغنا. قال: ما بهذا: أمر الفارغ.

وقال سوار بن عبد العنبري: حدثنا العلاء بن جريـر العنبري حـدثني سالم أبو عبد الله أنه قال: شهدت شريحاً، وتقدم إليه رجل فقال: أين أنت؟ فقال: بينك وبين الحائط. فقال: إني رجل من أهل الشام. فقال: بعيد سحيق. فقال: إني تزوجت امرأة. فقال: بالرفاء والبنين. قال: إني اشترطت لها دارها. قال: الشرط أملك. قال: اقض بيننا. قال: قد فعلت. وقـال سفيان: قيـل لشريح: بأي شيء أصبت هذا العلم؟ قال: بمعاوضة العلماء، آخذ منهم وأعطيهم. وروى عثـمان بن أبي شيبة عن عبـد بـن محمد بن سـالم عن إبراهيم بن يـوسف عن أبيه عن أبي إسحاق عن هبيرة أنه سمع علياً يقول: يـا أيها النـاس يأتـوني فقهاؤكم يسألوني وأسـألهم. فلما كان من الغـد غدونـا إليه حتى امتـلأت الرحبـة، فجعل

يسألهم: ما كذا ما كذا؟ ويسألونه: ما كذا ما كذا؟ فيخبرهم ويخبرونه، حتى إذا ارتفع النهار تصدعوا غير شريح فإنه جاثٍ علي ركبتيه، لا يسأله عن شيء: إلا أخبره قال: سمعت علياً يقول: قم يا شريح، فأنت أقضى العرب.

وأتت شريحا امرأتان، جدة صبي وأمه يختصمان فيه، كل واحدة تقول أنا أحق به:

أبا أمية أتيناك وأنت المستعان به أتاك جدة ابن وأم، وكلتانا تفديه
فلو كنت تأيمت لما نازعتك فيه تزوجت فهاتيه ولا يذهب بك ألقيه
ألا أيها القاضي فهذه قصتي فيه

قالت الأم:

ألا أيها القاضي قد قالت لك الجدة قولاً، فاستمع مني، ولا تطردني رده
تعز النفس عن ابني وكبدي حملت كبده
فلما صار في حجري يتيماً مفرداً وحده
تزوجت رجاء الخير من يكفيني فقده
ومن يظهر لي الود ومن يحسن لي رفده

قال شريح: قد سمع القاضي ما قلتماه ثم قضى وعلى القاضي جهد إن غفل

قال للجدة بيني بالصبي وخذي ابنك من ذات العلل
إنها لو صبرت كان لها قبل دعوى ما تبتغيه للبدل

فقضى به للجدة.

وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر بن عون عن إبراهيم عن شريح أنه قضى على رجل باعترافه فقال: يا أبا أمية قضيت عليَّ بغير بينة. فقال شريح: أخبرني ابن أخت خالتك.

وقال علي بن الجعد: أنبأنا المسعودي عن أبي حصين قال: سئل شريح عن شاة تأكل الذباب فقال: علف مجان ولبن طيب. وقال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن سعيد عن ابن حيان التيمي حدثنا أبي قال: كان شريح إذا مات لأهله سنور أمر بها فألقيت في جوف داره لئلا تؤذي بنتنة ريحها المسلمين. وكانت ميازيب أسطحة داره في جوف الدار لئلا يؤذي بها المارة من المسلمين. وقال الرياشي: قال رجل لشريح: إن شأنك لشوبن. فقال له شريح: أراك تعرف نعمة الله على غيرك، وتجهلها في نفسك.

وترجمته في (البداية) لابن كثير، و (التذكرة) للذهبي، وغيرهما أوسع من هذا بكثير. توفي سنة ٧٨.

المغيرة بن المهلب (٠٠ ـ ٨٢ هـ)

المغيرة بن المهلب بن أبي صفرة كان جواداً ممدحاً شجاعاً، له مواقف مشهورة. توفي سنة اثنتين وثمانين، وسنمر بالكثير من أخباره في ترجمة أبيه، إن شاء الله.

المغيرة بن حكيم الصنعاني

ترجمه صاحب (صفة الصفوة) فقال:

«من الأبناء عن عبد الله بن إبراهيم قال: أخبرني أبي قال: سافر المغيرة بن حكيم إلى مكة أكثر من خمسين سفراً، حافيا محرماً صائماً، لا يترك صلاة السحر في سفره، إذا كان السحر نزل فصلى، ويمضي أصحابه، فإذا صلى الصبح لحق متى ما لحق. وعن ابن إبراهيم بن عمر قال: كان جزء المغيرة بن حكيم في يومه وليلته القرآن كله، يقرأ في صلاة الصبح من البقرة إلى هود، ويقرأ قبل الزوال إلى أن يصلي العصر من هود إلى الحج، ثم يكمل وسمع المغيرة بن حكيم من ابن

عمر وأبي هريرة وغيرهما». وقد ترجمه الرازي في (تاريخ صنعاء) بأوسع من هذا.

خالد بن سعدان الكلاعي (٠٠ ـ ١٠٤ هـ)

قال الإمام الذهبي في (التذكرة) مترجماً:

«هو خالد بن سعدان الكلاعي، له روايات عن جماعة من الصحابة، وكان تابعاً جليلاً، وكان من العلماء، وأئمة الدين المعدودين المشهورين، وكان يسبح كل يوم أربعين ألف تسبيحة وهو صائم. كان إمام أهل حمص، وكان يصلي التراويح في شهر رمضان، فكان يوافيها في كل ليلة ثلث القرآن وروى الجوزجاني عنه أنه قال: «من اجترأ على الملاوم في مراد الحق قلب الله تلك المحامد عليه ذماً». وروى ابن أبي الدنيا عنه قال: «ما من عبد إلا وله أربعة أعين: عينان في وجهه يبصر بهما أمر دنياه، وعينان في قلبه يبصر بهما أمر آخرته، فإذا أراد الله بالعبد خيراً فتح عينيه اللتين في قلبه فأبصر بهما أمر آخرته، وهما غيب فأمن الغيب بالغيب، وإذا أراد الله بالعبد خلاف ذلك ترك العبد على ما هو عليه، فتراه ينظر فلا ينتفع. فإذا نظر بقلبه نفع وقال: بصر القلب من الآخرة، وبصر العينين من الدنيا». وله فضائل كثيرة.

توفي سنة أربع ومئة. رحمه الله تعالى».

عامر بن شراحيل الشعبي (... ـ ١٠٤ هـ)(١)

ترجمه الذهبي في تذكرته فقال:

«كان الشعبي من شعب همدان، كنيته أبو عمرو، وكان علّامة أهل الكوفة، كان إماماً حافظاً ذا فنون. وقد أدرك خلقاً من الصحابة، وروى عنهم وعن جماعة من التابعين، وعنه أيضاً روى جماعة من التابعين. قال أبو مجلز: «ما

---

(١) وقيل توفي سنة ١٠٣ هـ .

رأيت أفقه من الشعبي» وقال مكحول: «ما رأيت أحداً أعلم بسنة ماضية منه» وقال داود الأودي: قال لي الشعبي: قم معي هاهنا حتى أفيدك علماً، بل هو رأس العلم. قلت: أي شيء تفيدني؟ قال: إذا سئلت عما لا تعلم فقل: الله أعلم، فإنه علم حسن. قال: لو أن رجلاً سافر من أقصى اليمن لحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبل من عمره، ما رأيت سفره ضائعاً، ولو سافر في طلب الدنيا أو الشهوات إلى خارج هذا المسجد، لرأيت سفره عقوبة وضياعاً. وقال: العلم أكثر من عدد الشعر، فخذ من كل شيء أحسنه. توفي سنة أربع ومئة».

وفي التذكرة للحافظ الذهبي قال: عامر بن شراحيل الشعبي علامة التابعين، كان إماماً حافظاً فقيهاً مثقفاً ثبتاً، وكان يقول: ما كتبتُ سوداء في بيضاء. وروي عن علي. فيقال: مرسل

وعن عمران بن حصين وجديد بن عبد الله وأبي هريرة، وابن عباس وعائشة وعبد الله بن عمر، وعدي بن حاتم والمغيرة بن شعبة وفاطمة بنت قيس وخلق وعنه إسماعيل بن أبي خالد، وأشعث بن سوار وداود بن أبي هند وزكريا ابن أبي زائد، ومجالد بن سعيد والأعمش وابو حنيفة، وهو أكبر شيخ لأبي حنيفة، وابن عون ويوسف بن أبي إسحاق والسري بن يحيى وخلق. قال أحمد العجلي: مرسل الشعبي صحيح، لا يكاد يرسل إلا صحيحاً.

قال الواقدي: الشعبي من حمير وعدده في همدان، فمن كان بالكوفة قيل لهم شعبيون، ومن كان منهم بالشام قيل لهم شعبانيون، ومن كان باليمن قيل لهم ال ذي شعبين، ومن كان بالمغرب قيل لهم الأشعوب، وكلهم ولد حسان بن عمرو بن شعبين، فبنو علي بن حسان هم رهط الشعبي دخلوا في جمهور همدان باليمن.وكان الشعبي ضئيلا ولد هو وآخر في بطن، فكان يقول: إني زوحمت في الرحم. ولد سنة جلولاء، وأقام بالمدينة هارباً من المختار أشهراً، فسمع من ابن عمر، وتعلم الحساب من الحارث الأعور، وشهد وقعة الجماجم مع ابن

الأشعث، ثم نجا من سيف الحجاج، وعفا عنه، وولي قضاء الكوفة. قال ابن سعد: «أنا عبد الله بن محمد بن مرة الشعباني، حدثني أشياخ من شعبان منهم محمد بن أبي أمية، أن مطراً أصاب اليمن فجحف السيل موضعاً، فأبدى عن أزج عليه باب حجر، فكسر الغلق ودخل، فإذا بهُو عظيم فيه سرير من ذهب عليه رجل شبرناه فإذا طوله اثني عشر شبراً، على رأسه ياقوتة حمراء، وإذا رجل أبيض الرأس واللحية له ضفيرتان، وإلى جنبه لوح مكتوب فيه بالحميرية: باسمك اللهم رب حمير، أنا حسان بن عمرو القيل، إذ لا قيل إلا الله عشت بأمل ومت بأجل أيام خزهيد، وما خزهيد؟ هلك فيه اثنا عشر ألف قيل، فكنت آخر قيل، فأتيت جبل ذي شعبين ليجيرني من الموت فأخفرني، وإلى جنبه سيف مكتوب فيه بالحميرية: «أنا سيف، بي يدرك الثأر».

عن شعبة عن منصور بن عبد الرحمن عن الشعبي قال: «أدركت خمس مئة من أصحاب النبي ﷺ.

عن سعيد بن عبد العزيز عن مكحول قال: «ما رأيت أعلم من الشعبي».

عن إسماعيل بن سالم عن الشعبي قال: «ما مات لي قرابة وعليه دين إلا قضيته عنه، ولا ضربت مملوكاً لي قط».

عن أبو بكر بن عياش عن أبي حصين قال: «ما رأيت أحداً قط أفقه من الشعبي».

عن زائدة عن مجالد قال: كنت مع إبراهيم فأقبل الشعبي فقام إليه إبراهيم، ثم جاء فجلس في موضع إبراهيم. عن سليمان [التيمي] عن أبي مجلز قال: «ما رأيت أحداً أفقه من الشعبي، لا سعيد ابن المسيب ولا طاووس، ولا عطاء ولا الحسن ولا ابن سيرين.

عن جرير بن أيوب قال: سأل رجل الشعبي عن ولد الزنى أشهر الثلاثة هو؟ فقال: لو كان كذلك لرجمت أمه وهو في بطنها. وعن الشعبي قال: له رجل من

الكيسانية: «إن عثمان كان كـلاً على مـواليه». فقـال: « ويحك فهـل قتل عثـمان إلا صنيعـه في مواليـه». وعن أبي بكر الهذلـي قال: «قـال لي ابن سـيرين: الـزم الشعبي، فلقد رأيته يستفتي والصحـابة متـوافرون» وعن ابن المـديني قال: قيـل للشعبي: من أين لـك هذا العلم كله؟ قـال بنفي الاعتماد، والسـير في البـلاد، وصبر كصبر الجماد، وبكور كبكـور الغراب: قـال ابن عيينة: «العلماء ثـلاثة ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه».

وقال جعفر بن عون: سمعت ابن أبي ليلى يقول ـ وذكر هذين ـ فقال: «كان الشعبي صاحب آثار، وكان إبراهيم صاحب قياس». وعن عبدالملك بن عمير قال: مرَّ ابن عمر بالشعبي وهو يحدث بالمغازي فقال: «شهدت القوم، ولهذا أحفظ وأعلم بها مني». وقال عيسى الحناط: قال الشعبي: «إنما كان يـطلب هذا العلم من جمع النسك والعقل، فإن كان عاقلاً بلا نسك قيل: هذا الا ينالـه إلا النسّاك، وإن كان نـاسكاً ولم يكن عـاقلاً قيـل: هذا أمـر لا ينالـه إلا العقلاء. ثم قال: «فلقد رأيت اليوم يطلبه من لا عقل له ولا نسك». قـال حفص بن غياث عن الأعمش عن الشعبي قال: «لا بأس بذبيحة الليطة» وترجمته في (التذكرة) أوسع من هذا. توفي سنة ١٠٣ هـ.

وهب بن منبه ت (١١٤هـ)

تابعي جليل وله معرفة بكتب الأوائل، وهو يشبه كعب الأحبار، وله صلاح وعبادة، وتروى عنه أقوال حسنة، وحكم ومواعظ. قال الواقدي: تـوفي بصنعاء سنة عشر ومئة. التابعي الأنباري اليماني أخو همام بن منبه. كنيته وهب أبو عبد الله، ويقال الذماري ـ بكسر الذال المعجمة ـ منسوب إلى ذمار قرية على مـرحلتين من صنعـاء اليمن، وهو تـابعي جليـل من المشهـورين بمعـرفـة الكتب الماضية. سمع جابر بن عبد الله وابن عباس وابن عمرو بن العاص، وأبا سعيـد الخدري وأبا هريرة وأنسـاً والنعمان بن بشـير. روى عنه عمـرو بن دينار وعـوف

الأعرابي والمغيرة بن حكيم، وآخرون، واتفقوا على توثيقه. توفي سنة أربع عشرة ومئة. وقال ابن سعد: سنة عشر ومئة. نقلاً باختصار عن (التهذيب) للنووي، و(البداية) لابن كثير[1].

رجاء بن حيوة الكندي (....-١١٢هـ)

قال ابن كثير في ترجمته: «أبو المقدام، ويقال: أبو نصر، وهو تابعي جليل كبير القدر ثقة فاضل عادل وزير صدق لخلفاء بني أمية، وكان مكحول إذا سئل يقول سلوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة، ووثقوه في الرواية. وله روايات وكلام حسن، رحمه الله»

وقال النووي: «مذكور في (المختصر) في مسح الخف، هو أبو المقدام، ويقال: أبو النصر رجاء بن حيوة بن جندل الفلسطيني، ويقال: الأردن - بضم الهمزة والدال، وتشديد النون التابعي الإمام، روى عن معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت، ومعاوية بن أبي سفيان وأبي سعيد الخدري، وجابر والمسور وابن عمرو بن العاص، وأبي أمامة ومحمود بن الربيع، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم، وعن خلائق من التابعين، روى عنه جماعات من التابعين منهم الزهري وابن عون، والحكم وقتادة، وحميد الطويل وابن عجلان، وخلائق غيرهم. قال مطر: «ما رأيت شامياً أفقه من رجاء بن حيوة» وقال ابن سعد: «كان ينزل الأردن وكان ثقة عالماً فاضلاً كثير العلم». قال أبو سهر: «كان رجاء من بيسان ثم انتقل إلى فلسطين». وقال مسلمة بن عبد الملك: «في كندة ثلاثة رجال، إن الله لينزل الغيث بهم، وينصر بهم على الأعداء: رجاء بن حيوة، وعبادة بن نسيء، وعدي بن عدي»: «وقال مكحول: رجاء شيخنا وسيدنا وسيد أهل الشام، ومناقبه كثيرة مشهورة». قال البخاري: «قيل لرجاء مالَكَ لا

(١) هو مقيم وليس بنازح وإيراده هنا سبق قلم.

تأتي السلطان؟ وكان يقعد عنهم، فقال: «يكفيني الذي تركتهم له، يعني رب العالمين سبحانه وتعالى». قالوا: «وكان رجاء قاضياً توفي سنة اثنتي عشرة ومئة، رحمه الله».

هزيل بن شرحبيل الأودي (...ـ ١٣٢هـ)[1]

قال النووي في تهذيب الأسماء مترجماً له: «هو بضم الهاء وفتح الزاي، وشرحبيل عجمي لا ينصرف. وهزيل هذا أودي تابعي كوفي جليل ثقة. قيل أدرك الجاهلية، روى له البخاري في (صحيحه)، وهو أخو الأرقم، روى عن ابن مسعود، وروى عنه عبد الرحمن بن مروان. واعلم أنه قد يقع في بعض نسخ (المهذب) مصحفاً، وكتبوه (الهذيل) بالذال وهو غلط صريح، وجهل فاحش، وإنما هو بالزاي باتفاق العلماء من كل الطوائف». هـ. وقال القاضي محمد بن علي الأكوع في تحقيقه للسلوك: أن مساكن الأود هو ما يعرف اليوم (بدثينة) جنوب اليمن.

همام بن منبه (...ـ ١٣٢هـ)

قال الإمام النووي في ترجمته (بالتهذيب): «همام بن منبه بن كامل بن سبح ـ بسين مفتوحة، وقيل: مكسورة ثم مثناة تحت ساكنة ثم جيم ـ أبو عقبة اليماني الصنعاني الأبناوي، أخو وهب ومعقل وغيلان وعبد الله وعمر، وهم بني منبه. وهمام تابعي، وكذا أخوه وهب. وكان همام أكبر من وهب، سمع ابن عباس وأبا هريرة ومعاوية، ويقال رأى معاوية ولم يسمعه. روى عنه أخوه وهب ومعمر بن راشد، وعقيل، ومعقل، واتفقوا على توثيقه. توفي سنة اثنتين، وقيل: أحد وثلاثين ومئة، رحمه الله».

(١) وقيل: توفي سنة ١٣١ هـ.

حماد بن زيد (.... ١٧٩هـ)[(١)]

ترجمه الإمام الذهبي في (التذكرة) فقال: وهو الإمام البارع المجمع على جلالته أبو إسماعيل، حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضمي البصري، مولى آل جرير بن حازم. سمع ثابتاً البناني ومحمد بن سيرين وعمرو بن دينار وخلائق من التابعين وغيرهم، وروى عنه جماعات من أعلام الأئمة منهم الثوري وابن عيينة وابن المبارك وابن مهدي. قال: «أئمة الناس في زمانهم أربعة: الثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحماد بن زيد بالبصرة». وقال عبد الله بن الحسن: «إنما هما الحمادان فإذا طلبتم العلم فأطلبوه من الحمادين»: يعني ابن زيد وابن سلمة. وقال يحيى بن معين: «ليس أحد أتقن من حماد بن زيد. وقال يحيى بن يحيى: «ما رأيت أحداً من الشيوخ أحفظ من حماد بن زيد». وقال ابن مهدي: «ما رأيت أعلم من حماد بن زيد». وقال حماد: جالست أيوب عشرين سنة. ولد حماد سنة ثمان وتسعين وتوفي في شهر رمضان سنة تسع وسبعين ومئة بالبصرة. وقد ذكر ابن أبي حاتم جملة صالحة من مناقبة، رضي الله عنه.

جابر بن زيد (.... ٩٣هـ)[(٢)]

ورد في التذكرة للذهبي في ترجمته: الأزدي البصري أحد الأعلام وصاحب ابن عباس، روى عنه قتادة وأيوب وعمرو بن دينار وطائفة. روى عطاء عن ابن عباس قال: «لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً عما في كتاب الله». وروى عن ابن عباس قال: «تسألوني عن شيء وفيكم جابر بن زيد». وقال عمرو بن دينار: «ما رأيت أحداً أعلم بالفتيا من جابر بن زيد». وقال الضحاك القيسي «القيني ابن عمر جابر بن زيد في الطواف فقال:

---

(١) هو من العهد العباسي بحسب تاريخ وفاته وإيراده هنا سبق قلم.

(٢) وقيل: إنه توفي سنة ١٠٣ هـ.

يا جابر إنك من فقهاء البصرة، وإنك تستفتي فلا تفتينا إلا بقرآن ناطق أو سنة ماضية، فإن فلم تفعل هلكت وأهلكت». وعن أبي الحباب قال: لما دفن أبو الشعثاء قال قتادة اليوم دفن علم الأرض سمعه من أبي الحبان محمد بن سواء. وعن إياس بن معاوية قال: «أدركت أهل البصرة ومفتيهم جابر بن زيد» قال حماد بن زيد: «سئل أيوب هل رأيت جابر بن زيد؟ قال: نعم، كان لبيباً، وجعل يعجب من فقهه. قال أحمد والفلاس والبخاري: مات سنة ثلاث وتسعين. وقال الواقدي وابن سعد: مات سنة ثلاث ومئة، رحمه الله تعالى».

جنادة بن أمية الأزدي (... ـ ٧٨ هـ)

قال صاحب (البداية والنهاية) في ترجمته: «شهد فتح مصر، وكان أميراً على غزو البحر لمعاوية، وكان موصوفاً بالشجاعة والخير. توفي بالشام وقد قارب الثمانين، توفي سنة ثمان وسبعين. وقيل: إنه توفي سنة ١٠٣ هـ».

(طلحة بن مطرف الهمداني)

قال ابن خلكان في (وفيات الأعيان) في ترجمة سليمان بن عبد الملك: «بينما كان سليمان بن عبدالملك في مجلسه مر به رجل عليه ثياب، يختال في مشيه، وكان العلاء بن كديد حاضراً فقال: ما ينبغي أن يكون إلا كوفياً، وينبغي أن يكون من همدان. ثم قال: علي بالرجل فأتوا به فقال: ممن الرجل؟ فقال: ويلك دعني حتى ترتد إلي نفسي فتركته هنيهة ثم قال له: ممن الرجل؟ فقال: من أهل العراق. قال: من أيهم؟ قال: من أهل الكوفة. قال: من أي أهل الكوفة؟ قال: من همدان. فازداد عجباً قال: ما تقول في أبي بكر؟ قال: ما أدركت دهره ولا أدركه دهري، ولقد قال الناس وأحسنوا، وهو إن شاء الله كذلك. قال: فما تقول في عمر؟ فقال: مثل ذلك. فقال: ما تقول في عثمان؟ قال: ما أدركت دهره ولا : أدركه دهري، ولقد قال فيه ناس فأحسنوا، وقال فيه ناس فأساؤوا،

وعند الله علمه. قال: فما تقول في علي؟ فقال: مثل ذلك. قال سب علياً. قال: لا أسبه. قال: والله لتسبنّه أو لأضربَنّ عنقك. فقال: والله لا أسبه. فأمر بضرب عنقه، فقام رجل بيده سيف، فهزه حتى أضاء في يده كأنه خوصة وقال: لتسبنه أو لاضربن عنقك. فقال: والله لا أسبه. ثم نادى: ويلك يا سليمان، ادنني منك. فدعا به فقال: يا سليمان، أما ترضى بما رضي ربه من هو خيرٌ منك ممن هو خير مني فيمن هو شر من علي. قال: وما ذلك؟ قال: الله تعالى رضي من عيسى وهو خير مني؛ إذ قال في بني إسرائيل وهم شر من علي: ﴿إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم﴾. فنظرت إلى الغضب ينحدر من وجهه حتى صار في طرف أرنبته، ثم قال: خلّيا سبيله. فعاد إلى مشيته فما رأيت رجلاً قط خيراً من ألف رجل غيره، وإذا هو طلعة بن مطرف».

عياض بن غنم الأشعري وأخوه عبد الله

(٠٠ ـ ٧٧ هـ) (٠٠ ـ ٧٨ هـ)

عياض شهد اليرموك، وحدث عن جماعة من الصحابة، وغيرهم. توفي بالبصرة ـ رحمه الله ـ في سنة سبع وسبعين هـ.

عبد الله: نزل فلسطين، وقد روى عن جماعة من الصحابة، وقيل: أن له صحبة. وقد بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه أهلها في الدين، وكان من العباد الصالحين توفي سنة ثمان وسبعين هـ. «نقلاً عن ابن كثير».

عبد الله بن بحينة الأزدي

ترجمه النووي في التهذيب فقال:

تكرر في (المختصر) و (المهذب) في صفة الصلاة وسجود السهو، وغيرهما. وبحينة بضم الباء، وهي أمه، وهو أبو محمد عبد الله بن مالك بن

القشب. واسم القشب خندب بن نضلة بن عبد الله الأزدي. أسلم عبد الله بن مالك هذا هو وأبوه، وصحبا رسول الله ﷺ، وكان عبد الله ممن أسلم وصحبه قديماً، وكان ناسكاً فاضلاً، يصوم الدهر، وكان ينزل موضعاً بقرب المدينة. توفي في آخر خلافة معاوية.

قال ابن عبد البر: وقيل: إن بُحينة أم أبيه. والصحيح أنها أمه. روى عن النبي ﷺ أحاديث، وروى عنه ابنه علي، وعطاء بن يسار، والأعرج، وغيرهم.

سليمان بن صرد الأزدي (... - ٦٥ هـ)

قال الإمام النووي في ترجمته: -

«الصحابي - رضي الله عنه - هو أبو مطرف، سليمان بن صرد مصروف بن الجون بن أبي الجون بن منقذ بن أحرم بن حزام بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة، وهو لحي بن حارثة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد الخزاعي الكوفي. وخزاعة هم ولد حارثة بن عمرو بن عامر، روي له عن النبي ﷺ خمسة عشر حديثاً، اتفقا على حديث، وانفرد البخاري بحديث. روى عنه الشعبي وعدي بن ثابت. نزل الكوفة، وكان خيِّراً فاضلاً صاحب عبادة، وكان له قدر وشرف في قومه، وقتل بعين الوردة من الجزيرة - وهي رأس عين - سنة خمس وستين، وهو ابن ثلاث وتسعون سنة. وكان أميراً على جيش البوابين» ا. هـ.

ولعله جيش التوابين، وفي البداية لابن كثير تفصيل معركة (عين وردة) التي كان سليمان أمير العراقيين المطالبين برأس عبيد الله، وكان ابن ذي الكلاع على ثمانية عشر ألفاً من الشاميين، وختم الله فيها بالشهادة لسليمان وقد جاوز التسعين بثلاث سنين، وما كان مطلبه إلا الثأر للحسين من قاتله عبيدالله بن زياد.

أبو إدريس الخولاني (٠٠ ـ ٨٠ هـ)

من كبار رجالات اليمن في العهد الأموي بالشام. قال ابن كثير: ـ «اسمه عائذ الله بن عبد الله، له أحوال ومناقب. كان يقول: «قلب نقي في ثياب دنسة خير من قلب دنس في ثياب نقية». وقد تولى القضاء بدمشق. توفي سنة ثمانين هـ. قال الذهبي في (التذكرة): «عالم أهل الشام عائذ الله بن عبد الله الدمشقي الفقيه. أحد من جمع بين العلم والعمل خلف سعيد بن عبد العزيز. مولده عام حنين. أخذ عن معاذ بن جبل. قال ابن عبد البر سماعاً منه: صحيح، وروى عن أبي الدرداء وأبي ذر وحذيفة وعبادة ابن الصامت وعوف بن مالك وأبي هريرة وطائفة وعنه الزهري ومكحول وربيعة القصير ويحيى بن يحيى الغساني ويونس بن ميسرة وآخرون. وكان واعظ أهل دمشق وقاصّهم وقاضيهم. قال أبو داود: سمع أبو إدريس الخولاني من أبي الدرداء وعبادة قال مكحول: ما علمت أعلم من أبي إدريس». وثقه النسائي وغيره. وذكر لدحيم هو وجبير بن نفيل قال: أبو إدريس عندي هو المقدم. ورفع من شأن جبير لإسناده وأحاديثه. فقال الزهري: «كان أبو إدريس من فقهاء الشام. وقال سعيد بن عبد العزيز: «كان عالم أهل الشام بعد أبي الدرداء». وقال ابن جابر: عزل عبد الملك أبا إدريس عن القصص وأقره على القضاء فقال: «عزلوني عن رغبتي، وتركوني في رهبتي». قال سيار وابن معين: مات سنة ثمانين، رحمه الله».

طاوس بن كيسان (... ـ ١٠٦ هـ)

قال صاحب تهذيب الأسماء في ترجمته: ـ

«التابعي تكرر في (المختصر) وذكره في (المهذب) في أول كتاب (إحياء الموات) ثم في أول باب تحمل الشهادة. هو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان اليماني الحميري مولاهم، وقيل: الهمداني مولاهم. كان يسكن (الجند) بلدة

معروفة باليمن، وهو من كبار العلماء والتابعين والفضلاء الصالحين. سمع ابن عباس وابن عمر وجابر وأبا هريرة وزيد بن ثابت وابن أرقم وعائشة رضي الله عنهم، روى عنه ابن عبد الله الصالح بن الصالح ومجاهد وعمرو بن دينار وخلائق من التابعين، واتفقوا على جلالته وفضيلته ووفور علمه وصلاحه وحفظه وتثبته. قال عمرو بن دينار: «ما رأيت أحداً قط مثل طاو س». توفي بمكة سابع ذي الحجة سنة ست ومئة، هذا قول الجمهور، رحمه الله. سمع زيد بن ثابت وعائشة وأبا هريرة وزيد بن أرقم وابن عباس وطائفة، حدث عنه ابنه عبد الله والزهري وإبراهيم بن ميسرة وأبو الزبير المكي وعبد الله بن أبي نجيح وحنظلة بن أبي سفيان وعدة، وكان رأساً في العلم والعمل. قال عمرو بن دينار: «ما رأيت أحداً مثل طاو س». وقال قيس بن سعد: «كان طاو س فينا مثل ابن سيرين في أهل البصرة». وروى غطاء عن ابن عباس قال: «إني لأظن طاووساً من أهل الجنة». وقال النعمان بن الزبير الصنعاني: بعث أمير اليمن إلى طاووس بخمس مئة دينار فلم يقبلها وقال إبراهيم بن ميسرة: «ما رأيت أحداً الشريف والوضيع عنده بمنزلة إلا طاو ساً». قلت: طاو س كان شيخ أهل اليمن وبركتهم ومفتيهم، له جلالة عظيمة، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة قبل التروية بيوم سنة ست ومئة، وصلى عليه هشام بن عبد الملك الخليفة، رحمه الله».

أبو إسحاق السبيعي (٠٠ ـ ١٢٧ هـ)

والسبيع قبيل من همدان ولأبي إسحاق عقب سنمرُّ بهم. قال الذهبي: «عمرو بن عبد الله الهمداني الكوفي الحافظ أحد الأعلام، رأى علياً رضي الله عنه وهو يخطب. وروى عن زيد بن أرقم وعبد الله بن عمرو وعدي بن حاتم والبراء بن عازب ومسروق وخلق كثير. يقال حدّث: عن ثلاث مئة شيخ، وروى عنه الأعمش وشعبة والثوري وإسرائيل وزهير وأبو الأحوص وزائدة

وشريك، وأبو بكر بن عياش وسفيان بن عيينة وخلائق. وكان قد قرأ القرآن على أبي عبد الرحمن السلمي الأسود بن يزيد، وعرض عليه حمزة الزيات. وقد غزا الروم في خلافة معاوية، وقال: سألني معاوية: كم عطاء أبيك؟ قلت: ثلاث مئة ففرضها لي. وقيل: إنه سمع من ثمانية وثلاثين صحابياً. قال أبو حاتم: ثقة يشبه الزهري في الكثرة، وهو أحفظ من أبي إسحاق الشيباني. قال فضيل بن غزوان: كان أبو إسحاق يختم في كل ثلاث. وقيل: كان صواماً قواماً متبتلاً من أوعية العلم، ومناقبه غزيرة. قال أحمد بن عبدة: سمعت أبا داود الطيالسي يقول: وجدنا الحديث عند أربعة: الزهري، قتادة، أبي إسحاق، الأعمش، فكان قتادة أعلمهم بالاختلاف، والزهري أعلمهم بالإسناد، وأبو إسحاق أعلمهم بحديث علي وابن مسعود، وكان عند الأعمش من كل هذا، ولم يكن عند واحد من هؤلاء إلا الفين الفين. قال يحيى القطان: توفي أبو إسحاق السبيعي سنة سبع وعشرين ومئة يوم دخل الضحاك بن قيس الكوفة، وكذا أرخه جماعة، وشذّ أبو نعيم فقال: سنة ثمان وعشرين. قال مغيرة: كنت إذا رأيت أبا إسحاق ذكرت به الضرب الأول. قال أحمد بن عمران الأخنسي: أنبأنا أبو بكر بن عياش: سمعت أبا إسحاق يقول: ما أقلت عيني غمضاً منذ أربعين سنة. قال ابن عيينة: قال عوف بن عبد الله لأبي إسحاق ما بقي منك؟ قال: أصلّي فأقرأ البقرة في ركعة. قال: ذهب شرّك وبقي خيرك. وقال أبو الأحوص عن أبي إسحاق: قد كبرت وضعفت ما أصوم إلا ثلاثة أيام من الشهر والاثنين والخميس، والشهور الحرم. وقع لي عدة أحاديث من عوالي أبي إسحاق، منها: أنبأنا أحمد بن سلامة وغيره عن عبد المنعم بن كليب أخبرنا علي بن بيان أنبأنا ابن مخلد أنبأنا إسماعيل الصفار أنبأنا الحسن بن عرفة حدثني أبو بكر عياش عن أبي إسحاق عن البراء قال: خرج رسول الله ﷺ وأصحابه، فأحرمنا بالحج، فلما قدمنا مكة قال: اجعلوا حجكم عمرة. فقالوا قد أحرمنا بالحج، وكيف نجعلها عمرة؟ فقال: انظروا الذي آمركم به فافعلوا. فردوا عليه القول فغضب، ثم

انطلق حتى دخل على عائشة غضبان، فرأت الغضب في وجهه فقالت: « من أغضبك أغضبه الله. فقال: ومالي لا أغضب وأنا آمر بالأمر فلا أتبع».

مسروق بن الأجدع (٠٠ ـ ٦٣ هـ)

وردت ترجمته في (تهذيب الأسماء) فقال:

«هو أبو عائشة مسروق بن الأجدع ـ الجيم والدال مهملة ـ بن مالك بن أمية بن عبد الله الهمداني ـ الكوفي التابعي المخضرم. روى عن أبي بكر الصديق وعثمان وعلي، وسمع عمر بن الخطاب وابن مسعود وخباب بن الأرت وزيد بن ثابت وابن عمر والمغيرة وعائشة، رضي الله عنهم. روى عنه أبو وائل وهو أكبر منه، وسليم بن أسود وابن الضلحي والشعبي والحنفي والسبيعي، وعبد الله بن مرة وعبيد الله بن عبد الله بن عقبة، وآخرون. واتفقوا على جلالته وتوثيقه وفضيلته وإمامته.

قال الشعبي: «ما علمت أحداً كان أطلب للعلم من مسروق». وقال مرة: «ما ولدت همدانية مثل مسروق». وقال علي بن المديني: «لا أقدم على مسروق أحداً من أصحاب ابن مسعود». وصلى خلف أبي بكر، ولقي عمر وعلياً، ولم يرو عن عثمان شيئاً. وقال أبو داود: «كان أبو مسروق أفرس فارس باليمن». وهو ابن أخت عمرو بن معدي كرب». وقال عمر بن الخطاب لمسروق: ما اسمك؟ قال: مسروق بن الأجدع. فقال: سمعت النبي ﷺ يقول: الأجدع شيطان. أنت مسروق بن عبد الرحمن. قال الشعبي: فرأيته في الديوان مسروق بن عبد الرحمن، وكان مسروق يصلي حتى تورمت قدماه. قال أبو سعد السمعاني: كان مسروق سرق في صغره فغلب عليه ذلك. توفي سنة اثنتين، وقيل: سنة ثلاث وستين، رحمه الله تعالى» ا. هـ.

وفي التذكرة للذهبي قال: «هو أحد الأعلام، وكان أبوه فارس أهل اليمن

في زمانه. ومسروق هو ابن أخت البطل الكرار عمرو بن معدي كرب. أخذ عن عمر وعلي ومعاذ وابن مسعود وأبيّ، وعنه إبراهيم والشعبي وأبو الضحى وأبو إسحاق وخلق؛ فعن الشعبي قال: «ما علمت أحداً كان أطلب للعلم منه، وكان أعلم بالفتوى من شريح، وكان شريح يستشيره، وكان مسروق لا يحتاج إلى شريح».

وقال أبو إسحاق: حج مسروق وكان يصلي حتى تتورم قدماه. قال ابن المديني: ما أقدم على مسروق أحداً من أصحاب عبد الله، وقد صلى خلف أبي بكر الصديق رضي الله عنه. توفي مسروق سنة ثلاث وستين، رحمة الله عليه».

الإمام إبراهيم النخعي (ت ـ ٩٥ هـ)

والنخع مساكنهم بجهة البيضاء وفيهم خير كثير. قال النووي في ترجمته:

«إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الأسود بن عمرو بن ربيعة بن ذهل بن سعد بن مالك بن النخع النخعي الكوفي، فقيه أهل الكوفة أبو عمران، تكرر في (المختصر) وذكره في (المهذب) في ميراث أهل الفرض، ثم في الشهادات في مسألة التوبة. وأمه مليكة بنت يزيد بن قيس أخت الأسود بن يزيد، وهو تابعي جليل دخل على عائشة، رضي الله عنها، ولم يثبت له منها سماع، وسمع جماعات من كبار التابعين منهم: علقمة وخالاه الأسود وعبد الرحمن ابنا ابن يزيد، ومسروق أبو عبيدة بن عبد الله، وغيرهم. روى عنه جماعات من التابعين منهم: السبيعي وحبيب بن أبي ثابت، وسماك بن حرب والحكم والأعمش، وابن عون وحماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة وأجمعوا على توثيقه وجلالته وبراعته في الفقه. روينا عن الشعبي أنه قال: حين توفي النخعي ما ترك أحداً أعلم منه أو أفقه. قيل: ولا الحسن وابن سيرين. قال: ولا الحسن وابن سيرين، ولا من أهل البصرة والكوفة، ولا من الحجاز ولا الشام. وروينا عن أحمد بن صالح العجلي قال: لم

يحدث النخعي عن أحد من أصحاب النبي ﷺ. وقد أدرك منهم جماعة، ورأى عائشة. وروينا عن الأعمش قال: كان النخعي صيرفي الحديث. وقال أبو زرعة: كان النخعي صالحاً متوقياً قليل التكلف. توفي سنة ست وتسعين وهو ابن تسع وأربعين سنة. وقال البخاري: وخمسين سنة». وقال الإمام الذهبي:

«فقيه روى عن علقمة ومسروق والأسود وطائفة، ودخل على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وهو صبي. أخذ عنه حماد بن أبي سليمان الفقيه وسماك بن حرب والحكم بن عتيبة وابن عون والأعمش ومنصور وخلق. وكان من العلماء ذوي الإخلاص. قال مغيرة: كنا نهاب إبراهيم كما يهاب الأمير. وقال الأعمش: ربما رأيت إبراهيم يصلي، ثم يأتينا فيبقى ساعة كأنه مريض. وقال: كان إبراهيم صيرفي الحديث، وكان يتوقى الشهرة، ولا يجلس إلى الأسطوانة. وقال الشعبي لما بلغه موت إبراهيم: ما خلف بعده مثله. وقال ابن عون كان إبراهيم يأتي الأمراء ويسألهم الجوائز. وقال الحسن بن عمرو الفقيمي: كان إبراهيم يشتري الوز ويسمنه ويهديه إلى الأمراء. روى أبو حنيفة عن حماد قال: بشرت إبراهيم بموت الحجاج فسجد وبكى من الفرح. وقال عبد الملك بن أبي سليمان: سمعت سعيد بن جبير يقول: تستغيثوني وفيكم إبراهيم النخعي. وقالت هنيدة زوجة إبراهيم: إنه كان لا يتكلم في العلم إلا أن يُسأل. وروى ابن عون عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون إذا اجتمعوا أن يخرج الرجل أحسن ما عنده. مات إبراهيم في آخر سنة وخمس وتسعين كهلاً قبل الشيخوخة، رحمه الله.

أبو بردة بن أبي موسى الأشعري (ت ـ ١٠٣ هـ)[1]

قال صاحب تذكرة الحفاظ مترجماً له: ـ

«الفقيه أحد الأئمة الأثبات روى عن أبيه وعلي بن أبي طالب، والزبير بن العوام وحذيفة وابن سلام وأبي هريرة، وغيرهم. وعنه ابنه بلال الأمير وحفيده

(١) وقيل توفي سنة ١٠٤ هـ.

بديد بن عبد الله، وبكيد بن الأشبح وثابت البناني وقتادة وأبو إسحاق الشيباني، وأمم. كان علّامة كثير الحديث. يقال: اسمه عامر، ولي قضاء الكوفة بعد شريح، قال الدوياني من مسنده: حدثنا أحمد بن أخي ابن وهب. حدثنا عمي [عن] عبد الله بن نياش القبتاني عن أبيه، أن يزيد بن المهلب ولي إمرة خراسان فقال: دلوني على رجل كامل في خصال الخير. فدلوه على أبي بردة، فما رآه رأى فائقاً، فلما كلمه رأى من مخبره أفضل من مرآته فقال: إني وليتك كذا وكذا من عملي، فاستعفاه فأبى فقال: حدثني أبي أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «من تولى عملاً وهو يعلم أنه ليس لذلك العمل بأهل فليتبوأ مقعده من النار». قال أبو نعيم: «مات أبو بردة سنة أربع ومئة وقال الوافذي: سنة ثلاث، رحمه الله تعالى» ا. هـ.

وقال النووي في (التهذيب): «هو تابعي كوفي ولي قضاء الكوفة، فعزله الحجاج وجعل أخاه أبا بكر مكانه. روى عن الزبير بن العوام وعوف بن مالك وسمع أباه وعلي بن أبي طالب، وابن عمر المزني وعبد الله بن سلام وعائشة رضي الله عنها، وسمع خلائق من التابعين. روى عنه جماعات من التابعين وغيرهم، منهم الشعبي وأبو إسحاق السبيعي وعبد الملك بن عمير، وعمر بن عبد العزيز وثابت البناني ومحمد بن المنكدر وقتادة، والقاسم ابن مخيمرة وأبو حَصين - بفتح الحاء - عثمان بن عاصم وسالم أبو النضر، وعاصم بن بهدلة وأبو إسحاق الشيباني ومحمد بن واسع، وطلحة بن مصدف وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ومكحول الدمشقي وأخوه إسحق بن أبي موسى، وبنوه: أبو بكر وعبد الله وسعيد وبلال، وبنو أبي بردة وابن ابنه عبد الله بن أبي بردة، وخلائق آخرون. واتفقوا على توثيقه وجلالته. قال أحمد بن عبد الله الحجلي: وأبو بردة وأخوه أبو بكر تابعيان كوفيان تقيان. وقال محمد بن سعد: كان ثقة كثير الحديث، وهو جد أبي الحسن الأشعري الإمام في علم الكلام. توفي أبو بردة بالكوفة سنة ثلاث ومئة، وقيل سنة أربع ومئة، رحمه الله».

كثير بن مرة الحضرمي الحمصي

قال الإمام الذهبي في (تذكرة الحفاظ) مترجماً له: ـ

«الفقيه عالم أهل حمص، كان إماماً عالماً قصده طلابه للعلم. أدرك سبعين بدرياً، حدث عن معاذ وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وطبقتهم، وعنه أبو الزاهرية وخالد بن معدان ومكحول وسليم بن عامر وعبد الرحمن بن جبير وعدة. قال النسائي: لا بأس به. رحمه الله تعالى».

جبير بن نفير الحضرمي الحمصي (ت ـ ٨٠ هـ)

ممن ترجمهم الذهبي في التذكرة فقال: ـ

«ولد في حياة النبي ﷺ، وحدث عن أبي بكر وعمر وأبي ذر وأبي [الدرداء] وجماعة، وعنه ابنه عبد الرحمن بن جبير وخالد بن معدان ومكحول وسليم بن عامر وآخرون. وكان من أجلة العلماء، حديثه في الكتب كلها سوى صحيح البخاري، وما ذاك للين فيه، ولكنه ربما دلس عن قدماء الصحابة، والبخاري لا يقتنع إلا بأن يصرح الشيخ بلقاء من روى عنه. مات سنة ثمانين، رحمه الله».

كعب الأحبار (ت ـ ٣٢ هـ)

أحد كبار التابعين ترجمه الذهبي فقال:

«هو كعب بن مانع الحميري من أوعية العلم ومن كبار علماء أهل الكتاب. أسلم في زمن أبي بكر، وقدم من اليمن في دولة أمير المؤمنين عمر، فأخذ عنه الصحابة وغيرهم، وأخذ هو من الكتاب والسنة عن الصحابة توفي في خلافة عثمان، وروى عنه جماعة من التابعين مرسلاً، وله شيء «في صحيح البخاري وغيره»ا: هـ. وفي (التهذيب) للنووي قال: «أدرك زمن النبي ﷺ،

وأسلم في خلافة أبي بكر، وقيل في خلافة عمر رضي الله عنهما، وصَحِبَ عمر وأكثر الرواية عنه، روى أيضاً عن مهيب. روى عنه جماعة من الصحابة منهم: ابن عمر وابن عباس وابن الزبير وأبو هريرة، وخلائق من التابعين منهم ابن المسيب، وكان يسكن حمص. ذكره أبو الدرداء فقال: عنده علم كثير. واتفقوا على كثرة علمه وتوثيقه. وكان قبل إسلامه على دين اليهود، وكان يسكن اليمن. توفي في خلافة عثمان سنة اثنتين وثلاثين. دفن بحمص متوجهاً إلى الغزو، ويقال له: كعب الأحبار، وكعب الحبر، بكسر الحاء وفتحها، لكثرة علمه. ومناقبه وأحواله وحكمه كثيرة مشهورة» ا. هـ.

يزيد بن أبي حبيب (٠٠ ـ ١٢٨ هـ)

ترجمه صاحب التذكرة فقال: ـ

«أبو رجاء الأزدي مولاهم المصري الفقيه. روى عن عبد الله بن الحارث الزبيدي وأبي الطفيل وسعيد بن أبي هند وعراك بن مالك، وخلق كثير من التابعين القدماء. حدث عنه سعيد بن أيوب وحيوة بن شريح ويحيى بن أيوب ومحمد بن إسحاق والليث، وخلق.

قال أبو سعيد بن يونس: «كان مفتي أهل مصر، وكان حليماً عاقلاً، وهو أول من أظهر العلم بمصر، والمسائل والحلال والحرام. وقبل ذلك كانوا يحدثون في الترغيب والملاحم والفتن. وقال الليث بن سعد: «يزيد عالمنا وسيدنا». يقال: إنه ولد في خلافة معاوية. وقيل: إن يزيد أحد ثلاثة جعل الفتيا إليهم بمصر. وعن أبي لهيعة قال: كان أسود نوبياً. ولد سنة ثلاث وخمسين. سمعته يقول: كان أبي من أهل دمقلة، ونشأت بمصر، وهم علوية، يعني شيعة، فقلبتهم عثمانية. وقال الليث: أخبرنا ابن أبي جعفر ويزيد بن أبي حبيب وهما جوهرتا البلاد: كانت البيعة إذا جاءت الخليفة هما أول من يبايع. وقال ابن لهيعة: «كان يزيد كأنه فحمة». وقال ابن وهب: قيل لعمرو بن الحارث: أيهما

أفضل: يزيد أو عبيد الله بن أبي جعفر؟ فقال: لو جعلا في ميزان ما رجح أحدهما. قال ابن لهيعة: مرض يزيد فعاده الحوثرة بن سهيل أمير مصر فقال: يا أبا رجاء ما تقول في الصلاة في الثوب وفيه دم البراغيث. فحول وجهه ولم يكلمه وقام، فنظر إليه يزيد وقال: تقتل كل يوم خلقاً وتسألني عن دم البراغيث. روى الليث عن يزيد أنه سمع ابن جزء يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبولن أحدكم مستقبلاً القبلة». وعن يزيد قال: «لا أدع أخاً لي يغضب علي مرتين، بل أنظر الأمر الذي يكره فأدعه».

قال سعيد بن عفير أبو خالد المرادي أن زبان بن عبد العزيز أرسل إلى يزيد: ائتني. أسألك عن شيء من العلم. فأرسل إليه: بل أنت فائتني فإن مجيئك إلي زين لك، ومجيىء إليك شين عليك. قال ضمام بن اسماعيل: «لما كثرت المسائل على يزيد بن أبي حبيب لزم بيته». قلت: كان حجة حافظاً للحديث. مات سنة ثمان وعشرين ومئة».

سويد بن غفلة التابعي (٠٠ ـ ٨١ هـ)[1]

ترجمه النووي في تهذيبه فقال: ـ

«هو سويد بن غفلة بن عوسجة ينتهي نسبه إلى سعد العشيرة. أدرك الجاهلية كبيراً، وأسلم في حياة الرسول ﷺ ولم يره، وأدّى صدقته إلى مصدق رسول الله ﷺ ثم قصد المدينة فوصلها في يوم دفن رسول الله ﷺ، وحديث إتيان مصدق رسول الله ﷺ إليه في سنن أبي داود وغيره. وحضر القادسية في زمن عمر بن الخطاب، رضي الله عنه. وشهد اليرموك وخطبة عمر بالجابية. روى عن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وبلال وأبي ذر وأبيّ بن كعب وأبي الدرداء. روى عنه عبد الرحمن بن أبي ليلى والشعبي وخيثمة بن عبد

(١) وقيل: توفي سنة ٨٢ هـ.

الرحمن، وآخرون من كبار التابعين. قال هشيم: بلغ سويد بن غفلة مئة وثمان وعشرين سنة. وقال ابن نمير: توفي سنة إحدى وثمانين، وله مئة وعشرون سنة. وقيل: توفي وهو ابن مئة وإحدى وثلاثين سنة. وقال عمر بن علي: توفي سنة اثنتين وثمانين وهو ابن مئة وعشرين سنة. وشهد صفين مع علي، وتوفي بالكوفة. واتفقوا على توثيقه. رحمه الله».

عبد خير بن يزيد الهمداني

الكوفي أبو عمارة التابعي. أدرك زمن النبي ﷺ ولم يره. قال عبد خير: «أتى على مئة وعشرون سنة، وكنا ببلاد اليمن، فجاءنا كتاب رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى خير، فاجتمعوا في دير واسع، فأسلموا واسلمنا». وكان عبد خير من كبار أصحاب علي رضي الله عنه. واتفقوا على توثيقه. سكن الكوفة. (نقلاً عن تهذيب الأسماء للإمام النووي).

عبد الرحمن بن غنم الأشعري (٠٠ ـ ٧٨ هـ)

ممن ترجمهم صاحب التهذيب فقال: ـ

تكرر في باب الجزية من (المهذب). هو عبد الرحمن بن غنم بن كريب بن هانىء بن ربيعة بن عامر بن عدي بن وائل بن ناجية بن الحنبل بن أدغم بن الأشعر الأشعري. ذكره ابن يونس وابن منده وآخرون في الصحابة، وأنكر ابن أبي حاتم وآخرون صحبته وقالوا: هو تابعي مخضرم، وكان مسلماً في عهد رسول الله ﷺ ولم يره. وقال الأولون: قدم على رسول الله ﷺ في السفينة مع أبي موسى الأشعري وأصحابه. كان يسكن فلسطين وقدم دمشق. قال: ابن يونس: وقدم مصر مع مروان بن الحكم سنة خمس وستين. روى عن النبي ﷺ مرسلاً. وسمع عمر بن الخطاب وعلياً ومعاذاً وأبا الدرداء وأبا ذر وأبا مالك الأشعري، رضي الله عنهم. ويعرف بصاحب معاذ لكثرة لزومه له. وكان عبد

الرحمن أفقه أهل الشام، وعليه تفقه عامة التابعين بالشام، وكانت له جلالة وقدر. روى عن خلائق من كبار التابعين. توفي سنة ثمان وسبعين.

عروة بن الجعد

المجاهد المرابط ترجمه النووي في التهذيب فقال: ـ

ويقال ابن أبي الجعدي البارقي مذكور في (المختصر) و (المهذب) في باب الوكالة. هو عروة الأزدي البارقي الكوفي الصحابي. وبارق بطن من الأزد وهو بارق بن عدي بن حارثة بن امرىء القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وإنما قيل له بارق؛ لأنه نزل عند جبل يقال له بارق فنسب إليه. وقيل غير ذلك. سكن عروة الكوفة. وروي له عن رسول الله ﷺ ثلاثة عشر حديثاً، اتفقا منها على حديث. واستعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه على قضاء الكوفة قبل شريح. روى عن قيس بن أبي حازم والشعبي والسبيعي وشريح بن هانىء، وآخرون. وكان مرابطاً معه عدة أفراس منها فرس اشتراه بعشرة آلاف درهم. وقال شبيب بن عرقدة: «رأيت في دار عروة بن الجعد سبعين فرساً مربوطة للجهاد في سبيل الله عز وجل».

عدي بن عدي بن عميرة (٠٠ ـ ١٢٠ هـ)

من سادة اليمانية في العراق قال صاحب التهذيب:

«بفتح العين بن فروة بن زرارة بن الأرقم بن النعمان بن عمر بن وهب بن ربيعة بن الحارث بن عدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين بن الحارث بن الحارث بن معاوية بن ثور بن مرتع بن معاوية بن ثور.

وهو كندة أبو فروة الجزري سيد أهل الجزيرة. واختلفوا في أنه صحابي أم تابعي، فذكره ابن أبي عاصم وعلي العسكري والطبراني وغيرهم في الصحابة،

ولم يذكره الأكثرون فيهم. والصحيح أنه تابعي، وإنما سبب الاختلاف أنـه روى عن النبي ﷺ مرسلاً، فظنه بعضهم صحابياً. وأمـا أبوه عـدي بن عميرة وعمـه العرس بن عميرة فصحابيان بـلا خلاف. وكـان عدي بن عـدي عامـل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة والموصل، وكـان يقال لـه سيد أهـل الجزيـرة. واستعمال عمـر له يـدل على أنـه لا صحبة لـه؛ لأنه عـاش بعـد عمـر، ولم يبق أحـد من الصحابة إلى خلافة عمر بن عبد العزيز.

روى عـدي عن أبيه عن عمـه العرس روى عنـه أيوب السختيـاني وأبو الزبير والحكم وجرير بن حـازم وخلائق. واتفقـوا على جـلالته وعبـادته، وفضله وصلاحه. قال البخاري: «عدي بن عدي سيد أهل الجزيرة». وقـال مسلمة بن عبـد الملك بن مـروان: «في كنـدة ثـلاثـة، إن الله عـز وجـل لينـزل بهم الغيث وينصرهم على الأعداء: رجاء بن حيوة وعبـدة بن سبأ وعـدي بن عدي». وقـال ابن معين وأبو حاتم: ثقة. وقال أحمد بن حنبـل: لا يسأل عن مثله. وقـال ابن أبي حاتم: لم يسمع من أبيه. وقال محمد بن سعد: كان ناسكـاً فقيهاً. قـال أبو عبيد القاسم بن سلام: توفي عدي بن عدي سنة عشرين ومئة. رحمه الله.

عطاء الخراساني (٥٠ هـ . ٠٠)

من المجاهدين المرابطين في الثغور قال الذهبي في ترجمته:

هو أبو أيـوب ويقال: أبـو عثمان، ويقـال أبو محمـد، ويقال أبـو صالـح. عطاء بن أبي مسلم. واسم أبي مسلم عبد الله. ويقال: ميسرة الأزدي الخراساني البلخي.

سكن عطاء الشام وهو مولى للمهلب بن أبي صفـرة، وعطاء من التـابعين الكبار. روى عن معاذ بـن جبل وكعب بن عمرة وابن عباس وأنس وعبد الله بن السعدي مرسلاً، وسمع ابن المسيب وابن جبير وعكرمـة وأبا مسلم وأبـا إدريس

الخـولاني وعطاء بن أبي ربـاح، ونافـع وعروة والمقـبري والزهـري، وآخرين من التابعين. روى عنه عطاء بن أبي ربـاح وابن جريـج ومعمر ومـالك وشعبـة وابن عثمان بن عطاء، والضحاك بـن مزاحم والأوزاعي، وخلائق من الأئمة.

وهو من التابعين العباد متفق على توثيقه. وروينا عن عبد الرحمن بن يـزيد بـن جـابر قـال: كنا نعـاري عطاء الخـراساني وكـان يحيي الليل، وإذا مضى من الليـل ثلثه أو أكـثر نادى ونحن في فساطيطن: يـا عبد الـرحمن بـن يزيـد، ويـا يزيد بن يزيد ويا هشام بن العابر، قوموا فتوضؤوا وصلوا قيام هذا الليل وصيـام هذا النهار أيسر من شراب الصديد ومقـطعات الحـديد الـوحا الـوحا ثم النجـاء النجاء. ثم يقبل على صلاته». روى له مسلم توفي بأريحـاء، فحمل ودفن ببيت المقدس. ولد سنة خمسين. رحمه الله.

روح بن زنباع الجذامي (٠٠ ـ ٨٤ هـ)

أحد رؤوس اليمانية بالشام قال الذهبي: ـ

«روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي أبـو زرعة. ذكـره بعضهـم في الصحابة، ولا يصح له صحبة، بل يجـوز أن يكون ولـد في عهد الـرسول ﷺ، فإن لأبيه الصحبة والرواية كما سيأتي. ووقع في (الكنى) لمسلم لـه صحبة. وقـال أبـوأحمد الحـاكم: يقال لـه صحبـة، ومـا أراه يصـح. وقـال ابن منـده: أدرك النبي ﷺ، وذكـره محمد بن أيـوب في الصحابـة ولا يصح لـه صحبة. وقـال أبو عمـر وأبو نعيم وابن منـده: لا يصح لـه صحبة. وقـال ابن أبي خيثمـة: وممن روى عن النبي ﷺ روح بن زنبـاع، ذكره أبـو زرعـة الـدمشقي وابن سميـع في الطبقة الثانية من تابعي أهل الشام، وقالا كان أميراً على فلسطين. وأورد له ابن منده من طريق بكر بن سوادة عن عبيـدة بن عبد الـرحمن عن روح بن زنباع عن النبي ﷺ قـال: «الإيمان يمـان وبـارك الله في جذام». قلت: ولـروح مـع عبـد الملك بن مروان وغيره قصص حسان، وكان عبـد الملك بـن مروان يقـول: جمع

رَوْحٌ طاعة أهل الشام ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز». وروى عن الشافعي أنّ روحاً كان يقول: «لم أطلب باباً من الخير إلا تيسر لي، ولا طلبت باباً من الشر إلا لم يتيسر لي». وقال ضمرة بن ربيعة عن الوليد بن أبي عون: «كان روح إذا خرج من الحمام أعتق رقبة». وله حديث عن عبادة بن الصامت وآخر عن تميم الداري أوردهم ابن عساكر في ترجمته. وقال أبو سليمان بن زيد مات سنة أربع وثمانين».

ومن قصص روح مع عبد الملك ما ذكره المبرد من أن عبد الملك كان يسأل روحاً عن بعض أخبار العرب وأيامهم، وحين يعود روح إلى منزله يجد تفصيل ذلك لدى عمران بن حطان شاعر الخوارج، الذي لجأ إلى روح متنكراً فأقام لديه عاماً أو يزيد، وجعل عبد الملك كلما سمع التفاصيل التي يقصها روح يعجب من درايته. وذات ليلة قال: ما أظن هذا الذي أسمعه يأتيك إلا عن عمران بن حطان. فأخبره روح خبر حليفه اللاجىء إليه. فأمره بإقدامه عليه. ولما حاول روح استصحاب عمران إلى عبد الملك احتال عليه. فأفلت منه. وقال في ذلك قصيدة منها:

فأعذر أخاك ابن زنباع فإن له
في الحادثات شؤوناً ذات ألوان
لو كنت مستغفراً يوماً لطاغية
كنت المقدم في سري وإعلاني

عمير بن سعيد النخعي (٠٠ ـ ١١٥ هـ)

ممن ترجمهم الذهبي في التذكرة فقال: ـ

«هو عمير بن سعيد أبو يحيى النخعي الكوفي التابعي. روى عن علي وسعد بن أبي وقاص وابن مسعود وعمار وأبي موسى، رضي الله عنهم، روى عنه السبيعي والأعمش وأبو حَصين بفتح الحاء ومسعد، وغيرهم. واتفقوا على توثيقه

وجلالته. قال الحاكم: حسبك به. روى له البخاري ومسلم. وتوفي سنة خمس عشر ومئة. رحمه الله».

يحيى بن يحيى الغساني (٦٤هـ - ١٣٣هـ)

قال صاحب التذكرة في ترجمته: -

«يحيى بن يحيى بن قيس بن حارثة أبو عثمان الغساني الدمشقي، سيد أهل دمشق. استعمله عمر بن عبد العزيز على قضاء الموصل. روى عن محمود بن لبيد الصحابي وسعيد المسيب وأبي إدريس الخولاني وعروة ومكحول وآخرين. روى عنه ابنه هشام وعبد الرحمن بن يزيد وابن عون ومحمد بن إسحاق وسفيان ابن عينية، وآخرون. اتفقوا على توثيقه وجلالته. قال يحيى بن معين: «كان ثقة شامياً شريفاً فقيهاً». وقال أبو محمد بن حبان: «هو من فقهاء الشام وقرائهم». ولد يوم مرج راهط في أيام معاوية بن يزيد سنة أربع وستين، وتوفي بدمشق سنة ثلاث وثلاثين ومئة».

أبو عثمان النهدي (٠٠ - ١٠٠هـ)

أحد المعمِّرين من كبار التابعين قال الذهبي:

«عبد الرحمن بن مل البصري، أدرك زمن النبي ﷺ، وارتحل زمن عمر، فسمع منه ومن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وأسامة بن زيد، رضي الله عنهم وجماعة، وعنه قتادة وخالد الحذاء وحميد وداود بن أبي هند وسليمان التيمي وخلق. شهد اليرموك، وقد حج في الجاهلية مرتين، ثم أسلم وأدّى الصدقة إلى عمال النبي ﷺ، وصحب سلمان الفارسي اثنتي عشرة سنة، وكان عالماً صواماً قواماً يصلي حتى يغشى عليه. قال سليمان التيمي: «إني لأحسبه لا يصيب ذنباً». توفي سنة مئة أو بعدها بقليل، رحمه الله». ا.هـ.

قال الأكوع: إنّ نهداً من عبيدة. وقال المقحفي: قبيلة من قضاعة لها بقية

في حضرموت منهم : آل روَذان، آل يزيد، آل ظلفان، آل رباع، آل محمد، وجميع هذه الأقسام لها عدد من الفخائذ.

عمرو بن دينار (٠٠ ـ ١٢٦ هـ)

أحد صلحاء اليمانية ترجمه الجندي في (السلوك) :

«مولى باذان الفارسي مولده صنعاء لبضع واربعين من الهجرة. ثم نشأ بمكة وتفقه بها على ابن عمر وابن عباس وجابر بن عبد الله وجابر بن زيد وطاوس والزهري وابن جبير، وعنه أخذ بن عينية وابن جريج وغيرهما، قيل لعطاء بن رباح: بمن تأمرنا بعدك؟ قال: بعمرو بن دينار. وقال طاووس لابنه: «إذا قدمت مكة فجالس عمرو بن دينار، فإن إذنه قمع للعلماء». توفي سنة ست وعشرين ومئة، رحمه الله».

عمرو بن ميمون الأودي (٠٠ ـ ٧٥ هـ)(١)

أحد كبار التابعين اليمانيين الملازمين لمعاذ ترجمه النووي : ـ

«عمرو بن ميمون أبو عبد الله، وقيل: أبو يحيى الأودي الكوفي، من أود بن صعب بن سعد العشيرة، وهو معدود في كبار التابعين. أدرك زمن النبي ﷺ ولم يلقه، وسمع عمر بن الخطاب وسعد بن أبي وقاص وابن مسعود ومعاذ وأبا أيوب، وأبا مسعود وابن عباس وابن عمزو بن العاص، وأبا هريرة، وغيرهم من الصحابة، وخلقاً من التابعين. قال أبو إسحاق السبيعي : «كان أصحاب رسول ﷺ يرضون عمرو بن ميمون». وقال ابن معين: هو ثقة. روى له البخاري ومسلم. قالوا: وأسلم عمرو بن ميمون في زمن النبي ﷺ، وحج مئة حجة. وقيل سبعين، وأدى صدقته إلى عمال النبي ﷺ. وقال عمرو بن

(١) وقيل: توفي سنة ٧٤ هـ.

ميمـون: «قدم علينـا معاذ بن جبـل اليمن رسـولاً من عنـد رسـول الله ﷺ مـع السحر وصوته بالتكبير، وكان حسن الصوت، فألقيت عليه مجني، فما فارقته حتى جعلت عليه التراب». ثم صحب ابن مسعود، وتوفي سنة خمس وسبعين، وقيـل أربع وسبعين. وهو الذي روى البخاري في صحيحه عنه أنه رأى قـردة زنت في الجاهلية فاجتمعت القرود فرجموها».

مطرف بن عبد الله بن الشخير

وآل الشخير ينتسبون الى القبيلة اليمنيـة كعب بن الحارث المعـروفة اليـوم (بلحارث) سبق خبرهم عند الوفود. اشتهـر منهم كثيرون. قـال ابن الجوزي في ترجمته لمطرف:

«يكنى أبـا عبد الله سليـمان بن المغيرة قـال: كـان مـطرف بن عبـد الله إذا دخل بيته. سبّحت معه آنية بيته.

عن ثابت قال: قال مطرف: «لو أخرج قلبي فجعل في يدي هذه اليسار، وجيء بالخير فجعـل في هذه اليمن، مـا استطعت أن أولـج قلبي منه شيئـاً حتى يكون الله يضعه».

عن غيلان قال: «كان مطرف يلبس البرانس ويلبس المطارف، ويركب الخيل ويغشى السلطان، غير أنك كنت إذا أفضيت إليه أفضيت إلى قرة عين». عن ثـابت البناني قـال: «كان مـطرف يسكن الباديـة، فإذا كـان يوم الجمعـة يـركب فيجيء إلى الجمعة. قال: فمر بمقابر فنعس، فرأى أهل القبور على أفواه القبور. فقالوا: هذا يذهب إلى الجمعة. قال: وتعـرفون يـوم الجمعة من غـيره؟ قالـوا: نعم، ونعرف ما يقول الطير في جو السماء. قال: ما يقول؟ قالوا: يقول: سـلام سلام ليوم صالح».

عن ثابت البناني قـال: قال مـطرف بن عبد الله: «ما مدحني أحـدٌ قط إلا تصاغرت إليَّ نفسي».

عن ثابت عن مطرف قال: «لأن يسألني ربي عز وجل يوم القيامة فيقول: يا مطرف ألا فعلت؟ أحب إليَّ من أن يقول: لم فعلت؟». عن ثابت عن مطرف بن عبد الله أنه كان يقول: «يا إخوتاه اجتهدوا في العمل، فإن يكن الأمر كما نرجو من رحمة الله وعفوه كانت لنا درجات في الجنة، وإن يكن الأمر شديداً كما نخاف ونحاذر لم نقل ﴿ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ بل نقول: قد عملنا، فلم ينفعنا ذلك». عن خلف بن الوليد عن رجل من بني نهشل قال: قال مطرف بن عبدالله وهو يعرفه: «اللهم لا ترد الجميع من أجلي». عن ثابت قال: مات عبدالله بن مطرف، فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة، وقد أدهن، فغضبوا وقالوا: يموت عبد الله ثم تخرج في ثياب مثل هذه مدهناً؟! قال: فأستكين لها وقد وعدني ربي تبارك عليها ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إلي من الدنيا كلها؟ قال الله عز وجل: ﴿الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلواتٌ من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون﴾ أفأستكين لها بعد هذا؟

قال ثابت: وقال مطرف: «ما من شيء أعطي به في الآخرة قدر كوز من ماء إلا وددت أنه أخذ مني في الدنيا».

وعن غيلان قال: سمعت مطرفاً يقول: «إني وجدت ابن آدم كالشيء الملقى بين الله تعالى وبين الشيطان، فإن أراد الله أن ينعشه اجترّه إليه، وإن أراد به غير ذلك خلى بينه وبين عدوه».

عن المعلى بن زياد قال: كان إخوان مطرف بن عبد الله عنده، فخاضوا في ذكر الجنة، فقال مطرف: لا أدري ما تقولونه، حال ذكر النار بيني وبين الجنة».

عن ثابت عن مطرف أنه أقبل من مبدا، فجعل يسير بالليل، فأضاء له سوطه.

عن أبي العلاء عن مطرف أنه قال: «ما أوتي عبد بعد الإيمان أفضل من

العقل». وكان مطرف يقول: «إن هذا الموت قد أفسد على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيماً لا موت فيه».

عن بكر بن عبد الله المزني قال: قال مطرف بن عبد الله: «لو علمت متى أجلي لخشيت على ذهاب عقلي، ولكن الله منَّ على عباده بالغفلة عن الموت، ولولا الغفلة ما تهنؤوا بعيش، ولا قامت بينهم الأسواق.

عن الأعمش قال: قال لي مطرف بن عبد الله: «وجدت الغفلة التي ألقاها الله عز وجل في قلوب الصديقين من خلقه رحمة بهم، ولو ألقى في قلوبهم الخوف على قدر معرفتهم به ما هنأهم العيش». عن أبي العلاء عن أخيه - يعني مطرفاً - قال: «إذا استوت سريرة العبد وعلانيته قال الله عز وجل: هذا عبدي حقاً». عن محمد بن واسع قال: كان مطرف يقول: «اللهم ارض عنا فإن لم ترض فاعف عنا، فإن المولى قد يعفو عن عبده وهو عنه غير راض». عن سكين بن عبد العزيز عن أبيه عن مطرف قال: «إذا دخلتم على المريض، فإن استطعتم أن يدعو لكم فإنه قد حُرّك». عن سفيان قال: قال مطرف: «إنّ أقبح ما طلب به الدنيا عمل الآخرة عن حميد بن هلال قال: كان بين مطرف وبين رجل من قومه شيء فكذب على مطرف، فقال له مطرف ان كنت كاذباً فعجل الله حتفك. فمات الرجل مكانه. قال: فاستعدى أهله زياداً على مطرف. فقال لهم زياد: هل ضربه؟ هل مسه بيده؟ فقالوا: لا فقال: دعوة رجل صالح وافقت قدراً. فلم يجعل لهم شيئاً. عن أبي بكر السهمي قال: حدثني شيخ لنا يكنى أبا بكر أن مطرف بن الشخير قال لبعض إخوانه: يا فلان إذا كانت لك حاجة فلا تكلمني فيها، ولكن اكتبها في رقعة ثم ادفعها إلي، فإني أكره أن أرى في وجهك ذل السؤال، وقد قال الشاعر:

لا تحسبن الموت موت البلى وإنما الموت سؤال الرجال
كلاهما موت، ولكن ذا أشد من ذاك لذل السؤال

عن غيلان قال: كان مطرف يقول: كأن القلوب ليست منا، وكأن الحديث يعنى به غيرنا.

أسند مطرف عن عثمان بن عفان وعلي وأبي بن كعب وأبي ذر وأبيه عبد الله بن الشخير وآخرين، وتوفي في ولاية الحجاج بالعراق بعد الطاعون الجارف. وكان الطاعون سنة سبع وثمانين في خلافة الوليد بن عبد الملك، وكان مطرف أكبر من الحسن البصري بعشرين سنة.

حسين بن علي الجعفي (٠٠ ـ ٢٠٣ هـ)

ترجمه عبد الرحمن بن الجوزي في (صفة الصفوة) فقال: يكنى أبا عبد الله، كان من العلماء العباد، وكان سفيان الثوري إذا رآه عانقه وقال: هذا راهب جعفي. وكان سفيان بن عينية يعظمه.

وقال احمد بن حنبل: ما رأيت بالكوفة أفضل من حسين الجعفي. وكان يشبه بالراهب محمد بن عبيد الرجى. قال: سمعت أبا بكر سماعه قال: كنا عند ابن أبي عمر العدني بمكة فسمعناه يقول: قدم علينا هارون قدمة إلى هذا المسجد، فأخبرني الخادم الذي كان معه قال: كنت معه ومعه جعفر بن يحيى، فخرجنا جميعاً حتى صرنا الى الثنية فقال لي: سل عن حسين بن علي الجعفي. فلقيت رجلاً فقلت: أين حسين بن علي الجعفي. فقال: ها هوذا يطلع عليك راكباً حماراً، وخلفه أسود يقود أجمالاً له. فإذا هو طلع: فقلت: هذا هو يا أمير المؤمنين. فلما حاذاه قام إليه فقبل يده أو قبل رجله فقال له جعفر بن يحيى: يا شيخ أتدري من المسلم عليك؟ إنه أمير المؤمنين هارون. فالتفت حسين، فقال له: أنت يا حسن الوجه، أنت مسؤول عن هذا الخلق كلهم؟ فقعد يبكي. وأتانا آتٍ ونحن عند ابن عيينة فقال لسفيان: قدم حسين بن علي الجعفي. فقام إليه يتلقاه، وخرجنا معه. فلما صار في الطريق لقيه فضيل بن عياض فقال له: أين تريد يا أبا محمد؟ فقال: قدم حسين الجعفي فأردت لقاءه. فقال: أنا معك

فخرجا يمشيان جميعاً ونحن خلفهما، فلما صرنا في أصحاب اللواء وإذا حسين راكباً حماراً، فتقدم إليه فضيل فقبل رجله، وتقدم سفيان فقبل يده، فقال له فضيل: بأبي رجل تعلمت القرآن على يديه. ثم دخل المسجد فطاف بالكعبة، وجاء إلى الأسطوانة الحمراء فقعد عندها. فأكبَّ الناس عليه.

سمع حسين الجعفي من القاسم والوليد وزائدة وغيرهم. وتوفي في ذي القعدة سنة ٢٠٣ هـ. رحمه الله(١)».

خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة

قال صاحب (صفة الصفوة) في ترجمته:

«واسمه يزيد بن مالك الجعفي عن الأعمش قال: «ورث خيثمة بن عبد الرحمن مئتي ألف درهم، فأنفقها على القراء والفقهاء».

الأعمش قال: كان خيثمة يصنع الخبيص والطعام الطيب، ثم يدعو إبراهيم ـ يعني النخعي ـ ويدعونا معه فيقول: «كلوا. ما أشتهيه ما أصنعه إلا من أجلكم».

الأعمش قال: ربما دخلنا على خيثمة فيخرج السلة من تحت السرير فيها الخبيص والفالوذج، فيقول: «ما أشتهيه، كلوا، أما أني ما جعلته إلا لكم». وكان موسراً وكان يصر الدراهم، فاذا الرجل من أصحابه مخرق القميص أو الرداء أو به خلة تحيِّنه، فإذا خرج من الباب خرج هو من باب آخر حتى يلقاه فيعطيه، فيقول: «اشتر قميصاً، اشتر رداء، اشتر حاجة كذا».

عن طلحة قال: قال خيثمة: «كان يعجبهم أن يموت الرجل عند خير يعمله؛ إما حج وإما عمرة، وإما غزاة، وإما صيام رمضان».

عن الأعمش قال: نفست امرأة المسيب بن رافع وهو غائب، فاشترى لها خيثمة خادماً بست مئة».

---

(١) هو بحسب تأريخ وفاته من رجال العهد العباسي.

عن الحكم عن خيثمة قال: «إذا طلبت شيئاً فوجدته فاسأل الله الجنة، فلعله يكون يومك الذي يستجاب فيه».

عن الأعمش عن خيثمة قال: «تقول الملائكة يا رب عبدك المؤمن تزوي عنه الدنيا وتعرضه للبلاء؟ قال: فيقول للملائكة: اكشفوا لهم عن ثوابه. فإذا رأوا ثوابه قالوا: يا رب لا يضره ما أصابه في الدنيا. قال: ويقولون عبدك الكافر تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا؟ قال فيقول للملائكة اكشفوا لهم عن عقابه. قال: فإذا رأوا عقابه قالوا يا رب لا ينفعه ما أصابه من الدنيا».

قال المؤلف: وقد روي هذا الكلام عن خيثمة عن عبد الله بن العاص عن النبي ﷺ إلا أن الصحيح أنه من قول خيثمة عن محمد بن خالد الضبّي. قال: لم نكن ندري كيف يقرأ خيثمة القرآن حتى مرض فثقل: فجاءته امرأته فجلست بين يديه فبكيت، فقال لها ما يبكيك؟ الموت لا بد منه. فقالت له امرأته: الرجال بعدك علي حرام. فقال لها خيثمة: ما كل هذا أردت منك، إنما كنت أخاف رجلاً واحداً وهو أخي محمد بن عبد الرحمن، وهو رجل فاسق يتناول الشراب، فكرهت أن يتناول في بيتي الشراب بعد أن كان القرآن يتلى فيه كل ثلاث».

عن سفيان عن رجل عن خيثمة أنه أوصى أن يدفن في مقبرة فقراء قومه.

قال المصنف أدرك خيثمة علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وعدي بن حاتم والنعمان بن بشير في جماعة من الصحابة، ومات قبل أبي وائل».

زبيد بن الحارث اليامي (٠٠ ـ ١٢٢ هـ)

أورده صاحب (صفة الصفوة) فقال:

«يكنى أبا عبد الرحمن، ويقال: أبا عبد الله. الأشعث بن عبد الرحمن بن زبيد عن أبيه قال: كان قد قسم علينا الليل أثلاثاً: ثلثاً عليه، وثلثاً عليَّ، وثلثاً

على أخي. فكان زبيد يقوم ثلثه، ثم يضربني برجله، فإذا رأى مني كسلاً قال: نم يا بني فأنا أقوم عنك. قال: فيقوم حتى يصبح.

قال: وحدثني المحاربي عن سفيان قال: «دخلنا على زبيد نعوده، فقلنا: الله يشفيك. فقال: أستخير الله».

عن سفيان قال: «دخلنا على زبيد، فإذا كانت الليلة مطيرة أخذ شعلة من النار، فطاف على عجائز الحي فقال: أو كف عليكم بيت؟ أتريدون ناراً؟ فإذا أصبح طاف على عجائز الحي فقال: ألكم في السوق حاجة؟ أتريدون شيئاً؟».

قال وكيع: وحدثني أبي قال: «كنت جالساً مع زبيد فأتاه رجل ضرير يريد أن يسأله، فقال له زبيد: إن كنت تريد أن تسأل عن شيء فإن معي غيري محمد بن الحسين».

قال: حدثني سليمان بن أيوب عن بعض أشياخه قال: «قام زبيد اليامي ذات ليلة ليتهجد. قال: فعمد إلى مطهرة له قد كان يتوضأ منها، فغمس يده في المطهرة فوجد الماء شديد البرودة كاد يجمد من شدة برده، فذكر الزمهرير ويده في المطهرة لم يخرجها منها حتى أصبح. فجاءت الجارية وهو على تلك الحال، فقالت: ما شأنك يا سيدي؟ لم تصل الليلة كما كنت تصلي وأنت قاعد ها هنا على هذه الحال؟ قال: ويحك، أدخلت يدي في هذه المطهرة، فاشتد علي برد الماء، فذكرت به الزمهرير. فوالله ما شعرت بشدة برد يدي حتى وقفت على نظري، لا تحدثي بها أحداً ما دمت حياً. قال فما علم بذلك أحد حتى مات».

عن سفيان بن زيد قال: «يسعدني أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في الأكل والنوم».

قال سعيد بن جبير: «لو خيرت عبداً ألقى الله في مسلاخه اخترت زبيداً اليامي». قال أبو عبد الله من أهل الكوفة: قال لي محمد بن سوقة: «لو رأيت

طلحة وزبيداً لعلمت أن وجوههما قد اختلفا سهر الليل وطول القيام. وكان والله ممن لا يتوسد الفراش».

قال المؤلف: «أدرك زبيد اليامي جماعة من الصحابة منهم: ابن عمرو وأنس، وتوفي سنة ١٢٢، وقيل سنة ١٢٣ هـ. قال: سمعت أبا نعيم يقول: مات زبيد سنة ١٢٢، وكان طلحة أكبر من زبيد بعشر سنين، واستوفى زبيد عشر سنين قبل أن يموت».

عبد الله بن غالب الحداني

حدان معروف بجهة رداع، وقال ابن الجوزي مترجماً للرجل الصالح، المغيرة بن حبيب. قال: قال عبد الله بن غالب الحداني لما برز للعدو: «على ما آسى من الدنيا فوالله ما فيها للبيب جذل، والله لولا محبتي لمباشرة السهر بصفحة وجهي، وافتراش الجبهة لك يا سيدي، والمراوحة بين الأعضاء في ظلم الليل رجاء ثوابك وحلول رضوانك، لقد كنت متمنياً لفراق الدنيا وأهلها». قال: «ثم كسر جفن سيفه، ثم تقدم فقاتل حتى قتل. قال: فحمل من المعركة ان به رمقاً فمات دون العسكر. فلما دفن أصابوا من قبله رائحة المسك. قال: فرآه رجلٌ من أخويه في منامه، فقال: يا أبا فراس، ما صنعت؟ قال: خير الصنع. قال: إلى ما صرت؟ قال: إلى الجنة. قال: ثم. قال: بحسن اليقين وحسن التهجد وظمأ المواجر قال: فما هذه الرائحة الطيبة التي توجد من قبرك؟ قال: تلك رائحة التلاوة والظمأ. قال: قلت أوصني. قال: اكسب لنفسك خيراً، لا تخرج عنك الأيام والليالي عطلاً».

عن مالك بن دينار قال: «نزلت في قبر عبد الله بن غالب، فأخذت من ترابه، فإذا هو مسك». وقال: فتن الناس به فبعث إلى قبره فسوى».

فتح بن محمد بن وشاح الأزدي الموصلي ويكنى أبا محمد

(٠٠ ـ ١٧٠ هـ)

من كبار رؤساء اليمن النازحين ترجمه ابن الجوزي، فقال: «محمد بن الوليد قال: سمعت فتح بن محمد الأزدي يقول في جوف الليل: «رب أجعتني وأعريتني، وفي ظلم الليل أجلستني، فبأي شيء أكرمتني هذه الكرامة؟». وكان يبكي ساعة، ويفرح ساعة.

عن المعافى بن عمران قال: «دخلت على فتح الموصولي فرأيته قاعداً في الشمس وصَبِيّة له عرايا، وابن له مريض، فقلت له: ائذن لي حتى أكسو هذه الصبية. قال: لا، قلت: ولم؟ قال: دعها حتى يرى الله عز وجل ضُرَّها وصبري عليها فيرحمني. قال: فتجاوزت إلى الصبي، فقعدت عند رأسه، فقلت: حبيبي ألا تشتهي شيئاً حتى أحمله؟ قال: ومن أنت؟ قلت معافى بن عمران. فرفع رأسه إلى السماء وقال: مني الصبر ومنك البلاء».

عن أبي غسان المؤذن قال: «خرجنا حُجاجاً فأردنا غسل ثيابنا بمكة، فأرشدنا إلى رجل له صلاح من أهل فارس يغسل للناس ثيابهم، ويتجر على الضعفاء فيغسل ثيابهم بغير أجرة. فأتيناه، فقال: ممن أنتم؟ قلنا: من أهل الموصل. قال: تعرفون فتحاً. قلنا: نعم. قال: ما فعل؟ قلنا: مات. قال: فتوجع عليه وأظهر حزناً. فقلنا: كيف تعرفه وأنت رجل من أهل فارس وهذا بالموصل؟ قال: رأيت في منامي عدة ليال: «أن ائت فتحاً الموصلي، فإنه من أهل الجنة». فخرجت من فارس حتى أتيت الموصل، فسألت عنه، فقيل لي: هو على الشط. فأتيته فإذا رجل ملتف بكسائه وقد ألقى شِصّاً له في الماء، فسلّمت عليه فردَّ علي، فقلت له: أتيتك زائراً: فلف الشّص وقام، فدخلنا المسجد، وغربت الشمس وصلينا وتفرق الناس، فأتى بطعام فأكلنا، ثم نودي بالعشاء الآخرة فصلينا وتفرّق الناس، وقام فتح في صلاته، ورميت بنفسي، فإذا رجل قد دخل

علينا المسجد فسلم وصلى إلى جنب فتح ركعتين، وقعد فسلم عليه فتح وسأله، فقال له الرجل: متى عهدُك بأبي السدى؟ قال: ما لي به عهد منذ أيام. قال: فقم بنا إليه فإنه مُعتِلّ. قال: فخرجا من المسجد وأنا أنظر إليهما يمشيان على ماء دجلة. ورجع فتح آخر الليل. فدخلت المسجد ورميت نفسي كأني نائم. فلما أسفر الصبح وصلينا وتفرق الناس قمت إليه فقلت: يا أبا محمد قد قضيت من زيارتك وطراً، وقد رأيت الرجل الذي أتاك البارحة وما كان منكما. فجعل يعارضني، فلما علم أني قد علمت الخبر أخذ علي العهود لا أعلم بذلك أحداً ما علمت أنه حي. وقال لي: ذاك الخضر وأبو السرى حمزة الخولاني، وهو رجل صالح في هذه القرية، وأشار بيده إليها، وقال: اجعل طريقك عليه فالقه وسلِّم عليه. فمضيت إليه وسلمت عليه».

ذكر المعافى بن عمران أنه لم يلق أحداً أعقل من فتح هذا. وقال أبو نصر التمار: توفي سنة سبعين ومئة. رحمة الله عليه».[1]

شرحبيل بن السمط الكندي

وهذا ولي آخر ترجمه ابن الجوزي فقال:

«أبو بكر بن سوادة قال: كان رجل يعتزل الناس إنما هو وحده، فجاءه أبو الدرداء فقال: أنشدك الله عز وجل ما يحملك على أن تعتزل الناس؟ قال: إنني أخشى أن أُسْلَب ديني وأنا لا أشعر. فحدثت بذلك رجلاً من أهل الشام فقال: ذاك شرحبيل بن السمط قلت: ذكره محمد بن سعد شرحبيل بن السمط في التابعين بعد يزيد بن الأسود. قال البخاري له صحبة».

(١) وبحسب تاريخ وفاته هو من رجال العهد العباسي.

يزيد بن مرثد أبو عثمان الهمداني

من همـدان القبيلة اليمنية المبـاركة. قـال ابن الجوزي في تـرجمتـه: «عبـد الرحمن بن يزيد بن جابر قال: «قلت ليزيد بن مرثد: مالي أرى عينيك لا تجف؟ قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى الله عز وجـل أن ينفعني به. قـال: يا أخي إن الله عـز وجل قـد تـوعـدني إن أنـا عصيتـه أن يسجنني في النـار. والله لـو لم يتواعدني أن يسجنني إلا في الحمام لكنت حريّاً أن لا تجف لي عين. قـال: فقلت له: فهكذا أنت في خلواتك. قال: وما مسألتك عنه؟ قلت: عسى الله عز وجل أن ينفعني بـه. قـال: والله إن ذلـك ليعـرض لي حيث أسكن إلى أهـلي أو إلى الطعام فيحول بيني وبين أكله، حتى تبكي امـرأتي ويبكي صبياننـا ما يـدرون ما أبكانا. ولربما أضجر ذلك امرأتي فتقول: يا ويحها ما خصت به من طـول الحزن معك في الحياة الدنيا، ما تقر لي معك عين».

عن الوضين بن عطاء قال: «أراد الـوليد بن عبـد الملك أن يولي يـزيد بن مرثد، فبلغ ذلـك يزيـد، فلبس فروة وقلبهـا فجعل الجلد عـلى ظهره والصـوف خـارجاً، وأخـذ بيده رغيفـاً وعرقـاً، وخرج بـلا رداء ولا قلنسـوة ولا نعـل ولا خف، وجعل يمشي في الأسواق ويأكل، فقيل للوليد: إن يزيد قد اختلط. وأخبر بما فعل فتركه». أسند يزيد بن مرثد عن معاذ وأبي الدرداء وغيرهما.

(ب) سيوف فاتحة

إن أخطر فترة زمنية في تاريخ الإسلام هي تلك الـواقعة بـين مقتل عثـمان إلى مقتـل ابن الـزبـير، رضـوان الله عليهم، فخـلالهـا انقسم الصّف ونجمت البدع، وظهرت الخوارج والشيعة والكيسانية والمعـتزلة والقـدرية والمرجئة، التي عـانى منها الإسـلام كثيراً، وكـان لذلـك أثره السيء عـلى الحركـة الجهاديـة التي انشغل رجالها بما يجـري خلف ظهورهم داخـل الصف. ثم تداركت الأمـة رحمة الله في أواخـر عهد عبـد الملك وطوال عهـد الوليـد، فـاستـأنفت مسـيرة الجهـاد

ونشاطها، واستقرت أوضاع الأمة، واتسع رخاؤها. وعن ذلك يقول ابن كثير في (البداية) في المجلد الخامس في ص ٨٧:

«فكانت سوق الجهاد قائمة في بني أمية ليس لهم شغل إلا ذلك، وقد علت كلمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وبرها وبحرها، وقد أذلوا الكفر وأهله، وامتلأت قلوب المشركين من المسلمين رعباً، لا يتوجه المسلمون إلى قطر من الأقطار إلا أخذوه. وكان في عساكرهم وجيوشهم في الغزو الصالحون والأولياء، والعلماء من كبار التابعين، في كل جيش منهم شرذمة عظيمة ينصر الله بهم دينه، فقتيبة بن مسلم يفتح في بلاد الترك، يقتل ويسبي، ويغنم حتى وصل إلى تخوم الصين. فأرسل إلى ملكه يدعوه، فخاف منه وأرسل له هدايا وتحفاً وأموالاً كثيرة هدية، وبعث يستعطفه مع قوته وكثرة جنده. في حين أن ملوك النواحي كانت تؤدي إليه الخراج خوفاً منه. ولو عاش الحجاج لما أقلع عن بلاد الصين، ولم يبغ إلا أن يلتقي مع ملكها. فلما مات الحجاج رجع الجيش، كما مر. ثم إن قتيبة قتل بعد ذلك، قتله بعض المسلمين.

ومسلمة بن عبد الملك بن مروان وابن أمير المؤمنين الوليد وأخوه الآخر يفتحون في بلاد الروم، ويجاهدون بعساكر الشام حتى وصلوا إلى القسطنطينية. وبنى بها مسلمة جامعاً يعبد الله فيه، وامتلأت قلوب الفرنج منهم رعباً.

ومحمد بن القاسم ابن أخي الحجاج يجاهد في بلاد الهند، ويفتح مدنها وأقاليمها، في جيوش الديار المصرية، وغيرهم. وكل هذه النواحي إنما دخل أهلها في الإسلام، وتركوا عبادة الأوثان.

وقبل ذلك كان الصحابة في زمن عمر وعثمان قد فتحوا غالب هذه النواحي، ودخلوا إلى ما وراء النهر، وأوائل بلاد المغرب، وأوائل بلاد الهند، فكان سوق الجهاد قائماً في القرن الأول، من بعد الهجرة إلى انقضاء دولة بني أمية.

وفي أثناء خلافة بني العباس مثل أيام المنصور وأولاده، والرشيد وأولاده، في بلاد الروم والترك والهند. وقد فتح محمود سبكتكين وولده في أيام ملكهم بلاداً كثيرة من بلاد الهند، ولما دخلت طائفة ممن هرب من بني أمية إلى بلاد المغرب، وتملكوها أقاموا سوق الجهاد والفرنج بها. ثم لما بطل الجهاد من هذه المواضع رجع العدو إليها، فأخذ منا بلاداً كثيرة، وضعف الإسلام فيها. ثم استولت دولة الفاطميين على الديار المصرية والشامية، وضعف الإسلام، وقلَّ ناصروه، وجاء الفرنج فأخذوا غالب بلاد الشام، حتى أخذوا بيت المقدس وغيرها من البلاد الشامية، فأقام الله سبحانه بني أيوب مع نور الدين فاستلبوها من أيديهم، وطردوهم عنها. فلله الحمد والمنة».

وقال في ص ١٦٤ عن الوليد بن عبد الملك: «بنى المساجد في دمشق، ووضع المنابر، وأعطى الناس وأعطى المجذومين، وقال لهم: لا تسألوا الناس. وأعطى كل مقعد خادماً، وكل ضرير قائداً، وفتح في ولايته فتوحات كثيرة عظاماً، وكان يرسل بنيه في كل غزوة إلى بلاد الروم، ففتح الهند والسند وأقاليم بلاد العجم، حتى دخلت جيوشه إلى الصين وغير ذلك». قال: «وكان مع هذا يمر بالبقال، فيأخذ حزمة البقل بيده ويقول: بكم تبيع هذه؟ فيقول: بفلس. فيقول: زد فيها فإنك تربح. وذكروا أنه كان يبر حملة القرآن، ويكرمهم، ويقضي عنهم ديونهم». ا. هـ.

وظهر أعلام يمانون نشروا دين الله، وأقاموا دولة الإسلام في الخافقين بالمشاركة مع قادة الأمة وأبطالها الميامين، وأولهم ذكراً ثلاثي الفتح العظيم.

موسى بن نصير اللخمي وطريف النخعي وطارق بن زياد الصدفي

(١٩ هـ ـ ٩٧ هـ) ـ (٠٠ ـ ١٠٨ هـ) (٠٠ ـ ٩٧ هـ)

قال ابن كثير في (البداية) عن موسى اللخمي مولاهم: «كان مولى لامرأة منهم، وقيل كان مولى لبني أمية افتتح بلاده المغرب وغنم منها أموالاً لا تعد ولا تحصى، وله بها مقامات مشهورة هائلة. ويقال: إنه كان أعرج، ويقال: إنه ولد في سنة تسع عشرة. وأصله من عين التمر، وقيل: إنه من أراشة من بلى. سبي أبوه من جبل الخليل من الشام في أيام الصديق، وكان اسم أبيه نصراً مصغراً، روى عن تميم الداري، وروى عنه ابنه عبد العزيز ويزيد بن مسروق اليحصبي، وولي غزو البحر لمعاوية. فغزا قبرص، وبنى هنالك حصوناً كالماغوصة وحصن بانس، وغير ذلك من الحصون التي بناها بقبرص. وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية في سنة سبع وعشرين، وشهد مرج راهط مع الضحاك بن قيس، فلما قتل الضحاك لجأ موسى بن نصير لعبد العزيز بن مروان، ثم لما دخل مروان بلاد مصر كان معه، فتركه عند ابنه عبد العزيز، ثم لما أخذ عبد الملك بلاد العراق جعله وزيراً عند أخيه بشر بن مروان. وكان موسى بن نصير هذا ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب. قال البغوي ولي موسى بن نصير إمرة بلاد إفريقية سنة تسع وسبعين، فافتتح بلاداً كثيرة جداً (مدناً وأقاليم). وقد ذكرنا أنه افتتح بلاد الأندلس، وهي بلاد ذات مدن وقرى وريف. وقال أيضاً: واستسقى موسى بن نصير بالأندلس في سنة ثلاث وتسعين حين أقحطوا أو بإفريقية، فأمرهم بصيام ثلاثة أيام قبل الاستسقاء، ثم خرج بين الناس وميز أهل الذمة من المسلمين، وفرق بين البهائم وأولادها، ثم أمر بارتفاع الضجيج والبكاء، وهو يدعو الله تعالى حتى انتصف النهار، ثم نزل فقيل له: ألا دعوت لأمير المؤمنين؟ فقال هذا موطن لا يذكر فيه إلا الله عز وجل. فسقاهم عز وجل لما قال ذلك. وقد دخل موسى بن

نصير على الوليد بن عبد الملك في آخر أيامه، فدخل دمشق في يوم الجمعة والوليد على المنبر، وقد لبس موسى ثياباً حسنة وهيئة حسنة. فدخل ومعه ثلاثون غلاماً من أبناء الملوك الذين أسرهم والإسبان، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأبهة العظيمة. فلما نظر إليهم الوليد وهو يخطب الناس على منبر جامع دمشق، بهت بهم لما رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة. وجاء موسى بن نصير، فسلم على الوليد وهو على المنبر، وأمر أولئك، فوقفوا على يمين المنبر وشماله، فحمد الله الوليد، وشكره على ما أيده به ووسع ملكه، وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة. ثم نزل فصلى بالناس، ثم استدعى موسى بن نصير فأحسن جائزته، وأعطاه شيئاً كثيراً، وكذلك موسى بن نصير قدم معه شيء كثير، من ذلك مائدة سليمان بن داود عليهما السلام التي كان يأكل عليها، وكانت من خليطتين، ذهب وفضة، وعليها ثلاثة أطواق لؤلؤ وجوهر لم ير مثله، وجدها في مدينة طليطلة من بلاد الأندلس مع الأموال الكثيرة. وقال أيضاً لو انقاد الناس لي لقدتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية [وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج] ثم ليفتحها الله على يدي إن شاء الله تعالى. ولم يزل مقيماً بدمشق حتى مات الوليد، وتولى سليمان، وكان سليمان عاتباً على موسى فحبسه عنده، وطالبه بأموال عظيمة، ولم يزل في يده حتى حج سليمان في هذه السنة، وأخذه معه، فمات في المدينة، وقيل: بوادي القرى. وقد قارب الثمانين. وقيل: توفي في سنة تسع وتسعين، فالله أعلم، ورحمه الله وعفا عنه بمنه وفضله، آمين» ا. هـ.

والكلام عن موسى بن نصير متصل بالكلام عن طارق لكون المراجع تدرج أحدهما مع الآخر نظراً لاتحاد المهمة الجليلة التي اضطلعا بها. وبين الفاتحين العظيمين موسى وطارق ترد شخصية ثالثة حظها من الذكر قليل، ونعني بها (طريف النخعي) والذي كان رائد الفتح الخالد، فاستولى بسفنه الأربع وجيشه الصغير المكون من أربع مئة مقاتل على الجزيرة الخضراء المحادية لمدخل الأندلس،

وهي الجزيرة التي ظلت تعرف باسم طريف. توفي سنة ١٠٨.

ونظراً لاضطراب المراجع حول تفاصيل فتح الأندلس، ودور كلٍ من موسى وطارق، واضطرابها أيضاً حول الوضع العسكري والسياسي الذي ساد الأندلس وأوروبا بعد الفتح، واضطرابها أيضاً حول المصير الذي انتهى إليه الفاتحان العظيمان، فقد رأينا إيراد النص الكامل والقيم لسيد أمير علي في كتابه: (مختصر تاريخ العرب) ففيه على اختصاره ما يشفي ويكفي. قال في ص ١١٣:

«بينما كان موسى بن نصير يحكم إفريقية اعتلى روذريق عرش إسبانية بعد أن خلع ملكها السابق وتيزا (غيطشة) وقتله. وهكذا انضم جوليان حاكم سبتة إثر نكبة حلت به على يدي روذريق بشخص ابنته فلورندا، إلى اللاجئين الإسبانيين في الاستنجاد بموسى لتحرير بلادهم من نير المغتصب. فاستجاب موسى رجاءهم بموافقة الوليد، وأرسل ضابطاً شاباً مقداماً اسمه طريف) لاستطلاع أحوال الساحل الجنوبي، وكان تقرير هذا الشاب مؤاتياً. وهكذا أنزل طارق بن زياد أحد قواد موسى الأكفاء ومعه سبعة آلاف رجل، في الموقع الذي يعرف الآن باسمه. وبعد أن حصّن الجبل كي يكون قاعدة لعملياته، انحدر إلى الجيكراس (الجزيرة) التي كان يحكمها تدمير أحد عمال روذريق، وعندما حاول القوط اعتراض سبيله مزق شملهم شرّ ممزق وعندئذ سارع طارق في زحفه المشهود على طليطلة. وفي تلك الأثناء تعاظم جيش طارق حتى بلغ اثني عشر ألف رجل، بفضل الإمدادات التي أرسلها إليه موسى. وكان روذريق منهمكاً في إخماد الاضطرابات التي نشأت في الشمال، ولكنه ما إن سمع بالغزو العربي حتى قفل مسرعاً إلى عاصمته، وطلب إلى الرؤساء الإقطاعيين أن ينضموا إليه في قرطبة مع جنودهم. وقد بلغ بجيش روذريق عندما انضمت إليه الإمدادات مئة ألف رجل، ولذا كان الجيشان غير متكافئين إطلاقاً عندما التقيا على ضفاف نهر (كوادليت) إلى الشمال من سيدونيا وإذا كان أبناء وتيزا ساخطين على روذريق بسبب المظالم التي حلت بهم على يديه، فقد انفصلوا عنه بعد المعركة الأولى،

ومع ذلك فقد ظلت القوة التي كانت تحت إمرته هائلة حسنة التعظيم، مزودة بأحسن المعدات، صدت فترة من الزمن هجمات المسلمين، ولكن الحملة الأخيرة التي قادها طارق نفسه كانت من القوة بحيث لم يستطع أعداؤه الوقوف في وجهها، فشتت شملهم، وغرق ملكهم روذريق في مياه نهر الكوادليت. ولقد أحدث هذا الانتصار العظيم تأثيراً معنوياً كبيراً في نفوس أعداء المسلمين، فخشوا مقابلتهم مرة أخرى.

وهكذا فتحت مدينتا سيدونيا وفرمونة أبوابها، وأبدت مدينة استجه التي كانت جيوش روذريق قد التجأت إليها، بعض المقاومة، ولكنها ما لبثت أن استسلمت لقاء شروط مرضية.

وقسم طارق جيشه الصغير إلى أربع فرق، ثم أمر أحد قواده بالمسير إلى قرطبة، بينما توجه الثاني إلى مالقة، والثالث إلى غرناطة والبيرة، وتوجه هو مسرعاً على رأس القوة الرئيسية إلى طليطلة عاصمة القوط. وكان أن سقطت مالقة وغرناطة وقرطبة الواحدة تلو الأخرى دون صعوبة تذكر، وتم إخضاع الجيكراس (الجزيرة) التي كانت خاضعة لسلطان تدمير. ولقد ارتاع القوط للسرعة التي تمت بها تحركات طارق، ولشدة الضربات التي كان يسددها إليهم، وكان الأشراف يعرضون خضوعهم، أو يفدون من مكان إلى آخر. فقد وفد كبار رجال الإكليروس إلى روما، في حين أن عامة الشعب من الأقنان واليهود والفقراء رحبوا بالمسلمين، واعتبروهم محرريهم من نير القوط، وإذ وجد طارق أن الإسبان قد هجروا طليطلة فقد تركها في عهده فصيلة صغيرة من اليهود والمسلمين وعلى رأسها (أوباس) شقيق الملك غيطشة، وطارد فلول القوط حتى (استوركاوا). وفي تلك الأثناء تناهت أنباء انتصارات طارق إلى مسامع موسى بن نصير، فدفعته الغيرة أو المنافسة إلى أن ينزل بنفسه على رأس جيش من ثمانية عشر ألف رجل ليكمل الفتح الذي بدأه قائده البارع. وكان في جيشه العديد من سادات اليمن، وأحفاد صحابة رسول الله. فسار بهم شرقاً حتى

وصل إلى سافيلا وماردة، وأخضعها الواحدة تلو الأخرى. وفي طليطلة لحق به طارق قائده المظفر .

ولقد شهد إجتماع القائدين الفاتحين خلافاً لم يكن يليق بهما غير أنهما ما لبثا أن تصالحا، ووحدا قواتهما، وزحفا على أراغون، ففتحت لهما أبوابها كل من سرقسطة وتراغون وبرشلونة، وغيرها من المدن الرئيسية في الشمال. وفي أقل من عامين اثنين غدت بلاد إسبانية كلها حتى حدود جبال ألبرينة في أيدي العرب، وبعد بضع سنوات فتح العرب بلاد البرتغال، وجعلوها ولاية مستقلة، وأطلقوا عليها اسم (الغرب). وفي جبال الأوسترباس وحدها استمر المسيحيون الإسبان في مقاومة المسلمين.

فتوحات موسى

وعهد موسى إلى طارق مهمة إخضاع مدن جليقية، ثم سار هو إلى فرنسة حيث أخضع بسهولة ويسر ذلك القسم الذي كان تابعاً لحكومة القوط من بلاد لانكودوك. وما إن وقف موسى على جبال البرنس حتى وضع خطته لفتح أوربة بكاملها. ولو أنه سُمح له بتنفيذ خطته وقتئذ لتمكن على الأرجح من النجاح في ذلك والغرب قد أصبح بكامله تحت قدميه، ولم تكن هناك أية رابطة بين الأمم التي كانت تفصل موسى عن مقر الخلافة، كما أنه لم يكن قد ظهر بعد ذلك القائد الذي يستطيع أن يوحد القوات المسيحية ويعترض تقدم العرب، ولكن سياسة الحذر والتردد والتي اتبعها بلاط دمشق أضاعت تلك الفرصة الرائعة. وكانت النتيجة أن ظلت أوروبة غارقة في ظلام الجهل طوال القرون الثمانية التالية. فقد أصدر الوليد إلى موسى أمراً بالتوقف بينما كان يستعد للتوغل في فرنسة بغية اجتيازها إلى إيطالية. عندئذ حصر اهتمامه في إخضاع الأقسام الجبلية من إسبانية بأكملها حيث كان المسيحيون يقيمون حصونهم المنيعة في دفاعهم اليائس ضد العرب. ودخل موسى إلى جليقية، واستولى على قلاعها،

وطرد العدو إلى جبال أوستورياس، ومن لولو أخذ موسى يدبر تحركات جيشه الذي أصبح الآن يحدق بالعصاة من كل جانب، فأخذت عصاباتهم تستسلم الواحدة تلو الأخرى، حتى لم يبق هناك سوى ببلايو، وقليل من أنصاره، وكان هذا على وشك أن يلقي سلاحه لو لم يصل رسول من دمشق في اللحظة التي كاد يتم بها الفتح، يحمل أوامر الخليفة إلى القائدين بالعودة واستدعاء موسى وطارق.

ومهما كان الدافع الذي أجبر الوليد على استدعاء موسى وطارق، فمما لا شك فيه أن هذا الاستدعاء كان كارثة عظمى على الإسلام، ذلك أن رحيل موسى مكَّن ببلايو من تحصين نفسه في الجبال، ومن أن يكّون هناك نواة تلك القوة التي قدر لها من بعد أن تنتصر على الولايات الإسلامية، وتدمرها في الجنوب. وإذ حرم العرب من أقدر قائدين فيهم، فقد نظروا بازدراء واحتقار إلى تلك القبضة من المدافعين المصممين على القتال، وتركوهم يزدادون عدداً وعدة يوماً بعد يوم.

وقال في ص ١٣٦.

«الذي يبدو أنه من المستحيل علينا الآن أن نفسر المعاملة التي عومل بها موسى وطارق فاتحا الأندلس من جانب سليمان، ذلك أنهما معاً من أصل يماني، وكانا متمتعين بثقة الوليد، ولكن سليمان أساء معاملة هذين القائدين العظيمين، فماتا فقيرين معدمين، مما سيبقى وصمة في جبينه أبد الدهر» ا.هـ.

وقد كانت ولاية موسى لإفريقية سنة ٨٩ هـ، وكان فتح الأندلس في رجب سنة ٩٢ هـ، أما السنة التي فيها وفاة القائدين فهي سنة ٩٧ هـ. وقد ذكر صاحب العقد الفريد والمبرد في الكامل، أنّ سليمان بن عبد الملك أقسم أن لا يطلق موسى حتى تدفع ديته خمسين مرة. فدفعها عنه يزيد بن المهلب ليدٍ كانت لموسى عند المهلب أيام ولاية بشر بن مروان للعراق.

السمح بن مالك الخولاني

تذكر كتب التاريخ وفادة السمح ونفر معه على الوليد بن عبد الملك بغنائم الأندلس، التي كانت من الكم والكيف نادرة بين غنائم المسلمين، وكان للسمح موقف متميز يفصح عن أمانته، وتحرجه في مال الله، فأعجب عمر بن عبد العزيز بما رآه منه. ولما ولي الخلافة عهد إلى السمح بأمر الأندلس، فقام به أتم قيام حتى استشهد رضي الله عنه. يقول سيد أمير علي في مختصره ص ١٣١:

«في عام ٧١٩ م انتهت إليه أنباء الاضطرابات في إسبانية، وعجز (الحر) عن التفاهم مع الإسبانيين، فعزله وولى مكانه زعيماً يمانياً يدعى (السمح بن مالك) من قبيلة خولان. وكان السمح مشهوراً بحنكته الإدارية، ودرايته العربية، ولذا عهد إليه عمر بإعادة تنظيم الشؤون المالية والإدارية، وبناء على أمر من الخليفة أجرى السمح إحصاء للجنسيات والأجناس والمذاهب التي كانت تقطن البلاد، كما مسح بلاد الأندلس؛ مدنها وجبالها وأنهارها وبحارها، وبين طبيعة الأرض ومنتجاتها ومواردها بالتفصيل، وبنى كذلك مسجداً جامعاً في سرقوسة، وشيد ورمم جسوراً عدة. وبعد أن أعاد النظام إلى نصابه في إسبانية أخذ السمح على عاتقه تأديب العصاة المسيحيين في اللانكيزوك والبروفانس، فهزمهم وأجبرهم على اللجوء إلى المعاقل الجبلية في الإستريا، كما اكتسح سقابة، وفتحت له أربونة أبوابها، وحذت حذوها مدن كثيرة أخرى. ولما كان الوصول إلى أربونة سهلاً من البحر فقد حصنها وعزز حاميتها، ثم زحف على طولوز عاصمة الأكواتيف، وحاصرها بقوة. وحين شن الهجوم الأخير على المدينة وصل إليها أبو ديس أمير أكواتيانا على رأس جيش عظيم، ومع أن نسبة جيش المسلمين إلى جيش العدو كانت كنسبة واحد إلى عشرة، فإنهم حاربوا بما عرف عنهم من شجاعة نادرة، وكسر قوادهم أغماد سيوفهم، وهم مصممون على الانتصار أو الموت. ودارت المعركة رهيبة، استمرت سجالاً بين الفريقين مدة طويلة، حتى سقط السمح بعد أن أصابه رمح في عنقه. وعندما رأى المسلمون

قائدهم يهوي صريعاً خارت عزائمهم، ولكن عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي استولى على القيادة في الحال، ونجح في سحب الجند من بروفانس بمهارة وشجاعة فائقتين فازتا بإعجاب أعدائه أنفسهم. ولقد وقعت معركة طولوز التي هلك فيها عدد كبير من العرب المشهورين في شهر أيار من سنة ٧٢١، أي بعد وفاة عمر بقليل» ا. هـ.

وفي الكامل: «أن عنبسة بن سحيم الكلبي تولى أمر الأندلس من سنة ١٠٣ إلى سنة ١٠٧، ثم تولى بعد وفاته يحيى بن سلمة الكلبي لعدة أشهر، وكلاهما من أرومة يمينة»[1].

عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي

هو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي العكي، القائد ميمون النقيبة، الذي أعز الله به الإسلام، ونشره على يده في سائر الأندلس. ولو قدر له أن يعيش لاقتحم فرنسا التي كان فعلاً قد توغل في جنوبها.

تولى إمارة الأندلس في وقت عصيب كانت الفتنة فيه قد اشتدت بين قبائل جيش الإسلام، فائتلف الشمل به، وعادت مسيرة الجهاد فتية على يده. قال ابن الأثير في المجلد الرابع ص ٢١٤: «إن عبيدة استعمل على الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله، فغزا الفرنجة، وأوغل في أرضهم، وغنم غنائم كثيرة، وكان فيها أصاب رِجْلاً من ذهب مفصصة بالدر والياقوت والزمردْ، فكسرها وقسمها بين الناس، فبلغ ذلك عبيدة، فغضب غضباً شديداً، فكتب إليه يتهدده، فأجابه عبد الرحمن - وكان رجلاً صالحاً -: أما بعد فإن السموات والأرض لو كانت رتقاً لجعل الله للمتقين منها مخرجاً. ثم خرج غازياً ببلاد الفرنج هذه السنة[2]، وقيل: سنة أربع عشرة، وهو الصحيح، فقتل هو ومن معه

(١) قال الزركلي ويسميه الإفرنج راما وفي أربونة اليوم شارع باسمه.

(٢) أي سنة ١١٣ هـ.

شهداء». وفي (المختصر) للسيد أمير نبذة مفيدة تحت ترجمة الغافقي، نوردها بنصها. قال في ص ١٤٧: «عندما قتل الهيثم استدعى هشام عبد الرحمن الغافقي، وولّاه على الأندلس، فكان لتعيينه صدى حسن في قلوب الإسبانيين، واعتبروه فاتحة عهد جديد في البلاد. وكان عبد الرحمن أقدر الحكام الذين شهدتهم تلك البلاد في أيام الأمويين، إذ كان يجمع إلى القدرة الفائقة في الإدارة المدنية نبوغاً عسكرياً من الطراز الأعلى، وكان ذا نفوذ غير محدود على كل من الحميريين والمضريين، وفي حين كان محبوباً من جنوده، فإن رقة قلبه وكرمه وعدله أكسبته محبة الشعب. ولقد قام بجولة كاملة في جميع المدن والمناطق لينظر في الشكاوى التي انهالت من كل جانب فعزل القضاة أو الحكام المحليين الذين ثبت لديه إخلالهم بواجبهم أو إساءتهم للأمانة، وعين في مكانهم رجالاً اشتهروا بالمكانة وحسن السمعة، وكذلك عامل عبد الرحمن جميع الطبقات على قدم المساواة، دون تمييز بين العنصر أو المذهب. وأعاد الكنائس إلى أصحابها الشرعيين الذين كانت قد اغتصبت منهم، وأعاد النظر في الإدارة المالية، وعاقب كل من أخل بالأمن عقاباً شديداً، غير أن مهمة إعادة تنظيم الحكم لم تصرفه عن ضرورة صيانة الحدود الشمالية، إذ كانت في نفسه رغبة طبيعية للانتقام للهزيمة التي مني بها العرب أمام تولوز، وشوق شديد إلى إحراز انتصارات شبيهة بانتصارات موسى وطارق، ولذا سعى سعياً موصولاً إلى إنشاء جيش لا يمكن صده في إبان زحفه نحو الشمال، وكان الحماس الديني لا يزال في أوجه، كما أن القتال تحت راية مثل ذلك القائد الباسل اجتذب الكثير من المتطوعين، وكان يحكم قردجان في الجانب الآخر من جبال البرانس حاكم مسلم يدعى «عثمان بن أبي نسعة»، وكان كتّاب النصارى يسمونه وقتئذٍ «مولوزة». كان عثمان قد تزوج من «لامبيكي» الجميلة ابنة «أودى» (ديوك أوف أكويتين) وعقد معاهدة تحالف هجومية دفاعية مع أبيها. وبالاتفاق مع حميه رفع علم الثورة على عامل الأندلس، غير أن عبد الرحمن لم يكن من أولئك الرجال الذين تلين قناتهم إزاء العصيان، ولذا بعث في التوجيشاً

إلى «الباب» حيث كان مولوزة يقيم مع زوجه، ففر الزعيم الثائر إلى الجبال، ولكنه قبض عليه وقتل، ووقعت زوجته المنكودة في يد عبد الرحمن، فأرسلها مكرمة إلى دمشق حيث تزوجت من بعده من أحد أولاد هشام. وقد أدت هزيمة مولوزة ومقتله إلى سخط الدويلات المسيحية، التي كان متحالفاً معها؛ ولذا ألفى عبد الرحمن نفسه مضطراً إلى النزول إلى ميدان القتال قبل أن يتم استعداده لغزو الشمال. سار عبد الرحمن مخترقاً أراغون ونافارا، ودخل فرنسة في ربيع عام ٧٣٢ م من طريق واديي بيكورال وبرن. وكانت مدينة «أرنس» التي يصفها الكتاب العرب بأنها واقعة في سهل موحش على نهر يبعد ثلاثة فراسخ عن البلد، قد وافقت على دفع الجزية، غير أن أهلها رفضوا الوفاء بمعاهدتهم لدى سماعهم بمقتل «مولوزة». وهكذا سار عبد الرحمن عليهم أولاً، ونشبت معركة هائلة على شواطىء الرون أعقبها سقوط المدينة. ومن أرنس سار عبد الرحمن على «بوردو» فاستولى عليها بعد مقاومة طفيفة، وأنزل بأمير أكواتين الذي حاول عرقلة زحفه على «دورون» ـ هزيمة منكرة. وبهذا النصر قضى عبدالرحمن على كل مقاومة في أكواتين، واستولى على «بورغاندي»، وخفقت راية الإسلام على ليون وبيزا نصون وصانص، وتدك جيش عبدالرحمن حاميات قوية في هذه المدن، فأضعفت من قوة جيشه، ثم سار نحو عاصمة بلاد الفرنجة، وبعد أن مُني أودي بهزيمته على ضفاف الدورون، ووجد أنه غير قادر على الصمود في وجه الغزاة، طلب معونة من شارل أوكالدوس، كما يسميه مؤرخو العرب، الابن الطبيعي لـ «بيان هارشال» الذي كان يحكم منصبه كأمين لبلاط مورفيكان، يتمتع بنفوذ عظيم على الفرنج. وإذا كان شارل رجلاً قديراً وطماعاً فقد رأى في طلب أودي وسيلة للتوسع، فاستجاب له فوراً، وحشد قوة كبيرة من متوحشي قبائل حدود الدانوب والألب وقفار ألمانية، وزحف بهم نحو الجنوب. وكان العرب في تلك الأثناء قد زحفوا على طوروس، واستولوا عليها بعد هجوم عنيف ارتكبوا فيه أعمال السلب والنهب. ويقول أحد كتاب العرب: إن الكارثة التي حلت بالجيش

العـربي وقتئـذٍ مـردهـا إلى غضب الله من إفـراط الـبربـر في القسـوة والعنف في طوروس بالرغم من الأوامر المشـددة. وبينما كـان القائـد العربي يحـاول عبور نهر اللوار استناداً إلى أخبار جواسيسه الخاطئة، هـاجمه شـارل بجيوشـه الجرارة، وإذ وجد أن العدو يفوقه عدداً فقد أمر في الحال بسحب مراكزه الأمـامية، وارتـد من شواطىء النهر، وتمركز في نقطة واقعة بين تور وبواتييه، وكان حال الجيش مدعاة لقلقـه العظيم؛ إذ كـانت الفصائـل القبليـة المثقلة بالغنائم، والتي تغمـر قلوبهـا البغضاء والشحناء، قد عصت أوامره، وأبت القيام بأي عمـل يستدعى اتحـادها ردحـاً من الـزمن، وكـانت فضـلاً عن ذلــك تتـوق إلى الانسحــاب متمسكـة بالأسلاب التي غنمتها في إبان زحفها نحو الشمال، والتي أحدثت تهاوناً عظيماً في صفـوفها، وأوهنت روح النـظام فيها. وطبيعي أن عبـد الرحمن كـان يخشى، كما كـان شارل يـرجو، أن تكـون الأسلاب وقت المعـركة عـائقاً خـطيراً يشلّ حـركة العـرب، ويسبب لهم الحرج، ولـذا فكر في حمـل الرجـال عـلى التخـلي عن الجـزء الأكـبر من الأسلاب، وفي الـوقت نفسه لم يشـأ أن يخلق روح السخط بالإصرار عـلى طاعـة أوامره. وكـانت نتيجة هـذا الضعـف إذا صـح أن يسمى ضعفـاً من أخطر النتائج، ذلك أن جيش شارل، وكان يتألـف من الفرسان والمشاة المـرتدين جلود الذئاب والمرسلين شعورهم المتجعـدة على أكتـافهم،اجتاز نهر اللوار على مسافة بضعة أميال من معسكر العرب. وبعد مناوشات طفيفة دامت أيـاماً عـدة رجحت فيها كفة العرب، دارت في اليوم التاسع معركة كبيرة استمرت حتى حال الـظلام بين الفـرقتين، وفي صبـاح اليوم التـالي استؤنف القتال بـين الفـرقتـين، فضـاعف الجنود المسلمـون من جهودهم، وكـادوا يفوزون بـالنصر عندمـا دوّت صرخـة تؤذن بأن الخـطر كان يتهـدد معسكـرهـم، بمـا فيـه من كنـوز، من كـل جـانب، فـتركـوا صفـوفهم، وأسرعـوا إلى الذود عن أسـلابهم، وعبثـاً حـاول عبد الرحمن أن يعيـد النظام إلى صفـوفهم، وذهبت جهوده أدراج الـرياح إلى أن أصابه سهم قاتل، فأثرموته في الجيش أسـوأ تأثـير، واغتنم العدو هـذه الفرصـة

فحمل على المسلمين حملة شديدة، ولكن هؤلاء عادوا فجمعوا صفوفهم، وانقضوا على العدو إلى أن أرخى الليل سدوله، فعاد كل من الفريقين إلى مواقعه.

الخصام بين القواد المسلمين

وما إن وصل العرب إلى معسكراتهم حتى نشبت نزاعات شديدة بين قواد عبد الرحمن، وشهر كل منهم سلاحه في وجه الآخر حتى أصبح النصر على الفرنجة غير وارد. كما أصبح التقهقر بسلام الطريق الوحيد المتبقي أمام المسلمين، ولذا سحب القواد المسلمون جنودهم تحت جنح الظلام باتجاه سبتمانية. وعند الفجر كان الهدوء مخيماً على معسكر المسلمين، مما حمل شارل وأودي على الظن بأن في الأمر خدعة؛ ولذا اقترب من معسكر المسلمين بهدوء وحذر، واستبد بهم الفرح عندما وجدوه خالياً خاوياً إلا من بعض الجرحى، الذين لم يستطيعوا أن يصحبوا الجيش المتقهقر، فانقضوا عليهم وذبحوهم ذبح النعاج، ولم يجرؤ شارل على تعقب المسلمين، فعاد أدراجه على الفور نحو الشمال» ا. هـ.

ومن أمراء اليمن الميامين بالأندلس ثوابة بن سلمة الحداني، الذي أطفأ الله به فتنة بين المضرية واليمانية. وكان قد أشعلها الخطار بن أبي الخطار، ودام حكم ثوابة للأندلس سنوات مملوءة بالخير والوئام بين جيش الإسلام. وحدان: بلد عاصر حتى اليوم شرقي رداع، وسيأتي قريباً إن شاء الله خبر القائد العظيم عنبسة بن سحيم الكلبي فاتح غربي أوربا إلى سويسرا.

المهلب بن أبي صفرة (٨ هـ - ٨٣ هـ)

لا يزال كلامنا متصلاً عن الفاتحين اليمنيين في العهد الأموي. وما ذكر أحد الخوارج في ذلك العهد إلا وبرز على التوّاسم المهلب كقامع لشوكتهم وحاصد لفلولهم، وهو المهلب بن أبي صفرة من أزد الخليج. وتذكر المراجع أن بلده تعرف باسم دبي، ولعلها المعروفة اليوم في اتحاد إمارات الخليج.

ولد على التحقيق قبل وفاة النبي ﷺ بسنتين، واستوطن مع قومه الأزد بالبصرة، وشارك في جيش سعيد بن عثمان بن عفان الذي افتتح خراسان، وسمرقند وما والاها، وفيها فقد عينه فقال:

لئن ذهبت عيني لقد بقيت نفسي   ففيها بحمد الله عن تلك ما ينسي

وكان مظهر براعته الحربية سنة ١٤٧ حين أحيط بجيش كان يقوده الحكم بن عمرو، فلما أعيته الحيلة أناط القيادة بالمهلب، فتمكن من أسر أحد عظماء الترك، وهدده بالقتل إلا أن يدلهم على طريق الخروج. فدلهم ونجا الجيش، وكانت له في دولة عبد الله بن الزبير مواقف مشهورة. وكثيراً ما كان عبد الله يأخذ برأيه في المواقف العصيبة. ولما استتب الأمر لعبد الملك بن مروان نشط الخوارج، واستولوا على الأهواز، وحاصروا البصرة، فضاق الخناق على أمير البصرة الذي رجع إلى الأحنف يلتمس مشورته. وإليك ما قاله محمد بن يزيد المبرد في (الكامل)، فانه قد ألم بالكثير من أخبار المهلب مما لم يدونه غيره. قال ص ٢٢٥:

«فقال الأحنف: الرأي لا يخيل ما أرى لها إلا المهلب بن أبي صفرة. فقال: أوهذا رأي جميع أهل البصرة؟ اجتمعوا إليّ في غد. وجاء الزبير حتى نزل القرآن، وعقد الجسر ليعبر إلى ناحية البصرة. فخرج أكثر أهل البصرة إليه وقد اجتمع للخوارج أهل الأهواز وكورها رغبة ورهبة. فأتاه البصريون في السفن وعلى الخيل ورجاله، فاسودت بهم الأرض، فقال الزبير لما رآهم: أبىٰ قومنا إلا اللواء. فقطعوا الجسر، وأقام الخوارج بالفرات بإزائهم، واجتمع الناس عند القباع، وخافوا الخوارج خوفاً شديداً، وكانوا ثلاث فرق، فسمى قوم المهلب، وسمى قوم مالك بن مسمع، وسمى قوم زياد بن عمرو بن الأشرف العتكي، فصرفهم، ثم اختبر ما عند مالك وزياد، فوجدهما متثاقلين عن ذاك، وعاد إليه من أشار بهما، وقالوا: قد رجعنا عن رأينا ما نرى لها إلا المهلب. فوجه الحارث إليه فأتاه، فقال له يا أبا سعيد قد ترى ما رهقنا من هذا العدو، وقد اجتمع

أهل مصرك عليك. وقال الأحنف: يا أبا سعيد، إنّا والله ما آثرناك بها، ولكننا لم نر من يقوم مقامك. فقال له الحارث وأومأ إلى الأحنف: إن هذا الشيخ لم يسمك إلا إيثاراً للدين، وكل من في مصرك ما دعينه إليك راج أن يكشف الله عز وجل هذه الغمة بك. فقال المهلب لا حول ولا قوة إلا بالله إني عند نفسي لدون ما وصفت، ولست آبياً ما دعوتم إليه على شروط اشترطها. قال الأحنف: قل. قال: على أن أنتخب من أحببت. قال: ذاك لك. قال: ولي إمرة كل بلد أغلب عليه. قال: وذاك لك. قال: ولي فيء كل بلد أظفر به. قال الأحنف: ليست ذاك لك ولا لنا، إنما هو فيء المسلمين، فمن سلبتهم إياه كنت عليهم كعدوهم، ولكن لك أن تعطي أصحابك من فيء كل بلد تغلب عليه مئتين، وتنفق على محاربة عدوك، فما فضل عنكم كان للمسلمين. فقال المهلب: فمن لي بذلك؟ قال الأحنف: نحن وأميرك وجماعة من أهل مصرك. قال: قد قبلت. فكتبوا بذلك كتاباً، ووضع على يدي الصلت بن حريث بن جابر الحنفي، وانتخب المهلب من جميع الأخماس، فبلغت نخبته اثني عشر ألفاً. ونظروا ما في بيت المال فلم يكن إلا مئتي ألف درهم فعجزت، فبعث المهلب إلى التجار أن تجارتكم منذ حَوْلٍ قد كسدت عليكم بانقطاع مواد الأهواز وفارس عنكم، فهلم فبايعوني، واخرجوا معي أوفكم، إن شاء الله حقوقكم. فتاجروه، فأخذ من المال ما يُصلح به عسكره، واتخذ لأصحابه الخفاتين والدانات المحشوة بالصوف، ثم نهض وأكثر أصحابه رجاله، حتى إذا صار بحذاء القوم أمر بسفن، فأحضرت وأصلحت، فما ارتفع النهار حتى فرغ منها، ثم أمر الناس بالعبور إلى الفرات، وأمر عليهم ابنه المغيرة، فخرج الناس، فلما قاربوا الشاطىء خاضت إليهم الخوارج، فحاربهم المغيرة ونضحهم بالسهام حتى تنحوا، فصار هو وأصحابه على الشاطىء، فحاربوهم، فكشفوهم وشغلوهم حتى عقد المهلب الجسر وعبر، والخوارج منهزمون، فنهى الناس عن اتباعهم.
ففي ذلك يقول شاعر من الأزد:

إن العراق وأهله لن يخبروا مثل المهلب في الحروب فسلموا
أمضى وأيمن في اللقاء نقيبه وأقل تهليلاً إذا ما أحجموا» ا.هـ

وحاول بعض عمال بني أمية الانتقاص من المهلب بعد أن أوقع بالخوارج، فحوله من قيادة الجيش إلى جباية المال. ولما علم الخوارج بذلك أعادوا الكرة، واشتد أمرهم على عبد الملك بن مروان، فنقم على عامله لتحويله المهلب إلى الجباية، وكان من خبر ذلك ما ذكره المبرد منه ص ٦١: «فكتب عبد الملك إلى خالد: أما بعد، فإني كنت حددت لك حداً في أمر المهلب، فلما ملكت أمرك نبذت طاعتي، واستبددت برأيك، فوليت المهلب الجباية، ووليت أخاك حرب الأزارقة، فقبح الله هذا رأياً، أتبعث غلاماً غراً لم يجرب الحروب، وتترك سيداً شجاعاً مدبراً حازماً، قد مارس الحروب تشغله بالجباية؟! أما لو كافأتك على قدر ذنبك لأتاك من نكيري ما لا بقية لك معه، ولكن تذكرت رحمك فثنتني عنك، وقد جعلت عقوبتك عزلك. وولى بشر بن مروان وهو بالكوفة، وكتب إليه أما بعد، فإنك أخو أمير المؤمنين يجمعك وإياه مروان بن الحكم، وإن خالداً لا مجتمع له مع أمير المؤمنين دون أمية، فانتظر المهلب، فوله حرب الأزارقة بثمانية آلاف رجل. فشق عليه ما أمره في المهلب، وقال: والله لأقتلنه، فقال له موسى بن نصير: إن للمهلب حفاظاً وبلاءً ووفاءً. وخرج بشر بن مروان يريد البصرة، فكتب موسى وعكرمة إلى المهلب أن يتلقاه لقاءً لا يعرفه به. فتلقاه المهلب على بغل، فسلم عليه في غمار الناس، فلما جلس بشر مجلسه قال: ما فعل أميركم المهلب؟ قالوا: تلقاك أيها الأمير وحيّاك. فهمّ بشر أن يولي حرب الأزارقة عمرو بن عبيد الله، فقال له أسماء بن خارجة: إنما ولاك أمير المؤمنين لترى رأيك. فقال له عكرمة بن ربعي: اكتب إلى أمير المؤمنين، وأعلمه علة المهلب. فكتب إليه يعلمه علة المهلب، وأن بالبصرة من يغني غناه، ووجهه بالكتاب مع وفد أوفدهم إليه رئيسهم عبد الله بن حكيم المجاشعي، فلما قرأ الكتاب خلا بعبد الله بن حكيم، فقال: إن لك ديناً ورأياً وحزماً، فمن لقتال

هؤلاء الأزارقة. قال: المهلب قال: إنه عليل. قال: ليست علته بما نعته. قال عبد الملك: أراد بشر أن يفعل ما فعل خالد. فكتب يعزم عليه أن يولي المهلب فوجهه إليه. وقال المهلب: أنا عليل ولا يمكنني الاختلاف. فأمر بشر بحمل الدواوين إليه، فجعل ينتخب، فاعترض بشر عليه، فاقتطع أكثر نخبته، ثم عزم أن لا يقيم بعد ثلاثة، وقد أخذت الخوارج الأهواز وخلفوها وراء ظهورهم، وصاروا بالفرات، فخرج إليهم المهلب حتى صار إلى شهارطاق، فأتاهم شيخ بني تميم، فقال: أصلح الله الأمير، إن سني ما ترى فهبني لعيالي. فقال: على أن تقول للأمير إذا خطب فحثكم على الجهاد: كيف تحثنا على الجهاد وأنت تحبس أشرافنا وأهل النجدة منا؟ ففعل الشيخ ذلك، فقال له بشر: ما أنت وذاك؟ قال لا شيء. وأعطى المهلب رجلاً ألف درهم على أن يأتي بشراً فيقول: أيها الأمير أعن المهلب بالشرطة والمقاتلة. ففعل الرجل ذلك، فقال له بشر: ما أنت وذاك؟ قال: نصيحة للأمير والمسلمين ولا أعود إلى مثلها. فأمره بالشرطة والمقاتلة، وكتب بشر إلى خليفته بالكوفة أن يعقد لعبد الرحمن بن مخنف على ثمانية آلاف من كل ربع ألفين، ويوجه به مدداً إلى المهلب. فلما أتاه الكتاب بعث إلى عبد الرحمن بن مخنف الأزدي فعقد له، واختار من كل ربع ألفين، فكان على ربع أهل المدينة بشر بن جرير البجلي، وعلى ربع تميم وهمدان عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني، وعلى ربع كندة وربيعة محمد بن إسحاق بن الأشعث الكندي، وعلى مذحج وأسد زحر بن قيس المذحجي. فقدموا على بشر فخلا بعبد الرحمن بن مخنف، فقال له: قد عرفت رأيي فيك وثقتي بك، فكن عند ظني، انظر هذا المخزومي فخالفه في أمره، وأفسد عليه رأيه. فخرج عبد الرحمن بن مخنف وهو يقول: ما أعجب ما طمع مني فيه هذا الغلام. يأمرني أن أصغر شيخاً من مشايخ أهلي، وسيداً من ساداتهم. فلحق بالمهلب، فلما أحس الأزارقة بدنوه منهم انكشفوا عن الفرات، فاتبعهم المهلب إلى سوق الأهواز، فنفاهم عنها، ثم تبعهم إلى رام هرمز فهزمهم منها، فدخلوا

فارس. وأبلى يزيد ابنه في وقائعه بلاءً حسناً، تقدم فيه وهو ابن إحدى وعشرين سنة. فلما صار القوم بفارس وجه إليهم ابنه المغيرة، فقال له عبد الرحمن بن صبح: أيها الأمير، ليس برأي قتل هذه الأكلب، ولئن والله قتلتهم لتقعدن في بيتك، ولكن طاولهم وكل بهم. فقال: ليس هذا من الوفاء» ا. هـ.

تلك هي كراهية بشر لقيادة المهلب، وذلك هو دفاع موسى بن نصير، وإكبار عبد الرحمن بن مخنف للمهلب. وقد صدق ابن مخنف في مواجهته للخوارج؛ إذ أنه لما حزب الأمر واشتدت وطأة الشراة على جيش ابن مخنف ذات ليلة، تقدم صوب الخوارج ومعه سبعون من القوم، فترجلوا جميعاً عن خيلهم، واستبسلوا حتى استشهدوا، رحمهم الله.

أما ما كان يدور من الرسائل بين المهلب وبين الحجاج،القائد العام للجناح الشرقي لدولة الإسلام، فطويل خبرها، ونكتفي من ذلك بالرسالتين التاليتين لنعرف اعتزاز المهلب بدينه وذاته وقومه، ومخاطبة القائد له، مخاطبة الند للند، فإنه كتب إلى المهلب من قبل الوقعة:

«أما بعد: فإنه بلغني أنك أقبلت على جباية الخراج، وتركت قتال العدو، وإني وليتك، وأنا أرى مكان عبد الله بن حكيم المجاشعي وعباد بن حصين الحبطي، واخترتك وأنت من أهل عمان، ثم رجل من الأزد، فالقهم يوم كذا في مكان كذا، وإلا أشرعت إليك صدر الرمح». فشاور بنيه فقالوا: إنه أمير، فلا تغلظ عليه في الجواب. فكتب إليه المهلب: «ورد عليّ كتابك. تزعم أني أقبلت على جباية الخراج، وتركت قتال العدو، ومن عجز عن جباية الخراج فهو عن قتال العدو أعجز. وزعمت أنك وليتني، وأنت ترى مكان عبد الله بن حكيم المجاشعي وعباد بن حصين الحبطي. ولو وليتهم لكانا مستحقين لذلك في فضلهما وغنائهما وبطشهما، وأخترتني وأنا رجل من الأزد، ولعمري إن شراً من الأزد لقبيلة تنازعها ثلاث قبائل لم تستقر في واحدة منهن. وزعمت أني ان لم

ألقهم في يوم كذا في مكان كذا أشرعت إلى صدرالرمح، فلو فعلت لقلبت إليك ظهر المجن، والسلام».

والحديث عن عبقرية المهلب العسكرية وحنكته الحربية يستغرق صفحات، فنكتفي بلقطة قصيرة عن حزمه وشجاعة ولده المغيرة (ومطرت السماء ليلة مطراً شديداً وهم بسابور، وبين المهلب وبين الشراة عقبة، فقال المهلب: من يكفينا هذه العقبة الليلة؟ فلم يقم أحد، فلبس المهلب سلاحه وقام إلى العقبة، واتبعه ابنه المغيرة. فقال رجل من أصحابه يقال له عبد الله: دعانا الأمير إلى ضبط العقبة والحظ في ذلك لنا، فلم نطعه، فلبس سلاحه واتبعه جماعة من أهل العسكر فصاروا إليه، فإذا المهلب والمغيرة لا ثالث لهما، فقالوا: انصرف أيها الأمير، فنحن نكفيك، إن شاء الله. فلما أصبحوا إذا بالشراة على العقبة، فخرج إليهم غلام من أهل عمان على فرس، فجعل يحمل وفرسه يزلق، وتلقاه مدرك بن المهلب في جماعة معه حتى ردهم. فلما كان يوم النحر، والمهلب على المنبر يخطب الناس، إذا الشراة قد تألبوا، فقال المهلب: سبحان الله أفي مثل هذا اليوم! يا مغيرة أكفنيهم. فخرج إليهم المغيرة بن المهلب وأمامه سعد بن نجد القردوسني، وكان سعد شجاعاً مقداماً في شجاعته، وكان المهلب إذا ظن بالرجل أن نفسه قد أعجبته قال له: لو كنت سعد بن نجد القردوسني ما عدا. (وقردوسن من الأزد)، فخرج أمام المغيرة، وتبع المغيرة جماعة من فرسان المهلب، فالتقوا وأمام الخوارج غلامٌ جامع للسلاح، مديد القامة، كريه الوجه، شديد الحملة، صحيح الفروسية، فأقبل يحمل على الناس وهو يقول:

نحن صبحناكم غداة النحر بالخيل أمثال الوشج تجدي

فخرج إليه سعد بن نجد القردوسني من الأزد، ثم تجاولا ساعة، فطعنه سعد، فقتله، والتقى الناس فصرع يومئذٍ المغيرة، فحامى عليه سعد بن نجد وانكشف الناس عند سقطة المغيرة، حتى صاروا إلى أبيه المهلب، فقالوا: قتل

المغيرة، ثم أتاه ذبيان السختياني فأخبره بسلامته، فأعتق كل مملوك كان بحضرته» ا. هـ.

هذا وقد تم للمهلب بعد إجهازه على الخوارج ولاية خراسان، وهو الذي يعرف اليوم بأفغانستان، وضمّ إليها سجستان، ولعلها اليوم من بلاد الهند. وتوفي ـ رحمه الله ـ سنة ثلاث وثمانين عن خمس وثمانين، قضاها مجاهداً فاتحاً، تضرب بحنكته الأمثلة، وتسير بأخباره الركبان. وله حكم مأثورة أضربنا عنها خشية الإطالة.

ومما يحسن إيراده هو خبر بشرى المهلب إلى الحجاج بالنصر، وما دار بينهما من حوار. قال ابن خلكان: «ولما هزم المهلب قطري بن الفجاءة المقدم ذكره، بعث إلى مالك بن بشير فقال: إني موفدك إلى الحجاج فسر، فإنما هو رجل مثلك. وبعث إليه بجائزة فردها وقال: إنما الجائزة بعد الاستحقاق. وتوجه، فلما دخل على الحجاج قال: ما اسمك؟ قال: مالك بن بشير. قال: ملك وبشارة، ثم قال: كيف تركت المهلب؟ قال: أدرك ما أمل وأمن ما خاف، قال: فكيف هو بجنده؟ قال: والد رؤوف، قال: كيف رضاهم عنه؟ قال: وسعهم بالفضل، وأقنعهم بالعدل. قال: كيف تصنعون إذا لقيتم عدوكم؟ قال: نلقاهم بجدنا فنقطع فيهم، ويلقوننا بجدهم فيطمعون فينا. قال: فما حال قطري بن الفجاءة؟ قال: كادنا بمثل ما كدناه به. قال: فما منعكم من اتباعه؟ قال: رأينا المقام من ورائه خير من اتباعه؟ قال: فأخبرني عن ولد المهلب. قال: رعاة البيات حتى يؤمنوه، وحماة السرح حتى يردوه. قال: أيهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم. قال: لتقولن، قال: هم كحلقة مفرغة لا يعلم طرفاها. قال: أقسمت عليك، أهل رويت في هذا الكلام؟ قال ما أطلع الله أحداً على غيبه. فقال الحجاج لجلسائه: هذا والله الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع.

المغيرة (٠٠ ـ ٨٢ هـ)

والمغيرة أنجب أولاد المهلب، وأقربهم منه حين الروع. قال عنه أبوه: «ما احتدم البأس وكلح الأبطال إلا رأيت المغيرة يبتسم». وقد مر بنا شيء من مواقفه منذ قليل. وكان استشهاده رحمه الله سنة ٨٢ هـ قبل وفاة أبيه بعام، فرثاه القريب والبعيد، وبكته كل العيون والقلوب. ومن أجمل ما رثاه به الراثون مرثاة لصديقه الحميم زياد الأعجم، تقف عليها فتحار فيها تختار منها. وهذه عشرة أبيات انتزعناها انتزاعاً من بين أمشاج القصيدة وأوشاجها:

قل للقوافل والغزاة إذا غزوا ... للباكرين وللمجد الرائح
إن السماحة والمروءة ضمنا ... قبراً بمرو وعلى الطريق الواضح
فإذا مررت بقبره فاعقر به ... كوم الهجام، وكل طرف سابح
وانضح جوانب قبره بدمائها ... فلقد يكون أخادم وذبائح
فعفت عنابره، وحط سروجه ... عن كل طامحة، وطرف طامح
تبكي المغيرة خيلنا ورماحنا ... والباكيات بدنة وتصايح
وأرى الصعالك للمغيرة ... أصبحت تبكي على طلق اليدين مسامح
كان الربيع لهم إذا انتجعوا ... الندى وخبت لوامع كل برق لائح

وصدق أمير شعراء العصر أحمد شوقي، فإن (صادق الحب يملي صادق الكلم).

وقصيدة أخرى لعبد الله بن أبي عيينة شديدة اللوعة، وملتهبة الأنفاس، التقطنا منها سبعة أبيات:

أبت إلا بكاء وانتحابا ... وذكراً للمغيرة واكتئابا
ألم تعلم بأن القتل وردٍ ... لنا كالماء حين صفا وطابا
جلبنا الخيل من بغداد شعثاً ... عوابس تحمل الأسد الغضابا
بكل فتى أغر مهلبي ... تخال بضوء صورته شهابا

فلما بلغت قرى كرمان حتى تخدد لحمها عنها فذابا
وكان لهن في كرمان يوماً أمر على الشراة بها الشرابا
وإنا تاركون غداً حديثاً بأرض السند سعداً والربابا

يزيد

أما يزيد فهو أكبر أولاد المهلب الثلاثين، وأكثرهم ارتباطاً بالأحداث بعد أبيه. ومجمل حياته أنه تولى بعد أبيه أمر خراسان، فأقره الحجاج فترة، ثم استقدمه وسجنه بسبب أموال استغرقها. ففر من السجن، ولحق بسليمان بن عبد الملك الذي أفلح بعد لأي في الحصول على عفو الوليد عنه. ثم مات الحجاج وبعده الوليد، وآل الأمر إلى سليمان، فأناط أمر العراق بيزيد، وهناك انتقم يزيد من آل الحجاج جزاء ما صنعه الحجاج بإخوته. وبعد حين أضاف إليه سليمان أمر خراسان، فأعاد جرجان وطبرستان، كما يسرد تفصيله من ابن كثير عن قريب. وغنم غنائم كثيرة، فبعث إلى سليمان يبشره ويعده بقافلة، أولها في دمشق وآخرها في خراسان. وشاء الله أن يموت سليمان، ويؤول الأمر إلى عمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنه ـ فطالبه بذلك. ولما تخلّف أمر باعتقاله وسجنه. وقدم ولده مخلد شافعاً إلى عمر فلم يقبل، ثم مات مخلد ووالده مسجون، فصلىٰ عليه عمر، وقال: مات خير فتيان العرب. ولما أحس يزيد بمرض عمر فر من السجن، وبعث إلى عمر يخبره أنه ما فر إلا خشية موته، وانتقال الأمر إلى يزيد بن عبد الملك الذي كان مصهراً إلى آل الحجاج. ويقال: إن عمر دعا عليه، وأن الحسن البصري كان ينقم إمارته. وأحسب يزيد بن المهلب أتي ـ والله أعلم ـ من قبل دعاء هذين العظيمين. فقتل كريماً في معركة فاصلة بينه وبين مسلمة بن عبد الملك. والحق: إن إسراف يزيد في العطاء هو الذي أركبه ذلك المركب الصعب. ومن أخباره النادرة التي تدل على فطرية الكرم فيه، وأنه طبع لا تطبع، ما رواه ابن خلكان. قال:

«قبض الحجاج على يزيد، وأخذه بسوء العذاب، فسأله أن يخفف عنه

العذاب على أن يعطيه كل يوم مئة ألف درهم، فإن أداها وإلا عذبه إلى الليل. قال: فجمع يوماً مئة ألف درهم يشتري بها عذابه في يومه، فدخل عليه الأخطل الشاعر فقال:

أبا مخلد بادت خراسان بعدكم وصاح ذوو الحاجات أين يزيد
فلا مِطر المروان بعدك مطرة ولا أخضر بالمروين بعدك عود
فما لسرير الملك بعدك بهجة ولا لجواد بعد جودك جود

قال: فأعطاه المئة ألف، فبلغ ذلك الحجاج، فدعا به وقال: يا مروزي، أكلّ هذا الكرم وأنت بهذه الحالة؟! قد وهبت لك عذاب اليوم وما بعده.

- حج يزيد بن المهلب، فطلب حلاقاً، فجاء فحلق رأسه، فأمر له بألف درهم، فتحير ودهش وقال: هذا الألف أمضي إلى أمي فلانة أشتريها. فقال: أعطوه ألفاً آخر. فقال: امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك. فقال: أعطوه ألفين آخرين.

- باع وكيل ليزيد بن المهلب بطيخاً جاءه من مغل بعض أملاكه بأربعين ألف درهم. فبلغ ذلك يزيد فقال له: تركتنا بقالين، أما كان في عجائز الأزد من تقسمه فيهن؟».

وعن خبر فتحه وحسن بلائه في الجهاد قال ابن كثير:

«وفيها غزا يزيد بن المهلب قهستان من أرض الصين، فحاصرها، وقاتل عندها قتلاً شديداً، ولم يزل حتى تسلمها، وقتل من الترك الذين بها أربعة آلاف صبراً، وأخذ منها من الأموال والأثاث والأمتعة ما لا يعد ولا يوصف كثرة وقيمة وحسناً، ثم سار منها إلى جرجان، فاستعان صاحبها بالديلم، فقدموا لنجدته، فقاتلهم يزيد بن المهلب وقاتلوه، فحمل محمد بن عبد الرحمن بن أبي سبرة الجعفي، وكان فارساً شجاعاً باهراً على ملك الديلم، فقتله وهزمهم الله. ولقد

بارز ابن أبي سبرة هذا يوماً بعض فرسان الترك، فضربه التركي بالسيف على البيضة فنشب فيها، وضربه ابن أبي سبرة فقتله، ثم أقبل إلى المسلمين وسيفه يقطر دماً، وسيف التركي ناشب في خوذته، فنظر إليه يزيد بن المهلب فقال: ما رأيت منظراً أحسن من هذا الرجل. قالوا: ابن أبي سبرة؟ فقال: نعم الرجل، لولا إنهماكه في الشراب. ثم صمم يزيد على محاصرة جرجان، وما زال يضيق على صاحبها حتى صالحه على سبع مئة ألف درهم، وأربع مئة ألف دينار، ومئتي ألف ثوب، وأربع مئة حمار موقرة بالزعفران، وأربع مئة رجل على رأس كل رجل ترس، على الترس طليسات، وجام من فضة، وسرفة من حرير. وهذه المدينة كان سعيد بن العاص فيها، فتحها صلحاً على أن يحملوا الخراج في كل سنة مئة ألف. وفي سنة مئتي ألف، وفي بعض السنين ثلاث مئة ألف، ويمنعون ذلك في بعض السنين، ثم امتنعوا جملة وكفروا، فغزاهم يزيد وردها صلحاً على ما كانت عليه في زمن سعيد بن العاص.

قالوا: وأصاب يزيد بن المهلب من غيرها أموالاً كثيرة جداً، فكان من جملتها تاج من جواهر نفيسة. فقال: أترون أحداً يزهد في هذا؟. قالوا: لا نعلمه، فقال: والله إني لأعلم رجلاً لو عرض عليه هذا أو أمثاله لزهد فيه. ثم دعا محمد بن واسع وكان في الجيش غازياً، فعرض عليه أخذ التاج، فقال: لا حاجة لي فيه، فقال: أقسمت عليك لتأخذنه، فأخذه وخرج به من عنده. فأمر يزيد رجلاً أن يتبعه، فينظر ماذا يصنع بالتاج؟ فمر سائل فأعطاه (التاج) بكماله وانصرف. فبعث يزيد إلى ذلك السائل، فأخذ منه التاج، وعوضه عنه مالاً كثيراً».

وقال ابن جرير: «كان يزيد بن المهلب في جرجان في مئة وعشرين ألف، منهم ستون ألف من جيش الشام أثابهم الله. وقد تمهدت تلك البلاد بفتح جرجان، وسلكت الطرق، وكانت قبل ذلك مخوفة جداً. ثم عزم يزيد على المسير إلى خوزستان، وقدم بين يديه سرية هي أربعة آلاف من سراة الناس.

فلما التقوا اقتتلوا قتالاً شديداً، وقتل من المسلمين في المعركة أربعة الاف. إنا لله وإنّـا إليه راجعون ـ ثم إن يزيـد عزم عـلى فتح البـلاد لا محالـة، ومـا زال حتى صالحه صاحبها وهو الاصبهبذ بمال كثير سبـع مئة ألف في كـل عام، وغـير ذلك من المتاع والرقيق». ا. هـ.

وهكـذا كان المهلب وولـده مساعـير حرب في سبيـل الله، ومساميـح جود وإحسان، مما جعل المؤرخين يعدونهم برامكة العهد الأموي. ولو رغب جامع في جمع ما قيل فيهم من جيد المـديح لأتـىٰ بمجلد. ومن خـير ما قيـل فيهم لعمر بن لجأ:

إن العـرانـين تلقـاهـا محسـدة ولا تـرى لـلئـام الـنـاس حسادا

لـو قيـل للمجـد حـد عنهم وخلهم بمـا احتكمت من الـدنيـا لما حـادا

إن المـكـارم أرواح يـكـون لهـا ال المهـلب دون الـنـاس أجسـادا

وللأسرة المهلبية بقية صالحة. في العهد العباسي، سنمر عليهـا في مكانها، إن شاء الله.

عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث

هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث سيـد كندة وابـن سيدهـا. أبوه محمـد سبط أبي قحـافة وخـاله الصـديق. وكفى بذلـك شرفاً قـاد الجيش فغزا بـه بلاد الترك، وكتب الله له الظفر في غزوته، ففتح الأقاليم القصية والمدن العصـيّة. ولما أدركه برد شـمال اسيا القـارص وحال تـراكم الثلوج بين جيشـه وبين المـزيد من الاقتحام، اتفق مع وجـوه الجيش وكان أكـثرهم من العلماء العبّاد حملة القـرآن، حتى كان يعرف لذلك بجيش القراء، اتفقوا عـلى استجمام الجيش المكـدود حتى إذا ما وصل الصيف واصلوا المسير، ولكن الحجاج لم يحسن مخـاطبة عبـد الرحمن وإنما أساء إليه، وطعن في أبيه وجده. فكانت الفتيلة التي أشعلت الضرام. وخير

من يخبرنا تلك الواقعة هو شيخ المحدثين والمفسرين والمؤرخين الإمام اسماعيل بن عمر بـن كثير قال:

«ثم رأى لأصحـابه أن يتقيـدوا حتى يتقـووا إلى العـام المقبـل، فكتب إلى الحجاج بذلك، فكتب إليه الحجـاج يستهجن رأيه في ذلـك، ويستضعف عقله، ويقرعه بالجبن والنكول عن الحروب، ويأمره حتماً بدخول بلاد رتبيل. ثم أردف بذلك بكتاب ثان ثم ثالث مع البريد، وكتب في جملة ذلك: يابن الحائك الغـادر المرتد، امض إلى مـا أمرتـك به من الإيغـال في أرض العدو وإلا حل بك مـا لا يطاق. وكان الحجاج يبغض ابن الأشعث ويقول: هو أهوج أحمق حسود، وأبوه الذي سلب أمير المؤمنين عثمان ثيابه وقاتله، ودل عبيد الله بن زياد على مسلم بن عقيـل حتى قتله، وجده الأشعث ارتـد عن الإسـلام. ومـا رأيتـه قط إلا هممت بقتله. ولما كتب الحجاج إلى ابن الأشعث بـذلك وتـرادفت إليه الـبرد بـذلـك، غضب ابن الأشعث وقـال: «يكتب إلي بمثل هـذا، وهو لا يصلح أن يكـون من بعض جنـدي، ولا من بعض خدمي لخـوره وضعف قوتـه؟ أما يـذكـر أبـاه من ثقيف هذا الماجن صاحب غزالة» يعني أن غزالة زوجة شبيب حملت على الحجاج وجيشه، فانهزموا منها وهي امرأة لما دخلت الكوفة.

ثم إنّ ابن الأشعث جمع رؤوس أهل العـراق وقال لهم: «إن الحجـاج قد ألحَّ عليكم. في الإيغال في بلاد العدو، وهي البلاد التي قد هلك فيهـا إخوانكم بـالأمس، وقد أقبـل عليكم فصل الشتـاء والبرد، فـانظروا في أمـركم، أمَّـا أنـا فلست مطيعه، ولا أنقض رأياً رأيته بالأمس». ثم قام فيهم خطيباً، فأعلمهم بما كان رأى من الرأي لـه ولهم، وطلب في ذلك من إصـلاح البلاد التي فتحـوها، وأن يقيموا بها حتى يتقووا بغلاتها وأموالهـا، ويخرج عنهم فصـل البرد. ثم يسـيرون في بلاد العدو فيفتحـونها بلداً بلداً، إلى أن يحصروا رتبيل ملك الـترك في مدينـة العـظماء. ثم أعلمهم بما كتب إليـه الحجاج من الأمـر بمعاجلة رتبيـل. فثار إليـه الناس وقالوا: لا بل نأبى على عدو الله الحجاج، ولا نسمع له ولا نطيع.

قال أبو مخنف: «حدثني مطرف بن عامر بن واثلة الكناني أن أباه كان أول من تكلم في ذلك، وكان شاعراً خطيباً، وكان مما قاله: إن مثل الحجاج في هذا الرأي ومثلنا كما قال الأول لأخيه احمل عبدك على الفرس، فإن هلك هلك، وإن نجا فلك. أنتم إذا ظفرتم كان ذلك زيادة في سلطانه، وإن هلكتم كنتم الأعداء البغضاء» ثم قالوا: اخلعوا عدو الله الحجاج [ولم يذكر واخلع عبد الملك] وبايعوا لأميركم عبد الرحمن بن الأشعث، فإنني أشهدكم أني أول خالع للحجاج. قال الناس من كل جانب: خلعنا عدو الله. ووثبوا إلى عبد الرحمن ابن الأشعث، فبايعوه عوضاً عن الحجاج، ولم يذكروا خلع عبد الملك بن مروان. وبعث ابن الأشعث إلى رتبيل فصالحه على أنه إن ظفروا بالحجاج فلا خراج على رتبيل أبداً، ثم سار ابن الأشعث بالجنود الذين معه مقبلاً من سجستان إلى الحجاج ليقاتله، ويأخذ منه العراق. فلما توسطوا الطريق قالوا: إن خلعنا للحجاج خلع لابن مروان، فخلعوهما وجددوا البيعة لابن الأشعث، فبايعهم على كتاب الله وسنة رسوله، وخلع أئمة الضلالة، وجهاد الملحدين. فإذا قالوا: نعم، بايعهم. فلما بلغ الحجاج ما صنعوا من خلعه وخلع ابن مروان، كتب إلى عبد الملك يعلمه بذلك، ويستعجله من بعث الجنود إليه. وجاء الحجاج حتى نزل البصرة، وبلغ المهلب خبر ابن الأشعث، وكتب إليه يدعوه إلى ذلك، فأبى عليه، وبعث بكتابه إلى الحجاج، وكتب المهلب إلى ابن الأشعث يقول له: «إنك يابن الأشعث قد وضعت رجلك في ركاب طويل، أبق على أمة محمد ﷺ، انظر إلى نفسك فلا تهلكها، ودماء المسلمين فلا تسفكها، والجماعة فلا تفرقها، والبيعة فلا تنكثها، فإن قلت: أخاف الناس على نفسي، فالله أحق أن تخافه من الناس، ولا تعرضها لله في سفك الدماء، أو استحلال محرم، والسلام عليك».

وكتب المهلب إلى الحجاج: «أما بعد، فإن أهل العراق قد أقبلوا إليك مثل السيل المنحدر عن علو ليس شيء يرده حتى ينتهي إلى قراره، وإن لأهل

العراق شدة في أول مخرجهم، وصبابة إلى أبنائهم ونسائهم، فليس شيء يردهم حتى يصلوا إلى أهليهم، وينبسطوا إلى كنائسهم، ويشمـوا أولادهم، ثم واقعهم عندها، فإن الله ناصرك عليهم، إن شاء الله». فلما قرأ الحجاج كتابه قال: فعل الله بـه وفعل، لا والله مـا لي نظر، ولكن لابن عمـه نصح. ولـما وصل الـبريـد بكتاب الحجاج فقـال: يا أمير المؤمنين إن كـان هذا الحـديث من قبل خـراسان فأخفه، وإن كان من قبل سجستان فلا تخفه. ثم أخذ عبد الملك في تجهيز الجنود في الشام إلى العـراق في نصـرة الحجـاج وتجهيـزه في الخـروج إلى ابن الأشعث، وعصى رأى المهلب فيما أشار به إليه، وكان في شوره النصح والصدق. وجعلت كتب الحجاج لا تنقطع عـن عبد الملك بخـبر ابن الأشعث صباحـاً ومساءً، أين نزل، ومن أين ارتحل، وأي النـاس إليه أسرع. وجعـل الناس يلتفـون على ابن الأشعث من كل جانب، حتى قيل إنه سار معه ثلاثة وثـلاثون ألف فـارس ومئة وعشرون ألف رجـل. وخـرج الحجـاج في جنـود الشـام من البصرة نحـو ابن الأشعث، فنزل، وقدم بـين يديـه مطهـر بن حيي الكعبي أميراً عـلى المقـدمـة، ومعه عبد الله بـن زميت أميراً آخر، فانتهوا إلى دجيل، فإذا مقدمة ابن الأشعث في ثلاث مئة فارس، عليها عبـد الله بن أبان الحـارثي. فالتقـوا في يوم الأضحى عند نهر دجيل، فهزمت مقدمة الحجاج، وقتل أصحاب ابن الأشعث منهم خلقاً كثيراً نحو ألف وخمس مئة، واحتازوا ما في معسكرهم؛ من خيول وقماش وأموال، وجاء الخبر إلى الحجاج بهزيمـة أصحابـه، وأخذه مـا دب ودرج، وقد كـان قائـماً يخـطب فقال: يـا أيها النـاس، ارجعوا إلى البصرة، فـإنه أرفق بـالجند. فـرجـع بالناس، وتبعهم خيول ابن الأشعث، لا يدركون منهم شاذاً إلا قتلوه، ولا فـاذاً إلا أهلكوه. ومضى الحجاج هـارباً لا يلوي عـلى شيء حتى أتى الزاويـة فعسكر، وجعل يقول: «لله در المهلب أي صاحب حرب هذا. وقد أشـار علينا بـالرأي، ولكنا لم نقعد». وأنفق الحجاج على جيشه وهو بهذا المكان مئة وخمسين ألف ألف درهم، وحفر حول جيشه خندقاً، وجاء أهل العراق، فدخلوا البصرة،

واجتمعوا بأهاليهم ونسائهم وأولادهم، ودخل ابن الأشعث البصرة فخطب الناس بها، وبايعهم وبايعوه على خلع عبد الملك، ونائبه الحجاج بن يوسف، وقال لهم ابن الأشعث: ليس الحجاج بشيء، ولكن اذهبوا بنا إلى عبد الملك لنقاتله. ووافقه على خلعهما جميع من في البصرة، من الفقهاء والقراء والشيوخ والشباب. ثم أمر ابن الأشعث بخندق حول البصرة، فعمل ذلك، وكان ذلك في أواخر ذي الحجة من هذه السنة» ا. هـ.

وقد انتهى الأمر بعد هزيمة جيشه، بانحيازه مع من بقي من قومه إلى أقاصي أرض الترك والديلم مدة، ثم قتل رحمه الله.

(الجراح بن عبد الله الحكمي) (٠٠ - ١١٢ هـ)

وهو من الحكم بن سعد العشيرة من مذحج

كان أحد قادة الجيوش في العهد الأموي، وقد بعثه الحجاج إلى المهلب أيام قمعه للخوارج. وحين استدعى عمر بن عبد العزيز يزيد بن المهلب وسجنه، قام الجراح بأخذ الجزية من أهل الذمة الذين دخلوا في دين الإسلام، فاستقدمه عمر ووبخه على ما فعل، ولكنه عاد فعهد إليه بأمر أرمينية، وهي اليوم إحدى مقاطعات الإتحاد السوفيتي، فنهض بالأمر، وأقام العدل، واستتب به أمن البلاد ورخاؤها، ثم حدثت مواجهات مع بقية الجهات التي استمرت في كفرها، فاستخلف الجراح أخاه الحجاج على أرمينية وخرج مجاهداً. وفي ذلك يقول ابن الأثير:

«في هذه السنة يعني سنة اثنتي عشرة ومئة قتل الجراح بن عبد الله الحكمي، وسبب ذلك ما ذكرناه قبل، من دخوله بلاد الخزر، فلقيهم الجراح بن عبد الله فيمن معه من أهل الشام، فاقتتلوا أشد قتال رآه الناس. وتصبر الفريقان، وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين، فاستشهد الجراح ومن كان معه بمرج أردبيل، فكان أن استخلف أخاه الحجاج بن عبد الله على أرمينية. ولما قتل الجراح طمع الخزر، وأوغلوا في البلاد حتى قاربوا الموصل، وعظم الخطب

على المسلمين. وكان الجراح خيّراً فاضلاً من عمّال عمر بن عبد العزيز، ورثاه كثير من الشعراء، وقيل: كان قتله ببلنجر. ولما بلغ هشاماً خبره دعا سعيداً الجرشي، فقال له: بلغني أن الجراح قد انحاز عن المشركين. قال: كلا، يا أمير المؤمنين، الجراح أعرف بالله من أن ينحاز، ولكنه قتل».

عنبسة بن سحيم الكلبي (٠٠ - ١٠٧ هـ)

قال خير الدين الزركلي في الأعلام: «عنبسة بن سحيم الكلبي: فاتح من الغزاة الشجعان. كان عامل الأندلس في أيام هشام بن عبد الملك. وليها ١٠٣ سنة، وأوغل في غزو الفرنج. ويرى إيزيدور أسقف باجة في ذلك العصر أن فتوحات عنبسة كانت فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة. وقال المستشرق رينو: لذلك تضاعف في أيامه خراج بلاد الغال، وافتتح قرقشونة صلحاً بعد أن حاصرها مدة، وأوغل في بلاد فرنسا، فعبر نهر الرون إلى الشرق، وأصيب بجراحات في بعض الوقائع فكانت سبب وفاته سنة ١٠٧ هـ» ا.هـ. وذكر سيد أمير علي عنه قريباً مما ذكره الزركلي مع شيء من التفصيل.

ويذكر بعض المؤرخين أن حملة عنبسة أوغلت في شمال فرنسا حتى وصلت (نوشاتل) القريبة من الحدود السويسرية، وهي أقصى ما بلغ إليه فاتح عربي في أوروبا.

وكما كان عنبسة تلميذاً للسمح الخولاني، فإنه كان أستاذاً لعبد الرحمن الغافقي الذي تلاه في حكم الأندلس.

العهد العباسي

ويشمل العهد العباسي في مفهومنا هنا الحكم الأموي في الأندلس، والعبيديين في شمال إفريقيا، والأيوبيين من بعدهم، مندرجاً فيه أيضاً دولتا المعافريين وآل باديس في الأندلس وأفريقيا، وكلتاهما أنشأتهما أسرتان يمنيتا

الأرومة، مندرجاً فيه أيضاً الدول المتعاقبة في داخل اليمن، من زيادية إلى يعفرية إلى نجاحية إلى صليحية، فالأيوبية فالرسولية. ولقد كان لليمن في انتقال الحكم من أمية إلى آل العباس باع طويل، فإن خمسة نقباء من بين الاثني عشر نقيباً المؤسسين للدعوة العباسية كانوا يمنيين، أربعة من طيء وواحد من خزاعة. وكان أبو سلمة الخلال أحد رجال اليمن، بل أشهرهم في وقته بالعراق. هو الحاضن للأسرة العباسية، والمتبني لكل شؤونها من يومها الأول، كما سنفصله في مكانه إن شاء الله.

ولما استتب أمر العباسيين قامت بين أبي جعفر المنصور مؤسس الدولة وولده المهدي من بعده، وبين اليمن مصاهرة وثقت العلاقة، وضاعفت من متانة الصلة، فكان يزيد بن منصور الحميري خالاً للمنصور، كما كان أبو رجاء الغطريف الجرشي الحميري خالاً لأشهر ملك من ملوك الإسلام هو هارون الرشيد.

وفي خلافة المأمون قامت إمارة يمنية الأرومة أسسها طاهر بن الحسين الخزاعي هذا خارج اليمن، أما داخله فقد تعاقب عليه عمال عباسيون كثيرون، امتاز ثلاثة منهم بالخير وحسن الأحدوثة، أولهم: محمد بن خالد البرمكي الذي أدخل كثيراً من الإصلاحات، وحقق كثيراً من المبرات أشهرها إجراء الغيل الذي عرف بالغيل البرمكي، جنوب صنعاء، من ماله الخاص. وكان رفيقاً بالرعايا، محسناً إليهم. وثانيهم: أبو رجاء الغطريف خال الرشيد الذي حسم فتناً أهلية، وأعاد وئام القبائل وإخاءهم. وثالثهم: هو عبد الله بن علي الخزاعي الذي وإن لم تطل مدته، فقد تم خلالها على قصرها خير كثير.

وفي الجانب الآخر، كان هناك عمال عباسيون اقترن عهدهم بالفتن وسفك الدماء وانتشار المآسي، أولهم: معن بن زائدة الشيباني الذي أوقع بالألوف في حضرموت استئصالاً لدعوة عبد الله بن يحيىٰ الكندي، الذي عرف باسم

(طالب الحق). وعسى أن يكون معناً البطل الإسلامي الكريم العربي بريئاً مما نسب إليه من قسوة، وحسبه أن حياته ختمت على يد أولئك المتقمين لدماء آبائهم.

أمّا الثاني: فهو حماد البربري الذي كان بربرياً حقاً في فتكاته، التي أثارت الهيصم بن عبد الحميد. وثالثهم وإن لم يكن من عمال العباسيين، وإنما كان خارجاً على دولتهم، فهو إبراهيم بن موسى الطالبي المعروف بالجزار.

ولقد شهد القرن الثالث أحداثاً مصيرية ذات أثر مديد في تاريخ اليمن. ففي بدايته قامت الدولة الزيادية، واختطت (زبيد) أشهر مدينة يمنية أنشأت في عهد الإسلام، وفي آخره ظهرت الحركة الشيعية بقيام الإمام الهادي يحيىٰ بن الحسين، والحركة الباطنية بقيادة علي بن الفضل ومنصور بن حوشب. وما تلا ذلك من الأحداث والممالك.

هذا ونظراً لطول العهد العباسي الذي اتصل لأكثر من خمسة قرون، واشتماله على رقعة الاسلام، فطبيعي أن يكون لليمن دور ريادي علمياً وقيادياً. وسنرى تفصيله فيما يلي من الصفحات إن شاء الله، مقتصرين في ذكرنا لأولىٰ الريادات العلمية، وذوي المقامات العبادية، من ذوي الانتماء اليمني الخالص، مضربين عن ذكر اليمنيين بالولاء لاتساع وكثرة من كانوا موالين لليمن، وفيهم أعلام كبار من علماء الأمة، أمثال: محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي بالولاء. وجعف قوم من مذحج لا تزال لهم بقية في الشمال. والحافظ حماد بن الأزدي، وشعبة بن حجاج، وعبد الرحمن بن مهدي الذي وضع الإمام الشافعي له رسالته المشهورة في علم الأصول، وكلاهما من كبار أئمة الحديث، ومن المتصلين باليمن بالولاء. ولمن أراد التوسع والاطلاع على ضخامة عدد هذا الصنف الرجوع إلى (التذكرة) للذهبي، فقد أورد منهم العشرات.

وإذا كنا قد مررنا بالعهد الأموي بعلماء أعلام وربانيين هداة قدمتهم

اليمن للأمة، فسنرى في العهد العباسي وقد احتفظت اليمن بسبقها وريادتها، والحمد لله، فكان لها مثلاً في مجال أصول الفقه وفرعه أئمة كانت لهم مذاهب انتشرت في الأمصار، كأبي ثور إبراهيم بن خالد الكلبي وعبد الرحمن الأوزاعي، ومالك بن أنس الأصبحي وأبي يوسف البجلي صاحب أبي حنيفة، وأبي جعفر الطحاوي الأزدي.

وكان لها في مجال الحديث: معمر بن راشد الأزدي وعبد الرزاق بن همام الصنعاني وأبو داود السجستاني الأزدي، وأبو محمد البيهقي الباذاني والقاضي عياض بن عياض اليحصبي، وأبو قرة موسى بن طارق اللحجي ومحمد بن يحيىٰ العدني وعبثر بن القاسم الزبيدي وحيوة بن شريح الكندي، وأمثالهم.

كما كان لليمن في التفسير والتجويد واللغة والأدب والفلسفة أفذاذ مبرزون، سنقف على تفاصيل خبرهم في مكانه. وإنما هذا هو التعريف المجمع والتطواف والعابر كتمهيد بين يدي تراجمهم، التي اعتمدنا الكتب السابقة في العهد الأموي مراجع عنهم، وإلى جانبها مراجع أخرى.

الإمام الأوزاعي (٨٨ هـ - ١٥٧ هـ)

نبتدىء بهذا الإمام المجمع على جلالة شأنه وعلو مكانته. ولا يكاد يخلو مرجع من ترجمته، مبتدئين بما ترجمه النووي عنه في (التهذيب)، لأنه أولاً أقدم المراجع لدينا تاريخاً، ولأنه استعرض الخلاف حول يمنية الأوزاع. «هو عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد، بضم المثناة من تحت وكسر الميم. الأوزاعي الإمام المشهور. كنيته أبو عمرو الشامي الدمشقي. كان إمام أهل الشام في عصره بلا مدافعة ولا مخالفة، كان أهل الشام والمغرب على مذهبه قبل انتقالهم إلى مذهب مالك بن أنس رحمه الله. كان يسكن دمشق خارج باب الفراديس، ثم تحول إلى بيروت، وسكنها مرابطاً إلى أن مات بها. وهو من تابعي التابعين، سمع جماعات من التابعين، كعطاء بن أبي رباح وقتادة ونافع مولى ابن عمر

والزهري ومحمد بن المنكدر، وغيرهم. وروى عنه جماعة من التابعين وشيوخه، كقتادة والزهري ويحيى بن أبي كثير، وجماعات من أقرانهم، وكبار العلماء كسفيان ومالك وشعبة وابن المبارك وخلائق لا يحصون.

واختلفوا في الأوزاع التي نسب إليها، فقيل: بطن من حمير، وقيل: من همْدان، بإسكان الميم، وقيل: الأوزاع نسبة إلى أوزاع القبائل، أي فرقها، وبقايا مجتمعه من قبائل شتى.

روينا عن الإمام الحافظ الحاكم أبي أحمد محمد بن محمد بن إسحاق، وهو شيخ الحاكم بن عبد الله بن البيع النيسابوري. قال: هو منسوب إلى الأوزاع من حمير. قال: وقيل الأوزاع قرية بدمشق خارج باب الفراديس. قال: وعرضت القول على أحمد بن عمير، يعني ابن جَوْصا، بفتح الجيم وإسكان الواو وبالصاد المهملة. قال: وكان علامة بحديث الشام وأنساب أهلها، فلم يرضه. وقال: إنما قيل الأوزاعي لأنه من أوزاع القبائل. وبلغنا عن الهيثم بن خارجة قال: سمعت أصحابنا يقولون: ليس هو من الأوزاع، إنما كان ينزل قرية الأوزاع. وقال الإمام أبو سليمان محمد بن عبد الله الربعي - بفتح الراء الموحدة - قال ضمرة الأوزاعي حميري الأوزاع، من قبائل شتى. قال الربعي: وذكره ابن أبي خيثمة في تاريخه فقال: بطن من همدان، ولم ينسب هذا القول إلى أحد. قال الربعي: فليس هو بصحيح، وقول ضمرة أصح؛ لأنه وقع على موضع مشهور بربض دمشق يعرف بالأوزاع، سكنهم في صدر الإسلام بقايا من قبائل شتى. وقال محمد بن سعد: الأوزاع بطن من همدان، والأوزاعي من أنفسهم. وفيه خلاف كثير حذفته لعدم الضرورة إليه.

وُلد الأوزاعي - رضي الله عنه - سنة ثمان وثمانين من الهجرة، ومات سنة سبع وخمسين ومئة قال أبو زرعة الدمشقي: كان اسم الأوزاعي عبد العزيز، فسمي نفسه عبد الرحمن. قلت: وقد أجمع العلماء على إمامة الأوزاعي وجلالته،

وعلو مرتبته وكمال فضله. وأقاويل السلف ـ رحمهم الله ـ كثيرة ومشهورة، مصرحة بورعه وزهده وعبادته، وقيامه بالحق وكثرة حديثه وغزارة فقهه، وشدة تمسكه بالسنة وبراعته في الفصاحة، وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له واعترافهم بمرتبته. وروينا عن هِقل، بكسر الهاء وإسكان القاف، وهو أثبت الناس بالرواية عند الأوزاعي. قال: أجاب الأوزاعي ونحن عند القبر يقول: رحمك الله أبا عمرو، فقد كنت أخافك أكثر ممن ولاني. وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: ما كان بالشام أحد أعلم بالسنة من الأوزاعي. وعن محمد بن شعيب قال: قلت لأمية بن يزيد أين الأوزاعي من مكحول. قال: هو عندنا أرفع من مكحول. قلت له: إن مكحولاً قد رأى أصحاب النبي ﷺ. قال: وإن كان قد رآهم، فإن فضل الأوزاعي في نفسه، فقد جمع العبادة والورع والقول بالحق. وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: الأئمة في الحديث أربعة: الأوزاعي ومالك وسفيان الثوري وحماد بن زيد وكان من سفيان أنه لما بلغه مقدم الأوزاعي فخرج حتى لقيه بذي طوى، فحل سفيان رأس البعير عن القطار، ووضعه على رقبته. وكان إذا مر بجماعة قال: الطريق للشيخ. وذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في الطبقات أن الأوزاعي سئل عن الفقه، يعني استفتي وله ثلاث عشر سنة. وأقوال السلف في أحواله كثيرة.

وكان مولده ببعلبك ومات في حمام بيروت، دخل الحمام فذهب الحمامي في حاجته، وأغلق عليه الباب، ثم جاء ففتح الباب فوجده ميتاً متوسداً يمينه مستقبل القبلة، رضي الله عنه» ا. هـ.

وعن الأوزاع ونسبتها إلى اليمن يقول أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني في المجلد الثاني من (الإكليل) ص ١٦٠: «قال الإبراهي ومالك بن يزيد وهو الأوزاع. قال أبو محمد: الأوزاع من ولد ابن أخيه يزيد بن مالك بن يزيد. فأولد مرثد بن زيد مرسا وجُبُل وحيلة، وإنما أتى الإشكال بين حيلة بن مرثد وحيلة بن يزيد أبي الأوزاع» ا. هـ. وفي (التذكرة) للذهبي أن الأوزاعي كان

مرابطاً في الثغور. وقال بعد كلام كثير: «ولد ببعلبك، وربي يتيماً فقيراً في حجر أمه، تعجز الملوك أن تؤدب أولادها أدبه في نفسه، ما سمعت منه كلمة فاضلة إلا احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه، ولا رأيته ضاحكاً يقهقه. ولقد كان إذا أخذ في ذكر المعاد أقل أن ترى في المجلس قلباً لم يبك. قال أيوب بن سويد: خرج الأوزاعي في بعث إلى اليمامة، فقال له يحيى بن أبي كثير: بادر إلى البصرة لتدارك الحسن وابن سيرين. قال: فانطلقت فإذا الحسن قد مات، وعدت ابن سيرين وهو مريض وقال الهقل: أجاب الأوزاعي في سبعين ألف مسألة. وقال إسماعيل بن عياش: سمعتهم يقولون سنة أربعين ومئة: الأوزاعي اليوم عالم الأمة. وقال الخريبي: كان الأوزاعي أفضل أهل زمانه. قلت: وكان يصلح للخلافة. فقال أبو إسحاق الفزاري: لو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي. قال بشر بن المنذر: ما رأيت أكثر إجتهاداً في العبادة منه. وقال أبو مسهر: كان الأوزاعي يحيى الليل صلاة وقرآناً وبكاء، والوليد بن مزيد قال: سمعت الأوزاعي يقول: إذا أراد الله بقوم شراً فتح عليهم الجدل، ومنعهم العمل. وقال عمرو بن أبي سلمة: سمعت الأوزاعي يقول: رأيت كأن ملكين عرجا بي إلى الله، فأوقفاني بين يديه، فقال: أنت عبدي عبد الرحمن الذي تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر، قلت: بعزتك ربي. فردّاني إلى الأرض. وقال محمد بن كثير المصيصي: سمعت الأوزاعي يقول: كنا والتابعون متوافرون نقول: إن الله تعالى فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته، قال الحاكم: الأوزاعي إمام عصره عموماً، وإمام أهل الشام خصوصاً. وقال الوليد بين مزيد: مولد الأوزاعي ببعلبك ومنشؤه بالكرك، قرية بالبقاع، ثم نقلته أمه إلى بيروت. سمعته يقول: عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه بالقول، فإن الأمر ينجلي، وانت على طريق مستقيم. قال عامر بن سياق: سمعت الأوزاعي يقول: إذا بلغك عن رسول الله ﷺ حديث فإياك أن تقول بغيره، فإنه كان مبلغاً عن الله. قال أبو إسحاق

الفزاري عن الأوزاعي كان يقول: خمسة كان عليها الصحابة والتابعون لـزوم الجماعة واتباع السنة وعمارة المساجد والتلاوة والجهاد. وقال ابن شابور: سمعت الأوزاعي يقول: ما ابتدع رجل بدعة إلا سلب ورعه. قال الوليد بن مزيد: سمعت الأوزاعي يقول: كان يقال: ويل للمتفقهين لغير العبادة، والمستحلين الحرمات بالشبهات. وقال محمد بن خلف بن المزربان: أنبأنا محمد بن هارون أبو نسيط الفريابي قال: اجتمع سفيان والأوزاعي وعباد بن كثير بمكة، فقال سفيان: يا أبا عمرو حدثنا حديثك مع عبد الله بن علي، [يعني عم السفاح]. فقال: لما قدم الشام وقتل بني أمية جلس يوماً على سريره، وعبّى أصحابه أربعة أصناف: صنف بالسيوف المسللة، وصنف معهم الجرزة، وصنف معهم الأعمدة، وصنف معهم الكانركون. ثم بعث إليّ، فلما صرت إلى الباب أنزلوني عن دابتي، وأخذ اثنان بعضدي، وأدخلوني بين الصفوف حتى أقاموني بحيث يسمع كلامي، فقال لي: أنت عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي؟ قلت: نعم، أصلح الله الأمير. قال: ما تقول في دماء بني أمية؟ قلت: قد كان بينك وبينهم عهود، وكان ينبغي أن تفوا بها، قال: ويحك اجعلني وإياهم لا عهد بيننا، فأجهشت نفسي وكرهت القتل، فذكرت مقامي بين يدي الله فلفظتها وقلت: دماؤهم عليك حرام. فغضب، وانتفخت أوداجه، واحمرت عيناه، فقال لي: ويحك، ولم؟ قلت: قال رسول الله ﷺ: لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: ثيب زان، ونفس بنفس، وتارك لدينه، قال: ويحك، أوليس الأمر لنا ديانة؟ قلت: كيف ذاك؟ قال: أليس كان رسول الله ﷺ أوصى لعلي؟ قلت لو أوصى إليه لما حكم الحكمين. فسكت وقد اجتمع غضباً، فجعلت أتوقع رأسي يسقط بين يدي، فقال بيده هكذا أومى أن أخرجوه، فخرجت فما بعدت حتى لحقني فارس، فنزلت وقلت: قد بعث ليأخذ رأسي. أصلي ركعتين، فكبرت، فجاء وأنا أصلي فسلم وقال: إن الأمير بعث إليك هذه الدنانير. قال: ففرقتها قبل أن أدخل بيتي».

أبو سلمة الخلال (۰۰ ـ ۱۳۲ هـ)

توسع ابن خلكان في وفيات الأعيان في ترجمته فقال:

«أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال الهمداني مولى السبيع، وزير أبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس، وأبو سلمة أول من وقع عليه اسم الوزير، وشهر بالوزارة في دولة بني العباس، ولم يكن من قبله أحد يعرف بهذا النعت، لا في دولة بني أمية، ولا غيرها من الدول. وكان السفاح يأنس به، لأنه كان ذا مفاكهة حسنة. وممتعاً في حديثه، أديباً عالماً بالسياسة والتدبير، وكان ذا يسار، ويعالج الصرف بالكوفة، وأنفق أموالاً كثيرة في إقامة دولة بني العباس، وصار إلى خراسان في هذا المعنى.

وأبو مسلم الخراساني يومئذ تابع له في هذا الأمر، وكان يدعو إلى بيعة إبراهيم الإمام أخي السفاح. فلما قتل مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية بحران وانقلبت الدعوة إلى السفاح، توهموا من أبي سلمة المذكور أنه مال إلى العلويين، فلما ولي السفاح واستوزره بقي في نفسه شيء منه. فيقال إن السفاح سير إلى أبي مسلم وهو بخراسان يعرفه بفساد نية أبي سلمة، ويحرضه على قتله. ويقال: إن أبا مسلم لما أطلع على ذلك كتب إلى السفاح، وعرفه بحاله، وحسن له قتله. فلم يفعل، وقال: هذا الرجل بذل ماله في خدمتنا ونصحنا، وقد صدرت منه هذه الذلة فنحن نغتفرها له. فلما رأى أبو مسلم امتناعه من ذلك، سير جماعة كمنوا له ليلاً وكانت عادته أن يسمر عند السفاح، فلما خرج من عنده. وهو في مدينته بالأنبار ولم يكن معه أحد، وثبوا عليه وخبطوه بأسيافهم، وأصبح الناس يقولون: قتله الخوارج. وكان قتله بعد خلافة السفاح بأربعة أشهر. وولي السفاح الخلافة ليلة الجمعة ثالث عشر ربيع الآخر سنة اثنتي وثلاثين ومئة، ولما سمع السفاح أنشد:

إلى النار فليذهب ومن كان مثله على أي شيء فاتنا منه نأسف»

وذكر في كتاب (أخبار الوزراء) وأن قتله كان في رجب سنة اثنتين وثلاثين ومئة، وكان أبو سلمة يقال له: وزير آل محمد، فلما قتل عمل في ذلك سليمان بن المهاجر البجلي.

إن المساءة قد تسر، وربما كان السرور بم كرهت جديداً
إن الوزير وزير آل محمد أودى فمن يشناك كان وزيداً

ولم يكن خلالاً، وإنما كان منزله بالكوفة في حارة الخلالين، فكان يجلس عندهم لقرب داره منهم فسمي خلالاً.

الإمام مالك بن أنس الأصبحي (٩٣ - ١٧٩ هـ)

قال الامام محيي الدين النووي في تهذيب الأسماء مترجماً له: هو أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن غيمان - بالغين المعجمة والياء والمثناة تحت ابن خثيل المعجمة المضمومة وفتح الثاء المثلثة ابن عمرو بن الحارث، وهو ذو أصبح الأصبحي المدني، امام دار الهجرة وأحد أئمة المذاهب المتبوعة وهو من تابعي التابعين. سمع نافعاً مولى ابن عمر، ومحمد بن المنكدر، وأبا الزبير والزهري، وعبد الله بن دينار وأبا حازم، وخلائق آخرين من التابعين. روى عنه يحيىٰ الأنصاري والزهري وهما من شيوخه، وابن جريج ويزيد بن عبد الله بن الهادي والأوزاعي والنوري، وابن عيينة وشعبة والليث بن سعد، وابن المبارك وابن علية والشافعي وابن وهب، وإبراهيم بن هيمان والقعنبي وعبد الله بن يوسف وعبد الله بن نافع، ويحيى القطان وعبد الرحمن بن مهدي ومعن بن عيسى، وعبد الرحمن بن القاسم الحنفي الضمري، وابن عاصم النبيل وروح بن عبادة والوليد بن مسلم، وأبو عامر العقدي ويحيى بن يحيىٰ ويحيى بن عبد الله بن بكير، وعبد العزيز الأوسي وقتيبة وسعيد بن مريم وسعيد بن كثير بن عفر، ومطرف بن عبد الله السياري وورقاء بن عمرو، وخلائق آخرون. وأجمعت طوائف على إمامته وجلالته وعظم

سيادته، وتبجيله وتوقيره، والإذعان له في الحفظ والتثبيت، وتعظيم حديث رسول الله ﷺ:

قال البخاري: أصح الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر. وفي هذه المسألة خلاف وسبق مرات فعلى هذا المذهب. قال الإمام أبو منصور التميمي أصحها الشافعي عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ: وقال سفيان ما كان أشد انتقاد مالك للرجال. وقال ابن المديني: لا أعلم.مالكاً ترك إنساناً إلا من في حديثه شيء. قال أحمد بن حنبل وابن معين وابن المديني: أثبت أصحاب الزهري مالك. وقال أبو حاتم: مالك ثقة، وهو إمام أهل الحجاز، وهو أثبت أصحاب الزهري. وقال الشافعي: إذا جاء الأثر فمالك النجم. وقال الشافعي أيضاً: لولا مالك وسفيان بن عيينة لذهب علم أهل الحجاز. وكان مالك إذا شك في شيء من الحديث تركه كله. وقال أيضاً: مالك معلمي، وعنه أخذنا العلم. وقال حرملة: لم يكن الشافعي يقدم على مالك أحداً في الحديث. وقال وهب بن خالد: ما بين المشرق والمغرب رجل أمن على حديث رسول الله ﷺ من مالك. وروينا بالإسناد الصحيح في الترمذي وغيره عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «يوشك أن تضرب الناس في طلب العلم فلا يجدون عالماً أعلم من عالم المدينة». قال الترمذي: حديث حسن. قال: وقد روى عن سفيان بن عيينة. قال: هو مالك بن أنس. وروينا عن أبي سلمة الخزاعي قال: كان مالك إذا أراد أن يخرج ليحدث توضأ وضوءه للصلاة، ولبس أحسن ثيابه، ومشط لحيته، فقيل له في ذلك، فقال: أوقر به حديث رسول الله ﷺ. وروينا عن معن بن عيسى قال: كان مالك إذا أراد أن يجلس للحديث اغتسل وتبخر وتطيب، فإن رفع صوت في مجلسه قال: قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي﴾ فمن رفع صوته عند حديث النبي ﷺ فكأنما رفع صوته فوق صوت رسول الله ﷺ. وروينا عن حبيب الوراق قال: دخلت على مالك فسألته عن ثلاثة رجال لم لم تروِ عنهم؟ قال: فأطرق ثم رفع

رأسه وقال: ما شاء الله لا قوة إلا الله. وكان كثيراً ينهانا. فقال: يا حبيب، أدركت هذا المسجد وفيه سبعون شيخاً ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ.

وروى عن التابعين، ولم نحمل الحديث إلا عن أهله. وقال بشر بن عمر: سألت مالكاً عن رجل فقال: رأيته في كتبي. قلت: لا، قال: لو كان ثقة لرأيته في كتبي. وروينا عن عبد الله بن يوسف عن خلف بن عمر قال: كنت عند مالك فأتاه ابن كثير قارىء المدينة، فناوله رقعة، فنظر فيها مالك، ثم جعلها تحت مصلاة، فلما قام من عنده: ذهبت أقوم، فقال: اجلس يا خلف وناولني الرقعة، فإذا رأيت الليلة في منامي كأنه يقال لي: هذا رسول الله ﷺ جالس، والناس حوله يقولون له: يا رسول الله أعطنا يا رسول الله مر لنا. فقال لهم: إني قد كنزت تحت المنبر كنزاً كبيراً، وقد أمرت مالكاً أن يقسمه فيكم، فاذهبوا إلى مالك، رضي الله عنه، فانصرف الناس، وبعضهم يقول لبعض: ما ترون مالكاً فاعلاً فقال: بعضهم ينفذ ما أمره به رسول الله ﷺ، فرق مالك وبكى، ثم خرجت من عنده وتركته على تلك الحالة. وروى ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن مهدي قال: أئمة الناس في زمانهم أربعة سفيان الثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز، والأوزاعي بالشام، وحماد بن زيد بالبصرة. وبإسناده الصحيح عن الشافعي رضي الله عنه قال: ما في الأرض كتاب من العلم أكثر من موطأ مالك. قال العلماء: إنما قال الشافعي هذا قبل وجود صحيح البخاري ومسلم، وهما أصح من الموطأ باتفاق العلماء. وعن أيوب بن سويد الرملي قال: ما رأيت أحداً قط أجود حديثاً من مالك. وعن القعنبي قال: كنا عند حماد بن زيد، وجاءه نعي مالك بن أنس، فقال: رحم الله أبا عبد الله ما خلف مثله. وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: ما أقدمُ على مالك في صحة الحديث أحداً. وعن يحيى بن سعيد القطان قال: ما في القوم أصح حديثاً من مالك. وعن أحمد بن حنبل قال: مالك أثبت أصحاب الزهري في كل شيء، وكذا قال يحيى بن معين وعمرو بن علي: أثبت أصحاب الزهري مالك. وقيل

لأحمد بن حنبل: الـرجل يجب أن يحفظ حـديث رجل بعينـه؟ قال: لا يحفظ إلا حديث مالك. قيل فالرأي؟ قال: رأي مالك. وقال أبـو حاتم الـرازي: مالـك ثقـة إمام أهـل الحجاز، وهـو أثبت أصحاب الـزهـري، وإذا اختلفـوا فـالحكم لمـالك. ومـالك تقي الـرجـال، تقي الحـديث، وهـو أتقن حـديثـاً من الثـوري والأوزاعي. قال: سمعت عبد الرحمن بن مهدي يقول كنا عند مالك فجاء رجل فقال: يا أبـا عبد الله، جئتـك من مسيرة ستـة أشهر، حملني أهـل بلدي مسألـة أسألك عنها. فقال: فاسأل، فسأله، فقـال: لا أحسن، فقطع بـالرجـل كأنـه قد جـاء إلى من يعلم كـل شيء. قـال: وأي شيء أقـول لأهــل بلدي إذا رجعت إليهم؟ فقال: قـل: قال لي مالك بن أنس: لا أحسن. وعن خالـد بن نزار الإيـلي قـال: ما رأيت أحـداً أقرأ لكتـاب الله تعالى من مـالـك. وعن ابن وهب قـال: قيـل لأخت مالـك: مـا كـان شغله في بيتـه؟ قـالت: المصحف والتـلاوة. وعن علي بن المديني قال: لم يكن بالمدينة أعلم بمـذهب تابعيهم من مـالك بـن أنس. وعن شعبة قال: دخلت المدينة ونافع حي ولمالك حلقة. وعن أبي مصعب قال: رأيت معن بن عيسى جالساً على العتبة، ومـا ينطق مـالك بشيء إلا كتبـه. وعن أبي مصعب أيضاً قال: كانوا يزدحمون على باب مـالك بـن أنس، فيقتتلون عـلى الباب من الزحام، وكنا عندما نكـون عند مـالك فـلا يكلم هذا هـذا، ولا يلتفت ذا إلى ذا، والنـاس بـرؤوسهم هكـذا. وكـانت السـلاطـين تهـابـه، وهم قـائلون ومستمعون، وكان يقول في المسألة لا، أو نعم، فلا يقـال له: من أين قلت هـذا. وعن محمد بن رمح قال: رأيت النبي ﷺ من أربعين سنـة في المنام، فقلت لـه: يا رسول الله، مالك والليث يختلفان في مسألة فقـال النبي ﷺ مالـك مالـك مالـك ورث جـدي، يعني إبـراهيم عليـه السـلام وعن بكـر قـال: رأيت في النـوم أني دخلت الجنـة، فـرأيت الأوزاعي وسفيـان الثـوري ولم أر مـالكـاً، فقلت: وأين مالك؟ قالوا: وأين مالك؟ وأين مالك؟ رُفِعَ مالك، فما زال يقول: وأين مالك؟ رفع مالك، حتى سقطت قلنسـوته. وقـال الإمام أبـو القاسم عبـد الملك بن زيد

ابن ياسين الدولقي في كتابه (الرسالة المصنفة في بيان السنة المشرفة) أخذ مالك على تسع مئة شيخ، منهم ثلاث مئة من التابعين وست مئة من تابعيهم، ممن اختاره، وارتضى دينه وفقهه، وقيامه بحق الرواية وشروطها، وخلصت الثقة به، وترك الرواية عن أهل دين وصلاح لا يعرفون الرواية.

وأحوال مالك ومناقبه رضي الله عنه كثيرة مشهورة. توفي بالمدينة في صفر سنة تسع وسبعين ومئة. قال محمد بن سعد: وقال إسماعيل بن عبد الله بن أويس: مرض مالك أياماً يسيرة، ثم توفي صبيحة أربع عشرة من شهر ربيع الأول سنة تسع وسبعين ومئة، وصلى عليه عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس، وهو يومئذ والٍ على المدينة. ودفن بالبقيع وعليه قبة، وولد مالك بسنة ثلاث وتسعين هجرية. وقالوا: وحمل به في البطن ثلاث سنين، وقال عند وفاته: لله الأمر من قبل ومن بعد.

إسرائيل بن يونس السبيعي (٠٠ - ١٦٢ هـ)

سبقت ترجمة جده أبي إسحاق، وقال الذهبي في ترجمة إسرائيل: «السبيعي الإمام الحافظ أبو يوسف الكوفي. سمع جده وجود حديثه وأتقنه، وزياد بن علاقة وسماك بن حرب ومنصور بن المعتمر، وجماعة. وعنه عبد الرحمن بن مهدي وأبو نعيم ومحمد بن يوسف الفريابي وعبد الله بن رجاء الغداني وأحمد بن يونس وعلي بن الجعد، وخلق كثير. وكان حافظاً حجةً صالحاً خاشعاً، من أوعية العلم، ولا عبرة بقول من لينه، فقد احتج به الشيخان. توفي سنة اثنتين وستين ومئة، وقيل إحدى وستين.

أنبأنا الفخذ علي أنبأنا ابن طبرزد أنبأنا عبد الوهاب الأنماطي أنبأنا أبو محمد الصريفيني أنبأنا عبد الله بن محمد حدثنا أبو القاسم البغوي أنبأنا علي بن الجعدان أنبأنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن معد يكرب عن عبد الله قال: لا

---

(١) وقيل إنه توفي سنة ١٦١ هـ.

تأتمّ بقوم يتحدثون ويلغون. وقال عيسى بن يونس: قال لي أخي إسرائيل: كنت أحفظ حديث أبي إسحاق، كما أحفظ السورة من القرآن. قال يحيىٰ بن معين: إسرائيل ثقة. قال علي بن المديني: قال يحيى بن سعيد: إسرائيل فوق أبي بكر بن عياش، فقيل ليحيىٰ: إن إسرائيل روى عن إبراهيم بن مهاجر ثلاث مئة حديث، وعن أبي يحيى القتات ثلاث مئة، فقال: إذا لم تؤت منه، ائت منهما جميعاً.

أنبأنا ابن قدامة وغيره قالوا: أنبأنا عمر بن محمد أنبأنا ابن الحصين أنبأنا ابن غيلان أنبأنا أبو بكر الشافعي أنبأنا إبراهيم بن عبد الرحمن بن ذوقا أنبأنا عبد الله بن صالح العجلي حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود قال: أقرأني رسول الله ﷺ «إني أنا الرزاق ذو القوة المتين». قد كان إسرائيل من العلماء العاملين، فعن شقيق البلخي قال: أخذت الخشوع عن إسرائيل، كنا حوله لا يعرف من عن يمينه، ولا من عن شماله، من تفكره في الآخرة، فعلمت أنه رجل صالح».

الحسن بن صالح الهمداني (١٠٠ - ١٦٧ هـ)

كان العارفون يعدون الحسن بن صالح في اليمانية كسعيد بن جبير في غيرهم قال الذهبي في ترجمته: «الإمام القدوة أبو عبد الله، الحسن بن صالح بن حي الهمداني الكوفي، الفقيه العابد. ولد سنة مئة، حدث عن سلمة بن كهيل وعبد الله بن دينار ومنصور بن المعتمر، وإسماعيل بن عبد الرحمن السري وسماك بن حرب، وخلق كثير. وهو أخو المحدث علي بن صالح. بن حيان بن شفي الثوري، كانا توأمين. وحي هو حيان حدث عنه وكيع ويحيى بن آدم ومحمد بن فضيل، وعبيد الله بن موسى وأبو نعيم وقبيصة وأحمد بن يونس وعلي بن الجعد، وآخرون. قال أبو نعيم: كتبت عن ثمان مئة محدث، فما رأيت أفضل من الحسن بن صالح. وقال أبو حاتم: ثقة حافظ متقن. وقال أحمد بن حنبل:

ثقة. وقال وكيع: جزأ هو وأمه وأخوه الليلة مثالثة للعبادة، فماتت أمهما فقسما الليل بينهما، فمات أخوه، فقام الحسن بالليل كله. عن أبي سليمان الداراني قال: ما رأيت سن الخوف أظهر عليه من الحسن بن صالح، قام ليلة بـ ﴿عم يتساءلون﴾، فغشي عليه، فلم يختمها إلى الفجر. وعن الحسن قال: ربما أصبحت ما معي درهم وكأن الدنيا كلها قد حيزت لي. وعنه قال: إن الشيطان يفتح للعبد تسعة وتسعين باباً من الخير، يريد بها باباً من الشر. ورُوِي عن ابن معين أنه قال: يكتب رأي الأوزاعي ورأي الحسن بن صالح. وقال أبو زرعة: اجتمع في الحسن بن صالح إتقان وفقه وعباده وزهد. وكان وكيع يشبهه بسعيد بن جبير. وقال أبو نعيم: ما كان دون الثوري في الورع والقوة، وما رأيت إلا من غلط في شيء غير الحسن بن صالح. وقال ابن عدي: لم أرَ له حديثاً منكراً مجاوز المقدار.

قال أبو نعيم: مات الحسن سنة سبع وستين ومئة».

يحيى بن أيوب الغافقي (٠٠ ـ ١٦٨ هـ)

قال صاحب تذكرة الحفاظ في ترجمته الإمام أبو العباس الغافقي المصري، فقيه أهل مصر ومفتيهم. حدث عن أبي قبيل حي بن هانىء ويزيد بن أبي حبيب وبكير بن الأشج، وجعفر بن ربيعة وربيعة الرأي وحميد الطويل، وخلق. وعنه ابن وهب وزيد بن الحباب وأبو عبد الرحمن المقرىء، وسعيد بن أبي مريم وسعيد بن عفير، وخلق كثير. حتى إن شيخه ابن جريج روى عنه. قال ابن عدي: هو من فقهاء مصر وعلمائهم. وقال: كان قاضياً بها وهو عندي صدوق. وقال ابن يونس كان من الطالبين للعلم، حدث عن أهل الحرمين والشام ومصر والعراق. قال يحيى بن معين: صالح الحديث. قال أحمد بن حنبل سيء الحفظ. قلت: حديثه في الكتب الستة، وحديثه فيه مناكير. وقال سعيد بن عفير وغيره: مات سنة ثمان وستين ومئة رحمه الله».

داود الطائي (٠٠ ـ ٢٦٥ هـ)

هو داود بن نصير الطائي الكوفي، أحد كبار الأولياء العباد الزهاد. ترجم له ابن خلكان، فذكر أنه كان يتردد على مجالس أبي حنيفة، ثم حدث بينه وبين أحدهم بعض الكلام، فانقبض داود، وظل عاماً لا يحدث أحداً، ثم أغرق كتباً له في دجلة، وانقطع لعبادة الله صياماً وقياماً حتى نال أعلى الدرجات، وتحقق برفيع المقامات، وظهرت له عدة كرامات. توفي سنة ٢٦٥ هـ، رحمه الله.

أبو الهذيل الزبيدي الحافظ (٠٠ ـ ١٤٩ هـ)

أحد الحفظة الأثبات في الحديث. قال الذهبي في ترجمته: «الحجة المتقن، عالم أهل الشام، أبو الهذيل محمد بن الوليد الحمصي القاضي. حدث عن أزهد بن سعيد الحرازي وراشد بن سعيد المقرىء ومكحول وعمرو بن شعيب والزهري، وخلق سواهم. ومن أنبل أصحاب الزهري وأثبتهم. حدث عنه الأوزاعي ويحيىٰ بن حمزة ومحمد بن حرب، وبقية بن الوليد ومنبه بن عثمان، وآخرون. قال الزهري: قد احتوى هذا ما بين جنبي من العلم. وقال الأوزاعي: ما أحد أثبت في الزهري من الزبيدي. وقال أبو داود: ليس في حديثه خطأ. وقال الزبيدي: أقمت بالرصافة مع الزهري عشر سنين. وقال [ابن] سعد: كان أعلم أهل الشام بالفتوى والحديث. قيل مات في المحرم سنة تسع وأربعين ومئة وله سبعون سنة».

حبيب بن الشهيد الأزدي (٨٠ ـ ١٤٥ هـ)(١)

من تابعي التابعين إذ أن شيخه أبو عثمان النهدي ترجمه الذهبي فقال: «أبو محمد الأزدي الحافظ سمع الحسن ومحمد وابن أبي مليكة وطبقتهم. والظاهر أنه رأى أنس بن مالك؛ فإنه ولد سنة ثمانين أو قبلها بسنة. وأكبر شيخ

---

(١) وقيل إنه ولد سنة ٧٩ هـ.

عنده أبو عثمان النهدي. وعنه شعبة ويزيد بن زريع وروح وقريش [بن أنس] وخلق. قال أحمد: ثقة ثبت يقوم مقامه ابن عون ويونس. وقال أبو أسامة: كان من رفعاء الناس، وإنما روى مئة حديث. وقال الضبعي: مات سنة خمس وأربعين ومئة».

عبد الرحمن بن يزيد الأزدي (٠٠ ـ ١٥٣ هـ)

يكفي هذا فضلاً أن يكون ابن المبارك أحد رواته. قال الذهبي في ترجمته: «الإمام الفقيه الحافظ أبو عتبة الأزدي الدمشقي الداراني، أخذ عن أبي سلام ممطور ومكحول وأبي الأشعث الصنعاني وعبد الله بن عامر اليحصبي والزهري». ويستمر الذهبي في تذكرته مترجماً له قال: «وفد على المنصور لما طلبه، وكان كبير القدر من أئمة الشاميين، وفقه ابن معين وأبي حاتم. وما أحسن قوله مما سمعه منه الوليد بن مسلم يقول: لا تكتبوا العلم إلا ممن يعرف بطلب الحديث. وقد لقي الكبار، ولكن لم أر له شيئاً عن صغار الصحابة. وقد كان ركب أبيه في أيام الوليد بن عبد الملك. حديثه مخرج في الكتب الستة. قال أبو مسهد: قد رأيته، توفي سنة ثلاث وخمسين ومئة. روى عنه ابن المبارك والوليد ابن مسلم ومحمد بن شعيب بن شابور وعمر بن عبد الواحد وحسين الجعفي، واخرون. رحمة الله عليهم.

حيوة بن شريح (٠٠ ـ ١٥٨ هـ)

من كبار صالحي اليمانية بمصر في القرن الثاني ترجمه الذهبي فقال: «الإمام القدوة أبو زرعة التجيبي المصري شيخ الديار المصرية. روى عن ربيعة بن يزيد القصير وعقبة بن مسلم ويزيد بن أبي حبيب وأبي يونس سليم بن جبير وطبقتهم. حدث عنه ابن المبارك [الليث]، وابن وهب وأبو عاصم وأبو عبد الرحمن المقرىء وعبد الله بن يحيى البرلسي، وهانىء بن المتوكل الإسكندراني، واخرون. وثقه أحمد بن حنبل وغيره. وكان كبير الشأن. قال ابن

المبـارك: وصف لي حيوة فكـانت رؤيته أكـبر من صفته. قـال ابن وهـب: كـان يأخذ عطاء في السنة ستين ديناراً، فلم يأت منزله حتى يتصدق بها، ثمّ يجيء إلى منزله فيجدها تحت فـراشه. وبلغ ذلـك ابن عم له فتصـدق بعطائـه، وبادر إلى تحت فراشه فلم يجد شيئاً، فشكا إلى حيوة، فقـال: أنا أعـطيت ربي بيقين وأنت أعـطيته بتجـربة. وروى أحمـد بن سهل الأردني عن خـالد بن الفـزر قال: كـان حيوة بن شريح من البكائين، وكان ضيق الحال جداً، فجلست وهو متخذ يدعو فقلت: لو دعوت أن يوّسع عليـك، فالتفت يميناً وشمالاً فلم يـر أحداً، فـأخذ حصاة فرمى إليّ بها، فإذا هي والله تبرة ما رأيت أحسن منهـا. وقال: مـا خير في الـدنيا إلا لـلآخرة. ثم قـال: هـو أعلم بمـا يصلح عبـاده. فقلت: ومـا أصنـع بهـذه؟ قال: استبقهـا. فهبته والله أن أرد. وقـال حيوة مـرة لبعض الـولاة: لا تخلين بلدنا من السلاح، فنحن بـين قبطي لا يـدري متى ينقض عهده، وورومي لا يدري متى يحل ساحتنا، وبـربري لا نـدري متى يثور، وحبشي لا نـدري متى يغشـانا. قـال ابن وهب: ما رأيت أحـداً أشد استخفاء بعمله من حيوة، وكـان يعرف بإجـابة الدعوة، وكنا نجلس إليـه للفقه، وكـان يقول: أبـدلني الله بكم عموداً أقوم وراءه أصلي، ثم فعل ذلك. توفي حيوة سنة ثـمان وخمسين ومئـة على الصحيح، وقيل سنة تسع. حديثه يقع عالياً في القطيعات».

شريك بن عبد الله (٠٠ ـ ١٧٧ هـ)

ترجمه صاحب تذكرة الحفاظ فقال: «القاضي أبو عبد الله النخعي الكوفي، أحـد الأئمة الأعـلام. حدث عن أبي صخـرة جامـع بن شداد، وجـامـع بن أبي راشد، وسلمة بن كهيل وأبي إسحاق وزيادة بن علاقة، وسماك بن حرب، وعدة وعنه أبان بن تغلب ومحمد بن إسحاق، وهما من شيوخه. ومن المتأخـرين: قتيبة وعـلي بن حجر وإسحـاق بـن أبي إسرائيـل، وأبـو بكـر بن شيبـة وأخـوه عثمان وهنـاذر بن السري، وخلائق. وذكـر إسحاق الأزرق أنـه أخذ عنـه تسعة آلاف حديث.

وقال ابن المبارك: وهو أعلم بحديث أهل بلده من سفيان. وقال النسائي ليس به بأس. وقال عيسى بن يونس: ما رأيت أحداً قط أورع في علمه من شريك. وقال أبو إسحاق الجوزجاني: كان شريك سيء الحفظ. قلت: كان شريك حسن الحديث، إماماً فقيهاً، ومحدثاً مكثراً، ليس هو في الإتقان كحماد بن زيد، وقد استشهد به البخاري، وخرج له مسلم متابعة، ووثقه يحيىٰ بن معين. مات في ذي القعدة سنة سبع وسبعين ومئة. وله اثنتان وثمانون سنة رحمه الله. وقع لي من عواليه، وحديثه من أقسام الحسن».

زهير بن معاوية بن حديج (٠٠ - ١٧٣ هـ)

من كبار صالحي اليمانية في القرن الثاني بالعراق ترجمه الذهبي فقال: «الحافظ الحجة أبو خيثمة الجعفي الكوفي محدث أهل الجزيرة، وهو أخو الرحيل. وحديج حدث عن الأسود بن قيس وأبي إسحاق وسماك بن حرب وحميد الطويل، وأبي الزبير وزياد بن علاقة وطبقتهم. وعنه أبو داود والحسن بن موسى الأشيب وأبو غنيم وأبو جعفر النفيلي، وأحمد بن يونس ويحيىٰ بن يحيىٰ التميمي، وخلق سواهم. وكان من علماء الحديث. قال ابن عيينة لطالب: عليك بزهير بن معاوية، فما بالكوفة مثله. وقال معاذ بن معاذ: والله ما كان سفيان الثوري عندي بأثبت من زهير. وقال شعيب بن حرب وذكر حديثاً لزهير وشعبة وقال: زهير بن معاوية أحفظ عندي من عشرين مثل شعبة. وقال أحمد: زهير من معادن العلم. وقال أبو حاتم الرازي: زهير أحب إلينا من إسرائيل في كل شيء إلا في حديث أبي إسحاق. قيل لأبي حاتم: فزائدة وزهير. قال: زهير أتقن، وهو صاحب سنة، غير أنه تأخر سماعه عن أبي إسحاق. وقال أبو زرعة: سمع من أبي إسحاق بعد الاختلاط، وهو ثقة. قلت: ما اختلط أبو إسحاق أبداً، وإنما يعني بذلك التعبير ونقص الحفظ. قال حميد بن عبد الرحمن الرواسي: كان زهير إذا سمع الحديث من الشيخ مرتين كتب عليه فرغت. يقال: نزل

زهير الجزيرة سنة أربع وستين، وأصابه الفالج سنة اثنتين، وبه تخرج النفيلي. وقال: توفي في رجب سنة ثلاث وسبعين ومئة رحمه الله ﷺ».

عيسى بن يونس السبيعي (٠٠ ـ ١٨٧ هـ)

الحاجّ الغازي والحفيد الثاني لأبي إسحاق السبيعي ترجمه الذهبي فقال: «ابن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله الإمام القدوة الحافظ، أبو عمرو السبيعي الكوفي، نزل الثغر بالحدث مرابطاً، رأى جده. وسمع أباه وهشام بن عروة وحسناً المعلم، والأعمش وإسماعيل بن أبي خالد وسعيداً الجريري، ومجالداً وزكريا بن أبي زائدة وعمر مولى غفرة، وطبقتهم. حدث عنه حماد بن سلمة مع تقدمه وابن وهب وإسحاق بن راهويه ومسدد، وإبراهيم بن موسى الفراء وابن المديني وأبو بكر بن أبي شيبة وسفيان بن وكيع وعلي بن حجر وعلي بن خشرم ونصر بن علي والحسن بن عرفة، وخلق كثير. سئل عنه علي بن المديني فقال: بخ بخ ثقة مأمون. وقال أحمد بن داود الحداد سمعت عيسى بن يونس يقول: لم يكن في أسناني أبصر بالنحو مني، فدخلني منه نخوة فتركته. وقال: أحمد بن حنبل: الذي كنا نخبر أن عيسى بن يونس كان سنة في الغزو وسنة في الحج. فقدم بغداد في شيء من أمر الحصون، فأمر له بمال فأبى أن يقبل. وقال أحمد بن جناب: غزا عيسى خمساً وأربعين غزوة، وحج خمساً وأربعين حجة. قال الوزير جعفر بن يحيىٰ البرمكي: ما رأيت في القراء مثل عيسى بن يونس، وذكر أنه عرض عليه مئة ألف درهم فردها وقال: والله لا يتحدث أهل العلم أني أكلت للسنة ثمناً. قال محمد بن سعد: كان ثقة ثبتاً. وقال الوليد بن مسلم: ما خالفني في الأوزاعي أحد ما خلا عيسى بن يونس، فإني رأيت أخذه أخذاً محكماً، وهو أفضل من بقي من علماء العرب، وأبو إسحاق الفزاري ومخلد بن الحسين. وقال محمد بن عبيد الطنافسي: يا أصحاب الحديث ألا تكونون مثل عيسى بن يونس؟ كان إذا جاء إلىٰ الأعمش ينظرون إلى هَدْيه وسمته. وقال وكيع: ذاك رجل قد

قهر العلم. قال محمد بن عبد الله بن عمار: عيسى حجة أثبت من أخيه إسرائيل. وقال أبو زرعة: حافظاً. قال ابن معين: رأيت على عيسى قباء محشواً، وخفين أحمرين كان يلبس ذلك للغزو. قال محمد بن داود: سمعت عيسى بن يونس يقول: أربعين حديثاً حدثنا بها الأعمش، فيها ضرب الرقاب، لم يشركني فيها غير محمد بن إسحاق، وربما قال الأعمش: يا محمد من معك؟ فيقول: عيسى، فيقول: ادخلا وأجنبا الباب. وكان يسألني عن الفتن.

يعقوب بن شيبة: سمعت إبراهيم بن هشام: سمعت بشر بن الحارث يقول: كان عيسى بن يونس يعجبه خطي، وكان يأخذ القرطاس فيقرؤه، فيكتب شيئاً من نسخة قوم ليس من حديثه. قال: كأنهم لما رأوا من إكرامه لي أدخلوا عليه في حديثه، فجعل يقرأ علي، ويضرب على تلك الأحاديث، فغمني ذلك، فقال: لا يغمك، فلو كان واواً ما قدروا أن يدخلوه علي.

قال عبد الله بن أحمد: سألت أبي عن عيسى بن يونس فقال: عيسى يسأل عنه؟ قال محمد بن المنذر الكندي: جاء ابن إدريس عام حج الرشيد، فدخل الكوفة فقال لأبي يوسف: قل للمحدثين أن يأتوا ليحدثونا. فلم يتخلف إلا عبد الله بن إدريس وعيسى بن يونس، فركب الأمين والمأمون إلى ابن إدريس فحدثهما بمئة حديث، فقال المأمون: يا عم، أتأذن لي أن أعيدها من حفظي، فقال: افعل. فأعادها، فعجب من حفظه، ثم صار إلى عيسى بن يونس فحدثها، فأمر المأمون له بعشرة آلاف، فأبى أن يقبلها وقال: ولا شربة ماء. قال أحمد بن جناب وجماعة: مات عيسى سنة سبع وثمانين ومئة. وقالت طائفة: سنة ثمان، وقيل غير ذلك».

يحيى بن حمزة الحضرمي (٠٠ ـ ١٨٣ هـ)

من كبار أعلام اليمن بالشام في القرن الثاني قال الذهبي: «الإمام البارع قاضي دمشق وعالمها، أبو عبد الرحمن الحضرمي البتلهي الدمشقي. حدث عن عروة بن رويم وعمرو بن مهاجر ومحمد بن الوليد الزبيدي، ويزيد بن أبي مريم

والأوزاعي، وعدة. وعنه أبو مسهر الغساني ومحمد بن عائذ والحكم بن موسى وهشام بن عمار وعلي بن حجر، وآخرون. قال أبو حاتم عاش ثمانين سنة، وهو صدوق. وقال أحمد بن حنبل: ليس به بأس. قلت: بقي في القضاء نحواً من ثلاثين سنة، وحديثه في كتب الإسلام الستة. توفي سنة ثلاث وثمانين ومئة».

المعافى بن عمران الأزدي (٠٠ ـ ١٨٥ هـ)[1]

نعته الثوري بياقوتة العلماء، ولازمه بشر، وأثنى عليه ابن المبارك قال الذهبي: «الحافظ شيخ الجزيرة أبو مسعود الأزدي، الإمام القدوة. سمع ثور بن يزيد. وجعفر بن برقان وهشام بن حسان وحنظلة بن أبي سفيان، وابن جريج وسعيد بن أبي عروبة والأوزاعي، وخلقاً كثيراً. حدث عنه بشر الحافي ومحمد بن جعفر الوركاني وإبراهيم بن عبد الله الهروي، ومحمد بن عبد الله بن عمار وعبد الله بن أبي خراشي، وآخرون فيهم كثرة قال يحيى بن معين: ثقة. وقال ابن سعد كان ثقة فاضلاً خيراً صاحب سنة. وكان ابن المبارك يقول: حدثني ذاك الرجل الصالح. وقال أحمد بن يونس: سمعت سفيان الثوري، وذكر المعافى فقال: ذاك ياقوتة العلماء. وقال ابن عمار: لم أرَ أحداً قط أفضل منه. قلت: ساق أبو زكريا محمد بن يزيد الأزدي ترجمته في تاريخه في بضع وعشرين ورقة، فقال: صنف المعافى في السنن والزهد والأدب والفتن، وغير ذلك. قال بشر بن الحارث الحافي: قال الأوزاعي وقد اجتمع عنده المعافى وابن المبارك وموسى بن أعين: كهؤلاء أئمة الناس، لكن لا أقدم على الموصلي أحداً. قال بشر: كان يحفظ الحديث والمسائل، وكان في الفرح والحزن واحداً. قتلت الخوارج له ولدين، فما تبين عليه شيء ثم جمع أصحابه وأطعمهم، وقال: آجركم، الله في فلان وفلان. قال: وكان صاحب دنيا واسعة وضياع كثيرة، وإذا جاء المغل بعث إلى أصحابه كفايتهم، وكانوا أربعة وثلاثين رجلاً. وقيل لبشر الحافي: نراك

---

(١) وقيل: إنه توفي سنة ١٨٤ هـ.

تعشق المعافى، فقال: ما لي لا أعشقه، وقد كان سفيان يسميه الياقوتة. قال ابن عمار: مات سنة خمس وثمانين ومئة، وقال غيره: سنة أربع. قلت: كان من أبناء الستين، يزيد أو ينقص».

القاضي أبو يوسف (٠٠ ـ ١٨٢ هـ)

نسبه كما ذكره ابن خلكان وابن عبد البر في الاستيعاب هو: يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خنيس بن سعد بن حبتة بن عوف بن بجير بن معاوية بن سلمى بن بجيلة. قال الذهبي في التذكرة:

«الإمام العلامة فقيه العراقين. سمع هشام بن عروة وأبا إسحاق الشيباني وعطاء بن السائب، وطبقتهم. وعنه محمد بن الحسن الفقيه وأحمد بن حنبل وبشر بن الوليد ويحيى بن معين، وعلي بن الجعد وعلي بن مسلم الطوسي وعمرو بن أبي عمرو، وخلق سواهم. نشأ في طلب العلم، وكان أبوه فقيراً، فكان أبو حنيفة يتعاهد يعقوب بمئة بعد مئة. وقال المزني: أبو يوسف أتبع القوم للحديث. وقال يحيىٰ بن يحيىٰ التميمي: سمعت أبا يوسف يقول عند وفاته: كل ما أفتيت به فقد رجعت عنه، إلا ما وافق الكتاب والسنة. وفي لفظ: إلا ما في القرآن واجتمع عليه المسلمون. وروى أبو إسحاق إبراهيم بن أبي داود البرنسي عن يحيى بن معين قال: ليس في أصحاب الرأي أكثر حديثاً ولا أثبت من أبي يوسف. وقال علي بن الجعد: سمعت أبا يوسف يقول: من قال إيماني كإيمان جبريل فهو صاحب بدعة. قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول: من طلب غرائب الحديث كذب، ومن طلب المال بالكيمياء افتقر، ومن طلب الدين بالكلام تزندق. وروى ابن عباس عن ابن معين قال: أبو يوسف صاحب حديث وصاحب سنة. وقال ابن سماعة: كان أبو يوسف يصلي بعدما ولي القضاء في كل يوم مئتي ركعة. وقال أحمد: كان مصنفاً في الحديث. وقال الفلاس: صدوق، كثير الغلط. مات في ربيع الآخر سنة ثنتين وثمانين ومئة عن

سبعين سنة إلا سنة. وله أخبار في العلم والسيادة، قد أفردته وأفردت صاحبه محمد بن الحسن رحمهما الله في جزء، أكبر شيخ له حصين بن عبد الرحمن، ولم يسمع عبد الله بن دينار بل بينهما رجل».

حفص بن غياث القاضي (١١٧ ـ ١٩٤ هـ)

كان حفص هذا في القرن الثاني بمثابة شريح في القرن الأول. ترجمه الذهبي: «أبو عمر النخعي الكوفي قاضي بغداد، ثم قاضي الكوفة. حدث عن جده طلق بن معاوية وعاصم الأحول وليث بن أبي سليم وهشام بن عروة وعبيد الله بن عمرو، وخلق كثير. حدث عنه ولده عمر بن حفص وأحمد وإسحاق وعلي بن المديني، وابن معين وابنا أبي شيبة وعمر والناقد ويعقوب الدورقي، والحسن بن عرفة وأحمد العطاردي، وخلق سواهم. ولد سنة سبع عشرة ومئة. قال يحيىٰ القطان: حفص أوثق أصحاب الأعمش. وقال شحادة: كان يقال ختم القضاء بحفص بن غياث. قال حفص: والله ما وليت القضاء حتى حلت لي الميتة. مات وعليه دين تسع مئة درهم. قال يحيى بن معين: جميع ما حدث به حفص ببغداد وبالكوفة، فمن حفظه لم يخرج كتاباً. كتبوا عنه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حديث من حفظه. قال أبو جعفي المسندي: كان حفص ابن غياث من أسخى العرب، وكان يقول: من لم يأكل من طعامي لا أحدثه. وإذا كان يوم ضيافته لا يبقى راس في الرواسين. توفي حفص آخر سنة أربع وتسعين ومئة، رحمه الله. قال أحمد بن حنبل، ما رأيت مثل مقدم فم حفص مضببة أسنانه بالذهب».

محمد بن حرب الخولاني (٠٠ ـ ١٦٤ هـ)

أحد قضاة الشام من اليمانية في القرن الثاني ترجمه الذهبي فقال:

«أبو عبد الله الخولاني الحمصي الأبرش كاتب الزبيدي. حدث عن الزبيدي وبجير بن سعد ومحمد بن زياد الإلهاني، وعمر بن روبة والأوزاعي،

وعدة. وروى عنه أبـو مسهر وإسحـاق بن راهويـة ومحمد بن وهب بن عـطية، وكثير بن عبيد وأبو التقى اليزاني ومحمـد بن مصطفى وأبـو عتبة الحجازي، وخلق كثير. وذكر ابن سعد أنه ولي قضاء دمشق. قال ابن معين وغيره: ثقة، وحديثـه في الكتب الستة وقال يزيد بـن عبد ربه: مات سنة أربع وستين ومئة رحمه الله».

أبو سليمان الداراني ت (.. ـ ٢١٥ هـ)

هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي، ويعرف بـأبي سليمان الداراني، هكذا نسبـه ابن خلكان في وفيـاته إلى قبيلة عنس المـذحجية اليمنيـة. ترجمه ابن الجوزي في صفة الصفـوة ترجمـه مطولـة وترجمـه ابن خلكان في وفيـاته وابن كثير في بدايته. ونختار ترجمة هذا الأخير فنقطتف منها بعضهـا. قال: أحـد أئمة العلماء العاملين. أصله من أواسط، سكن قرية غربي دمشق يقال لها داريا، وقد سمع الحديث من سفيان الثـوري وغيره، وروى عنـه أحمد بن أبي الحـواري وجماعة.

وأسند الحافظ ابن عساكر من طريقه قـال: سمعت علي بن الحسن بن أبي الربيع الزاهد يقول: سمعت إبراهيم بن أدهم يقول: سمعت ابن عجلان يذكر عن القعقاع بن حكيم عن أنس بن مالك قال: قـال رسول الله ﷺ: «من صـلى قبل الظهر أربعاً غفر الله ذنوب يومه ذلك» وقال أبو القاسم القشـيري حكى عن أبي سليـمان الداراني قـال: اختلفت إلى مجلس قاص، فـأثر كـلامه في قلبي حتى رجعت إلى منـزلي فكسرت آلات المخالفـات، ولـزمت الـطريق، فحكيت هـذه الحكـاية ليحيـى بن معـاذ، فقـال: عصفـور اصـطاد كـركيـاً، يعني بـالعصفـور القاص، وبالكركي أبا سليمان. وقال أحمـد بن أبي الحواري: سمعت أبـا سليمان يقول: ليس لمن ألهم شيئاً من الخير أن يعمل بـه، حتى يسمع بـه في الأثر، فـإذا سمع به في الأثر عمل به، فكان نوراً على نور. وقال الجنيد قال أبو سليمان: ربما يقع في قلبي النكتة من نكت القـوم، فلا أقبلهـا إلا بشاهـدين عدلـين، الكتاب

والسنة. قال: وقال أبو سليمان أفضل الأعمال خلاف هوى النفس. وقال: لكل شيء علم، وعلم الخذلان ترك البكاء من خشية الله. وقال: لكل شيء صدأ، وصدأ نور القلب شبع البطن. وقال: كل ما شغلك عن الله من أهل أو مال أو ولد فهو شؤم. وقال: كنت ليلة في المحراب أدعو ويداي ممدودتان، فغلبني البرد، فضممت إحداهما، وبقيت الأخرى مبسوطة أدعو بها، وغلبتني عيني فنمت، فهتف بي هاتف: يا أبا سليمان قد وضعنا في هذه ما أصابها، ولو كانت الأخرى لوضعنا فيها. قال: فآليت على نفسي ألا أدعو إلا ويداي خارجتان، حراً كان أو برداً. وقال: نمت ليلة عن وردي، فإذا أنا بحوراء تقول لي: تنام وأنا أربى لك في الخدور منذ خمس مئة عام. وقال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: إن في الجنة أنهاراً على شاطئيها خيام فيهن الحور، ينشىء الله خلق الحوراء إنشاء، فإذا تكامل خلقها ضربت الملائكة عليهن الخيام، الواحدة منهم جالسة على كرسي من ذهب، ميل في ميل، قد خرجت عجيزتها من جانب الكرسي، فيجيء أهل الجنة من قصورهم يتنزهون على شاطىء تلك الأنهار ما شاؤوا، ثم يخلو كل رجل بواحدة منهن. قال أبو سليمان: كيف يكون في الدنيا حال من يريد افتضاض الأبكار على شاطىء تلك الأنهار في الجنة. وقال: سمعت سليمان يقول: ربما مكثت خمس ليال لا أقرأ بعد الفاتحة بآية واحدة، أتفكر في معانيها. ولربّما جاءت الآية من القرآن، فيطير العقل، فسبحان من يرده بعد. وسمعته يقول: أصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله عز وجل، ومفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع. وقال لي يوماً: يا أحمد، جوع قليل، وعري قليل، وفقر قليل، وصبر قليل، وقد انقضت عنك أيام الدنيا. وقال أحمد: اشتهى أبو سليمان يوماً رغيفاً حاراً بملح، فجئته به، فعض عضة ثم طرحه، وأقبل يبكي ويقول: يا رب عجلت لي شهوتي، لقد أطلت جهدي وشقوتي، وأنا تائب؟ فلم يذق ملحاً حتى لحق بالله عز وجل. قال: وسمعته يقول: ما رضيت عن نفسي طرفة عين، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا على أن

يضعوني كاتضاعي عند نفسي، ما قدروا. وسمعته يقول: من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة وسمعته يقول: من حسن ظنه بالله ثم لم يخفه ويطعه فهو مخدوع. وقال: ينبغي للخوف أن يكون على العبد أغلب من الرجاء، فإذا غلب الرجاء على الخوف فسد القلب. وقال لي يوماً: هل فوق الصبر منزلة؟ فقلت: نعم، يعني الرضا، فصرخ صرخة غشي عليه، ثم أفاق فقال: إذا كان الصابرون يوفون أجرهم بغير حساب، فما ظنك بالأخرى، وهم الذين رضي عنهم. وقال: ما يسرني أن لي الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها أنفقه في وجوه البر، وإني أغفل عن الله طرفة عين. وقال: قال زاهد لزاهد: أوصني، فقال: لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك. فقال: زدني، فقال: ما عندي زيادة. وقال: من أحسن في نهاره كوفىء في ليله، ومن أحسن في ليله كوفىء في نهاره، ومن صدق في ترك شهوة أذهبها الله من قلبه، والله أكرم من أن يعذب قلباً بشهوة تركت له. وقال: إذا سكنت الدنيا القلب ترحلت منه الآخرة، وإذا كانت الآخرة في القلب جاءت الدنيا تزاحمها، وإذا كانت الدنيا في القلب لم تزاحمها الآخرة، لأن الدنيا لئيمة، والآخرة كريمة، وما ينبغي لكريم أن يزاحم لئيم. وقال أحمد بن أبي الحواري: بت ليلة عند أبي سليمان، فسمعته يقول: وعزتك وجلالك، ولئن طالبتني ببخلي لأطالبنك بكرمك، ولئن أمرت بي إلى النار لأخبرت أهل النار أني أحبك. وكان يقول: لو شك الناس كلهم في الحق ما شككت فيه وحدي. وكان يقول: ما خلق الله خلقاً أهون عليّ من إبليس، ولولا أن الله أمرني أن أتعوذ منه ما تعوذت منه أبداً، ولو تبدىٰ ما لطمت إلا صفحة وجهه. وقال: إن اللص لا يجيء إلى خربة ينقب حيطانها وهو قادر على الدخول إليها من أي مكان شاء، وإنما يجيء إلى البيت المعمور، كذلك إبليس لا يجيء إلا إلى كل قلب عامر ليستنزله عن كرسيه ويسلبه أعز شيء. وقال: إذا أخلص العبد انقطعت عنه الوساوس والرؤيا. وقال: الرؤيا، يعني الجنابة. وقال: مكثت عشرين سنة لم احتلم، فدخلت مكة ففاتتني صلاة العشاء جماعة،

فاحتلمت تلك الليلة. وقال: ان مِن خلق الله قوماً لا يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه، فكيف يشتغلون بالدنيا عنه؟.

توفي سنة ٢١٥ هـ رحمه الله.

عبد الله بن نمير الهمداني (٠٠ ـ ١٩٩ هـ)

أحد رؤوس همدان في العراق في القرن الثاني ترجمه الذهبي: «الحافظ الإمام أبو هاشم الهمداني، ثم الخارفي الكوفي، والد الحافظ الكبير محمد. حدث عن هشام بن عروة والأعمش والأشعث بن سواد وإسماعيل بن أبي خالد، ويزيد بن أبي زياد وعبيد الله بن عمر، وعدة. وعنه أحمد وابن معين وابن المديني وإسحاق الكوسج، وأحمد بن الفرات والحسن بن علي بن عفان، وخلق. وثقه يحيى بن معين وغيره. وكان من كبار أصحاب الحديث. توفي سنة تسع وتسعين ومئة وله أربع وثمانون سنة. رحمه الله».

شجاع بن الوليد السكوني (٠٠ ـ ٢٠٤ هـ)

أحد علماء وعبّاد اليمانية في العراق بالقرن الثالث ترجمه الذهبي فقال: الحافظ الثقة الفقية، أبو بدر السكوني الكوفي، الرجل الصالح. حدث عن عطاء بن السائب والمغيرة بن مقسم وقابوس بن أبي ظبيان، والأعمش وهشام بن عروة، وعدة. حدث عنه ابنه أبو همام وأحمد وإسحاق ويحيى وعلي، وأبو بكر الصاغاني ويحيى بن أبي طالب، وخلق. قال أحمد: صدوق. وقال ابن أبي سعد: كان أبو بدر كثير الصلاة ورعاً. وقال الثوري: لم يكن عندي بالكوفة أعبد من أبي بدر. وقال أحمد بن زهير وغيره عن يحيى بن معين ثقة. قلت: قد احتج به الستة، ومات سنة أربع ومئتين رحمه الله.

أبو عبد الرحمن الخريبي الهمداني (٠٠ ـ ٢١٣ هـ)

ممن ترجمهم الذهبي من حفاظ اليمنيين بالعراق فقال: «الإمام القدوة، أبو عبد الرحمن عبد الله بن داود بن عامر الهمداني الشعبي الكوفي، وكان يسكن محلة الخريبة بالبصرة. وسمع هشام بن عروة والأعمش وثور بن يزيد وابن جريج والأوزاعي، وطبقتهم. حدث عنه الحسن بن صالح وسفيان ابن عيينة، وهما من شيوخه، ومسدد وبندار والفلاس والكريمي وبشر بن موسى، وخلائق. قال ابن سعد: كان ثقة عابداً ناسكاً. قال ابن معين: ثقة مأموناً. قال زيد بن أخزم: سمعت الخريبي يقول: نول الرجل أن يكره ولده على طلب الحديث. ليس الدين بالكلام إنما الدين بالآثار. وروى عنه الكريمي قال: ما كذبت إلا مرة واحدة، قال لي أبي: قرأت على المعلم؟ قلت: نعم، قال: ولم أكن قرأت. عن وكيع قال: النظر إلى وجه عبد الله بن داود عبادة. قال إسماعيل القاضي: لما دخل يحيى بن أكثم البصرة مضى إلى الخريبي ليسمع منه. فقال له: متعت بك، أني لما نظرت إليك نويت ألاّ أحدثك، وذكر أن الخريبي قيل له: رجع أبو حنيفة عن مسائل كثيرة. قال: إنما يرجع الفقيه إذا اتسع علمه. وكان يقول الخريبي: يا ليتني لبنة في حائط حتى أدخل أنا في الجنة. وكان ممن وقف في مسألة القرآن تورعاً وجبناً. توفي في شوال سنة ثلاث عشرة ومئتين، وكان قد قطع الرواية، فلهذا لم يسمع منه البخاري، وروى عن أصحابه».

القاسم بن يزيد الجرمي (٠٠ ـ ١٩٤ هـ)

أحد العبّاد الزهّاد الحفاظ من اليمنيين بالعراق ترجمه الذهبي. فقال: «عالم الموصل وزاهدها، سمع ابن أبي ذئب ونور بن يزيد وحريز بن عثمان والثوري. وعنه محمد بن عبد الله بن عمار وعلي بن حرب، وجماعة. وثقه أبو حاتم، وقال يزيد بن محمد الأزدي: ورع زاهد من أصحاب سفيان، وكان حافظاً للحديث متفقهاً. قلت: كان على قدم عظيم من الزهد والعبادة. وقال

غيره: حافظ للحديث والفقه. مات في سنة أربع وتسعين ومئة. رحمه الله تعالى».

منصور بن سلمة الخزاعي (٠٠ ـ ٢١٠ هـ)

المجاهد المرابط بالثغور، ترجمه الذهبي فقال: «الحافظ الإمام أبو سلمة الخزاعي، محدث بغداد أخذ عن عبد العزيز ابن الماجشون وحماد بن سلمة ومالك الطبقة. وعنه أحمد وأبو بكر الأعين وصاعقة وأبو بكر الصاغاني وأحمد بن أبي خيثمة، وعدة أنبأنا المسلم بن علان أنبأنا الكندي أنبأنا أبو منصور القزاز أنبأنا أبو بكر الخطيب أنبأنا هلال الحفار أنبأنا إسماعيل الصفار أنبأنا العباس بن محمد أنبأنا أبو سلمة الخزاعي أنبأنا سليمان بن بلال عن العلاء عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ «الجرس مزمار للشيطان». وثقه ابن معين والناس. قال أحمد بن أبي خيثمة: قال لي أبي وقد قمنا من عند أبي سلمة الخزاعي: كتبت اليوم عن كبش نطاح. قال الدارقطني: أبو سلمة أحد الحفاظ الرفعاء الذين كانوا يسألون عن الرجال، ويؤخذ بقوله فيهم. أخذ عنه أحمد بن حنبل وابن معين علم ذلك. قال ابن سعد: خرج إلى الثغر فمات بالمصيصة سنة عشر ومئتين، وكان ثقة يتمتع بالحديث. رحمه الله تعالى».

يحيى بن إسحاق البجلي (٠٠ ـ ٢١٠ هـ)

ترجمه صاحب التذكرة. فقال: «الحافظ الثقة الرحال أبو زكريا البجلي السيلحيني. حدث عن حماد بن سلمة وأبان بن يزيد وسعيد بن عبد العزيز، ويحيى بن أيوب المصري وموسى بن علي، وطبقتهم. وروى عنه أحمد وهارون بن عبد الله الحمال وأحمد بن زهير، وبشر بن موسى والحارث بن محمد، وخلق. قال أحمد: شيخ صالح ثقة. وقال ابن سعد: كان ثقة حافظاً لحديثه. قلت: له مفاريد لكثرة ما روى. مات في شعبان سنة عشر ومئتين. رحمه الله».

أبو مسهر الغساني (٠٠ ـ ٢١٨ هـ)

من كبار اليمانية بالشام ترجمه الذهبي فقال: «شيخ أهل الشام وعالمهم، عبد الأعلى بن مسهر الغساني الدمشقي الحافظ، يعرف بابن أبي دارمة. ولد سنة أربعين ومئة. حدث عن سعيد بن عبد العزيز وعبد الله بن العلاء بن زيد ومالك بن أنس، وخلق. وعنه أحمد والذهلي وإبراهيم بن ديزيل وعبد الرحمن ابن القاسم الرواس وأبو زرعة الدمشقي، وطائفة. قال: أبو داود: سمعت أحمد بن حنبل يقول: رحم الله أبا مسهر ما كان أثبته، وجعل يطريه. وقال أبو زرعة الدمشقي: قال يحيىٰ بن معين: منذ خرجت من بغداد إلى أن رجعت لم أر مثل أبي مسهر. قلت: وكان أبو مسهر ممن امتحنه المأمون، وأكرهه على أن يقول القرآن مخلوق. فأصر وصمم، فوضعه في النطع ليضرب عنقه، فأجاب وقال: القرآن مخلوق، فأقيم من النطع، فرجع في الحال، فسجنه المأمون نحواً من مئة يوم وجاءه الأجل فمات في سنة ثماني عشرة ومئتين».

إمام علم التجويد: حفص بن عمر الدوري (٠٠ ـ ٢٤٦ هـ)

لليمن أعلام في القراءات، وعلى رأسهم حفص بن عمر الدوري. ترجمه الزركلي فقال: «حفص بن عمر بن عبد العزيز الأزدي الدوري. أبو عمر: إمام القراءة في عصره، كان ثقة ثبتاً ضابطاً. له كتاب (وما اتفقت ألفاظه ومعانيه من القرآن) و (قراءات النبي ﷺ) خ في الظاهرية. و (أجزاء القرآن). وهو أول من جمع القراءات، وكان ضريراً. نسبته إلى الدور، محلة ببغداد. ونزل سامراء. وتوفي في رنبؤيه من قرى الري. توفي سنة ٢٤٦ هـ».

يونس بن عبد الأعلى الصدفي (.... ـ ٢٦٤ هـ)

الصدف قوم من كندة نزلوا مصر. قال ابن خلكان في ترجمته: ذكره أبو عبد الله القضاعي في كتاب (خطط مصر): فقال: «كان من أفضل أهل زمانه، وكان من العقلاء، يروى عن الشافعي رضي الله عنه أنه قال: ما رأيت بمصر

أعقل من يونس بن عبد الأعلى. وصحب الشافعي، وأخذ عنه الحديث والفقه، وحدث بهما عنه جماعة. وله حُبُسٌ في ديوان الحكم وعقب. وله دار مشهورة في خطة الصدف، مكتوب عليها اسمه وتاريخها سنة خمس عشرة ومئتين. وكان أحد الشهود بمصر، أمام شاهداً ستين سنة. وذكر غير القضاعي أن يونس بن عبد الأعلى روى عنه الإمام مسلم بن الحجاج القشيري، وأبو عبد الرحمن النسائي وأبو عبد الله بن ماجه، وغيرهم، وقال أبو الحسن بن زولاق في كتاب (أخبار قضاة مصر) إن القاضي بكار بن قتيبة لما تولىٰ قضاء مصر وتوجه إليها من بغداد، لقي في طريقه محمد بن الليث قاضي مصر. كان قبله بالجفار خارجاً من مصر إلى العراق مصروفاً، فقال له بكار: أنا رجل غريب، وأنت قد عرفت البلد، فدلني على من أشاوره وأسكن إليه. فقال له: عليك برجلين، أحدهما: عاقل، وهو يونس بن عبد الأعلى. فإني سعيت في دمه، فقدر عليَّ فحقن دمي والآخر أبو هارون موسى بن عبد الرحمن بن القاسم فإنه رجل زاهد. فقال له بكار: صف لي الرجلين. فقال له: أما يونس فرجل طويل أبيض، ووصف له موسى. فلما دخل بكار مصر ودخل الناس إليه، دخل شيخ فيه صفة يونس، فرفعه بكار، وأقبل عليه يقول: يا أبا موسى في كل حديثه، فبينا بكار كذلك إذ قيل له. هذا يونس. فأقبل علىٰ الرجل، وقال له: يا هذا من أنت؟ وما سكوتك لو أفشيت إليك سراً لي. ثم دخل يونس فأكرمه، ورفعه وأتاه ابن عبد الرحمن فاختص بهما، وأخذ رأيهما: وقيل إن موسى المذكور به القاضي بكار، وكان يتبرك به لزهده، فقال له يوماً: يا أبا هارون من أين المعيشة؟ قال: من وقف وقفة أبي. فقال له بكار أيكفيك؟ قال: قد تكفيت به، وقد سألني القاضي فأريد أن أسأله. قال: سل، قال: هل ركب القاضي دينٌ بالبصرة حتى تولى بسببه القضاء؟ قال: لا، قال: فهل رزق ولداً أحوجه إلى ذلك؟ قال: لا ما نكحت قط، قال: فهل لك عيال كثيرة؟ قال: لا، قال: فهل أجبرك السلطان وعرض عليك العذاب وخوفك؟ قال: لا، قال: فضربت آباط من البصرة إلى مصر لغير حاجة

ولا ضرورة لله عليّ، لا دخلت عليك أبداً. فقال: يا أبا هارون، أقلني قال: أنت بدأت بالمسألة ولو سكت لسكت. ثم انصرف، ولم يعد إليه بعدها. وقال يونس: رأيت في المنام قائلاً يقول لي: إن اسم الله الأكبر لا إله إلا الله، ونقلتها من كتاب في أخبار من سكن المقطم. قال في ترجمة يونس المذكور: ومن حكايته التي حكاها عن غيره أن رجلاً جاء إلى نحاس فقال له: أسلفني ألف دينار إلى أجل. فقال له النحاس: من يضمن المبلغ؟ قال: الله تعالى، فأعطاه ألف دينار، فسافر بها الرجل يتجر، فلما بلغ الأجل أراد الخروج إليه فحبسه الريح . ، فعمل تابوتاً، وجعل فيه ألف دينار، وأغلقه وسمره وألقاه في البحر، فقال: اللهم هذا الذي ضمنته لي. فخرج صاحب المال ينتظر قدوم الذي معه المال، فرأى سواداً في البحر فقال: ائتوني بهذا فأوتي بالتابوت، ففتحه فإذا فيه ألف دينار. توفي سنة ٢٦٤هـ».

أبو المغيرة عبد القدوس الخولاني (.... ـ ٢١٢ هـ)

من حفظة اليمنيين بالشام ترجمة الذهبي فقال:

«ابن الحجاج الخولاني الحمصي، محدث الشام. روى عن صفوان بن عمرو ومريز بن عثمان وأرطأة بن المنذر، والأوزاعي وعبد الله بن العلاء بن زيدُ، وطبقتهم، وعنه أحمد والبخاري والذهلي وسلمة بن شبيب، وأبو محمد الدارمي ومحمد بن عوف، وآخرون. وكان من ثقات العلماء. قال ابن زنجويه: ما رأيت أخشع من أبي المغيرة. قال البخاري: مات بحمص سنة اثنتي عشرة ومئتين، وصلى عليه أحمد بن حنبل».

سليمان بن حرب الأزدي (.... ـ ٢٢٤ هـ)

من حفظة اليمنيين بالعراق. قال الذهبي في ترجمته:

«أبو أيوب الواشحي الأزدي البصري قاضي مكة. سمع شعبة والحمادين ومبارك بن فضالة، وطبقتهم. وعنه أحمد وإسحاق وأبو زرعة، وأبو حاتم

والبخاري وأبو داود وأبو خليفة الجمحي، وخلق. قال أبو حاتم: إمام لا يدلس، ويتكلم في الرجال والفقه، وليس هو بدون عفان. وقد ظهر من حديثه نحو عشرة آلاف حديث. وما رأيت في ذلك كتاباً قط، حضرت مجلسه ببغداد فحزر، بأربعين ألفاً بني شبه منبر بجنب قصر المأمون فصعده وحضر المأمون والأمراء، فأرسل المأمون ستراً شفافاً، وبقي يكتب ما يملي. قال يحيى بن أكثم: قال لي المأمون من تركت بالبصرة؟ فوصفت له مشايخ منهم سليمان بن حرب، وقلت: هو ثقة حافظ للحديث، عاقل، في غاية الستر والصون فأمر بحمله إليه. وقال يعقوب بن شيبة: كان ثقة ثبتاً، صاحب حفظ. قال ابن حنبل وغيره: مات سنة أربع وعشرين ومئتين، وله ترجمة وجلالة. كان عفان يعظمه. وذكره لعلي بن المديني فجعل يثني عليه».

محمد الهمداني الخارفي (٠٠٠ - ٢٣٤ هـ)

يعتبره ابن حنبل بأنه درة العراق. ترجمة الذهبي فقال:

«الحافظ الثبت أبو عبد الرحمن الهمداني الخارفي الكوفي، أحد الأعلام. سمع أباه والمطلب بن زياد وسفيان بن عيينة وابن إدريس وطبقتهم. وعنه الستة، لكن [ت س] بواسطة، وبقي بن مخلد ومطين. وأبو يعلى، وأمم سواهم. قال أبو إسماعيل الترمذي كان أحمد بن حنبل يعظم ابن نمير تعظيماً عجباً وقال إبراهيم بن مسعود الهمداني سمعت أحمد بن حنبل يقول: ابن نمير درة العراق. وقال علي بن الحسين بن الجنيد: ما رأيت بالكوفة مثله، جمع العلم والفهم والفقه والزهد، وكان فقيراً. وقال أبو حاتم ثقة حجة. وقال النسائي: ثقة مأمون وقال أحمد بن صالح: ما رأيت بالعراق مثل أحمد وابن نمير. قال البخاري مات، في شعبان، أو في رمضان، سنة أربع وثلاثين ومئتين رحمه الله تعالى.

أبو كريب محمد الهمداني (... - ٢٤٨ هـ)

أحد أوعية الحديث بالعراق ترجمة الذهبي فقال:

«محمد بن العلاء الهمداني الكوفي الحافظ الثقة، محدث الكوفة. سمع ابن عيينة وابن المبارك وهشيماً وعمرو بن عبيد، وحاتم بن إسماعيل، وطبقتهم. وعنه جماعة، وعبد الله بن أحمد والفريابي وابن خزيمة، وأبو عروبة ومحمد بن القاسم المحاربي، وخلق كثير. قال ابن نمير: ما بالعراق أحد أكثر حديثاً من أبي كريب، ولا أعرف بحديث بلدنا منه».

وكان ابن عقدة يقدم أبا كريب في الحفظ والكثرة على جميع مشايخهم، ويقول: ظهر له بالكوفة ثلاث مئة ألف حديث. وقال موسى بن إسحاق: سمعت من أبي كريب مئة ألف حديث. وقال أبو حاتم صدوق. وقال الحاكم: سمعت أبا الفضل محمد إبراهيم: سمعت إبراهيم بن أبي طالب يقول: قال لي محمد بن يحيى: من أحفظ من رأيت بالعراق؟

قلت: لم أر بعد أحمد مثل أبي كريب. قال أبو عمرو النيسابوري الحقاف: ما رأيت في المشايخ بعد ابن راهوية أحفظ من أبي كريب. وعن أبي كريب قال: أتيت بدمشق يحيى بن حمزة فوجدت عليه سواد القضاء، فلم أسمع منه. قال مطين: أوص أبو كريب بكتبه أن تدفن معه، فدفنت. مات في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين ومئتين، وله سبع وثمانون. سنة ٢٤٨ هـ».

الأشج الكندي (... - ٢٥٧ هـ)

من كبار حفاظ اليمنيين بالعراق في القرن الثالث ترجمة الذهبي فقال:

الإمام شيخ الإسلام أبو سعيد عبد الله بن سعيد بن حصين الكندي الكوفي الحافظ، محدث الكوفة، وصاحب التفسير والتصانيف. حدث عن هشيم، وأبي بكر أبي عياش، وعبد الله بن ادريس وعقبة بن خالد، وخلائق

وعنه الجماعة، وابن خزيمة وأبو يعلى وزكريا الساجي وعمر البحيري، وعبد الرحمن بن أبي حاتم، وأمم سواهم. ذكره أبو حاتم فقال: هو إمام أهل زمانه وقال محمد بن أحمد بن بلال الشطوي: ما رأيت أحداً أحفظ منه. وقال النسائي: صدوق. مات في ربيع الأول سنة سبع وخمسين ومئتين وقد زاد على التسعين. رحمه الله».

إبراهيم بن خالد الكلبي (... - ٢٤٠ هـ)

هو أحد أئمة المذاهب، وكان على مذهبه الولي الصالح أبو القاسم الجنيد. الإمام المجتهد الحافظ إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي، ويكنى أيضاً أبا عبد الله حدث عن سفيان بن عيينة وعبيدة بن حميد وأبي معاوية، ووكيع والشافعي، وطبقتهم وعنه أبو داود وابن ماجة ومحمد بن إسحاق السراج وقاسم المطرز، ومحمد بن صالح بن ذريح، وخلق. قال أبو بكر الاغلبي سألت أحمد عنه فقال: أعرفه بالسنة منذ خمسين سنة وهو عندي في مسلاخ الثوري. وقال النسائي: هو ثقة مأمون أحد الفقهاء. وقال ابن حبان: كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وورعاً وعلماً وقد صنف الكتب، وفرع على السنن وذب عنها. قيل مات في صفر سنة أربعين ومئتين. رحمه الله. (نقلاً عن التذكرة للذهبي) وكلب قبيلة من قضاعة اليمنية النازحة قبل الإسلام.

حميد بن زنجويه (... - ٢٥١ هـ)

ناشر السنة بمدينة نسا ترجمه الذهبي فقال:

«الحافظ البارع أبو أحمد الأزدي النسائي مصنف كتاب الأموال، وكتاب الترغيب والترهيب. سمع النضر بن شميل ويزيد بن هارون وجعفر بن عون وسعيد الضبعي، وطبقتهم. حدث عنه أبو داود السجستاني والنسائي وابن صاعد، ومحمد بن خريم وعبد الله بن عتاب الدمشقيان والقاضي المجاملي،

وخلق كثير. قال أبو عبيدة: ما قدم علينا من فتيان خراسان مثل ابن زنجويه وأحمد بن سوية. وقال النسائي: حميد ثقة. وقال ابن حبان: هو أظهر السنة بنسا. وقال آخر: كان ثقة حجة من كبار الأئمة. مات سنة إحدى وخمسين ومئتين، واسم أبيه مخلد بن قتيبة، رحمه الله.

محمد بن أسلم الكندي (... ـ ٢٤٢ هـ)

من أضراب ابن حنبل أثنى عليه ابن راهويه وابن خزيمة. قال الذهبي:

«ابن يزيد الكندي مولاهم، الإمام الرباني شيخ المشرق أبو الحسن الطوسي سمع يعلى بن عبيد وأخاه محمداً وجعفر بن عون ويزيد بن هارون وعبيد الله بن موسى والمقرىء، وطبقتهم، صنف المسند، وجود، وكان من الثقات الحفاظ والأولياء الأبدال. سمعت الأربعين له بالعلو. وأقدم شيخ له النضر بن شميل. حدث عنه ابن خزيمة وجماعة من أئمة الحديث. قال محمد بن رافع دخلت على محمد بن أسلم الطوسي فما شبهته إلا بأصحاب النبي ﷺ. وقال ابن خزيمة: حدثنا رباني هذه الأمة محمد بن أسلم. قال محمد بن يوسف البناء الأصبهاني الزاهد: حدثنا محمد بن القاسم الطوسي خادم محمد بن أسلم قال: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: وسئل عن قوله عليه السلام: «فعليكم بالسواد الأعظم». قال: هو محمد بن أسلم وأصحابه ومن تبعه، لم أسمع عَلماً منذ خمسين سنة أشد تمسكاً منه بالأثر. وقال ابن خزيمة مرة: حدثني من لم تر عيناي مثله محمد بن أسلم. قال أحمد بن نصر النيسابوري: قيل لي أنه صلى على محمد بن أسلم ألف ألف إنسان.

قلت: قد استوفيت مناقب هذا الإمام في تاريخ الإسلام، وكان يشبه أحمد بن حنبل. مات في المحرم سنة اثنتين وأربعين ومئتين. (رحمه الله تعالى)».

أبو داود السجستاني (... - ٢٧٥ هـ)

صاحب السُّنن وكفى بها فضلاً. قال الذهبي في ترجمته:

«الإمام الثبت سيد الحفاظ، سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السجستاني صاحب السنن. قال أبو عبد الآجري: سمعته يقول: ولدت سنة اثنتين ومئتين، وصليت على عفان ببغداد سنة عشرين. سمع أبا عمر الضرير ومسلم بن إبراهيم، والقعنبي وعبد الله بن رجاء وأبا الوليد الطيالسي، وأحمد بن يونس وأبا جعفر النفيلي وأبا توتة الحلبي، وسليمان بن حرب، وخلقاً كثيراً بالحجاز والشام ومصر والعراق والجزيرة والثغر وخراسان. حدث عنه الترمذي والنسائي وابنه أبو بكر بن أبي داود، وأبو عوانة وأبو بشر الدولابي وعلي بن الحسن بن العبد وأبو أسامة محمد بن عبد الملك، وأبو سعيد بن الأعرابي وأبو علي اللؤلؤي وأبو بكر بن داسة، وأبو سالم محمد بن سعيد الجارودي وأبو عمرو وأحمد بن علي، فهؤلاء السبعة رووا عنه سننه. وحدث أيضاً عنه محمد بن يحيى الصولي وأبو بكر النجار ومحمد بن أحمد بن يعقوب المتوثي، وغيرهم. وكتب عنه شيخه أحمد بن حنبل حديث العتيرة، وأراه كتابه فاستحسنه. وقال محمد بن إسحاق الصاغاني: لين لأبي داود الحديث كما لين لداود الحديد، وكذا قال إبراهيم الحربي. وقال الحافظ موسى بن هارون: خلق أبو داود في الدنيا للحديث، وفي الآخرة للجنة، وما رأيت أفضل منه. وقال ابن داسة: سمعت أبا داود يقول: ذكرت في كتابي الصحيح وما يشبهه وما يقاربه. قال: وما كان فيه وهن شديد بينته. وبلغنا أن أبا داود كان من العلماء العاملين حتى إن بعض الأئمة قال: كان أبو داود يشبه أحمد بن حنبل في هديه ودله وسمته، وكان أحمد يشبه بوكيع، وكان وكيع يشبه في ذلك بسفيان، وسفيان بمنصور، ومنصور بإبراهيم، وإبراهيم بعلقمة، وعلقمة بابن مسعود. وقال علقمة: كان ابن مسعود يشبه بالنبي ﷺ في هديه ودله. قال الحاكم أبو عبد الله: أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة. قال ابن داسة: كان

لأبي داود كم واسع وكم ضيق، فقيل له في ذلك، فقال: الواسع للكتب، والآخر لا يحتاج إليه. قال أبو داود في سننه شبرت قثاء بمصر ثلاثة عشر شبراً، ورأيت أترجة على بعير قطعت قطعتين، وعملت مثل عدلين. قال ابن أبي داود: سمعت أبي يقول: خير الكلام ما دخل الأذن بغير إذن.

مات أبو داود في سادس عشر من شوال سنة خمس وسبعين ومئتين بالبصرة. وكان أخو الخليفة، التمس منه بعد فتنة الزنج أن يقيم بها لتعمر من العلم بسببه. قال زكريا الساجي: كتاب الله أصل الإسلام، وسنن أبي داود وعهد الإسلام وعن أبي داود قال: كتبت عن النبي ﷺ خمس مئة ألف حديث، انتخبت منها هذه السنن، فيه أربعة آلاف وثمان مئة حديث. قلت الثبت أن أبا داود من سجستان، إقليم يتاخم أطراف مكران والسند، وهو وراء هراة. وبعضهم يقول: إنه من سجستان، قرية من قرى البصرة».

مطين الحضرمي (٢٠٢ ـ ٢٩٧ هـ)

أحد أصحاب المسانيد ترجمه الذهبي فقال:

«الحافظ الكبير أبو جعفر محمد بن عبد الله بن سليمان الحضرمي الكوفي. رأى أبا نعيم، وسمع أحمد بن يونس ويحيى الحماني ويحيى بن بشر الحريري وسعيد بن عمرو الأشعثي. وكان من أوعية العلم. حدث عنه أبو بكر النجاد وأبو القاسم الطبراني وأبو بكر الإسماعيلي، وعلي بن حسان الدميمي وعلي بن عبد الرحمن البكائي، وعدة. وقد صنف المسند وغير ذلك. وله تاريخ صغير. قال أبو بكر بن أبي دارم الحافظ: كتبت عن مطين مئة ألف حديث. وسئل عنه الدارقطني فقال: ثقة جبل. قلت ولد سنة اثنتين ومئتين ومات في ربيع الآخر سنة سبع وتسعين ومئتين».

أبو جعفر الطحاوي الأزدي (... - ٣٢١ هـ)

من كبار أعلام اليمن بمصر في القرن الثالث ترجمه الذهبي فقال:

الإمام العلامة الحافظ صاحب التصانيف البديعة، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلمة الأزدي الحجري المصري الطحاوي الحنفي. وطحا من قرى مصر. سمع هارون بن سعيد الإبلي وعبد الغني بن رفاعة ويونس بن عبد الأعلى وعيسى بن مثرد، ومحمد بن عبد الله بن عبد الحكم وبحر بن نصر، وطبقتهم. روى عنه أحمد بن القاسم الخشبان وأبو الحسن محمد بن أحمد الأخميمي، ويوسف الميانجي وأبو بكر بن المقري والطبراني وأحمد بن عبد الوارث الزجاج، وعبد العزيز بن محمد الجوهري قاضي الصعيد ومحمد بن بكر بن مطروح، وآخرون. خرج إلى الشام سنة ثمان وستين ومئتين فتفقه بالقاضي أبي حازم وبغيره. قال ابن يونس: ولد سنة سبع وثلاثين ومئتين. وكان ثقة ثبتاً فقيهاًعاقلاً، لم يخلق مثله.

قال أبو إسحاق الشيرازي في الطبقات انتهت إلى أبي جعفر رياسة أصحاب أبي حنيفة بمصر. أخذ العلم عن أبي جعفر بن عمران وأبي حازم القاضي وغيرهما. وكان أولاً شافعياً يقرأ على المزني، فقال له يوماً والله لا جاء منك شيء. فغضب من ذلك، وانتقل إلى ابن أبي عمران. فلما صنف مختصره قال: رحم الله أبا إبراهيم، لو كان حياً لكفر عن يمينه. قلت: ناب في القضاء عن أبي عبد الله محمد بن عبدة القاضي لمصر بعد السبعين ومئة، وترقت حاله فحدث أنه حضر رجل متغبر عند القاضي محمد بن عبده، فقال: «ايش» روى أبو عبيدة بن عبد الله عن أمه عن أبيه فقلت: حدثنا بكار بن قتيبة أنبأنا أبو أحمد أنبأنا سفيان عن عبد الله التغلبي عن أبي عبيدة عن أمه عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليغار للمؤمن فليغر». وحدثنا به إبراهيم بن أبي داود أنبأنا سفيان بن وكيع عن أبيه عن سفيان موقوفاً، فقال لي الرجل: تدري ما تقول

تدري ما تتكلم به؟ قلت: ما الخبر؟ قال: رأيتك العشية مع الفقهاء في ميدانهم وأنت الآن في ميدان أهل الحديث وقل من يجمع ذلك؟ فقلت: هذا من فضل الله وإنعامه. قال: صنف أبو جعفر في اختلاف العلماء، وفي الشروط، وفي أحكام القرآن العظيم، وكتاب معاني الآثار. وهو ابن أخت المزني، وأما ابن أبي عمران الحنفي فكان قاضي الديار المصرية بعد القاضي بكار. قال ابن يونس: مات أبو جعفر في مستهل ذي القعدة، سنة إحدى وعشرين وثلاث ومئة عن بضع وثمانين سنة.

الإمام الطبراني اللخمي (٢٦٠ ـ ٣٦٠ هـ)

صاحب المعاجم الثلاثة في الحديث ترجمه الذهبي فقال:

«الحافظ العلامة الحجة بقية الحفاظ، أبو القاسم الطبري؟ سليمان بن أحمد بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني مسند الدنيا. ولد سنة ستين ومئتين، وسمع في سنة ثلاث وسبعين وهلم جرًّا بمدائن الشام والحرمين واليمن ومصر وبغداد والكوفة والبصرة وأصبهان والجزيرة، وغير ذلك. وحدث عن ألف شيخ، أو يزيدون.

وصنف المعجم الكبير، هو المسند سوى مسند أبي هريرة، فكأنه أفرده في مصنف، والمعجم الأوسط في ست مجلدات كبار على معجم شيوخه، يأتي فيه عن كل شيخ بما له من الغرائب والعجائب، فهو نظير كتاب الأفراد للدارقطني. بين فيه فضيلته وسعة روايته؛ وكان يقول: هذا الكتاب روحي فإنه تعب عليه وفيه كل نفيس وعزيز ومنكر.

وصنف المعجم الصغير وهو عن كل شيخ له حديث واحد. وصنف أشياء كثيرة. وكان من فرسان هذا الشأن مع الصدق والأمانة.

سمع هاشم بن مرثد الطبراني وأبا زرعة الثقفي، وإسحاق الإبري وإدريس العطار وبشر بن موسى، وحفص بن عمر سنجة [ألف] وعلي بن

عبد العزيز البغوي ومقدام بن داود الرعيني، ويحيى بن أيوب العلاف وأبا عبد الرحمن النسائي وعبد الله بن محمد بن سعيد بن أبي مريم، ونظرائهم. وحرص عليه في صيام عليه أبوه، ورحل به. وكان يروي عن رحيم وغيره مولد الطبراني بعكا في صفر سنة ستين، وأمه عكاوية، وله كتاب الدعاء في مجلد كبير للمناسك، وكتاب عُشرة النساء، وكتاب السنة، وكتاب الطوائف، وكتاب النوادر، وكتاب دلائل النبوة، وكتاب مسند شعبة وكتاب حديث الشاميين، وكتاب الأوائل، وكتاب الرمي وله تفسير كبير، وأشياء لم نقف عليها. حدث عنه أبو خليفة الجمحي وأحمد بن محمد الصحافي، وهؤلاء من شيوخه، وأبو بكر بن مردويه والفقيه أبو عمر محمد بن الحسين البسطامي، والحسين بن أحمد المرزبان وأبو بكر بن [أبي] علي الذكواني وأبو الفضل محمد أحمد الجارودي وأبو نعيم الحافظ، وأبو الحسين بن فادشاه وابن عبيد الله بن شهريار، وعبد الرحمن بن أحمد الصفار، وأبو بكر بن ريدة خاتمة أصحابه، وبقي بعده بعامين عبدالرحمن بن الذكوان يروي عنه بالإجازة فذكر تواليف الطبراني وسماها ولم يرها سوى يحيى بن مندة.

معجمه الكبير مئتا جزء معجمه الأوسط ثلاث مجلدات، معجمه الصغير، مجلد، (مسند العشرة) ثلاثون جزءاً (مسند الشاميين) مجلدات، (النوادر) مجلد، (معرفة الصحابة) مجلد فوائده عشرة أجزاء. (مسند أبي هريرة) كبير، (مسند عائشة). (التفسير) كبير. (دلائل النبوة) مجلد، (الدعاء) مجلد، (السنة) مجلد (الطوالات) مجلد، (حديث شعبة) مجلد، (حديث الأعمش) مجلد، (الأوزاعي) مجلد، (شيبان) مجلد، (أيوب) مجلد، (عشرة النساء) جزء، (مسند أبي ذر) جزآن، (الرؤية) جزء، (الجود) جزء، (العلم والأولوية) جزء، (فضل رمضان) جزء، (الفرائض) جزء (الرد على المعتزلة) جزء (الرد على الجهمية) جزء، (مكارم الأخلاق) (العزاء) جزء (الصلاة على الرسول ﷺ) جزء، (المأموم) جزء، (الغسل) جزء، (فضل العلم) جزء، (ذم الرأي) جزء، (تفسير الحسن) جزآن،

(الزهري عن أنس) جزآن (حديث ربيعة) (حديث حمزة الزيات) (حديث مسعد) (حديث أبي سعد البقال) (طرق حديث من كذب علي) جزء، (النوح) جزء، (مسند ابن جحادة) من اسمه عباد، من اسمه عطاء، من اسمه شعبة (أخبار عمر بن عبد العزيز) (عبد العزيز بن رفيع) (مسند روح بن القاسم)، (فضل عكرمة)، أمهات النبي ﷺ مسند عمارة بن عزية، وطلحة بن مصرف، وجماعة (مسند العبادلة) كبير (أحاديث ابن عمرو بن العلاء) (غرائب مالك) جزء (أبان بن تغلب) جزء. (حديث بن أبي مطر) (وصية أبي هريرة) (مسند الحارث العكلي) (فضائل الأربعة الراشدين) جزآن (مسند ابن عجلان) كتاب (الأشربة) كتاب (الطهارة) كتاب (الإمارة) (عشرة النساء) (مسند أبي أيوب الإفريقي) (مسند زياد الجصاص) (مسند زافي) وأشياء عدة.

قال الذكواني: سئل الطبراني عن كثرة حديثه فقال: كنت أنام على البواري ثلاثين سنة قال أبو نعيم: دخل الطبراني أصبهان سنة تسعين، وسمع وسافر، ثم قدمها فاستوطنها ستين سنة. وقال ابن مردويه: قدم الطبراني سنة عشر، فقبله أبو علي بن رستم العامل، وضمه إليه، وجعل له معلوماً من دار الخراج، وكان يتناوله إلى أن مات. قال أبو عمر بن عبد الوهاب السلمي سمعت الطبراني يقول: لما قدم ابن رستم من فارس أعطاني خمس مئة درهم، فلما كان في آخر أمره أخذ يتكلم في أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - ببعض الشيء، فخرجت ولم أعد إليه بعد. قال ابن فارس صاحب اللغة: سمع الأستاذ ابن العميد يقول: ما كنت أظن في الدنيا حلاوة كحلاوة الوزارة والرياسة التي أنا فيها حتى شاهدت مذاكرة الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي وكان الطبراني يغلبه بكثرة حفظه، وكان أبو بكر الجعابي يغلبه بفطنته، حتى ارتفعت أصواتهما إلى أن قال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلا عندي. فقال: هات، قال: أنبأنا إبراهيم أنبأنا سليمان بن أيوب، وحدث بحديث فقال الطبراني: أنبأنا أيوب ومني سمعه أبو خليفة، فأسمعه مني عالياً فخجل الجعابي، فوددت أن

الوزارة لم تكن. وكنت أنا الطبراني وفرحت كفرحه. قال جعفر بن السري: سألت ابن عقدة أن يعيد لي قوتاً، وشددت عليه، فقال: من أين أنت؟ قلت: من أصبهان. فقال: ناصبة فقلت: لا تقل هذا، فيهم فقهاء ومتشيعة. فقال: شيعة معاوية؟ قلت: بل شيعة علي رضي الله عنهم، وما فيهم إلا من علي أعز عليه من عينه وأهله. فأعاد علي ما فاتتني، ثم قال لي: سمعت من سليمان بن أحمد اللخمي؟ فقلت: لا أعرفه. فقال: يا سبحان الله أبو القاسم ببلدكم وأنت لا تسمع منه وتؤذيني هذا الأذى! ما أعرف له نظيراً».

وقال: أتعرف إبراهيم بن محمد بن حمزة؟ قلت: نعم، قال: ما رأيت مثله في الحفظ، قال ابن مندة الطبراني أحد الحفاظ المذكورين، حدث عن أحمد بن عبد الرحيم البرقي، ولم يحتمل سنة لقيه. قلت: نعم، ولكن ما أراده الطبراني، ولا قصر الرواية عنه، إنما روى عن عبد الرحيم بن البرقي السيرة، وغير ذلك، فغلط في اسمه، وسماه أخيه بلا شك، والخطب في ذلك يسير، وقد نبه على ذلك الحافظ أبو العباس، أحمد بن منصور الشيرازي، فإنه قال: كتبت عن الطبراني ثلاث مئة ألف حديث، وهو ثقة إلا أنه كتب بمصر عن شيخ، وكان له أخ سماه باسمه غلطاً. قال سليمان بن إبراهيم الحافظ: قال الباطرقاني: كان ابن مردويه سيء الرأي في الطبراني، ثم قال سليمان فقال له أبو نعيم كم كتبت عنه؟ فأشار إلى حزم، فقال أبو نعيم: فمن رأيت مثله؟ فلم يقل شيئاً. قال الحافظ الضياء. وقد ذكر ابن مردويه في تاريخه الطبراني فما ضعفه. قلت: فدل على أنه تبين له أنه صدوق. قال أبو نعيم: توفي لليلتين بقيتا من ذي القعدة سنة ستين وثلاث مئة. قلت: استكمل مئة عام وعشرة أشهر، وحديثه فذ، ملأ البلاد».

القاضي عياض اليحصبي (٤٧٦ ـ ٥٤٤ هـ)

يحصب هو ما يعرف اليوم ببلاد إريان من اليمن. قال ابن خلكان في ترجمته:

«القاضي أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي. كان إمام وقته في الحديث وعلوم النحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم. وصنف التصانيف المفيدة، منها: (الإكتمال في شرح كتاب مسلم) كمل به المعلم في شرح مسلم للمارزباني ومنها (مشارق الأنوار) وهو كتاب مفيد جداً في تفسير غريب الحديث المختصر بالصحاح الثلاثة، وهي الموطأ والبخاري ومسلم، وشرح حديث أم زرع شرحاً مستوفى، وله كتاب (التنبيهات) جمع فيه غرائب وفوائد.

وبالجملة، فكل تواليفه بديعة، ذكره أبو القاسم بن بشار في كتاب (الصلة) فقال دخل الأندلس طالباً للعلم، فأخذ بقرطبة عن جماعة، وجمع من الحديث كثيراً، وكان له عناية كبيرة به، والاهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنّن في العلم والذكاء واليقظة والفهم، واستقتى ببلده يعني مدينة سبتة مدة طويلة، حمدت سيرته فيها، ثم نقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يطل أمره فيها» انتهى كلامه.

وللقاضي عياض شعر حسن، فمنه ما رواه عنه ولده أبو عبد الله محمد قاضي رانية قال: أنشدني أبي لنفسه في خامات زرع، بينها شقائق النعمان هبت عليه ريح:

انظر إلى الزرع وخاماته
تحكي وقد ماست أمام الرياح
كتيبة حمراء مهزومة
شقائق النعمان فيها جراح

شاهده بـذلك، كتب إليـه أبو عـلي في جماعـة جيله، ولقي أيضاً آخـرين مثلهم، وشيـوخه يقـاربون المئـة. وكان مـولد القـاضي عياض بمـدينـة سبتـة في النصف من شعبان سنة ٤٧٦، وتوفي بمراكش يوم الجمعة السابع من جمادى الآخرة، وقيل: في شهر رمضان سنة ٥٤٤. رحمه الله. ودفن بباب إيـلان داخل المـدينة. وتولى القضاء بغرناطة سنة اثنتين وثلاثين وخمس ومئة، وتوفي ولده المـذكور سنـة خمس وسبعين وخمس مئة. رحمه الله».

الشهيد أحمد بن نصر الخزاعي (... - ٢٣١ هـ)

كـان لأسلاف هـذا المجاهـد الشهيد وقبيلتـه خزاعـة باع طـويـل في نصر الدولة العباسية، سبق التنويه. به في أول الباب. ومصرع هذا المجاهـد يكشف عن الحضيض الهابط الذي وصلت إليـه الحالـة السياسيـة والاجتماعيـة حينها بمـا يغني عن أي تعليق.

قال ابن كثير: «هو أحمد بن نصر بن مالـك بن الهيثم الخزاعي وكـان جده مالك بـن الهيثم من أكبر الدعـاة إلى دولة بني العبـاس، الذين قتلوا ولـده هذا، وكان أحمد بن نصر هذا ذا وجاهة ورياسة، وكان أبوه نصر بن مالك يغشاه أهـل الحديث، وقد بايعه العـامة في سنـة إحدى ومئـة على القيـام بالأمـر والنهي حين كـثرت الشطار والـدعار في غيبـة المأمـون عن بغـداد وبـه تعرف سـويقـة نصر ببغـداد. وكان أحمـد بن نصر هذا من أهـل العلم والـديـانـة والعمـل الصـالـح والاجتهاد في الخير، وكان من أئمة السنة الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكـر، وكان ممن يدعو إلى القول بأن القرآن الكريم كلام الله منزل غير مخلوق، وكان الـواثق من أشد النـاس في القول بخلق القـرآن، يـدعـو إليه ليـلاً ونهاراً، سراً وجهاراً، اعتماداً على ما كان عليه أبوه قبله وعمه المأمون من غير دليل ولابرهان، ولا حجة ولا بيان، ولا سنة ولا قرآن فقام أحمد بن نصر هذا يدعـو إلى الله وإلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول إن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق،

في أشياء كثيرة، دعا الناس إليها. فاجتمع عليه جماعة من أهل بغداد، والتف عليه من الألوف أعداد، وانتصب للدعوة إلى أحمد بن نصر رجلان، هما أبو هارون السراج: يدعو أهل الجانب الشرقي، وآخر يقال له طالب: يدعو أهل الجانب الغربي، فاجتمع عليه من الخلائق ألوف كثيرة، وجماعات غزيرة. فلما كان شهر شعبان من هذه السنة انتظمت البيعة لأحمد بن نصر الخزاعي في السر على القيام بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والخروج على السلطان لبدعته ودعوته إلى القول بخلق القرآن، ولما هو عليه وأمراؤه وحاشيته، من المعاصي والفواحش، وغيرها. فتواعدوا على أنهم في الليلة الثالثة من شعبان وهي ليلة الجمعة يضرب طبل في الليل، فيجتمع الذين بايعوا في مكان اتفقوا عليه، وأنفق طالب وأبو هارون في أصحابهما ديناراً ديناراً، وكان من جملة من أعطوهما رجلان من بني أشرس، وكانا يتعاطيان الشراب، فلما كانت ليلة الخميس شربا في قوم من أصحابهم، واعتقدوا أن تلك الليلة هي ليلة الوعد، وكان ذلك قبله بليلة، فقاما يضربان على طبل في الليل ليجتمع إليهما الناس، فلم يجيء أحد، وانخزم النظام، وسمع الحراس في الليل، فأعلموا نائب السلطنة وهو محمد بن إبراهيم بن مصعب، وكان نائباً لأخيه إسحاق بن إبراهيم لغيبته عن بغداد، فأصبح الناس متخبطين، واجتهد نائب السلطنة على إحضار هذين الرجلين، فأحضرا، فعاقبهما، فأقرا على أحمد بن نصر فطلبه، وأخذ خادماً فاستقره فأقر بما أقر به الرجلان، فجمع جماعة من رؤوس أصحاب أحمد بن نصر معه، وأرسل بهم إلى الخليفة بسر من رأى، وذلك في آخر شعبان، فأحضر له جماعة من الأعيان، وحضر القاضي أحمد بن أبي دؤاد المعتزلي وأحضر أحمد بن نصر، ولم يظهر منه على أحمد بن نصر عتب. فلما أوقف أحمد بن نصر بين يدي الواثق ولم يعاتبه على شيء مما كان منه في مبايعته العوام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغيره، بل أعرض عن ذلك كله وقال له: ما تقول في القرآن. فقال هو كلام الله قال: أمخلوق هو؟ قال: هو كلام الله. وكان أحمد بن نصر قد استقتل

وباع نفسه وحضر وقد تحنط وتنور وشد على عورته ما يسترها. فقال له فما تقول في ربك أتراه يوم القيامة؟ فقال: يا أمير المؤمنين، قد جاء القرآن والأخبار بذلك. قال الله تعالى: وجوهٌ يومئذٍ ناضرة إلى ربها ناظرة﴾. وقال رسول الله ﷺ: «إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون في رؤيته» فنحن على الخبر زاد الخطيب. قال الواثق. ويحك، أيرى كما يُرى المحدود المتجسم ويحويه مكان، ويحصره الناظر، وأنا أكفر برب هذه صفته قلت: وما قاله الواثق لا يجوز ولا يلزم، ولا يرد به هذا الخبر والله أعلم ثم قال أحمد ابن نصر للواثق وحدثني سفيان إن يشاء يرفعه: «إن قلب ابن آدم بإصبعين من أصابع الله يقلبه كيف يشاء» وكان النبي ﷺ يقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك» فقال له إسحاق بن إبراهيم. ويحك، انظر ما تقول. فقال: أنت أمرتني بذلك. فأشفق إسحاق من ذلك وقال: أنا أمرتك؟ قال: نعم أنت أمرتني أن أنصح له. فقال الواثق لمن حوله: ما تقولون في هذا الرجل. فأكثروا القول فيه، فقال عبد الرحمن بن إسحاق، وكان قاضياً على الجانب الغربي فعزل، وكان مواداً لأحمد بن نصر قبل ذلك وقال يا أمير المؤمنين، هو حلال الدم. وقال أبو عبد الله الأرمني صاحب أحمد بن أبي دؤاد: اسقني دمه يا أمير المؤمنين. فقال الواثق: لا بد أن يأتي ما تريد. وقال ابن أبي دؤاد: وهو كافر يستتاب لعل له عاهة أو نقص عقل. فقال الواثق: إذا رأيتموني قمت إليه فلا يقومن أحد معي فإني أحتسب خطاي. ثم نهض إليه بالصمصامة، وقد كانت شيئاً لعمرو بن معديكرب الزبيدي أهديت لموسى الهادي في أيام خلافته، وكانت صفيحة مسحورة في أسفلها، مسمورة بمسامير، فلما انتهى إليه ضربه بها على عاتقه وهو مربوط بحبل قد أوقف على نطع، ثم ضربه أخرى على رأسه، ثم طعنه بالصمصامة في بطنه فسقط صريعاً ـ رحمه الله ـ على النطع ميتاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون. رحمه الله وعفا عنه. ثم انتضىء سيما الدمشقي سيفه، فضرب عنقه وحز رأسه، وحمل معترضاً حتى أتى به الحظيرة التي فيها بابك الخرمي، فصلب فيها وفي رجليه زوج قيود، وعليه سراويل وقميص، وحمل رأسه إلى بغداد، فنصب في الجانب

الشرقي أياماً، وفي الغربي أياماً، وعنده الحرس في الليل والنهار، وفي أذنه رقعة مكتوب فيها: «هذا رأس الكافر المشرك الضّال أحمد بن نصر الخزاعي ممن قتل على يدي عبد الله بن هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين، بعد أن أقام عليه الحجة في خلق القرآن، ونفي التشبيه، وعرض عليه التوبة، ومكنه من الرجوع إلى الحق، فأبى إلا المعاندة والتصريح. فالحمد لله الذي عجله إلى ناره وأليم عقابه بالكفر، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه». ثم أمر الواثق بتتبع رؤوس أصحابه، فأخذ منهم نحواً من تسع وعشرين رجلاً، فأودعوا في السجون وسموا (الظلمة)، ومنعوا أن يزورهم أحد وقيدوا بالحديد، ولم يجر عليهم شيء من الأرزاق التي كانت تجري على المحبوسين، وهذا ظلم عظيم.

وقد كان أحمد بن نصر هذا من أكابر العلماء العاملين القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وسمع الحديث من حماد بن زيد وسفيان بن عيينة وهاشم بن بشير، وكانت عنده مصنفاته كلها، وسمع من الإمام مالك بن أنس أحاديث جيدة، ولم يروِ بكثير من حديثه. وحدث عنه أحمد بن إبراهيم الدورقي، ويعقوب بن إبراهيم ويحيى بن معين، وذكره يوماً فترجم له وقال: قد ختم الله له بالشهادة، وكان لا يحدث، ويقول: إني لست أهلاً لذلك. وأحسن يحيى بن معين الثناء عليه جداً وذكره الإمام أحمد بن حنبل يوماً فقال: رحمه الله ما كان أسخاه بنفسه لله، لقد جاد بنفسه له. وقال جعفر بن محمد الصائغ: بصرت عيناي وإلا فقئتا، وسمعت أذناي وإلا فصُمّتا. أحمد بن نصر الخزاعي حين ضربت عنقه يقول رأسه: لا إله إلا الله. وقد سمعه بعض الناس وهو مصلوب على الجذع ورأسه يقرأ: ﴿ألم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ قال: فاقشعر جلدي. ورآه بعضهم في النوم فقال له: ما فعل بك ربك؟ فقال ما كانت إلا غفوة حتى لقيت الله عز وجل، فضحك إلي. ورأى بعضهم رسول الله ﷺ في المنام ومعه أبو بكر وعمر قد مروا على الجذع الذي عليه رأس أحمد بن نصر، فلما جاوزه أعرض رسول الله ﷺ بوجهه الكريم

عنه، فقيل له: يا رسول الله ما لك أعرضت عن أحمد بن نصر؟ فقال: أعرضت عنه استيحاء منه حين قتله رجل يزعم أنه من أهل بيتي استشهد سنة ٢٣١ هـ.

ابن رميح النخعي (... ـ ٣٥٧ هـ)

من كبار حفاظ اليمنيين في مشرق الإسلام ترجمه الذهبي فقال:

الحافظ الإمام الجوال أبو سعيد أحمد بن محمد بن رميح بن عصمة النخعي النسوي، ثم المروزي صاحب التصانيف. روى عن أبي خليفة الجمحي وعمر بن أبي علان وعبد الله بن زيدان وأبي العباس السراج وابن شيرويه وعبد الله بن محمود المروزي، وعمر بن بجير ومحمد بن الفضل السمرقندي وابن قتيبة العسقلاني، وطبقتهم. وصنف وألف وأكثر الترحال. قال الحاكم: قدم نيسابور، فعقدت له المجلس، وقرأت عليه صحيح البخاري. وقد أقام باليمن بصعدة مدة ثم قدم، وأكرموه وأكثروا عليه ببغداد وما التمثل فيه إلا كما قال ابن معين لو ارتد عبد الرزاق ما تركنا حديثه ثم قال الحاكم: سألت أبا سعيد المقام بنيسابور. فقال على من أقيم، فوالله لو قدرت لم أفارق سدتك. ثم قال: ما الناس بخراسان إلا كما أنشدني بعضهم.

كفى حزناً أن المروءة عطلت
وأن ذوي الألباب في الناس ضيع
وأن ملوكاً ليس يحظى لديهم
من الناس إلا من يغني ويصفع

حدث عنه الدارقطني والحاكم وابن زرقويه وأبو علي بن دوما وأبو عبد الرحمن السلمي وأبو القاسم عبد الرحمن السراج، واستدعاه أمير صعدة من بغداد فأدركته المنيّة بالبادية، فمات بالجحفة. وثقه الحاكم وأبو الفتح بن أبي الغواري وقال أبو زرعة محمد بن يوسف الكشي وأبو نعيم: كان ضعيف. قال

الخطيب: والأمر عندنا بخلاف ذلك، فإن ابن رميح ثقة ثبت. توفي سنة ٣٥٧ هـ.

الحسن بن أحمد الهمداني (.... ـ ٣٧١ هـ)

من كبار حفاظ اليمانية بالشام في القرن الرابع ترجمه الذهبي فقال:

الحافظ العلامة أبو محمد الحسن بن أحمد بن صالح السبيعي الحلبي، وإليه ينسب درب السبيعي الذي بحلب سمع محمد بن حبان البصري وعبد الله بن ناجية وقاسم بن زكريا المطرز وعمر بن محمد الكاغدي ومحمد بن جرير الطبري، وأحمد بن هارون البرديجي وعمر بن أيوب السقطي، وطبقتهم. روى عنه الدارقطني وأبو محمد عبد الغني الأزدي وأبو بكر البرقاني، وأبو طالب بن بكير وأبو نعيم الحافظ وأبو العلاء الواسطي والشيخ المفيد محمد بن محمد النعمان الشيعي، وآخرون.

وكان عسراً في الرواية، ذعر الأخلاق، من أئمة هذا الشأن على تشيع فيه. وثقه أبو الفتح بن أبي الفوارس. قال ابن أبي سلمة الحلبي: لو لم يكن للحلبيين من الفضيلة إلا الحسن بن أحمد السبيعي لكفاهم. كان وجيهاً عند الملك سيف الدولة، وكان يزور السبيعي في داره قال: وصنف له كتاب (التبصرة في فضل العترة المطهرة وكان له بين العامة سوق قال: وهو الذي وقف حمام. السبيعي على العلوية. قال جعفر بن أبي الحسن الهمداني: أنبأنا أبو طاهر السلفي وأنبأنا أبو غالب محمد بن الحسن وجماعة قالوا: أنبأنا أبو طالب محمد بن الحسن بن أحمد بن بكير أنبأنا الحسن بن أحمد السبيعي الحافظ بقراءة الدارقطني أنبأنا محمد بن حباب أنبأنا سليمان الشاذكوني أنبأنا عيسى بن يونس عن مجالد عن الشعبي عن جابر قال: سألت النبي ﷺ عن صيد البازي، فقال: «إذا أمسك عليك فكل». قال الحاكم: سألت السبيعي عن حديث إسماعيل بن رجاء، فقال له قصة، قرأ علينا ابن ناجية مسند فاطمة بنت قيس، فدخلت على الباغندي

فقال: من أين جئت قلت: من مجلس ابن ناجية. قال: فما قرأ؟ قلت أحاديث الشعبي عن فاطمة بنت قيس فقال: مر لكم حديث إسماعيل بن رجاء عن الشعبي فنظرت في الجزء فلم أجده، فقال: اكتب ذكر أبو بكر بن أبي شيبة، فقلت: عمن ومنعته التدليس؟ فقال حدثني محمد بن عبيدة الحافظ أنبأنا [محمد] بن المعلى الأثرم أنبأنا أبو بكر محمد بن بشر العبدي عن مالك بن مغول عن إسماعيل بن رجاء عن فاطمة قصة الطلاق والسكنى والنفقة، ثم انصرفت إلى حلب، وكان عندنا بغدادي فذكرت له هذا، فخرج إلى الكوفة، وذكر ابن عقدة فكتب عنه هذا الحديث عني عن الباغندي. ثم اجتمعت مع فلان يعني الجعابي فذاكرته بهذا فلم يعرفه، ثم اجتمعنا بعد سنين بدمشق فاستعادني إسناده تعجباً، ثم اجتمعنا ببغداد فذكرنا هذا الباب، فقال: حدثنا علي بن إسماعيل الصفار أنبأنا أبو بكر الأثرم أنبأنا ابن أبي شيبة، ولم يدرِ أن الأثرم هذا غير ذاك، فذكرت قصتي لفلان المفيد، وأتى عليه سنون، فحدث بالحديث عن الباغندي، ثم قال السبيعي: ألمذاكرة تكشف عوار من لا يصدق. قال الخطيب: كان أبو محمد السبيعي ثقة حافظاً مكثراً، عسراً في الرواية. ولهذا كان بآخره عزم على التحديث والإملاء، فتهيأ لذلك فمات. حديث عن الدارقطني قال: سمعت أبا محمد السبيعي يقول: قدم علينا الوزير ابن حنزابة إلى حلب، فتلقاه الناس فعرف أني محدث، فقال لي: تعرف إسناداً فيه أربعة من الصحابة؟ فذكرت له حديث عمر في العمالة، فعرف لي ذلك، وصارت لي به عنده منزلة. قلت: هذه الحكاية سمعها [الحافظ] عبد الغني بن سعيد من الدارقطني ومات أبو محمد بن السبيعي في السابع من ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وثلاث مئة. رحمه الله وهو غير الهمداني صاحب الإكليل».

كوكبة من الحفاظ

رغبة في تقريب الفائدة وتجنباً للتطويل رأينا إيراد مجموعة من حفاظ حديث رسول الله ﷺ، مقتصرين على الاسم والتزكية من أئمة الحديث وتاريخ الوفاة نقلاً عن التذكرة مع بعض التصرّف والإضافة.

١ ـ أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة بن عقبة بن فرعان الحضرمي المصري. واللهايع بطن من حمير ذكرهم الهمداني في (الإكليل) أو لمن تولى القضاء بمصر. روى عنه عبد الله بن المبارك والأوزاعي. قال عنه الإمام أحمد بن حنبل: من كان مثل ابن لهيعة بمصر في كثرة حديثه وضبطه وإتقانه؟! توفي سنة ١٥٤ هـ بمصر.

٢ ـ إسماعيل بن عياش العنسي الحمصي: نعته الذهبي بمحدث الشام، وقال: إنه من أوعية العلم، توفي سنة ١٨٢ هـ.

٣ ـ عبثر بن القاسم الزبيدي الكوفي. قال عنه أبو داود إنه ثقة. توفي سنة ١٧٨ هـ.

٤ ـ عباد بن عباد العتكي: من ولد المهلب بن أبي صفرة. قال عنه يحيى بن معين: إنه ثقة وأكثر حديثاً من حماد بن العوام توفي سنة ١٨١ هـ ببغداد.

٥ ـ سليمان بن حيان الأزدي الكوفي: قال عنه الذهبي إنه من مشاهير المحدثين توفي سنة ١٨٩ هـ.

٦ ـ أبو المغيرة عبد القدوس بن الحجاج الخولاني الحمصي: أخذ عنه أحمد بن حنبل والبخاري، مات سنة ٢١٢ هـ. بحمص.

٧ ـ سليمان بن حرب الواشحي الأزدي البصري: كنيته أبو أيوب. قاضي مكة. كان يحدث ببغداد، فحزر من حضره مجلسه بأربعين ألف. توفي ٢٢٤ هـ.

٨ ـ أبو عمر حفص بن عمر بن الحارث بن سخبرة الأزدي البصري: عن أحمد بن حنبل قال ثبت متقن، لا يؤخذ عليه حرف واحد. توفي سنة ٢٢٥ هـ.

٩ ـ أبو زكريا يحيى بن صالح الوحاظي الحمصي: أخذ عنه البخاري، وقال عنه يحيى بن معين إنه ثقة. توفي سنة ٢٢٢ هـ.

١٠ ـ إسماعيل بن أبي أويس الأصبحي المدني. روى عنه الشيخان. توفي سنة ٢٢٦ هـ.

١١ ـ نعيم بن حماد الخزاعي المروزي: نزيل مصر. روى عنه البخاري، وكان شديد الرد على الجهمية. مات سنة ٢٢٨ هـ.

١٢ ـ سليمان بن عبد الرحمن الخولاني الدمشقي: كان محدث دمشق ومفتيها. توفي سنة ٢٣٣ هـ.

١٣ ـ الحسن بن الربيع البوراني البجلي الكوفي: كان يبيع البواري، روى عنه الشيخان، وكان من أصحاب ابن المبارك. توفي سنة ٢٢١ هـ.

١٤ ـ أحمد بن محمد بن شبوية الخزاعي المروزي: قال عنه الذهبي: الإمام القدوة شيخ وقته. توفي سنة ٢٣٠ هـ.

١٥ ـ أبو الربيع سليمان بن داود الأزدي العتكي البصري: وثقه ابن معين وأبو زرعة والنسائي. توفي سنة ٢٣٤ هـ.

١٦ ـ أبو محمد الفضل بن محمد البيهقي المعروف بالشعراني لوفرة كان يطيلها: من نسل باذان ملك اليمن، له تاريخ وتفسير وكان جوالاً في طلب علم الحديث. توفي سنة ٢٨٢ هـ.

١٧ ـ محمد بن أيوب بن الضريس البجلي الرازي: مصنف كتاب فضائل القرآن. توفي بالري سنة ٢٩٤ هـ.

١٨ ـ أبو محمد نصر الكندي البغدادي: نزيل بخارىٰ، وله مسند. توفي سنة ٢٩٣ هـ.

١٩ ـ سعيد بن عمرو الأزدي المعروف بالرذعي: نعته الذهبي بالحافظ الناقد. توفي سنة ٢٩٢ هـ.

٢٠ ـ عبد الرحمن بن عبد المؤمن الأزدي: من آل المهلب، محدث جرجان. توفي سنة ٣٠٩ هـ.

٢١ ـ يزيد بن محمد الأزدي الموصلي: صاحب تاريخ الموصل وقاضيها. توفي سنة ٣٣٤ هـ.

٢٢ ـ يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري: صاحب تاريخ مصر. توفي سنة ٣٤٧ هـ.

٢٣ ـ محمد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن بريدة الأزدي الموصلي: صنف في علوم الحذيث. توفي سنة ٣٧٤ هـ.

٢٤ ـ عبد الله بن محمد الباجي اللخمي: محدث الأندلس. توفي سنة ٣٧٨ هـ.

٢٥ ـ محمد بن الحسن الأزدي الصوفي: شيخ المشايخ، وكان جده محدث نيسابور.

٢٦ ـ عبد الغني بن سعيد الأزدي: محدث مصر، توفي سنة ٤٠٩ هـ.

٢٧ ـ علي بن محمد الفروي المعافري الفاسي: علامة المغرب، توفي سنة ٤٠٣ هـ.

٢٨ ـ أحمد بن محمد المعافري الأندلسي: عالم أهل قرطبة. توفي سنة ٤٢٩ هـ.

٢٩ ـ محمد بن عبد الله الرازي البجلي الحافظ: توفي سنة ٤٤٩ هـ.

٣٠ ـ إبراهيم بن سعيد بن عبد الله التجيبي: نعته الذهبي بالإمام المتفنن، محدث مصر. توفي سنة ٤٨٢ هـ.

٣١ ـ الحسين بن محمد الصدفي الأندلسي: قال عنه الذهبي: إنه الإمام الحافظ البارع، يعرف بابن سكره. توفي شهيداً ضد فرنج الأندلس سنة ٥١٤ هـ.

٣٢ ـ ابن مفوز محمد بن حيدرة المعافري الشاطي: فقيه محدث أديب توفي سنة ٥١٥ هـ.

٣٣ ـ عبد الله بن علي اللخمي الرشاطي: كان محدثاً فقيهاً نساباً، قتل شهيداً مدافعاً عن مدينته المرية بالأندلس سنة ٥٤٢ هـ.

٣٤ ـ يوسف بن عبد العزيز اللخمي الأندلسي: قال عنه الذهبي: محدث مرسية، لا بل محدث الأندلس. توفي سنة ٥٤٦ هـ.

٣٥ ـ عبد ا لرحمن بن عبد الله الخثعمي الأندلسي: صاحب المؤلفات المؤنقة. توفي سنة ٥٨١ هـ بمراكش.

٣٦ ـ عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي الأزدي: من علماء الحديث بالأندلس. توفي سنة ٥١٤ هـ ببجاية.

٣٧ ـ محمد بن عبد الرحمن التجيبي الأندلسي من كبار محدثي الأندلس توفي سنة ٦١٠ هـ.

٣٨ ـ محمد بن خلفون الأزدي: قال الذهبي: إنه الحافظ الإمام المجوِّد. توفي سنة ٦٣٦ هـ.

فذلكة علمية وتاريخية

بعد أن قطعنا الصفحات السابقة مع الأئمة من حفاظ الحديث وفقهاء المذاهب، يطيب لنا أن نقف قليلاً مع علماء اليمن، من أئمة التفسير والقراءات والتوحيد واللغة، ومع الأمراء الذين أقاموا ممالك وإمارات في أرجاء بلاد الإسلام.

وفيما يتعلق بالقراءات، فمما هو معلوم مستفيض أن أبا موسى وأبي بن كعب وزيد بن ثابت كانوا أشهر الأصحاب ترتيلاً للقرآن وجمعاً له، ومن بعدهم ظهرت أسماء الكثيرين من اليمنيين، الذين كان لهم اشتغال بالقرآن الكريم وعلومه أمثال: عبد الملك الذماري مقرىء دمشق وحافظها، ووهب بن منبه الذي كان من أوائل المفسرين للقرآن، وكعب الأحبار وحفص الذين مرت بنا تراجمهم.

واستمر بروز اليمن في خدمة القرآن ونشره إلى ما بعد القرن الثالث بكثير، وقد اخترنا ثلاثة منهم، أولهم:

أحمد بن عبد الله اللخمي (٤٧٨ ـ ٥٦٠ هـ)

من أعيان اليمانية بمصر في القرن السادس: ترجمه ابن خلكان:

«هو أحمد بن عبد الله الفاسي. من مشاهير الصلحاء وأعيانهم، وكان مع صلاحه فيه فضيلة ومعرفة بالأدب، وغيرها. وكان رأساً في القراءات السبع. ونسخ بخطه كثيراً من كتب الأدب، وغيرها. وكان جيد الخط، حسن الضبط. والكتب التي توجد بخطه مرغوب فيها للتبرك بها ولإتقانها. ومولده في الساعة الثامنة من يوم الجمعة، السابع عشر من جمادى الآخرة، سنة ثمان وسبعين وأربع مئة بمدينة فاس. وانتقل إلى الديار المصرية. ولأهلها فيه اعتقاد كبير لما رأوه من صلاحه. وكان قد حج ودخل الشام، واستوطن خارج مصر في جامع راشدة، وكان لا يقبل لأحدٍ شيئاً ولا يرتزق على الإقراء، واتفق بمصر بمجاعة شديدة .فمشى إليه أجلاء المصريين، وسألوه قبول شيء فامتنع، فأجمعوا رأيهم أن يخطب أحدهم البنت التي له، وكان يُعرف بالفضل بن يحيى الطويل، وكان عدلاً بزازاً في القاهرة، فتزوجها، وسأل أن تكون أمها عندها، فأذن في ذلك، وكان قصدهم تخفيف العائلة عنه. وبقي منفرداً ينسخ ويأكل من نسخه، [وكان يعرض عليه المال فلا يقبل منه شيئاً، قيل: جاء بعض التجار بمئزر أسود

صوف، وحلف عليه به، فقال: اجعله على ذلك الوتد. فأقام ثلاثين سنة موضعه، لم يزل بالشرق إلى نوبة مصر المشهورة وحريقها، فنزل في دويرة بها]، وتوفي في أواخر المحرم سنة ستين وخمس مئة بمصر، ودفن في القرافة الصغرى، وقبره يزار بها. وزرته ليلاً فوجدت عنده أنساً كثيراً. رحمه الله تعالى. وكان يقول: أدرجت سعادة الإسلام في أكفان عمر بن الخطاب رضي الله عنه. أشار إلى أن الإسلام لم يزل في أيامه في نمو وازدياد وشرع بعده في التضعضع والاضطراب، وذكر في كتاب [الدول المنقطعة] في ترجمة أبي ميمون عبد المجيد صاحب مصر، أن الناس أقاموا بلا قاض ثلاثة أشهر في سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة، ثم اختير في ذي القعدة أبو العباس بن الحطيئة، فاشترط ألا يقضي بمذهب الدولة، فلم يمكن من ذلك، وتولى غيره والله تعالى أعلم».

يحيى بن سعدون الأزدي (٤٨٦ - ...)

ومن أعيان اليمانية في الأندلس بالقرن السادس هذا الذي ترجمه ابن خلكان فقال:

«أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي الملقب سابق الدين، أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة، وغير ذلك. خرج من الأندلس في عنفوان شبابه، وقدم ديار مصر، فسمع بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن إبراهيم الرازي. وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المدني المصري، وأبا طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني المعروف بالسلفي، وغيرهم. ودخل بغداد سنة سبع عشرة وخمس مئة، وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبي محمد عبد الله وابن بنت الشيخ، والبزار المعروف بقاضي المارستان، وأبي القاسم بن الحصين وأبي العز بن كادش، وغيرهم. وكان ديناً ورعاً، عليه وقار وهيبة وسكينة، وكان ثقة صدوقاً ثبتاً نبيلاً قليل الكلام كثير الخير مفيداً، أقام بدمشق مدة واستوطن الموصل ورحل عنها

إلى أصبهان، ثم عاد إلى الموصل وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر. وذكره الحافظ بن السمعاني في كتاب (الذيل) وقال: إنه اجتمع به بدمشق، وسمع منه شيخه ابن عبد الله الرازي، وانتخب عليه أجزاء، وسأله عن مولده، فقال: ولد في سنة ست وثمانين وأربع مئة بمدينة قرطبة من ديار الأندلس».

الإمام الشاطبي (... - ٥٩٠ هـ)

وشاطبة بلدة في الأندلس، وفي اليمن بلد تعرف باسم شطب من بلاد سفيان بمشارق اليمن. ترجمه ابن خلكان فقال:

«أبو محمد القاسم بن فيرة بن أبي القاسم خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي الضرير المقرىء صاحب القصيدة التي سماها (حرز الأماني ووجه التهاني) في القراءات، وعدتها ألف ومئة وثلاثة وسبعون بيتاً. ولقد برع فيها كل الإبراع، وهي عمدة قراءات هذا الزمن في نقلهم، فقل من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها. وهي مشتملة على رموز عجيبة غريبة، وإشارات خفيفة لطيفة. وما أظنه سُبق إلى أسلوبها. وقد روي عنه أنه كان يقول: لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلا وينفعه الله عز وجل بها، لأني نظمتها لله تعالى مخلصاً في ذلك. ونظم قصيدة دالية في خمس مئة بيت، من حفظها أحاط علماً بكتاب (التهذيب) لابن عبد البر، وكان عالماً بكتاب الله قراءة وتفسيراً، وبحديث رسول الله ﷺ، مبرزاً فيه، وكان إذا قرىء عليه صحيح البخاري ومسلم والموطأ تُصَحَّح النسخ من حفظه، ويملي النكت على المواضع المحتاج إليها، وكان أوحداً في علم النحو واللغة، عارفاً بعلم الرؤيا، حسن المقاصد، مخلصاً فيمايقول ويفعل. وقرأ القرآن الكريم بالروايات على أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أبي العاص النفري المقرىء، وأبي الحسن علي بن محمد بن هزيل الأندلسي. وسمع الحديث من أبي عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة وأبي عبد الله محمد بن عبد الرحيم الخزرجي، وأبي الحسن بن هزيل، والحافظ أبي الحسن بن النعمة وغيرهم.

وانتفع به خلق كثير. وأدركت من أصحابه جمعاً كثيراً بالديار المصرية، وكان يجتنب فضول الكلام، ولا ينطق في سائر أوقاته إلا بما تدعو إليه ضرورة، ولا يجلس للإقراء إلاّ على طهارة، في هيئة حسنة وتخشع واستكانة. وكان يعتل العلة الشديدة، فلا يشتكي ولا يتأوه. وإذا سئل عن حاله قال: العافية، لا يزيد على ذلك. ودخل مصر سنة اثنتين وسبعين وخمس مئة، وكان يقول عند دخوله إليها: إنه يحفظ وقر بعير من العلوم، بحيث لو نزل عليه ورقة أخرى لما احتملها. وكان نزيل القاضي الفاضل، ورتبه بمدرسته بالقاهرة متصدراً لإقراء القرآن الكريم. وقراءاته، والنحو واللغة. وتوفي سنة تسعين وخمس مئة بالإسكندرية.

الإمام أبو بكر بن العربي (٤٦٨ ـ ٤٥٣ هـ)

هو إمام التفسير وأحد أئمة الحديث، وهو غير ابن عربي المتوفي في القرن السابع، وصاحب الأفكار الفلسفية والطريقة المنسوبة إلى الصوفية. ننقل ترجمته كما أوردها مؤلف كتاب (التفسير والمفسرون) الدكتور محمد حسين الذهبي من علماء مصر في القرن الرابع عشر الهجري. قال في المجلد الثاني من كتابه ص ٤٤٨: «هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافري[1] الأندلسي الإشبيلي الإمام العلامة المتبحر، ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها. كان أبوه من فقهاء إشبيلية ورؤسائها. ولد أبو بكر سنة ٤٦٨ هـ ثمان وستين وأربع مئة من الهجرة، وتأدب ببلده، وقرأ القراءات، ثم رحل إلى مصر والشام وبغداد ومكة، وكان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه والأصول، وقيد الحديث، واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف والكلام، وتبحر في التفسير، وبرع في الأدب. وأخيراً عاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير. ولم يأت به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق.

وبالجملة، فقد كان رحمه الله من أهل التفنن في العلوم والاستبحار فيها

---

(١) تعرف اليوم في اليمن ببلاد الحجرية.

والجمع لها، متقدماً في يالمعارف كلهـا، متكلماً في أنـواعها، نـافذاً في جمعهـا، حريصاً على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخـلاق مع حسن المعـاشرة، وكثرةالاحتـمال، وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الود.

سكن بلده وشـوور فيه، وسمـع ودرس الفقه والأصـول، وجلس للوعظ والتفسـير، ورحل إليـه للسماع. قـال القاضي عيـاض ـ وهو ممن أخـذوا عنـه ـ: «استقضى ببلده، فنفع الله به أهلها لصرامته وشدة نفوذ أحكـامه، وكـانت له في الـظالمين سـورة مرهـوبة، وتؤثـر عنه في قضـائه أحكـام غـريبـة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه».

هذاوقد ألف رحمه الله تصانيف كثيرة مفيدة، منها: أحكام القرآن، وكتاب (المسـالك في شرح مـوطأ مـالك)، وكتـاب (القبس على شرح مـوطأ مـالـك بن أنس)، وعـارضه الأحـوذي على كتـاب الـترمـذي، و (العـواصم والقـواصم)، و (المحصـول في أصـول الفقـه)، وكتـاب (النـاسـخ والمنسـوخ) و (تخليص التلخيص)، وكتاب (القانون في تفسير القرآن العزيـز)، وكتاب (أنـوار الفجر في تفسير القرآن) قيل: إنه ألفه في عشرين سنة. ويقع في ثمانـين ألف ورقة. وذكـر بعضهم أنه رأى هذا التفسير، وعد أسفاره فوجد عدتها ثمانين مجلداً.

وبالجملة، فقد خلف رحمه الله كتباً كثيرة انتفع الناس بها بعـد وفاتـه، كما نفع هو بعلمه من جلس إليه في حياته. هذا وقد كانت وفاته سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة منصرفة من مراكش. وحمل ميتاً إلى مدينة فاس ودفن بها. فرضي الله عنه وأرضاه».

سليمان بن خلف التجيبي الأندلسي

يلحظ القارىء نشاط الأندلس علمياً وأدبيـاً من القرن الـرابع ومـا تلاه، ولعل القارىء يـذكر من مـطالعته لكـوكبة من الحفـاظ التي مررنـا بها مـا قدمتـه الأنـدلس لـلأمـة من علماء اليمن المقيمـين بهـا، وفيهم من جمـع بـين المحـبرة

والسيف، وسقط شهيداً في الدفاع عن أمصار الأندلس ضد هجمات القوط. وقد تركنا كثيراً من علماء الأندلس والمغرب حينذاك أمثال محمد بن عبد ا لواحد الغافقي وعلي بن محمد الحميري الكتاني، وعيسى بن سليمان الرعيني. خشية الإطالة. وقد اخترنا من متأخرة علماء الأندلس وأدبائها ثلاثة جمعوا بين علوم الشريعة وعلوم اللغة وخصب الموهبة الأدبية . أولهم: أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعيد التجيبي القرطبي الذهبي.

قال الذهبي: برع في الحديث وعلله ورجاله، وفي الفقه وغوامضه وخلافه، وفي الكلام ومضايقه.

ورجع إلى الأندلس بعد ثلاثة عشر عاماً بعلم جم حصله مع الفقر والتعفف. روى عنه الحافظ: أن أبو بكر الخطيب وابن عبد البر وأبو علي الصدفي وولده الإمام أبوالقاسم أحمد بن أبي الوليد الزاهد، وأبو بكر الطرطوشي وأبو علي بن سهل السبتي، وأبو بحر سفيان بن العاص ومحمد بن أبي الخير القاضي، وخلق سواهم. وتفقه به الأصحاب. قال القاضي عياض آجر أبو الوليد نفسه ببغداد لحراسة درب، وكان لما رجع إلى الأندلس يضرب ورق الذهب للغزل، ويعقد الوثائق. قال لي أصحابه: كان يخرج إلينا للإقراء، وفي يده أثر المطرقة إلى أن فشا علمه وهيئت الدنيا له، وعظم جاهه وأجزلت صلاته، حتى مات وعنده مال وافر. وكان يستعمله الأعيان في ترسلهم، ويقبل جوائزهم. ولي القضاء بمواضع من الأندلس وصنف كتاب المنتقى في الفقه، وكتاب المعاني في شرح الموطأ؛ جاء في عشرين مجلداً عديم النظير. قال: وقد صنف كتاباً كبيراً جامعاً بلغ فيه الغاية سماه كتاب الاستيفاء، وله كتاب الإيماء في الفقه، خمسة مجلدات. وكتاب السراج في الخلاف، لم يتم. ومختصر المختصر في مسائل المدونة، وله كتاب التسديد إلى معرفة التوحيد، وإنه اختلاف الموطآن، وكتاب الجرح والتعديل، وكتاب الإشارة في أصول الفقه، وكتاب إحكام الفصول في أحكام الأصول، وكتاب الحدود، وكتاب شرح المنهاج، وكتاب سنن

الصالحين، وسنن العابدين، وكتاب سبيل المهتدين، وكتاب فرق الفقهاء، وكتاب التفسير، لم يتم. وكتاب سنن المنهاج ترتيب الحجاج ا هـ. ولقد حدث لهذا الإمام العلم صراع مع بعض معاصريه وفي مقدمتهم أبو بكر بن الصائغ، بسبب قول الوليد: إنّ النبي ﷺ كتب اسمه يوم الحديبية في وثيقة الصلح، فاعتبروا ذلك سبباً لتكفيره، وأكثروا من التشنيع عليه في الأسواق وفي منابر الجمعة، وقال قائلهم:

برئت ممن شرى دنيا بآخرة وقال إن رسول الله قد كتب

فيا عجباً من جعل مثل هذه المسائل سبباً للطعن ثم المغالاة في الخلاف، حتى الوصول به إلى التكفير. وأبو الوليد هذا هو القائل:

إذا كنت أعلم علماً يقيناً بأن جميع حياتي كساعة
فلم لا أكون ضنيناً بها وأجعلها في صلاح وطاعة

محمد بن أبي نصر الحميدي الأندلسي

من كبار تلامذة الإمام علي بن أحمد بن حزم، واسمه في ترجمته كما قال الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أبي نصر فتوح الأزدي الحميري الأندلسي، ولم يزل يسمع ويكثر ويجد حتى كتب عن أصحاب الجوهري وابن المذهب، وسمع بإفريقية كثيراً، ولقي بمكة كريمة المروزية أول رحلته. وأول رحلته كان في سنة ٤٤٨ هـ.

قال محمد بن طرخان: سمعت الحميدي يقول: كنت أحمل للسماع على الكتف سنة خمس وعشرين وأربع مئة. فأول ما سمعت من الفقيه أصبغ بن راشد، وكنت أفهم ما يقرأ عليه وكان تفقه على أبي محمد بن أبي زايد من قرطبة من محلة تعرف بالرصافة، فسكن جزيرة ميورقة، فولدت فيها. قال يحيى بن البناء: كان الحميدي من اجتهاده ينسخ بالليل في الحر، فكان يجلس في

إجانة ماء يتبرد به. وقال الحسن بن محمد بن خسر: وجاء أبو بكر بن ميمون فدق على الحميدي، وظن أنه قد أذن له، فدخل عليه فوجده مكشوف الفخذ، فبكى الحميدي وقال: والله لقد نظرت إلى موضع لم ينظره أحد منذ عقلت. قال الأمير ابن ماكولا: لم أر مثل صديقنا الحميدي في نزاهته وعفته وورعه وتشاغله بالعلم. صنف تاريخ الأندلس. وقال يحيى بن إبراهيم السلماني: قال أبي: لم تر عيناي مثل الحميدي في فضله ونبله، وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم. قال: وكان ورعاً ثقة إماماً في الحديث وعلله ورواته، متحققاً في علم التحقيق الأصول على مذهب أصحاب الحديث بموافقة الكتاب والسنة، فصيح العبارة، متبحراً في علم الأدب والعربية والترسل، وله كتاب (الجمع بين الصحيحين) و (تاريخ الأندلس) و (جمل التاريخ الإسلامي) وكتاب (الذهب المسبوك في وعظ الملوك) وكتاب (الترسل) وكتاب (مخاطبات الأصدقاء) وكتاب (حفظ الجار) وكتاب (ذم النميمة) وله شعر رصين في المواعظ والأمثال. قال السلفي: سألت أبا عامر العبدري من الحميدي؟ فقال: لا يرى قط مثله، وعن مثله لا يسأل. جمع بين الفقه والحديث والأدب، ورأى علماء الأندلس، وكان حافظاً. وعن الحميدي قال: صيرني الشهاب شهاباً. وهو كان يقصر في سماعه كثيراً. قال أبو علي الصدفي: كان يدلني على الشيوخ، وكان متقللاً من الدنيا يمونه ابن رئيس الرؤساء، وكان يبيت عند ابن رئيس الرؤساء كل ليلة. وحدثني أبو بكر بن الخاضبة أنه ما سمع يذكر الدنيا قط. وقال ابن طرخان: سمعت الحميدي يقول: ثلاثة كتب من علوم الحديث يجب الاهتمام بها: كتاب العلل، وأحسن ما وضع فيها: كتاب الدارقطني، وكتاب المؤتلف والمختلف، وأحسن ما وضع فيه الإكمال لابن ماكولا، وكتاب وفيات المشايخ، وليس فيه كتاب. وقد كنت أردت أن أجمع في ذلك كتاباً. فقال لي الأمير: رتبه على حروف المعجم بعد أن رتبه على السنن. قال ابن طرخان: فاشتغل بالصحيحين إلى أن مات. قلت: وقد قبلنا إشارة الأمير، وعملنا تاريخ الإسلام على ما رسم الأمير» ا. هـ.

هذا وقد توسع ياقوت في ترجمته بمعجم الأدباء، ومما حفظ له من شعر قوله:

طريق الزهد أفضل ما طريق
وتقوى الله بادية الحقوق
فثق بالله يكفك، واستعنه
يعنك، وذر بنيات الطريق

وله:

لقاء الناس ليس يفيد شيئاً
سوى الهذيان من قيل وقال
فأقلل من لقاء الناس إلا
لأخذ العلم أو اصلاح حال

الشهيد سليمان بن موسى الكلاعي (٥٦٥ ـ ٦٣٤ هـ)

الحافظ الشهيد والإمام البليغ ترجمه الذهبي فقال:

الإمام الحافظ العالم البارع محدث الأندلس وبليغها أبو الربيع، سليمان بن موسى بن سالم بن حسان الحميري الكلاعي البلنسي. كان عالماً متفنناً خطيباً، فصيحاً مفوهاً، مدركاً، حسن السرد والمساق لما يقوله، مع الشارة الأنيقة والزي الحسن. وهو كان المتكلم عن الملوك في زمانه في المجالس، المبين عنهم لما يريدونه على المنبر في المحافل. ولي خطابة بلنسية في أوقات. وله تصانيف مفيدة في فنون عديدة. ألف كتاب (الاكتفاء في مغازي المصطفى) و (الثلاثة الخلفاء) في أربع مجلدات، وله مؤلف حافل في معرفة الصحابة والتابعين [لم يكمله]، وكتاب (مصباح الظلم) يشبه الشهاب) وكتاب (أخبار البخاري)، وكتاب (الأربعين)، وغير ذلك. وإليه كانت الرحلة للأخذ عنه، انتفعت به في الحديث كل الانتفاع وأخذت عنه كثيراً. قلت: حدث عنه أبو العباس أحمد بن الغماز قاضي تونس وطائفة. قال ابن مسدي: لم ألق مثله جلالة ونبلاً ورياسة وفضلاً، وكان إماماً

مبرزاً في فنون؛ من منقول ومعقول ومنثور وموزون، جامعاً للفضائل. برع في علوم القرآن والتجويد، أما الأدب فكان ابن بجدته وأبا نجدته، وهو ختام الحفاظ. ندب لديوان الإنشاء فاستعفى. أخذ القراءات عن أصحاب ابن هذيل، وارتحل واحتفى بأبي القاسم ابن جيش بمرسية، و أكثر عنه، قال الأبار: كان رحمه الله تعالى أبداً يحدثنا أن السبعين منتهى عمر. لرؤيا رآها. وهو آخر الحفاظ والبلغاء بالأندلس. استشهد بكائنة أنيشة عن ثلاثة فراسخ من مرسية، مقبلاً غير مدبر، في العشرين من ذي الحجة سنة أربع وثلاثين وست مئة. رحمه الله تعالى.

قال الحافظ المنذري: توفي شهيداً بيد العدو. قال: وكان مولده بظاهر مرسية في مستهل رمضان سنة خمس وستين. سمع ببلنسية ومرسية وإشبيلية، وغرناطة وشاطبة، ومآلقة، وسبته ودانية. وجمع المجاميع تدل على غزارة علمه وكثرة حفظه ومعرفته بهذا الشأن. كتب إلينا بالإجازة سنة أربع عشرة.

أبو الحسن الأشعري (... ـ ٣٢٤ هـ)

إذا كان الله سبحانه وتعالى قد دفع بأحمد بن حنبل ـ رضي الله عنه ـ أذى القائلين بخلق القرآن فقد ضاعف المنة على الأمة، وما أكثر عطاياه وآلائه ـ سبحانه ـ بأن قيّض علي بن إسماعيل الأشعري لدحر أقوال الاعتزال، فأخرس أباطيلهم، ولم تقم لهم من بعده قائمة ذات شأن. ويرقى نسبه إلى جده الثامن الأعلى صاحب الهجرات الثلاث أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري رضي الله عنه. وقد كتب تراجم المؤلفين فيه المنوهين بشأنه، وعده ـ داعية العصر ـ أبو الحسن الندوي أحد كبار رجال الدعوة والفكر في الإسلام وأولاه من العناية ما هو به جدير. ولما كان المقام هنا مقام اختصار ناسب الاقتصار على طرف مما ذكره ابن خلكان قال: «وقد صنف الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في مناقبه مجلداً، وكان أبو الحسن الأشعري أولاً معتزلياً، ثم تاب من القول بالعدل وخلق القرآن

في المسجد الجامع بالبصرة يوم الجمعة، ورقي كرسياً، ونادى بأعلى صوته من عرفني فقد عرفته، ومن لا يعرفني فأنا أعرفه بنفسي، أنا فلان ابن فلان كنت أقول بخلق القرآن، وأن الله لا تراه الأبصار، وأن أفعال الشر أن أفعلها، وأنا تائب مقلع، معتقد للرد على المعتزلة، مخرج لفضائحهم ومعايبهم.

وكان فيه دعاب ومزاح كثير، وله من الكتب: كتاب اللمع، وكتاب الموجز، وكتاب إيضاح البرهان، وكتاب التبيين عن أصول الدين، وكتاب الشرح والتفصيل في الرد على أهل الإفك والتضليل، وهو صاحب الكتب في الرد على الملاحدة، وغيرهم من المعتزلة والرافضة والجهمية والخوارج، وسائر أصناف المبتدعة. ودفن في مشرعة الزوايا في تلابة إلى جانبها مسجد، وبالقرب منها حمام، وهو عن يسار المار من السوق إلى دجلة. وكان يأكل من غلة ضيعة وثقها جده بلال بن أبي بردة بن أبي موسى على عقبه، وكانت نفقته في كل يوم سبعة عشر درهماً. هكذا قال الخطيب. وقال أبو بكر الصيرفي: كانت المعتزلة قد رفعوا رؤوسهم حتى أظهر الله الأشعري، فدحرهم في أقماع السمسم. وقال أبو محمد علي بن حزم الأندلسي: أن أبا الحسن له من التصانيف خمسة وخمسون تصنيفاً. توفي سنة ٣٢٤ هـ.

الخليل بن أحمد الفراهيدي (.... ـ ١٧٠ هـ)

أحد العباقرة الأفذاذ ترجمه ابن خلكان فقال:

أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، ويقال: الفرهودي الأزدي اليحمدي. كان إماماً في النحو، وهو الذي استنبط علم العروض وأخرجه إلى الوجود، وحصر أقسامه في خمس دوائر، استخرج منها خمس مئة عشر بحراً، ثم زاد فيه الأخفش بحراً آخر، وسماه (الخبب). وقيل: إن الخليل دعا بمكة أن يرزق علماً لم يسبقه أحد إليه، ولا يؤخذ إلا عنه. فرجع من حجه، ففتح عليه بعلم العروض. وله معرفة بالإيقاع والنغم، وتلك

المعرفة أحدثت له علم العروض، فإنهما متقاربان في المأخذ. وقال حمزة بن الحسن الأصبهاني في حق الخليل بن أحمد في كتابه الذي سماه (التنبيه على حدوث التصحيف): «وبعد، فإن دولة الإسلام لم تخرج أبرع العلوم التي لم يكن لها عند علماء العرب أصول من الخليل، وليس على ذلك برهان واضح من علم العروض، الذي لا عن حَكِيم أخذه ولا على مثال من تقدمه احتذاه، وإنما اخترعه من ممر له بالصفارين من وقع مطرقة على طست، ليس فيهما حجة ولا بيان يؤديان إلى غير حليتهما أو يفيدان غير جوهرهما. فلو كانت أيامه قديمة ورسومه بعيدة لشك فيه بعض الأمم لضعته، ما لم يصنعه أحد منذ خلق الله الدنيا، من اختراعه العلم الذي قدمت ذكره، ومن تأسيسه بناء كتاب العين الذي يحصر لغة أمة من الأمم قاطبة، ثم من إمداده سيبويه من علم النحو بما صنف منه كتابه، الذي هو زينة لدولة الإسلام» ا. هـ وكان الخليل رجلاً صالحاً عاقلاً حليماً وقوراً، ومن كلامه: لا يعلم الإنسان خطأ معلمه حتى يجالس غيره. وقال تلميذه النضر بن شميل: أقام الخليل في خص من أخصاص البصرة لا يقدر على فلسين، وأصحابه يكسبون بعلمه الأموال، ولقد سمعته يوماً يقول: إني لأغلق علي بابي فما يجاوزه همي. وكان يقول: «أكمل ما يكون الإنسان عقلاً وذهناً إذا بلغ أربعين سنة، وهي السنة التي بعث الله تعالى فيها محمداً ﷺ، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثاً وستين سنة، وهي السنة التي قبض فيها رسول الله ﷺ وأصفى ما يكون ذهن الإنسان في وقت السَّحر».

وكان له راتب على سليمان بن حبيب بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي وكان والي فارس والأهواز، فكتب إليه يستدعيه، فكتب الخليل جوابه:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة
وفي غنى غير أني لست ذا مال

شحاً بنفسي أني لا أرى أحداً
يموت هزلاً ولا يبقى على حال

الرزق عن قدر لا الضعف ينقصه
ولا يزيدك فيه حول محتال
والفقر في النفس لا في المال تعرفه
ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال

فقطع عنه سليمان الراتب، فقال الخليل:

إن الذي شق فمي ضامن للرزق حتى يتوفاني
حرمتني خيراً قليلاً فما زادك في مالك حرماني

فبلغت سليمان فأقامته وأقعدته، وكتب إلى الخليل يعتذر إليه وأضعف راتبه، فقال الخليل:

وزلة يكثر الشيطان إن ذكرت منها التعجب جاءت من سليمانا
لا تعجبن لخير زل عن يده فالكوكب النحس يسقي الأرض أحياناً

واجتمع الخليل وعبد الله بن المقفع ليلة يتحدثان إلى الغداة، فلما تفرقا قيل للخليل: كيف رأيت ابن المقفع؟ فقال رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله، وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: رأيت رجلاً عقله أكثر من علمه. وله كتاب العين والشواهد والعروض، وكتاب (النقط والشكل) وكتاب (النغم) وكتاب في العوامل. وأكثر العلماء العارفين باللغة يقولون: إن كتاب العين في اللغة المنسوب إلى الخليل بن أحمد ليس تصنيفه، وإنما كان قد شرع فيه، ورتب أوائله، وسماه بالعين، ثم مات فأكمله تلامذته، النضر بن شميل ومن في طبقته، وهم: مؤرج السدوسي ونصر بن علي الجهضمي، وغيرهما. فلما جاء الذي علموه مناسباً لما وضعه الخليل في الأول، فأخرجوا الذي وضعه الخليل منه وعملوا أيضاً، فلهذا وقع فيه كثير من الخطأ يبعد وقوع الخليل في مثله. توفي سنة ١٧٠ هـ.

فيلسوف العرب أبو يوسف الكندي

ترددت كثيراً في إدراج أبي يوسف ضمن هذه الكواكب، لما وجدته من قول العلامة الأوروبي (ت: ج دي بور) في كتابه (تاريخ الفلسفة في الإسلام) ص ١٧٧:

«يجعل لثقافة الفرس وحكمة اليونان شأناً أكبر مما يجعل لدين العرب وفضائلهم» ا. هـ لولا ما أضافه مترجم الكتاب الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة بهامش الصفحة ما نصه: «هذا ما تعارضه آراء الكندي معارضة تامة، وليراجع القارىء رسائله، فهي رغم أنها فلسفية تفيض بالإيمان، وبتعظيم للنبوة المحمدية وعلوم القرآن» ا. هـ. وعجبت لإضراب ابن خلكان وياقوت عن ذكره وإغفال ابن شاكر صاحب (فوات الوفيات) له. ولعل مرد ذلك إلى سوء فهم القوم ونظرتهم إلى الفلسفة والفلاسفة، بسبب أقوال بعضهم الإلحادية مثل قولهم بقدم العالم، وإنكار المعاد بالأجساد، بل إن ابن شاكر ا كتفى بنعت الصفدي لجابر بن حيان وهو عالم لا فيلسوف بأنه شيطان، وايراده لما قيل فيه:

هذا الذي بمقاله غر الأوائل والأواخر
ما أنت إلا كاسر كذب الذي سماك جابر

بينما يعترف العلماء اليوم بفضل جابر وابتكاراته العلمية، مثل حامض الكبريتيك والصودا الكاوية، وما إلى ذلك. فرأيت الاكتفاء بما قاله المؤرخ المعاصر خير الدين الزركلي في أعلامه. قال: «يعقوب بن إسحاق بن الصباح الكندي أبو يوسف. فيلسوف العرب والإسلام في عصره، وأحد أبناء الملوك من كندة. نشأ في البصرة، وانتقل إلى بغداد، فتعلم واشتهر بالطب والفلسفة والموسيقى والهندسة والفلك، وألف وترجم وشرح كتباً كثيرة، يزيد عددها على ثلاث مئة. ولقي في حياته ما يلقاه أمثاله من فلاسفة الأمم، فوشى به إلى

المتوكل العباسي فضرب، وأخذت كتبه ثم ردت إليه. وأصاب عند المأمون والمعتصم منزلة عظيمة وإكراماً. قال ابن جلجل: ولم يكن في الإسلام غيره احتذى في تواليفه حذو أرسطاطاليس. من كتبه: رسالة في التنجيم، اختيارات الأيام، تحاويل السنين، إلهيات أرسطو، رسالة في الموسيقى، الأدوية المركبة ترجمت إلى اللاتينية وطبعت بها. ورسم المعمور. خرائط وصور عن الأرض. ذكره المسعودي الترفق في العطر وفي العطور، السيوف وأجناسها رسالة، والقول في النفس، المد والجزر، ذات الشعبتين وهي آلة فلكية. ومن رسائله: أولاها في ماهية العقل ترجمت إلى اللاتينية، الشعاعات، الفلسفة الأولى فيما دون الطبيعيات والتوحيد نشر باسم: كتاب الكندي إلى المعتصم بالله في الفلسفة الأولى». ا. هـ توفي سنة ٢٦٠ هـ.

محمد بن يزيد المبرد (... - ٢٨٥ هـ)

هو محمد بن يزيد الثمالي الأزدي المعروف بالمبرد، صاحب الكامل والروضة والمقتضب ترجمه ياقوت فقال: «كان إمام العربية ببغداد وإليه انتهى علمها بعد طبقة الجرمي والمازني وكان حسن المحاضرة، فصيحاً بليغاً، مليح الأخبار، ثقة فيما يرويه، كثير النوادر، فيه ظرافة ولباقة. وكان الإمام إسماعيل القاضي يقول: ما رأى محمد بن يزيد مثل نفسه، وإنما لقب بالمبرد لأنه لما صنف المازني كتاب (الألف واللام) سأله عن دقيقه وعويصه، فأجابه بأحسن جواب. فقال له المازني: قم فأنت المبرد، بكسر الراء، أي المثبت للحق، فحرفه الكوفيون وفتحوا الراء. وقال السيرافي سمعت أبا بكر بن مجاهد يقول: ما رأيت أحسن جواباً من المبرد في معاني القرآن فيما ليس فيه قول المتقدم ، ولقد فاتني منه علم كثير لقضاء ذمام ثعلب. وقال السيرافي أيضاً: سمعت نفطويه يقول: ما رأيت أحفظ للأخبار بغير أسانيد من المبرد وأبي العباس بن الفرات. وقال المفجع البصري: كان المبرد لكثرة حفظه للغة وغريبها يتهم بالوضع فيها، فتواضعنا على

مسألة ونسأله عنها لا أصل لها، لننظر ماذا يجيب؟ وكنا قبل ذلك تمارينا في عروض بيت الشاعر:

أبا منذر، أفنيت فاستبق بعضنا
حنانيك، بعض الشر أهون من بعض

فقال البعض: هو من البحر الفلاني، وقال آخرون هو من البحر الفلاني، وتردد على أفواهنا من تقطيعه: قبعضنا، ثم ذهبنا إلى المبرد فقلت له: أيدك الله تعالى، ما القبعض عند العرب؟ فقال: هو القطن، وفي ذلك يقول الشاعر «كأن سنامها حُشي القبعضهنا». قال: فقلت لأصحابي: ترون الجواب والشاهد، فإن كان صحيحاً فهو عجب، وإن كان مختلفاً على البديهة فهو أعجب. وحكى ابن السراج قال: كان بين المبرد وثعلب ما يكون بين المعاصرين من المنافرة، واشتهر ذلك حتى قال بعضهم:

نروح ونغدو، لا تزاور بيننا
وليس بمضروب لنا يوم موعد
فأبداننا في بلدة، والتقاؤنا
عسير كلقيا ثعلب والمبرد

وكان أهل التجميل يفضلون المبرد على ثعلب، وفي ذلك يقول أحمد بن عبد السلام:

رأيت محمد بن يزيد يسمو
إلى الخيرات في جاه وقدر
جليس خلائف وغذى ملك
وأعلم من رأيت بكل أمر
فتيانية الظرفاء فيه،
وأبهة الكبير بغير كبر

فيـنـثر إن أجـال الـفـكـر دُراً
ويـنشر لـؤلـؤاً مـن غـير فـكـر». ا. هـ

توفي سنة ٢٨٥ هـ.

عبد الرحمن بن احمد بن يونس الصدفي (... - ٣٤٧ هـ)

هـذا هو حفيد يـونس بن عبـد الأعلى صاحب الشافعي الـذي سبقت ترجمته، وهو الذي وضع تاريخ مصر الحافـل وقد أشـاد به ابن خلكـان أنه جمـع لمصر تاريخين أحـدهما وهـو الأكبر يختص بمصر، والآخـر بالـواردين الغربـاء على مصر. توفي سنة ٣٤٧ هـ.

رثاه أبو عيسى عبد الرحمن بن إسماعيل الخولاني بقوله:

مـا زلـت تـلهـج بـالـتـاريـخ تـكـتـبـه
حـتى رأيـنـاك في الـتـاريـخ مـكـتـوبـا
أرخـت مـوتـك في ذكـري وفي صحـفـي
لمـن يـؤرخـني إذ كـنـت محـسـوبـا
نشرت عـن مصر مـن سـكـانها عـلـمـاً
مـبـجـلاً بـجـمال الـقـوم مـنـصـوبـا

محمد بن دريد الأزدي (... - ٣٢١ هـ)

إمـام عصره في اللغة والآداب والشعـر الفائق. قـال المسعـودي في كتـاب (مـروج الذهب) في حقـه: «وكان ابن دريـد ببغداد ممن بـرع في زماننـا هـذا في الشعر وانتهى في اللغة، وقام مقام الخليل بن أحمد فيها. وأورد أشياء في اللغـة لم توجد في كتب المتقدمين، وكان يذهب بالشعر كل مذهب، فطوراً يُجْزل، وطوراً يرق، وشعره أكثر من أن نحصيه، أو نأتي على أكثره، أو يـأتي عليه كتابنـا هذا. فمن جيـد شعره قصيـدته المشهـورة بالمقصـورة التي يمدح بهـا الشـاه ابن ميكـال

وولديه، وهما عبد الله بن محمد بن ميكال وولده أبو العباس إسماعيل ابن عبد الله. ويقال: إنه أحاط فيها بأكثر المقصود. وأولها:

أما ترى رأسي حاكى لونه
طرة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسودة
مثل اشتعال النار في جزل الغضى

قال المسعودي: «وقد عارضه في هذه القصيدة المعروفة جماعة من الشعراء، منهم: أبو القاسم علي بن محمد بن أبي الفهم الأنطاكي التنوخي، وعدد جمعاً ممن عارضها. قلت أنا: وقد اعتنى بهذه المقصورة خلق من المتقدمين والمتأخرين، وشروحها، وتكلموا على ألفاظها. ومن أجود شروحها وأبسطها شرح الفقيه ابن عبد الله محمد بن أحمد بن هشام بن إبراهيم اللخمي السبتي، وكان متأخراً. توفي في حُدود سنة سبعين وخمس مئة، وشرحها الإمام أبو عبد الله محمد بن جعفر المعروف بالقزاز صاحب كتاب (الجامع في اللغة)، وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى. وشرحها غيرهما أيضاً. ولابن دريد منْ التصانيف المشهورة كتاب (الجمهرة) ومن الكتب المعتبرة في اللغة، وله كتاب (الاشتقاق) وكتاب (السرج واللجام) وكتاب (الخيل الكبير) وكتاب (الخيل الصغير) وكتاب (الأنواء) وكتاب (المقتبس) وكتاب (الملاحن) وكتاب (زوار العرب) وكتاب (اللغات) وكتاب (السلاح) وكتاب (غريب القرآن) لم يكمله، وكتاب (المجتبى) وهو مع صغر حجمه كثير الفائدة، وكذلك (الوشاح) صغير مفيد. وله نظم رائق جداً، وكان منه تقدم العلماء. يقول: «ابن دريد أعلم الشعراء وأشعر العلماء، فمن أول شعر قاله قوله:

ثوب الشباب علي اليوم بهجته
وسوف تنزعه، عنيّ يد الكبر

أنــا ابــن عشريــن، مــا زادت ولا نــقــصـــت
أنـــا ابــن عشريــن مـــن شيـــب عــلى خـــطر

ومن مليح شعره قوله:

لــو قيــل للحســن احتــكم لم يعــدهــا،
أو قــيـــل خـــاطـــب غـــيرهـــا لم يـــنـــطق
وكـــأنـــنـــا مـــن فـــرعـــهـــا في مـــغـــرب،
وكـــأنـــنـــا مـــن وجـــهـــهـــا في مشرق
تـــبـــدو فـــيهـــتـــف لـــلعـــيـــون ضـــيـــاؤهـــا
الـــويـــل حـــل بمـــقـــلة لم تـــطبـــق

توفي سنة ٣٢١ هـ.

إبراهيم بن محمد الأزدي المعرف بنفطويه (... ـ ٣٢٣ هـ)

هــو إبراهيم بن محمـد الأزدي من ولد المهلب، إمـام اللغة وراوية الشعر، وصاحب المؤلفات العديدة المفيدة. توفي رحمه الله سنة ٣٢٣، وكـانت بينه وبـين ابن دريد السالف منافسة تقع بين الأقران، وقد قال فيه ابن دريد أبياتـاً تداولهـا الناس لخفتها ولطف معناها:

لـــو أنـــزل الـــوحـــي عـــلى نـــفـــطويـــه
لـــكـــان ذاك الـــوحـــي ســـخـــطاً عـــليـــه
أحـــرقـــه الله بـــنـــصـــف اســـمـــه
وصيرَّ الـــبـــاقـــي صراخـــاً عـــليـــه

وقـد ذكر لـه ياقـوت في (معجم الأدباء) صـلاحاً وزهـداً وإمامـة في علم الحديث، كما أورد له مقطعات شعرية رائقة، وأفاض في ترجمته. رحمه الله.

أبو اليمن زيد بن الحسن الكندي (... ـ ٦١٣ هـ)

مرَّ بنا بعض أدباء اليمن وشعرائها، ومعلوم أن لليمن في المهاجر شعراء بارزين، بل كانوا شعراء الأمة في وقتهم، كأبي تمام والبحتري وهما طائيان ودعبل بن علي وأبي الشيص وهما خزاعيان وأبي الطيب الكندي وابن هانىء الأزدي، أضربنا عن ذكرهم وذكر أمثالهم هنا لالتزامنا في هذا الكتاب بإيراد ذوي العلم والعمل. وممن تحقق فيه هذا الشرط أبو اليمن الكندي.

قال ابن خلكان في ترجمته: «أبو اليمن زيد بن الحسن ابن زيد الكندي، الملقب (تاج الدين) البغدادي المولد والمنشأ، الدمشقي الدار. والوفاة، المقرىء النحوي الأديب. كان أوحد عصره في فنون الآداب وعلوم السماع، وشهرته تغني عن الإطناب في وصفه. وكان قد لقي جلة المشايخ وأخذ عنهم، منهم: الشريف أبو السعادات بن الشجري وأبو محمد بن الخشاب، وأبو منصور الجواليقي. وسافر عن بغداد في شبابه، وآخر عهده بها في سنة ثلاث وستين وخمس مئة، واستوطن حلب مدة، وكان يبتاع الخليع، ويسافر به إلى بلاد الروم، ويعود إليها. ثم انتقل إلى دمشق، وصحب الأمير عز الدين فروخ شاه بن شاهان شاه، وهو ابن أخي السلطان صلاح الدين، واختص به وتقدم عنده، وسافر في صحبته إلى الديار المصرية، واقتنى من كتب خزائنها كل نفيس، وعاد إلى دمشق واستوطنها، وقصده الناس وأخذوا عنه. وله: كتاب مشيخة على حروف المعجم. واستمر ابن خلكان في ترجمته قائلاً: «أخبرني أحد أصحاب أصحابي أنه قال: كنت قاعداً على باب أبي محمد عبد الله بن الخشاب النحوي ببغداد وقد خرج من عنده أبو القاسم الزمخشري الإمام المشهور، وهو يمشي في جاون خشب، فإن إحدى رجليه كانت قد سقطت من الثلج قال: والناس يقولون: هذا الزمخشري. ونقل من خطه: كان الزمخشري أعلم فضلاء العجم باللغة العربية في زمانه، وأكثرهم أنساً واطلاعاً على كتبها، وبه ختم فضلاؤهم.

وكـان متحققاً بـالاعتزال. قـدم علينا بغـداد سنة ٥٣٣، رأيتـه عند شيخنـا أبي منصور قارئاً بعض كتب اللغة من فواتحها ومستجيزاً لها، لأنه لم يكن له على ما عنده من العلم لقاء ولا رواية. عفا الله عنه وعنا. وأخبرني الشيخ مهذب الدين أبو طالب محمد المعروف بابن الخيمي بالقاهرة والمحروسة قـال: كتب إلى الشيخ تاج الدين الكندي من دمشق جملة أبيات:

أيهـا الصـاحب المحـافظ قـد حملتنـا   مـن وفـاء عـهـدك ديـنـا
نـحن بـالـشـام رهـن شوق إليـكـم   هـل لـديكم بمصر شـوق إلـينـا؟
قـد غـلبنـا بمـا حـرمـنـا عليكـم   وغـلـبتـم بمـا رزقـتـم عـلـينـا
فعجـزنـا عن أن تـرونـا لـديـكم   وعـجـزتم عـن أن نـراكم لـديـنـا
حفظ الله عـهـد من حـفظ العـهـد   وأوفى بـه كـما قـد وفـيـنـا

قال: فكتب جوابها أبيات من جملتها:

أيهـا السـاكنـون بـالشـام من كندة   إنـا بـعـهـدكـم مـا وفـيـنـا
لـو قـضـيـنـا حـق المـودة كـنـا   بحبنا بـعـد بعـدكـم قـد قضينـا

وأنشدني له الشيخ مهذب المذكور:

دع المـنـجـم يـكـبـو في ضـلالتـه   إن ادعى علم مـا يجـري بـه الفلك
تـفـرد الله بـالـعلم الـقـديم فـلا   الإنـسـان يشركـه فـيـه والملـك
أعـد لـلرزق مـن إشراكـه شركـا   وبئـسـت العـدتـان الشرك والشرك

وكتب إليه أبو شجاع بن الدهان الفرضي الآتي ذكره إن شاء الله تعالى في حرف الميم.

يـا زيـد زادك ربي مـن مـواهـبـه   نـعمى يقصر عـن إدراكـهـا الأمـل
لا غـير الله حـالاً قـد حبـاك بهـا   مـا دار بين النحـاة الحال والبـدل
الـنحـو أنـت أحـق الـعـالمـين بـه   أليس بـاسمـك فيـه يضرب المثـل

ومن شعر الشيخ تاج الدين وقد طعن في السن:

أرى المـرء يهـوى أن تـطول حياتـه	وفي طـولهـا إرهـاق ذل وإرهـاق
تمـنيـت في عصر الـشـبيـبـة أنـني	أعـمـر، والأعـمال لا شـك أرزاق
فـلما أتـاني مـا تمـنيـت سـاءني	من العمـر ما قـد كنت أهوى وأشتـاق
يخيـل لي فكـري إذا كنت خـاليـاً	ركـوبي عـلى الأعنـاق والسير أعنـاق
ويـذكـرني مـرّ الـنسيـم وروحـة	حفـائـر يعلوهـا من الـتراب أطبـاق
وهـا أنـا في إحـدى وتسعـين حجـة	لهـا في ارعـاد مخـوف وإبـراق
يـقـولـون تـريـاق لمـثـلك نـافـعٌ	ومـا لي إلا رحمـة الـله تـريـاق

وكـانت ولادته بكـرة يـوم الأربعـاء الخـامس والعشرين من شعبـان سنـة عشرين وخمس مئة ببغداد، وتوفي يوم الأحد ضحوة السادس من شوال سنة ثلاث عشرة وست مئة بدمشق ودفن من يومه بجبل قاسيون. رحمه الله».

ممالك وإمارات

كـان لليمنيين المهجـرين في العهد العبـاسي، الذي أسلفنـا التنويـه بـأنـه يشتمل في تقسيمنا لهذا الكتاب عـلى الـدولـة الأمويـة في الأندلس ومـا تلاهـا من دول الطوائف، كما يشتمل على دولة العبيديين شمال إفريقية.

أقول: كان لليمنيـين المهجرين في ذلـك العهد ممـالك وإمـارات استمرت وانتشرت في أكثر من رقعة فتراتٍ متطاولة، وقد أضربنا عن ذكر إمـارة طاهـر بن الحسين، لأنه فيـما يقول المؤرخـون لم يكن خزاعيـاً وإنما كـان مولىً لهم، ولهـذا فسنبدأ بذكر إمارة اثنين من ولد المهلب في عهد الرشيد.

مهلبيان

بعد انتهاء أمـر يزيـد بن المهلب بالمـواجهة بينـه وبين مسلمـة وقتله: خـف ذكر آل المهلب وتوارت وجوههم طوال الـدولة الأمـوية، ثم عـادوا إلى الحلبة في أوائل الدولة العباسية حيث ولي الخليفة العباسي الخامس هارون الرشيد يزيد بن

حاتم بن قبيصة بن المهلب أمر شمال إفريقية، وكلفه بإخماد حركة الخوارج الذين كانوا قد ظهروا بها، فنجح فيما عهد إليه، وقام بأمره أتم قيام، وظفر بالخوارج في أكثر من موقعة حتى خمدت حركتهم في عهده، ومن بعده لفترة طويلة. واستمرت ولايته أكثر من خمسة عشرة عاماً حتى توفي سنة ١٧٠. ويظهر من أخبار يزيد هذا أنه كان شبيهاً بعمه يزيد بن المهلب كرماً وشجاعة. قالوا: إن الرشيد ولي يزيد بن ربيعة السلمي أمر مصر، وولي يزيد بن حاتم أمر شمال إفريقية، وخرج الرجلان ولكل منهما جيشه التابع له، فكان المهلبي ينفق على جيشه وجيش رفيقه السلمي، وفي ذلك يقول ربيعة الرقبي:

فشتان ما بين اليزيدين في الندى يزيد سليم والأغر بن حاتم
فهم الفتى الأزدي إتلاف ماله وهم الفتى القيسي جمع الدراهم

ومدحه آخر ببيتين:

إليك قصرنا النصف من صلواتنا مسافة شهر ثم شهر نواصله
فلا نحن نخشى أن يخيب رجاؤنا لديك، ولكن أهنأ البر عاجله

فأعطاه عطية لا تعطيها الملوك، أما المهلبي الثاني فهو أخوه روح بن حاتم بن قبيصة. ولاه الرشيد أمر السند، فنهض بذلك مدة، وكان الناس يعجبون من تباعد ولايتي الأخوين، ويقولون: ما أشد تفريق الرشيد بين قبريهما إذا ماتا. فلما توفي يزيد بن حاتم حوَّل الرشيد أخاه روحاً من السند إلى إفريقية، وأقام بها والياً خمس سنوات، حتى توفي سنة ١٧٤ وقبر بجوار أخيه.

آل منقذ

وهذه إمارة أخرى قامت لليمنيين في الشام في القرن السادس عميدها المشهور أسامة بن مرشد بن منقذ. انتهى ياقوت بنسبه إلى كلب فقضاعة فسبأ. كانت هذه الأسرة مستولية على إمارة شيزر وقلعتها المشهورة بجوار حماة، وكان لأسامة هذا مشاركة محمودة في عهد السلطان العادل نور الدين محمود الشهيد،

ثم في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي، كما كان لأخيه علي بن مرشد وقائع مشكورة في حرب المسلمين ضد الصليبيين، واستمر في مقارعته لهم حتى آخر معركة دارت على أبواب غزة التي كان يدافع عنها، فانهزم صحبُه وثبت وحدّه حتى استشهد. ومما يروى لأسامة من شعر قوله ملغزاً في الضرس:

وصاحب لا آمل الدهر صحبته
يشقى لنفعي، ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا
لنا ضري افترقنا فرقة الأبد

وقوله في دولة السلطان العادل نور الدين محمود!

سلطاننا زاهد، والناس قد زهدوا
له، فكل على الخيرات منكمش
أيامه مثل شهر الصوم خالية
من المعاصي وفيها الجوع والعطش

ومرجعنا في هذا ياقوت في معجميه الأدباء والبلدان ومراجع أخرى. توفي أسامة سنة ٥٨٤ هـ.

سيد بن أنس

هو أحد مشاهير أبطال العهد العباسي. كان يسكن عمان، ولما استولى بعض العرب على الموصل وأساء سيرته مع الأزد، قدم سيد بن أنس من عمان ومعه قومه، فأوقع الظالمين واستولى على الموصل وأقره المأمون عليها وعلى ما والاها، وأناط به مهمة، إخضاع الخارجين على الدولة، من بني شيبان وغيرها، فتغلب عليهم وظفر بهم ولما خرج زريق بن علي بن صدقة الأزدي وكان قد

تغلب على ما بين الموصل إلى أذربيجان، تصدى له السيد بن أنس سنة ٢١١.

قال ابن الأثير:

«وفيها قتل السيد بن أنس الأزدي كان قد تغلب على الجبال ما بين الموصل وأذربيجان، وجرى بينه وبين السيد حروب كثيرة، فلما كان هذه السنة جمع زريق جمعاً كثيراً - قيل كانوا - أربعين ألفاً - وسيرهم إلى الموصل لحرب السيد، فخرج إليهم في أربعة آلاف فالتقوا في سوق الأحد، فحين رآهم السيد حمل عليهم وحده، وهذه كانت عادته أن يحمل وحده بنفسه، وحمل عليه رجل من أصحاب زريق، فاقتتلا، فقتل كل واحدٍ منهما صاحبه لم يقتل غيرهما، وكان هذا الرجل قد حلف بالطلاق إن رأى السيد أنه يحمل عليه فيقتله أو يقتل دونه، لأنه كان على زريق كل سنة مئة ألف درهم، فقيل له بأي سبب تأخذ هذا المال؟ فقال: لأنني متى رأيت السيد قتلته، وحلف على ذلك فوفى به، فلما بلغ المأمون قتله غصّ لذلك وولي محمد بن حميد الطوسي حرب زريق بابك الخرمي، واستعمله على الموصل».

العامريون

قيض الله جل وعلا لدولة الإسلام بالأندلس إبان شيخوختها ثلاثة عظماء، ومن قادة الإسلام على فترات متعاقبة. كان أولهم المنصور بن عبد الله بن أبي عامر المعافري، الذي سنفصل خبره بعد قليل، ثم يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وبطل الزلاقة، ثم يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن أمير الموحدين وبطل الأرك، وكلتاهما معركتان حاسمتان في تاريخ الأندلس.

ولقد اجتذبت شخصية (المنصور بن أبي عامر) اهتمام التاريخ طوال عشرة قرون، وأفردت له مجلدات. وممن أطنب في سيرته صاحب (نفح الطيب) الذي ذكر كثيراً من أخباره العجيبة الشاهدة بحزمه وعزمه وفراسته وعدله، كخبره مع الخطاب الجاسوس، ومع بائع المجوهرات الذي اختطفت الطير مجوهراته

وحسبنا إيراد نصين عنه رحمه الله . قال ابن الأثير في معرض توضيحه لاحتجاب المؤيد هشام وكان طفلاً. قال: «لما ولي المؤيد تحجب له المنصور أبو عامر المعافري وإبناه المظفر والناصر، فلما حجب له أبو عامر حجبه عن الناس فلم يكن أحد يراه ولا يصل إليه، وقام بأمر دولته القيام المرضي، وعدل في الرعية، وأقبلت الدنيا له، واشتغل بالغزو وفتح من بلاد الأعداء كثيراً، وامتلأت بلاد الأندلس بالغنائم والرقيق، وجعل أكثر جنده منهم كواضح الفتى وغيره من المشهورين، وكانوا يعرفون بالعامريين. وأدام الله الحال سبعاً وعشرين سنة، غزا فيها اثنتي وخمسين غزاة ما بين صائفة وشاتية. وتوفي سنة اثنتين وتسعين وثلاث مئة. وكان حازماً قوي العزم، كثير العدل والإحسان، حسن السياسة.

فمن محاسن أعماله أنه دخل بلاد الفرنج غازياً فجاز الدرب إليها وهو مضيق بين جبلين، وأوغل في بلاد الفرنج يسبي ويخرب ويغنم، فلما أراد الخروج رآهم قد سدوا الدرب عليه يحفظونه من المسلمين فأظهر أنه يريد المقام في بلادهم، وشرع هو وعسكره في عمارة المساكن وزرع الغلات، وأحضروا الحطب والتبن والميرة وما يحتاجون إليه. فلما رأوا عزمه على المقام مالوا إلى السلم، فأرسلوا له في ترك الغنائم والجواز إلى بلاده، فقال: أنا عازم على المقام، فتركوا له الغنائم، فلم يجبهم إلى الصلح، فبذلوا له مالاً ودواباً تحمل له ما غنمه من بلادهم، فأجابهم إلى الصلح، وفتحوا له الدرب فجاز إلى بلاده. وكان أصله من الجزيرة الخضراء، ورد شاباً إلى قرطبة طالباً للعلم والأدب وسماع الحديث، فبرع فيها وتميز، ثم تعلق بخدمة صبح والدة المؤيد، وعظم محله عندها، فلما مات الحاكم المستنصر كان المؤيد صغيراً، فخيف على الملك أن يختل فضمن لصبح سكون البلاد وزوال الخوف؛ وكان قوي النفس وساعدته المقادير فاستمال العساكر، وكانت أمه تميمية وأبوه معافري. فلما توفي ولي بعده ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر، فسار كسيرة أبيه، وتوفي سنة تسع وتسعين وثلاث مئة، فكانت ولايته سبع سنين، وكان سبب موته أن أخاه عبد الرحمن سمه في تفاحة، قطعها بسكين

كان قد سم أحد جانبيها، فناول أخاه الجانب المسموم وأخذ هو ما يلي الجانب الصحيح فأكله بحضرته، فاطمأن المظفر وأكل ما بيده منها فمات» ا. هـ.

وقال صاحب (مختصر تاريخ العرب) ـ ونورد نصه بأصله على ما فيه من غمزات تمثل رأي المؤلف وحده ـ قال: «ويقول ابن خلدون: «إن المسلمين بقيادته غزوا اثنين وخمسين غزوة لم ينكسر له فيها راية ولا فل له جيش» وكان الجلالقة والبشكنس قد ثاروا بالمسلمين عندما توفي الحكم واستأنفوا غاراتهم عليهم، فخاض المنصور ـ كما سنسميه منذ الآن ـ. سلسلة من المعارك الرائعة، وأخضع ليون ونافاراو. وجعلهما ولايتين تابعتين له، وأقام الحاميات في عاصمتي تينك الإمارتين، ثم سافر بجيشه إلى كتالونيا، وخرب برشلونة وطرد الأمراء الفرنسيين، وهكذا امتدت حدود الإمبراطورية مرة أخرى إلى ما وراء جبال البرنية. وفي موريتانيا أحرزت جيوش المنصور انتصارات مماثلة، وتمكن قواده من إخضاع جزء كبير من إفريقية الغربية، وفي عام ٩٩١ م فكر في جعل منصب الحاجب وراثياً في أسرته. وليس ثمة شك في أنه كان يود لو استطاع أن يعزل ابن مولاه عن العرش، وينادي بنفسه ملكاً حقيقياً على البلاد، ولكنه كان يخشى الشغب الذي كان قد تشرب فكرة الحرص على شرعية وراثة العرش. ولعل الأشراف كانوا يعتبرون تبديل الأسرة المالكة مفيداً لهم، ولكن الشعب ومعظمه من أصل إسباني كان يرى عكس ذلك إذ كان حب العائلة المالكة شأن شعورهم الديني يؤلف جزءاً من كيانهم. ومع أن المنصور كان قد رفع البلاد إلى المجد ونشر فيها ازدهاراً لم تعهد هما من قبل، فقد كانوا يكرهونه لأنه كان يعامل خليفتهم معاملة الأحداث. وإذ كان المنصور مدركاً لهذا الشعور ومؤملاً أن يتبدل مع الزمن فقد اكتفى بأن نادى بابنه عبد الملك خليفة له في الوزارة بأمر اسميّ من الخليفة. وفي سنة ٩٩٦ م اتخذ لقب السيد والملك الكريم. وكانت وفاة الحاجب المنصور سنة ١٠٠٢ م، وقد توفي هذا الرجل الجديربالاعتبار في سنة ١٠٠٢ م ودفن في مدينته سالم. ولما يسبق لنصارى الشمال أن هابوا أحداً من حكام

الأنـدلس مثلما هابـوا الحاجب المنصـور. وقد جعلتـه حنكته العسكـرية وقـدرته المدهشة على التنظيم معبود الجنود، فلم ينقـطع قط عن محـافظتـه على رفـاهيتهم وحسن نظامهم، وعن طـريق هذا الجيش الذي أنشأه ودربه أكسب إسبـانية قـوة لم تعهـدها من قبـل حتى أيام عبـد الرحمن الثـالث، ولكن هـذا الصنيـع لم يكن الـوحيد الـذي استحق عليه الشكـر من الشعب، فمع أنـه قد اضـطر نـظراً إلى اعتبارات سياسية إلى أن يظهر قسوته على الأحـرار المفكرين والفـلاسفة، فـإنه لم يـتردد قط في حمايتهم متى استـطاع إلى ذلك سبيـلاً، من دون أن يجـرح شعـور المتشرعـين، ويقول رينـو: «إن إسبانيـة الإسلاميـة لم تعـرف عهـداً أكـثر رخـاء وازدهـاراً من عهده». وكـان المنصور محبـاً للعلم، ويغدق كـرمـه العـظيم عـلى العلماء. وبالرغم من أن الوسيلة التي استخدمها للتحقق بالسلطة لم تكن بالتأكيد مستحبة، فإننا لا نستطيع أن ننكر أنه مارسها بنبل وشهـامة ولمـا حصل عليهـا. وكان المنصور كريماً عـادلاً وافياً بـوعده، وقـد ذهب حبه للعـدل مضرب الأمثال بالفعل».

الحاجب عبد الملك المظفر

«وقد خلف المنصور من منصب الحجـابة ابنـه عبد الملك الملقب بـالمظفـر، فحـذا حذو أبيـه في إدارة شؤون الدولـة، وأحرز عـدة انتصارات عـلى القبـائـل المسيحية. وفي إبان حكمه الناجح ازدادت البلاد رخـاء ورغداً، وكـانت أيامهـا أعياداً كما يقول مؤرخ قديم».

آل زيري الصنهاجيون الحميريون

سنتكلم هنـا عن مملكة يمنيـة الأرومة امتـد سلطانها على مسـاحـة تحكمهـا اليوم خمس دول عربية، تمتد من طرابلس الغرب إلى المغرب فموريتانيا، مشتملة على الجزائر وتونس وجبال الأطلس والسوس. واستمر ملكها أكثر من مئتي عام، وبلغ عـدد ملوكها تسعـة ملوك ابتداءً من مؤسسهـا زيـري بن منـاد الصنهـاجي

الحميري، وانتهاء بحفيده الثامن حسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن يوسف بن بلكين بن زيري.

ويذكر ابن خلكان نقلاً عن الجمهرة لابن دريد، أن صنهاجة قبيلة من حمير، استوطنت المغرب وعاشت في صراع مع زناته البربرية ومع بني هلال القادمين من جزيرة العرب، وطوال مدة دولة آل زيري تغلبت صنهاجة على زناته وبني هلال، حتى قامت دولة الموحدين على يد مؤسسها عبد المؤمن بن علي. ولقد كان لصنهاجة بأس شديد في الحرب، نشهده فيما ذكره ابن الأثير عن خبر انقسام بني زيري إلى فرعين: فرع بلكين ابن زيري[1]، ومنهم الملوك الذين ذكرناهم. وفرع حماد بن زيري أصحاب قلعة الطيارة المنيعة بجبال السوس، وقد خرج بعض بني حماد مغاضبين أبناء عمومتهم، فلجؤوا إلى الأندلس أيام قائدها العظيم المنصور بن عامر المعافري. ولنستمع إلى ابن الأثير يقص علينا خبرهم. قال في ص ١٢٠ المجلد السابع:

في هذه السنة يعني سنة ٣٧٣ انتقل أولاد زيري بن مناد، وهم زاوي وجلالة وماكسن إخوة بلكين إلى الأندلس، وسبب ذلك أنهم وقع بينهم وبين أخيهم حماد حروب وقتال على بلاد بينهم فغلبهم حماد، فتوجهوا إلى طنجة ومنها إلى قرطبة، فأنزلهم محمد بن أبي عامر وسربهم، وأجرى عليهم الوظائف، وأكرمهم، وسألهم عن سبب انتقالهم، فأخبروه وقالوا له إنما اخترناك على غيرك وأحببنا أن نجاهد معك في سبيل الله، فاستحسن ذلك منهم، ووعدهم ووصلهم، فأقاموا أياماً ثم دخلوا عليه وسألوه إتمام ما وعدهم به من الغزو، فقال: انظروا ما أردتم من الجند نعطيكم. فقالوا: ما يدخل معنا بلاد العدو غيرنا إلا الذين معنا من بني عمنا وصنهاجة وموالينا. فأعطاهم الخيل والسلاح والأموال وبعث معهم دليلاً. وكان الطريق ضيقاً فأتوا أرض جليقية فدخلوها

(١) ذكر الزركلي في الأعلام أن بلكين هذا هو مؤسس مدينة الجزائر.

ليلاً، وكمنوا في بستان بالقرب من المدينة، وقتلوا كل من به وقطعـوا أشجاره، فلما أصبحوا خرج جماعة من البلد، فضربوهم وأخذوهم وقتلوهم جميعاً، فرجعـوا، وشـامـع العـدو فركبـوا في إثـرهم، فلما أحسـوا بـذلـك كمنـوا وراء ربـوة، فلما جـاوزهم العدو خـرجـوا عليهم من ورائهم، وضربـوا في سـاقتهم وكـبروا، فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدد كثير فانهزموا، وتبعهم صنهاجة، فقتلوا خلقاً كثـيراً وغنموا دوابهم وسـلاحهم، وعادوا إلى قـرطبة، فعـظم ذلك عنـد ابن أبي عامر، ورأى من شجاعتهم ما لم يره من جند الأنـدلس، وأحسن إليهم وجعلهم بطانته. ولما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة حسدوهم، ورغبوا في الجهاد وقالوا للمنصور بن أبي عامر: لقد نشطنا هؤلاء للغزو. وجمع الجيوش الكثيرة من سـائر الأقطار وخرج إلى الجهاد، وكان قد رأى في منامه تلك الليلة كأن رجلاً أعطاه الإسبراج، فأخذه من يده، وأكل منه، فعبره علي بن أبي جمعة، فقال لـه: اخرج إلى بلد اليون فإنك ستفتحها، فقال: من أين أخذت هذا؟ فقال: لأن الإسبراج يقال له في المشرق الهليون فملك الرؤيا قال: هاليون. فخرج إليها ونـازلها وهي من أعظم مدائنهم، واستمد أهلها الفرنج فـأمدوهم بجيـوش كثيرة واقتتلوا ليـلاً ونهاراً، فكثر القتل فيهم، وصبرت صنهاجة صبراً عظيماً. ثم خرج قومص كبير مس الفرنج لم يكن لهم مثله، فجال بين الصفوف وطلب البراز، فبرز إليه جـلالة الصنهـاجي، فحمل كـل واحد منهما على صـاحبه، فـطعنه الفـرنجي فـمال عن الطعنة، وضربه بالسيف على عاتقه، فأبان عاتقه، فسقط الفرنجي إلى الأرض، وحمـل المسلمون عـلى النصارى، فـانهزموا إلى بـلادهم وقتل منهم مـا لا يحصى. وملك المدينة، وغنم ابن أبي عامر غنيمة لم ير مثلها، واجتمع من السبي ثـلاثون ألفاً وأمر بالقتلى فنضد بعضها على بعض، وأمر مؤذناً فأذن فوق القتلى المغـرب، وخـرب مدينـة قامـونة، ورجـع سالمـاً هـو وعسـاكـره». ويقـول ابن الأثـير عن يـوسف بن بلكين بن زيـري: إنه كـان ملكاً شجـاعاً حـازماً. ولم يـزل منصوراً مظفراً حسن السيرة محباً للعدل والرعية، أوسعهم عدلاً، وأسقط البقايا عن أهل

إفريقية، وكان ذا مالٍ جليل، وفي ترجمة ابن خلكان للمعز بن باديس بن يوسف يقول ص ٢٣٣:

المعزّ بن باديس (... ـ ٤٥٤ هـ)

كان الحاكم صاحب مصر قد لقبه شرف الدولة، وسير له شريفاً وسجلاً يتضمن اللقب المذكور، وذلك في ذي الحجة سنة سبع وأربع مئة. وكان ملكاً جليلاً عالي الهمة محباً لأهل العلم كثير العطاء، وكان واسطة عقد بيته، وقد تقدم ذكر أبيه وجده وجد أبيه. ومدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، وكانت حضرته محط بني الآمال. وكان من مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بإفريقية أظهر المذاهب، فحمل المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس رضي الله عنه، وحسم مادة الخلاف في المذاهب، واستمر الحال في ذلك إلى الآن..

وقد تقدم في خبر المستنصر بالله العبيدي أن المعز المذكور قطع خطبته وخلع طاعته، فلما فعل ذلك خطب الإمام القائم بأمر الله خليفة بغداد، فكتب إليه المستنصر يتهدده ويقول له: هل اقتفيت آثار آبائك في الطاعة والولاء. في كلام طويل. فأجابه المعز: إن آبائي وأجدادي كانوا ملوك المغرب قبل أن تملكه أسلافك، ولهم عليهم من الخدم أعظم من التقديم، ولو أخروهم لتقدموا بأسيافهم. واستمر على قطع الخطبة ولم يخطب بعد ذلك بإفريقية لأحد من المصريين إلى اليوم. وأخبار المعز كثيرة وسيرته مشهورة، فلا حاجة إلى الإطالة. وله شعر قليل لم أقف منه على شيء.

وكان المعز يوماً جالساً في مجلسه وعنده جماعة من الأدباء وبين يديه أترجة ذات أصابع فأمرهم السراج أن يعملوا فيها شيئاً، فعمل أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الشاعر المقدم ذكره:

أترجة سبطة الأطراف ناعمة   تلقى العيون بحسن غير منحوس
كأنما بسطت كفاً لخالقها   تدعو بطول بقاء لابن باديس

فاستحسن ذلك منه، وفضله على من حضر من الجماعة الأدباء. وكانت ولادته بالمنصورية، ويقال لها صبرة من أعمال إفريقيا، يوم الخميس لخمس مضين من جمادىٰ الأولى سنة ثمان وتسعين وثلاث مئة. وملك بعد أبيه باديس في التاريخ المذكور في ترجمته، وبويع بالمحمدية من أعمال إفريقية أيضاً يوم السبت لثلاث مضين من ذي الحجة سنة ست وأربع مئة، توفي في الرابع من شعبان سنة أربع وخمسين وأربع مئة بالقيروان، من مرض أصابه وهو ضعف الكبد، ولم تطل مدة أحد من أهل بيته في الولاية كمدته. ورثاه أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني بأبيات على روي الكاف:

لكل حي وإن طال المدى هلك ... لا عز مملكة يبقى ولا ملك

هذا المعز لا يعرف له اسم سوى المعز، ولا تعرف له كنيته أيضاً والظاهر أن هذا اسمه.

تميم بن المعز (... - ٥٠١ هـ)

يقول في ترجمة تميم بعد سوق نسبه ص ٣٠٤: «ملك إفريقية وما والاها بعد أبيه المعز، وكان حسن السيرة محمود الآثار محبّاً للعلماء معظماً لأرباب الفضائل، حتى قصدته الشعراء من الآفاق على بعد الدار، كابن السراج الصيوري وأنظاره. ومجده المثنى بن المسور وأول من دخل منهم إلى إفريقية، ولأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني فيه مدائح فمن ذلك قوله:

أصح وأعلى ما سمعناه في النَّدى ... من الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا ... عن البحر عن كف الأمير تميم

وللأمير تميم المذكور أشعار حسنة، فمن ذلك قوله:

إن نظرتْ مقلتي لِمُقلتها ... تعلم مما أريد نجواه
كأنها في الفؤاد ناظرة ... تكشف أسراره وفحواه

وله أيضاً :

سـل المطر العـام الـذي عم أرضكم ... أجـاء بمقـدار الـذي فـاض من دمعي
إذا كنت مـطبـوعـاً عـلى الصـد والجفـا ... فـمن أيـن لي صـبر فـأجعـله طبـعـي

وذكره العماد الكاتب في كتاب «السيل» وأورد له :

فـكَّـرت في نـار الجـحـيـم وحَـرِّهـا ... يـا ويـلتـاه ولات حـين مـنـاص
فـدعـوت ربي أن خـير وسـيـلتي ... يـوم المـعـاد شـهـادة الإخـلاص

وأشعـاره وفضائله كثيرة، وكان يجيز الجوائز السنية، ويعطي العطاء الجزيل. وفي أيام ولايته اجتاز المهدي محمد بن تومرت الآتي ذكره إن شاء الله تعالى بإفريقية عند عوده من بلاد المشرق وأظهر بها الإنكار على من رآه خارجاً عن سنن الشريعة، ومن هناك توجه إلى مراكش، وكان منه ما اشتهر، وكانت ولادة الأمير تميم بالمنصورية من بلاد إفريقية سنة ٤٢٢، وفوض إليه أبوه ولاية المهدية في صفر سنة ٤٥٠، ولم يزل بها إلى أن توفي والده في الرابع من شعبان سنة ٤٥٤ رحمه الله، فاستبد بالملك ولم يزل إلى أن توفي ليلة السبت منتصف رجب سنة إحدى وخمس مئة، ودفن في قصره، ثم نقل إلى قصر السيدة بالمستنير رحمه الله تعالى، وخلف من البنين أكثر من مئة ومن البنات ستين على ما ذكره حفيده أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم المذكور في كتاب (أخبار القيروان) رحمه الله تعالى».

آخر ملوك بني باديس

وقال في ترجمته ليحيى بن تميم وولده علي ص ٢١٦ : «لم تزل أمور علي بن يحيى جارية على السداد إلى أن توفي يوم الثلاثاء، لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وخمس مئة، ودفن في القصر بعد أن فوض الأمر من بعده إلى ولده أبي يحيى بن يحيى الحسن بن يحيى، ومولد الحسن المذكور بمدينة سوسة من رجب، سنة اثنتين وخمس مئة فكان عمره يوم ولايته اثنتي عشرة سنة

وتسعة أشهر. ولما كان ثاني يوم من وفاة أبيه خرج أناس فسلموا عليه وهنؤوه بما صار إليه، ثم ركب والجيوش محتفة به، وجرت في أيامه وقائع وأمور يطول شرحها، فمن ذلك أن رجال الفرنجي صاحب صقلية أخذ طرابلس الغرب عنوة بالسيف، يوم الثلاثاء السادس من المحرم سنة إحدى وأربعين، وخمس مئة فقتل أهلها وسبى الحريم والأطفال وأخذ الأموال، ثم شرع في إمارتها وتحصينها بالرجال والعدد، ثم أخذ المهدية يوم الاثنين الثاني عشر من صفر سنة ثلاث وأربعين وخمس مئة، وذلك أن الحسن بن علي لما علم عجزه عن مقاومته، خرج من المهدية هارباً وقد استصحب ما خف عليه حمله من النفائس، وخرج أهل البلد أيضاً هاربين إلا من أقعده العجز عن الهرب، فدخل إليه الفرنج وملكوه، وصادفوا فيه من الأموال والذخائر ما لا يعد ولا يحصى»[1].

تابع الإشراق اليمني الأول
المقيمون

عشنا فيما سبق صفحات بيضاء عطرة مع اليمن في مهاجرها العديدة بأرض الإسلام، وشهدنا وفرة حظها من أعلام الأمة في كل الميادين و على مختلف الأصعدة، ونعيش الآن مع اليمن في مقرها وداخل جبالها الشامخة وسهولها الرحبة ووديانها الخصبة، وهي تفيض بالمواهب فيضانها بالرخاء.

وإجمالاً نقول مرت اليمن في إشراقها الأول من مبعث النبي ﷺ إلى سقوط الدولة العباسية في كارثة التتار، بعشرة أدوار تتفاوت طولاً وقصراً هي: الدخول في دين الله، ففتنة الكذاب العنسي التي كانت والحمد لله عثرة عابرة سرعان ما استقام عمود الدين بعدها أكثر إستقراراً وأعظم مناراً، ثم المسارعة إلى جيش الفتح الناشر لدين الله في أرجاء المعمورة، ثم الاستمرار في العبادة والشريعة على ما نطق به القرآن الكريم والسنة المحفوظة في صدور الرجال، ومن بعد في بطون

(١) تولى بعدهم يوسف بن تاشفين الصنهاجي الحميري أمر المغرب الأقصى والأوسط والأندلس توفي سنة ٥٠٠ هـ.

مسانيد الحديث التي كانت متداولة، كمسند عبد الرزاق بن همام وأبي قرة موسى ابن طارق وسنن أبي عيسى الترمذي ومسند محمد بن أرشد وأمثالها، كما ذكره ابن سمرة الجعدي في طبقاته.

وبعد هذا الدور الاجتهادي الذي شاع طوال العهد الأموي وأوائل العهد العباسي كانت فتنة الخوارج، التي تزعمها عبد الله بن يحيى الكندي، وواجهها أولاً عبد الملك بن عطية آخر العهد الأموي، ثم حملة معن بن زائدة الشيباني أوائل العهد العباسي. وانحسرت موجة الخوارج وبدأت بعدها بوادر المذهبية الفقهية حيث انتشر مذهب الإمام أبي حنيفة. وفي القرن الرابع قدم القاسم بن محمد القرشي ناشراً مذهب الإمام الشافعي، وخلال أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع ظهرت حركتان كان لهما تأثير مديد في تاريخ البلاد، وأولاهما: الدعوة الشيعية التي قدم بها الهادي يحيى بن الحسين. وثانيتهما الحركة الإسماعيلية الباطنية التي جاء بها علي بن الفضل ومنصور بن حوشب. وبعد كل ذلك فكرة الاعتزال التي قدم بها في القرن السادس جعفر بن أحمد بن عبد السلام، وكان الصراع الشديد بينه وبين علماء السنة وعلى رأسهم يحيى بن أبي الخير العمراني. وجاء من بعد ذلك فكرة التصوف الفلسفي التي كان صاحب نظريتها محيي الدين بن عربي. تلك هي الأدوار العقيدية والفكرية التي مرت بها اليمن في إشراقها الأول، فتغلبت على الفاسد السيء واحتفظت بالصالح النافع، والحمد لله.

أما أعلام هذا الباب ونعني به الإشراق الأول من المقيمين باليمن فسنذكرهم: بعد الإشارة إلى المراكز العلمية السائدة حينذاك. وسنستقي معلوماتنا عن ذلك من عدة مراجع، أهمها: التذكرة للذهبي وطبقات ابن سمرة وتاريخ صنعاء لأحمد بن عبد الله الرازي، والاختصاص لنظام الدين سري بن فضيل العرشاني ومعجم البلدان ومعجم الأدباء لياقوت والسلوك للجندي، وغير ذلك من المراجع.

صنعاء

ليقل القائلون من الثناء على صنعاء ما يشاؤون، فحسبها أنها عقل اليمن ووجهه وقلبه (عقله) لأن ذاكرته التاريخية موجودة بها محفور فيها اختزنت وقائع العصور، واستخلصت تجاربها وحافظته الواعية التي استوعبت حمولة القرون من الثقافات المتعددة والحضارات المتعاقبة.

و (وجهه) لأنها مُجْلىَ معماره المتميز ومعرض علومه وفنونه وأفكاره. (وقلبه) الذي تنعكس أحواله الصحية على سائر اليمن، يصح بصحتها ويسقم لسقمها. يقول أبو محمد الهمداني عنها: ولم يزل بها عالم وفقيه وحكيم وزاهد، ومن يحب الله عز وجل المحبة المفرطة ويخشاه الخشية اليقظى، على نحو ما ذكره بطليموس من طبائع أهل هذا الصقع، وهم مع ذلك أهل تمييز لعارض الأمور، وخدمة السلطان بأهبة وتملك وتنغم في المنازل. ولهم صنائع في الأطعمة التي لا يلحق بها أطعمة بلد، ولهم خط المصاحف الصنعاني المكسر والتحسين الذي لا يلحق به، ولهم حقائق الشكل ذكرهم بذلك الخليل، ولهم الشروط دون غيرهم. ولا يكون لفقيه من أهل الأمصار شرط إلا ولهم أبلغ منه وأعذب لفظاً وأوقع معنى وأقرب اختصاراً. ومنهم الخطباء كمطرف بن مازن وإبراهيم بن محمد بن يُعفِر (بضم الياء وكسر الفاء)، وفيها العلماء، كوهب بن منبه وأخويه همام ومعقل، وعبد الرزاق وعبد الرحمن بن داود وابن الشرود وهشام بن يوسف ومطرف بن مازن المخترع لمقارع الغيول» ا. هـ هذا بعض ما قاله الهمداني عنها في القرن الثالث.

ومن الطريف أن نصغي قليلاً إلى الرحالة الدنمركي (ينبور) وهو يشرف عليها بعد سفر سنتين ونصف في الطريق إليها: «وفي مساء السادس عشر من تموز (يوليو)، حين وصلت الأمور إلى درجة لا يمكن أن تكون أكثر يأساً مما هي عليه، صفا الجو وأشرقت الشمس من خلال السحب، ومروا ببعض البيوت الفخمة المحاطة بالبساتين الواسعة، حيث الفاكهة الناضجة من العنب والجوز

والمشمش، وقطرات المطر كـأنها تودع في تـأثر أشعـة الشمس وهي تغيب. وبعد آخـر منحنى في الطريق إلى صنعـاء امتد أمـامهم منظر فسيـح، تـوقف الـرجـال الثلاثة عنده، وأطلوا على وادٍ بـه عدة منـازل، وشاهـدوا الدخـان المتصاعـد من مـداخن البيوت المختلط ببخـار المطر، يغـطي جوانب التـلال، وكـان كـل شيء هـادئاً لا يتحـرك، وطائـر الوروار يجثم عـلى أحـد الغصـون، وقـد مضى بعض الوقت قبل أن يستطيع المسافرون المنهكـون تصديق مـا تشاهـده أعينهم. أجل لم يكن ما يرونه أمام أعينهم من صنـع تصويـرات الحمّى، إنها حقاً مـدينة، فهـذا شـذا الأرض الـطري ينقله الهـواء من حـولهم، وهـذه هي فعـلاً قـطرات المـطر المتساقطة من الأشجار، وهذا طـائر الـوروار الأخضر يطير مـراراً ليعود إلى نفس الغصن الـذي طـار منـه. إنهم ليسـوا في حلم فهم الآن أمـــام مـدينـــة صنعـاء عاصمـة العربية السعيدة، التي وصلوها أخيراً بعـد رحيل دام سنتـين ونصف».

ويطيب بعد هذا الإصغاء إلى الأديب اللبناني (أمين الريحاني) وما قاله عن صنعاء حـين زارها سنـة ١٣٤ هـ: «وما هي إلا سـاعة بعـد ارتحالنـا من (حزيـز) حتى تراءت لنا رؤوس المآذن في تلك المدينة ثم قباب مساجدها، وهي بيضاء تتـوهج في نور الشمس الذي يترجرج كـالزئبق في الجـاف الشفاف من الهـواء. بينا نحن نـدنو من (نقم) الـذي أصبح عـلى يميننا إذ بـدت المدينـة نفسهـا، وهي محـاطـة بالجبال، تمتد شرقاً وغرباً كأنها وهي كلها بيضـاء سلسلة من التلال السلكيـة في سهـل ذهبي منقطع الاخضرار. أي صنعـاء، مثلك لنـا التـاريـخ فكنت مليكـة الزمان، ومثلك لنا العلم فكنت يوماً ربة العرفان، ومثلتـك لنا الأسـاطير فكنت سيدة الجن والجان. أجـل، فكم من ليلة وفي اليد الكتـاب وإلى جانب الكتـاب نـور شمعة ضئيـل، تغلغلنا في سراديبـك، ووقفنـا عنـد كنـوزك، وطفنـا حـول قصورك، وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك. واليوم ومطيتنا غـير الخيال، ما يثبت المقال ويحقق الآمال وهذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ. وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي فما كذب الشعر، وفي خزائنك الكتب النفيسة، والمخطوطات فما كذب العلم، وهذه كنوزك وسحر قصورك

وسحر الأسماء فيك فما كذبت الأساطير». إلى أن يقول عن صنعاء وكأنه ينشد شعراً: «فيها الهواء أعذب من الماء، والماء أصفى من السماء. والسماء أجمل من حلم الشعراء». ا. هـ.

وفي اليمن أربعة أنبياء: هود في الأحقاف، وثلاثة في صنعاء ومخاليفها هم: شعيب بن مهدم بن حضور، وتوسع الهمداني في ذكر خبره مع قومه، وحنظلة بن صفوان ذكره الهمداني وابن خلدون في تاريخه. كما فصله خير الدين الزركلي في الأعلام، وروبيل بن يعقوب ذكره ياقوت في معرض كلامه عن (جهران) وأنه مدفون بها[1].

وقد زار اليمن من الصحابة - وصنعاء في مقدمة مدنها - عبد الرحمن بن عوف - كما فصله ابن حجر في الإصابة عن عسكلان بن عواكن - وخالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم. وهؤلاء هم غير الصحابة الولاة الذين تولوا أمر اليمن كما زارها من أئمة الحديث والفقه: محمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين وإسحاق بن راهويه.

وقامت في صنعاء على امتداد تاريخها الإسلامي ثلاث مدارس كبرى للسنة والاجتهاد: أولاها تلك التي أنشأها في القرنين الثاني والثالث معمر بن راشد وعبد الرزاق بن همام وهشام بن يوسف وإسحاق بن إبراهيم. وثانيتها تلك التي أنشأها من القرن السابع إلى التاسع عمر بن سعيد الربيعي وابن مضمون ومحمد بن إبراهيم الوزير محمد بن إبراهيم الخولاني. أما ثالثتها فتلك التي قامت من القرن الحادي عشر إلى الثالث عشر على يد الحسن الجلال وصالح المقبلي والأمير الشوكاني.

وإلى جانب مدارس السنة والاجتهاد قامت مدارس فكرية انتشر فيها الفكر الشيعي والمعتزلي والصوفي، وتطلعت إلى صنعاء الحركة الباطنية، فانقمعت دونها وقبعت حولها.

---

(١) في معجم المقحفي نقلاً عن القاموس أن قبر سام بن نوح بقرية نواده عزلة المنار ناحية بوران.

والحق أن المرء ليعجب من الركام الهائل الذي كدسته القرون وأضافته الأجيال، حتى كادت أن تطمس نقاء الإسلام وبساطته. فالكل يعلم أن هذا الدين جاء تبصيراً بالعبادة، وتقويماً للسلوك، وحفزاً للجهاد في سبيل الله.

هذا جانبه العملي، أما جانبه الفكري منه فإنه يدعو إلى التأمل في المخلوقات، والاستعداد لليوم الآخر، وجعل الولاء لله ولرسوله وللمسلمين كافة. كما جعل التوبة النصوح والصدقة كفارة للذنوب، وجعل العدل حارساً للحقوق ورابطاً لإخاء بني الإنسان. فجاءت المذاهب السياسية كالخوارج وفرق الشيعة تجعل الولاء لأسرة وأفراد، وتعد الكبيرة خروجاً يقارب الكفر، كما جاءت المذاهب الفكرية، كالمعتزلة والجبرية والقدرية تجعل من الجبر والاختيار آيات الصفات معضلة لا تنتهي على مرّ القرون، وقامت على هامشها خلافات الأشعرية والسلفية والصوفية بما لا يكاد يؤذن بانتهائها. ووراء ذلك كله الاستبداد السياسي الذي طحن الأمة الإسلامية جمعاً، وهو المسؤول الأكبر عن أكثر الممارسات الخاطئة والمنحرفة، التي شلت قوى الأمة عن مواجهة أعدائها وإقامة دين الله الحق في هذه الدنيا، كما جاء به رسول الإسلام. فهل آن يا ترى لأبناء هذا الدين أن يعودوا إلى منبعه الصافي وصراط المستقيم.

الجند

يظهر من كتابات ابن سمرة والرازي والجندي وغيرهم، أن مدينة الجند كانت المركز الإشعاعي الأول في اليمن الأسفل من حضر موت إلى تهامة، ببركة مقام معاذ بن جبل بها وتتابع الوافدين إليها. وظلت محتفظة بصدارتها العلمية إلى القرن السابع، وكانت من أهم توابعها العلمية الذنبتين وزبران والصردف وسهفنة وذي أشرق وذي السفال، ومصنعة والملحمة بالسحول وخاصة بجبيش.

وكانت أهم الوفادات التاريخية إليها وأبعدها أثراً في تاريخ الفقه الفروعي

والفكر العقيدي هي وفادة القاسم بن محمد القرشي الناشر لمذهب الإمام الشافعي، والحسين بن جعفر المراغي الناشر للعقيدة الحنبلية، وكلاهما كان في القرن الرابع وكلاهما استقر بسهفنة قرب القاعدة. ومما يؤكد صدارة الجند العلمية في تلك الفترة، وهو أنه حيث غاب زيد بن عبد الله اليفاعي عن الجند وجاور بالحرمين، لم يجد طالبوا العلم من يسد مسده غير محمد بن عبدويه المهروبالي، الذي ضاق بمقامه بزبيد حين استولى عليها الصليحيون، فانتقل بعلمه وكتبه إلى كمران، فتبعه الطالبون إليها وكان ابن الأبار الذي عدّه عماره كبير علماء زبيد حينذاك من تلاميذ المهروبالي هذا، ويظهر أن العقيدة الحنبلية كانت هي السائدة إلى القرن السادس، وحين انتشرت العقيدة الحنبلية كانت هي السائدة إلى القرن السادس، وحين انتشرت العقيدة الأشعرية في تهامة حنيذاك قامت خلافات شديدة بين علماء الجهتين، ومن أشهرها تلك التي حدثت بين يحيى بن أبي الخير العمراني وولده طاهر، حين تحول من الحنبلية إلى الأشعرية، حتى إن سيف السنة البريهي حرص على توضيح شرطه في وقف كتبه فنص على حرمان الأشعرية منها:

هذا كتاب لوجه الله موقوف ... منا إلى الطالب السني مصروف
ما للأشاعرة الظلال في حسبي ... حق ولا للذي بالزيع معروف

وأهم أعلام تلك الفترة هم: زيد بن عبد الله اليفاعي الذي تتلمذ بالحرمين على البندنيجي والطبري تلميذي أبي إسحاق الشيرازي، وجعفر المحابي[1] صاحب القصة التي رواها الجندي مع الصليحي، وزيد بن حسن الفايشي، والحافظ العرشاني، والإمام يحيى بن أبي الخير العمراني الذي كان له صراع ومواقف ضد المعتزلة والأشعرية، وتلميذ علي بن عبد الله بن عيس بن أيمن الهرمي هو الذي ناظر جعفر بن أحمد بن عبد السلام المعتزلي وأفحمه.

(١) هو المخائي كما سيأتي في ترجمته.

وإن المطالع للسلوك ليقف على كثير من التفسيرات للعادات الاجتماعية السائدة في القوم، مثل إرسال الرجال لشعر رؤوسهم ولبسهم السواد، بسبب إلزام معن بن زائدة لهم بذلك انتقاماً لقتل ابن أخيه. وأنهم كانوا يحصلون على الأوراق لكتابة معارفهم بالشراء من أرض الحرمين مما تصنعه بغداد ومصر من ذلك، وأن كلمة (العجور) المنتشرة اليوم في تهامة والجند ـ يعنون بها قصب الذرة ـ كانت معروفة في القرون السالفة، إلى غير ذلك من الفوائد والتفسيرات الممتعة.

ولم تغرب شمس الجند العلمية إلا بعد أن هدمها كما هدم إبآ علي بن مهدي في القرن السادس، وفي ذلك يقول البريهي:

خليلي من ذا عيشه قبلنا طابا
فلا تحزنا إن ناب إب الذي ناب
فآدم في الفردوس ما طاب عيشه
ولا طاب في الدنيا، وإن كان قد تابا

عدن أبين تريم حضر موت

تريم منار حضر موت ولؤلؤة الأحقاف. ذكر الأهدل في النفس اليماني وزبارة عن أبي مخرمة أنها اختطت في عهد الصديق وبإشارته، وأن المتوفين بها من الصحابة سبعون صحابياً[1].

أما عدن فأمرها مشهور، ونكتفي بمن ذكرهم ابن سمرة من علماء هذه الجهة: ففي مرباط فقيهها ومفتيها محمد بن علي القلعي، له مصنفات حسنة منها (قواعد المهذب) وغيره. وفي أحور الفقيه محمد بن منصور النظيف، فقيه مجود في علم الفرائض والحساب، إمام في الحديث. وفي ميفعة سعيد بن فرج وراشد بن

(١) وقد وسع صاحب النور السافر عبد القادر بن شيخ العيدروس في فضائل تريم.

عبد الله بن أبي حياس العامريَّ. ومن أهل حضر موت أذكر أبا زنيج وأبا جعوش، وأبا كدر قاصي تريم جمع بين القراءات السبع والفقه، وأبا بكيرة لقيت أبا بكيرة هذا في عدن، له سمعة وهيبة، محافظاً على الصلاة في أوَّل وقتها، قتل شهيداً في تريم، سنة خمسين وسبعين وخمس مئة في غزاة الأمير عز الدين عثمان، التي قتل فيها فقهاء حضر موت وقراؤها قتلاً ذريعاً، وكانوا في عدن يقرؤون على هذا الفقيه أعني أبا بكيره (تفسير الواحدي) وكتاب (النجم)، ومنهم شيخي محمد بن أحمد بن النعمان يسكن الهجرين سمع من أحمد بن محمد السلفي الحافظ في أصبهان. لديه ورع وزهد ونظافة علم. ومنهم ابن أبي الحب القائل:

أجل ما العلا إلا لأربابها حيرى
وما العلم إلا إرث ابن أبي الخير
نفيل بن يحيى طاهر في فعاله
وثاني صنوف الخير من معدن الغير

ومن أهل أبين: الفقيه نعيم بن عبد الله العشاري[1] سمي بذلك لأنه قيل كان يحفظ عشرة علوم، عارف في تأويل الرؤيا ويقال: إنه رأى النبي ﷺ، وقال له: أوَّل الرؤيا ومن برز علمياً في تاريخ الجنوب اليمني كافة خلال تلك الفترة، وهو الشيخ محمد بن علي القلعي ترجمه الخزرجي في (العقود اللؤلؤية) ضمن المتوفين سنة ٦٢٩ هـ.

«في هذه السنة توفي الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن بن علي بن أبي علي القلعي، نسبة إلى قلعة حلب بالشام، وقيل: نسبه إلى قلعة بلده بالمغرب». هذا قول الجندي. وقال الأسنوي في طبقاته إنه منسوب إلى قلعة بينها وبين زبيد نحو يوم، ولم يذكر الأسنوي اسم هذه القلعة التي نسبه

(١) ذكر الشرجي اسمه هكذا: نعيم بن محمد الطروي من الطرية قرية بأبي.

إليهـا ولا في أي نـاحيـة من زبيـد، وهـذا غلط من الأسنـوي والله أعلم وكـان القلعي المذكور فقيهاً عالماً كبيراً عاملاً، له مصنفات كثيرة مشهورة انتفع الناس بهـا، منها: قـواعد المهـذب، ومنها مستعـذب، ومنها إيضـاح الغوامض في علم الفرائض مجلدان. جيدان. جمع فيه بين مذهب الشافعي وغيره، وأورد فيه طرفاً من الحـبر والمقابلة والـوصايـا. وله احـتراز المهذب، ولـه كنز الحفـاظ في غرائب الألفاظ ألفاظ المهذب، وله تهذيب الرياسة في ترتيب السياسة، وله كتاب أحكام القضاة، وله غير ذلك، وأكثر ما توجد مصنفاته في ظفار وحضر موت ونـواحيها، وعنه انتشر الفقه في تلك الناحية، ولم ينتشر العلم عن أحد في تلك الناحية، كما انتشر عنه وأعيان فقهائها أصحابه وأصحاب أصحابـه. وحج من مـرباط فـأخذ عنـه بمكة وزبيـد، وغيرهمـا من البلاد التي مـر بهـا خلق كثـير. وكـانت وفـاتـه بمـربـاط[1]، وقـبره هنـاك. كـما تـوسـع الجنـدي في سلوكـه في تـرجمـة هـذا الفاضل» ا. هـ.

وذكر الشرجي أن سعيد بن عيسى العمودي من أولياء القرن السابع، هو الناشر في حضر موت لطريقة الوالي المغربي الأندلسي أبي مدين شعيب بن الحسن التلمساني المتوفي سنة ٥٩٤ هـ.

تهامة

يعتبر الهمداني تهامة اليمن شريطاً سهلياً ينتهي طرفه الشمالي بأم جحدم مما يصالي جبل (كدنبل). ذكر الأكوع أنه يعرف اليوم بـ (كدنبـل). وينتهي طرفهـا الجنـوبي بما وراء عـدن ولحج أبـين. وجرى تقسيم الأوائـل لهذا الشريط بحسب قبائله القاطنـة فيه إلى أربعـة أقسام: الجنـوبي منها هـو بلد بني مجيد، وعـاصمته القـديمة (الشقـاق) بأرض مـوزع، وثغره المخـاء والمندب، وتعـرف قبائله اليـوم بحكم الشقاق. يليه شمالاً بلد الأشاغـر، ويبتدىء جنـوباً من حيس، ومـدينتاه

(١) مرباط: بلدة مجاورة لعمان.

زبيد وحيس، وثغوره: غليفقة والبقعة والخوخة، وينتهي شمالاً إلى وادي رمع ويدخل فيه من جهة الشرق شمير وجبل رأس وهو الذي كان يسميه الهمداني جبل الوحش وبلد الركب، ثم القسم الثالث: ويبدأ جنوباً من وادي رمع وينتهي شمالاً بوادي مور. وتقع فيه قبيلة عك المرهوبة الجانب القوية الشوكة وهي أكبر قبائل تهامة، وبلادها أوسع بلدانها إذا أنها تشتمل على ثلاثة من كبار وديانها، وهي سهام الذي يقع على ضفتيه وبجواره بيت الفقيه والدريهمي من جنوبيه، والمراوعة، والحديدة من شماليه. ثم وادي سردد وعلى ضفته الجنوبية مدينة باجل، وعلى ضفته الشمالية مدينة الضحى والزيدية التي حلت محل المهجم، كما حلت المراوعة محل الكدراء. ثم وادي مور، وهو ميزاب اليمن الأكبر وتقع على ضفافه مدينة الزهراء، التي اختطها في القرن الثالث عشر الشريف حمود الخيراتي. ومن ثغورعك اللحية، وقد زالت دولتها اليوم وحلت محلها الحديدة والصليف. يأتي بعد ذلك القسم الرابع من تهامة، وهو ما يعرف بالمخلاف السليماني نسبة إلى سليمان بن طرف الحكمي من آل عبد الجد. وقبائل هذا المخلاف تتصل بالحكم بن سعد العشيرة مذحج، وقصبتها القديمة (عثر) والحديثة جازان وصبيا، التي كانت قريباً مقر دولة الأدارسة.

هذا باختصار التقسيم الجغرافي والقبلي لتهامة اليمن. ونلحظ أن هذا الاقليم التهامي تأثر فكرياً وارتبط على امتداد تاريخه الاسلامي بحواضر الإسلام الكبرى: بغداد، دمشق، القاهرة. فحين كانت بغداد عاصمة الخلافة أخذت منها غذاءها الفكري والروحي، وكانت ناهجة مذهب الشافعي، متلقية له من مؤلفات كبير علمائه في عصره أبي إسحاق الشيرازي أصولاً وفروعاً. وشاعت فيها وانتشرت بين علمائها مؤلفاته الأصولية والفروعية؛ كاللمع والتنبيه والمهذب[1]. وأخذت في التصوف الطريقة القادرية التي أسسها الولي المصلح (عبد القادر

(١) محمد بن أحمد الركبي الأشعري ت ٦٣٣ «النظم المستعذب» في شرح غريب المهذب وهو العلامة المشهور بابن بطال.

الجيلاني ومؤلفات حجة الإسلام (أبي حامد الغـزالي) وفي مقدمتهـا. (الإحياء). كـما أخذت عن دمشق مؤلفـات (محيـي الـدين النـووي) مفتـح مـذهب الإمـام الشافعي وفي مقدمتها: (المنهاج في الفروع) و (الترغيب والترهيب) للمنذري وهو مصري، ومؤلفات ابن قيم الجوزية الذي وإن كـان ينسبه البعض إلى الحنـابلة، إلا أنه في الواقـع مجتهد **يتحـرى** الحق حيث كان، ولـه روحانيـة فيّاضـة تشع في نفس قـارئه، ممـا يتناسب مـع العاطفـة الرقيقـة الشائعـة في تهامـة، وعلى سبيـل المثال، فإن رسالته اللطيفة التي أسماها بخطبـة (ق)، ويسميها التهـاميون بـوادع رمضـان لا تزال فـاعلة مؤثرة متـداولة في المسـاجد وأسـمار ليـالي رمضـان. كـما أخذت عن مصر مؤلفات ابن حجر العسقلاني وعبد الرحمن السيـوطي وغيرهمـا، واتبع بعضها الطريقة الشاذلية في التصوف.

وعلى ذكر تأثر تهامة بالمدن الثلاث السالفـة **نشير** بـإيجاز إلى بعض قيـاداتها الإصلاحية والفكـرية، وبعض الكتب ذات الأثـر التربـوي والروحي في نفـوس الأهلين.

وأهم قياداتها الإصلاحية والفكرية بعـد الصحابي الجليـل الناشر لـلإسلام في ربوعها أبي موسى الأشعري، هو أبو قرة موسى بن طـارق صاحب أول مسنـد للحـديث في تهامـة اليمن، وآل أبي عقامـة الذين نشروا مذهب الشافعي فيهـا، ومحمد بن عبدويه المهروبالي المدفون بكمران، الناشر لمؤلفات شيخـه أبي إسحاق الشيرازي، **وعلي بن عبدالرحمن الحداد**[1] **الناشر للطريقة القادرية في التصوف**، والفقيه إسماعيل الحضرمي الذي يعد علماً بارزاً في القضـاء والتعليم والإصلاح، وآل البجـلي وآل الحكمي وآل العجيل وآل الأهـدل، ممن كان لهم أثـر بالـغ في الحياة العامـة والعلمية والـروحية حتى اليـوم، وعلي بن عمـر بن دعسين النـاشر للطريقة الشاذلية، وغيرهم.

(١) ذكر الشرجي أنه التقى بالجيلاني بالحرم في شعبـان سنة ٥٦١ ولعـل الصحيح أن لقـائهما كـان سنة ٥٦٠ إذ أن الجيلاني توفي في ربيع الآخر سنة ٥٦١ هـ.

أما أهم الكتب المؤثرة تربوياً وروحياً في أهل هذا القطر، فالإحياء للغزالي الذي دخل اليمن في القرن السادس، والترهيب للمنذري الذي أدخله المظفر في القرن السابع، والمنهاج الذي شاع حفظه بين الرجال والنساء، ورياض الصالحين الذي تنعقد المجالس لسماعه حتى اليوم، وكتاب السخاوي للماوردي الذي اختصره ابن المقرىء في الإرشاد.

وإلى جانب ذلك ظهرت كتب غير نافعة كان لها الأثر العكسي خصوصاً لدى المتصوفة، مثل كتاب الإنسان الكامل الذي ألفه عبد الكريم الجيلي، فإن محمد بن إسماعيل الأمير حين اطلع عليه نهى الناس عن قراءته، وأمر بإحراقه، بل أحرقه بنفسه. وكتاب الفتوحات المكية الذي نسخه أبو بكر اليحيوي، وأدخله إلى اليمن في القرن الثامن.

ومن أفضل عاداتهم التي تمسكوا بها منذ العهد الرسولي حتى الآن، هو القراءة السنوية لصحيح البخاري وغيره من كتب الحديث، كالجامع الصغير للسيوطي. وإذا كانت هذه الجهة من اليمن قد تمحّضت للسنة أصولاً وفروعاً، وبرئت من بدع الشيع كالخوارج والمعتزلة والشيعة والباطنية، فإن تعلقها بالقبور بما جاوز الحد المأمون إلى ما لا تقره عقيدة التوحيد، وسبب ذلك ينحصر في:

(١) الأمية الدينية التي شب عليها السواد محروماً من أصول العقيدة وفروع الشريعة، فاختلط عليه الأمر وخبط في متاهات غير مأمونة.

(٢) الظلم المتعاقب قروناً، مما جعل سواد الأمة لا يجد حنان الإسلام ورفق الإيمان إلا لدى أولئك الآحاد من عباد الله الصالحين، فتعلق بهم في حياتهم وتوارث حبهم بعد مماتهم.

وربما توسعن في الكلام عن هذا في حديثنا عن الولاية والأولياء وعلى كثرة ما ابتليت به تهامة من المظالم، إلا أن أكثرها بشاعة هي تلك التي وقعت على يد علي بن الفضل والصليحي وعلي بن مهدي والجنود الغورية وحملات الباطنية التي

كانت آخرها في منتصف القرن الثاني عشر، فقام محمد بن اسماعيل الأمير في تشديد النكير عليها، ومع أننا ننظر إلى الأحداث في هذا الكتاب بعين ماضوية، إلا أن إحساسنا بمطالب الحاضر ومخاطر المستقبل يجعلنا ننبه إلى الأهمية الكبرى لهذا الإقليم بالنسبة لسائر اليمن رخاءً وآمناً. فعلى حين يقال اليوم إن عصور الاحتلال والاستعمار قد انقشعت، إلا أن حوادث الواقع تشهد بخلاف ذلك. وأما أمر اغتصاب واستيطان إسرائيل لفلسطين وغزو الروس للأفغان فليسا بسر. ولا شك في أن أولئك المتعالين بحضارتهم وقوتهم العسكرية، يجدون طرقاً عديدة لغزو المتخلفين عنهم المتطلعين إليهم، إما بالدبابات والطائرات وإما بالمناهج الدراسية والثقافات، التي ربما كانت أكثر نجاحاً وتحقيقاً للأهداف. ولا شك أيضاً في أن اتساع المواجهة البحرية لتهامة وخصوبة الأرض ووجود أسس التنمية وركائزها الهامة فيها كالمحطات الكهربائية والمنشآت البترولية[1]، كل ذلك يجعل تهامة مركز العصب التنموي لليمن وميدان نهضتها، مما يجعلنا هنا ننبه إلى ضرورة الاهتمام بأساسيات أربع:

(١) تحقيق العدل القضائي والاجتماعي حتى يضمّد جراحات المجتمع ويوحد أفراده.

(٣) إقامة مراكز التعليم المهني والفني، والجمعيات التعاونية الزراعية، وفتح المصارف الإسلامية لإيجاد النهضة الزراعية والصناعية اللازمة، والقادرة ـ إن شاء الله ـ على سد الاحتياج الداخلي والتصدير الخارجي.

(٤) إقامة القوة العسكرية البحرية الكافية لحماية الجزر والمداخل والشواطىء اليمنية كافة، وذلك كله رهن بصدق التوجه ومثابرة الجهود الرسمية والشعبية، التي نرجو الله أن يحققها على يد رجال دولتنا وقيادتها السياسية.

(١) افتتح الرئيس القائد علي عبد الله صالح الضخّ البترولي لميناء الصليف يوم الأربعاء ٨ ربيع الآخر سنة ١٤٠٨ هـ ١٩٨٧/١٢/٩ م.

معمر بن راشد (٠٠ ـ ١٥٣ هـ)

هذا هو أول المسندين في اليمن. قال الذهبي في ترجمته: «الحجة أبو عروة الأزدي مولاهم البصري أحد الأعلام وعالم اليمن. حدث عن الزهري وقتادة وعمرو بن دينار وزياد بن علاقة، ويحيىٰ بن أبي كثير ومحمد بن زياد الجمحي، وطبقتهم. حدث عنه السفيانان وابن المبارك وغندر، وابن علية ويزيد بن زريع وعبد الأعلى بن عبد الأعلى، وهشام بن يوسف وعبد الرزاق، وخلق. وقد حدثت عنه من شيوخه أيوب وأبو إسحاق.

وقال أحمد: ليس تضم معمراً إلى أحد إلا وجدته فوقه. وقال يحيى بن معين: هو من أثبت الناس في الزهري. وقال عبد الرزاق: كتبت عن معمر عشرة آلاف حديث. وقال عبد الواحد بن زياد: قلت لمعمر كيف سمعت من ابن شهاب؟ قال: كنت مملوكاً لقوم من طاحية مبعوثين ببني أبيعة، فقدمت من المدينة، فنزلت داراً فرأيت شيخاً والناس يعرضون عليه العلم، فعرضت معهم. وعن معمر قال: طلبت العلم بسنة مات فيها الحسن، وسمعت من قتادة ولي أربع عشرة سنة، سمعته إذ ذاك كأنه مكتوب في صدري، وجئت الزهري بالرصافة. قال سفيان بن عيينة: قال لي سعيد بن أبي عروبة: رُوينا عن معمركم فشرفناه. وعن ابن جريج قال: عليكم بمعمر، فإنه لم يبق في زمانه أعلم منه. وقال عبد الرزاق: بعث معن بن زائدة إلى معمر بذهب فرده وكتم ذلك. قال إبراهيم بن خالد وجماعة: مات معمر سنة ثلاث وخمسين ومئة زاد إبراهيم: «في رمضان وصليت عليه». وقال أحمد ويحيىٰ: مات سنة أربع، والأول الأصح. ولم يبلغ ستين سنة. وكان أول من صنف باليمن. رحمه الله تعالى».

هشام بن يوسف (٠٠ ـ ١٩٧ هـ)

يكفي هذا الحافظ أن يأخذ عنه ابن المديني ويوثقه ابن معين. قال الذهبي: قاضي صنعاء وعالمها ومفتيها، الحجة المتقن أبو عبد الرحمن الصنعاني. حدث عن ابن جريج ومحمد والقاسم بن فياض وغيرهم، وعنه علي بن المديني

وإبراهيم بن موسى الفراء وإسحاق، وابن معين وعبد الله المسندي، وآخرون. قال يحيى بن معين: هو أثبت من عبد الرزاق في ابن جريج. وقال أبو حاتم: ثقة متقن. وقال إبراهيم بن موسى: قدم الثوري اليمن فقال: اطلبوا إلى كاتباً سريع الخط، فارتادوني، وكنت أكتب. قال أبو زرعة: هشام أصح الناس كتاباً. قلت: توفي سنة سبع وتسعين ومئة. رحمه الله تعالى.

أخبرنا الأبرقوهي أنبأنا ابن صرما الأرموي أنبأنا ابن النقور أنبأنا الحربي أنبأنا الصوفي أنبأنا يحيى ابن معين أنبأنا هشام بن يوسف عن رباح بن عبيد الله بن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «بئس الشعب جياد، وتخرج منه الدابة فتصرخ ثلاث صرخات يسمعها من بين الخافقين». هذا منكر تفرد به رباح بن عبيد الله بن عمر العمري.

عبد الرزاق بن همام (٠٠ ـ ٢١١ هـ)

أشهر مسندي اليمن أخذ عنه وقصده الكبار ووثقوه. قال الذهبي في ترجمته: «ابن نافع الحافظ الكبير أبو بكر الحميري مولاهم الصنعاني صاحب التصانيف. روى عن عبيد الله بن عمر قليلاً، وعن ابن جريج وثور بن يزيد ومعمر والأوزاعي والثوري، وخلق كثير رحل في تجارة إلى الشام، ولقي الكبار. وعنه أحمد وإسحاق وابن معين أو النهتلي وأحمد بن صالح، والرمادي وإسحاق بن إبراهيم الدبري، وأمم سواهم. وكان يقول: جالست معمراً سبع سنين. قال أحمد: كان عبد الرزاق يحفظ حديث معمر. قلت: وثقه غير واحد، وحديثه مخرج في الصحاح، وله ما ينفرد به. ونقموا عليه التشيع وما كان يغلو منه، بل كان يحب علياً رضي الله عنه ويبغض من قاتله. وقد قال سلمة بن شبيب: سمعت عبد الرزاق يقول: والله ما انشرح صدري قط أن أفضل علياً على أبي بكر وعمر. وكان رحمه الله من أوعية العلم، ولكنه ما هو في حفظ وكيع وابن مهدي. قال ابن سعد: مات في نصف شوال سنة إحدى عشرة ومئتين.

قلت عاش خمساً وثمانين سنة. ولو ذهبنا نستقفي أخباره لطال الكتاب جداً» ا. هـ.

ولم يفرد الذهبي ترجمة لإسحاق بن إبراهيم، وذكر الجندي في سلوكه أخذ الشافعي عن إسحاق ودخول أولاده للسلام عليه. والظاهر أنه عُمر طويلاً إذ أنه توفي سنة ٢٧٦، أي بعد وفاة الشافعي باثنتين وسبعين سنة. وسيأتي قريباً ترجمة إسحاق الدبري.

محمد بن يحيى العدني (٠٠ ـ ٢٤٣ هـ)

ينسب إلى عدن التي بها نشأ ولكنه جاور بالحرم حتى الوفاة قال الذهبي في ترجمته: «الحافظ المسند أبو عبد الله محمد بن يحيى بن أبي عمر المجاور بمكة. حدث عن فضيل بن عياض وسفيان بن عيينة والدراوردي ومعتمر، وطبقتهم. وصنف المسند، وعمر دهراً، وحج سبعاً وسبعين حجة، وصار شيخ الحرم في زمانه. وكان صالحاً عابداً لا يفتر عن الطواف حدث عنه (م ت ق) والمفضل الجندي وعلي بن عبد الحميد الغضائري، وخلق. وروى النسائي عن رجل عنه قال أبو حاتم: صدوق صالح وفيه غفلة، رأيت عنده حديثاً موضوعاً. رواه عن سفيان. قال الحسن بن أحمد بن الليث: بلغني أنه لم يقعد عن الطواف ستين سنة. مات في آخر سنة ثلاث وأربعين ومئتين رحمه الله ورضي عنه».

ربيعة بن الحسن الحضرمي (٥٢٥ ـ ٦٠٩ هـ)

حافظ رحّال، زار حواضر الإسلام وأخذ عن أئمتها. قال الذهبي: الحافظ المحدث الرحال اللغوي أبو نزار الحضرمي الصنعاني الذماري الشافعي. ولد سنة خمس وعشرين وخمس مئة، وتفقه باليمن، وركب البحر إلى جزيرة كيش، فسمع بأصبهان وهمدان وبغداد، وأتقن الفقه بأصبهان، وسمع القاسم بن الفضل الصيدلاني وأبا الفضل محمد بن سهل المقرىء، ورجاء بن حامد المعداني وعبد الله بن علي الطامذي وإسماعيل ابن شهريار، وعبد الجبار بن

الصالحاني، ومعمر ابن الفاخر وأبا مسعود وعبد الرحيم الحاجي، وعدة. وأخذ ببغداد عن ابن الخشاب وشهرة، وبالثغر عن أبي طاهر السلفي، وبدمشق ومصر والحرمين وكتب الكثير. روى عنه الزكيان البرزالي والمنذري. والضياء المقدسي، وابن خليل الأدمي والتقي وغيرهما. قال المنذري: كتبت عنه قطعة صالحة، وكانت أصوله أكثرها باليمن، وهو أحد من لقيته ممن يفهم هذا الشأن، وكان عارفاً باللغة معرفة حسنة، كثير التلاوة والتعبد والانفراد. وقال عمر بن الحاجب فيما قرأت بخطه: كان ربيعة إماماً عالماً حافظاً ثقة أديباً شاعراً حسن الخط ذا دين وورع. ولد بشبام من قرى. حضرموت.

قال القوصي في معجمه: أنشدنا أبو نزار لنفسه:

بيت لهيا بساتين مزخرفة ... كأنما سرقت من دار بوران
أجرت جداولها ذوب اللجين على ... حصىً من الدر مخلوط بعقيان
والطير تهتف في الأغصان صادحة ... كضاربات مزامير وعيدان
وبعد هذا لسان الحال قائلة ... ما أطيب العيش في أمن وإيمان»

مات في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة تسع وست ومئة. أخبرنا أحمد بن سلامة عن الحافظ بن نزار إجازة بمروياته، وأخبرنا إسحاق الوزيري حدثنا أبو محمد المنذري أنبأنا أبو نزار الصنعاني أنبأنا رجاء بن حامد بأصبهان حدثنا سليمان بن إبراهيم. أبو مسعود وعبد الرزاق عبد الكريم قالا: أنبأنا محمد بن إبراهيم بن جعفر حدثنا محمد بن الحسين القطان حدثنا أحمد بن يوسف حدثنا إسماعيل بن أبي أويس حدثنا سليمان بن بلال حدثنا يحيى بن سعيد عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ كان على جبل حراء فتحرك، فقال: «اسكن حراء، فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيد». وكان عليه أبو بكر وعمرو وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم.

نشوان بن سعيد الحميري (٠٠ ـ ٥٧٣ هـ)

من أعيان اليمن في القرن السادس الهجري كانت له خصومة مع الإمام أحمد بن سليمان. ترجمه ياقوت في (معجم الأدباء) فقال: «أبو سعيد الحميري اليمني الأمير العلامة. كان فقيهاً فاضلاً عارفاً باللغة والنحو والتاريخ وسائر فنون الأدب، فصيحاً بليغاً شاعراً مجيداً. استولى على قلاع وحصون، وقدمه أهل جبل صبر حتى صار ملكاً. وقد صنف تصانيف أجلها (شمس العلوم) و (شفاء كلام العرب من الكلوم في اللغة)، وله القصيدة المشهورة التي أولها:

الأمر جد وهو غير مزاح فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح

مات في ذي الحجة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ا. هـ. وله أحكام صنعاء وزبيد. والخلاصة مختصر كتاب الإكليل.

لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني (٠٠ ـ ٣٣٤ هـ)

أكبر عقلية علمية أنجبتها اليمن فقد تمكن من عدة علوم. ترجمه ياقوت: «الحسن بن أحمد بن يعقوب يعرف بابن الحائك الهمداني ومن مفاخرها. له كتاب الإكليل في مفاخر قحطان وذكر اليمن، وله قصيدة سماها (الدامغة في فضل قحطان) أولها:

ألا يا دار لولا تنطقينا فإنا سائلوك فخبرينا

وله كتاب (جزيرة العرب وأسماء بلادها وأوديتها ومن يسكنها) وقرأت بخط الأمير عبد الكريم بن علي البيساني أخي الفاضل عبد الرحيم في فهرست كتبه، وذكر خبراً من كتاب الإكليل في أنساب حمير وأخبارها، تصنيف الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني. وكان في سنة إحدى وثلاثين وثلاث مئة ا. هـ. توفي سنة ٣٣٤ ومن مؤلفاته الإكليل، صفة جزيرة العرب، سرائر الحكمة، اليعسوب وكتاب الجوهرتين.

حنش بن عبد الله الصنعاني (٠٠ ـ ١٠٠ هـ)

قال المؤرخ الجندي في كتابه السلوك مترجماً له:

«حنش بن عبد الله الصنعاني من الأبناء يكنى أبا راشد. ذكره الإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري الحافظ، في طبقات التابعين من أهل اليمن، فسماه أبا راشد الجندي. كان مع علي كرم الله وجهه في الكوفة. ولاه ابن الزبير اليمن وأتى به عبد الملك بن مروان في وثاق فعفا عنه، ثم انتقل إلى مصر زمن الحجاج وأخيه، ثم انتقل إلى الأندلس. قال الواقدي والشيخ أبو إسحاق: مات بمصر، وقال الباجي الأندلسي: مات بالأندلس. وكان في سرقسطة أسس جامعها، ومات بها، وقبره عند باب اليهود غربي المدينة» ا.هـ. ذكرناه في المقيمين للتشكك حول مقر وفاته، ثم وجدنا في الأعلام للزركلي أنه غزا المغرب مع رويفع بن ثابت، والأندلس مع موسى بن نصير بنى جامع سرقسطة، وأسس جامع قرطبة. توفي سنة ١٠٠ هـ.

حجر بن قيس المدرى (٠٠ ـ ٠٠)

قال المؤرخ الجندي في كتابه السلوك مترجماً له: «حجر بن قيس المدري. قال عبد الملك بن أبي مسيرة: من مدارات بادية من بوادي الجند. كان من أصحاب علي عليه السلام. روى أبو نعيم في (رياضة المتعلمين) مسنداً: قال لي علي: كيف بك إذا أمرت أن تلعني. قلت: أو كائن ذلك؟ قال: نعم، فقلت: فكيف أصنع؟ قال العنّي لا تبرأ مني. فأقامه محمد بن يوسف أخو الحجاج إلى جنب المنبر يوم الجمعة فقال له: العن علياً، فقال حجر بن قيس: إن الأمير محمد بن يوسف أمرني أن ألعن علياً، فالعنوه لعنه الله. قال: فلقد تفرق أهل المسجد وما فهمها إلا رجل واحد. فكان الفقيه الحافظ علي بن أبي بكر العرشاني يقول: كان ذلك في جامع الجند، وقال غيره: في صنعاء، والله أعلم». ا.هـ ولم يحدّد تاريخ وفاته.

عبد الله بن صالح بن أبي غسان

ترجمة هذا ومن يليه حتى مناقب وريادات مأخوذة عن السلوك للجندي :

«عبد الله بن صالح بن أبي غسان الكوفي. سكن صنعاء إلى أن توفي بها، وعد من فضلائها. وكان مجيداً للقراءات بحرف حمزة، ليس بينه وبينه غير رجلين. وكان يقرأ أيضاً بحرف عاصم، وكان نسيج وحده، عبادة وفضلاً وتعليماً للخير. خرج من صنعاء إلى سعوان لبعض حوائجه، فرصده راصد، فإذا به لم يتوضأ في اليوم والليلة غير مرة وقت الظهر. وكان يقرىء الناس سنة أربع ومئتين. وروى عن عبد الحميد بن مروان بن سالم عن عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء عن ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما يجازى به العبد المؤمن بعد موته أن يغفر لجميع من شيع جنازته». وكان يجيد القراءة بالطريقين المذكورين». ا. هـ. السلوك للجندي ولم يحدّد المصدر تاريخ وفاته.

الحكم بن أبان العدني

الحكم بن أبان بن عفان بن الحكم بن عثمان العدني. أدرك ابن طاوس بالجند فأخذ عنه، وذكره ابن الجوزي في (صفة الصفوة) وقال: «كان مشيخة يعتبر قولهم يقولون: كان الحكم بن أبان سيد أهل اليمن، وكان يصلي بالليل، فإذا غلبه النوم ألقى بنفسه في البحر، وقال: أسبح الله عز وجل مع الحيتان. وأسند عن عكرمة وغيره، وامتحن بقضاء عدن، وكان مشهوراً بالكرم. ومسجده الذي كان يقف فيه من عدن هو مسجد أبيه الذي يعرف عند أهل عدن بمسجد أبان، وهو أحد مساجد عدن المشهورة بالبركة واستجابة الدعاء في نجاح الحوائج. وبه أقام أحمد بن حنبل حين قدم للأخذ عن ولده هذا». ا. هـ لم يذكر تأريخ وفاته.

أبو أيوب مُطَرِّف بن مازن (٠٠ ـ ١٩١ هـ)

«أبو أيوب مطرف بن مازن الكناني بالولاء، وقيل: القيسي أيضاً بالولاء، وضبطه بضم الميم وفتح الطاء المهملة وخفض الراء مع التشديد ثم فاء بعدها. حدث عن ابن جريج المقدم ذكره وغيره.

وروى عنه الامام الشافعي حيث قال: «رأيت بعض حكام الآفاق يحلف على المصحف. وقال حاجب سليمان: كان مطرف رجلاً صالحاً، وله عنى بقوله: قد كان من حكام الآفاق يستحلف على المصحف، وذلك عندي حسن.

وولايته للقضاء أول مرة من قبل رجل يقال له ابن إسحاق كان نائباً لعلي بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس وذلك لنيف وستين ومئة، ثم عزل بهشام ثم أعاده حماد ثم عزله وأعاد هشاماً. وتوفي المطرف بمنبج وقيل بالرقة في آخر أيام الرشيد سنة إحدى وتسعين. ومئة» ا. هـ عن السلوك للجندي.

إسحاق بن إبراهيم الدبري

أحد الحفاظ. وقرية دبرة معروفة اليوم بجهة سنحان جنوبي صنعاء قال الجندي: أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن عباد بن سمعان الدبري نسبه إلى قرية تعرف بدبرة، وهي على نصف مرحلة من صنعاء. وله كان يعني الحادي في طريقها:

لا بد من صنعاء وإن طال السفر لطيبها والشيخ فيها من دبر

أخذ عبد الرزاق جامع معمر، وكان موجوداً سنة اثنتين وسبعين ومئتين. ويقال: أنه عمّر حتى عاش طويلاً. وكان بعضهم يقول: هو الذي حكى الشافعي أنه كان يقرأ الحديث على شيخ باليمن، فدخل عليه خمسة كهول. الخبر المشهور بين الفقهاء المتداول في كتبهم، ولم أتحقق تاريخه.

أبو قرة موسى بن طارق

هو في اليمن الأسفل بمثابة عبد الرزاق في اليمن الأعلى قال الجندي في ترجمته: أبو قرة موسى بن طارق الزبيدي نسبة إلى المدينة المشهورة في اليمن كان إماماً كاملاً لمعرفة السنن والآثار، وكتابه فيها يدل على ذلك. وهو يروي عن مالك وأبي حنيفة والسفيانين ومعمر وابن جريج. ولم يكن أهل اليمن يعولـوّن في معرفة الآثار إلا عليه وذلك قبل دخول الكتب المشهورة وعلى سنن معمر. وحصل لي من سنن أبي قرة كتاب تعجب لضبطه وتحقيقه، قد قرىء على ابن أبي ميسرة بجامع الجند، وله عدة مصنفات غير السنن المذكورة. منها كتاب في الفقه انتزعه من فقه مالك وأبي حنيفة ومعمر وابن جريج. وكان يكثر التردد بين بلده عدن والجند ولحج وله بتلٍ منها أصحاب نقلوا عنه السنن. من مسنداته عن النبي ﷺ أنه قال: «من سرّه أن ينجيه الله من كُربات يوم القيامة فلينفس عن معسر أو فليدع..» أدرك نافعاً القارىء فأخذ عنه القراءة. وكان صاحبه علي بن زياد يقول: رأيت أبا قرة طول ما صحبته يصلي الضحى أربع ركعات وقد ينسب إلى الجند، والأول أصح. توفي سنة ٢٠٣ هـ.

إبراهيم بن أحمد الرعرعي

هذا ما ترجمه صاحب السلوك دون ذكر لتاريخ الوفاة: «أبو إسحاق إبراهيم بن أحمد الرعرعي اللحجي. فالرعرعي نسبة إلى قرية تعرف بالرعارع بفتح الراء بعد الألف واللام ثم العين المهملة ثم ألف ثم خفض الراء ثم عين مهملة أيضاً: إحدى قرى مخلاف لحج، بفتح اللام وسكون الثاء المهملة ثم جيم. خرج منها ومن مخلافها جماعة من الأعيان، يأتي ذكر المتحقق منهم إن شاء الله. كان إبراهيم هذا ترباً لأبي قرة لكنه دونه شهرة، وكان له ابن يذكر بالعلم والورع، ولكن أباه أشهر منه، وكلاهما معدود في الأخيار الأبرار. وكانا معظمين عند أهل مخلافهما وغيره. لم يكد يعرف لأحدهما صبوة. ولقد ذكر أن امرأة من

الحسان تعرضت لأحدهما فحدرت درعها تريد فتنة، فأعرض عنها وقال:

لا تحـدري درعـك إني رعـرعـي   إن كنت من أجلي حدرت فـأدرعي

وعند أحمد بن إبراهيم المقدم ذكره أخذ علي بن زياد أ. هـ. والسلوك للجندي.

علي بن زياد الكناني

«علي بن زياد الكناني والمعروف بصحبة أبي قرة المقدم المذكور، والذي كان لا يعرف حتى يقال علي بن زياد صاحب أبي قرة. مولده على رأس ستين ومئة، ومسكنه قرية من مخلاف لحج تعرف بالهذابي، بفتح الهاء والذال المعجمة ثم ألف ثم باء موحدة ثم ياء مثناة من تحت ساكنة. أخذ عن أبي قرة وعن أحمد الرعرعي، وهو الذي قال: رأيت أبا قرة طول ما صحبته يصلي الضحى أربع ركعات، وكان صاحب كرامات شهيرة. ذكر أن وادي لحج انقطع في بعض السنين وللفقيه أرض في عليّة، وإذا سحابة أقبلت فصبّت على أرض الفقيه ما أرواها كعادة الوادي مختصاً بها، ثم في عقيب ذلك قدم رجل غريب يسأل عن الفقيه فأرسل إليه، فجعل يبالغ في التبرّك به وسؤال الدعاء حتى أنكر عليه ذلك، فسئل عن السبب فقال: إني في البلد الفلانية، وإذ بي أنظر سحابة تسير وخلفها قائل يقول: اذهبي إلى لحج من أرض اليمن، فأسقي منها أرض الفقيه الزيادي، فعلم أن سبب شرب أرض الفقيه ذلك. وهي أرض تعرف إلى عصرنا بالجرب، ولم تزل محررة عن الخراج حتى كان في أيام الملك المظفر، حصل من المتصرفين عناد، فعمل عليها خراج، ففرّ بعض ذرية هذا الفقيه إلى الإمام ابن عجيل الآتي ذكره فأخبره بما جرى، فكتب إلى المظفر يفيده عن ذلك، ويخبره أن هذا الأرض لم تزل محررة لرجل كبير القدر من أكابر العلماء والصلحاء، وكان مقبول القول عند غالب المسلمين. فأمر المظفر أن تكتب لهم مسامحة، فهي بأيدي ذريته إلى عصرنا. ما جاء ملك ووقف عليها إلا أجازها

وذلك ببركة إشارة الإمام ابن عجيل، وكانت إشارته لمعرفته بفضل هذا الرجل، ولا يعرف الفضل إلا أهله» ا. هـ السلوك للجندي.

إسحاق العشاري

ترجمه صاحب السلوك دون ذكر لتاريخ الوفاة فقال: أبو يعقوب إسحاق العشاري، سمي بذلك لأنه كان يحقق عشرة علوم، وهو معدود في أصحاب القاسم أيضاً، وكان يعرف بالمعافري، إذ هي بلده.

وإليه انتهت رئاسة الفقه بها، وعنه أخذ فقهاؤها».

عمر بن إسحاق المصوع

ونلفت النظر إلى أن التراجم السالفة كان مرجعنا فيها كما ذكرنا السلوك للجندي، وممن تفرد الجندي بذكره دون أن يأخذه عن طبقات ابن سمرة هو العالم الصالح أبو حفص المصوع. قال في ترجمته:

«عمر بن إسحاق المصوع من قرية تعرف بذي السفال، على مرحلة من قبلي الجند، وعلى نصفها من قبلي سهفنة القرية المذكورة أولاً، وهي إحدى القرى المذكورات بالفقه. خرج منها جماعة شهروا بالفقه المحقق، والصلاح الكامل، يأتي ذكر المحقق منهم، وضبطها بذال معجمة مخفوضة ثم ياء مثناة من تحت ساكنة ثم سين مشددة مهملة مضمومة قبلها ألف ولام ثم فتح الفاء ثم ألف ولام، وقد يحذف بعضهم لفظ (ذي).

كان هذا كبير القدر، شهير الذكر، معروفاً بالعلم والصلاح. وكان ذا دنيا متسعة وأملاك أراضٍ، وغيرها. وذكروا أن غالب الصوافي القديمة بذي السفال له، وإنما صارت صوافي لما قتل ولده أخا المفضل. وللفقيه هذا مصنف في فروع الفقه سماه (المذهب)، بضم الميم وسكون الذال المعجمة وفتح الهاء وسكون الباء الموحدة. نقل عنه شيخي أبو الحسن الأصبحي في تصحيحه. وأخبر الثقة أن

الفقيه أحمد بن موسى بن عجيل كان قل أن يأتيه أحد من أهل الجبال إلا وسئل عن الكتاب ووجوده. وله مصنف آخر سماه (الجامع). ولما كان في سنة ثلاث عشرة وسبع مئة قدمت قريته وأنا إذ ذاك أبالغ في البحث عن أخبار الفقهاء، وأعلق ما صح لي منها. ولم يكن ابن سمرة ذكر لهذا تاريخ بداية ولا نهاية، فبحثت عن ذلك فقيل لي: إنه توفي متقدماً ولا يعرف له علم. فسألت فقيه القرية عن قبره لعلي أتبارك بزيارته، فسار بي إلى موضع شبيه السدر، وقال: ذكر لنا المتقدمون من أهل البلد عن أمثالهم أن قبره بهذا المكان. فقرأنا بعض ما يقرأه الزائرون، ثم جعلنا ثوابه له ودعونا لأنفسنا. ولم يذكر ابن سمرة له ولا للفقيه جعفر تاريخاً، بل ذكرت تاريخه من وجوده أيام قدوم الصليحي الجند، وهذا الفقيه من أترابه».

أبو عمران موسى بن محمد الطويري الأصبحي

يقع قبره على العدوة الشمالية لوادي ظمي جنوبي مدينة حيس، وتقع على مقربة من قبره إلى الغرب قرية الرباط، ولعل طلابه كانوا ينزلونها. ومن تلاميذه آل زكريا أصحاب قرية الشويري بوادي سهام، الذين كان لهم يد طولى فى نشر الفقه في اليمن، كما سنذكره في الإشراق الثاني.

وقد وهم الجندي في نسبه قرية الطوير إلى أنها تصغير طير، وإنما هي تصغير طور الذي هو حافة الشيء وطرفه. ولا يزال الناس حتى اليوم في حيس يسمون طرف الوادي بالطور. قال الجندي في ترجمته:

«أبو عمران موسى بن محمد الطويري نسبة إلى قرية من قرى حيس تعرف بالطوير على تصغير طير. تفقه بعبد الله الهرمي، وبه تفقه الشويريان محمد بن زكريا وولده إبراهيم والشيباني أيضاً، ونسب أبنائه في أصابح الذنبتين المقدم ذكرها في قرى الجند. وله احتراز المهذب يشهر به، وكان له ابن فقيه اسمه حسن» ا. هـ ولم يذكر تاريخ وفاته.

الإمام الولي علي بن أبي بكر العرشاني (٤٩٤ ـ ٥٥٧ هـ)

وعرشان بجهة الظهابي ناحية جبلة لواء إب ترجمه ابن سمرة فقال: «الشيخ الحافظ سراج الدين شيخ المحدثين أبو الحسن علي بن أبي بكر بن حمير بن تبع بن يوسف بن فضل الهمداني العرشاني. مات في ذي القعدة سنة سبع وخمسين وخمس مئة، وهو ابن نيف وستين سنة. في عرشان بالظهابي وقبر هنالك. وروى عن أسعد بن خير وعن يحيى بن محمد وعن زيد بن الحسن وعن أبي الخطيب الفروع الفقهية، وغيرهم. وكان حافظاً. روى عنه الإمام يحيى أبي الخير (صحيح البخاري) و (سنن أبي داود) فاجتمع أصحابه في ذي أشرق وسمعوا منه مذاكرته، وقد كان تقدم من هذا الشيخ الحافظ مجلس لسماع صحيح البخاري في إب في جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمس مئة رواه عنه جماعة كثيرة من مشايخ أصحابنا مع (رحلة معاذ) و (فضل صلاة الرغائب). وكان إماماً في الحديث، متقناً للرواة، عالماً بصحيحه ومعلوله. وعنه أخذ شيخي القاضي طاهر بن يحيى وقاضي عدن أحمد بن عبد الله بن محمد بن سالم القريظي مع جماعة في عدن من المعرسين، وسواهم. ولهم تصنيف مليح محقق يعرف [١٣٥] بكتاب (الزلازل والأشراط). قال فيه الإمام يحيى بن أبي الخير: ما رأيت أحفظ من هذا الشيخ يعني علي بن أبي بكر بن حمير في الحديث، ولا أعرف منه. وقيل له: ولا في العراق؟ قال: ما سمعت، وإليه سند أكثر أصحابنا. وعنه يروي جلة مشايخنا، وسمع عليه خلق كثير في الظهابي وعدن والجند وغير ذلك. رحمه الله ونفع به.

وحكيت له فضائل منها: أنه كان يسمع في الجعامي بأحاظه، ولا يمسي إلا بمنزله بعرشان، يسرح ليلاً ثم يعود ليلاً، يقطع هذه المسافة البعيدة. حكى من يوثق بقوله عن الفقيه أبي السعود بن أحمد أن جماعة رصدوه بنجد الجباني في الطريق الذي يمر فيه لتكراره في ذلك ليقعوا فيه، فبصروا به مقبلاً فتهيؤوا ليقعوا فيه فلم يشعروا أنه فاتهم، ووجدوه على مسافة بعيدة منهم، فلم يزالوا كذلك

يجدونه مقبلاً ثم يفوتهم، فعلموا أنه محروس عنهم، فأجمعوا على أنهم يستعطفونه، فظفروا به واستعطفوه.

ومنها: أنه لما مرض وصار في النزع سمع بعض ولده ومن كان حاضراً عنده يقول: لبيك لبيك. فقالوا له: من تجيب؟ قال: الله دعاني، ارفعوني إلى الله.. ارفعوني إلى السماء، ثم مات عقب قوله. رحمة الله عليه».

الإمام زيد بن عبد الله اليفاعي (٠٠ ـ ٥١٤ هـ)

ترجمه ابن سمرة الجعدي فقال: «من أعيان علماء اليمن، وأشياخ فقهاء الزمن. أستاذ الأساتذة، وشيخ المصنفين. الإمام زيد بن عبد الله بن جعفر بن إبراهيم اليفاعي. نفع الله به. تفقه بصهره الشيخ إسحاق بن يوسف بن يعقوب الصرد في، فإنه قرأ عليه علم الفرائض والمواريث والحساب فيها وكان علامة في ذلك، ثم بالإمام أبي بكر بن جعفر، قرأ عليه كتاب (الفروع) لسليم بن أيوب الرازي وغيره، ثم ارتحل إلى مكة في المرة الأولى، فأدرك فيها تلميذي الشيخ الامام أبي إسحاق الشيرازي مصنف (المهذب)، وهما الحسين بن علي الشيباني الطبري مصنف (العدة)، وأبو نصر محمد بن هبة الله بن ثابت البندنيجي مصنف (المعتمد في الخلاف) فقرأ عليهما جميعاً. وطريقته في المهذب وكتاب التبصرة في علم الكلام في أصول الدين إلى أبي نصر البندنيجي. ثم رجع إلى اليمن، فاجتمع الناس إليه للتدريس في حياة الإمام أبي بكر بن جعفر، لأنه كان يقرىء كل واحد طلب القراءة ولا يسأل عن نسبه وحسبه ومنصبه. والفقيه أبو بكر لا يقرىء إلا من له منصب وحسب ونسب، وكان ذلك في دولة الأمير مفضل بن أبي البركات بن الوليد الحميري.

وأصل الفقيه زيد من المعافر ثم سكن الجند، وكانت مدرسته فيها، فاجتمع عنده من الطلبة والأصحاب قريب من مئتي رجل، فخرج يوماً في قبر ميت في الجند، فخرج معه أصحابه وعليهم الثياب البيض لسنة المؤمنين

والحواريين من أصحاب عيسى عليه السلام، وكان هذا الأمير على سقف دار الجند فرأى الفقيه وأصحابه، فاستكثرهم وخاف خروج الرعايا عليه من جهتهم، وذكر خروج الفقيه عبد الله بن عمر المصوع على المكرم، وقتله لأخيه خالد بن أبي البركات مع عداوته لهم بالسمعلة. فأمر خاصته بتفريقهم على وجه اللطف والكيد، فلم يجدوا مكيدة أكثر من العزل القاضي الجند وإمام مسجدها الوالي لصدقاته، فتحزب القوم حزبين: فالفقيه الإمام زيد بن عبد الله اليفاعي وقاضيه القاضي مسامر بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الله الصعبي، وولداه محمد وأسعد بن مسلم بن أبي بكر، وإمام المسجد الشيخ حسان بن محمد بن زيد بن عمر، وأتباع لهم كثير حزب.

والفقيه الإمام أبو بكر بن جعفر عبد الرحيم المخائي وقاضيه القاضي محمد بن عبد الله بن إبراهيم اليافعي إمام المسجد الشيخ الزاهد يحيى بن عبد العليم، وأتباع لهم حزب.

فلما تكرر من الأمير المفضل تولية أحد الحزبين شهراً وعزله وتولية الحزب الثاني في الشهر الذي بعده وحصلت الفتن بين الإمامين والمدرسين تشتت أتباعهما لذلك، ثم هاجر الإمام زيد اليفاعي إلى مكة وجاور فيها اثني عشرة سنة، وكان خفيف المؤونة، زاهداً متورعاً، وكان له أطيان في اليمن تأتيه ثمارها متوفرة المنافع، فيقارض فيما فضل في يده منها أقواماً من تجار مكة.

أخبرني شيخي ابن بنت الفقيه عبد الله بن محمد بن سالم أنه كان يقال: إن مال الفقيه زيد جدّه قد بلغ في التجارة أربعة عشر ألف مثقال، وكان له بضعة عشر مقارضاً، مع كل واحد ألف مثقال، منهم من يسافر إلى مصر وزبيد وعدن والعراق، فتوفرت لديه أموال كثيرة. وكان قد توفي في خلال مجاورته هذان الفقيهان: الطبري والبندنيجي، فلم يبق من أصحاب الشافعي في الحرم مدرس ولا مفت أعلى رتبة ولا درجة منه. ويقال: إنه كان يحفظ ثلاث مئة مسألة في الخلاف بأدلتها وعللها عن ظهر غيب. أخبرني بهذا شيخي زيد بن عبد الله بن

أحمد الهمداني. فجرت فتنة في القضاء والفتوىٰ بين المتقدمين وبين الفقيه الطبري القاضي الحسين بن علي الأهواء سلاطين، فعاد الفقيه عبد الله إلى اليمن في سنة اثنتي عشرة، وقيل: ثلاث عشرة وخمس مئة بعد هلاك الأمير المفضل بن أبي البركات. توفي رحمه الله بالجند شهر ربيع سنة ٥١٤».

الإمام زيد بن الحسن الفائشي (٤٥٨ ـ ٥٢٨ هـ)

نورد الترجمة بنصها عن أصلها لابن سمرة في طبقاته، لاشتمالها على حياة المترجم له. وهو من كبار علماء اليمن، وعلى سيرة ملكين عادلين من ملوك اليمن هما من ذرية الملك المسلمين: المجاهد ذي الكلاع والسميفع بن باكورا: قال: «زيد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن أحمد بن ميمون بن عبد الله بن عبد الحميد بن أبي أيوب الفايشي، فإنه ولد ليلة الجمعة لخمس عشرة ليلة خلت من شوال، سنة ثمان وخمسين وأربع مئة، ومات في رجب سنة ثمان وعشرين وخمس مئة. وقد قيل: إنه مات سنة سبع وعشرين.

تفقه بشيوخ كثيرة، وكان عالماً بعلوم كثيرة، منها: علم القرآن بطريقة إلى أبي معشر الطبري. قرأ عليه بمكة، ومنها التفسير، ومنها الحديث، ومنها اللغة والنحو، ومنها الفقه والخلاف وأصول الفقه وعلم الكلام في التوحيد، ومنها الدور والحساب. وكان كثير الحج، وربما جاور بمكة فلقي في هذه العلوم شيوخاً كثيرة، فتفقه في المشيرق بأسعد بن الهيثم وبإسحاق الصردفي، في سير وبأبي بكر بن جعفر بن عبد الرحيم المخائي بالظرافة، وبيعقوب بن أحمد وبابن عبدويه في تهامة، وبالحسن الفقيه الطبري بمكة، وبأبي نصر البندينجي بمكة، ولبخير بن يحيىٰ بن ملامس وبمقبل بن محمد بن زهيد بذي أشرق، وبإبراهيم بن أبي عباد النحوي. وقد راجع ابنه سعيداً في قول الشاعر:

يقولون لي دار الأحبة قد دنت وأنت كئيب إن ذا لعجيب
فقلت وما نفعي بدار قريبة إذا لم يكن بين القلوب قريب

فقال رجل: من المشراح إلى السحول؟ ما هذا يا مولاي؟ فقال: هذا عمل من حب لمن طب، وقيل: إن هذا كان يوم خروجهم من ذي أشرق خائفين من الأمير مفضل ابن أبي البركات، فافترقا في السحول، وأخذ اللغة عن عيسى بن إبراهيم الربعي مصنف النظام بأحاظة. وكان هذا عيسى بن إبراهيم وأخوه إسماعيل بن إبراهيم من علماء اللغة وأئمتها. مات عيسى بن إبراهيم في أحاظة سنة ثمانين وأربع مئة، وأما أخوه إسماعيل فمات بعده بقليل، وهو صاحب القصيدة المشهورة (قيد الأوابد في اللغة والنحو. وتفقه الإمام زيد بن الحسن بمكة بالقاضي أبي مخلد الطبري وبإمام المقام عبد الملك بن أبي مسلم المشهور بالنهاوندي. وكان رحالاً في طلب العلم، فبذلك كثرت علومه، وظهرت فضائله، وجمعت خزائنه. ومن كتب هذه العلوم ما يزيد على خمس مئة كتاب. وكان قواماً بالليل يصلي بالسبع من القرآن كل ليلة في غالب أحواله وأكثر زمانه. وصنف في مذهب الشافعي مختصراً مليحاً سماه كتاب (التهذيب)، وتفقه بهذا الإمام خلق كثير من بلاد شتى، كيحيى بن أبي الخير العمراني، والشيخ الفقيه الحافظ علي بن أبي بكر بن حمير بن فضل، وعمر بن إسماعيل ابن علقمة وعمر بن عبد الله من قلامة، وغيرهم. وكانوا لا يفارقونه. وكان مؤالفاً للأصحاب لحسن خلقه وغزارة علمه وصلاح سلطان بلده، وهو أسعد بن وائل بن عيسى وجده ذو الكلاع، وكان هذا السلطان هو وآباؤه سالمين من الابتداع، يؤثرون مذهب السنة وعمارة المساجد ومحبة العلماء والقراء والعباد، ويعظمون السلف الصالح ويتبركون بذكرهم، ويقتدون بأقوالهم وأفعالهم. وكانت أحاظة ببركات عبادها وفقهائها وعدل سلاطينها واسعة الأرزاق نضيرة البساتين والأسواق، عامرة المساجد، كاملة المحارث والموارد. وكان قتل هذا السلطان أسعد بن وائل في جمادى الأولى سنة خمس عشرة وخمس مئة وقبرهُ في جامع الجعامى. ثم ولي بعده ولده عبد الله أربعاً وعشرين سنة ومات في جمادى الآخرة من سنة تسع وثلاثين وخمسين مئة. أخبرني بهذا السلطان وائل بن علي بن

أسعد بن وائل، وذكر لي أن جده وائـل بن عيسى أسّس يفوز، وذلـك بعد قتـل الصليحي. وأخـبرني أيضاً عن الشيـخ العفيف أبي حسـان إبـن أبي الخـير بن أبي خليفـة الزاهـد، مسكنه جمان من مخصب الأسفل: أن جبـل أجاد من التعكـر إلى ديمة، وكان اسمها عرنة، وأساس التعكر منذ ثلاثة آلاف سنة وخمس مئة، وفيـه مسجد النبي إلياس، وأن أنور كان يسمى أنـور، وأساسـه منذ سبـع مئة سنـة، وحب أساسه منذ ثمان مئة سنة، وقيضان أساسه منذ مئتـين وستين سنـة، وخدد أساسه منذ ثمان مئـة وستين، أو قـال ثمانـين، وشبع كـان اسمه شبـاع منذ ألف ومئتين حدثه بهذا منذ ثماني عشرة سنة، وتقديـره سنة أربـع وستين وخمس مئـة. وحكايته لي هذه بصفر سنـة أربع وستـين وخمس مئة. وأخـبرني الشيخ محمـد بن نـاجي بن نوح التبـاعي: أن أولاد حمير بن الهميسـع ذو الكلاع الأصغـر حـاشر وأحـاظة والسحـول وميتم وبعدان وعـدوان، ومحنة وعرنـة وحميم ونكـال وبوزع والحدون، وهم الذين اجتمعوا على حرب باكـور القبطي. وكـانت مدرسـة هذا الفقيه الإمام في الجعـامى مدة حيـاته، ومـات بها. وعنـه أخذ أولاده أحمـد وعلي وقاسم بنو هذا الإمام زيد بن الحسن، وبه تفقهـوا. وكان أبـو هم يقول: أحمـد أقرؤكم، وعلي أكتبكم، والقاسم أفقهكم. وكان يقول: يحيـى بن أبي الخير فقيه يصلح للفتـوىٰ. وأمر بعض أصحـابه وهـو عمرو بن عبـد الله بالـدرس عليـه. قلت: وكان هذا لا شك، في أول أمر الإمام يحيـىٰ بن أبي الخير، فلو عـاش إلى تصنيفه البيان لرأى عجباً. مات قاسم بن زيد في رجب سنة سبعين وخمس مئة، وهو ابن سبعين سنة. وللإمام زيد رسائل مستحسنة. رحمه الله».

الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني (٤٨٩ ـ ٥٥٨)

نشأ هذا الإمـام الكبير بـين شيخين عـظيمين همـا الزيـدان اللذان أسلفنا ترجمتهما: زيـد بن عبد الله اليفـاعي، وزيد بن حسن الفـايشي. فجمع علميهـما وأضاف إليه. كان قطب الـدائرة في عصره بمصره؛ إذ كـان غايـة في سعة العلم واتسـاع دائرة الاطـلاع، جمع بـين العلم والتعليم والتأليف، والأمـر بـالمعـروف

والنهي عن المنكر، حتى توفاه الله. قال ابن سمرة الجعدي في ترجمته: «يحيى بن أبي الخير بن سالم بن أسعد بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عمران العمراني. ولد رحمه الله في مصنعة سير، سنة تسع وثمانين وأربع مئة، ومات رحمه الله في ذي السُفال في ربيع الآخر لست وعشرين ليلة خلت منه، سنة ثمان وخمسين وخمس مئة وهو ابن تسع وستين سنة.

تفقه بجماعة أولهم: خاله أبو الفتوح بن عثمان بن أسعد بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عمران. تفقه به بـ (الكافي بالفرائض في المواريث) للصرّدفي لا غير بروايتها له عن مصنفه الشيخ إسحاق بن يوسف بن يعقوب الصرّدفي، وبموسى بن علي الصّعبي في ذي الحفر في نعيمة بـ (التنبيه). ثم يسرّ الله سبحانه استدعاء الفقيه العالم الحافظ لمذهب الشافعي عبد الله بن أحمد بن محمد بن أبي عبد الله الهمداني، من زيران بادية الجند إلى سَيْر، فحفظ عنه (المهذب) و (اللمع) لأبي إسحاق، و (الملخص) و (إرشاد بن عبدوية) و (كافي الفرائض) للصردفي أيضاً ثم ارتحل إلى الإمام زيد بن الحسن الفايشي بأحاظة وأعاد عنده (المهذب) وأخذ عنه تعليق الشيخ أبي إسحاق في أصول الفقه مع ملخصه أيضاً.

وفي اللغة (غريب الحديث) لأبي عبيد، (مختصر العين) للخوافي، و (نظام الغريب) للربعي، وغير ذلك من مسائل الدور والخلاف.

ومن شيوخه في الدور خاصة الفقيه عمر بن تبيش، قدم من الحج سنة ثلاثين وخمس مئة. وكان تربه وخبيره في هذه الرحلة المباركة الفقيه الزاهد عمر ابن إسماعيل بن علقمة، فعادا جميعاً وتدارسا في ذي السُفال، فأخذ الإمام يحيىٰ عن هذا الفقيه عمر (كافي النحو) لأبي جعفر الصفار و (الجمل) للزجاجّي، وبعد هذا وصل الفقيه الإمام زيد بن عبد الله اليفاعي، فارتحل إليه هو وأكثر أصحابه والفقهاء من المخلاف واليمن. وقد كان صحبه جماعة يقرؤون عليه الفقه، فانتقلوا معه إلى الجند، وسمع (النكت). وكان يناظر بين يدي هذا

الفقيـه كثيراً من جلة الفقهـاء المدّرسة. ثم انتقل إلى سهفنـة بعد مـوت الفقيـه زيد بن عبد الله اليفاعي، فقرأ عنه القاضي مسلم بـن أبي بكـر بن أحمد الصعبي كتاب الحروف السبعة في علم الكلام والتـوحيد وأصـول الدين، تـأليف الشيخ الحسـين بـن جعفـر المـراغي، ونقله من خط تلميـذه الإمـام القـاسم بن محمـد القرشي، ثم انتقل إلى ذي أشرق في سنة سبع عشرة وخمس مئة، فسمع (الجامع للسنن) تصنيف الـترمذي عـلى الشيـخ سـالم بن عبـد الله بن محمـد بن سـالم بن عبد الله بـن زيد، وتزوج في هذه السنة أم القاضي طاهر. وكان قد تسرّى قبلهـا جـارية حبشيـة، وفيها ابتـدأ مطالعـة شروح المزني وكتب أخـرى، كـ (المجمـوع) للمحاملي و (الشامل) لابن الصباغ وكتاب (الفـروع) لسليم، و (شرح المولـدات) للقاضي أبي الطيب و (العدة) للقاضي حسين بن علي الطبري و (الإبانة) و (شرح التلخيص) لأبي علي السّنجي. وقد كان يقرأ بعضها في مدرسة الإمام اليفـاعي، فسمع فيها ما يزيد على (المهذّب)، فاستشار فيها شيخه هذا زيـد بن عبد الله في أنها تكون أجمع لما شذ عن (المهذب) منها. فـابتدأ بتعليق كتـاب (الزوائـد) سنة سبـع عشرة وخمس مئة. وولـد ابنه طـاهر في سنـة ثماني عشرة وخمس مئـة، وهو مستقيم عـلى المطالعـة والتعليق. وكمّل كتـاب (الزوائـد) في آخـر سنـة عشرين وخمس مئة، وحج وزار قبر النبي ﷺ في سنة إحـدى وعشرين وخمس مئة، ولقي الفقيه الإمام الواعظ الشريف محمد بن أحمد العثماني الديباجي في مكـة، فتناظـرا وتـذاكرا في مسـائل الفقـه والأصول. وكـان الإمام يحيـى قـد سمع في مـدرستي الشيخـين الإمامـين زيد بن الحسن الفـايشي وزيد اليفـاعي كتاب (التبصرة) في علم الكـلام في أصول الـدين تصنيف أبي الفتوح عـلى مذهب السلف الصـالـح، وهما ينقلانها جميعاً عن الشيخ أبي نصر البنـدنيجي مصنف (المعتمد في الخـلاف) فـإنهما صحباه جميعـاً في مكـة. وعن الإمـام يحيـى أخـذ مشـايخنـا (التبصرة) في أصول الدين) ورويناها عنهم. وكان رحمه الله يسمعهـا في مدرستـه ويعلمها من طلبها» ا. هـ.

هذا بعض ترجمة يحيى بن أبي الخير العمراني. وفي أواخر أيامه ـ رحمه الله ـ استولى علي بن مهدي على زبيد سنة ٥٥٤، ثم خرج منها إلى مخلاف التعكر، فأنهى دولة بني زريع، واتجه إلى الجند وأخرق مسجدها، كما قال ابن سمرة. وأحدث فظائع في لحج وما إليها، وفي المخلاف السليماني، وهو ما يعرف اليوم بعرض وما جاورها شمالاً. وبسبب ذلك كانت استغاثة بعض أشراف المخلاف السليماني بالناصر صلاح الدين الأيوبي، فأرسل أخاه توران شاه سنة ٥٦٩ هـ، وبها كانت بداية الدولة الأيوبية باليمن. وقد عانى الإمام يحيى بن أبي الخير وغيره من فقهاء زبيد، الذين نزحوا منها إلى ذي أشرق فراراً من عسف ابن مهدي الكثير. وعن تفاصيل ذلك يقول ابن سمرة في بقية ترجمته ليحيى بن أبي الخير. قال ص ١٧٧: «وابتدأ ـ رحمه الله ـ بتصنيف كتابه (البيان) من سنة ثماني وعشرين وخمس مئة، وفرغ منه سنة ثلاث وثلاثين وخمس مئة. وقد رتبه على ترتيب محفوظه وهو المهذب، فجمع البيان في ست سنين غير قليل، وجمع الزوائد في أربع سنين إلا قليل، وذكر في البيان عن الشريف العثماني مسائل تدل على علمه وفضله وجواز الأخذ باجتهاده ونقله. قال القاضي طاهر بن يحيى: قال له والده ـ رحمه الله ـ: إنه لم يعلق (الزوائد) إلا بعد حفظه (للمهذب). ونقله غيباً في ابتداء دراسته له على الإمام الفقيه عبد الله بن أحمد، ثم أعاده في أحاظة، ثم طالعه بعد ذلك كله قبل التصنيف أربعين مرة أو أكثر، وكان رحمه الله يطالع الجزء من تجزئة أحد وأربعين (من المهذب) في اليوم والليلة أربع عشرة مرة لكل فصل منه. وكان ـ رحمة الله عليه ـ إذا درس من يعلم فهمه، فإنه بعد فراغ القارىء من الفصل يعيده هو نفسه عليه حفظاً، مع تنبيه له على خلاف الإمام مالك وأبي حنيفة خاصة. وقد يذكر معهما غيرهما في بعض المسائل، ثم يذاكره باحتراز الأقيسة والوجوه في أصول: لِمَ خُصت بجعلها أصولاً؟ وذلك إما من جهة النص عليها في الكتاب والسنة، أو تسليم المخالف في حكم المسألة المقيسة. وإن كان في عبارة الكتاب واستغلاق أو قصد فهم القارىء أبدلها له بعبارة أخرى إلى أن

يتصور القارىء الفصل ويفهمه. ومن كان من الطلبة غير فاهم لم يسلك به هـذا المسلك، بل يجيبه عما سأل عنه، لا غير، مع رده عليه التصحيف. ولما فرغ ـ رحمه الله ـ من تـأليف البيان سـأله الفقيـه محمد بن مفلح الحضرمي استخـراج المسائـل المشكلة في المهذب، وكان هـذا الفقيه من جلة أصحـابه، فصنفـه له ثم انتسـخ منه. وأقام ـ رحمه الله ـ في سير على التدريس بعد ذلك إلى آخـر سنة تسـع وأربعين وخمس مئة، ثم تعذّر سكنى سير على أهلهـا لحروب جـرت بينهم وفتن، فخربت بعـد خروجهم منهـا. ثم انتقل إلى ذي السفـال ثم إلى ذي أشـرق، فأقـام بذي أشرق، سبع سنين وكسراً يدرس ويقرىء، فجرت فتن في السنة الرابعـة من هذه السبع، تباغض وتحاسد وتكفير من فقهاء ذي أشرف لفقهاء زبيد، بعد خروجـه من تهامة وقت فتح ابن مهدي لها. وكان فتح ابن مهدي لـزبيد آخـر ساعـة يوم الجمعة، آخر يوم من رجب سنة أربع وخمسين وخمسـمائة وخمس مئـة. ثم قويت شوكة ولده مهدي بن علي بعد موت أبيه، فأغار على الجند وبـواديها، وقتـل أهل الزنبتين، ثم قتـل أهل العـربة في شـوال سنة سبـع وخمسين وخمس مئـة. فجعل الإمام يحيـى بن أبي الخير ـ رحمه الله ـ خوف ابن مهدي سبيلاً إلى خـروجه من ذي أشرق. فخـرج عنهـا إلى ضراس، ثم إلى ذي السفـال وفيهـا مـات ـ رحمـة ـ الله عليه ـ مبطوناً شهيداً في ربيع الآخر قبيل الفجر، من ليلة الأحـد، من سنة ثـمان وخمسين وخمس مئة. ما ترك صلاة في مرض موته، وكـان نزعـه في مرضـه ليلتين ويوم بينهما يسأل عن كل وقت بالإشارة بالمسبحة. وكان ورده أكثر زمانه في صلاة الليل سبع القرآن، وكان ـ رحمه الله ـ يحب طلبة العلم والفقه واجتماعهم، ويكـره لهم الخـوض في علم الكلام. ثم صنـع ـ رحمه الله ـ [١٤٤] في خـلال هـذه المـدة كتاب (الانتصار في الرد على القدرية الأشرار)، وذلك بسبب فتنة أثـارها قـاضي الزيدية، وهو جعفر بن أحمد بن عبد السلام بن أبي يحيـىٰ المعتزلي في مدينة إب. ويقال: إنه سأل المناظرة، فبعث إليه الإمـام يحيـى بن أبي الخير الفقيـه الفاضـل المشهور علي بن عبد الله بن عيسى بن أيمن الهرمي، فـاجتمعوا في حضن شـواحط

سنة أربع وخمسين وخمس مئة. وأضاف ـ رحمه الله ـ إلى ما ذكره في (الانتصار) من مسائل القدرية مذهب الأشعرية والرد عليهم، فأجحف فيه على الأشعرية، وقطع حلوقهم وأفحمهم، خصوصاً بذلك من يقول: ما أنزل الله على بشر من شيء. ففرح الفقهاء بكتاب الانتصار، وانتسخوه، ودانوا لله به، واعتقدوه. وصنف بذي أشرق كتابه المشهور بـ (غرائب الوسيط) ومختصراً من إحياء علوم الدين للإمام الغزالي، وسمع هو وأصحابه (صحيح البخاري) وسنن أبي داود بذي أشرق، سنة خمس وخمسين وخمس مئة [١٤٥] على الشيخ الحافظ علي بن أبي بكر بن حميد بن تبع بن فضل الهمداني، بقراءة ولده القاضي الأجل طاهر بن يحيى، والفقهاء الفضلاء أحمد بن إسماعيل بن حسين المأربي وعبد الله ابن عمر التباعي، وسليمان بن فتح مفتاح وفي الإمام يحيى بن أبي الخير يقول الشاعر:

لله شيخ من بني عمران ... مذ كان شاد العلم بالأركان
يحيى لقد أحيا الشريعة هادياً ... بزوائد وغرائب وبيان

علي بن عبد الله الهرمي (٠٠ ـ ٥٧٠ هـ)

هو علي بن عبد الله بن أيمن الهرمي. قرية بوادي زبيد درس على يحيى بن أبي الخير المهذب والبيان والانتصار وغيرها. وهو صاحب المناظرة المشهورة شواحط مع المعتزلي جعفر بن أحمد بن عبد السلام. ونوردها عن السلوك للجندي باختصار: «قال علي بن عبد الله: فقلت له: إن الله تعالى يقول في الذين قالواكمقالتك﴿يَظُنّونَ باللهِ غيرَ الحقِ ظنَّ الجاهِليةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنا مِنْ الأمْرِ مِن شيَءٍ؟ قلْ: إنَّ الأمرَ كُلَّهُ للهِ﴾ ثم تلوت إلى قوله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ عَليمٌ بذاتِ الصُدُورِ﴾ وكفى والله بآية من كتاب الله حجة عليكم، وهي قوله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الّذينَ آمَنُوا بالقَوْلِ الثابتِ مِنَ الحياةِ الدُنْيا وفي الآخِرةِ، ويُضِلُّ اللهُ الظَالِمينَ ويَفْعَلُ اللهُ ما يشاء﴾. وقال الله في موضع: ﴿يُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاء وَيَهْدِي

مَنْ يَشاءُ﴾. ولقد قال إبليس خيراً من مقالتك وأهل مذهبك حيث قال: ﴿رَبِّ بما أَغْوَيْتَنِي﴾. وقال نوح: ﴿ولا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ، إنْ كانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يَغْوِيكُم﴾ فصار يسمع كلامي، ولم يحر جواباً. فضحك جمع من الحاضرين حتى استلقوا على أقفيتهم، فأوردت عليه أدلة كثيرة نحواً مما ذكرنا، فقال المعتزلي: ما رأيتُ مثلك يحلف على ما يقول. فقلت: هل سمعتني أحلف إلا على ديني، إذ أنا بحمد الله على حقيقة منه؟ وأشير عليك أن لا تحلف إلا أن تكون على يقين من عجز عن الحجة بعد دعواها، ولي بالرسول ﷺ أسوة حسنة حيث قال الله: ﴿ويَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُو. قُلْ: إي وَرَبِّي إنَّهُ لَحَقٌّ﴾ أفتراه إلا قد أمره بالحلف على دينه؟ فزاده ذلك خرساً وبكماً وعمًى، ثم قال لصاحب الحصن: يا شيخ محمد، سبحان الله أنال هذا الكلام معك وفي منزلك؟ فلم يقل الشيخ شيئاً غير اصفرّت الشمس وضاق وقت الصلاة وذلك بعد تعجب الحاضرين وضحك كثير منهم، لما كان يدّعي عندهم من عجز واحد من مناظرته وتحققوا كذبه. ثم إني قمت إلى صلاة العصر وصلينا مع الشيخ، واعتزل المعتزلي بأصحابه يصلي منفرداً». ا. هـ توفي سنة ٥٧٠ تقريباً.

طاهر بن يحيى بن أبي الخير (٥١٨ ـ ٥٨٧ هـ)

كان الامام يحيىٰ بن أبي الخير نصير مذهب الحنابلة في أصول الدين، بينما كان ولده طاهر ينصر مذهب الأشعرية في أصول الدين، وبسبب ذلك سافر إلى مكة وجاور بها أعواماً، وكانت له مؤلفات في ذلك. ولكنّ ابن سمرة يذكر أن سبب خروج طاهر بأهله إلى مكة هو الفرار من ابن مهدي. ومهما يكن فلنستمع إلى ترجمة ابن سمرة لطاهر فإنه شيخه، ومعرفته له وثيقة؛ لأنها معرفة التلميذ للشيخ قال:

«شيخي العلامة أبو الطيب، طاهر ابن الإمام يحيى ابن أبي الخير بن سالم بن أسعد العمراني ولد في ذي الحجة لست عشرة ليلة خلت منه سنة ثمان

عشرة وخمس مئة. تفقه بأبيه الإمام يحيى، وخلفه في حلقته ومجلسه، وأجاب على المشكلات في حياته. جالس العلماء، وروى عنهم، وأخذ عن غير واحد، وجاور في مكة وهاجر إليها بأولاده الرجال والنساء، لعموم فتنة ابن مهدي في مخاليف اليمن، واستحلاله قتل العلماء. وأقام بمكة سبع سنين، فروى عن كبار المحدثين في الحرم، كالشيخ الإمام أبي علي الحسين بن علي الأنصاري والشيخ الإمام الميانشي والعسقلاني، ومقرىء الحرمين أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي مشيرح الحضرمي، فعاد إلى وطنه في شهر ربيع من سنة ست وستين. ناظر الفقيه الحنفي محمد بن أبي بكر المدحدح بين يدي عبد النبي بن علي بن مهدي مراراً، فقطعه واستظهر عليه. ولي قضاء ذي جبلة وأعمالها من جهة عبد النبي، من سنة ست وسبعين إلى بعض أيام شمس الدولة. وله مصنفات مليحة منها: (مقاصد اللمع وكسر قناة القدرية)، وغير ذلك. وتصنيف آخر في مناقب الإمامين أبي عبد الله محمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل رضي الله عنهما. و (معونة الطلاب بفقه معاني كلم الشهاب). فجمع بين علم القراءات والحديث والفقه، وغلب عليه الكلام. وكان أبوه يقول: والله لو يقدر الله لولدي طاهر الخروج إلى البلاد الذي شرف بها العلم ليعلمون درجة الإمامة. وكان يقول أيضاً: طاهر فقيه سامي الذكر، وإنما أمات ذكره بلد السوء. هذا كلام والده مع ما تقدم من جمع أبيه لأحبابه وأصحابه في ذي أشرق سنة أربع وخمسين وخمس مئة، فأمر أن يصعد المنبر، وسأله عن اعتقاده، فأجابه ولده بما كذب كل حاسد وأدحض تلبيس كل بغيض ومعاند، ثم التقاه والده إلى أسفل المنبر وقال: هل أنكر الإخوان من هذا شيئاً؟ ومات ـ رحمه الله ـ ليلة الأربعاء من شهر ربيع سنة ٥٨٧. وبه تفقه ولداه محمد وأسعد وغيرهما. وولي محمد قضاء عدن، وروى عنه جماعة كثيرة في عدن. وكان فقيهاً حافظاً».

الإمام محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف (٠٠ ـ ٦٠٩ هـ)

هذا هو الإمام النازح في خدمة الحديث عن سكنه، الغريب بل المجهول اليوم في وطنه، محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف الزبيدي الذي جمع أربعين حديثاً من أربعين شيخاً من أربعين بلداً، وإليه تنتهي أغلب أسانيد علماء الحديث في اليمن. أورده ابن سمرة ضمن علماء اليمن المجاورين بمكة. واختصر ـ رحمه الله ـ ترجمته، وهو الجدير بأن تفرد له الأبحاث إن لم تكن المجلدات، بل إن ابن سمرة ـ رحمه الله ـ لم يزد على أن نعته بالفاضل، واكتفى بايراد اسمه فقط. وتكرم الأستاذ فؤاد سيد محقق طبقات ابن سمرة بالتنويه بشأن ذلك العالم الجليل في سطور فقال:

«هو أبو عبد الله محمد بن علي بن إسماعيل بن أبي الصيف. أصله من اليمن من أهل زبيد ثم سكن مكة. له كتاب سماه: (الميمون) جمع فيه الأحاديث الواردة في فضائل اليمن وأهله، وجمع أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً من أربعين بلدة. وله مصنفات أخرى. وأكثر أسانيد أهل اليمن تنتهي إليه. توفي بمكة سنة ٦٠٩ هـ».

كما ذكر الجندي في سلوكه أن رئاسة الفقه انتهت إليه في مكة بعد محمد بن مفلح الأبيني، وأنه كان معاصراً لابن الجوزي والحافظ السلفي.

الأمير (الحسين بن سلامة) (٠٠ ـ ٤٠٢ هـ)

أحد صالحي ملوك اليمن ننقل ترجمته عن الديبع والزركلي وغيرهما: هو الحسين بن سلامة مولى بني زياد. كان غاية في الصلاح والعدل والإنفاق في سبيل الله. انتظم له أمر اليمن من حضرموت إلى نجران، له مبرّات واسعة منها: إنشاء الجامع الكبير بزبيد، وأنشأ في كل مرحلة بئراً ومسجداً على ثلاث محجات، من حضرموت إلى الحجاز، ومن لحج فجبال السراة فالطائف فمكة، ومن السقيا فموزع فساحل البحر إلى الحجاز. وهو الذي أصلح عقبة الطائف المعروفة بكدل. توفي سنة ٤٠٢.

العالم الصالح جعفر المخائي (٠٠ ـ ٤٦٠ هـ)

نستميح القارىء عذراً لتأخيرنا ترجمة هذا العالم الرباني، وهو المتقدم رتبة وزماناً على بعض من أسلفنا. وفي ترجمته موعظة للظالمين، وبشرى للمتقين. قال الجندي في ترجمته: «هو جعفر بن عبد الرحيم المحابي، وقيل جعفر بن أحمد بن محمد بن عبد الرحيم المحابي ثم الكلاعي[1]. تفقه بالقاسم غالباً، ثم بابن ملامس، وغالب شهرته بالأخذ عن القاسم. وكان فقيهاً عارفاً محققاً، مبرهناً للنصوص، نقّالاً لها، محققاً مدققاً. مسكنه قرية الظرافة. قرية هي شرقي القرية التي تعرف بسهفنة المقدم ذكرها، وهي بضم الظاء المعجمة القائمة وفتح الراء ثم ألف وفتح الفاء ثم هاء. وكان مع سعة علمه عابداً مشهوراً بالصلاح والعلم وشدة الورع، مذكوراً. وكان كثير التردد من بلده إلى مدينة الجند رغبة في زيارة مسجدها، ومراجعة علمائها. والجند يومئذ بأيدي الكرنديين، ملوك يأتي ذكرهم. وكان النائب لهم فيها رجلاً فيه خير وعبادة، يصحب الفقهاء ويحبهم. وكان له بالفقه عقيدة جيدة فلم يزل يتلطف بالفقيه، ويسأله أن يسكن معه في الجند، ويحسن له ذلك بالقرب للناس بالفتوى والتدريس. والجند إذ ذاك أعمر مدينة بالجبال، وأكثرها أهلاً. ولم يكن للفقيه إذ ذاك أهل، ولم يكن له إذ ذاك نظر في العلم، وهو رأس الفقهاء حينئذ، إليه تنتهي الفتوى. فلما كثر من الوالي ملازمة الفقيه أجابه بشرط ألا يكلفه الحكم، وشرط ألا يدعوه إلى منزله، وإن دعاه لم يكلفه إلى أكل الطعام. فالتزم الوالي بذلك، فنزل الفقيه إلى الجند وسكنها، فذكر أنه حدث للوالي حادث أوجب دعوة الناس إلى منزله، فاستدعاهم والفقيه في جملتهم، فلما صاروا على الطعام والفقيه ممسك يده ناوله الوالي موزة أو قال: اثنتين وقال: يا سيدي الفقيه هذا موز أهداه إليّ فلان لرجل يعرف بالحق، وتطيب نفس الفقيه بأكل طعامه. فاستحياه الفقيه وأخذ الحبة،

---

(١) حققه الشرجي أنه جعفر بن عبد الرحيم المخائي من المخا ثم انتقل إلى جهة الجند.

فجعل ما أمكن في فيه، ثم خرج مبادراً (موهماً) أن ثم عذراً يوجب الخروج. ولما صار في الدهليز أخرج الحبة من باطنه، ثم صار إلى بيته. ولم يزل مقيماً بالجند إلى أن قدم الصليحي سنة أربع أو خمسين وأربع مئة. فلما صار بدار الملك فيها دخل فقهاء الجند للسلام عليه والفقيه من جملتهم، وكان قد استخبر عنهم استخباراً محققاً، وعرف حال الفقيه وعلمه وصلاحه، وأنه رأس الفقهاء، وبه يقتدون وإليه ينتهون. فلما صار الفقهاء عنده بحث عن الفقيه، فلما تحقق أمره قال: يا فقيه، القضاء متعيّن عليك، ونريد منك أن تقبل. فقال الفقيه: لا أصلح له ولا يصلح لي - أو كما قال - فأعرض عنه مغضباً حيث لم يقبل منه. واشتغل بالحديث مع بعض حاضري مجلسه، فبادر الفقيه وخرج مبادراً ولم يعرج على شيء وأخذ طريق قريته مجداً في السير، ثم إن الصليحي سأل عنه، فقيل: إنه خرج، فأمر بطلبه، فلم يوجد في المدينة. فأمر جماعة يلحقونه إلى بلده وأن يقعوا به. فخرج جماعة من السرعان فأدركوه على قرب القرية، وجدلوه بسيوفهم وضربوه بها، فلم تقطع به شيئاً. في حين أنه من شدة ألم الضرب وتكرره، وقع على الأرض مغشياً عليه، فبادروا العود لئلا يلحقهم أو يراهم أحد، وظنوا موته وأخذوا شيئاً من ثيابه ليتوهم أنهم (حرب)[1]. ولما وصلوا إلى الصليحي أخبروه بما فعلوا وأن سيوفهم لم تقطع به، وأنهم فارقوه ميتاً فأمرهم بكتم ذلك. ولم يزل الصليحي مدة حياته يعظم أمره ويحترمه، ويقول: ليس في أهل السنة مثله، ويشفعه فيمن يشفع، ويحترم أصحابه، ويعفي أراضيهم من الخراج إحساناً وتألفاً لباطن الفقيه ولسائر الفقهاء، وليظنوا به خيراً. وكانت وفاته تقريباً على رأس ستين وأربع مئة».

(١) هكذا في الأصل.

عبد الملك اليافعي (٠٠ ـ ٤٧٣ هـ)

أحد علماء اليمن، ترجمه صاحب السلوك فقال: «أبو الوليد عبد الملك بن محمد بن أبي ميسرة اليافعي. سكن جبل الصلو، وتفقه بالقاسم[1]، وكان إماماً في الحديث، وثبتاً في النقل، عارفاً بطرق الحديث ورواته. يعرف بالشيخ الحافظ. حج مكة سنة إحدى وخمسين وأربع مئة، فأدرك بها الشيخ العارف سعد الريحباني، وأخذ عنه وعن أبي عبد الله محمد بن الوليد المالكي العكي، ثم عاد اليمن، وكان قد دخل عدن، فلقي بها أبا بكر أحمد بن محمد البردي، فأخذ عنه الرسالة الجديدة للإمام الشافعي، وإليه ينتهي سماعنا لها، وذلك سنة سبع وثلاثين وأربع مئة. وكان كثير الترحل إلى العلماء، وقد أخذ عن أيوب بن محمد بن كديس الظبائي أيضاً كتاب (الرقائق) لعبد الله بن المبارك. ودخل عدن مرة ثانية سنة ثلاث وأربعين أربع مئة، فأخذ بها عن أبي عبد الله محمد بن الحسين بن منصور بن أبي الزعفراني. وكان يكثر التردد ما بين بلده والجؤة والجند وعدن، وله بكل مدينة أصحاب وشيوخ. وكان أكثر مقامه بمدينة الجؤة، بضم الجيم وهمزة على الواو مفتوحة ثم هاء. وهي فيما مضى من المدن المعدودة بكثرة البناء والعالِم، وسكن الملوك، وظهور جماعة من الفضلاء بها. وبها جامع به مأذنة.. وهي على مرحلة من الجند من جهة اليمن تحت جبل الحصن المشهور في اليمن بحصن الدملوة، الذي هو بيت دخائر الملوك، وما لهم منذ زمن متقدم. وهو بضم الدال المهملة بعد ألف ولام وسكون الميم وضم اللام وفتح الواو ويجعل مكانها همزة ثم هاء. وكان معظم إقامة هذا الحافظ بهذه المدينة؛ لكونها على قرب من بلده. وأخذ عنه بجامعها عدة كتب، وقصده الطلبة إليها؛ لأنه انتقل من جبل الصلو إلى بلد تعرف بالحاظنة بفتح الحاء ثم ألف وظاء معجمة مخفوضة ونون مفتوحة ثم هاء، وهي صقع كبير يجمع قرى

---

(١) يقصد القاسم بن محمد القرشي ناشر مذهب الشافعي بجهة الجند.

كثيرة. سكن الفقيه المذكور قرية منها تعرف بالقرنين، بقاف مفتوحة بعد ألف ولام ثم راء ساكنة ثم باء بين نونين. ولم يزل الفقيه بها حتى توفي وبها قبره. وكان بعض مشايخ بني البعداني من جبل بعدان كتب ذلك، وجوب له جواباً من جملته شعر منه:

منزلي منزل رحيب أنيق   فيه لي من فواكه الصيف سوق

ثم شكر تفضل الشيخ، وعد ما كتب إليه به احساناً، واعتذر عن الانتقال، وسكن الحاظنة حتى توفي. وكانت وفاته سنة ثلاث وسبعين وأربع مئة».

الحسن بن أبي عقامة

وآل أبي عقامة من بيوتات العلم المشهورة في تهامة. قال الجندي في ترجمته: «أبو محمد الحسن بن محمد بن أبي عقامة بن الحسن بن محمد بن هارون الواصل بالقضاء من بغداد. صحبه ابن زياد كما قدمنا. قال ابن سمرة: وأهل هذا البيت - يعني بني أبي عقامة - أول من قدم وجهر: بسم الله الرحمن الرحيم، يعني في افتتاح القراءة في الصلاة. وعنهم ظهرت تصانيف مذهب الشافعي. وكان الحسن المذكور إماماً في أنواع العلم، شهير الذكر بذلك، وإليه تنسب الخطب العقامية، وله شعر فائق وترسل رائق، وله نوادر مذهب أبي حنيفة التي يستشنعها أصحاب الشافعي وغيرهم. صار كما ذكرنا درة شنع بها، وقال ما يلائم التشنيع. وقد صار الكتاب في اليمن قليل الوجود، لأن الحنفية اجتهدت بتحصيله وإذهابه، كما فعل بنو عقامة بمفيد جياش، لأنه ثلم نسبهم. وللحسن مصنف سماه (جواهر الأخبار) وله مختصر في علم الفرائض والحساب، وآخر سماه (الملطف في علم المساحة) وقصيدته النونية تدل على اتساع علومه وعلوهمته. أوردتها استدلالاً على فضله وتحقيقاً لصدقه:

إذا لم تسد في ليالي الشباب   فلا سدت ما عشت من بعد هنة»

عمر بن إسماعيل الخولاني (٠٠ ـ ٥٥١ هـ)

من كبار علماء اليمن في القرن السادس ترجمه الجندي فقال: «أبو الخطاب عمر بن إسماعيل بن علي بن إسماعيل بن يوسف بن عبد الله بن علقمة الجماعي ثم الخولاني. من قوم يقال لهم بنو جماعة، بضم الجيم وفتح الميم ثم ألف وفتح العين ثم هاء ساكنة. منهم بقية يسكنون على قرب من حصن المجمعة، أحد حصون بلد الشوافي، شين مشددة معجمة بعد ألف ولام ثم فتح الواو ثم ألف ثم خفض الفاء ثم ياء النسب.

تفقه في بدايته. بسالم الأشرقي مقدم الذكر، ثم ترافق هو والشيخ يحيى بن أبي الخير إلى بلد وحاظة، فأخذا عن الإمام زيد بن الحسن (المهذب) وشيئاً في الأصول واللغة، كغريب أبي عبيد ومختصر العين ونظام الغريب. وأدرك الحسن بن أبي عباد فأخذ عنه مختصره. ثم لما عاد هو والشيخ يحيىٰ إلى بلده ذي السفال قرأ عليه الشيخ يحيىٰ (كافي الصفار) و(الجمل) في النحو، وأخذ عنه جمع كثير، منهم: محمد بن موسى العمراني ناسخ القرآن ومنسوخه للصفار، وأخذ عنه أبو السعود بن خيران معاني القرآن للصفار، والمعتمد للبندنيجي. وكان مشهوراً بالصلاح وصحبة أبي العباس الخضر بحيث كان يوجد عنده في أثناء ذلك ويمليه شيئاً من ذلك، والذي حقق عنه أنه أملاه (باب الأذان) وقيل غيره: وبالأول أخبرني الفقيه الصالح الآتي ذكره. ولما انقرضت ذريته وبلغ السلطان، سلطان البلد وهو يومئذٍ المظفر يوسف بن عمر الآتي ذكره، اشترى الكتاب بثمن وافر أوقفه بمدرسته التي أنشأها بمغربة تعز، وتوفي بقرية ذي السفال سنة إحدى وخمسين وخمس مئة، وقبر بمقبرة في غربي القرية، وقبره يزار ويتبرك به. وقد زرته مراراً».

أبو بكر اليافعي (٤٩٠ ـ ٠٠)

أحد مفاخـر اليمن بالقـرن السادس الهجـري ترجمـه الجندي فقـال: «أبو العتيق أبـو بكر بن الفقيـه أبي عبد الله محمـد بن عبد الله بـن إبـراهيم، اليـافعي نسباً، والجندي بلداً. مولده سنة تسعين وأربع مئة. أثنى عليه عمارة ثناء مرضيـاً وكان به عارفاً ولـه مخالـطاً، فقال عنـد ذكره: هـو قاضي قضـاة اليمن المنوط بـه أحكام صنعاء وعدن، وزير الدولتين الزريعية والوليدية تفقه باليفاعي وأخذ علم الأدب عن النعماني والرشيد بن الزبير الأسواني، وكان مزاملاً للإمام يحيى بن أبي الخير في بعض قراءته على شيخهـما الإمام زيـد. وكان يقـول بلغت عشرين سنة وأنا لا أكاد أقلد أحداً في مسألة. وكان مسدداً في أحكامه. ومتى تنازع الخصـمان في مسـألة قـال لهما: هـاتوا جـواب القمرين، أو يقـول: ما قـال القمران؟ يعني عبيـد بن يحيـىٰ بسهفنـة ويحيـى بن أبي الخـير. وكـان سخيّ النفس، حسن الأخلاق، مؤالفاً للأصحاب، عالي الهمة، باذلاً لجاهه وماله في منافـع الإسلام. استوهب خراج أراضي الفقهاء في الأجناد خاصة، ثم سأل التحقيق في ذلـك من الأراضي التي حـول المدينـة، فجعل ذلـك حيث يسمع الأذان. وبـبركته استمـر ذلك إلى عصرنا. وكان من فضلاء الإسـلام وأعيان الأنـام. له مختصر في النحـو يعرف بـ (المفتاح)، من الكتب المفيدة لأهل اليمن».

وقـال الجندي أيضـاً: «ولما تـوفيت السيدة وصـار التعكر وحب والأجنـاد وصبر وبلاد الحصون إلى منصور بن المفضل كان دار ملكـه جبلة، وله محبـة بهذا القاضي، سأله أن ينتقل من الجند إليه لكـونه قـاضي قضاة بـلاده، ولم يقبل منـه عـذراً في ذلك. وجبلة إنمـا يسكنهـا الـرافضـة، وأهـل السنـة قليـل لا يكـادون يعرفون، إنما يجتمعون إلى المسجد الذي يعرف بمسجد السنة ولا يعرف بهـا أحد من أعيان الفقهاء أهل السنة، ومتى سكنها ساكن عيب عليه الفقهاء وغيرهم من أهل السنة وعابوه، وربما نسبوه إلى الخـروج عن المذهـب. وإنمـا كان ذلـك؛ لأن بانيها عبد الله بن محمد المليحي أخو علي بن محمد والمقتول معه في المهجم على ما

سيأتي: فلم يكن يسكن معه غير أهل مذهبه في الغالب، وإنما سكن أهل السنة بها في أيام الغزو وليس ذكر ذلك والإيغال في بيانه من ملازم الكتاب، فذكروا أن القاضي أبا بكر انتقل عن الجند موافقاً للسلطان، وأقام معه بجبلة كتب الفقيه أبو الفتوح بن عبد الحميد الفائشي شعراً يعاتبه على ذلك:

لم تأت يا هذا بأن تنهضا ... في النجد أو في الغور أو في الأضا
حللت في ذي جبلة قاضياً ... فبئسها أرضاً وبئس القضا
تؤم بالطائفة الملحدين ... من بعد ما كنت إمام الرضا
سمُّيك الصديق في صدقه ... أثنى عليه الله والمرتضا
للشافعي قولان يا يافعي ... فقوله الآخر لن ينقضا
وأنت ذو فعلين فيما ترى ... وفعلك الآخر قد أمرضا
إيهاً فأرحض عرضك المنتقى ... من دنس أضحى له محرضا
وأظهر التوبة تطمس بها ... ما قبض القلب وما غيّضا

فأجابه القاضي بأبيات وقال فيها:

أهديت نصحاً يا أخا فائش ... ونصحك المقبول والمرتضا
وليس من قولك يا أبا الفتوح ... لي مخرج أو أن أرىٰ معرضا
تأتيك أبياتي بما ينبغي ... مني وتأسو قلبك المرضا
وأنثني عن ما تكرّهته ... إن شاء ربي ذاك أو قيّضا
لست مصرّاً مثل غيري، ولا ... أعود إلا مصلحاً ما مضى
هذا اعتقادي وبذا نيّتي ... لا بل للمكروه أن يُرفضا
تحية زارتك مني ولا ... عدمت نصيحاً منك لي أبيضا»

علي بن سالم العبيدي

من الأولياء صاحب الكرامات. ترجمه الجندي فقال: «أبـو الحسن علي بن سالم بن عيان بن فضل بن مسعود العبيدي نسباً بالباء الموحدة مخفوضة بعـد عين مهملة مفتـوحة ثم يـاء مثناة من تحت سـاكنة ثم دال مهملة ثم يـاء نسب ـ نسبة إلى جدله ببلد كبـيرة في اليمن، منهم ناس يسكنـون وادياً يقـال له وادي عميـد هذا منهم ولذلك يقال له العميدي، ولأنه كان يسكن فيه وهو على نصف مرحلة من الجند. وضبطه: بفتح العين المهملة ثم ميم مخفوضة ثم يـاء ساكنـة مثناة من تحت ثم دال مهملة عـلى وزن فعيل». كـان هذا الفقيـه يسكن قريـة من الوادي المذكور تعرف بالظفير، بظاء قائمة معجمة بعد ألف ولام ثم فاء مخفوضة ثم يـاء مثنـاة ساكنـة من تحت ثم راء. وله إلى الآن بهـاذرية يحـترمون ويقدرون ببركتـه. وكان فقيهاً صالحاً غلبت عليه العبادة، وشهر بالصلاح واستجابة الدعاء، بحيث كان يقصد من أنحاء اليمن للتبرّك وطلب الدعاء. ـ نفع الله به ـ. وكان إذا قام لورده بالليل بغرفة من بيته أنارت الغرفة، حتى كأنما يوقد بها شمع، فيأتي الناس إلى حـول ذلك ويقفـون ويدعـون الله بما شـاؤوا، فـلا يلبثـون أن يجـدوا أمـارة الاستجابة. وأخبرني شيخي الإمام أبو الحسن بن علي بن أحمد الأصبحي نوّر الله مضجعه أن ثبت له ينقل صحيح أن هذا الفقيه كـان متى قام لـورده بالليـل أنار المـوضع حتى يخـال أن الفقيه يُـوقد لـه شمع، وأن بعض الفقهـاء سمع بـذلـك فقال: ربما أن يكون ذلك من الشيطان. ثم وصل إلى الفقيه علي سببُ الـزيارة، فأكرمه الفقيه وبيّته معه، ثم جاء من الليل وقت الـورد، فقام الفقيـه الضيف لما رأى ذلك جعل يتلو شيئاً من القرآن ليبطل فعل الشيطان إن كان، فلم يـزدد إلا إضـاءة بحيث أنه رأى نملة تمشي عـلى جدار البيت، ولم تؤثـر تـلاوتـه، فعلم أن ذلك من فضل الله سبحانه، فاستغفر الله تعالى، واستطاب باطن الفقيه، وسـأله أن يستغفر له ففعل ذلك» ا.هـ ولم يحدّد تاريخ وفاته.

القاضي مسعود القريّ
الذي حكم على السلطان طغتكين بن أيوب (٥٤٨ ـ ٠٠)

أحد القضاة الذين يفخر بهم سجل القضاء في اليمن ترجمه الجندي فقال: «مسعود بن علي بن مسعود بن علي بن جعفر بن الحسين بن عبد الله بن عبد الكريم بن زكرياء بن أحمد القري ـ بفتح القاف وخفض الراء ثم ياء ـ نسباً ثم العنسي، بنون ساكنة بين عين وسين مهملتين نسبة إلى قبيلة كبيرة من مذحج.

مولده سنة ثمان وأربعين وخمس مئة. تفقه بأحمد بن أسعد الكلالي ويعمر بن حسين بن أبي النهي وبعلي بن أبي بكر بن سالم، وشرح لمع الشيخ أبي إسحاق بكتاب سماه (الأمثال). أثنى عليه غالب الفقهاء، وتفقه به جمع كبير لا يكاد يحصر عددهم من أهل تهامة والجبال، فمن الجبال صهره على ابنته عبد الله المأربي ويحيىٰ بن سالم ومحمد بن عمر بن فليح. ومن الجند موسى بن أحمد الوصابي ومحمد بن أسعد والد سليمان الجنيد. ومن تهامة: علي بن قاسم الحكمي وإبراهيم بن عجيل وغيرهم. وامتحن بأن جعل قاضي قضاة اليمن، وسبب ذلك القصة التي قدمنا ذكرها مع ذكر القاضي العرشاني. وكان من أثبت القضاة وأورعهم؛ وممن سلك طريقهم المرضية، واستناب بجميع الأنحاء من هو صالح للقضاء، بعد اجتهاد عن السؤال عن حاله وماله. ولم يكن فيمن ولي القضاء أفقه منه مع الورع، وكان لا تأخذه في الله لومة لائم. ثم ذكر لي جماعة من المتقدمين، بأسانيد صحيحة متواترة، أن بعض التجار باع من بعض الملوك وهو الملك الذي ولاه القضاء بضاعة كبيرة بمال جزيل، ثم صار يمطله بالمال مرة على مرة بحيث قلق التاجر وتأذى من ذلك. وبلغ القاضي مسعود وشكا إليه، فكتب إحضاراً له يقول فيه إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم: أن يقولوا: «سمعنا وأطعنا». ليحضر فلان ابن فلان إلى مجلس الشرع الشريف بذي أشرق ولا يتأخر، إن كان يؤمن بالله واليوم الآخر. ثم أمر بإحضار

عوناً، وأمره ألا يسلمه إلا بيد السلطان. فلما وقف السلطان على ذلك قال: نعم أؤمن بالله واليوم الآخر. ثم خرج من فوره، فركب دابة من دواب النوبة، وسار إلى القاضي. وكان على قرب منه مدينة يقال لها: المنصورة أحدثها. فلما وصل إلى القاضي وقرب من مجلسه بحيث يراه ويسمع كلامه، قال له بصوت مرتفع: اتق الله وساو خصمك. فقام التاجر بإزاء السلطان وادّعى عليه بالمال الثابت له قبله فاعترف بذلك. فقال التاجر: التسليم؟ أو موجب الشرع؟ فقيل للتاجر: ألا تصبر حتى يصل السلطان داره ثم يسلم لك؟ فامتنع وقال: لا أفارقه عن هذا المكان حتى أقض ما هولي. فبادر السلطان وأمر من جاءه بالمال، والسلطان يومئذ مقيم بمجلس قريب من مجلس القاضي. فلما وصل المال سلمه للتاجر وأبرأ ذمة السلطان، فحينئذ قام القاضي وسلم على السلطان واعتنقه، فقبل بين عينيه وقال: صدق من سماك كمال الدين».

الحسين بن أبي بكر الشيباني (٥٠١[1] - ٠٠)

ذكر الهمداني في إكليله أن شيبان من ولد حيس، ولست أدري ما إذا كان هو جد هذا البيت المبارك. قال الجندي في ترجمته:

«مولده أول شهور سنة إحدى أو اثنتين وخمس مئة. تفقه بالهرمي، وأخذ عن ابن عبدويه، وكان فاضلاً بالفقه والحديث. ومشكلة على المهذب يدل على ذلك. كان يتردد ما بين بلده وعدن وزبيد. وعرض عليه قضاء زبيد أيام توران شاه فامتنع، ثم عرضه عليه أيام سيف الإسلام القاضي الأثير فامتنع أيضاً، فقال له: إن لم تفعل فدلنا على من يصلح لذلك، فدلهم على عبد الله بن محمد العقامي، فولاه الأثير فلم يزل على ذلك وولده إلى أن توفي في صدر الدولة المظفرية. قال ابن سمرة وكان يعني الشيباني: له غزارة علم ومصنفات مفيدة غير المشكل. لزم مجلس الطويري سبع سنين، وكان رفيقه في الرحلة محمد بن

---

(١) ويقال: إنه وُلِدَ سنة ٥٠٢ هـ.

إسماعيل الأحنف. اجتمع له ابن سمرة في عدن سنة إحدى وثمانين وخمس مئة، ولا أعرف لوفاته تاريخاً. وقد خلف ثلاثة أولاد تفقهوا به، وشهر منهم إبراهيم. عمر عمراً طويلاً حتى أدرك زمن المظفر وزاره بمنزله بالخوهة، فبشره بأخذه للملك وسامحه بأراضيه وأراضي أهله ونخيلهم. ذكر من حضر مجلس السلطان معه أنه ضرب على كتفه وقال: الملك لك بالسيف لا أسد الدين ولا فخر الدين ولا قطب الدين» ا. هـ.

وقد ذكر الشرجي في طبقاته كثيراً منهم. ومساكنهم بقرية البيضاء من خبت حيس، وقبورهم معروفة حتىٰ اليوم غرب مدينة الخوهة، ويعرف في لغتهم بالبختيار.

مناقب وريادات

يختتم كلامنا عن الإشراق اليمني الأول كما وعدنا، بذكر مناقب اليمنيين في مهاجرهم وفي دارهم، ورياداتهم التي ابتكروها وكانوا السباقين، إليها.

وقد عقد إمام اللغة محمد بن يزيد المبرد في أواخر كتابه (الكامل) باباً بعنوان (ذكر الأذواء من اليمن في الإسلام، وتسمية من كان بينه وبين الملائكة سبب من اليمانية) قال: «فأما في الجاهلية فيكثرون، نحو ذي يزن وذي الكلاع وذي نواس وذي رعين، وذي أصبح وذي المنارة وذي القرنين. فأما في الإسلام، فمنهم خزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، سماه رسول الله ﷺ، وهو أنصاري. ومنهم: قتادة بن النعمان الأنصاري ذو العين، كانت عينه أصيبت فردها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن عينيه، وكانت تعتل عينه الصحيحة فلا تعتل المردودة معها. ومنهم: أبو الهيثم بن التيهان الأنصاري ذو السيفين. كان يتقلد سيفين في الحرب. ومنهم حباب بن المنذر بن الجموح ذو الرأي، وهو صاحب المشورة يوم بدر، أخذ برأيه رسول الله ﷺ. وكانت له آراء في الجاهلية مشهورة. ومنهم: سعد بن صفيح ذو السبال، ومنهم ذو المشهرة، وهو أبو دجانة سماك بن خرشة.

وكانت له مشهرة إذ البسها وخرج يختال بين الصفين، لم يبق ولم يذر. وكلُّ هؤلاء من الأنصار.

ومن اليمن وغيرهم: عبد الله بن الطفيل الأزدي ثم الدوسي ذو النور. أعطاه رسول الله ﷺ نوراً في جبينه ليدعو به قومه، فقال يا رسول الله: هذه مُثلةٌ، فجعله رسول الله ﷺ في سوطه. فلما ورد على قومه بالسراة جعلوا يقولون: إن الجبل ليلتهب. وكان أبو هريرة ممن اهتدي بتلك العلامة. ومنهم ثم من خزاعة: ذو اليدين، سماه رسول الله ﷺ ذا اليدين، وكان قبل يدعى ذاك الشمالين، وكان رسول الله ﷺ صلى بهم الظهر، مسلم في الركعة الثانية فقال ذو اليدين: يا رسول الله، أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال: ما كان ذاك، فقال: بلى يا رسول الله. فالتفت إلى أصحابه يقال: ما يقول ذو اليدين؟ فقالوا: صدق يا رسول الله. فنهض فأتم، ثم قال: إني لأنسى - أو أنسى - لأستن.

وهذه تسمية من كان بينه وبين الملائكة سبب من اليمانية: منهم سعد بن معاذ الأنصاري، وهبط لموته سبعون ألف ملك لم يهبطوا إلى الأرض قبلها وقبض رسول الله ﷺ من رجليه في المشي لئلا يطأ على جناح ملك، واهتز لموته عرش الله عز وجل. . وفي ذلك يقول حسان:

وما اهتز عرش الله من موت هالك سمعنا به إلا لسعد أبي عمرو

وكبّر عليه رسول الله ﷺ تسعاً، كما كبّر على حمزة بن عبد المطلب. وشم من تراب قبره رائحة المسك.

ومنهم حسان بن ثابت الأنصاري. قال له رسول الله ﷺ: «اهجهم وروح القدس معك». وقال في حديث آخر: «إن الله مؤيد حساناً بروح القدس ما نافح عن نبيه». وقالت عائشة: كان يوضع لحسان منبر في مؤخر المسجد، فينافح عن رسول الله ﷺ.

ومنهم: حنظلة بن أبي عامر الأنصاري. غسلته الملائكة، وذاك أنه خرج

يوم أحد فـأصيب، فقال رسـول الله ﷺ: صاحبكم هـذا قد غسلتـه الملائكـة، فسئل عن ذلك، فقـالت امرأتـه كان معي عـلى ما يكـون الرجـل مع امـرأتـه، فـأعجلتـه حـطمـة بلغتـــه في المسلمـين، فخـــرج فـأصيب، ففي ذلـــك يقـول الأحوص بن محمد بن عاصم بن ثابت بن أبي الأقلح حمي الدبر وكان خال أبيه يقول:

غسلت خالي الملائكة الأبرار ميتاً، أكرم بهمن صريع! وأنا ابن الذي ظهره الدبر، قتيل اللحيان يوم الرجيع.

ومنهم حارثة بن النعمان. رأى جبريل عليه الصلاة والسلام مرتين، وأقـرأه جبريل السلام.

ومنهم ثم من خزاعة: عمران بن حصين. كانت تصافحه الملائكـة وتعوده ثم افتقدها، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله إن رجالاً كانوا يأتونني لـم أر أحسـن منهم وجـوهاً، ولا أطيب أرواحـاً ثم انقطعـوا عني؟ فقال رسـول الله أصابك جرح فكنت تكتمه؟فقال أجل، قال: ثم أظهرته. قال: قد كان ذلـك. قال: أما لوا أقمت على كتمانه لزارتك الملائكة إلى أن تموت.

ومنهم: جرير بن عبد الله البجلي. قال رسول الله ﷺ: يـطلع عليكم من هذا الفج خير ذي يمن عليه مسحة ملك.

ومنهم دحية بن خليفة الكلبي. كان جبريل عليه الصـلاة والسلام يهبط في صورته، فمن ذلك يوم بني قريظة لـما انصرف رسول الله ﷺ من الخنـدق وهبط عليـه جبريـل، فقال: يـا محمـد أقـد وضعتم سـلاحكم؟ مـا وضعت المـلائكـة أسلحتهـا بعد. إن الله يـأمرك أن تسـير إلى بني قريـظة. وها أنـاذا سـائـر إليهم فمزلزل بهم. فأمر رسول الله ﷺ الناس ألا يصلوا إلا في بني قريظة. فجعل يمر بالناس فيقول: أمرَّ بكم أحد؟ فيقولـون: ذاك جبريـل، ثم مرّ دحيـة بعد ذلـك وكان لا يزال عليه السلام في غير هذا اليوم ينزل في صورته» ا.هـ.

هذا ما أورده المبرد، ونضيف إليه ما يحضرني من مناقب وريادات اليمنيين المهجرين والمقيمين طوال الإشراق الأول:

منها: أن أول من أسلم من الموالي هو زيد بن حارثة حب الرسول وأبو حبه، وهو الصحابي الوحيد الذي نطق القرآن باسمه، وهو أول قائد لأول معركة ضد الروم.

ومنهم المقداد بن عمرو الذي كان الفارس الوحيد يوم بدر.

ومنهم العلاّء الحضرمي الذي سخر الله له البحر، فغزا بجيش، رجالاً وركباناً، امتطوا متن البحر ذهاباً وإياباً ولم يصب أحدهم بأذى.

ومنهم عمار وأبواه، وهما أول شهيدين في الإسلام.

ومنهم: مهجع مولى عمر. وهو من اليمن، كما حققه النووي. أصيب بسهم غائر يوم بدر، فكان أول شهيد بها.

ومنهم الأربعة الذين جمعوا القرآن في عهد النبي ﷺ، وهم: معاذ وزيد بن ثابت وأبي بن كعب وأبو زيد. ومنهم الثلاثة الذين كانوا يفتون في عهد النبي ﷺ، وهم: أبيّ وزيد ومعاذ. ولزيد مزية أخرى: أنه أول صحابي جمع ثلاث لغات.

ومنهم: أبو موسى الذي تفرد بثلاث هجرات لم تكن لغيره من الصحابة.

ومنهم: البراء بن معرور الذي كان أول من صلىٰ إلى بيت إبراهيم قبل تحول القبلة من بيت المقدس.

ومنهم: أسعد بن زرارة الذي أقام أول جمعة في الإسلام.

ومنهم: خفاف بن هانىء الأشعري الذي كان أول من اقتحم دجلة على فرسه.

ومنهم شعراء الإسلام الثلاثة وكلهم أنصاريون، وهم: حسان وابن رواحة وكعب بن مالك.

ومنهم أصحاب النور الثلاثة: أولهم الطفيل بن عمرو الدوسي، وثانيهم أسيد بن حضير، وثالثهم التابعي يزيد بن الأسود السكوني.

ومنهم الذي ورد ذكره في حديث أبي بسرة النخعي، وهو نباتة بن يزيد النخعي الذي أحيا الله بدعوته الحمار الميت.

ومنهم تميم بن أوس الداري الذي كانت منقبته العظمىٰ أنه روى عنه النبي ﷺ حديث الجساسة. وهو أول من أضاء السراج بالمساجد، وأول من قصّ على الناس في عهد عمر.

ومنهم خطيب رسول الله ﷺ: ثابت بن قيس بن شماس.

ومنهم: أول ملك شهيد في الإسلام، فروة بن عمر والجذامي. والسمح بن مالك الخولاني هو أول من أجرى الإحصاءات.

أما مناقب التابعين ومن بعدهم، فأولهم خير التابعين بنص الحديث أويس بن عامر القرني. وقد صرح النووي أن قول القائلين بتقديم سعيد بن المسيب عليه محمول على الفقه فقط.

ومنهم أبو مسلم الخولاني الذي آتاه الله كرامة كمعجزة إبراهيم الخليل عليه السلام. وقد مرت ترجمته.

ومنهم همام بن منبه الذي كان أول تابعي جمع من صحيفته الصحيح هذا هو اسمها (مئة وأربعون حديثاً عن أبي هريرة).

ومنهم المهلب بن أبي صفرة، الذي كان أول من بيت الكفار، وأول من حذف الخيل. وهو أول من أبدل ركاب الخيل من خشب إلى حديد.

ومنهم أول من عرف باسم قاضٍ في الإسلام: شريح بن الحارث الكندي.

ومنهم أول وزير في الإسلام أبو سلمة الخلال، وأول قاضي قضاة في الإسلام، وهو أبو يوسف البجلي. وأول من وضع علم العروض هو الخليل بن أحمد الفراهيدي، وأول من أخرج علم التوحيد منقحاً مصححاً هو أبو الحسن الأشعري، وأول من أخرج علم الاجتماع هو عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، وأول من صنف تاريخاً لمصر هو عبد الرحمن بن أحمد بن يونس الصدفي، وأول من صنف الحديث في اليمن معمر بن راشد، وأول قاض بمصر هو عبد الرحمن بن لهيعة الحضرمي، وأول من دخل بسورة يس إلى اليمن ثمامة السيباني، وأول من أدخل الجوز إلى اليمن الصحابي وبر بن يحنس، وأول مسلمة في صنعاء صلت إلى القبلة وقرأت القرآن، هي أم سعيد بنت بزرج زوجة الشهيد ذا ذويه على يد وبر بن يحنس، وأخوها عبد الرحمن بن بزرج أول من اكتمل له حفظ القرآن بصنعاء. وكان الصحابي الجليل فروة بن مسك العطيفي المرادي هو أول من اختط جبانة صنعاء، رضي الله عنهم ورفع درجاتهم. وأخرج أبو داود عن أنس قال: لما جاء أهل اليمن قال رسول الله ﷺ: «قد جاءكم أهل اليمن وهم أول من جاء بالمصافحة».

وأول من جمع المسند في الحديث نعيم بن حماد الخزاعي، وأول من أدخل مذهب أبي حنيفة إلى مصر، وأول حنفي وأول عراقي ولي القضاء بها، هو إسماعيل بن اليسع بن الربيع الكندي. وإذا كان هانىء بن خفاف الأشعري هو أول من اقتحم بفرسه دجلة، فإن عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث هو أول من اقتحم بجيشه بلاد الترك تلقاء الشمال فيما يعرف اليوم بجمهوريات إزبكستان الإسلامية، التي اغتصبها الاتحاد السوفيتي. كما كان موسى وطارق وطريف أول من اقتحموا بجيوشهم جنوبي غربي أوروبا. وكان عنبسة بن سحيم الكلبي أول من قطع بلاد الغال تلقاء الشمال إلى سويسرا، وكان حنش بن عبد الله الصنعاني

أول من ابتنىٰ جامعاً بسرقسطة، وهو المؤسس لجامع قرطبة. وأول من جمع عشور أفريقيا.

هذه طائفة من ريادات اليمن العسكرية والفكرية في عهدها الإسلامي. وإذا ذهبنا إلى رياداتها الحضارية قبل الإسلام فكثيرة وكثيرة. ولو لم يكن منها إلا أن حسان أسعد تبع الأكبر هو أول من كسا الكعبة، وشمر يرعش أول من أمر بصنع الدروع، وأبرهة ذو المناد هو الذي جعل في الطريق منارات مضيئة يهتدي بها لكفىٰ. وكان الملك سمهعلي ينوف هو المؤسس لأكبر سد عرفه تاريخ العرب القديم، وهو سد مأرب.

هذا، ولليمن شعراء متفوقون مهجريون ومقيمون أغفلنا ذكرهم هنا طمعاً في الإتيان بهم في كتاب مستقل، ـ إن شاء الله ـ. فمن المهجريين متنبيء المغرب محمد بن هانىء الأزدي، وصفوان بن إدريس التجيبي الأندلسي، وللحسن بن رشيق الباديسي الصنهاجي الحميري، وأحمد بن الزبير الغساني المعروف بالرشيد، ومحمد بن عبد المنعم الخيمي أمير شعراء مصر في القرن الثامن، وصاحب القصيدة التي تقاضى فيها مع ابن إسرائيل إلى ابن الفارض، وابن خلكان.

أما المقيمون: فعبد الخالق بن أبي الطلح الشهابي، وعيسى الوحاظي صاحب نظام الغريب. أثنى عليه الجندي وعمارة بن زيدان الحكمي والحسين بن القم الزبيدي والقاسم بن علي بن هتميل الحكمي، ومحمد بن حمير الوصابي والعفيف المزاح ويوسف بن علي الهادي صاحب طوق الصادق. ومحاسن يوسف أثنى عليه الشوكاني والقاضيان البليغان علي بن محمد العنسي وعبد الرحمن بن يحيىٰ الأسني. ومن فاتني ذكرهم أكثر ممن أوردتهم.



الإشراق اليمني الثاني



الحالة السياسية والإدارية

كانت اليمن أواخر القرن السادس الهجري مقسمة إلى خمس ممالك: ففي صنعاء دولة الحاتميين الهمدانيين، وفي صعدة والجوف دولة الإمام عبد الله بن حمزة، وفي زبيد دولة آل مهدي، وفي عدن دولة الزريعيين وفي المخلاف السليماني دولة الشريف غانم بن يحيى بن سليمان.

ولما اشتدت وطأة علي بن مهدي وأسرف في العبث بالأهلين، استغاث صاحب المخلاف السليماني بالمستضيء العباسي، فطلب من الناصر صلاح الدين إرسال حملة إلى اليمن[1]، فأرسل أخاه توران شاه الذي تمكن من إخضاع ممالك اليمن المتفرقة، وآثر الإقامة حيناً بزبيد. وسرعان ما تضجر من إقامته بها، وبعث إلى أخيه الناصر يستأذنه في العود إلى مصر والشام. وكان مما قاله أحد منشئيه على لسانه في رسالة إلى أخيه:

وإذا أراد الله إشقاء امرىء ... وأراد أن يحييه غير سعيد
أغراه بالترحال عن مصر بلا ... سبب وأسكنه بأرض زبيد

فأذن له أخوه، وأرسل أخاه الثاني السلطان العزيز طغتكين الذي اتخذ تعز مقراً لدولته، وطاب له المقام باليمن، اختط مدينة المنصورة بالمعافر (الحجرية). وقصده القصاد طلباً لسخائه، ومنهم: محمد بن عنين الشاعر الشامي المشهور،

---

(١) هناك سبب آخر هو أن الحسن بن النساخ المطرفي استغاث بالعباسيين ضد عبد الله بن حمزة حين فتك بالمطرفية.

ونـال لديـه ما أراد من النـوال، وعاد مثقـل الحقائب إلى مصر، وهنـاك صـادره سلطانها العزيز الأيوبي. وفي ذلك يقول:

مـا كـل من يـدعى العـزيـز لهـا   أمـلاً، ولهـا كـل بـرق سحبـه غـدقـه
بـين العـزيـزين بـون في فعـالهـما   هـا ذاك يعطي وهـذا يأخـذ الصـدقـة

وخطر لطغتكين أن يطبق في اليمن ما كان يطبق في مصر، من شراء أرض اليمن وضمهـا إلى ديـوان الـدولـة، فضـج صلحـاء اليمن وعلماؤهـا، وعكف الربانيون في محاريبهم ضراعة إلى الله للتخلص منه. فكفاهم الله أمره، وعاجلته المنيـة، وانتهت فكرتـه بموتـه[1]، وغني عن البيان مـا كـان عليـه الأيـوبيـون من السنيـة، فهم أتباع مـذهب الإمام أبي حنيفـة. وكانـوا ينهجون نهج نـور الـدين محمـود الشهيد في تكـريم العلماء والتبرك بتـوجيهات الأوليـاء. وخبره ـ رحمـه الله ـ مشهور في أخذه بتوجيهات الولي الصالح عمر الملا في تحركاته العسكرية.

وكلنا يذكر ما حـدث لصلاح الـدين عند فتحـه حلب، من ورود البشارة عليه من أحد صلحاء الشام وعلمائها بافتتاح القدس بعـدها بـأشهر. وكـان يقال إنه أخذ ذلك من قوله تعالى:

﴿ألم غلبت الروم في أدنى الأرض، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ ووقف شاعر يهنئه:

وفتحكم حـلب الشـهبـاء في صـفـر   يقضي لكم بـافتتـاح القـدس في رجب

وكان طبيعياً أن نرى الرسوليين وهم تـلامذة الأيـوبيين، يتـابعون في كـل ذلك، ورأينا أولهم المنصور عمر بن عـلي بـن رسول يتتلمـذ على الشيـخ إبراهيم الفشلي، ويتبرك بتوجيهات الولي الكبير شمس الشموس أبي الغيث بن جميل أيام إقامته بالمهجم. وجاء أولاده من بعده يتتلمذون على الفقهاء ويتبركون بالأولياء،

---

(١) في ترجمة الولي دحمل بن عبد الله الصهباني ذكر الشرجي أنه هو الداعية على السلطان طغتكين.

كالشيخ إسماعيل الجبرتي وغيره. وكان المظفر يوسف بن عمر بمكان عظيم من العلم والجدارة بالحكم، خامس خمسة وحدوا اليمن في عهد الإسلام، أولهم: باذان في عهد النبي ﷺ، وثانيهم محمد بن عبد الله بن زياد مؤسس الدولة الزيادية بزبيد، وثالثهم علي بن محمد الصليحي على ما كان فيه من إسماعيلية، وما شاع في عهده من إرهابه للعلماء والصالحين. ورابعهم المظفر الذي اجتمع له أمر اليمن من عمان إلى نجران، بل إنه حكم مكة سنوات، وأغدق العطاء على أهلها، وقام بخدمة البيت الحرام. وخبره في الجانب العلمي مستفيض، فهو أول من استقدم كتاب (الترهيب والترغيب) لعبد العظيم المنذري إلى اليمن. وكان قد حصل على نسخة من تفسير الرازي، وقف على عبارة منها فتوهم عدم صدورها من المؤلف، فطلب نسخة من مصر، ثم لم يقتنع حتى طلب نسخة بخط المؤلف من خراسان. ولم يمنعه اتساع ملكه وحروبه مع الإمام أحمد بن الحسين المعروف بأبي طير من متابعة كل جديد في دنيا العلم والأدب، والمشاركة في التأليف.

والواقف على تاريخ الدولة الرسولية يجد لملوكها ثلاث ميزات طيبة، أولاها: حب العلم؛ تعلماً وتأليفاً. فما منهم إلا وقد درس على كبار علماء اليمن، وأخرج القيم النافع من المؤلفات في علم الطب والفلاحة والفلك. وفي عهدهم تأسست عادة قراءة صحيح البخاري في المساجد والبيوت شهوراً من كل سنة، واستمرت هذه العادة الطيبة حتى اليوم، والحمد لله.

وثانيها: حب العمران والتوسع فيه. وكان من أهم ما عنوا به زبيد في تهامة، وثعبات في تعز. يقول الخزرجي عن مؤلفات وآثار الأفضل العباسي ص ١٣٥: «صنف عدة من الكتب، منها: كتاب (نزهة العيون في تأريخ طوائف القرون). لم يحذ على مثاله، ولم ينسج على منواله، وهو كتاب نافع جداً. وله أيضاً كتاب (العطايا السنية في المناقب اليمنية)، يحتوي على طبقات فقهاء اليمن وكبرائها وملوكها ووزرائها. وله (نزهة الأبصار في اختصار كنز

الأخيار)، واختصر تاريخ ابن خلكان. وله كتاب (بغية ذوي الهمم في أنساب العرب والعجم)، وله غير ذلك

وهو الذي جدد سور زبيد، وعمر خنادق بعد أن انهدم سورها وخربت فنادقها. وأنفق في عمارة ذلك جملة مستكثرة، وأجرى للرعية في معظم جهات اليمن مزال الربع مما أزدرعوه، وفي بعضها الخمس، وأجرى لهم الذراع الشرعي في المساحة، وبينه وبين الذراع الأرضي فرق.

وكان كريماً جواداً، يضع الهناء مواضع النقب، ووهب للشريف علي بن أحمد بن الهادي مئة ألف دينار ملكية زوادة له يوم تقدم إلى بلادها.

وكان شجاعاً جلداً، شديد البأس، قوي النفس. قصده الإمام صلاح بن علي في جموع كثيرة لا تنحصر من الخيل والرجل لمواقعة ابن السيري، وجمع ابن السيري ما يجاوز حد الحصر، فبلغ جمعهم الحوبان وكان يومئذٍ مقيماً بثعبات، فما تزلزل ولا تحول، وولي الملك في قطر اليمن، وفي البلاد من طوائف الفساد ما يزيد على ألفي فارس فضلاً عن القرناء والأضداد. ففرق كلمتهم واستأصل شأفتهم. وكان له من المآثر الدينية المدرسة التي أنشأها في مدينة تعز في ناحية الحبيل منها، أمر فيها بعمارة منارة لم يكن في البلاد مثلها. وذلك أنها على ثلاث طبقات، فالطبقة الأولى مربعة الشكل صحيحة الأركان، والطبقة الثانية مثلثة الأركان قائمة الحروف، والطبقة الثالثة مسدسة الشكل عجيبة المنظر. ورتب في المدرسة المذكورة إماماً ومؤذناً، وقيماً ومعلماً، وأيتاماً يتعلمون القرآن، ومدرساً في الشرع الشريف، ومعيداً وعشرة من الطلبة، ومحدثاً شيخاً صوفياً ونقيباً، وفقراء وطعاماً للفقراء الواردين. فأوقف عليهم أطياناً ونخلاً وكروماً ورباعاً ما يقوم بكفاية الجميع منهم. وابتنىٰ مدرسة في مكة المشرفة قبالة باب الكعبة المعظمة، ورتب فيها مدرساً ومعيداً وعشرة من الطلبة، وإماماً ومؤذناً وقيماً ومعلماً، وأيتاماً يتعلمون القرآن الكريم، وأوقف عليها وقفاً جيداً».

ويقول عن عمارتهم لثعبات بسفح صبر وهي إحدى دُرر تعز وجواهرها المتوجة لها. ومنها ص ٥٩: «وفي هذه السنة كملت عمارة سور ثعبات وركبت أبوابها، وصارت مدينة حصينة، وعمر جامعها، وأجرى إليه الماء، ورتب فيه إماماً ومؤذناً وخطيباً ومعلماً، وأيتاماً يتعلمون القرآن الكريم، ومحدثاً يقرىء حديث رسول الله ». ووقف السلطان عليهم وقفاً جيداً يقوم بكفاية الجميع منهم».

ويقول عن صفة قصر المعقلي بثعبات ـ وقد كان في وقته أجمل مباني اليمن ص ٣١١: «هو مجلس طوله خمسة وعشرون ذراعاً في عرض عشرين ذرعاً، بسقفين مذهبين بغير أعمدة. له أربع مناظر بأربعة رواشن. ليس فيه إلاّ رخام وذهب، وأمامه بركة طولها مئة ذراع في عرض خمسين ذراعاً. على حافاتها صفة طيور ووحوش من صفر أصفر، ترمي الماء من أفواهها، وفي وسط البركة فوارة ترمي الماء إلى السماء فيبلغ مدى بعيداً. وقباله شاذروان بعيد المدى يصب ماؤه إلى البركة المذكورة كأنه لوح من بلور، لا يمكن التعبير عنه بغير هذا. وفي المجلس شبابيك تفضي إلى بستان عجيب المنظر حسن المختبر والمخبر. وكانت إقامة الصناع في عمله مدة سبع سنين.

قال المصنف ـ أيده الله ـ: «وسمعت من يحكي ممن أدرك أيام عمارته أنه كان يطلع إليه في كل يوم نحو من سبعين بغلة من الصناع الغرباء ما بين نجار ودهان ونحاس وصانع ومكندج ومرخم ومزخرف ومصور، خارجاً عمن يركب الحمير ومن لا يركب عن أتباعهم. وهذا ما عدا صناع البلاد وهم أضعاف أضعافهم. ولما فرغت عمارته على الصفة المذكورة أمر السلطان ـ رحمه الله تعالى ـ بعمل فرحة عظيمة جامعة حضرها أعيان الناس، بل عامتهم على اختلاف حالاتهم وتنوع طبقاتهم. وكان السلطان ـ رحمة الله عليه ـ ينظر إليهم من الطبقة الثانية وأمر بإضافة الخلع على أعيان الناس».

ولم يكن العناية بعمارة المساجد والمدارس مقصوراً على الملوك، وإنما اهتم

به وساهم فيه أيضاً نساؤهم، ومنهم أم الملك المجاهد التي يقول الخزرجي عنها في العقود ص ١٠٠ : «ولما غاب ولدها السلطان الملك المجاهد في مصر، وكانت غيبته عن البلاد أربعة عشر شهراً ، كانت القائمة في البلاد ، فضبطت البلاد وجمعت العساكر، ولم يكن في ذلك الوقت الحسن أحسن من تلك السنة، خصباً وأماناً وعدلاً وإحساناً. ولها آثار حسنة في الدين. وكانت تحب العلماء والصلحاء، وتكرمهم وتجلهم وتعظمهم، وكانت تزور بيوت الناس تتفقدهم بالعطايا الوافرة. وقل أن يأتي الزمان بمثلها. وما أحقها بقول أبي الطيب المتنبي حيث يقول:

ولو كان النساء كمن ذكرنا لفضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس نقص ولا التذكير فخر للهلال

ومن مآثرها الدينية: المدرسة المعروفة الكبيرة المشهورة بالصلاحية في مدينة زبيد. ورتبت فيها إماماً ومؤذناً وقيماً، ونازحاً للماء إلى المطاهر[1] بها، ومدرساً للشرع، ومدرساً في الحديث النبوي، ومدرساً في النحو، وطلبة في كل فن من الفنون المذكورة، ومعلماً وأيتاماً، وأوقفت من خيار ما تملكه ما يقوم بكفاية الجميع. وابتنت قبالة المدرسة المذكورة خانقة رتبت فيها شيخاً ونقيباً وفقراء، وأوقفت عليهم وقفاً جيداً حسناً كافياً. وابتنت مدرسة في قرية المسلب من وادي زبيد وجعلت فيها إماماً ومؤذناً وقيماً ونازحاً ومعلماً، وأيتاماً يتعلمون القرآن، ومدرساً على مذهب الإمام الشافعي، ومدرساً على مذهب الإمام أبي حنيفة، وطلبة في المذهبين، وسبيلاً لشرب الدواب وغيرهم. وابتنت مسجداً في قرية التربية من وادي زبيد، ورتبت فيها إماماً ومؤذناً وقيماً ومعلماً وأيتاماً، ودرسة يقرؤون القرآن، وسبيلاً لشرب الدواب.

وابتنت أيضاً في قرية السلامة مدرسة وهي التي على يمين السالك إلى تعز،

(١) هذه الكلمة لا تزال في تهامة ويعنون بها الكنيف.

ورتبت فيها إماماً وخطيباً ومؤذناً وقيماً، ونزاحاً للماء إلى المطاهر وإلى السبيل هنالك، ومعلماً وأيتاماً يتعلمون القرآن، ومدرساً للفقه على مذهب الامام الشافعي، ومدرساً للحديث النبوي، وطلبة مع كل مدرس، وأوقفت على الجميع أوقافاً جيدة نفيسة تقوم بكفايتهم وتزيد. وابتنت مسجداً في مدينة تعز في ناحية المجلية أيضاً. وأفعالها في الخير كثيرة».

وإذا كنا قد عرفنا طرفاً من خبر المعقلي بثعبات، الذي قال فيه إدريس بن علي من ذرية الإمام ابن حمزة مهنئاً:

سمت ثعبات فوق كيوان رتبة   وطالت على الآفاق وابتهج القصر
وأشرق نور المعقلي، كأنما تبدّى   لنا من بين أركانه الفجر

فلننظر ما قاله الخزرجي عن ازدهار زبيد أيام الأشرف الثاني: «وقد أمر القاضي سراج الدين عبد اللطيف بن محمد بن سالم بعمارة المساجد والمدارس والسبل وأضاف إليه شد الأوقاف المباركة بوادي زبيد المحروس، وأن يعيدها كما كانت. وكان الخراب قد استولى على كثير من المساجد والمدارس حتى ألصقها بالأرض وبعضها أمثلة من بعض، فأما الذي عمر بعد أن كان داثراً فالمدرسة المنصورية الحنفية، وموضع الحديث بها. والسيفية الصغيرة والنظامية والعفيفية والميكائيلية، ومسجد الأتابك ومسجد نجم ومسجد الطواشي فاخر، ومسجد الطيرة ومسجد السلطان عباس الظفاري ومسجد أزدمر ومسجد الساباط، ومسجد ابن الهمام ومسجد الخيرزان ومسجد خليخان، ومدرسة التربية ومسجد الصياد بها، ومسجد الرند، ومسجد القرتب وسبيله، والسبيل القاتني على باب سهام، وسبيل المنظر وسبيل فشال. وأحدث السبيل الذي على باب الجامع بزبيد.

وأما الذي معظمه خراب والأقل فيه قائم، فالمنصورية العليا والأشرفية والسيفية الكبيرة والتاجية الفقهية، ومسجد السابق النظامي ومسجد قنديل

ومسجد غصون ومسجد الحاجة سماع، ومسجد الأمير عباس بن عبد الجليل والخانقة الصلاحية بزبيد، ومدرسة المسلب وسبيل المنصورة، ومسجد الحبرتي والقبة القاتنبة ومسجد الحشاثة، وسبيل مسجد الربد وسبيل التربية وسبيل الصلاحية بزبيد، وسبيل باب النخل، ومسجد بسان الراحة والخانقة التاجية، وجامع النويدرة وسبيله وسبيل الطنبغاء. وأما الذي معظمه قائم وما فيه خراب، فالمدرسة الصلاحية والفاتنية والفرحانية وسبيلها، ومدرسة الميلين والعاصمة والشمسية والهكارية، ومدرسة القراء والحديث بها ومسجد الست جهة رشيد، والمسجد الجامع بزبيد وسبيل الطواشي خضير.

فهذه خمسة وستون موضعاً من المآثر الدينية. فقام في ذلك كله قياماً كلياً، واجتهد وأعاد معالم الوقف على حقائقها المعتادة ورسومها القديمة، وأحيا السبل الداثرة، وقام في ذلك حق القيام حتى شكره الخاص والعام».

هذا وقد كانت للأشرف الثاني إصلاحات مشكورة في مجال الزراعة، خفف بها من الأعباء، وأصلح قنوات الري. وهو الذي أدخل زراعة الأرز إلى اليمن، فزرعه في ملك له بجهة زبيد أرض في أعلاها تسمى سرياقوس الأعلى، وأرض في أسفلها وتسمى سرياقوس الأسفل، فيما يعرف اليوم بالتحيتا. وبلغت محاصيله ـ كما قال الخزرجي ـ مئات الأحمال من الجمال. وكان عدة مساجد زبيد ومدارسها ومعاصر السليط بها مئتين وبضعاً وثلاثين مسجداً ومدرسة، والمعاصر نحواً من سبعة أو ستة وعشرين عوداً.

كما ذكر الخزرجي من كان يحضر مجلس الأشرف الثاني بنخيل زبيد من سفراء الدول. قال ص ٢٤٤ :

«وحضر مقام التشفيع عدة من وجوه أهل دولته، وحضر السفراء من سائر الجهات: سفير صاحب مصر وسفير صاحب الهند، وسفير صاحب مكة وهو أخو محمد بن عجلان، والشرفاء من أصحاب المشرف: أحدهم الشريف فخر الدين

عبـد الله بن إدريس بن محمد بن إدريس بن عـلي بن عبـد الله بـن الحسن بن حمزة بن سليمان بن حمزة، وصاحب ذمرمر، وهـو الذي يقـال له عبـد المطلب، أحد بني الأنف. وكان وصوله إلى بـاب السلطان يوم الـرابع عشر من رمضـان، وغيرهم. فكانوا يحضرون السماط في كل ليلة».

ومما يذكر للمظفر، أنه بعث إلى مصر خمس مئة فارس بخيلهم وسـلاحهم للمرابطة ضد التتار أيام الظاهـر بيبرس، وكـانت نفقاتهم طـوال مرابـطتهم على اليمن. وأنـه ـ رحمه الله ـ كـان يحرص عـلى صـون الـرعيـة من الـظلم، فـيراجـع محاصيل كل جهة، وإذا رأى ارتفاع بعضها عن العادة حقق في السبب، فإذا عرف أنه من ظلم الوالي عزله وأدبه. ومن بعدها كانت تحدث مـظالم في الجبايـة خصوصـاً في النخيل والقطن، مما سبب خراب وديان تهامـة وتمرد قبائلها. وكـان الأشرف والأفضـل والمجاهـد يتفقدون شؤون الـرعية، ولا يُقـرّون ظلماً وقفوا عليـه. ومما يؤسف له أن بطانة السوء استولت على مقاليد الـدولة في آخرهـا، فسـاء الحال، وانتشرت الفوضى في تعز على يد الشفاليت. وفي زبيد بسبب العـوارين، وكلهم من الرعاع الذين لم يجدوا تربية ولم يتذوقوا عدلاً.

وانتهى أمر الرسوليين سنة ٨٥٨. وقامت دولة الطاهريين، وهـم من أصل يمني، ومقرهم ببلاد رداع، وكان في ملوكهم العادل العالم أمثال: الملك المجـاهد علي بن طاهر الذي ذكر له الـديبع مـواقف طيبة في العـدل، وانتهى أمرهم سنـة ٩٢٣ هـ. بسقـوط صنعـاء في يـد الغـوريـين، الـذين قـدمـوا أصـلاً لمـطاردة البرتغاليين، وصدهم عن جزيرة العرب. ثم قدم العثمانيون من بعدهم، وتغلبوا على سائر البلاد.

ومع تقديرنا للخدمات الجلى التي أسداها سلاطين آل عثمان للإسلام، إلا أن بعـض ولا تهم كان يسـيء بتصرفاته إلى دينه الـذي ينتسب إليه والـدولة التي يحمل علمها، كما كان فيهم الفضـلاء الصالحـون. وانتهى أمر العثـمانيين أوائـل القـرن الحادي عشر بقيـام الدولـة القاسميـة، التي كـان إمـامهـا العـادل المؤيـد

محمد بن القاسم بن محمد، خامس خمسة وحدوا اليمن الطبيعية في عهد الإسلام.

واستمرّ نفوذ القاسميين التي ما بعد سنة ١٣٥٠[1]، وهو منتهى الاشراق الثاني الذي نحن بصدده.

ونختتم حديثنا عن الحالة السياسية والإدارية باليمن بما ذكره الرحالة ابن بطوطة عن مشاهداته لليمن وتعليقاته عليها، وإن كان قد وهم في بعض أسماء البلدان، واهتم بالنساء أكثر مما ينبغي، فقد كان ـ رحمه الله ـ يحرص على الزواج في تنقلاته، وقد تم له ذلك بالهند.

اليمن بقلم ابن بطوطة

كان دخوله اليمن في عهد المجاهد علي بن المؤيد داود، حكمه بين ٧٢٣ إلى ٧٦٤ هـ. قال ص ٢٤٦ : «وبعد ستة أيام من خروجنا عن جزيرة سواكن وصل إلى مدينة حلي، وتعرف باسم ابن يعقوب. وكان من سلاطين اليمن ساكناً بها قديماً، وهي كبيرة وحسنة العمارة، يسكنها طائفتان من العرب، وهم بنو حرام وبنو كنانة. وجامع هذه المدينة من أحسن الجوامع، وفيه جماعة من الفقراء المنقطعين إلى العبادة، منهم الشيخ الصالح العابد الزاهد قبولة الهندي، من كبار الصالحين لباسه مرقعة وقلنسوة، وله لبد وله خلوة متصلة بالمسجد. فراشه الرمل، لا حصير بها ولا بساط. ولم أر بها حين لقائي له شيئاً إلا إبريق الوضوء وسفرة من خوص النخيل فيها كسر شعير يابسة، وصحيفة فيها ملح وسعتر، فإذا جاءه أحد قدم بين يديه ذلك، ويسمع به أصحابه فيأتي كل واحد منهم بما حضر من غير تكلف شيء، وإذا صلوا العصر اجتمعوا للذكر بين يدي الشيخ إلى صلاة المغرب، وإذا صلوا المغرب أخذ كل واحد منهم موقعه للتنقل، فلا يزالون كذلك إلى صلاة العشاء الأخرى، فإذا صلوا العشاء الأخرى أقاموا على الذكر

---

(١) انتهى حكم القاسميين بقيام الثورة سنة ١٣٨٢.

إلى ثلث الليـــل ثم انصرفـوا، ويعــودون في أول الثلث الثـالث إلى المسجــد، فيتهجـدون إلى الصبح، ثم يـذكرون إلى حـين صلاة الإشراق، فينصرفـون بعد صلاتها، ومنهم من يقيم إلى أن يصل صلاة الضحىٰ بالمسجد. وهـذا دأبهم أبداً. ولقد كنت أردت الإقامـة معهم باقي عمـري، فلم أوفق لذلـك، والله سبحانـه وتعالى يتداركنا بلطفه وتوفيقه.

ذكر سلطان حلي

وسلطانها عـامـر بن ذؤيب من بني كنـانـة، وهـــو من الفضـلاء الأدبــاء الشعـراء. صحبته من مكـة إلى جدة، وكـان قد حـج سنة ٣٠ هـ. ولما قدمت مـدينته أنـزلني وأكرمني، وأقمت في ضيـافته أيـاماً، وركبت البحـر في مركب لـه فوصلت إلى بلدة السرجة، بلدة صغـيرة، يسكنها جمـاعة من أولاد الهلبي، وهم طائفة من تجار اليمن أكثرهم ساكنون بصعـدة، ولهم فضل وكـرم وإطعام لأبنـاء السبيل، ويعينون الحجاج ويركبونهم في مراكبهم، ويـزودونهم من أموالهم. وقـد عُرفوا بذلك، واشتهروا به. وكـثر الله أموالهم وزادهم من فضله، وأعـانهم على فعـل الخير. وليس بـالأرض من يماثلهم في ذلـك إلا الشيخ بـدر الدين النقـاش الساكن ببلدة القحمة، فله مثـل ذلك من المـآثر والإيثـار. وأقمنا بـالسرجة ليلة واحدة في ضيافة المذكـورين، ثم رحلنا إلى مـرسى الحادث ولم ننـزل به، ثم إلى مرسى الأبواب، ثم إلى مـدينة زبيـد، مدينـة عظيمـة باليمن بينهـا وبين صنعـاء أربعون فرسخاً، وليس باليمن بعد صنعاء أكبر منها ولا أغنى من أهلهـا. واسعة البساتين وكثيرة المياه والفواكه من الموز وغيره، وهي برية لا شطية، إحدى قواعد بلاد اليمن، مدينة كبيرة كثيرة العمارة، بها النخل والبسـاتين والميـاه، أصلح بلاد اليمن وأجملهـا. ولأهلها لـطافـة الشـمائـل، وحسن الأخـلاق، وجمـال الصـور، ولنسائها الحسن الفائق الفائت. وهي وادي الحصيب الذي يذكر في بعض الآثار أن رسـول الله ﷺ قـال لمعـــاذ في وصيتـه: «يـــا معـاذ إذا جئت وادي الحصيب

فهرول». ولأهل هذه المدينة سبوت النخل المشهورة. وذلك أنهم يخرجون في أيام اليسر والرطب في كل سبت إلى حدائق النخل، ولا يبقى في المدينة أحد من أهلها ولا من الغرباء، ويخرج منها أهل الطرب وأهل الأسواق لبيع الفواكه والحلاوات، وتخرج النساء ممتطيات الجمال في المحامل، وهن مع ما ذكرناه من الجمال الفائق، والأخلاق الحسنة، والمكارم. وللغريب عندهن مزية، ولا يمتنعن من تزوجه كما يفعله نساء بلادنا. فإذا أراد السفر خرجت معه وودعته، وإن كان بينهما ولد فهي تكفله وتقوم بما يجب له إلى أن يرجع أبوه، ولا تطالبه في أيام الغيبة بنفقة ولا كسوة ولا سواها. وإذا كان مقيماً فهي تقنع منه بقليل النفقة والكسوة، لكنهن لا يخرجن عن بلدهن أبداً. ولو أعطيت إحداهن ما عساه أن تعطاه على أن تخرج من بلدها ما لم تفعل. وعلماء تلك البلاد وفقهائها أهل إصلاح ودين وأمانة ومكارم وحسن خلق. لقيت بمدينة زبيد الشيخ العالم الصالح أبا محمد الصنعاني والفقيه الصوفي المحقق أبا عباس الأبياني، والفقيه المحدث أبا علي الزبيدي، ونزلت في جواره، فأكرموني، وأضافوني، ودخلت حدائقهم. واجتمعت عند بعضهم بالفقيه القاضي العالم أبا زيد عبد الرحمن الصوفي أحد فضلاء اليمن. وقع عنده ذكر العابد الزاهد الخاشع أحمد بن العجيل اليمني، وكان من كبار الرجال وأهل الكرامات.

كرامة الشيخ أحمد بن العجيل

ذكروا أن فقهاء الزيدية وكبراءهم أتوا مرة إلى زيارة الشيخ أحمد بن العجيل، فجلس لهم خارج الزاوية، واستقبلهم أصحابه، ولم يبرح الشيخ عن موضعه، فسلموا عليه وصافحهم ورحب بهم، ووقع بينهم الكلام في مسألة القدر، وكانوا يقولون: إن لا قدر وإن المكلف يخلق أفعاله. فقال لهم الشيخ: فإن كان الأمر على ما تقولون فقوموا عن مكانكم هذا، فأرادوا القيام فلم يستطيعوا، وتركهم الشيخ على حالهم ودخل الزاوية، وأقاموا كذلك واشتد بهم

الحر ولحقهم وهج الشمس وضجوا مما نزل بهم، فدخل أصحاب الشيخ إليه وقالوا له: إن هؤلاء القوم قد تابوا إلى الله ورجعوا عن مذهبهم الفاسد. وخرج عليهم الشيخ فأخذ بأيديهم إلى زاويته، فأقاموا في ضيافته ثلاثاً وانصرفوا إلى بلادهم. وخرجت لزيارة قبر هذا الرجل الصالح، وهو بقرية يقال لها غسانة خارج زبيد، ولقيت ولده الصالح أبا الوليد إسماعيل فأضافني، وبت عنده، وزرتُ ضريح الشيخ، وأقمت معه ثلاثاً، وسافرت في صحبته إلى زيارة الفقيه أبي الحسن الزيلعي، وهو من كبار الصالحين، ويقدم حجاج اليمن إذا توجهوا إلى الحج، وأهل تلك البلدة وأعرابها يعظمونه ويحترمونه. فوصلنا إلى جبلة، وهي بلدة صغيرة حسنة، ذات نخل وفواكه وأنهار. فلما سمع الفقيه أبو الحسن الزيلعي بقدوم الشيخ أبي الوليد استقبله وأنزله بزاويته، وسلمت عليه معه، وأقمنا عنده ثلاثة أيام في خير مقام ثم انصرفنا، وبعث معنا أحد الفقراء، فتوجهنا إلى مدينة تعز حضرة ملك اليمن، وهي من أحسن مدن اليمن وأعظمها، وأهلها ذوو تجبر وتكبر وفظاظة، وكذلك الغالب على البلاد التي يسكنها الملوك. وهي ثلاث محلات. إحداها يسكنها السلطان ومماليكه وحاشيته وأرباب دولته وتسمى باسم لا أذكره، والثانية يسكنها الأمراء وتسمى عدينة، والثالثة يسكنها عامة الناس وبها السوق العظمى، وتسمى المحالب.

ذكر سلطان اليمن

وهو السلطان المجاهد نور الدين علي بن السلطان المؤيد هزبر الدين، داود بن السلطان المظفر يوسف بن علي بن رسول[1]. شهر جده برسول؛ لأن أحد خلفاء بني العباس أرسله إلى اليمن ليكون بها أميراً، ثم استقل أولاده بالملك. وله ترتيب عجيب في قعوده وركوبه. وكنت لما وصلت هذه المدينة مع الفقير الذي بعثه الشيخ الفقيه أبو الحسن الزيلعي في صحبته، قصد بي إلى

---

(١) الصحيح هو: المظفر يوسف بن عمر بن رسول.

قاضي القضاة الإمام المحدث صفي الدين الطبري المكي، فسلمنا عليه ورحب بنا وأقمنا بداره في ضيافته ثلاثاً. فلما كان في اليوم الرابع وهو يوم الخميس وفيه يجلس السلطان لعامة الناس، دخل بي عليه فسلمت عليه. وكيفية السلام عليه أن يمس الإنسان الأرض بسبابته، ثم يرفعها إلى رأسه ويقول: أدام الله عزك، ففعلت كمثل ما فعله القاضي، وقعد القاضي عن يمين الملك وأمرني، فقعدت بين يديه، وسألني عن بلادي وعن مولانا أمير المسلمين جواد الأجواد أبي سعيد رضي الله عنه، وعن ملك مصر وملك العراق وملك اللور، فأجبته عما سأل من أحوالهم. وكان وزيره بين يديه فأمره بإكرامي وإنزالي؛ وترتيب قعود هذا الملك أنه يجلس فوق دكانة مفروشة مزينة بثياب الحرير، وعن يمينه ويساره أهل السلاح، ويليه منهم أصحاب السيوف والدرق، ويليهم أصحاب القسي، وبين أيديهم في الميمنة والميسرة الحاجب وأرباب الدولة وكاتب السر، وأمير جندار على رأسه، والشاوشية وهم من الجنادرة وقوف على بعد. فإذا قعد السلطان صاحوا صيحة واحدة: بسم الله، فإذا قام فعلوا مثل ذلك، فيعلم جميع من بالمشور وقت قيامه ووقت قعوده. فإذا استوى قاعداً دخل كل من عادته أن يسلم عليه، فسلم ووقف حيث رُسِمَ له في الميمنة أو الميسرة، لا يتعدى أحدٌ موضعه ولا يقعد إلا من أمر بالقعود. يقول السلطان للأمير جندار: مر فلاناً يقعد. فيتقدم ذلك المأمور بالقعود عن موقفه قليلاً، ويقعد على بساط هناك بين أيدي القائمين في الميمنة والميسرة، ثم يؤتى بالطعام، وهو طعامان: طعام العامة وطعام الخاصة، فأما طعام الخاص فيأكل منه السلطان وقاضي القضاة والكبار من الشرفاء ومن الفقهاء والضيوف، وأما الطعام العام فيأكل منه سائر الشرفاء والفقهاء والقضاة والمشايخ والأمراء ووجوه الأجناد. ومجلس كل إنسان للطعام معين لا يتعداه، ولا يُزاحم أحد منهم أحداً. وعلى مثل هذا الترتيب سواء هو ترتيب ملك الهند في طعامه. فلا أعلم أن سلاطين الهند أخذوا ذلك عن سلاطين اليمن، أم سلاطين اليمن أخذوه عن سلاطين الهند. وأقمت في ضيافة

سلطان اليمن أياماً، وأحسن إليّ، وأركبني وانصرفت مسافراً إلى مدينة صنعاء. وهي قاعدة بلاد اليمن الأولى، مدينة كبيرة حسنة العمارة، بناؤها بالآجر والجص، كثيرة الأشجار والفواكه والزرع، معتدلة الهواء، طيبة الماء. ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة إنما ينزل في أيام القيظ، وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان. فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر، وأهل المدينة ينصرفون إلى منازلهم، لأن أمطارها وابلة متدفقة. ومدينة صنعاء مفروشة كلها فإذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها. وجامع صنعاء من أحسن الجوامع، وفيه قبر نبي من الأنبياء عليهم السلام. ثم سافرت منها إلى مدينة عدن، مرسى بلاد اليمن على ساحل البحر الأعظم، والجبال تحف بها. ولا مدخل إليها إلا من جانب واحد. وهي مدينة كبيرة، ولا زرع بها ولا شجر ولا ماء، وبها صهاريج يجتمع فيها الماء أيام المطر، والماء على بعد منها. فربما منعته العرب وحالوا بين أهل المدينة وبينه حتى يصانعوهم بالمال والثياب. وهي شديدة الحر، وهي مرسى أهل الهند، تأتي إليها المراكب العظيمة من كنبايت وتانه وكولم وقالقوط وفندرانية والشاليات ومنجرود وفاكنور وهنور وسندابور، وغيرها. وتجار الهند ساكنون بها وتجار مصر أيضاً. وأهل عدن ما بين تجار وحمالين وصيادين للسمك، وللتجار منهم أموال عريضة، وربما يكون لأحدهم المركب العظيم بجميع ما فيه لا يشاركه فيه غيره لسعة ما بين يديه من الأموال، لهم في ذلك تفاخر ومباهاة.

حكاية كبش يعتق عبداً

ذكر أن بعضهم بعث غلاماً له ليشتري له كبشاً، وبعث آخر منهم غلاماً له برسم ذلك أيضاً. فاتفق أنه لم يكن بالسوق في ذلك اليوم إلا كبش واحد، فوقعت المزايدة فيه بين الغلامين، فأنهى ثمنه إلى أربع مئة دينار، فأخذه أحدهما وقال: إن رأس مالي أربع مئة دينار، فإن أعطاني مولاي ثمنه فحسن، وإلا دفعت فيه رأس مالي ونصرت نفسي وغلبت صاحبي. وذهب بالكبش إلى

سيده، فلما عرف سيده بالقضية أعتقه وأعطاه ألف دينار، وعاد الآخر إلى سيده خائباً فضربه وأخذ ماله ونفاه عنه. ونزلت في عدن عند تاجر يعرف بناصر الدين الفاري، فكان يحضر طعامه كل ليلة نحو عشرين من التجار، وله غلمان وخدام أكثر من ذلك، ومع هذا كله فهم أهل دين وتواضع وصلاح ومكارم أخلاق، يحسنون إلى الغريب ويؤثرون على الفقير ويعطون حق الله من الزكاة على ما يجب. ولقيت بهذه المدينة قاضيها الصالح سالم بن عبد الله الهندي، وكان والده من العبيد الحمالين، واشتغل ابنه بالعلم فرأس وساد، وهو من خيار القضاة وفضلائهم. أقمت في ضيافته أياماً» ا. هـ.

وإنه لنص طويل، ولكنه مع طوله ممتع جميل. ومما وهم فيه اسم الشرجة، حيث أوردها بالسِّين المهملة. ويحمل هذا الاسم مكانان بتهامة، أولهما جهة حرض، والثاني بين زبيد وحيس[1]، والأول هو المقصود الذي عناه ابن بطوطة. ووهم أيضاً في نسبة المحالب إلى تعز، بينما هي قرية كانت تعرف بجهة وادي مورو الموجود بتعز حينذاك هو المحاريب أحد أحياء تعز في عصر الرسوليين.

الأفق الروحي والعلمي

أبرز مميزات اليمن في إشراقها الأول هو سبق إيماني، وتفوق جهادي، وريادات علمية مررنا بتفاصيلها فيما سلف. وأبرز مميزات إشراقها الثاني هو تألق روحي توهجت به قناديل الهداية الروحية من كبار أولياء اليمن، الذين كان إشراقهم مع مطلع القرن السابع الهجري، وتوالى فيما لحقه من القرون. وأصالة اجتهادية أضيئت بها مصابيح الهداية العلمية طوال السبعة قرون إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري، بارزة في أعلام اليمن المجتهدين والمتابعين في نسق، حتى كان خاتمتهم وصاحب لوائهم إمام السنة لعالم الإسلام كله حتى

(١) من شرجة حيس آل الحشابج ترجم لبعضهم السخاوي والشرجي وهو جدهم أحمد الحشابج صاحب المنية وصاحب القصة مع علي الفرس.

منتصف القرن الثالث عشر، شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني، رضي الله عنه وأرضاه. وبسبب من تعانق الإمامة الروحية والإمامة العلمية في أكثر من شخص وأكثر من مكان خلال هذا الإشراق، كانت صعوبة الفصل في الحديث عن الأولياء والعلماء؛ إذ أنه لا يكاد يخلو ولي من علم، ولا يخلو عالم من ولاية، إذا عرفنا الولاية بمعناها الحقيقي، وهو كمال الإيمان والتقوى. ولما كان التشيع الغالي مجافياً للجادة والاعتدال، مصادماً للسنة، كان طبيعياً أن نرى أمثال أبي الغيث بن جميل ـ رضي الله عنه ـ يفارق السراة ويستقر ببيت عطاء، جهة المهجم قريباً مما يعرف اليوم بالزيدية. ونرى محمد بن إبراهيم الوزير ـ رضي الله عنه ـ يفارق أهله ونزله إلى رؤوس الجبال وبطون الأودية، ونرى عبد الهادي السودي ـ رضي الله عنه ـ يغادر دولة شرف الدين إلى دولة الطاهريين؛ إذ أن أنسب المناخات لأصحاب القلوب ورجال الحق، هي الجهة التي تسودها السنة وتنعدم فيها العصبية الضيقة.

وإيضاحاً لحق مغموط، وتصحيحاً لفهم مغلوط عن تاريخ صنعاء الفكري، فقد أوضحنا في الإشراق الأول عراقة السنة فيها. واستمرارها بها حتى مطلع القرن السابع.

وسنرى في الإشراق الثاني كيف أن السنة استطاعت مقاومة موجات التشيع الغالي والاعتزال، واحتفظت بمكانتها المتينة السامية طوال القرون من السابع الى الثالث عشر، رغم ضيق أفق البعض وتجنياتهم.

وسنستعرض هنا ـ إجمالاً ـ النشاط الروحي والعلمي في صنعاء ثم في زبيد ثم في الجند ثم في عدن وحضرموت، ونبدأ بصنعاء.

وأول من يرد في الذكر هو قاضيها الصالح محمد بن أحمد بن مضمون. توفي سنة ٧١٤ هـ، وهو من إب التي أقام بها منار السنة. واشتدت وطأته على الإسماعيلية، فبذلوا الأموال لعزله عن القضاء، وسنعود فيها بعد لتفصيل خبره وخبر أبيه.

وهذا هو عبد المؤمن بن عبد الله البارقي النهمي، كان عتيداً في الإسماعيلية فهداه الله إلى السنة، فتاب على يد قاضي صنعاء عمر بن سعيد الربيعي، واعتكف بجامع صنعاء أربعين سنة تالياً للقرآن، متمسكاً بمذهب الشافعي. توفي سنة ٧٢٠.

وهذا هو مفتي صنعاء على مذهب الشافعية أحمد بن محمد بن علي بن عبد الحميد المتابي نسبة إلى جبل سور المتاب، الذي اتخذه منصور حوشب منطلقاً لدعوة الإسماعيلية. فكان هذا العالم الجليل من ذريته الذين تحولوا من السمعلة إلى السنة، واعتنقوا مذهب الشافعي. توفي سنة ٧٠٢ هـ.

وشخصية أخرى ذات قدم راسخ في العلم أحمد بن البنّا من ظفار الأشرف. تحول من المذهبية إلى الإجتهاد، عاش في القرن السابع.

وهذا هو الإمام محمد بن يحيى السراجي يتلقى دراسته على يد الولي الكبير أحمد بن موسى العجيل ببيت الفقيه، فيرضع لبان السنة من صغره، ويشب ويشيب ناشراً لعلومهما هاجراً ما سواهما. وكانت تقصده فتاوى أهل صنعاء وغيرها، فيفتي باجتهاداته غير متقيد بمذهب.

ومن أعلام السنة بصنعاء في القرن السابع هو قاضيها الشهير عمر بن سعيد الربيعي. جمع بين قضاء صنعاء وإب، وكانت توليته القضاء بأمر الخليفة العباسي، وأفرد له ابن الفراء الصنعاني كتاباً في ترجمته. توفي سنة ٦٨٤ هـ.

ثم جاء في القرن الثامن الإمام الأكبر محمد بن إبراهيم الوزير وأخوه الهادي ومحمد بن يحيى الخولاني، وسائر من ذكرهم البريهي في طبقاته عن مجتهدي صنعاء وما إليها.

وظهر في القرون الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر أئمة للاجتهاد وأعلام، كالحسن بن أحمد الجلال وأخيه وولده، وصالح بن مهدي المقبلي والإمام محمد بن إسحاق بن المهدي وأخيه الحسن وولده إسماعيل، وإسحاق بن يوسف

والإمام المهدي العباس بن المنصور الحسين، والقاضي الحسن بن إسماعيل المغربي وقاضي القضاة السيد أحمد بن عبد الرحمن الشامي، والوزير حسن بن علي حنش والفقيه الصالح السيد صلاح الأخفش، والإمام عبد القادر بن أحمد وعبد القادر المحيرسي وعبد القادر البدري، ثم إمام الأئمه محمد بن علي الشوكاني وأخيه وولديه. هذه إلمامة عجلاء بمن تبادر إلى الذهن ذكرهم، من فضلاء صنعاء وعلمائها وما اليها، ومن فاتني ذكرهم كثيرٌ أوردناهم لنعلم الحصيلة الضخمة التي نصر الله بها السنة في ذلك الصقع المبارك.

وكما يظن بسنية صنعاء الظنون، فإن الكثيرين يتوهمون خلوها من الأولياء ذوي الكرامات الظاهرة. ولو رجع الناس إلى أصول دينهم لعلموا أن كل من تحقق بالإيمان والتقوى فهو الولي الكامل، وكل من أسلفنا ذكرهم جمعوا بين الدين المتين والعلم والعمل. ونضيف إليهم من يحضرني ذكرهم من أولياء تلك البقعة المباركة، إمام أولياء اليمن إبراهيم بن أحمد الكينعي والولي الشهيد أحمد بن زيد الشاوري وعبد الهادي السودي، وأحمد الراعي صاحب نقم، وإبراهيم بن خالد العلفي والحسن بن علي الشامي والحسن بن علي الحداد، وأحمد محمد قاطن وهاشم بن يحيى الشامي، وإبراهيم بن محمد الأمير وولده علي بن إبراهيم والجمال ناصر غليس. وعلى ذكر هذا الأخير نورد الحديث الصحيح «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره» فمع كونه أمياً إلاَّ أن الواقف على ترجمته يعرف من شواهد حاله، أنه كان من أصحاب القلوب المحفوظين، ولا نزكي على الله أحداً.

زبيد

أم تهامة ومركز إشعاعها. انتشر خيرها إلى سائر جبال السراة المطلة على تهامة شرقاً، وإلى سواحل إفريقيا المطلة على البحر الأحمر غرباً. وأحاطت بها وعلى مقربة منها بامتداد سهول تهامة من حلي بن يعقوب شمالاً إلى موزع جنوباً، كثير من المراكز العلمية المتصلة بها، والآخذة عنها، والمضيفة إليها. ففي

مطلع القرن السابع الهجري وما تلاه حتى القرن الثالث عشر قامت سوق للعلم رائجة، وكراسي للتدريس مباركة في حرض، وعلى رأسها صاحب البهجة يحيى العامري، وأبيات حسين بجهة وادي مور، والمهجم والضحي بجهة سردد، وعلى رأس هذين المركزين شيخ شيوخ أولياء اليمن أبو الغيث بن جميل، وقاضي قضاة بني رسول العلامة الولي إسماعيل بن محمد الحضرمي، وقد بارك الله في عقبه أجيالاً كثيرة. يلي ذلك جنوباً الكدراء التي خلفتها من بعد المراوعة بوادي سهام، ثم مدينة الولي الكبير والعلامة الشهير أحمد بن موسى العجيل، وبارك الله في عقبه أجيالاً. فإذا ما وصلنا إلى زبيد وجدنا الولي الكبير عيسى بن إقبال الهتار من علماء وأولياء القرن السابع وحفيده طلحة. ولا تزال لهم بقية صالحة حتى اليوم. والشيخ الولي علي أفلح الذي يقوم مسجده حتى اليوم في الشمال الشرقي قريباً من زبيد، وعلى يده تخرج أبو الغيث بن جميل. وعلى ذكر الشيخ أفلح يرد ذكر معاصره الولي المبارك العقب علي الأهدل. وقد امتلأت مدن تهامة ووديانها بل وبعض جبال السراة بنسله المبارك. وإلى جانب هؤلاء ومعهم الشيخ إسماعيل الجبرتي العلامة الولي أبو بكر الحداد. وما أكثر أولياء الحصيب وفضلائها! فلا يستوعبهم ذكر ولا يحيط بهم حصر. وإلى جنوب زبيد تقوم مدينة حيس وسلامتها.

ومن كبار علماء حيس وأوليائها الذين كان لهم باع طويل في العلم والتعليم والتأليف والعمل، أبو عمران موسى بن محمد الطويري[1] وأحمد بن حسن أبو الخل، الذي عرض عليه المظفر قضاء تهامة العام فأباه، وأبو بكر الزيلعي الذي كان ينفق على أربعين طالباً ويربيهم بمدرسته، وهو صاحب (الجواهر البهية في مدح خير البرية). ويرجع نسبه إلى عقيل بن أبي طالب.

ومن علماء حيس وأوليائها المشايخ من آل أبي الحياء، ويرقى نسبهم إلى

---

(١) سبقت ترجمته ص ٤٧٣.

الأشعريين. وقد أفردهم عبد الملك بن دعسين بكتاب أسماه (إتحاف الأذكياء بمناقب آل أبي الحياء).

واشتهر من علماء الخوخة آل الشيباني، ومنهم حسن بن أبي بكر الشيباني. ترجمة ابن سمرة الجعدي والجندي. كما ترجم البريهي الكثير من أولياء وعلماء حيس وسلامتها والخوخة. فإذا ما انتقلنا إلى موزع وجدنا علامتها الشهير محمد بن نور الدين الموزعي، صاحب تفسير آيات الأحكام في القرآن وغيرها. وقد أورد البريهي الكثير من صلحاء موزع وفضلائها. ويوجد في ريمة الجبل المشهور بخصبه وكثرة خيراته، ضريح الولي محمد بن موسى النهاري. وقد بارك الله في عقبه، كما بارك في عقب الأهدل، فهم يملؤون الكثير من الجهات التابعة لتعز وتهامة. ومن الأسر التهامية المباركة السادة الحسينيون من آل القديمي. وأصلهم بالزيدية، وانتشروا منها إلى غيرها.

أما العلماء المؤلفون أمثال الإمام أبي بكر إسماعيل بن المقري صاحب (الإرشاد) و (عنوان الشرف)، وابن الخطاب صاحب (النويدرة) الذي كان يجيد عشرين علماً، والحافظ عبد الرحمن بن الديبع صاحب (تيسير الوصول)، وغيرهم من بيوتات العلم المشهورة، كآل جعمان والشرجي والناشري والمطيب والمزجد والمزجاجي، فسنذكرهم - إن شاء الله - في مكانه.

وفي مقدمة من يجب ذكره والتنويه بأمره من أسر تهامة العلمية، هم آل زكريا الذين شهد لهم الشيخ إسماعيل الحضرمي أنهم أصحاب فضلٍ على أغلب طلاب العلم في اليمن.

الجند

هذا هو المركز الإشعاعي الثالث باليمن. كان مؤسسه الأول معاذ بن جبل رضي الله عنه، كما أسلفنا. وفي عرصاته قام زيد اليفاعي وزيد الفائشي ويحيى ابن أبي الخير العمراني، الذي أسلفنا ذكرهم. أما في الإشراق الثاني وقد قامت

الدولة الرسولية مشجعة العلم، مكرمة الأولياء، فإن أنفاس هذه الجهة ازدادت أرجاً، وأضواءها ازدادت تألقاً. فمن كبار علمائها وأوليائها: عمر بن سعيد العقيبي، وله أخبار طيبة في توبة الضالين، وهداية الغاوين، سنقف عليها في مكانها. ومنهم محمد المأربي، وسنذكر خبره مع اليهودي طبيب السلطان عمر بن رسول في ترجمته. ومنهم أبو بكر محمد الحميدي وكرامته في مسجد الذنبتين، ومنهم محمد بن أحمد بن جديل علامة سهفنة، وعبد الرحمن بن حديق وفتواه للسلطان عمر بن رسول. وهي تذكرنا بفتوى يحيى بن يحيى الليثي لملك الأندلس عن كفارة إتيانه لزوجته في نهار رمضان. وقل أن يذكر ذاكرٌ علماء وأولياء تعز، ولا يخطر بباله إمامهم ومقدمة صفهم. الشيخ الولي أحمد بن علوان صاحب المواقف الحميدة في وعظ ملوك بني رسول، والدفاع عن الضعفاء. وكذا أبو الحسن الحميري صاحب الأسانيد العالية والذيل على طبقة ابن سمرة، وعلي بن عبد الله صاحب المقداحة، وكيف هدى الله به الناس عامة، وأبو بكر اليحيوي وخدماته للوقف، وآل اليحيوي بيت مبارك لهم علمٌ وعمل، وأبو الحسن الأصبحي صاحب كتاب (المعين)، وهو في الآخرين بمثابة أبي الخير العمراني في الأولين. وأحمد بن علي السرددي علامة تعز وما إليها من الجبال، وإبراهيم بن مفلت شيخ مشايخ الجند، وعلامة ذي أشرق وقاضيها علي بن محمد بن الجنيد، والولي الأعظم بن مدافع وخبره مع السلطان الأيوبي، وهو أحد مشايخ أبي الغيث بن جميل والقاضي الصالح محمد الرياحي الأبي وقيامه في الشفاعة للضعفاء، وحرصه على الودائع، والعلامة الكبير إسماعيل الخلي قال عارفوه: إنه لا يوجد في الجهات الواقعة شرقي الجند مثله. والعلامة الكبير محمد بن عبد الرحمن البريهي الذي يقال: إنه كان أعلم علماء الجند في عصره، وآل البريهي من بيوتات العلم والصلاح في جهتهم.

أما أبرز من أنجبته جهات الجند وإب في القرون المتأخرة، فهو شيخ الإسلام عبد العزيز بن محمد الحبيشي الأبي ويعرفون باسم بيت المفتي. توفي رحمه

الله أوائل القرن الحادي عشر، وله الفتاوى المشهورة بالجهة باسم (الفتاوى الحبيشية) لا تزال مخطوطة. ومن صلحاء جهة إب والجند العلماء الفضلاء من آل الشنيني، وقد أفاض البريهي في ترجمتهم بطبقاته.

عدن

من البقاع المباركة بإقليم عدن وحضرموت تريم، وقد أسلفنا أنها من المدن الإسلامية في اليمن، لاختطاطها في عهد الصديق. وأبين وهو الوادي المبارك المذكور بكثرة علمائه، وخصب أرضه. وبيحان: وهي مهبط حفاظ القرآن الكريم والسنة النبوية، وقد مر بنا فيها سلف خبر الإمام أحمد بن حنبل مع حافظها الحكم بن إبان، وخبر الحافظ أبي قرة موسى بن طارق الرعرعي، وشيخ شيوخها في القرن السابع محمد بن علي القلعي. المدفون بمرباط، وقد سبقت ترجمته، وكبير أدبائها على الإطلاق هو أبو بكر العندي، توسع الجندي في ترجمته. ومن علمائها الشيخ عمر بن مسعود الأبيني أحد تلامذة الفقيه إسماعيل الحضرمي، ومنهم أيضاً إبراهيم القريضي وعمر الظفاري وعبد الرحمن الأبيني وعمر بن أفلح الأبيني، ومنهم أيضاً أبو العباس القزويني وأبو العباس بن الحواري وصقر التكريتي، ومن علمائها أيضاً عبد الله بن أبي بكر السعدي الأبيني، وله خبر طيب مع مشايخه من أولاد الفقيه إسماعيل الحضرمي، ومن زهادها أبو بكر الجنيد، وخبره مع البدلة الواحدة. ومن أسخى تجارها وأشهر علمائها علي بن حجر. وممن تولى قضاءها العلامة الفلكي الحاسب محمد بن إبراهيم الجلاد. هذا ويعد الولي المشهور العيدروس وآل العلوي وآل باوزير من جلة علمائها وفضلائها.

الولاية مفهومها وإصلاحاتها

من القضايا التي دار حولها جدل كثير واختلاف كبير في المجتمع الإسلامي قديماً وحديثاً موضوع الولاية، التي يساء فهمها لدى بعض الأقدمين وبعض المحدثين.

وجماع القول فيها: إن القرآن الكريم قد حددها، وأورد صوراً من أحوالها. فالحق سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُون. الَّذِينَ آمَنُوا وَكانُوا يَتَّقُون﴾ فالإيمان والتقوى هما معنى الولاية الحقة، أما ما أعده الله سبحانه لأوليائه من كرامات في الدنيا والآخرة، ففي القرآن تفصيل ذلك وإجماله، فقد رأينا في سورة آل عمران ما أفاض الله به على مريم البتول من التكريم: ﴿كُلَّما دَخَلَ عَلَيْها زَكَرِيا المحرابَ وَجَدَ عِنْدها رِزْقاً، قَالَ: يا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هٰذا؟ قَالَتْ: هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ. إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. كما رأينا في سورة الكهف من خبر موسى وصاحبه الخضر عليهما السلام، وما آتى الله عبده خضراً من العلم اللدُّني، بما فصلته السورة الكريمة في مواقفها الثلاثة مع أصحاب السفينة، ومع الغلام، ومع الجدار المدخور تحته الكنز. وللعلماء خلاف حول الخضر أنبي هو؟ أم ولي وحي أم ميت؟ ومهما يكن، فمجمل المستفاد من خبرهما أن لله عباداً أفاض عليهم من علمه، وكشف لهم من غيبه. ولله في خلقه شؤون.

أما السنة الكريمة فقد عرفنا خبر الصحابي الأسير خبيب بن زيد، وأقطاف العنب التي كانت تأتيه في غير وقت أثمارها. وخبر حارثة بن النعمان الذي قال له النبي ﷺ لما سمع خبره: «عرفت فالزم». كما أنه مر بنا خبر العباد الصالحين أصحاب النور: الطفيل بن عمرو وأسيد بن حضير والأسود بن يزيد.

والحق أن الجهاد والاشتغال بنشر الدعوة جعل الصدر الأول من الصحابة والتابعين لا يعنون بما كان يعرض لهم من كرامات أو يطيف بهم من حال.

ولما كان القرن الثاني وأصبح الملك عضوضاً واستبحر العمران وأقبلت الدنيا على أهلها، ظهر الصوفية بهذا الاسم ـ ولأول مرة ـ ليحققوا توازناً في المجتمع بزهدهم ومجاهداتهم؛ لتعويض العامة ما فقدوه من توجيه الدولة ورعايتها، وانتشالهم من أوحال الشهوات المحيطة بهم.

ثم لما كان القرن الثالث وما تلاه وتحولت علوم الشريعة فيه إلى معرفة عقلية بحتة، وتحول علم أصول الدين إلى جدليات منطقية، وخلافات بيزنطية، كان لا بد لعباد الله الصادقين من إلهاب شعلة العاطفة وإطلاق أشواق الروح، حتى بلغ الأمر ببعضهم إلى المجاهدة لإماتة قوى الغرائز الحسيِّة، ولكن التوجه كله كان في نطاق الكتاب والسنة، كما هو معروف من أخبار ابن المبارك وأبي القاسم الجنيد والفضيل ومعروف الكرخي وأمثالهم. وهذا الصنف السابق الصادق هو الذي أجمعت الأقوال على تحبيذ الاقتداء به، والتطلع إلى آفاقه، حتى إن ابن الجوزي ـ وهو من كبار منكري الابتداع ـ وضع كتابه (صفة الصفوة) حول ذات الموضوع. وكذلك كان موقف شيخ الإسلام ابن تيمية في الشام وأبي بكر بن المقري في اليمن، ولكن تصورات الفلاسفة وجدليات المناطقة وتقسيمات الباطنية تسللت إلى ذلك الصعيد النقي، فاندست فيه وشوهت ألقه وعبقه بابتداعاتها وانحرافاتها، وظهر في التصوف ما ظهر، مما أهاج غيرة علماء الشريعة، وأطلق عقائدهم بالنكير. وكان أحسن ما قيل في ذلك وأجمعه لأقوال الأطراف، وأقر به من الحق والإنصاف بدون تحامل على أحد، هو ما ذكره العلامة ابن خلدون رحمه الله في ختام كلامه عن التصوف. قال:

ثم إن هؤلاء المتأخرين من المتصوفة المتكلمين في الكشف وفيما وراء الحسّ، توغلوا في ذلك، فذهب الكثير منهم إلى الحلول والوحدة ـ كما أشرنا إليه ـ وملؤوا الصحف منه، مثل الهروي في كتاب المقامات له، وغيره. وتبعهم ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العفيف وابن الفارض والنجم الإسرائيلي في قصائدهم. وكان سلفهم مخالطين للإسماعيلية المتأخرين من الرافضة، الدائنين

أيضاً بالحلول وإلهية الأئمة مذهباً لم يعرف لأولهم. فأشرب كل واحدٍ من الفريقين مذهب الآخر، واختلط كلامهم، وتشابهت عقائدهم، وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب، ومعناه رأس العارفين. يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة، حتى يقبضه الله ثم يورث مقامه لآخرين أهل العرفان.

وقد أشار إلى ذلك ابن سيناء في كتاب (الإشارات) في فصول التصوف منها. فقال: جلَّ جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد، أو يطلع عليه إلا الواحد بعد الواحد. وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل شرعي، وإنما هو من أنواع الخطابة، وهو بعينه ما تقوله الرافضة. ودانوا به ثم قالوا بترتيب وجود الأبدال بعد هذا القطب، كما قال الشيعة في النقباء، حتى إنهم لما أسندوا لباس خرقة التصوف ليجعلوه أصلاً لطريقهم وتخليهم، رفعوه إلى علي رضي الله عنه، وهو من هذا المعنى أيضاً، وإلا فعلي رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخليه ولا بطريقته في لباس ولا حال، بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله ﷺ، وأكثرهم عبادة. ولم يختص أحد منهم في الدين بشيء يؤثر عنه في الخصوص، بل كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة. يشهد لذلك من كلام هؤلاء المتصوفة في أمر الفاطمي، وما شحنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه كلام بنفي أو إثبات، وإنما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة مذاهبهم في كتبهم. والله يهدي إلى الحق. ثم إن كثيراً من الفقهاء وأهل الفتيا انتدبوا للرد على هؤلاء المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها، وشملوا بالنكير سائر ما وقع لهم في الطريقة.

والحق: إن كلامهم معهم فيه تفصيل، فإن كلامهم في أربعة مواضع: إحداها الكلام على المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجد ومحاسبة النفس على الأعمال، لتحصل تلك الأذواق التي تصير مقاماً ويترقى منه إلى غيره، كما قلنا.

وثانيها: الكلام في الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب، مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة والوحي والنبوة والروح، وحقائق كل موجود غائب أو شاهد، وتركيب الأكوان من صدورها عن موجودها وتكونها، كما مر.

وثالثها: التصرفات في العوالم والأكوان بأنواع الكرامات، ورابعها: ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم، يعبرون عنها في اصطلاحهم بالشطحات، تستشكل ظواهرها، فمنكر ومحسن ومتأول، فأما الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجد في نتائجها ومحاسبة النفس على التقصير في أسبابها، فأمر لا مدفع فيه لأحد، وأذواقهم فيه صحيحة، والتحقق فيه هو عين السعادة. وأما الكلام في كرامات القوم وأخبارهم بالمغيبات وتصرفهم في الكائنات، فأمر صحيح غير منكر، وإن مال بعض العلماء إلى إنكارها، فليس ذلك من الحقّ وما احتج به الأستاذ أبو إسحاق الإسفرائني من أئمة الأشعرية على إنكارها لالتباسها بالمعجزة، فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتحدي، وهو دعوى وقوع المعجزة على وفق ما جاء به. قالوا:

ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور؛ لأن دلالة المعجزة على الصدق عقلية، فإن صفة نفسها التصديق، فلو وقعت مع الكاذب لتبدلت صفة نفسها وهو محال. هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكثير من هذه الكرامات، وإنكارها نوع مكابرة. وقد وقع للصحابة وأكابر السلف كثير من ذلك، وهو معلوم مشهور. وأما الكلام في الكشف وإعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور الكائنات، ، فأكثر كلامهم فيه نوعٌ من المتشابه لما أنه وجداني عندهم وفاقد الوجدان عندهم، بمعزل عن أذواقهم فيه. واللغات لا تعطي له دلالة على مرادهم منه؛ لأنها لم توضع للمتعارف، وأكثره من المحسوسات، فينبغي ألا نتعرض لكلامهم في ذلك، ونتركه فيما تركناه من المتشابه. ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لظاهر الشريعة، فأكرم بها سعادة. وأما

الألفاظ الموهمة التي يعبرون عنها بالشطحات ويؤاخذهم بها أهـل الشرع، فاعلم أن الإنصاف في شأن القـوم أنهم أهل غيبـة عن الحس والواردات تملكهم، حتى ينطقوا عنهـا بما لا يقصـدونه. وصـاحب الغيبة غـير مخاطب، والمجبـور معذور. فمن علم منهم فضله واقتداؤه يحمل على القصد الحميد من هذا وأن العبارة عن المواجد صعبة لفقدان الوضع لها، كما وقع لأبي يزيد وأمثاله. ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر، فمؤاخذ بما صدر عنه من ذلك إذا لم يتبـين لنا مـا يحملنا عـلى تأويـل كلامه. وأما من تكلم بمثلها وهو صوفي حسي ولم يملكه الحـال، فمؤاخـذ أيضاً. ولهذا أفتى الفقهاء وأكابر المتصوفة بقتل الحلاج، لأنه تكلم في حضور وهو مالـك لحاله. والله أعلم.

وسلف المتصوفة من أهل الرسالة أعلام الملة الذين أشرنـا إليهم من قبل. لم يكن لهم حـرص على كشف الحجـاب ولا هذا النـوع من الإدراك، إنما همهم الاتبـاع والاقتداء مـا استطاعـوا. ومن عرض لـه شيء من ذلك أعـرض عنه ولم يحفـل به، بـل يفـرون منـه، ويـرون أنـه من العـوائق والمحن، وأنـه إدراك من إدراكات النفس مخلوق حادث، وأن المـوجودات لا تنحصر في مـدارك الإنسان، وعلم الله أوسع، وخلقه أكبر، وشريعته بـالهدايـة أملك. فلا ينـطقون بشيء مما يـدركون، بـل حظروا الخـوض في ذلـك، ومنعـوا من يكشف لـه الحجـاب من أصحابهم من الخوض فيه والوقوف عنده، بـل يلتزمون طـريقتهـم كما كـانوا في عـالم الحس قبل الكشف من الاتبـاع والاقتداء، ويـأمرون أصحـابهم بالـتزامها. وهكذا ينبغي أن يكون حال المريد والله الموفق للصواب. ا. هـ.

إصلاحاتها

ولعل القارىء يذكر موقف العبد الصالح الـذي أنكر عـلى أمراء المعتضـد العباسي ما رآه من اعتداء بعضهم على حرمات المواطن وماله، وما كـان من أمره له بالأذان إذا حيل بينه وبـين الوصـول إلى الخليفـة والحق أن تـاريخ التصـوف

الحق يشهد بموقفهم الإصلاحي في وجه انحرافات السلطة وتعجرفها. فعندما ولى المستضيء العباسي قاضياً سيىء السيرة أمر بغداد، وقف الولي الجليل عبد القادر الجيلاني يوبخ الخليفة على مشهد من الناس بأجرأ الكلمات وأصرحها، حتى رجع الخليفة عن توليته وأمر بعزله. ووقف الولي الصالح المصلح ابن سمعون واعظاً أكبر السلاطين السلاجقة، غير آبه بالسيف والنطع، حتى أبكاه وأعاده إلى الجادة. وفي اليمن كان لأحمد بن علوان مواقف عديدة جريئة من ملوك الرسوليين، منكراً مظالم ولاتهم، ومطالباً بصون الرعية والرفق بهم. وحين حدث للسلطان المنصور عمر بن رسول ما حدث مع زوجته في نهار رمضان، اجتمع مجلس العلماء للفتيا، وذهب بعضهم إلى كفارة العتق وكفارة الإطعام، تصدى ابن حديق ولي الجند وعلامتها، معلناً أن الكفارة وضعت للردع، وأنه في مثل رخاء الملك وقدرته على العتق والإطعام لا يصلح ردعاً لمثله إلا صيام شهرين، فأذعن الملك لفتواه وأعجب به. ذلك هو موقفهم الإصلاحي المربي من الضالين والخاطئين.

أمّا موقفهم من العامة فأقرب ما يحضرني منه الآن هو ذلك الموقف المعروف الذي وقفه أبو حنيفة النعمان من جاره الثمل الذي كان ينشد بجواره. فافتقده ليلة فلم يجده، فلما علم بحبسه ذهب لإطلاقه، فأطلقه الأمير هو ومن معه من المساجين إكراماً للإمام. وحين رأى الشاب عناية الإمام به عاهده على الإقلاع عن الخمر إلى الأبد.

وموقف أحمد بن رستم الأصبهاني من الخاطئة التي توسلت إليه بأن يسترها، ويسمح لها بادّعاء زواجها منه حتى لا تنفضح، فقبل، بل وأنفق على الوليد حتى توفاه الله. وأمثال هذا كثير في أخبارهم.

أما بالنسبة لأولياء اليمن فسنرى في أخبار العقيبي وصاحب المقداحة وابن حجر العدني وغيرهم، ما يغني عن أي تعقيب أو إضافة.

ومما ينبغي التنويه به هـو أن المسلم الحقيقي المتمثل في الصـوفي الحقيقي، يشمل بعطفه وحبه أصحاب دينه وغيرهـم، فهو طبيب الإنسـانية جمعـاً وحبيبها. ولعلنا نذكـر كيف أن عشرين ألفاً من اليهـود والنصارى والمجـوس أسلموا يـوم مات ابن حنبل للأثر البالغ الذي تركه زهد وتواضع وعـدل ابن حنبل. ومصلح كبير آخر حدث لوفاته مع أهل الملل الأخرى ما حصـل لابن حنبل، هـو مولانـا جلال الدين الرومي الذي كـان معاصراً لكبـار أولياء اليمن في القـرن السابـع، كالهتار وأبي الغيث والحضرمي وعلي أفلح والأهدل. نقتطف كلامـاً قيماً لسيـدنا أبي الحسن الندوي عن جلال الدين الرومي.

مع جلال الدين الرومي

قال أبو الحسن الندوي في كتابه: (رجال الدعوة والفكر) مستعرضـاً عصر مولانا جلال الدين وأقواله ص ٣٣٦: «لقد كان أكـبر اعتماد الفلسفـة والعقليات في هذا العصر على الحواس الظاهـرة، وقد كـانت الحواس الخمس تعتـبر الميزان الصحيح لثبـوت الحقـائق، وكـانت تعتـبر أوثق مصـدر وأقـواه لحصـول العلم الصحيح واليقين، وقد كان المثقفون ـ كما ذكرنا ـ يميلون إلى نفي كل ما لا يدرك بالحواس الخمس ولا يأتي تحت الحس، ويسرعون إلى إنكاره، ويتحاشون تقريره والاعـتراف به، وكـانت هي النزعـة السائـدة في المدارس والمجـالس. وقد كـان المعتزلة ومن نحا نحوهم أكبر الدعاة إلى هذه الفكرة التي نسميها (الحسية)، وقد أضعفت هذه الفكرة الإيمان بالغيب، وضعفت بتأثيرها الثقة بالحقائق الغيبية التي جاءت بها الشرائع وألحت عليها الأديان السماوية. وقد انتقـد جلال الـدين هذه النزعة وأنصارها في مثنوية بقوة وصراحة. يقول في موضع:

«إن الحسيـة: الاعتماد عـلى الحواس في تقـرير الحقـائق الدينيـة. يتزعمهـا المعتزلة، وهـم عبيد مسخرون لهـا، ويزعمـون أنهم من أهل السنـة، ولكن أهل السنة لا يتقيدون بهذه الحواس ولا يعكفون عليها عبادة وخضوعاً».

إنـه يقرر أن هنـاك حواسـاً باطنيـة وراء هذه الحـواس الظاهـرة. كنسبـه التراب والخزف إلى الذهب الخالص والتبر المسبوك، فقـوته الـظاهرة من الأبـدان والأشباح، وقوتـه الباطنـة من النفوس والأرواح، وأن قـوة الأولى الظلام الـذي فطرت عليه الأجسـام وقوة الآخـرة (الحواس البـاطنة) النـور الذي فـطرت عليه الأرواح والقلوب. إنـه يقرر أنـه لا يكفي لنفي شيء أنه لا يـرى بـالأبصـار ولا يدرك بالحواس الباطنة. إن الباطن دائماً كامن وراء المظاهر ومضمر فيه كالفائدة في الدواء.

يقول: «إن المنكر يقول دائماً: إني لا أرى إلا الظاهر، والظاهر دائماً يخبر بالحكم المضمر. ألا ترى إلى الأدوية النافعة كيف تكمن فيها فائدتها وتأثيرها؟».

يقول «إن الذين اعتمدوا على حواسهم الظاهـرة واقتصروا عليها وأنكـروا كل ما عداها، ضيعوا حواسهم الباطنية، وفقـدوا قواهم ومـواهبهم التي منحهم الله إياها، وأصبحوا محجوبين عميانـاً، لا يمشون إلا بعكـازة أو بقائـد يقودهم، وأصبح كثير من الحقائق والدقائق مستورة عنهم».

وظيفة العقل وحدوده: إنه لا يقتصر في نقده على الحـواس الظاهـرة، ولا يقدر قصورها وعجزها عن الوصول إلى الحقائق الغيبية فحسب، بل يشرك معها العقل أيضاً، ويقدر أيضاً أنه عاجز عن الوصـول إلى حقائق عـالم الغيب وعلوم الأنبياء؛ لأنه لا يملك أساساً وقاعدة للقياس في هذه المعلومات، ولا عهد له بهذا العالم الفسيح، عالم الغيب وعالم ما بعد الطبيعة، فمثله كمثـل رجل ولـد وعاش في البحر المالح، وليست عنده أية فكرة ولا تقدير للماء العذب الفرات.

يقـول في تهكم: «يا من يعيش في البحـر المالـح، مـاذا تعـرف عن الشط وجيحون والفرات؟!» إنه يسمي العقل الذي قيد نفسه بالمحسوسات والمقـدمات المنطقية بالعقل الجزئي المحدود، وهو عقل ثمرته الأوهام والشكوك، ووطنـه عالم الـظلمات. إنه عقـل كان عـاراً للعقل. وسبـه للعقـل والجهـل أفضـل من هـذا

العقل، ويفضل أن يتحرر الإنسان من أسره، ويحكم عاطفته وقلبه ولو سماه الناس مجنوناً. ويقول: لقد جربت هذا العقل طويلاً، هو العقل المحدود الذي لا يبصر إلا المحسوس، ولا يعقل إلا الظاهر الذي يسميه الناس (العقل الحكيم البعيد عن النظر). ومن جرّب تجربتي ثار مثلي على هذا العقل، وفضل الانطلاق من قيوده والخروج من حدوده، ولو كان هذا العقل كافياً في معرفة الحقائق الدينية، لكان فخر الدين الرازي زعيم المتكلمين أكبر العارفين والغواصين في أعماق الدين. ولكن الأمر ليس كذلك، فتفوقه في معرفة حقيقة الدين كان من تشبع بالإيمان واليقين، أولئك أصحاب محمد ﷺ، من أبر الناس قلوباً، وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً. ولم يقرؤوا كتاب حكمة، ولم يتلقوا درس فلسفة.

الاستدلال الفلسفي رجل خشبية: إنه يعتقد أنّ العلوم والتي اصطنعها الإنسان والحكمة التي نسبت إلى اليونان، لا تزيد الإنسان إلا بعداً عن الحقائق واشتغالاً عن الخالق، ولا تفيد إلا الجهل المركب وغروراً، وسرفاً وإعجاباً بالنفس، وإدلالاً بالألفاظ والقشور، فمن كان حريصاً على سعادته فليزهد في هذه الفلسفة التي سماها الناس عن جهل حكمة، فإن كل فلسفة هي وليد الخيال ولم تتنور بنور ذي الجلال، تولد الظن والشك، وتحجب عن الرب، أما الحكمة الملتقاة عن الأنبياء فمن أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً.

ويقدر أن الاستدلال المنطقي والفلسفي، وترتيب المقدمات والبراهين واستخراج النتائج، طريقة مصطنعة لا تفي بكل غرض، ولا تفيد في كل موضوع، ولا تساير كل سالك إنها أسلوب ضيق محدود، فمن اعتادها وتقيد بها وعاش عليها، كان كمن كانت له رجل من خشب لا يمشي بحرية ولا تنعطف بسهولة. وقد ذهب قوله مثلاً: «إن رجلاً من أصحاب الاستدلال المنطقي كانت له رجل من خشب، وإن الرجل الخشبية صلبية خشبية لا مرونة فيها ولا تمكين.

ويقول: «إن كلام هؤلاء المقلدين الذين يرددون دلائل الفلاسفة والمنطقيين، كالببغاوات، ويستدلون استدلالهم كلام جاف ميت، لا روح فيه

ولا حياة، ولا تأثير فيه ولا جمال؛ لأنه يصدر عن قلب ميت. وكيف يؤثر ويثمر كلام ميت يصدر عن ميت؟؟» ا. هـ

ولما فاضت روحه وحملت جنازته على الأعناق، خرجت مدينة قونية تودعه ـ وهي إحدى مدن تركيا ـ وازدحم شيوخ الإسلام وقس النصارى وأحبار اليهود على جنازته، يتلون القرآن والإنجيل والتوراة. وكادت تقع الفتنة بينهم. ولما أخبر حاكم المدينة كبراء اليهود والنصارى أنها جنازة عالم مسلم لا دخل لهم بها، قالوا: «به وجدنا حقيقة الأنبياء السابقين، وبه رأينا سيرة الأولياء الكاملين».

ومن كلامه الجدير بأن ينقش في القلوب ما قاله عن دور الأنبياء والأولياء وهم ورثة الأنبياء في علاج أمراض الأمة وتحصين عافيتها. قال رحمه الله ورضي عنه ص ٣٤٥: ـ

«نحن أطباء الروح وتلاميذ الرحمن انفلقت لنا البحار وتفجرت لنا العيون من الأحجار. إن أطباء الجسم يجسون النبض ويتعرفون المرض، ولكننا ننظر بنور الله، ونتكلم بوحي الله. أولئك أطباء الغذاء والثمار، يعرفون منافع الأغذية والأدوية ومضارها وتأثيرها في جسم الإنسان، أما نحن فأطباء الأقوال والأفعال والعقائد والأخلاق، نخبر الخلق بعواقب الأعمال والأخلاق وتأثيرها في الحياة ونتيجتها بعد الممات، ونقول: إذا عملت كذا سعدت ونجوت، وإذا عملت كذا شقيت وهلكت، وإن الخلق الفلاني دواء نافع، وإن الخلق الفلاني سم ناقع وإن العقيدة الفلانية مسعدة منجية، وإن العقيدة الفلانية مهلكة مردية. إن دليل أطباء الجسم الرائحة واللون والطعم، وأما دليلنا فكلام الله وإعلامه وإلهامه.

(الحبّ الإلهي)

ويقول في ص ٣٥٨:

إن الحب يحول المرّ حلواً، والتراب تبراً، والكدر صفاءً، والألم شفاءً، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذي يلين الحديد ويذيب الحجر، ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة. ويسـود العبـد.

إن هذا الحب هو الجناح الذي يطير به الإنسان المادي الثقيل في الأجواء، ويصل من السمك إلى السماك، ومن الثرى إلى الثريا. إذا سرى هذا الحبّ في الجبال الراسيات ترنّحت ورقصت طرباً: ﴿فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكاً وخرموسى صعقاً﴾.

ويذكر أن الحب غنيٌّ أبي لا يحتفل بالملك والسلطان من ذاقه مرة لم يسغ شراباً. يقول: (إنّ الحبّ غني عن العاملين، إن كان الشغف بالمحبوب ونفي ما سواه جنوناً، فهو سيد المجانين. إنه ملك الملوك تخضع له أسرّة الملوك وتيجانهم ويخدمه الملوك كالعبيد. يقول إن الحب كامن كالنار، ولكن الحيرة بادية متواضع ولكن نفوس الملوك الذين يملكون النفوس له خاشعة) وإذ ذكر الرومي هذا الفقير الجسور والحب الغيور أخذته نشوة ونادى بأعلى صوته (بارك الله لعبيد المادة وعباد الجسم في ملكهم وأموالهم لا ننازعهم في شيء، أما نحن فأسارى دولة الحب التي لا تزول ولا تحول).

إن جميع المرضى يتمنون البرء من سقمهم إلا أن مرضى الحب يستزيدون المرض ويحبون أن يضاعف ألمهم وحنينهم. لم أر شراباً أحلى من هذا السم ولم أر صحةً أفضل من هذه العلة. إنها علة، ولكنها علة تخلص من كل علة، فإذا أصيب بها إنسان لم يصب بمرض قط. إنها صحة الروح بل روح الصحة يتمنى أصحاب النعيم أن يشتروها بنعيمهم ورخائهم كأنه يعارض الشاعر العربي في قوله:

ولي كبد مقروحة من يبيعني — بها كبداً ليست بذات قروح
أباها علي الناس لا يشترونها — ومن يشتري ذاعلة بصحيح

فلو عرف هذا الرجل الذي كان ينادي على كبده قيمة هذه الكبد المقروحة لما تنزل إلى بيعها والتخلي عنها، ولو عرف الناس قيمتها لاشتروها بملك الدنيا وعافية الأجسام فما

قيمة كبد لم تقرح؟ إنها مضغة لحم وقطعة حجر. إن هذا الحب البريء السامي يصل بالإنسان إلى حيث لا توصله الطاعات والمجاهدات. (لم أر طاعة أفضل من هذا الإثم عند من يسميه إثماً. إن الأعوام التي تنقضي بغيره لا تساوي ساعة من ساعات الحبّ).

إن الدم الذي يسيل في سبيله لا يشك في طهارته، إن شهيد الحب لا يحتاج إلى الغسل، إن دماء الشهداء أفضل من الماء الطهور. يا لها من خطيئة، إن كانت خطيئة.

يقول: «إن المحبين الذين بذلوا مهجهم وأحرقوا قلوبهم، لا تنفذ عليهم القوانين العامة، ولا يخضعون للنظم السائدة». ويضرب الرومي لذلك مثلاً بليغاً فيقول: «إن القرية التي خربت لا تفرض عليها الجبايات والضرائب»، ويقارن بين الحب البريء والعقل الشاطر فيقول: «إن الحب تراث أبينا آدم، أما الدهاء فهو بضاعة الشيطان إن الداهية الحكيم يعتمد على نفسه وعقله، أما الحب فتفويض وتسليم. إن العقل سباحة قد يصل بها الإنسان إلى الشاطىء وقد يغرق، وإن الحب سفينة نوح لا خوف على ركابها من الغرق». هذا، وبحر الحياة هائج ليست السباحة فيه بالخطب اليسير، فخير للإنسان أن يأوي إلى سفينة مأمونة من الغرق، وهي سفينة الإيمان والحب.

يقول: «لقد رأينا كثيراً ممن يحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللجي، ولكنا ما رأينا سفينة الإيمان والحب تغرق». ثم إنه بفضل حيرة المحبين على حكمة الحكماء الباحثين، ويحث على الحرص عليها والتنافس فيها؛ لأن الحكمة ظن وقياس، والحيرة مشاهدة وعرفان. إنه يقول: «ليس لكل أحد أن يكون محبوباً، فإنه يحتاج إلى صفات وفضائل لا يرزقها كل إنسان، ولكن لكل أحد أن يأخذ نصيبه من الحب وينعم به». «فإذا فاتك أيها القارىء العزيز أن تكون محبوباً، لا يفتك يا عزيزي أن تكون محباً. إن لم يكن من حظك أن تكون يوسف فمن يمنعك من أن تكون يعقوب؟ وما الذي يحول بينك وبين أن تكون

صادق الحب دائم الحنين». ويزيد الشيخ على ذلك: «إن لذة المحب لا تعدل لها صولة المحبوب، فلو عرف المحبوبون ما ينعم به العشاق المتيمون والمحبون المخلصون، لتمنوا مكانهم، وخرجوا من صف المحبوبين السعداء إلى صف المحبين البؤساء».

إلى من يوجه هذا الحب؟

ولكن إلى من يوجه هذا الحب الذي هو نور الحياة وقيمة الإنسان؟ «إن الحب خالد لا يجدر إلا بالخالد. إنه لا يجمل بمن كتب له الفناء والأفول. إنه حق الحي الذي لا يموت، الذي يفيض الحياة على كل موجود». ويستدل الرومي على ذلك بقصة سيدنا إبراهيم ويتمثل بقوله ﴿لا أُحِبُّ الآفِلين﴾ : «إن هذا الحب يجري في صاحبه مجرى الدم». إن وضع في محله وصادف أهله فإنه شمس لا ينتابها الأفول، وزهرة ناضرة لا يعتريها الذبول. عليك بهذا الحب السرمدي الذي يبقى، ويفنى كل شيء، الذي يدور عليك بكؤوسه التي تروي ظمأك. عليك بهذا الحب الذي ساد به الأنبياء وحكموا».

الغيادة الشاغرة وإهمال الأمراء وتقصير العلماء

يكشف الواقع التاريخي أن أغلب الدول المتعاقبة على الحكم في بلاد الإسلام كان همها الأول جباية الأموال وإخضاع الرؤوس وإخلاء الساحة من كل رقيب وحسيب.

ويكشف الواقع التاريخي أيضاً أن أغلب البطانات والحاشيات التي امتلأت بها البلاطات، كانت في أغلبها مكونة من نفعي جشع أو باطني خبيث أو مجوسي حاقد أو يهودي كائد، كما يكشف أيضاً عن تدارك الله سبحانه للأمة

ورحمته بأن هيأ لها رجالاً، حفظوا كتابها وسنتهـا ودونوا فقههـا ولغتها وتـاريخها، فكانوا بحق عقل الأمة ولسانها وذاكرتها. وهيأ لها أيضاً رجالاً جمعوا إلى الـرسوخ في العلم ومتـانة الـدين، طهارة البـاطن ونقـاء السريـرة وحب الإنسـانيـة ونـور البصيرة، هم أولئك الأولياء الربانيون الـذين كان الـواحد منهم في مجتمعـه، هو إمام المحراب ومعلم الكتَّاب وطبيب المصاب، أو قـل بتعبير آخـر كانـوا الدولـة الشعبيـة حين غـابت الدولـة الرسميـة، يعلمـون الجـاهلين ويؤدبـون الضـالـين ويعالجون المصابين ويطعمون الجائعين ويكسون العارين. تقـوم فتنة بـين القبيلة والقبيلة فتتطاير الـرؤوس وتسيل الـدماء ويثـور العجاج، حتى إذا مـا برز الـولي الصـادق بين الفـريقين أطفـأ ضرامها بعصـاة، وكأنمـا هي عصـاة مـوسى تلقف مايأفكون، فيعود الوئام ويسود السلام بدون لجان ولا مفـاوضات ولا مؤتمـرات. وتحدث المعضلة الفقهية فيكون الولي الصادق هو المجيب الشـافي بفتواه، وتنـزل النازلة فيلجأ الولي الرباني إلى مولاه، فيكشفها سبحـانه ويستجيب لـدعاه. فـلا غـرابة إذن أن نـرى المجتمع الأمي المحـروم المظلوم يتمسـك بطبيبـه في حياتـه، ويغلو بحبه بعد مماته غلواً يجاوز حدود الشرع ونطاق العقل؛ لأنه لم يجد في هذه الدنيا العريضة قلباً يسع همومه وآلامه ويداً تمسح أوجاعه وجراحـه، غير أولئـك الأطبـاء الآباء. وأنـا لا ارتضي تقديس الأضرحـة والتمسح بـالقبور، ولا أدافـع عنها، بل أمقتها وأطالب بإنهائها، ولكنني أشير إلى الأسباب البـاعثة لهـا، المؤدية إليهـا، وهي تتلخص في إهمـال الأمـراء لجمهـورهم في تعليمـه التعليم الـديني النقي، وإذاقته حلاوة العدل ونداوة الـرحمة، وتقصـير العلماء من واجبهم الديني والأبوي نحو جمهورهم، فإنهم في أكثرهم ـ ولا أقول كلهم ـ يتبعـون خطة الجـر بالأذن، وليس القرع للقلوب والدخول إلى طواياها، ولذلك بقيت عيادة أولئـك الأطباء الآباء من الصالحين الأولياء شاغرة حتى يملؤها الله بمن يشاء من عباده.

تنبيه

وبعد، فإن الواقف على مراجع اليمن التاريخية يهوله وفرة مراجعها التراجمية طوال قرون الإسلام إذ لا يخلو منها قرن أو جيل، مما يعكس اهتمام اليمنيين بحفظ تراثهم وتكريم علمائهم. ومعلوم أننا هنا لا ندون تاريخاً، ولا نستوعب تراجماً، فذلك ـ والحمدلله ـ عمل جليل قام به غيرنا وأشبعوه تدويناً وتفصيلاً، وإنما غرضنا فقط أن نقدم للقراء عامة وللناشئة خاصة، نماذج رفيعة لليمني في تألهه وعلمه وإصلاحه، لتكون ذكرى للذاكرين وأسوة للمقتدين. ولليمن في إشراقها الثاني قمم سامقة في حب الخالق والخلق والاجتهاد الشرعي والإصلاح القضائي والتوجيه التربوي، إلى غير ذلك من الأغراض الشريفة السامية. ومن أولئك أفذاذ كانوا أفراداً لم نعلم فيمن بعدهم من نسلهم مثلهم، وعظماء كانت لهم بيوتات عامرة وأعقاب متصلة، فأحببنا أن نطلق عليهم إسم العناقيد. وعلى هذا فسيكون عرضنا لأعلام هذا الإشراق على قسمين:

القسم الأول: قسم الأفذاذ، وسنتناول فيه قمم الإصلاح والعلم، متحرين ما أمكن ترتيب تاريخ الوفاة في الإيراد من كل أرجاء اليمن. والقسم الثاني: هو قسم العناقيد الذي سنتناول فيه قمم الإصلاح والعلم، مع من نبغ من ذرياتهم وألحقهم الله بهم في العلم والعمل، غير مستوعبين ولا مستقصين، وإنما هو التجوال الميسور، وما توفيقي إلا بالله.

والمراجع المعتمدة في تراجم هذا الإشراق هي:

ـ البدر الطالع للإمام الشوكاني.

ـ طبقات الخواص للشرجي.

ـ العقود اللؤلؤية للخزرجي.

ـ النفس اليماني للأهدل.

ـ طبقات البريهي.

- قرة العيون وبغية المستفيد للديبع.
- نشر العرف ونيل الوطر ونزهة النظر لزبارة.
- الضوء اللامع للسخاوي. وغيرها.
- النور السافر للعيدروس.

أفذاذ

أبو الغيث بن جميل (٠٠ ـ ٦٥١ هـ)

أحد كبار أولياء اليمن في القرن السابع ترجمة الخزرجي في العقود اللؤلؤية: «في سنة ٦٥١ توفي الشيخ الصالح المشهور أبو الغيث بن جميل الملقب بشمس الشموس. قال بعض العلماء: وهذا لقب على ملقب باستحقاق. وكان في بدايته قاطع الطريق، وكان سبب توبته أن صعد شجرة يريد أن ينظر السفر إذا أقبلوا، فبينا هو على الشجرة يتأمل الطرق إذ سمع قائلاً يقول: يا صاحب العين، عليك العين. فوقد ذلك في قلبه، فنزل عن الشجرة مستكن القلب ونفسه تنازعه في الإنابة، فلم يجد لذلك غير الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الله بن أفلح بزبيد، فوصل إليه وعرض عليه أمره، وسأله أن يأخذ عليه اليد، فأخذ عليه اليد وألزمه الخدمة للزاوية، فأقام يخدمها بالحطب والماء وفي بيت الخلاء دهراً، ثم تقدم المراوعة بعد ذلك إلى الشيخ علي الأهدل، فأقام عنده أياماً هذبه فيها تهذيباً مرضياً، فكان يقول: خرجت من ابن أفلح لؤلؤة عجماء فثقبني الأهدل، ثم طلع الجبال الشامية بعد ذلك فظهر له فيها أحوال خارقة، فمال إليه عالم عظيم من العامة والرؤساء، وصحبه جماعة من الفقهاء. فلما ظهر الإمام عبد الله بن حمزة وقوي أمر الزيدية بالجبال الشامية، نزل الشيخ إلى تهامة ونزل بنزوله علي بن مسعود، فسكن الشيخ أبو الغيث رحمه الله مع الفقيه عطاء[1] على كره من أهله، ثم قام الإمام أحمد بن الحسين، وبلغه أن الشيخ مقبول الإشارة مسموع القول، كتب إليه طمعاً في ميله وميل أهل تهامة كتاباً

---

(١) هو أحمد بن عطا من قبيلة عبيدة كما ذكره الشرجي.

صدره: ﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواءٍ بيننا وبينكم: ألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا أرباباً من دون الله. فإن تولوا فقولوا شهدنا بأنا مسلمون﴾. ثم قال: «القصد يا شيخ الاجتماع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والسلام». فلما وصل الكتاب مع بعض الشيعة قال الشيخ لرجل من أصحابه: اقرأ كتاب الشريف فلما قرأه وفرغ من قراءته قال الشيخ: اكتب ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ، وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾. الحمد لله فالق الإصباح، ومرسل نسيم الرياح إلى فسحة مبدأ عالم الأشباح، والصلاة والسلام على سيد الأنام ومصباح الظلام وعلى آله وصحبه السادة الكرام. أما بعد، فقد وصلنا السيد الشريف يدعونا لإجابته، ولعمري إنها طريق سلكها الأولون، وأقبل عليها الأكثرون. غير أنا نقر منذ سمعنا قوله تعالى ﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ﴾ لم يبق فيها متسع لإجابة الخلق، فليس لأحد منا أن يشهر سيفه على غير نفسه، ولا أن يفرط في يومه بعد أمسه. فليعلم السيد قلة فراغنا لما رام، وليبسط العذر، والسلام.

فذكروا أن رسول الشريف وقف مع الشيخ وبعث بالكتاب رسولاً.

ويروى أنه كتب إليه الشيخ أحمد بن علوان ـ الذي يأتي ذكره فيما بعد إن شاء الله تعالى ـ كتاباً يقول فيه: أما بعد، فإني أخبرك:

جزت الصفوف إلى الحروف إلى الهجا
حتى عرفت مراتب الإبداع
لا باسم ليلى أستعين على السرى
كلا، ولا ليلى تقل شراعي

فأجابه الشيخ أبو الغيث بن جميل: من الفقير إلى الله تعالى أبي الغيث بن جميل أغذي نعمة الله في محل الحضرة، أما بعد فإني أخبرك:

حلى في الاسم القديم باسمه
واشتقت الأسماء من أسمائي

وحباني الملك المهيمن وارتضى
فالأرض أرضي والسماء سمائي

يا ابن علوان، أبت المراهم الشافية أن تقع على جرحك، الخبيث حتى تعدم بمرر العقاقير.

وكان الشيخ رحمه الله كبير القدر، شهير الذكر صاحب ترقية ومجاهدة، قلَّ أن يوجد له نظير، وفضائله أكثر من أن تحصى وأشهر من أن تذكر.

ومن كلامه قوله: «شكوتك إلى ما في يديك دليل على قلة ثقتك بالله، ورجوعك في حال الشدة إلى المخلوقين دليل على أنك لا تعرف الله، وفرحك بشيء تناله من الدنيا دليل على بعدك من الله». وقد قيل: إن هذا من كلام أبي يزيد البسطامي.

وسئل الشيخ رحمه الله عن المستحق لاسم الصوفي فقال: «هو من صفا سره من الكدر، وامتلأ قلبه من العبر، وانقطع إلى الله عن البشر، واستوى عنده الذهب والمدر». ومن دعائه: «اللهم إني أسألك يا روح الروح، ويا لب لب اللب، ويا قلب القلب. هب لي قلباً أعيش به معك، فقد خلقت كل ما هو دونك لأجلك، فاجعلني ممن شئت من هذه الجملة».

وروي عن الفقيه الإمام الصالح إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الحضرمي أنه قال: جرى بيني وبين بعض أصحاب أبي الغيث بن جميل كلام من أجله، فقلت له: قد كان الشيخ يخطىء في بعض كلامه في المجالس، فقال: لا، وأنكر عليَّ إنكاراً شديداً. فلما كان الليل رأيت الشيخ بعد العشاء، تمثلت لي صورته، فقال لي: أخطأنا كثيراً ووقعنا كثيراً، ولكن قلت مِنّا العزائم وصفحت عنا الجرائم وسامن البدع الموصوفون يضرهم، إلاَّ من كان فيه أربع خصال: أن يكون لله لا له، للناس لا لنفسه، سالكاً طريقه، وهي طريقة واحدة. تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام. ثم قال لي: احذر بنات الطريق فإنهنّ يلتمسن

اللمحة والنظرة، فسئل الفقيه على بنات الطريق، فقال: هي الكرامات التي تعرض للسالك في طريقه التي من لاحظها حجب عن مقصوده.

وكانت وفاة الشيخ على الحال المرضية، عازفاً عن السماع منذ مدة، نهار الأربعاء لخمس بقين من جمادى الأولى من السنة المذكورة وتربته مشهورة في بيت عطا وهي قرية من أعمال سردد.

العليف الحرضي الحكمي (٠٠ ـ ٦٤٠ هـ)

من كبار العلماء الأولياء ننقل ما ترجمه الخزرجي فقال:

«وفي سنة ٦٤٠ توفي الفقيه العلامة الإمام أبو الحسن علي بن قاسم بن العليف بن هيس بن سليمان بن عمرو بن نافع الحكمي الشراحيلي. وكان إماماً كبيراً عالماً عاملاً محققاً مدققاً، وبه تفقه غالب فقهاء عصره من غالب نواحي اليمن، وله مصنفات مفيدة، منها كتاب (الدرر في الفرائض)، وله مختصر سماه (الدرر) بيّن فيه بعض مشكلات التنبيه. سيرها إلى بغداد صحبة الإمام رضي الدين الصنعاني. وأجاب عنها جماعة من علماء بغداد، وأجاب عنها أيضاً محمد بن يوسف الشويري، وأجاب عنها هو أيضاً. فكان جوابه أرضى الأجوبة كلها. وأصله من حكماء حرض، وقدم زبيد بعد أن تفقه على الفقيه إبراهيم بن زكريا. ثم لما قدم زبيد أخذ عن الفقيه عباس بن محمد، ثم طلع الجبال فقصد ذي أشرق، فأدرك القاضي مسعوداً وأخذ عنه. ومن أعيان أصحابه بزبيد محمد بن الخطاب وعمر بن مسعود الأبينيان، وحسن الشرعبي وعبد بن أحمد من السهولة.

قال الجندي: «ولقد أخبرني الثقة أنه خرج في درسه ستون مدرساً. وكان يحفظ التنبيه غيباً، ولا يزال حاملاً له ومقبلاً عليه، فقيل له: أنت تحفظه فلم تحمله؟ فقال: أحتج به على أهل المراء». وكان راتبه في كل يوم سبعاً من القرآن، أخذ ذلك عن شيخه إبراهيم بن زكريا. وكان ذا ورع شديد، لوزم

على قضاء زبيد ولوزم على التدريس فامتنع، ورسم عليه أيام فلم يجب إلى ذلك. وكان فقيراً يعدم ما يقتاته، وفضله أكثر من أن يحصى. وكانت وفاته يوم الخامس من شهر رمضان من السنة المذكورة بزبيد، وقبره في الناحية الشرقية من مقبرة باب سهام، معروف مشهور ويتبرك بالدعاء عنده. ولما توفي في التاريخ المذكور خلفه ابنه أحمد، وكان فقيهاً مبرزاً، فرأس ودرس إلى أن توفي يوم الجمعة تاسع ربيع الآخر من سنة أربع وستين وست مئة. ومن تلامذته إبراهيم بن علي القلقل، بقافين مكسورتين بينهما لام مسكونة. وكان فقيهاً محققاً جليل القدر، وله فتاوى تدل على فقه وسعة علمه. لوزم على تدريس المنصورية بزبيد فامتنع، فرسم عليه فأقام في الرسم أياماً. وكان من أجلّ الفقهاء قدراً، وإليه تنسب القرية المعروفة بمحل القلقل غربي مدينة زبيد» ا.هـ، وسنأتي بإضافة عنه في آل الحكمي.

علي أفلح (٠٠٠ ـ ٦٠٠ هـ)

قال الشرجي في طبقاته مترجماً حياة هذا الولي الصالح: «هو أبو الحسن علي بن عبد الله بن أفلح، بفتح الهمزة واللام وسكون الفاء بينهما وآخره حاء مهملة. كان المذكور من كبار الأولياء أرباب الكرامات والأحوال، صاحب خلق وتربية، وإليه وفد الشيخ أبو الغيث بن جميل وتحكم له وخدمه مدة طويلة، حتى تهذب وتخرج به، كما سيأتي ذكره ذلك في ترجمته إن شاء الله تعالى.

يروى أن الشيخ أبا الغيث بن جميل دخل من باب الشبارق من مدينة زبيد بحَطب بيت الشيخ المذكور، فحصل بينه وبين بعض البوابينْ شيء فلطمه ذلك البواب، فجاء إلى الشيخ وشكى عليه، فذهب معه إليهم هو وجماعة من الفقراء، قال الشيخ أبو الغيث: فأريته البواب وأنا أظن أنه يفعل به أمراً يوجب التأديب، فقال لي: يا أبا الغيث قبّل رجله، فلم يسعني إلا الطاعة، فقبلت رجله ثم رجعنا. فلما مشينا قليلاً لحقنا الرجل وتاب وتحكم على يد الشيخ علي،

وكان من جملة الفقراء[1]، وكان الشيخ يحب كتم الكرامات، وينهى الشيخ أبا الغيث عن إظهارها. فلما تكرر منه إظهار ذلك ـ كما سيأتي بيانه في ترجمة الشيخ أبي الغيث ـ أمره بالخروج عن المدينة، وقال له: هذه البلاد لا تحمل ذلك. ومن كرامات هذا الشيخ علي المذكور أنه كان يعمل السماع، فإذا حصل عليه وجد وقام يتحرك يسمع الحاضرون. وكان من ينعق مثل الشاوش في الجو، يسمعون ذلك سماعاً محققاً. وهذه الكرامة مشهورة مستفاضة بين الناس. وكراماته كثيرة مشهورة، وله في مدينة زبيد رباط معروف وزاوية محترمة، وله فيها وفي باديتها ذرية أخيار صالحون، شهد منهم جماعة بالولاية التامة، ونسبهم يرجع إلى قحطان. وقبره بمقبرة باب سهام من القبور المشهورة والمقصودة للزيادة والتبرك. توفي في القرن السابع رحمه الله».

عمر بن سعيد العقيبي
العالم العابد الزاهد (٦١٠ ـ ٦٦٣ هـ)

قال صاحب العقود اللؤلؤية في ترجمته:

«في سنة ٦٦٣ توفي الفقيه الصالح المشهور أبو الخطاب عمر بن سعيد بن أبي المسعود بن أحمد الهمداني العقيبي، وكان مولده سنة عشر وست مئة. وكان عالماً عاملاً ورعاً فاضلاً عابداً زاهداً، جامعاً لطريقي العلم والعمل، موفقاً في كبره وصغره.

روي عنه أنه قال: «خرجت يوماً أريد المعلامة وأنا صغير يتيم ومعي كسرة خبز، فلما صرت في الطريق من ذي عقيب وجبلة أكلت شيئاً من الكسرة التي معي، فلقيني شخص حسن الهيئة، فقال لي: أنت فقيه وتأكل بالنهار! فاستحييت من كلامه». فكان غالب أيامه صائماً، وكان غالباً أصحابه يرون أن

---

(١) للصوفية في التربية ثلاثة أحوال: بالمقال: أن يأمر الشيخ فينفذ المريدون. وبالفعال: أن يفعل هو فيتبعونه. وبالحال: أن يهتم بالشيء فيقضى.

سبب مواظبته على الصيام من أجل ذلك. وتفقه بمحمد بن عمر الخبيري المذكور أولاً، وأخذ عن غيره كمحمد بن مصباح. وارتحل إلى وصاب فأخذ بها (شرح اللمع) لموسى الأصابي عن الفقيه أبي بكر الجناحي، أخذه له عن المصنف، وأخذ عنه شيئاً من كتب الحديث. وكان يحفظ جامع البخاري من الصحيح عن ظهر غيب، وقرأ (البيان) على الفقيه عبد الله بدار يزيد في أيام القاضي أسعد، وحج سنة فمرَّ في طريقه بالشيخ أبي الغيث بن جميل، فسلم عليه وسأله أن يمسح له على صدره. ولما ودعه سأله أن يبصق في فيه، فبصق له ثم سافر، فقيل للشيخ: كيف رأيت الجبلي؟ فقال: رجلاً كاملاً.

قال الجندي: ولقد سمعت جماعة من العلماء وغيرهم مجمعين على زهده وورعه وكمال عبارته وحسن فقهه وصيانة عرضه، وكان كثير الصيام لا يفطر غير الأيام المكروهة، ثم لا يأكل من الأطعمة إلا ما يعرف حِلّه، وكان شديداً في الطهارة مبالغاً فيها، وكان إذا أراد الاغتسال نزل في قميصه في حائرة عظيمة، فينغمس فيها مرتين أو ثلاثاً ثم يخرج إلى صفا هنالك، فلا يبرح يصلي عليه حتى تجف ثيابه. وأمره في الطهارة شديد. قال: ولقد رأيت الصفا الذي كان يصلي عليه فرأيت في موضع سجوده أثراً ظاهراً. قال: وأخبرني أبو بكر بن أحمد المأربي عن الفقيه عبيد بن صالح عن الفقيه عمر بن محمد بن مصباح، أنه رأى والده محمداً وقد توفي في طريق الحج بمدينة حلبي بن يعقوب، فقال له: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر وأدخلني الجنة. ويل للمتقشفين.. ويل للمتقشفين. فقلت: هل رأيت؟ فقال: نعم ويل للمتشقفين.. ويل للمتقشفين. فقلت له: كيف هو؟ قال: بخير. ويل للمتشقفين ويل للمتقشفين. فسأله عن الفقيه عمر بن سعيد المذكور وكان قد توفي، فجعل يعظم ويصف ما أعطاه الله ويقول في أثناء ذلك ويل للمتقشفين ويل للمتقشفين. فقلت له: هو أكثر المتقشفين؟ فقال: نعم، لكنه قشف ظاهره وباطنه.. لكنه قشف ظاهره وباطنه. وجعل يكرر ذلك مراراً.

ويروى أن رجلاً وصل إلى الفقيه أحمد بن جديل وقال له: يا سيدي الفقيه، رأيت قبلي التعكر نوراً من الأرض صاعداً حتى خرق السماء، فما ذلك يا سيدي؟ فقال له: ذلك القطب، ويوم يموت ترتج الأرض لموته. قال الجندي: وأخبرني جماعة من أصحابه أنهم كانوا يتذاكرون ذلك، ويقول بعضهم بحضرة الفقيه: ربما أنه أتى، فيبتسم الفقيه ويقول: وربما جماعة ـ لا أتهم منهم أحداً في ذلك ـ أن الرجفة كانت وقت الظهر من يوم الجمعة والناس يتأهبون للصلاة.

كانت وفاة الفقيه ليلة السبت بين المغرب والعشاء لليلتين بقيتا من ذي الحجة آخر شهور السنة المذكورة. وقبره على مرمى بيته ومسجده، وتربته أكثر الترب قصداً في الزيارة، قل أن ينقطع الزائرون عنها ليلاً ونهاراً. ومما يحكى أن بعض الظلمة من المتصرفين كان كثير التردد إلى الفقيه والصحبة له، وربما كان سبب موته شرق بشيء من الشراب، فوصل من نعاه إلى الفقيه فأخبره بحاله الذي مات عليه، فقال لأصحابه: بسم الله، سيروا بنا إلى هذا الصاحب، فوافقوه بظواهرهم دون بواطنهم. فلما صاروا في أثناء الطريق التفت الفقيه إليهم وقال للذي يتحقق أنه أكثرهم كراهة لذلك: يا فلان يا فلان، إنما يقام على الساقط، وأمّا غيره فينجو برجليه. وكراماته كثيرة مشهورة رحمه الله تعالى» ا. هـ.

هذا ولقد ذكر الخزرجي خبر توبة عبد الوهاب العريقي أمير جهة العواد، وكيف تمت توبته وصدقت، فنال بها حسن الختام.

الولي المصلح أحمد بن علوان[1] (٠٠ ـ ٦٦٥ هـ)

الولي الشهير والمصلح الكبير ترجمه الخزرجي فقال:

«في سنة ٦٦٥ توفي الشيخ الصالح العارف بالله أبو الحسن أحمد بن علوان الصوفي صاحب يفرس، قرية من نواجي جبا. وكان مولده في قرية عقاقه، بضم العين المهملة وألف بين القافين وآخر الاسم هاء، وهي قرية من قرى جبل صبر

(١) ذكر الجندي خبر والد أحمد بن علوان في كتابه (السلوك) ص٣٤٨.

معروفة. ونشأ في قرية تعرف بذي الجنان من جبل ذخر، ولم يزل على ترفة ورعونة على ما جرت عليه عادة أولاد الكتّاب؛ لأن والده كان كاتباً للملك المسعود بن الملك الكامل. ثم شب شاباً حسناً، فكان قارئاً كاتباً، عارفاً بالنحو، فاضلاً في اللغة والكتابة، وشعره وكلامه في التصوف دليل على ذلك.

وذكر بعض نقلة أخباره أنه دعته نفسه وهو شاب إلى قصد باب السلطان والتعرض للخدمة، وخرج من قرية ذي الجنان وسار نحو باب السلطان، فبينما هو سائر في أثناء الطريق إذا بطائر أخضر قد وقع على كتفه، ومد منقاره إلى فيه، ففتح فمه فصب فيه الطائر شيئاً فابتلعه الشيخ، ثم عاد من فوره إلى بلده فلزم الخلوة أربعين يوماً. فلما كان يوم الحادي والأربعين خرج من المعبد وقعد على صخرة يتعبد، فانقلبت الصخرة عن كف، فقيل له: صافح الكف، فقال: ومن أنت؟ فقال: أبو بكر. فصافحه. فقال له: قد نصبتك شيخاً. وإلى ذلك أشار في شيء من كلامه الذي يخاطب به أصحابه حيث يقول: «وشيخكم أبو بكر الصديق».

ثم ألقي له الحب في قلوب الناس والوجاهة، وظهرت له كرامات كثيرة، وتحكم له جمع كثير. ثم ارتحل إلى الشيخ أبي الغيث بن جميل، فأخذ عنه اليد أيضاً وألبسه الخرقة الشريفة. وكان آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، ولا يخاف في الله لومة لائم. وكان يقول شعراً حسناً. ومن شعره من قصيدة طويلة يحث فيها السلطان على العدل وحسن السيرة هذا:

يا ثالث العمرين إفعل كفعلهما،

وليتفق فيه منك السر والعلن

واستبق عدلاً يقول الناظرون له:

نعم المليك، ونعم البلدة اليمن

عار عليك عمارات مشيدة،

وللرعية دور كلها دمن

وصنف كتاباً في الوعظ نحا فيه منحى ابن الجوزي، فلذلك يقال له: جوزي اليمن. وله في التصوف فصول كثيرة، يتكلم فيها على لغات شتى. وقيل لبعض العارفين: من أين كان الشيخ يعرف تلك اللغات وهو عربي، ولم يعرف له خروج عن بلده؟ فقال: كانت روح الشيخ أحمد مهبطاً لأولياء الله، ولهم لغات كثيرة يتكلمون بها على لسان الشيخ، فينطق بها كما يقولون. وكان الشيخ أشوق إلى كلامه من سامعيه، وكان متى علم أن في السامعين لكلامه من لا يفهمه قال معرضاً به: يا واقفاً في الماء وهو عطشان. وفي آخر الأمر تأهل بامرأة من أهل يفرس، فسكن معها وترك قريته ذا الجنان. ولم يزل بها حتى توفي ليلة العشرين من شهر رجب من السنة المذكورة، ودفن على باب المسجد، وهو القبر الملتصق بالمسجد على يسار الداخل إليه. وكان له ولد يسكن ذا الجنان، وكان على طريق مرضٍ إلى أن توفي عشرة شهر شوال من سنة خمس وسبع مئة. رحمه الله» ا. هـ.

ومن كتبه التي طبعت وأمكن الحصول عليها (كتابة المهرجان)، حققه وأشرف على طبعه، وقدم له أحد فضلاء تعز وأظنه الشيخ إبراهيم عقيل. والأبيات التي ذكرها الخزرجي هي من قصيدة طويلة مفعمة بالإخلاص والنصح للأمة. خاطب فيها المظفر بن رسول بأوضح بيان وأصرحه، مما يشهد لأولياء اليمن أنهم لم يقبعوا في زواياهم، وإنما نشروا العلم وحققوا الإصلاح وأحسنوا في التربية. ومن الأبيات الهامة في القصيدة قوله:

هذي تهامة لا دينار عندهم ... ولحج أبين بل صنعاء بل عدن
فما ذنوب مساكين الجبال وهم ... جيران دارك والخلان والسكن
والأضعفون فما يقتات أجزلهم ... إلا بما جرت المسحاة والحجن
انظر إليهم، فعين الله ناظرة ... هم الأمانة والسلطان مؤتمن
عار عليك عمارات مشيدة ... وللرعية دور كلها دمن

رحمه الله ورفع درجاته.

علامة الجند عبد الرحمن بن حديق (.. - ٦٥٤ هـ)

أحد الربانيين الذين صدعوا بالحق في وجه الملوك ترجمه الخزرجي فقال:

«في سنة ٦٥٤ توفي الفقيه الصالح عبد الرحمن بن علي بن إسماعيل بن إبراهيم بن حديق، وكانت ولادته سنة تسعين وخمس مئة، وكان فقيهاً نبيهاً عارفاً محققاً قائلاً بالحق عاملاً به. ويروى أن السلطان نور الدين عمر بن علي بن رسول وجبت عليه كفارة جماع في شهر رمضان بالنهار وكان يومئذ في الجند، فأمر الوالي أن يجمع له الفقهاء من الجند وأعمالها، فاستدعاهم الوالي فحضروا وحضر هذا الفقيه من جملتهم، فقعد لهم السلطان قعوداً خاصاً وأدخلوا عليه جميعاً، فلما اطمأن بهم المجلس سئلوا عن المسألة فأجابوا بما يجاب عليه سائر الناس، ولم يتكلم الفقيه معهم بشيء في ذلك، فقيل له: لم لا تتحدث الجماعة؟ فقال: أشتهي أن أعرف صاحب المسألة، فقيل له: مولانا السلطان؟ فقال: لا تجزيه إلا صوم شهرين، وأما الإطعام والإعتاق فلا يجزيه. فنازعه الفقهاء الحاضرون في ذلك. فقال: الغرض بالكفارة حسم مادة معاودة الذنب ولا تنحسم مادة معاودة الذنب في هذا الفعل من مولانا السلطان إلا بذلك، فأعجب به السلطان. والله أعلم».

المهاجر في الله ابن الجون الأشعري (.. - ٦٥٢ هـ)

من كبار الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر في القرن السابع. قال الخزرجي:

«في سنة ٦٥٢ توفي الشيخ الإمام أبو الربيع سليمان بن موسى بن سليمان بن علي بن الجون الأشعري الفقيه الحنفي، وكان فقيهاً فاضلاً عارفاً بالفقه والنحو واللغة وعلم الأدب، وله مصنفات حسان، منها (شرح الخمرطاشية)، وهي شرح جيد سماه (الرياض الأدبية) يروى أن صنفه وهو ابن ثماني عشرة سنة. وكان أمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر. ولما ظهرت السبوت في

زبيد وعمل فيها المنكر هاجر إلى الحبشة، فأقام بها إلى أن توفي في قرية يقال لها (رون). ولما توفي في التاريخ المذكور كتب الفقيه أبو بكر بن دعاس إلى الفقيه أبي بكر بن حنكاس يعزيه عنه بأبيات يقول فيها:

غير أنّ نقول ما دام فينا نجل عيسى لم نُرْزا في نجل موسى
ولعمري يوسى عليه ولكن ببقاء الإمام ذا الجرح يوسى

الإمام الأشعري المعروف بابن حنكاس (٠٠ ـ ٦٦٣ هـ)

يلحظ القارىء لتراجم أولياء وعلماء المناطق السنية باليمن وفيهم العلويون بفرعيهما الحسني والحسيني، أنهم يحرصون على التكني بكنية الصديق والتسمي باسم الفاروق، فما أكثر من يعرف فيهم بكنية أبي بكر واسم عمر، تجد ذلك في أسماء آل الأهدل وآل القديمي وآل السقاف خلافاً لأولئك الذين هجروا هذين الإسمين الكريمين، فلا تكاد تجد في أسماء الجهات الشاسعة والأجيال المتعاقبة واحداً يعرف بهما.

ومن علماء تهامة وأوليائها بل علماء وأولياء اليمن أبو بكر بن جنكاس الذي ترجمه الخزرجي فقال: «في سنة ٦٦٣ توفي الفقيه الإمام البارع أبو العتيق أبو بكر بن عيسى بن عثمان الأشعري، المعروف بابن حنكاس، العلامة الحنفي المشهور. وكان فقيهاً عاملاً عالماً إماماً في المذهبين، وكان من صدور الفقهاء. تفقّه بالشريف عثمان بن عتيق الحسني وغيره، وكان أوحد أهل عصره اجتهاداً في طلب العلم ونشر المذاهب، حتى قيل لو لم يوجد لمات مذهب أبي حنيفة في اليمن.

ويروى أنه أتى على كتاب الخلاصة ثلاث مئة شرف، وانتهت إليه رئاسة أصحاب مذهب الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ، وكان يقرىء أهل المذهبين. واجتمع على صلاحه المؤالف والمخالف، فمن أحسن ما خطر من سيرته أنه منذ درس ما رؤي نائماً قط في رمضان ليلاً ولا نهاراً.

أصل بلده العنبرة قرية من قرى الوادي زبيد قريبة من البحر، وهي التي خرج منها علي بن مهدي. ولما ابتنى السلطان نور الدين المدرسة التي في زبيد التي خص بها أصحاب الإمام الشافعي رحمه الله ورضي عنه، وقف له هذا الفقيه في بعض الطرق وقال له: يا عمر ما فعل بك أبو حنيفة إذ لم تبنِ لأصحابه مدرسة كما بنيت لغيرهم. فأمر ببناء مدرسة ثانية وجعل فيها موضعاً لأصحاب الإمام أبي حنيفة، وموضعاً لأصحاب الحديث النبوي. وكان خطيباً مصقعاً وشاعراً مفلقاً. ومن شعره في سن الحداثة ما أنشده سبطة عمر بن علي حيث يقول:

زبيد ودع شرق البلاد وغربها ولا تتحدث عن عراق ولا مصر
أجل نظراً فيها تعاين خريدة مليحة ما بين الترائب والنحر
بلاد بها فاح النسيم معتبراً وأعقب مسك الليل كافورة الفجر

وتفقه به جماعة كمحمد بن علي الصديقي وهو ابن أبي سوادة، وعلي بن عمر وعمر بن العلوي وهو ابن بنته، ومحمد بن عمر الأبح.

ولما كان يوم الاثنين السابع عشر من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة، احتضر بعد أن مرض أياماً، فحضره من أصحابه جمع كثير، وذلك بعد طلوع الشمس. فسألهم عن اليوم ما هو فدعا بطعام فأكله، ثم قال لصهره علي بن عمر العلوي: ارفع صوتك أنت والجماعة بلاإله إلا الله، فقالوا: يا فقيه، إذا لم نذكرك ذكرتنا. قال: نعم، فهللوا، وجعل يتلو خواتيم سورة (يس) من قوله: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ وجعل يكرر ذلك ثلاث مرات رافعاً بها صوته، ثم تشهد عقيب ذلك وفاضت نفسه، وصلي عليه ظهر ذلك اليوم، وحضر دفنه جمع عظيم، حتى قيل: لم يكد يتأخر عن دفنه أحد من أهل زبيد. ويروى أن بعض أهل زبيد رأى شخصاً من أهله كان قد رآه قبلاً، فأخبره أنه غفر له ولأهل المقبرة ببركة قدوم ابن حنكاس. رحمه الله».

العالم المجتهد أبو محمد العريقي (.. ـ ٦٤٠ هـ)

ولم يكن كل العلماء مقلدين، وإنما كان هناك أفراد تبحروا في العلوم وتوفرت لهم أداة الاجتهاد، فخاضوا لجج العلم، وغاصوا في دقائقها، وخرجوا منها بالدرر الثمينة واللؤلؤ المكنون، منهم: أبو محمد عبد الله بن زيد بن مهدي العريقي. توفي رحمه الله سنة ٦٤٠. قال الخزرجي في ترجمته: «أبو محمد عبد الله بن زيد مهدي العريقي. من أعروق أيامه، وهي قرية قريبة من حصن الشذف، وهي بضم الهمزة وفتح الياء المثناة من تحت وألف ثم ميم مفتوحة وآخرها هاء. كان فقيهاً دقيق النظر ثاقب الفطنة، اتضح له في بعض المسائل ما لم يتضح لغيره، فلم يقلد فيها إماماً، فأنكر عليه علماء وقته، إذ لم يطيقوا الإنكار على غيره ممن يقول بقوله كأحمد وداود، وكانوا يعظمونه ويثنون عليه، وكان مشهوراً بالعلم والصلاح، ومصنفاته تدل على غزارة علمه وجودة نقله، وله عدة مصنفات في الفقه والأصول، وكان جيد الفقه. توفي في السنة المذكورة في جامع الصردف معتكفاً، وكان كثير الاعتكاف بعد خلو الصدرف من الساكن».

أبو بكر الحميري صاحب الذنبتين (.. ـ ٦٤٦ هـ)

أحد الربانيين اليمنيين في القرن السابع ترجمة الخزرجي فقال:

«في سنة ٦٤٦ توفي الفقيه الفاضل أبو العتيق أبو بكر بن محمد بن ناصر بن الحسين الحميري نسباً، وكان فقيهاً زاهداً ورعاً متقللاً عن الدنيا، لا يلبس إلا ما يغزله حريمه من العطب الذي يجلب من تهامة، ويكره عطب اليمن. يقول: بلغني أنه قد اغتصبها الملوك، ثم متى كمل أعطاه نساجاً تحقق دينه وأمانته؛ لئلا يخلطه بغيره. وكان له حولٌ لا يأكل إلا منه؛ لأنه ورثه من أهله، وكان لا يقصر ثيابه، بل ما تقدم منها جعله عمامة وما كان جديداً جعله رداء، وكان إذا أقبل إلى المسجد بالذنبتين أنار المسجد، حتى أن الذي يطالع في

الكتاب يجد النور على كتابه، فيرفع رأسه ليرى سبب ذلك فما يرى إلا الفقيه قد دخل المسجد. ومناقبه كثيرة.

وكان تفقه بالحسن بن راشد المقدم ذكره، وأخذ عن أبي الحديد وابن جديل محمد بن أسعد بن ظاهر بن يحيى، وغيرهم. وتفقه به جماعة، منهم منصور بن محمد الأصبحي عم الفقيه محمد الأصبحي وعبيد بن أحمد الشامي وعنه أخذ محمد بن أحمد بن جديل ولد شيخه. وكان فقيهاً محققاً».

الولي الكبير مدافع بن أحمد وولده عمر (٠٠ ـ ٦٨٠ هـ)

ذكر الخزرجي ترجمة الأب الكبير والولي الشهير مدافع بن أحمد ضمن ترجمته لولده عمر، فقال: في سنة ست مئة وثمانين توفي الشيخ الفاضل عمر ابن الشيخ الصالح مدافع بن محمد المعيني، وكان محبوباً عند أبيه ونال منه حظاً وافراً، وكان لا يقصده أحد بسوء إلا وبلي بلاءً ظاهراً، وكان من المترفين بلبس الثياب الفاخرة. ولم يزل مجللاً محترماً عند السلطان إلى أن توفي، وكانت وفاته في السنة المذكورة. رحمه الله تعالى. وكان والده الشيخ مدافع بن أحمد ممن فتح الله عليه بالدين، وأخذ يد التصوف عن الشيخ ابن الحداد، ونحو أخذه عن الشيخ الجليل عبد القادر الجيلاني. وكان مدافع بن أحمد ممن أجمع الناس على صلاحه وكماله، ولما فقد الشيخ أبو الغيث بن جميل شيئاً من أحواله، وصل إلى مدافع وأقام عنده في قرية الوجيز في مسجد قريب من بيته، فأعاد الله عليه ما فقده. وصحبه جماعة من أعيان الصوفية كعثمان بن سادح وعلي الرميمة وعمران الصوفي من عبلة وغيرهم. وكان الملك المسعود بن الملك الكامل يومئذ صاحب اليمن قبل أبيه، وكان كثيراً ما ينزل في الحصن فيقف في الميدان، أو في المطعم يطعم الجوارح الصيدية. فرأى العساكر يروحون طريق الوجيز، فسأل عن ذلك فقيل له: إنهم يروحون لزيارة رجل من الصوفية كبير الحال، فبحث عنه فأخبر أن له قبولاً عظيماً عند سائر الناس، فأحب أن يطلع على أمره، وأظهر أن

غرضه زيارته ووصل إلى بابه. وكان من عادة الشيخ مدافع أنه لا يجتمع به أحداً من الناس، من أذان الصبح إلى قريب من الزوال. فوصل الملك المسعود إلى بيت الشيخ والشيخ مقبل على صلاة الضحى، فوقف على الباب ينتظر الإذن والشيخ في صلاته لم يعلم بوصوله، فلما طال وقوفه على باب الشيخ، وكلما خرج أحد من الفقراء يقول الشيخ مشغول والساعة يخرج، اغتاظ من ذلك ورجع قبل أن يعلم به الشيخ، وتوهم أنه ربما حدث منه ما حدث من مرغم الصوفي، فأمر بقبض الشيخ مدافع فقبض، وكان قبضه في عشرة شهر رمضان من سنة سبع عشرة وست مئة. فأقام محبوساً في حصن تعز إلى سلخ شهر ربيع الأول من سنة ثمان عشرة وست مئة. ثم سفر به إلى الهند بلد الدينور، فأقام بها شهرين وثلاثة أيام، ثم خرج من ثلاث خلون من شهر رمضان سنة ثماني عشرة وست مئة، ثم دخل ظفار فأقام بها ثمانية عشر يوماً وتوفي هناك. رحمه الله»[1].

الشيخ الرباني علي بن عبد الله صاحب المقداحة وابن الهرمل
(٠٠ ـ ٦٦٨ هـ)

هذان الربَّانيان اتحدا في عبادة الخالق وخدمة المخلوقين. ترجمهما الخزرجي فقال:

«هدى الله به أمة من الناس. في سنة ٦٦٨ توفي الشيخ الصالح أبو الحسن علي بن عبد الله المعروف بصاحب المقداحة، وكان من أعيان العباد ومشاهير الزهاد. قال الجندي: أخبرني الفقيه العارف بكثير من أحوال الناس أن هذا الشيخ كان في بدايته راعياً لغنم له في بعض النواحي المشرق، وكانت له زوجة فبينما هما ليلة على سقف بيتهما إذ أقبل فقير إليهما، فقالت المرأة لزوجها: قم إلى هذا الفقير واعتذر إليه، فإنا قد تعشينا وليس معنا شيء نطعمه منه. فقام الشيخ مبادراً فأمسكت رجلاه، فدخل في نفسه أن ذلك حال من الفقير، فغير نيته وعزم على تلقيه وإدخاله المنزل. ثم قال لإمرأته: قومي اطبخي لنا

---

(١) في طبقات الشرجي أن الشيخ مدافع من بني معين خولاني وقريته الوجيز غربي تعز.

شيئاً، وأتت لهما به فأكل الشيخ والفقير وهما يتحادثان، فما فرغا مسح على رأس الشيخ وصدره ثم ودعه وسار. ثم إن الشيخ عزم على الحج، فأعطى زوجته بعض الغنم الذي معه وباع الباقي فتزود بثمنه، وسار إلى مكة فلما قضى الحج عاد إلى بلده عازماً على خدمة الفقراء في بعض الربط، فقدم الجند وبها عدة من المشايخ أصحاب الأحوال والكرامات، فقصد شيخاً منهم يُعرف بعبد الله بن الرُّميش، بضم الراء وفتح الميم وسكون المثناة من تحت وآخر شين معجمه. ونسب بني الرميش في بني سكين. قال الجندي: فالتزم خدمة الرباط، فذكروا أنه امتحنه ولم يحكمه، وأراد اختباره كما جرت العادة من المشايخ. فظهر له منه أمور كثيرة وأحوال خارقة، فأراد أن يحكمه، فقيل له: إنه ليس من أصحابك إنما هو من أصحاب الشيخ أبي الغيث. فقال له يوماً: يا علي تقدم إلى الشيخ أبي الغيث فاصحبه فهو شيخك، فبادر ونزل تهامة. فذكروا أن الشيخ أبا الغيث كان يقول لأصحابه يقدم عليكم رجل كبير القدر من هذه الجهة في هذه المدة، ويشير إلى الطريق. فجاء منها فكان الفقراء يخرجون كل يوم إلى تلك الجهة يتلقونه، فلما كان اليوم الذي وصل فيه خرجوا يتلقونه، فوقفوا حتى أحرقتهم الشمس. فلما دخلوا البيت قدم الشيخ علي فدخل الربّاط، فلما رآه الشيخ أبو الغيث رحب به وحكمه من ساعته. وقد كان علي معلوم حصله في نظر الشيخ الرميش له بالجند، فازداد بنظر الشيخ أبي الغيث حسناً، حتى كان من أعيان الطريق. يقولون نساجة صاحب المقداحة، فاعتكف فيه. ولم يكن يومئذ فيه ساكن إنما يأتيه الرعاء أحياناً. فلما علم به الناس أتوه وسكنوا عنده وبنوا له المسجد، ثم بنوا له رباطاً وتحكموا على يده، فرباهم أحسن تربية بإلزام الصيام والقيام والزهد والورع. وأقبل الناس على الشيخ من كل ناحية بالفتوحات الكثيرة، فكان يقبلها ولا يبيت عنده شيء منها. واجتمع عنده جمع كثير ولازموا الجمعة والجماعة، وساروا في طريق القوم والشريعة، ولم يتجاوز الشريعة منهم أحد، فظهر في أصحابه جماعة أخيار. وكان لا يميز نفسه على أصحابه، فإذا وصل فتح وصل إلى الصغير منهم، كما يصل إلى الكبير. ومناقبه أكثر من أن تحصى.

ولم يزل على الطريق المرضي إلى أن توفي ليلة الثلاثاء لست بقين من جمادى الأخرى من السنة المذكورة، والله أعلم رحمه الله تعالى».

«وفي هذه السنة توفي الإمام الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي الهرمل، وكان من أعيان الفقهاء وفضلائهم، يسكن العطفة، قرية بين كدرسهام والحجمة، وهي بكسر العين المهملة. وكان من كرام الفقهاء، وذوي الإحسان فيهم، يقوم بالمنقطع من الطلبة.

ويروى أنه لما توفي بكى عليه من أربعين بيتاً، فسئلوا عن سبب ذلك، فقالوا: كان يقوم بكفايتنا ولا يعلم بنا أحد. وكان ورعاً شديد الورع. يروى أن الفقيه اسماعيل بن محمد الحضرمي قدم عليه في بعض الأيام، فنزل عنده في جماعة من أصحابه، فسأله عن صابون ليغسل به ثيابه، فقال له: منذ سمعت أن الغز يطرحون الجلجلان على الناس كذهب الصابون والغسل به، فلا أغسل ثيابي إلا بالحطم. فقال الفقيه إسماعيل لأصحابه: لقد فاق علينا هذا الرجل بورعه.

وله مصنف في الفقه سماه (التحفة) ضمنه زيادات الوسيط على المهذب، يدخل في مجلدين، يوجد مع أهل شجينة. وهو الذي قرأ (البيان) على الفقيه حسن بن علي الحميري. وكان بعض فقهاء الجن يسمع لقراءته، وقد تقدم ذكر ذلك. وكان مشهوراً مذكوراً، وامتحن بالعمى في آخر عمره، وأعاد الله عليه نور بصره. وكانت وفاته ليلة الاثنين لثمان خلون من رجب من السنة المذكورة في قريته المذكورة، بعد أن تفقه به جماعة، منهم: علي الصريسرح وعلي بن أحمد الحجفي وعلي بن عبد الله العامري وإسماعيل بن علي الوقاني، وجماعة كثيرون. والله أعلم».

القاضي المصلح محمد بن علي الرياحي (٥٩٩ هـ - ٦٨١ هـ)

قاضٍ مصلح من خير من أنجبتهم مدينة إب. قال الخزرجي في ترجمته:

«في سنة ٦٨١ توفي القاضي ابو عبد الله محمد بن علي بن عمر بن محمد بن علي أبي القاسم الرياحي، وكان قاضياً مرضياً في غاية الزهد والورع والاقتصاد في مطعمه وملبسه، وكان مولده في سنة تسع وتسعين وخمس مئة. وأصل بلده إب. وكان والده قاضياً بها، فلما دنت وفاته حذر والده محمداً من القضاء. فلما توفي والده لم يتعرض له امتثالاً لأمر أبيه له، فحدثت عليهم مظالم ومشاق كثيرة، فقالت له والدته: يا ولدي اذهب إلى سيد وأعلم قاضي الأقضية بوفاة أبيك، وما جرى عليك وعلى إخوتك من العنف والظلم، فلعله يجعلك مكان والدك فتستتر عن الظلم. فحينئذ تقدم إلى قاضي الأقضية وأعلمه بوفاة أبيه وشكا عليه ما ناله من الظلم، فترحم على والده وعزاه عنه ونصبه مكان أبيه، فعاد إلى البلد، فأقام بها قاضياً سالكاً للطريق المرضية، وكان تفقه بمحمد بن مضمون. فلما توفي قاضي تعز ابن أبي الأعز بعث إليه وولاه القضاء في مدينة إب. وكان القاضي محمد بن علي عالماً عاملاً ناسكاً ورعاً، كثير السعي في قضاء حوائج الناس، غير متكبر ولا متجبر.

قال الجندي: أخبرني الثقة عن الثقة أنه رأى القاضي محمد بن علي يمشي حافياً في هاجرة النهار ونعله في يده، قاصداً من المغربة إلى ناحية المحاريب في مدينة تعز. قال: فقلت له: يا سيدي لم فعلت هذا؟ قال: بلغني عن النبي ﷺ أنه قال: «من مشى في حاجة أخيه المسلم حافياً كان له أجر عظيم» أو نحوه ما قال. ويروى عنه أنه خرج يوماً حافياً مقرعاً، فلقيه بعض من يعرفه فصافحه، وسار بسيره لينظر أين يقصد فإذا هو قد قصد بيت أمير بدار الملك المظفر، فلما وقف على الباب بادر الخادم إلى الأمير فأعلمه بوصوله، فخرج الأمير مسرعاً وقبل يديه، ثم قال له: يا سيدي لم وصلت؟ وهلَّا أرسلت إليّ كنت أصلك.

فقال القاضي: أنا أحق بالأجر، فإن ساعدتني كنت شريكي فيه. فقال لي الأمير: وما الذي تريد يا سيدي؟ فقال: وصلني أولاد فلان وذكروا أنك حبست والدهم بالسوية وهم فقراء محتاجون، وبلغني أن النبي ﷺ قال: «من مشى في حاجة أخيه المسلم حافياً حاسراً أناله الله أجراً عظيماً» فلذلك جئت. فقال: يا سيدي، إنما حبس بأمر السلطان ولا يمكن إخراجه إلا بعد مراجعة. ثم استدعى الأمير بدواة قرطاس وكتب إلى السلطان يعلمه بوصول القاضي إليه حافياً حاسراً وأنه يشفع في فلان، وأرسل الكتاب رسولاً، فعاد الجواب من السلطان بإطلاق الرجل، ولم يخرج القاضي. من بيت الأمير إلا بالرجل معه. وكان له عند المظفر محل عظيم، وجاه جسيم من طريق الورع والصلاح.

قال الجندي: وأخبرني الفقيه عثمان الشرعبي وهو الذي علقنا عنه أخبار هذا القاضي وغيره من فقهاء تعز المتقدمين. قال: كتب أهل بلد غير بلده يشكون قاضيهم إلى السلطان الملك المظفر، فكتب السلطان إلى القاضي بهاء الدين انظر في أمرهم فالقضاة كلهم في النار إلا محمد بن علي، وذلك لما تحقق من ورعه بعد البحث الشافي عنه على يد من يثقه. ومن بعض ما يروى عنه أن بعض التجار حضرته الوفاة، فاستدعى القاضي محمد بن علي إلى بيته، فلما أتاه القاضي إلى بيته خلا به وقال له: إنني بنيت هذا الموضع على يدي بمال جزيل لا أكاد أحصر مبلغه، وأولادي كما ترى صغار. فقال له القاضي: لا بأس بذلك، ثم أمره أن يوصي إلى رجل خبير بأموره الظاهرة، ففعل ثم توفي الرجل، وكبر أولاده، فأتلفوا ما ظهر لهم من التركة، وأرادوا أن يبيعوا البيت من شدة حاجتهم فمنعهم القاضي فأقاموا مدة في ذلك الحال ثم بلغه صلاحهم، فصبر مدة ثم أمر من يختبرهم، فوجدوهم قد رشدوا، فأخبر القاضي بذلك، وأتاهم القاضي إلى بيتهم ففرحوا به وأدخلوه البيت ليتبركوا به، فقال للأرشد منهم: افتح هذا الموضع، ففتحه فخرج ذلك المال. فقال له القاضي: هذا أمانة عندي من والدك إليك لتتصرف به على نفسك وعلى إخوتك بالمعروف. فسأله الولد أن يأخذ منه

شيئاً ويحتسب به الولد من نصيبه، فلم يفعل. ويروى عن الأمير غازي بن يونس التعزي قال: كنت أيام شبابي قاعداً في البيت إذا بطالب يطلبني إلى القاضي، فداخلني منه فزع عظيم، ثم زال ذلك عني لما أعلم من عدل القاضي وحسن سيرته، فسرت إليه، فحين رآني تبسم، فلما دنوت منه سلمت عليه فرد عليَّ بوجه مسفر، ثم قال: هل لأبيك من ولدٍ غيرك؟ فقلت: لا، فقام ودخل بيته وأمرني بالدخول خلفه، فدخلت ولم يكن في البيت أحد. فسار أمامي حتى جاء المطبخ، فلما توسط أشار إلى موضع وقال لي: افتح ها هنا، ففتحت، فظهر لي إناءٌ فأخرجته، فأمرني بفتحه، فوجدته مملوءاً ذهباً. فقال لي: خذ هذا المال واحتفظ بنفسك فهو عندي وديعة لأبيك ولم أسلمه إليك إلا بعد سؤالي عنك. وأعلمت أنك عاقل رشيد لا ولد لأبيك غيرك، والحمد لله الذي منَّ علي ببراءة ذمتي قبل الموت. وأخباره كثيرة مشهورة.

وكان كثير العبادة مصاحباً للعباد، وكان يصحب علي الرميمة أحد عباد جبل صبر، ويكثر زيارته، ويخبر عنه بأشياء كثيرة. وكان يقول: ما على قلبي هم إلا أن أكون في بعض المساجد أو الربط حتى أستفرغ بقية عمري في عبادة الله تعالى. ولم يزل على القضاء المرضي ممتحناً إلى أن توفي يوم السبت الحادي عشر من شوال من السنة المذكورة. رحمه الله تعالى».

علامة الحديث محمد بن إبراهيم الفشلي
(٥٨٥ هـ - ٦٦١ هـ)

وفشال قرية قديمة بجهة وادي رمع لعل الحسينية اليوم قامت على أنقاضها.

قال الخزرجي:

«في سنة ٦٦١ توفي الفقيه الإمام أبو محمد عبد الله محمد بن إبراهيم بن علي بن عبد العزيز بن عبد الرحمن الفشلي، وكان فقيهاً كبيراً محدثاً. مولده في الرابع عشر من شعبان سنة خمس وثمانين وخمس مئة. وأخذ عن جماعة من

الأكابر كالشريف أبي حديد وابن مروبة الموصلي وغيرهما، وارتحل إلى مكة والمدينة، وأخذ عن أعيان المشايخ هنالك كابن أبي الصيفر وعمر بن عبد المجيد القرشي وغيرهما. وأخذ عنه أحمد بن علي السرددي وغيره. وكانت له مكانة عند المنصور نور الدين ثم عند ولده السلطان الملك المظفر، وسمع عليه عدة من كتب الحديث. وكانت وفاته يوم الأربعاء عاشر شهر رمضان من السنة المذكورة. ركب دابته يوماً في مدينة زبيد يريد بعض حوائجه، فمرت الدابة عند كلب فنبحها فجفلت منه، فوقع الفقيه من ظهرها ميتاً في التاريخ المذكور. أما والده إبراهيم الفشلي فكان رجلاً صالحاً ذا عبادات وكرامات، وهو شيخ أحمد الصياد والذي كان يدله على الطريق إلى الله تعالى، بحيث حكى صاحب سيرته عنه أنه قال: لما فتح الله علي بما فتح لم يسلم لي الفقهاء والمشايخ غير هذا الشيخ إبراهيم الفشلي. إنه أخي وقسمتي في الدنيا والآخرة. وكان يثني عليه ثناءً حسناً. هكذا ذكر مؤلف سيرة الشيخ أحمد بن أبي الخير الصياد. نفع الله بهم آمين» ا.هـ. وقد ترجم الشرجي الولي الصيّاد، وهو من كبار الأولياء في القرن السادس.

نابغة تهامة محمد بن أبي بكر الحطاب (٠٠ ـ ٦٦٥ هـ)

والحق أننا نتجوز تجوزاً لغوياً بتلقيبه بالنابغة، إذ أن النابغة عند العرب من نبغ بعد الثلاثين، ولكنه النعت الذي لم يرق لي سواه، فأطلقته على هذا العلامة الموسوعي الذي جمع عشرين علماً ولم يتجاوز عمره عشرين عاماً، وحق لزبيد بل لتهامة بل لليمن أن تباهي به نوابغ الإسلام.

توفي رحمه الله سنة ٦٦٥. توفي الفقيه الإمام البارع أبو عبد الله بن أبي بكر بن حسين بن عبد الله الزوقري الركبي المعروف بابن الحطاب، لأن أباه كان يسكن قرية النويدرة التي هي على باب سهام من مدينة زبيد، وكان يبيع الحطب فيها. وكان ميلاد الفقيه في آخر المئة السادسة، وتفقه بالفقيه علي بن قاسم

الحكمي، واطلع على علوم شتى، وكان فقيهاً بارعاً، أصولياً فروعياً فرضياً، حساباً مفسراً محدثاً مقرئاً، يقرأ القراءات السبع. وكان يقول: أنا ابن عشرين ليس لي مناظر في شيء منها. ويروى أن بعض الأكابر من أهل زبيد عمل وليمة وطلب أكابر الفقهاء، فحضروا وحضر من جملتهم الفقيه علي بن قاسم، وتأخر ابن الخطاب المذكور، وطال بطؤه عن حضور الجماعة، ثم وصل بعد ذلك والناس جميعهم في انتظاره، فأقبل يميس، عليه ثياب مرتفعة. فقصد صدر المجلس غير محتفل بأحد، فقال شيخه علي بن قاسم: ما هذا العجب مع هذا الصبي؟! فنقل إليه المجلس ما قاله الفقيه، فقال متمثلاً بقول أبي الطيب:

إن أكن معجباً فعجب عجيب
لم يجد فوق نفسه من مزيد

ثم قال: وكيف لا أعجب وأنا ابن عشرين علماً لا أجد من يناظرني في شيء منها؟ فنقل الكلام إلى الفقيه علي بن قاسم، فقال: شغله الله فكان من أمره ما كان. ولما تفقه ابن الخطاب وبرع على أهل عصره، انتقل من قرية النويدرة إلى مدينة زبيد، وتزوج بنت شيخه علي بن قاسم الحكمي، وحاز مسجد الأشاعر على أصحاب الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، وأقام يدرس فيه، وإذا دخل وقت الصلاة يأمر المؤذن بالأذان، ثم يبادر إلى الصلاة في أول وقتها. فتعب من ذلك أصحاب الإمام أبي حنيفة. وكان لا يكاد يوجد إلا مدرساً لعلم أو مقبلاً على صلاة، وكان غالب تدريسه في مسجد الأشاعر وتارة في المسجد الذي عند بيته، وهو المسجد المعروف بمسجد الأمير فخر الدين في حافة الخبازين شرقي الموضع المعروف بالمدرك. ولم يزل هذا دأبه برهة من الزمان. فلما كان ذات يوم من الأيام استدعى بأخيه أبي الخير بن أبي بكر الخطاب، الذي هو جَدُّ بني الخطاب الموجودين في قرية النويدرة، فقال له: يا أخي، إني رأيت البارحة ربي تعالى فقال لي: يا محمد، أنا أحبك، فقلت: يا رب من أحببته ابتليته! فقال لي: استعد للبلاء. وأنت يا أخي فكن على أهبة من أمري. ثم إنه

خرج في يومه ذلك إلى مسجد الأشاعر بزبيد، فصلى فيه العصر مع جماعة ثم رجع إلى بيته مسرعاً، فلما صار في أثناء الطريق غشي عليه، فمر به الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي وهو في تلك الحال، فأكبّ عليه وقبله بين عينيه، وقال: أهلاً بك يا محبوب. ثم حمل إلى بيته. وكان ذلك وهو ابن خمس وعشرين سنة. وكانت زوجته بنت شيخه الفقيه علي بن قاسم الحكمي، ففسخ عليه نكاحها، واشترى له من ماله جارية، وخطبت زوجته فقالت: لا أريد بدلاً حياً ولا ميتاً. فكانت الجارية تخدمه وتقوم بحاله وتحفظه في ساعة غفلاته. ووطئها فولدت له ابنتين عاشت إحداهما إلى سنة إحدى وعشرين وسبع مئة.

وكان من أكثر الناس حفظاً للآثار والأخبار والأشعار، وكان الطلبة من أهل عصره وأصحابه يقرؤون عليه في الأوقات التي يكون فيها معافى يقول شعراً حسناً.

قال الجندي: أخبرني والدي يوسف بن يعقوب قال: كنت أحب هذا الفقيه على ما أسمع عنه، وأكره أن أراه وهو على ما بلغني عنه من الحال. فجاءني بعض الأصحاب يوماً وقال لي: أريد أن تذهب معي إلى الفقيه محمد بن الخطاب لأسلم عليه وكان الرجل يصحبه أيضاً فرافقته وسرت معه إليه، فلما دخلنا عليه سلمنا عليه فرد السلام رداً حسناً، ثم قال الرجل: يا محمد، هل جئتنا بشيء فقال ما جئت إلا بنفسي، فقال مرتجلاً:

أتانا أخ من غيبة كان غابها
وكان إذا ما غاب ننشده الركبا
فقلت له: هل جئتنا بهدية؟
فقال: بنفسي، قلت: نطعمها الكلبا

قال الجندي: ونحو ذلك ما أخبرنا الشيخ أبو الحسن علي ابن الشيخ الفاضل منصور بن حسن عن أبيه قال: دخلت أنا والمقري محمد بن علي إلى

الفقيه محمد بن أبي بكر الحطاب، فسأله المقري عن مسألة في الحيض مشكلة، فأبانها له ثم أنشده:

لو علمنا مجيئكم لبذلنا
مهجة النفس أو سواد العيون
وفرشنا على الطريق خدوداً
ليكون المرور فوق الجفون

وأوصافه الحسنة جمة كثيرة لا يمكن استيعابها. وكانت وفاته بزبيد، وقبره في مقبرة باب سهام، وقبره معروف ومشهور مزار، ويتبرك به وعند قبره رجل من التابعين وقيل من الصحابة.

العالم المطعم محمد بن هرمل (٠٠ ـ ٦٦٨ هـ)

سبق الإلماح في ترجمة صاحب المقداحة في اندراج ترجمة هذا معه، وعدنا لإفراده هنا:

وفي سنة ٦٦٨ توفي الإمام الصالح أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن الهرملي، وكان من أعيان الفقهاء وفضلائهم يسكن العطفة، قرية بين كدر سهام والعجمة، وهي بكسر العين المهملة. وكان من كرام الفقهاء وذوي الإحسان فيهم، يقوم بالمنقطع من الطلبة. ويروى أنه لما توفي بكي عليه في أربعين بيتاً، فسئلوا عنه بسبب ذلك، فقالوا: كان يقوم بكفايتنا ولا يعلم بنا أحد. وكان ورعاً شديد الورع. ويروون أن الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي قدم عليه في بعض الأيام فنزل عنده جماعة من أصحابه فسأله عن صابون ليغسل به ثيابه، فقال له: منذ سمعت أن الغز يطرحون السمسم على الناس كرهت الصابون والغسل به، فلا أغسل ثيابي إلا بالحطم. فقال الفقيه إسماعيل لأصحابه: لقد فاق علينا هذا الرجل بورعه. وله مصنف في الفقه سماه (التحفة)، ضمنه زيادات الوسيط على المهذب، يدخل في مجلدين، يوجد مع أهل شجينة . وهو

الذي قرأ (البيان) على الفقيه حسن بن علي الحميدي. وكان بعض فقهاء الجن يسمع قراءته، وقد تقدم ذكر ذلك. وكان مشهوراً مذكوراً، وامتحن بالعمى في آخر عمره، وأعاد الله عليه نور بصره. وكانت وفاته ليلة الاثنين لثمان خلون من رجب من السنة المذكورة، بعد أن تفقه به جماعة، منهم علي الصريدح وعلي بن أحمد الجعفي وعلي بن عبد الله العامري وإسماعيل بن علي الوقاني، وجماعة كثيرون. والله أعلم.

عمرو السباعي الشاوري (٥٨٨ هـ - ٦٦٥ هـ)

في ترجمة هذا العالم ما يشهد بالمكانة العلمية لأبيات حسين بوادي سردد. وإنها ضمت هذا العالم الكبير وشيخه علي بن مسعود، ومنها خرج علامة اليمن السيد حسين بن عبد الرحمن الأهدل، وكان في علمائها بعض الأحيان من يبذ علماء زبيد.

قال الخزرجي: توفي سنة ٦٦٥ الفقيه العالم أبو محمد عمرو بن علي بن عمرو بن محمد بن عمرو بن أسعد بن أبي جعفر بن عباس السباعي، وكان يلقب بمظفر الدين. وولد في بلد بني شاور سنة ثمان وثمانين وخمس مئة، وصحب الفقيه علي بن مسعود وتفقه به، وقصد جبا فأخذ عن أبي بكر ابن يحيى غريبي الهروى، ثم مصنعة سير فأخذ عن الحسن بن راشد مسند أحمد بن حنبل. وكان ممن أخذ عن ابن أبي الصيف» ا. هـ

ونعرف من هذا أن مصنعة سير المجاورة للجند. كانت حينذاك عامرة بكبار المحدثين، الذين لم يكتفوا بالأخذ عن علماء اليمن، وإنما أخذوا عن عامة الأمصار بالحرمين وغيرها.

ويستمر الخزرجي في ترجمة للسباعي قائلاً: «ثم قصد مصنعة مرة أخرى في سنة ثمان وخمسين وست مئة، فأخذ القضاة عنه بها شيئاً من مسند الإمام أحمد بن حنبل. ولما انتهى في الفقه انقطع عن شيخه علي بن مسعود، وهو إذ

ذاك ببيت خليفة عند الشيخ عمران بن قبيع القرابلي، فاشترى موضعاً عند أبيات حسن وابتنى فيه مسكناً، وازدرع ما زاد على موضع البناء. وكان قد تزوج بابنة أخي شيخه علي بن مسعود، وبورك في الذرية منها بركة ظاهرة. وكان تزويجه بها سنة ثمان وعشرين وست مئة.

ويروى أن الفقيه المصري خرج من بلده وقد صار فقيهاً، فقصد زبيد وناظر فيها فقهاءها، لم يجد عندهم مقنعاً، فتمثل بقول الأول:

لما دخلت اليمنا رأيت وجهي حسنا
أفٍ لها من بلدة أفقه من فيها أنا

ثم عاد من فوره، وكلما مر بفقيه قصده وناظره، حتى أتى ببيت حسين فأراد الاجتماع بالفقيه علي بن مسعود، فقصد مدرسته وهو إذ ذاك مقيم مع تلميذه هذا عمرو بن علي السباعي. وكان أول من لقيه عمرو بن علي، فظن أنه الفقيه علي بن مسعود، ففاتحه السؤال فلم يزل عمرو يجيبه ويستزيده حتى تم سؤاله، ثم ألقى عليه عمرو سؤالات أجاب عن بعضها وتأخر عن بعض، فقال له الفقيه عمرو: وكيف ترى وجهك الآن؟ إشارة إلى البيت الذي بلغه أنه تمثل به؛ إذ كان قد بلغهم تمثله به. فقال: يا سيدي المعذرة إلى الله ثم إليك يا أبا الحسن. فعلم الفقيه عمرو أنه لم يعرفه، وأن في ظنه أنه الفقيه علي بن مسعود. فقال: إنما أن بعض تلامذة الفقيه علي، وأما الفقيه علي فهو ذاك في محراب المسجد، فأقدم إليه. فقدم إليه وقد علم أنه لا طاقة له به، وقال في نفسه: إذا كان هذا درسي من درسته، فكيف يكون المدرس؟ ثم دخل الفقيه وسلم عليه وسأل منه الدعاء، وكان عمرو كبير القدر معظماً عند أهل العصر، وكان شيخه علي بن مسعود[1] يثني عليه ثناء حسناً ويقول: هو أكثر أصحابي أخذاً عني، وهو

(١) قال الشرجي: إنه علي بن مسعود بن علي بن عبد الله السباعي الهمداني. توفي سنة بضع وخمسون وست مئة.

الذي لقبه بمظفر الدين، وأعطاه كتبه في آخر الأمر، واستخلفه على تدريس أصحابه. فدرس واشتغل بالفقه والعبادة، وتفقه به جمع كثير من أهل تهامة والجبال. وممن تفقه به ابنه محمد بن عمرو وعلي بن إبراهيم وأحمد بن علي بن هلال. ولم يزل على الحال المرضية في التدريس والفتوى ألى أن توفي عصر يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من جمادي الأولى من السنة المذكورة. رحمه الله تعالى».

علي بن حجر الهجري (٥٩٨ هـ - ٦٨٥ هـ)

ترجمه صاحب العقود اللؤلؤية فقال:

«في سنة ٦٨٥ توفي الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن حجر بن أحمد بن حجر الأزدي نسباً، والهجري بلداً. وضبط حجر بضم الحاء المهملة وسكون الجيم وآخره راء. وكان يعرف بأبي حجر، وسكن عدن. وكان مولده سنة ثمان وتسعين وخمس مئة تقريباً، وكان فقيهاً محدثاً. له مسموعات وإجازات. وكانت دنياه واسعة، وكان متورعاً من أن يخلط ماله بشيء من الشبه، وكان لا يعامل من يتهمه بذلك، وكان لا يحتكر الدرهم في بيعة.

قال الجندي: وأخبرني والدي يوسف بن يعقوب رحمه الله قال: كان رجل في مدينة الجند عطاراً، وكان أصله من مدينة إب، وكان لا يتجاوز في الدرهم إنما يأخذ الواحد من العشرة. فاتفق له سفر إلى عدن ليشتري عطراً، فوصل إلى هذا الفقيه، وسأله عما يريده من الحوائج، فقال له: كلها موجودة. فناوله صرة دراهم، فقال الفقيه لبعض عبيده: خذها وانقدها. فقال الإبي: لا تحتاج إنقاداً فليس في بلدي من يحتكر الدرهم مثلي. فقال له الفقيه: وأنت تحتكر الدرهم؟ قال: نعم، قال: أعد له دراهمه، فما تدخل بين دراهمي. فأعادها عليه، وانصرف خائباً. وكان كل من قدم عدن من أهل الفضل إنما ينزل في الغالب على هذا الفقيه، فينزله في بيت من بيوته على قرب منه. ويكون الناس يجتمعون

إليه للقراءة في مسجد السماع. ويسمى مسجد السماع لكثرة ما يسمع فيه من الكتب على وارديه. وكان من جملة من قدم عليه الفقيه أبو الخير بن منصور بن أبي الخير. وربما قبل له أنه أخذ عنه. وقد أخذ عن أبي حجر جماعة من أهل عدن وغيرها، منهم: الفقيه أحمد الحرازي وأحمد القزويني ومحمد بن حسين الحضرمي وغيرهم. وبلغ الفرض الزكوي من ماله أربعين ألفاً، وقيل ستين ألفاً، يتصدق بذلك في غالب أيامه حتى كادت لا تنقطع صدقته. ولم يزل على ذلك ألى أن توفي ليلة الأربعاء الخامس من صفر من السنة المذكورة وهو ابن ثمان وثمانين سنة».

العالم صاحب الكرامات عبد الله بن عمر بن سعيد (٦٢٤ هـ - ٦٩٧ هـ)

من العلماء الاولياء الذين ترجمهم الخزرجي فقال:

«في سنة ٦٩٧: توفي الفقيه الصالح عبد الله بن أبي بكر بن عمر بن سعيد السعدي نسباً الأبيني بلداً، المعروف بابن الخطيب. وكان أبوه خطيباً في قرية من قرى أبين تعرف بالطرية، وكان مولده بها يوم.الجمعة السادس من شهر رمضان من سنة أربع وعشرين وست مئة. فلما شب وقرأ القرآن خرج من بلده طالباً للعلم، فوصل قرية الضحى من نواحي سردد، فأدرك الفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي فأخذ عنه بعض شيء، ووجده مشغولاً بالعبادة قليل الفراغ لإقراء العلم، فعزم على الانتقال إلى بعض الفقهاء، وخرج عن القرية لذلك، فعلم به الفقيه محمد بن إسماعيل فتبعه وأعاده وجاء به إلى ولده إسماعيل. وقد تفقه وهو معتكف في المسجد يطالع الكتب، فقال له: يا ولدي قد ألزمتك إقراء هذا الفقيه وتعليمه. فقال: حباً وكرامة. فكان أول من لزم مجلس الفقيه إسماعيل وتفقه به. ولم يزل عنده حتى كمل تفقهه، ثم حصلت له عناية من الفقيه إسماعيل، فاستغرق في العبادة، وظهرت له كرامات. وكان كثيراً ما يرى

النبي ﷺ، فيسأله عن أمور مشكلة فيبينها له. ولما كمل تفقهه وصار ممليّاً من سر الله، عاد إلى بلدة الطرية فلم يطب له، فدخل مدينة عدن وسكن مسجداً يعرف الآن به بناحية حرام الشوك. فتسامع به أهل بلده، وقصدوه إلى المسجد، وترددوا إليه حتى شغلوه عن العبادة، فتعب لذلك أشد التعب وشكا إلى بعض خواصه ذلك، فقال: يا فقيه سلهم قرض شيء من أموالهم، فعمل ذلك مع أحدهم فاعتذر وخرج. وصار كلما لقي أحداً من أصحابه، أخبره أن الفقيه سأله قرض شيء من ماله فاعتذر منه، فعرفوا أنهم متى وصلوا الشيخ سألهم كما سأل الأول، فلم يعد أحد بعد ذلك يأتي الفقيه، وانقطع الناس عن الوصول إليه، فاستراح لذلك أشد راحة.

وكان في عدن رجل مغربي له بنات وفيه خير ومحبة للعلماء والصالحين، وعنده دنيا واسعة. فوصل إلى الفقيه، وصحبه وائتلف به ائتلافاً شديداً، وزوجه واحدة من بناته، فولدت له عدة أولاد. وصحب الفقيه جماعة من أهل عدن، وانتفعوا به نفعاً عظيماً، وتهذبوا وصاروا أهل عبادة وزهاده. وأقام الفقيه في عدن مدة، ثم خرج منها قاصداً تهامة. فلما وصل موزع وقد علم بوصوله فقيهها وحاكمها يومئذ الفقيه حسن الشرعبي، خرج في لقائه فلما التقاه أكرمه وأنصفه، وأنزله في بيته وبجّله وعظم حرمته، فلما رآه الناس تأسوا به. ثم إن الفقيه أعجبته موزع فتديرها، وظهرت له فيها كرامات تخرج عن الحصر، حتى إن كل من جنى ذنباً وهرب على ناحية الفقيه، لا يقدر عليه أحد أبداً، ولا يقصده أحد بشر ما دام في جوار الفقيه.

ولما مرض الفقيه مرض موته الذي مات فيه، دخل عليه جماعة يعودونه في يوم سبت، فقال: يكون يوم الثلاثاء جلبة عظيمة، يا لها من جلبة! فكانت وفاته في يوم الثلاثاء لثمان بقين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وقبره في المقبرة التي قبر فيها الفقيه يعقوب، وغيره من فقهاء موزع. وإلى جنبه قبر

الكاشغري في وسطها، والشرعبي في شرقيها ويعقوب في غربيها. رحمة الله عليهم أجمعين».

قاضي صنعاء محمد بن أحمد مضمون (٠٠ ـ ٧١٥ هـ)

أسرة آل مضمون من الأسر اليمنية المباركة العريقة في الخير والعلم، فقد توارثوا أخذ العلم ونشره كابراً عن كابر، وكانت لجدهم الأكبر محمد بن مضمون مدرسة معروفة باسمه بإب. وزيادة في توضيح خيرية هذه الأسرة نورد ترجمة الخزرجي لأحمد بن يحيى بن محمد بن مضمون والد القاضي صاحب الترجمة: «في سنة ٦٧٢ توفي الفقيه أبو الحسن أحمد بن يحيى ابن الفقيه محمد بن مضمون، وكان مشاركاً في العلم ولكن اشتغاله بأمور الدنيا أكثر، وكان مشهوراً بالكرم وكثرة إطعام الطعام، حتى أفنى من ماله جملة مستكثرة، فبلغ علمه إلى الأمير شمس الدين علي بن يحيى العنسي، فأدركته عليه شفقة وكان يصحبه، فدخل عليه يوماً زائراً له مع جماعة من الفقهاء وكان قد أعلم بحاله، فلما أراد الناس الخروج من مجلس الأمير استوقفه الأمير، فلما خلا المكان قال له: يا فقيه بلغنا عنك أنك كثير التفريط لما في يديك، وأنت فقيه ودخلك قليل من وجه حلال، وما خرج عنك لا يكاد يقع لك عوضه إلا بمشقة، وأظنك تريد الاقتداء بنا ولا ينبغي لك ذلك؛ لأنا نحن محصولنا كثير من غير كلفة، يسهل علينا خروجه كما يسهل علينا دخوله. ثم وبخه على فعله وحذره من مرارة الفقر والفقيه ساكت مطرق. ثم قال له: أحب أن تعاهدني أنك لا عدت إلى شيء من ذلك، فقال له الفقيه: أستخير الله الليلة، وآتيك غداً إن شاء الله بما قويت عليه عزيمتي. فلما كان تلك الليلة صلى صلاة العشاء ثم صلى صلاة الاستخارة ونام، فرأى قائلاً يقول له: يا فقيه أنفق فإنك ممن وقى شح نفسه. فلما أصبح غدا إلى الأمير فأخبره بمنامه وما قيل له، وأنه باق على ذلك الأمر. فبكى الأمير وقال: ﴿في أي صورة ما شاء ركبك﴾. ولم يزل على حاله إلى أن توفي في السنة المذكورة تقريباً».

أما ترجمة قاضي صنعاء، ولده محمد، فكما ساقها الخزرجي قال: «في سنة ٧١٥ توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مضمون، وكان فقيهاً عارفاً نحوياً. ولي قضاء صنعاء من قبل بني محمد بن عمر. وكان شديد الأحكام، مبالغاً في إقامة الحق وإقامة مذهب السنة وإماتة البدعة، وكان يحلف الإسماعيلية بأيمان تشق عليهم. ثم بلغه أن بعضهم لما مات ودفن دُفِن معه مصحف، فأمر من ينبش القبر عنه، وأخرج المصحف، فشق ذلك عليهم وكادوه، وبذلوا في عزله الأموال الجزيلة، فعزل بغير وجه يوجب العزل. فعاد إلى بلاده وأقام مدة ثم رتبه بعد أولاد أسد الدين مدرساً في مدرسة جده بإب، فلم يزل بها إلى أن توفي في السنة المذكورة».

قاضي صنعاء الكبير (٠٠ ـ ٦٨٤ هـ)

عمر بن سعيد الربيعي

من كبار علماء السنة الذين تولوا قضاء صنعاء في القرن السابع قال الخزرجي: «في سنة ٦٨٤ توفي القاضي أبو حفص عمر بن سعيد بن محمد بن علي الربيعي، وكان فقيهاً محدثاً. أخذ عن أخيه لأبيه علي بن عمرو غيرة، وتولى قضاء صنعاء حين عزل عنه، وكان من أفصح الناس وأحسنهم رواية للحديث والتفسير، وكان إذا حضر مجلساً لم يكن لأحد فيه ذكر دونه. ويروى أن محفوظه خمسة آلاف حديث. وكان السلطان الملك المظفر يعظمه، وكانت دنياه متسعة اتساعاً عظيماً. ومن عجيب ما جرى له أنه كان قاعداً مع الأمير الشعبي في دار السلطان في صنعاء إذ خرّ عليهم السقف وهم جماعة، منهم محمد بن حاتم الهمداني وأخوه ومحمد بن زبيد صهر الشعبي. فمات الجميع تحت الهدم وسلم القاضي المذكور ومحمد بن حاتم. وكان يحكي القاضي أنه لما تهورت الدار رأى رجلاً كبيراً في السن ألقىٰ عليه خشبة وسجفاً وسقفها عليه فلم يصله الهدم. وكان هذا القاضي عظيم القدر، شهير الذكر، معظماً عند كبراء العصر، نشرت فضائله شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً. ولا أعلم أحداً من أهل

عصره اشتهر كاشتهاره -حتى رأيت مجلداً لطيفاً في مناقبه، تصنيف الفقيه علي بن أبي بكر الفراء الصنعاني. وجاء تقليده من بغداد متوجاً بالعلامة الشريفة العباسية المستعصمية، وفيه من التعظيم والتجليل لجلاله والتنويه بقدره ما يليق به. وكانت ولايته من مدينة إب إلى نفسه، ومضت أحكامه في هذه البلاد كلها ونفذت، وأخذ عنه جماعة من أهل صنعاء وغيرهم. وكان له عدة أولاد لم يقم أحد منهم مقامه، وكان من أكثرهم زواجاً في صنعاء وإب وغيرهما. وكانت وفاته في السنة المذكورة، وقيل في سنة خمس وثمانين والله أعلم» ا. هـ.

ومن كرامات هذا القاضي ما ذكره الخزرجي: ومن غريب ما يروى للفقيه عمر من الكرامات أنه قال: حصلت علي حمى حتى انقطعت بسببها أياماً في البيت، فسأل الفقيه عني فأخبره إخوته بذلك، فأتاني يزورني إلى ذي مجدان وقال لي يا إبراهيم: أتحب أن أكتب لك عزيمة تعلقها عليك بشرط ألا تفتحها ولا تنظرها فيها؟ فقلت: نعم. فاستدعىٰ بدواة وقرطاس وكتب سطراً لم أدر ما هو، ثم طوى الورقة وناولنيها، وأمرني بتعليقها على عضدي بخيط، ففعلت، فلم أكد أتمم تعليقها حتى انقطعت عني الحمى، فعجبت من ذلك فقلت: في هذه الورقة اسم عظيم، وأظن الفقيه حسدني عليها. ثم فتحتها فوجدت فيها مكتوباً «بسم الله الرحمن الرحيم»، لا غير، فعجبت من ذلك، وداخلني بعض ما يداخل العارف من المعروف إذا بالحمىٰ قد عاودتني بحالة أشد من الأولى، فرحت إلى الفقيه وأخبرته. فقال: لعلك فتحت العزيمة؟ فقلت: نعم، فقال: أكتب لك غيرها بشرط أن لا تنظر فيها، فقلت: سمعاً وطاعة. فكتب مثل ذلك وأمرني أن أعمل لها خيطاً أعلقها علي، فلم تأتني الحمىٰ، فلبثت أياماً ففتحتها فوجدت ما وجدت أولاً، فداخلني شيء ما هو دون ما داخلني أولاً، فلم أقم حتى عادت الحمى، فرحت إلى الفقيه وسلمت عليه، فقال لي: هل نظرت في العزيمة؟ فقلت: نعم، فقال لي: ألم أنهك، اقتصر عن ذلك وأنا أكتب لك غيرها. فأجبت بالطاعة. وكتب لي غيرها، فلما علقتها انقطعت الحمىٰ،

فحمدت الله تعالى، ولم أفشِ العزيمة إلا بعد سنين، ووضعتها علىٰ رأسي، فلم تعد لي الحمى بعد ذلك.

الولي الكبير إبراهيم الكينعي (٠٠ ـ ٧٩٣ هـ)[1]

قال الشوكاني في البدر: «بلَّ الله بوابل الرحمة ثراه. ولم أقف على تاريخ مولده بعد البحث عنه. وبنو الكنيعي عرب لهم رياسة، وكانوا يسكنون قرية من قرىٰ اليمن بينها وبين ذمار مقدار بريد، وبها مولده. وانتقل به أبوه إلى قرية معبر، وكان قريع أوانه. وفريد زمانه في الإقبال على الله والاشتغال بالعبادة والمعاملة الربانية، وبيته معمور بالعلم والزهد والصلاح وقد ترجمه بعض معاصريه بمجلد ضخم، وقفت عليه في أيام متقدمة، وأطنب في ذكره جميع من له اشتغال بهذا العلم منذ عصره إلى الآن، فمنهم السيد العلامة الهادي بن إبراهيم الوزير والسيد العلامة يحيىٰ بن المهدي بن قاسم بن المطهر وغيرهما. وكان أحسن الناس وجهاً وأتمهم خلقة، قد غشيه نور الإيمان وسيماء الصالحين، وإذا خرج نهاراً ازدحم الناس على تقبيل يده والتبرك برؤية وجهه، وهو يكره ذلك وينفر عنه، يغضب إذا مدح ويستبشر إذا نصح.

ارتحل بعد موت والده وهو في سن البلوغ إلى صنعاء، ولازم ولي الله الزاهد العابد حاتم بن منصور الحملاني، فقرأ عليه في الفقه، وقرأ في الفرائض علىٰ الشيخ الخضر بن سليمان الهرش، وفي الجبر والمقابلة، وفاق في جميع ذلك حتى أقر له أقرانه. وقال عن نفسه إنه يقدر على تقدير ما في البركة الكبيرة من الماء بالأرطال. وكان يتكسب بالتجارة مع قنوع وعفاف واشتغال بأنواع العبادة، فجمع مالاً حلالاً عاد به على أهله وإخوانه ومن يقصده. وكرر السفر إلى مكة المشرفة وهو يزداد في أوصاف الخير على اختلاف أنواعها، حتى خالط الخوف قلبه وشغل بوظائف العبادة قالبه، واستوحش من كل معارفه، ومال إلى الانعزال عن

---

(١) وقيل إنه توفي في ٧٨٤ هـ وهو وهم كما ذكره المؤلف.

الناس وانجمع عن المخالطة لهم، وعكف على معالجة قلبه من مرض حب الدنيا، ولزم المحاسبة لنفسه عن كل جليل ودقيق، وصام الأبد إلا العيدين، والتشريق، وأحيا ليله بالقيام لمناجاة ربه. وتناقل الناس عنه كلمات نافعة هي الدواء المجرب لإصلاح القلوب القاسية، كقوله: «ليس الزاهد من يملك شيئاً إنما الزاهد من لا يملك شيئاً، وكقوله لبعض إخوانه: «يا أخي، جدد السفينة فإن البحر عميق، وأكثر الزاد فإن الطريق بعيد، وأخلص العمل فإن الناقد بصير»، وكقوله: «بالفقر والافتقار والذل والانكسار تحيا قلوب العارفين». ومن شعره الذي تحيا به القلوب قوله:

ببابك عبد واقف متضرع مقل فقير، سائل متقطع
حزين كئيب، من جلالك مطرق ذليل عليه قلبه متطلع

ومنها:

فؤادي محزون، ونومي مشرد ودمعي مسفوح، وقلبي مروع

وكان مجاب الدعوة في كل ما يتوجّه له، وله في ذلك حكايات وروايات. وكان إذا دعي إلى طعام ليس من الحلال الخالص، يبست يده ولم يقدر على مدها إليه. وقد رآه بعض الصالحين بعد موته وهو في مكان أرفع من مكان إبراهيم بن أدهم، فقال: سبحان الله منزلة إبراهيم الكينعي أرفع من منزلة إبراهيم بن أدهم. فسمع قائلاً يقول: لولا أن منازل الأنبياء لا يحل لها غيرهم لكان بها إبراهيم الكينعي.

وجاور في آخر عمره ثلاث سنين بالبيت الحرام، فوصل إلى جازان وكان قد انقطع عنهم المطر مدة طويلة، فسألوه أن يدعو لهم بالمطر، فدعا لهم، فحصل من المطر ما عم نفعه وبركته جميع تلك البلدان. ثم وصل إلى صعدة وكان بها موته رحمه الله، فأصبح نهار الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٧٩٣. ووهم الصفدي في كتابه الوافي بوفيات الأعيان، فقال: إنه توفي سنة

٧٨٤، والصحيح ما ذكرناه. وقبر برأس الميدان غربي مدينة صعدة، وعمر عليه مشهد، وهو مشهور يزار في تلك الديار. وقد رثاه جماعة من الشعراء منهم السيد العلامة الهادي إبراهيم بقصيدة طنانة مطلعها:

شجر السلامة والكرامة أينعي   للقاء سيدنا الإمام الكينعي

والإحاطة ببعض البعض من مناقب هذا الإمام تقصر عنها ألسن الأقلام، فمن دام الوقوف على ما يكون له من أعظم العبر فلينظر في سيرته التي قدمت الإشارة إليها. وقد بسط فيها الكلام على أحواله ووظايف عباداته».

الشيخ الصالح عبد الله بن أسعد اليافعي (٦٩٨ ـ ٧٦٨ هـ)

العلامة الولي الرحّال ترجمه الشوكاني فقال: «ولد قبل السبع مئة بسنتين أو ثلاث، وأخذ باليمن على جماعة من العلماء، ونشأ على خير وصلاح، وحج سنة (٧١٢)، وحفظ الحاوي والجمل. ثم جاور بمكة في سنة (٧١٨) وتزوج بها، ولازم مشايخ العلم كالفقيه نجم الدين الطبري والرضى الطبري، ثم فارق ذلك وتجرد عشر سنين يتردد فيها ما بين الحرمين. ورحل إلى القدس سنة ٧٣٤. ودخل دمشق ومصر، ثم رجع الحجاز وجاور بالمدينة، ثم رجع إلى مكة، ولم يفته الحج من جميع هذه المدة. وأثنى عليه الأسنوي في (الطبقات) وقال: كان كثير التصانيف، وله قصيدة تشتمل على عشرين علماً أو يزيد. وكان كثير الإحسان إلى الطلبة».

ولعله صاحب التاريخ الذي اعتمد فيه على تاريخ ابن خلكان وتاريخ الذهبي. وقد ترجم فيه جماعة من الشافعية والأشعرية، وفيه من التعصبات للأشعري أشياء منكرة، ووصف فيه نفسه بأوصاف ضخمة.

قال ابن رافع: «اشتهر ذكره وبعد صيته، وصنف في التصوف وفي أصول الدين، وكان يتعصب للأشعري. وله كلام في ذم ابن تيمية، ولذلك غمزه بعض من يتعصب لابن تيمية من الحنابلة وغيرهم».

وهو من جملة المعظمين لابن عربي، وله في ذلك مبالغة. مات في العشرين من جمادىٰ الآخرة سنة ٧٦٨. ـ رحمه الله ـ.

الشيخ الصالح إسماعيل الجبرتي (٧٢٢ هـ ـ ٨٠٦ هـ)

قال صاحب البدر الطالع في ترجمته: «الهاشمي العقيلي الجبرتي ثم الزبيدي الشافعي. ولد سنة ٧٢٢، وكان له أحوال ومقامات. ولأهل زبيد فيه اعتقاد كبير. وكان يلازم قراءة سورة (يٰس) ويأمر بها، ويزعم أن قراءتها لقضاء كل حاجة. وكان أول ظهور أمره أنه بشر السلطان الأشرف بانهزام جند قصدوه، وكان الأمر كذلك. وصارت له بذلك عنده منزلة وكلمة لا ترد. وكان منزله ملجأ لأهل العبادة ولأهل البطالة وأهل الحاجات. وأهل العبادة يحضرون للذكر والصلاة، وأهل البطالة للسماع واللهو، وأهل الحاجات لوجاهته، فإنه تتلمذ له أحمد بن الرداد ومحمد المزجاجي فجالسا السلطان. وكان مغرىٰ بالسماع والرقص، داعياً إلى نحلة ابن عربي، حتى صار من لا يحصل نسخه من الفصوص تنقص منزلته عنده. واشتد البلاء علىٰ العلماء الصادعين بالحق بسببه. وفيه يقول بعض الأدباء ـ وكان منحرفاً عنه ومعتقداً لصلاح صالح المصري:

صالح المصري قالوا صالح ولعمري أنه للمنتخب
كان ظني أنه من فتية كلهم إن تمتحنهم تختلب
رهط إسماعيل قطاع الطريق إلى الله وأرباب الريب
سفل حمقى، رعاع غاغة أكلب، فيهم على الدنيا كلب

وقد كان قام صالح المصري هذا على صاحب الترجمة، فتعصبوا له حتى نفوه إلى الهند، ثم كان الفقيه أحمد الناشري عالم زبيد يقوم عليه وعلى أصحابه، ولا يستطيع أن يغيرهم عماهم فيه لميل السلطان إليه.

وبالغ في تعظيمه (الخزرجي) في تاريخه وقال: «كان في أول أمره معلم أولاد ثم اشتغل بالنسك والعبادة، وصحب الشيوخ، ففتح عليه وتسلك على

يديه الجم الغفير، وبعد صيته، وانتشرت كراماته، وارتفعت مكانته عند الخاص والعام، وبالـغ الأشرف إسماعيـل بن العباس في امتثـال أوامره. مـات في نصف رجب سنة ٨٠٦».

إمام التفسير محمد بن نور الدين الموزعي (٠٠٠ ـ ٨١١ هـ)

يلحظ المتتبع لمسيرة التصوف في اليمن أنه مع أواخر القرن الثامن فما بعد، استجدت بدع لا عهد للقوم بهـا، فثارت حفيـظة علماء الشريعة إنكـاراً للبدع. واستمـر الصراع عشرات السنـين، ولم يخفت إلا في القـرن العـاشر مـع مقدم العثمانيين إلى اليمن وإمامنا الموزعي الذي نترجمه هنا:

هو أحد الأطـراف في ذلك، وكـذا معاصـر السيـد حسين بن عبـد الرحمن الأهدل، فإنهما كان ينكران همـا وابن المقري عـلى كل مـظاهر الابتـداع. والأمر الجديد الذي يلفت النظر إليـه هو أن صـاحبنا المـوزعي بإنكاره، لا يعد مهـاجماً للصوفية، فإن سيرته في لبابهـا هي صوفيـة إسلاميـة نقية. مما يؤكد أن الصـوفية الحقة هي وليدة الفهم الشرعي الحق، فـلا صراع بينهما ولا تضـاد، وإنما النكـير كل النكير على الابتداع.

قال البريهي مترجماً في طبقاته للموزعي:

«هو الإمام العلامة الصالح الزاهد العابد جمال الدين محمد بن نور الـدين الخطيب. كان إماماً عالماً، علمه كالعارض الهاطل المتحلي بتصانيفه جيد الزمـان العـاطل، مستقـر المحاسن والبيـان، ومستودع الإبـداع والإحسان، فخـر اليمن وبهجة الزمن، الصبـور، الوصـول للرحم، الخشوع، لـه الباع الـطويل في علم الفقه والأصول والنحو والمعاني والبيان واللغة. أخذ ذلك على مشايـخ كثيرة بعـد انقطاعه من بلده وأهله وخدمته للعلم الشريـف، وتورعه عن أمـوال الناس وعن قبـض شيء من الـوقف المعد لأهـل الأسباب، وغـير ذلك. وكـان منذ قـراءتـه

لمدينة زبيد تصله نفقة من بلده من شيء يعتقد حله، فانقطعت عنه نفقته أياماً، فأمر الإمام جمال الدين الريمي نائبه أن يصرف لـه من الطعام في كل يـوم شيئاً معيناً، فأعطاه ذلك في ثلاثة أيام. فلما كان في اليوم الرابع جاء إليه النائب بنفقة، فامتنع من قبضها، فلما علم الإمام الريمي بذلك سأله عن السبب لامتناعه من قبض النفقة، فاعتذر إليه، فلم يقبل عذره وألح عليه في تبين سبب الامتناع، فقال الإمام نور الدين: إنه أظلم قلبي من يوم قبضت النفقة من نائبك فلا حاجة لي بها. ومن مشايخه غير الإمام الريمي - جماعة من بني الناشري وغيرهم. فلما انتفع وأجازوا له بجميع فنون العلم، درس وأفتى واشتهر ورزق القبول عند الخاصة والعامة، وسكن بلدة موزع. ولما ظهرت كتب ابن عربي وكان المتصدي لشرائها أحمد الرداد، أنكر عليه الإمام ابن نور الدين وشنع على مطالعتها. فلما علم ابن الرداد بذلك وهو متولي القضاء الأكبر، أحضره من بلده إلى مدينة زبيد، وذلك في الدولة الناصرية الغسانية. فلما وصل اجتمع مع جماعة من الفقهاء والصوفية في مجلس حافل، وطلب ابن الرداد مناظرته، فأقام الإمام ابن نور الدين حجته ببطلان كلام ابن عربي في كتبه، فهمت الصوفية بالفتك بالإمام نور الدين، فقام بنصرته الأمير محمد بن زياد فخلصه منهم، ثم عاد إلى بلده فصنف كتاباً في الرد على ابن عربي وسماه (كتاب كشف الظلمة عن هذه الأمة) وصنف كتباً في غير ذلك، منها:

(تيسير البيان في أحكام القرآن)، وكتاب (مصابيح المعاني في حروف المعاني في النحو). وكان يستنبطه الفروع الصحيحة والفوائد الغريبة ما يقر له الناظر ويبتهج به الخاطر، وملك من الكتب المسموعات كثيراً وضبطها أحسن ضبط، وصححها، وكتب عليها في الحواشي ما جوابه تحت كلام الأئمة، مما يبتهج به المصلون. وكان ذا صدقة وأفعال للخير كثيرة، يبدأ بأقاربه وجيرانه ثم يعم كل محتاج علم به أوصل إليه، ولا يدخر في بيته إلا ما يسد به خلته في وقتهم، وهو الذي ابتدأ بعمارة جامع موزع، ولما عجز عن إتمامه أرسل إليه جهة

فرحان زوجة السلطان الأشرف بن الأفضل بمال جزيل تمم به عمارة الجامع، واشترى بالذي بقي منه أرضاً أوقفها على الجامع.

وظهرت له كرامات في حياته وبعد موته، وكان مجاب الدعوة. توفي بعد سنة عشر وثمانمئة. رحمه الله تعالى ونفع به وبعلومه.

ثم خلفه ولده شمس الدين علي في الإحسان إلى من قصده، واشتهر بالكرم، وكان ذا مال جزيل قضىٰ منه جميع دين والده، مما لم يكن خلفه له والده وهو في قيد الحياة بعد أن جمعت هذا المجموع علىٰ طريقة مرضية طالباً للعلم الشريف».

أحمد العامري (٦٤٠ هـ - ٧٢١ هـ)

قال الخزرجي في ترجمته: «في سنة ٧٢١ توفي الفقيه العلامة الإمام أبو العباس أحمد بن علي بن عبد الله العامري الملقب جمال الدين، وكان يعرف بالمدرس لطول إقامته على التدريس بالمهجم ولشهرته فيه، وكان مولده سنة ٦٤٠، وهي السنة التي توفي فيها الإمام أبو الحسن علي بن قاسم الحكمي. وكان تفقه الإمام جمال الدين بخاله الفقيه إسماعيل الحضرمي، وأخذ عن ا لإمام أحمد بن موسى بن عجيل، وهو من أبرك فقهاء تهامة تدريساً وأكثرهم نشراً للعلم. أخذ عنه جمع كثير. وصنف عدة مصنفات، منها شرح التنبيه شرحاً مفيداً. أثنى عليه غالب الفقهاء. وله شرح الوسيط أيضاً. وذكروا أنه أقام على التدريس في المهجم نحواً من خمسين سنة، ولذلك كثر أصحابه، وانتشر عنه الفقه، وامتحن بقضاء المهجم من قبل بني محمد بن عمر. ثم لما صار القضاء الأكبر إلىٰ ولد الفقيه أبي بكر بن محمد بن عمر اليحيوي استدعاه، فعزل نفسه حين وصله الطلب. وكان سهل الأخلاق، لين الجانب، سليم الصدر، مشهوراً بالبركة. وكانت وفاته في مستهل صفر من السنة المذكورة. قال الجندي أخبرني الثقة أن بعض الفقهاء من الحضارم رأى النبي ﷺ ليلة موت الفقيه، ورأى مع

النبي ﷺ صاحبيه أبا بكر وعمر والفقيه محمد بن إسماعيل الحضرمي وابنه إسماعيل، فقال لجده محمد: يا جد من هؤلاء معك؟ فقال: هذا رسول الله ﷺ وصاحباه أبو بكر وعمر، جئنا جميعاً في طلب الفقيه جمال الدين. فاستيقظ الرائي من نومه وأذنه تسمع قائلاً يقول: مات الفقيه جمال الدين رحمه الله».

العلامة الكبير عبد الله بن الحسن الدواري

(٧١٥ - ٨٠٠ هـ)

قال صاحب البدر الطالع في ترجمته: «الملقب الدواري باسم أحد أجداده، وهو دوار بن أحمد المعروف سلطان العلماء[1]. ولد سنة ٧١٥ وقرأ على علماء عصره، وتبحر في غالب العلوم وصنف التصانيف الحافلة، منها في الأصول: (شرح جواهر الرصاص) وهو أحسن شروحها، وقد ترك الناس شروحها بعد هذا الشرح. وله في الفروع (الديباج النضير). وهو كتاب حافل ممتع، وله مصنفات أخرى. وكان الطلبة للفنون العلمية يروحون إليه ويتنافسون في الأخذ عنه، وليس لأحد من علماء عصره ماله من تلامذه، وقبول الكلمة وارتفاع الذكر وعظم الجاه، وبحيث كان يتوقف الناس على مبايعة الأئمةحتى يحضر. لما اتفق عند دعوة الإمام المهدي أحمد بن يحيىٰ المقدم الذكر، ومعارضة المنصور بالله علي بن صلاح، فإن أمراء الدولة أرسلوا له من صنعاء إلى صعدة، وتوقف الأمر حتى حضر، وبعد حضوره وقع ما هو مشهور في السير. ومع هذا فهو زاهد متقلل من الدنيا، حتى قيل: إنه كان يستنفق من غلات أموال حقيرة تركها له والده، وكان يحمل إليه غلات أوقاف يصرفها في طلبة العلم ومازال ناشراً للعلوم مكباً على التصانيف حتى توفاه الله في صبح يوم الأحد سادس شهر صفر سنة ٨٠٠ هـ».

---

(١) سلطان العلماء لدى الشافعية هوالعز بن عبد السلام.

الإمام يحيى العامري صاحب البهجة
(٨١٦ هـ - ٨٩٣ هـ)

ترجمة الإمام الشوكاني في البدر الطالع فقال:

ولد سنة ٨١٦، وهو محدث اليمن وشيخها. سمع من أبي الفتح المراغي بمكة وعلي بن إبراهيم النحوي باليمن ومحمد بن أبي الغيث الكرماني بأبيات حسين، وتفقه بأبيه. ومن جملة شيوخه التقي بن فهد المتقدم ذكره. واستفاد منه طلبة العلم، ورحلوا إليه. وله مصنفات منها: (العدد فيها لا يستغني عنه أحد في عمل اليوم والليلة) و(غربال الزمان في التاريخ) و(بهجة المحافل وبغية الأماثل) في السيرة و(التحفة). ومؤلفاته مشهورة ومقبولة نافعة ومفيدة. مات بحرض سنة ٨٩٣ ودفن بها.

الإمام الزاهد حسن بن محمد النحوي
(٠٠ - ٧٩١ هـ)

قال الشوكاني في ترجمته: «الصنعاني والزيدي عالم زمانه، وشيخ شيوخهم وناشر علومهم. كان يحضر حلقة تدريسه زهاء ثمانين عالماً، وله تحقيق وإتقان لا سيما لعلم الفقه يفوق الوصف، وله مصنفات منها: كتاب (التذكرة الفاخرة) أودعه من المسائل ما لا يحيط به العصر من إيجاز وحسن تعبير. وهو كان مدرساً في الزيدية وعهدتهم، حتى اختصره الإمام المهدي أحمد بن يحيىٰ، وجرد منه (الأزهار) فمال الطلبة حينئذٍ إلى هذا المختصر. وله تفسير، وله تعليق على (اللمع). واختصر (الانتصار) للامام يحيى في مجلد، وكان زاهداً ورعاً متقشفاً متواضعاً، وولي قضاء صنعاء وانتفع به الناس، وكان يأكل من عمل يده. واستمر على حاله الجميلة إلى أن مات في سنة ٧٩١، وقبر في عدني صنعاء وهو قريب من باب اليمن، وقبره مشهور ومزور».

علامة الحديث شيخ المحدثين
عمر بن قاسم اليعلي

قال الخزرجي في ترجمته: «في سنة ٦٨٤ توفي الفقيه العلامة أبو الخطاب عمر بن عاصم بن عيسى اليعلى، بياء مثناة من تحت وعين ساكنة مهملة وآخره لام وبعدها ياء النسب، وهو بطن من كنانة. وكان فقيهاً كبيراً فاضلاً متقناً، عارفاً بالفقه والنحو واللغة والحديث، وكان يقول شعراً حسناً. تفقه بعلي بن قاسم الحكمي، وبه تفقه كثير من الناس. وممن تفقه به أبو الحسن الأصبحي صاحب المعين، والفقيه يوسف بن يعقوب الجندي والد البهاء صاحب التاريخ، وغيرهما، وإليه انتهت رئاسة الفتوىٰ والفقه بزبيد. وأظن المدرسة العاصمية تنسب إليه. وحصل بينه وبين قاضي الأقضية عتب لكلام نقل عنه، وكان النائب يعانده في مدرسته ويقابله بما لا يليق. وكانت له عند المظفر مكانة حسنة، فكتب إلى السلطان يشكو من النائب في قصيدة من شعره. يقول أولها:

خربت مدارسكم معاً يا يوسف　　وفتى وحيش لو علمت المتلف

فلما وقف السلطان على كتابه وكان قاضي القضاة حينئذ عند السلطان، فقال له السلطان: يا قاضي بهاء الدين، من الناظر على مدارس زبيد؟ فقال ابن وحيش يا مولانا، فقال: سمعاً وطاعة. ثم كتب إليه السلطان صرفناه عن النظر في مدرستك، فاجعل عليها ناظراً من شئت. وهو القائل في ذم المدارس:

بيع المدارس لو علمت بدارس　　يغلو، وأخسر صفقة للمشتري
دعها ولازم للمساجد دائماً　　إن شئت تظفر بالثواب الأوفر

ومن تصنيفه (زوايد البيان على المهذب) في كتاب، ويقال: إن ذلك بسبب الوحشة بينه وبين قاضي القضاة بهاء الدين، أحد قرابة صاحب البيان، فإنه نقل إليه أنه قصد بذلك خط البيان، وأن لا يلتفت إليه مع وجود المهذب.

مـع أن كتـابه لم يكـد يشتهر ولا يتـداول بين النـاس. وكانت وفـاته عنـد طلوع الشمس من يوم الخميس لخمس بقين من شهر ربيع من السنة المذكورة رحمه الله تعالى».

الإمام اسماعيل بن أبي بكر المقري

(٧٥٤ هـ - ٨٣٧ هـ)

عبقري اليمن ممن يندر وجود مثلهم في الأجيال عدة قرون ترجمه الشوكاني فقال: «الشرجي اليماني الشافعي - المعروف بالمقري الزبيدي. ولـد سنة (٧٥٤) أربع وخمسين وسبع مئة، وتفقه بالجمال الريمي وقـرأ العربية على محمـد بن زكريـا وعبد اللطيف الشرجي، وغيرهما. وقرأ في عدة فنون جميعها وفاق أهل عصره، وطال صيته، واشتهر ذكره، ومهر في صناعة النظم والنثر، وجاء بما لا يقدر عليه غيره. وأقبل عليه ملوك اليمن، وصار له حظ عظيم عند الخاص والعام، وولاه الملك الأشرف تدريس المجاهدية بتعز والنظامية بزبيد، فأفاد الطلبة، وعين للسفارة إلى الديار المصرية، تم تأخر ذلك لطمعه في الاستقرار في قضاء الأقضية بعد المجد الشيرازي صاحب القاموس، فلم يتم له مناه، بل كان يرجوه في حياة المجد، ويتحامل عليه، بحيث أن المجد عمل للسلطان كتاباً وجعل أول كل سطر منه الألف فاستعظمه السلطان، فعمل له صاحب الترجمة كتابه الذي لم يسبق إليه المعروف بعنوان الشرف. والتزم أن يخرج من أواخره ووسطه علوماً غير العلم الذي يخرج من جميعه وهو الفقه، ولم يتم في حياة الأشرف فقدمه لولده الناصر، ووقع عنده بل وعند سائر علماء عصره ببلده وغيرها موقعاً عظيماً، ومن تأمله رأى فيه ما يعجز عنه غالب الطباع البشرية، فإنه إذا قرأ القارىء جميعاً وجـده فقهاً. وإذا قرأ أوائل السطور فقط وأواسطها فقط وأواخرها فقط استخرج من ذلك علم النحو والتاريخ والعروض والقوافي. ومن مصنفاته (الروض مختصر الروضة) فكان الاسم مختصراً من اسم الأصل. و(الإرشاد) وهو كتاب نفيس في فروع الشافعية رشيق العبارة حلو الكلام في غاية الإيجاز مع كثرة المعاني وشرحه في مجلدين وقد طار في الآفاق واشتغل به علماء الشافعية

في الأقطار. وشرحه جماعة منهم. وله بديعية بديعة، وله تصانيف غير هذه. وارتقى في جميع المعارف إلى رتبة لم يشتمل على مجموعها غيره، بل قيل إنّ اليمن لم ينجب مثله وشعره في الذروة العالية، حتى قال بعض معاصريه أنّه أشعر من المتنبي، ولعله بالنسبة إلى ما يأتي به في شعره من الأنواع الغريبة والأساليب العجيبة، كالقصيدة التي تقرأ حروف رويّها بالضمّ والنصب والجرّ. ومن شعره ما يخرج من البيت الواحد وجوه لا تزيد على الألف وكان من إجادته فنّ الشعر يكره أن ينتسب إليه حتى قال:

بعين الشعر أبصرني أنـــاسٌ فلما ساءني أخرجت عينــه

خروجــاً بعــد راء كان رأيي فصار الشعر مبنى الشرع عينـه

قال ابن حجر في أنبائه أنه اجتمع به في سنة (٨٠٠ هـ) ثم في سنة (٨٦٠ هـ) قال: وفي كل مرة يحصل لي منه الود الزائد والإقبال، وتنقلت به الأحوال وولي بعض البلاد في دولة الأشرف، وناله من الناصر جائحة تارة وإقبال في أخرى، وكان يتشوق لولاية القضاء بتلك البلاد فلم يتفق له. قال: ومن نظمه بديعية التزم في كل بيت منها تورية مع التورية باسم النوع البـديعي، ولـه مسائل وفضائل. وعمل مرة ما يتفرع من الخلاف في مسألة الماء المشمس، فبلغت آلافاً. قال: وله خصوصية بالسلطان، وولي عدة ولايات دون قدره. وله تصانيف وحذف تام ونظر مليح، ما رأيت باليمن أذكى منه».

والحـاصل أنـه إمام في الفقـه والعـربيـة والمنـطق والأصـول، ولـه يـد طـولىٰ في الأدب نظماً ونثراً، ومتفرد بالذكاء وقـوة الفهم وجودة الفكـر، وله في هـذا الشأن عجـائب وغرائب لا يقـدر عليهـا غـيره، ولم يبلغ رتبتـه في الـذكـاء واستخـراج الدقائق أحد من أبناء عصره، بل ولا من غيرهم سمـع بعض الناس يـذكر بيتي الحريري في مقاماته، اللذين قال: إنه قد أمن أن يعزز بثالث، وهما:

سـم سـمـه تحـمـد آثـارهـا فـاشر لمـن أعـطى ولـو سمسـمـه

والمـكـر مـهـما اسـتـطعـت لا تـأتـه لـتقـتقـى السـؤدد المكـرمـه

فقال: إن تعزيزها بثالث غير ممتنع، فجحد ذلك البعضُ وطال بينهما النزاع، فرجع إلى بيته وعمل على هذا النمط توفيه خمسين بيتاً، وأرسل بها إلى من جادله. وقال: قد صارا خمسين وأول أبياته:

من كل مَهدي ودعا أحمدا أجيب ما أسعد من كلمه

وقد كان بعض المتأخرين ممن عاصره قبل عصر صاحب الترجمة قد عزز لبيتي الحريري بثالث وهو:

والمس لمهوى الضيف خير القدى وسلم المسلم والمسلمة

ومع كونه بهذه المنزلة من الذكاء كان غاية في النسيان، حتى قيل إنه لا يذكر ما كان في أول يومه. ومن أعجب ما يحكى في نسيانه أنه نسي مرة ألف دينار، ثم وقع عليها بعد مدة اتفاقاً، فتذكر ذلك مع عدم توسعه في الدنيا، بل مع مزيد حاجته إلى ما هو أكثر من ذلك وكان ينكر نحلة ابن عربي وأتباعه، وبينه وبين متبعيه معارك، وله في ذلك رسالتان وقصائد كثيرة.

ومات في سنة (٨٣٧) سبع وثلاثين وثمان مئة، وترجمته تحتمل كراريس.

قاضي عدن الكبير محمد بن سعيد بن كبن
(٧٧٨ هـ - ٨٤٢ هـ)

قال البريهي في طبقاته: «الإمام العلامة القاضي الأجل جمال الدين محمد بن سعيد بن علي بن كبن. قيل: إنه سمع قوله بأن المحب الطبري شارح التنبيه جده، وقد ثبت اتصال نسبه إلى قريش. وكان هذا القاضي شيخ الإسلام وأحد الأئمة الأعلام، جامع أشتات الفضائل، والمضاهي بحسن سيرته الجلة من الأوائل. أول اشتغاله في العلم على القاضي رضي الدين أبي بكر الحبيشي قاضي عدن في الدولة الأشرفية، وله من الإجازات الكثيرة ومن شيوخه العلامة برهان الدين إبراهيم بن الصديق الرسام، والشيخ العالم رضي الدين أبو بكر بن الحسين المراغي الدمشقي، وله شيوخ غيرهم. تغرب إلى الشحر وإلى التهايم وإلى الجبال، والتمس من العلم ما تأهل به للتدريس والفتوى، ثم تولى القضاء بثغر عدن بعد وفاة القاضي الحبيشي. فكان أول ولايته سنة سبع وثمان مئة،

وحصل في خزانته من الكتب التي حصلها بيده وشراها نحو ألف كتاب، واستوثق له الأمر واستفحلت شوكته، وخالق الناس بخلق حسن.

وكان له في التدريس اليد العالية، والبراعة بالعبارة الجيدة، واللطف والسياسة. وشارك بعلم الطب مع سائر العلوم، واتفق في زمنه القضية المشهورة في أمر اليهودي مع المقعد الذي استغاث بقوله: يا محمد.. يا محمد.. وقد طلب المسلم المقعد من اليهودي أن يعينه على بعض أموره، فقال له اليهودي: اترك محمداً ينفعك ويقيمك، ولم يلتفت عليه. فسمعه المسلمون يستهزىء بالنبي ﷺ، فرفعوا أمره إلى القاضي جمال الدين المذكور، ووصلوا بهما إليه وقد اجتمع عليه الجم الغفير بقصد قتل اليهودي، فأشار إليهم القاضي وقال: الحبس الحبس، فلما سمعوا ما قاله القاضي، بل توهم الأكثر أنه قال لهم: اقتلوه لكثرة اللغط، فرمى رجل مصري بحجر في رأسه حتى طرحه على الأرض، فسطا عليه الناس يرجمونه بالحجارة مثل الوابل حتى مات. وقد كانت اليهود بذلت على سلامة هذا اليهودي ألف مثقال، فلم يقبل منهم السلطان ذلك. فعزل السلطان القاضي بسبب ذلك من ولاية القضاء. على أن السلطان رأى النبي ﷺ في المنام وأمره برد القاضي علىٰ ولايته.

وللقاضي جمال الدين المذكور مصنفات نافعة جليلة، منها: كتاب (المفتاح على كتاب الحاوي الصغير). وقد اشتهر وانتشر، واعتمده الناس واجتهدوا بتحصيله وتلقوه بالقبول. ومنها كتاب (الدر النظيم في فضل بسم الله الرحمن الرحيم).

ولما رسخ القاضي المذكور في العلم ونال الجاه الكبير، كادت الأمور تطوى له بالتسخيرات وتتهيأ له من غير كد ولا إزعاج، ووهب الله له المحبة في قلوب الناس، واكتسب الثناء بحلمه وكرمه، فكان حسن الأخلاق، شهي المذاق، كثير الخشوع في الدعاء. وله فوائد ومناسك وحدائق وترسّلات وتعليق بشيء كثير لا ينحصر، وله شعر حسن رائق في التغزل وفي مدح النبي ﷺ، مما قد

أثبت بنصه في الأصل. توفي بشهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وثمان مئة، وقبر بتربة الشيخ جوهر وعمره يومئذٍ أربع وستون سنة. رحمه الله».

العلامة الرحال عبدالله النجري (٨٢٥ هـ - ٨٧٧ هـ)[١]

ترجمه الإمام الشوكاني فقال: «عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الزيدي العبسي العكي المعروف بالنجري. ولد في أحد الربيعين سنة ٨٢٥ ونشأ بمدينة حوث، وقرأ على والده في النحو والأصولين والفقه علىٰ أخيه علي بن محمد، ثم حج سنة ٨٣٨، وارتحل إلى الديار المصرية فوصلها في ربيع الأول من التي يليها، فبعث فيها النحو والصرف على ابن قديد وأبي القاسم النويري، وفي المعاني والبيان على الشمني، وفي المنطق على التقي الحصني، وفي علم الوقت على العز عبد العزيز الميقاتي، وحضر في الهندسة قليلاً عند أبي الفضل المغربي، بل كان يطالع وما أشكل يراجعه فيه. فطالع (شرح الشريف الجرجاني) على الجغميني، و (التبصرة) لجابر بن أفلح، وقرأ في الفقه على الأمين الأقصرايي والعضد الصيدامي، وتقدم في غالب هذه الفنون كما قال البقاعي المتقدم ذكره. قال: واشتهر فضله، وبعد صيته، وكتب عنه في سنة (٨٥٣) قوله:

بشاطىء حوث من ديار بني حرب ... لقلبي أشجان معذبة قلبي
فهل لي إلىٰ تلك المنازل عودة ... فيفرج من غمي، ويكشف من كربي؟

وتستر مدة بقائه هنالك، فلم ينتسب زيدياً بل انتسب حنفياً. ولهذا ترجمه البقاعي والسخاوي فقال: الحنفي.

ثم عاد إلى اليمن، وصنف مصنفات، منها (المعيار في المناسبات بين القواعد الفقهية) جعله على نمط قواعد ابن عبد السلام، وهو كتاب نفيس مفيد. ومنها (شرح أيات الأحكام) اختصره من الثمرات، ومنها (شرح مقدمة البحر) للإمام المهدي، وله مصنفات غير ذلك.

---

(١) وأرخ موته الضمدي في الواقي سنة ٨٧٤ هـ.

ومن جملة ما كتب وهو بمصر إلى والده:

فـراقـك غـصـتي ولـقـاك روحـي وقـربـك لي شفـاء مـن قـروحـي

ومـا إن أذكـر الأوطـان إلا يـفـيـق لي مـن الأوطـان سـوحـي

فـعـفـوك والـدي عـني وإلا فـنـوحي يـا عـيـون عـليّ نـوحي

وهؤلاء المشايخ من المصريين المذكورين في الترجمة، هم أكابر شيوخ مصر في ذلك الزمن، كما يفيد ذلك من ترجم لهم. ولعل بقاءه في مصر خمس سنين كما يدل عليه ما سلف، ويمكن أن يكون أكثر من ذلك. وخرج من مصر بمغني اللبيب، وهو أول من وصل به إلىٰ اليمن. وحكي عنه أنه ألف (شرح مقدمة البحر) في سفره قافلاً من مصر. وتوفي سنة (٨٧٧) سبع وسبعين وثمان مئة، وأرخ موته الضمدي في الوافي سنة (٨٧٤) أربع وسبعين وثمان مئة».

محمد بن الخياط المشهور بالباقر (٠٠ - ٨٣٩ هـ)

ترجمه صاحب طبقات صلحاء اليمن فقال: «الإمام حافظ الزمن وحامل لواء السنة المصطفية في اليمن، جمال الدين أبو حامد محمد الأكبر بن شيخ الإسلام فقيه المذهب أبي بكر بن محمد بن صالح الهمداني الشهير بابن الخياط. كان شيخ العلوم وإمامها ومن في يديه زمامها، له فيه الباع المديد والشأو البعيد الذي ليس عليه مزيد. أخبرت أنه لما حفظ كتاب الله تعالى على يد الفقيه الصالح عفيف الدين عطية بن عبد الرزاق، ذهب به والده إلى الشيخ عفيف الدين صالح اليمن ذي الكرامات عبد الله بن يحيىٰ الشعراني، فدعا له. ومن دعائه له أن قال: اللهم أثقب قلبه بمعرفتك، فاستجيب له الدعاء، وسبقت له العناية. وقيل: إن هذا الدعاء من الشيخ الولي جمال الدين محمد بن عمر الشبيبي، فقرأ [هذا الإمام جمال الدين على والده رضي الدين في الفقه وغيره]، وعلى الإمام نفيس الدين العلوي في الحديث النبوي، ثم سافر إلى مكة المشرفة، فحج وزار قبر النبي ﷺ، وأخذ علم الأئمة هناك كالمراغي والكازروني وبني ظهيرة وغيرهم، ثم على الإمام مجد الدين الشيرازي، والإمام الجزري والإمام أبي الخير بن الزين، والشيخ أبي طاهر بن محمد بن أبي اليمن المصري، والشيخ أبي

بكر الأموي والشيخ عبد الرحمن بن ناصر وغيرهم، فأجازه هؤلاء بجميع الفنون. وقد جمع شيوخه وأنسابهم في كراسة كانت عنده، فكمل للفقيه جمال الدين معرفة جميع العلوم من الحديث والتفسير والفقه والنحو. وكان يسمى الباقر لسعة علمه وفهمه واستنباطه، وحفظه، والتفرد بزيادة المتخصص لتحقيق علم الحديث. سلمت له الرئاسة وفيه، فكان لا يماري بشيء منه، وخلف الإمام نفيس الدين العلوي بعد موته بتدريس الحديث النبوي، وكان يتكلم على معنى الحديث ورجال الإسناد بكلام نافع بمحضر شيخه الإمام نفيس الدين فيصوب كلامه. ونقل عنه المحققون من الفوائد في حياة الإمام نفيس الدين أشياء كثيرة. ومما أسنده إلى بعض أئمة الحديث أنه قال: أخبرني بعض شيوخي مسنداً قول بعضهم: «ما أقبح الجهل بالألباء! والمرض بالأطباء! والجفاء بالأحباء!». ولما انتهت إليه الرئاسة بعلم الحديث وانفرد بذلك تزاحمت عليه الطلبة، فكان يحضر عنده جمع كثير، فكان مجلسه حافلاً جامعاً للعلماء والمتعلمين، وكان له حسن أخلاق ومكارم لم تكن لغيره من أبناء جنسه في وقته. لا يستكثر عطاء يعطيه من جاء إليه يطلب رفده. وكل من وفد إليه من الفقهاء والبلغاء والمبرزين يشهد له بأنه فخر اليمن وبهجة الزمن، وأنه القدح المعلى لشربه من العلوم المشرب الأسنىٰ. واختص بشرف النفس وعلوّ الهمة وسرعة الحفظ، ووصف بالذكاء. وقد أثنى عليه الإمام الجزري ومدحه ببيتين، بعد أن سأله السلطان الناصر من رأيت كاملاً من علماء اليمن فقال:

إن الإمام فتى الخياط أفضل من ... رأيت في اليمن الفيحاء من رجل

قل عنه واسمع به، وانظر إليه بحد ... مك المسامع والأفواه والمقل

وهذا أبلغ شاهد على فضل الإمام جمال الدين.

وعلى الجملة فقد فاق أهل زمانه وأربأ علىٰ أقرانه، يحفظ بقراءة المرة الواحدة أكثر ما يقرأ ويسمع، ويستحضر معظم ما يطالع فيجريه على لسانه كالسيل الوارد. وله تدقيق عجيب، واعتراضات لازمة على شيء من المطلقات،

من ذلـك أنه وصله سؤال من مـدينة زبيـد، مضمونـه: أن الفقهاء اختلفـوا كم مـرة بنيت الكعبة المشرفـة؟ فأجـابهم بجواب شـاف أظهـر فيـه الـدلائـل علىٰ صحـة بنـائها إحـدىٰ عشرة مرة، وذكـر من بناهـا، وجعل في ذلـك مصنفاً سـماه (عين التحقيق في عدد بنا البيت العتيق)، وقال في آخره: «جمعت ذلك في لحظات من يوم واحد».

واتفق بينه وبين فقهاء البلد اختلاف في فتـوى، وهي أن امرأة اتفقت هي ورجل على أن يتزوجها بعد أن رغبته بنكاحها، حتى قالت له: تزوج عليّ، وعلي نذر الله إن نكحتني وكتب الله بيننا فراق أبرأتك من مهري. فهل يلزمها الوفاء؟ فأجاب بعضهم بعـدم صحة النذر، فصنف الإمام جمـال الدين تصنيفـاً يقتضي صحة النذر ولزوم الوفاء بذلك، وأقام الـدليل عليـه. وقد ذكـرت بعض ذلك في الأصل، مع زيادة فوائد وقصائد من كلام الإمام جمـال الدين رحمـه الله وغيره.

وتوفي ـ رحمه الله تعالى ـ من ألم الطاعون سنة تسع وثلاثين وثمان مئـة، ولم يكن له من الأولاد من يستحق الذكر، وتفرقت كتبه التي جمعها واجتهد بتحصيلها وضبطـها، وذلك يزيد علىٰ سبع مئة مجلد، فلا حول ولا قوة إلا بـالله العلي العظيم.

علي بن محمد البكري (٠٠ ـ ٨٨٢ هـ)

هـو علي بن محمـد بن أحمـد بن عـلي بن يحيىٰ البكـري الـزيـدي تـرجمـه صاحب البدر الطالع: «أحد العلماء اليمنيين المحققين. له مصنفـات منها (شرح مقدمة بيان ابن مظفر) و(شرح منهاج القرشي) و(شرح مقدمة الأزهار). وكـان بعض أهـل العلم يفضله على عبـد الله النجري المتقـدم ذكـره. وقـد كتب إليـه الإمام عز الدين بن الحسن كلامـاً في مسألـة الإمامـة، وأجاب عنـه بجواب هـو موجود في فتاوىٰ الإمام عز الدين. وكان متصلاً بالإمام المطهر وقـائم. وحكى ما ورد من الفقيه محمد بن الأصم، أنها اتفقت في زمن الإمام المذكـور قصة عجيبـة

ونكتة غريبة في بلد شامي الحرجة تسمىٰ (الحمرة). وذلك أنه كان فيها رجل من الزرعة، وكان ذا دين وصدقة، فاتفق أنه بنىٰ مسجداً يصلى فيه، وجعل يأتي ذلك المسجد كل ليلة بالسراج وبعشائه، فإن وجد في المسجد من يتصدق عليه أعطاه ذلك العشاء، وإلا أكله وصلى صلاته، واستمر على ذلك الحال. ثم إنها اتفقت شدة ونضب ماء الآبار، وكانت له بئر، فلما قل ماؤها أخذ يحتفرها هو وأولاده، فخربت تلك البئر والرجل في أسفلها خراباً عظيماً، حتىٰ إنه سقط ما حولها من الأرض إليها، فأيس منه أولاده ولم يحفروا له، وقالوا: قد صار هذا قبره. وكان ذلك الرجل عند خراب البئر في كهف فيها، فوقعت إلى بابه خشبة منعت الحجارة من أن تصيبه، فأقام في ظلمة عظيمة. ثم إنه بعد ذلك جيء بالسراج الذي كان يحمله إلى المسجد، وذلك الطعام الذي كان يحمله كل ليلة وكان به يفرق ما بين الليل والنهار. واستمر له ذلك مدة ست سنين والرجل مقيم في ذلك المكان على تلك الحال، ثم إنه بدا لأولاده أن يحفروا البئر لإعادة عمارتها، فحفروها حتى انتهوا إلى أسفلها، فوجدوا أباهم حياً فسألوه عن حاله، فقال لهم: ذلك السراج والطعام الذي كنت أحمل إلى المسجد يأتيني على ما كنت أحمله تلك المدة، فعجبوا من ذلك، فصارت قضيته موعظة يتوعظ بها الناس في أسواق تلك البلاد». وقال في مطلع البدور: «في جملة من زار هذا الرجل: محمد بن الأصم» انتهى. وتوفي صاحب الترجمة يوم الأحد ثامن وعشرين رمضان سنة (٨٨٢) اثنتين وثمانين مئة.

الإمام الهادي عز الدين بن الحسن بن المؤيد
(٨٤٥ هـ - ٩٠٠ هـ)

من صلحاء أئمة اليمن ترجمه صاحب البدر الطالع فقال: «ولد بأعلا فَللة، بفتح الفاء واللامين بعدها، بعشر بقين من شوال سنة (٨٤٥) خمس وأربعين وثمان مئة، وقرأ في وطنه، ثم رحل إلى صعدة فقرأ على علي بن موسى الدواري فنوناً من العلم، وقرأ أيضاً على غيره، ثم رحل إلى تهامة فقرأ الحديث

على شيخه يحيى بن أبي بكر العامري المشهور مؤلف البهجة وغيرها، سمع منه سنن أبي داود وأجازه في سائر كتب الحديث. وبرع في جميع العلوم، وصنف وهو دون العشرين. فمن مصنفاته (شرح منهاج القرشي) في مجلدين ضخمين، و (شرح البحر) للإمام المهدي بلغ فيه إلى كتاب الحج، وهو شرح مفيد سلك فيه طريق الإنصاف، وهو يدل على تبحره في عدة علوم. وله فتاوىٰ مجموعة في مجلد ضخم مفيدة.

ومن جملة شيوخه الإمام محمد بن علي الوشلي، فإنه لازمه في الحضر والسفر، ثم لما كمل في جميع العلوم دعا الناس إلى مبايعته، فبايعوه في تاسع شوال سنة (٨٧٩) تسع وسبعين وثمان مئة. وكانت الدعوة بوطنه هجرة فللة، ودخل تحت طاعته بلاد السودة وكحلان والشرفين والبلاد الشامية، وعلماء سائر محلات الزيدية، فبايعوه وإن لم يجبه جميع أهلها.

وهو من أكابر أئمة الآل في العلم والعمل والكرم وسائر الخصال الشريفة، وله شغف بالعلم عظيم، ولديه من التسليم للحق واتباع الدليل ما لم يكن لغيره، حتى رأيته قد حرر بحثاً في مسألة انحصار الإمامة في بعض بطون قريش. وتكلم بالصواب مع كونه إذ ذاك إماماً. واستمرت إمامته إلى أن مات في شهر رجب سنة (٩٠٠) تسع مئة، ومدة خلافته إحدى وعشرون سنة».

عمر بن مجد السراج أبو حفص اليماني الزبيدي الشافعي (٨٠١ ـ ٨٨٧)

من كبار علماء اليمن في القرن التاسع ترجمه الشوكاني فقال: «ويعرف بالفتىٰ من الفتوة، وهو لقب أبيه. ولد سنة ٨٠١ وإحدىٰ وثمان مئة بزبيد ونشأ بها، وقرأ على الفقيه محمد بن صالح والشرف بن المقري، ولازمه دهراً طويلاً، ثم انتقل إلى بلاد أصاب فمكث ببعض قراها، وارتحل إليه الطلبة، واشتغل بالتدريس والتصنيف، وقصده الطلبة من الأماكن البعيدة، كل ذلك في حياة شيخه. ولما استولى علي بن طاهر على اليمن أكرم صاحب الترجمة، ورتب له من الموقف ما يكفيه، ثم قلده أمر الأوقاف وصرفها لمستحقها، والإذن في النيابة

لمن لا يحسن المباشرة. وله تصانيف منها: (مهمات المهمات) اختصر فيها مهمات الأسنوي، و(الإبريز في تصحيح الوجيز)، و(الإلهام لما في الروض من الأوهام) مصنف شيخه ابن المقري، وأفرد زوائد الأنوار على الروضة وسماه (أنوار الأنوار)، وكذا فعل في (جواهر القمولي)، و(شرح المنهاج) لابن الملقن، وقد انتفع به في الفقه أهل اليمن طبقة بعد طبقة حتى صار غالبهم من تلامذته. ومات في صفر سنة (٨٨٧) سبع وثمانين وثمان مئة، وارتجت النواحي لموته» ا.هـ.

ويُعد الفتى أكبر تلامذة ابن المقري. وقد تتلمذ عليه علامة القرن العاشر بزبيد وعدن أحمد عمر المزجد صاحب (العباب المحيط).

عبد الرحمن الديبع (٨٦٦ هـ)

من كبار الحفاظ والمؤرخين والعلماء في القرن العاشر ترجمه الشوكاني فقال: «والد يبع لقب لجده الأعلى علي بن يوسف، ومعناه بلغة النوبية الأبيض. ولد في عصر يوم الخميس رابع محرم سنة (٨٦٦) ست وستين وثمان مئة بزبيد ونشأ بها، فحفظ القرآن وتلاه للسبع على خاله ابن النجار، والشاطبية والزبد للبارزي وبعض البهجة، واشتغل في علم الحساب والجبر والمقابلة والهندسة والفرايض والفقه والعربية على خاله المشار إليه وعلى إبراهيم بن جمعان. وفي الحديث والتفسير على الزين أحمد الشرجي، وحج مراراً، أولها في سنة (٨٨٣)، وقرأ بمكة على السخاوي، ثم برع ولا سيما في فن الحديث واشتهر ذكره وبعد وصيته، وصنف التصانيف منها: (تيسير الوصول إلى جامع الأصول)، اختصره اختصاراً حسناً وتداوله الطلبة وانتفعوا به. وفي التاريخ: (قرة العيون بأخيار اليمن الميمون) و(بغية المستفيد بأخبار مدينة زبيد). وكان السلطان عامر بن عبد الوهاب قد عظمه وولاه تداريس، وله أشعار في مسائل علمية وضوابط وتحصيلات، وله شهرة في اليمن طائلة إلى الآن».

الإمام الناصر محمد بن علي (٧٣٩ هـ - ٧٩٣ هـ)

من صلحاء أئمة اليمن ترجمه الشوكاني فقال: «المشهور بصلاح الدين، ولد ليلة الجمعة سابع عشر شهر صفر سنة ٧٣٩، واشتغل بالعلم حتى تأهل للإمامة، وبرز في فنون. قال السيد الهادي بن إبراهيم (في كاشفة الغمة): «إنه بلغ فوق رتبة الاجتهاد، وبرز في العلوم كلها تفسيرها وحديثها، ونحوها ولغاتها ومعانيها وبيانها، ومنطوقها وأصولها وفروعها، ومعقولها ومسموعها، وكتب الزهد والتاريخ والفلك والهيئة والنجوم».

ثم لما مات والده بايعه علماء الزيدية، وكانت البيعة في يوم السبت من صفر سنة ٧٧٣، وملك غالب اليمن واستقر بصنعاء، وعظمت دولته واشتدت صولته، وغزا إلى بلاد سلاطين اليمن الأسفل ودوخ بلادهم. وكان جيد الرأي، قوي التدبير، كثير الجنود حسن السياسة، كثير العدل، متورعاً متعففاً، عالي الهمة، مُديم الذكر والعبادة ودرس العلم وتقريب أهله. وقد زلزل الباطنية وهد أركانهم، وسفك دماءهم ونهب أموالهم، واستمر على ذلك حتى مات في شهر ذي القعدة سنة ٧٩٣ في قصر صنعاء ودفن بقبتة التي إلى جانب مسجده المشهور الآن بمسجد صلاح الدين»؟.

العلامة الكبير محمد بن يحيى بهران (٠٠ - ٩٥٧ هـ)

من كبار علماء اليمن في القرن العاشر ترجمه الشوكاني: «هو العلامة الجامع محمد بن يحيى بن محمد بهران الصعدي أحد علماء اليمن المشاهير. كان في أوائل عمره يتنقل في المدائن اليمنية للتجارة، ودخل إلى جهة الحبشة وهو مع ذلك يطلب العلم في كل محل يتجر فيه. ومن مشاهير مشايخه السيد المرتضى بن قاسم وبرع في جميع الفنون وفاق أقرانه، وتفرد برياسة العلم في عصره، وصنف التصانيف الحافلة، منها في الفقه: (شرح الأثمار) للإمام شرف الدين في أربع مجلدات، وفي العربية (التحفة)، وفي الأصول (الكامل). وله مصنف في المعاني والبيان، ومصنف في العروض والقوافي سماه (الشافي)، وله (تخريج البحر الزخار) للإمام المهدي، و(المعتمد). جمع فيه الأمهات الست ورتبه على أبواب الفقه، وله حاشية على الكشاف اختصر بها عن حاشية العلوي، وله (التفسير

الكبير) جمع فيه بين تفسير الزمخشري وتفسير دقائق الفقه وحقائقه ما لم يوجد في غيره، وذكر الأدلة على مسائل، ونقحه أحسن تنقيح. ويروى أنه لما وصل إلى الإمام شرف الدين مصنف المتن أمر بزفافه بالطبولخانة، وطافوا به في المشاهد والمدارس، ومعه أعيان العلماء والمتعلمين. وقيل: إنه فعل ذلك في التفسير المذكور. وله نظم مشهور منه القصيدة التي سلك فيها مسلك الطغرائي في لامية العجم، ومطلعها:

الجد في الجد، والحرمان في الكسل فانصب تصب عن قريب غاية الأمل

وهي قصيدة فائقة مشتملة على حكم نافعة. ومن نظمه الأبيات التي منها:

سرى وجلى عن مقلة النائم الغمض عشية من الرعد وابتسم الومض

وأسبل جفن الغيم واكف دمعه على صحن من الأفق، فاهتزت الأرض

ولاعبت الأغصان وهناً يد الصبا فأصبح يحكي السندس الورق الغض

ومات بصعدة سنة ٩٥٧، سبع وخمسين وتسع مئة.

محمد بن عبد الله الغشم (٠٠ - ١٠٤٣ هـ)

أحد العلماء أصحاب الكرامات ترجمه الشوكاني فقال: «الآنسي اليماني. ترجم له صاحب مطلع البدور فلم يذكر له مولداً ولا وفاة، ولكنه ذكر له قصة غريبة هي: أن العامة من أهل بلاد أنس وغيرها كثرت عندهم الشكوك لما يرون من أكل بعض السفهاء لما حرمه الله بالإجماع من الحيات والحنشات. قالوا: هؤلاء لا شك أنهم على الحق بدليل هذه الكرامة، فإن لم يأت من ما يقاومها انتقلنا عن مذهب أهل البيت، فعظمت القصة على العلماء، فتكاتب الفقهاء من المغرب وآنس وذمار، واجتمعوا وأمروا العامة بجمع حطب، فاجتمع كالجبل العظيم، ثم أشعلوه، فلم يزل يتسع حتى صار يرمي بشرر كبار، فقرب الفقهاء بالمصاحف وقرأوا القرآن، ولم يزالوا على ذلك مع أدعية أخرجها والد صاحب الترجمة، حتى اصفرت النار، ودخل الفقهاء وحملوا منهم في ثيابهم ودخلوا فيها

كما يدخل بين الماء والطين. واشتهرت القصة». قال صاحب مطلع البدور: ولما سمعت هذه لم أزل أبحث عنها فبلغن عندي مبلغ التواتر، وليس ذلك بعيداً من فضل الله تكريماً لكتابه العزيز وعلماء الإسلام». انتهى. وذكر قبل هذه القصة أن لصاحب الترجمة رسائل، وله تفسير، ولعل وجوده كان في زمن صاحب مطلع البدور. وقد تقدم تاريخ مولده ووفاته، ثم وقفت على تاريخ موته في سنة ١٠٤٣. وقبر ببلاد لاعة في محل يقال له بنو الذواد.

العلامة الكبير محمد بن أبي بكر الأشخر (٠٠ ـ ٩٨٩ هـ)

من كبار العلماء في القرن العاشر ترجمه الشوكاني فقال: «بفتح الهمزة وسكون الشين المعجمة وفتح الخاء المعجمة أيضاً ثم راء مهملة، الزبيدي. أخذ العلم عن الشيخ عبد الرحمن بن زيادة والفقيه عبد الله بن إبراهيم بن مطهر، وقرأ بمكة على ابن حجر الهيثمي، وله تصانيف، منها (نظم الإرشاد) و(منظومة في أصول الفقه) و(حاشية على البهجة للعامري)، و(شرح على شذور الذهب)، وغير ذلك، ومات سنة ٩٨٩. وبنو الأشخر بيت علم وصلاح يسكنون قرية قريبة من بيت الشيخ قريباً، وبها قبر صاحب الترجمة».

قاضي القضاة الصالح المصلح أبو بكر الرداد (٠٠ ـ ٨٢١ هـ)

ترجمه البريهي فأطنب في الثناء عليه ما هو أهله. واسمه الكامل مع كنيته (هو أبو العباس أحمد بن أبي بكر الرداد القرشي. تعلم القرآن وحفظه صغيراً، ثم قرأ بالعربية فبرع بها، ثم قرأ الفقه وانتفع، وأجاز له الأئمة الكبار، ثم دخل طريقة القوم، يعني الصوفية، في سنة ٧٧٨، وكانت له رياضة حسنة اجتهد فيها نحو عشرين سنة حتى رقي مراتب المعالم فعلاها، وحوى من العلوم الإلهية فحواها، ولزم مجلس الشيخ المعروف إسماعيل بن إبراهيم الجبرتي، وحج سنين متعددة، ومنها سنة على قدم التجرد إلى مكة المشرفة، ثم إلى المدينة الشريفة. وحصل من العلم ما لم يحصله غيره، وصنف في طريق الصوفية تصانيف منها: كتاب (تلخيص القواعد الوفية في أصل خرقة الصوفية) وكتاب (عدة المرشدين

وعمدة المسترشدين) وله غير ذلك نظماً ونثراً. ونال الحظ الأوفر عند السلطان الأشرف بن الأفضل ثم عند ولده الناصر، فقربه وجعله من خواصه، فتزوج السلطان من أهل بيته، وأضاف إليه القضاء الأكبر في شوال سنة سبع عشرة وثمان مئة، وذلك بعد موت الشيخ مجد الدين الشيرازي. وكانت سيرته في الوظيفة سيرة مرضية. وسعى في استخراج الوقف الذي قد كانت الملوك أدخلته في دفاترهم، وصرف مصرفه، ورفع الوفد الذي كان يقبضه الملوك من الوقف. ثم لما كان سنة ٨٢١ حصل بين الفقيه شرف الدين اسماعيل بن أبي بكر المقري. والشيخ شهاب الدين أحمد بن أبي بكر الرداد. أمور وأحداث أدت إلى ظهور الشقاق وسوء الأخلاق. وبالغ الشيخ شرف الدين في الإنكار على الشيخ شهاب الدين في إظهار السماع وما لا يجوز، مما يفعله المتصرفون مما لا ترضيه الشريعة، وعمل في ذلك قصائد منها القصيدة التي أولها:

إن الشريعة ذلت بعد عزتها وأصبح الرأس منها موضع الذنب

وكانت العاقبة إلى الإصلاح، وتسكين هذه الثائرة بأمر السلطان الناصر.

وللشيخ شهاب الدين الرداد شعر حسن من ذلك ما قاله عندما جرت المشاجرة بينه وبين الفقيه شرف الدين إسماعيل المقرىء:

ملاحاة الدجال أضر شيء على الإنسان في كل الأمور
إذا لم يلحقوه غدا بسوءٍ فهم رقباؤه أبد الدهور

وله في الإلهيات قصائد كثيرة منها القصيدة المطولة التي أولها:

شغلي بذكرك عندي حين اشتغالي يأمن له كل أقوالي وأفعالي
ملكتني منك بالذات التي اشتملت على حقائق أسراري وأحوالي

وله في قوله ﷺ: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك».

تورع ودع ما قد يريبك كله جميعاً إلى ما لا يريبك تسلم
وحافظ على أعضائك السبع جملة وراع حقوق الله في كل مسلم
وكن راضياً بالله، رباً وحاكماً وفوض إليه في الأمور تسلم

وعلى الجملة، فقد كان هذا الشيخ شهاب الدين ممن جمع بين العلم والعمل، وتخلق بأخلاق الصالحين وتهدى بهديهم وتأدب بآدابهم. حوى جملاً من المحاسن؛ من سلامة الصدر ورقة القلب وصفاء الخاطر وشرف النفس وكرم الأخلاق والإغضاء، وهذا مع الجاه العريض والكرم المستفيض. ودام على الحال المرضية إلى أن توفي شهر ذي القعدة سنة إحدى وعشرين وثمان مئة، ودفن بمقابر مدينة زبيد في القبة التي دفن فيها الشيخ إسماعيل الجبرتي. وحكي أن الإمام إسماعيل المقرىء رآه في المنام بعد وفاته بهيئة حسنة غبطه عليها، رحمهما الله ونفع بهما.

الإمام المؤيد يحيى بن حمزة (٦٦٩ هـ - ٧٠٥ هـ)

من كبار أئمة اليمن وصلحائهم ترجمه فقال ص ٦٦٩: «ولد بمدينة صنعاء سابع وعشرين من صفر، واشتغل بالمعارف العلمية وهو صبي، فأخذ في جميع أنواعها علىٰ أكابر علماء الديار اليمنية، وجَدَّ في جميع العلوم وفاق أقرانه، وصنف التصانيف الحافلة في جميع الفنون، فمنها: (الشامل) في أربعة مجلدات و(نهاية الوصول إلى علم الأصول). ثلاثة مجلدات، و(التمهيد لعلوم العدل والتوحيد) مجلدان، و(التحقيق في الإكفار والتفسيق) مجلد، و(المعالم) مجلد، هذه جميعها في أصول الدين.

وفي أصول الفقه: (الحاوي) في ثلاثة مجلدات، و(المحصل) في شرح أسرار المفصل) أربعة مجلدات.

وفي علم المعاني والبيان: (الإيجاز) في مجلدين، و(الطراز) مجلدان.

وفي الفقه «الانتصار» ثمانية عشر مجلداً، و(الاختيارات) مجلد.

ومن مصنفاته: الأنوار المضيئة في شرح الأحاديث النبوية على السيلقية مجلدان. والسيلقية هي المعروفة عند المحدثين بالودعانية. وله (الديباج الوضي في شرح كلام الرضي من كلام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وله في علم

الفـرائض: (الإيضـاح لمعـاني المفتـاح) مجلد. (والتصفيـة في الـزهـد) مجلد، و(القـانون المحقق في علم المنـطق)، و(الجواب القـاطع للتمـويه عـما يرد عـلى الحكمـة، و(التنزيـه) و(الجواب الـرايق في تنزيـه الخالق) و(الجـوابات الـوافية بـالبراهـين الشافيـة) و(الكاشف للغمـة عن الاعتراض عن الأمـة) و(الرسـالـة الـوازعة لـذوي الألباب عن فـرط الشـك والارتيـاب)، و(الـرسـالـة الـوازعـة للمعتـدين عن سلب أصحاب سيـد المرسلين)، ولـه غـير ذلـك من المصنفـات الكثيرة حتى قيل إنها بلغت إلى مئـة مجلد، ويروى أنها زادت كـراريس تصانيفـه على عدد أيام عمره.

وهو من أكابر أئمة الزيدية، وله ميل إلى الإنصاف مع طهارة لسان وعـدم إقدام على التكفير، والتفسيق بالتأويل، ومبالغة في الحمل على السلامة عـلىٰ وجه حسن، وهـو كثير الـذب عن أعراض الصحـابة المصـونة رضي الله عنهم، وعن أكابر علماء الطوائف رحمهم الله. وقد دعـا إلى نفسه عقب مـوت الإمام المهـدي محمد بن المطهر المتقدم الذكر، وعارضه الإمام علي بن صلاح بن إبراهيم بن تاج الـدين، والإمام الـواثق المطهـر بن محمد بـن المـطهر الفصيـح المشهور صـاحب الـرسالـة المتداولـة التي شرحها الحيمي من المتـأخرين. ومن جملة المعـارضين لـه السيد أحمد بن علي بن أبي الفتح الديلمي، ولكن أجاب الناس في الديار اليمنية دعوة صاحب الترجمة، ولم يلتفتوا إلى غيره. وكان من الأئمة العـادلين الـزاهدين في الدنيا المتقللين منها، وهو مشهور بإجابة الدعوة، وله كرامات عديدة.

وبالجملة، فهو ممن جمع الله له بين العلم والعمل، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. ومات في سنة ٧٠٥ خمس وسبع مئـة بمدينـة ذمار ودفن بهـا، وقبره الآن مشهور مزور. ومما شاع على الألسن أنـه إذا دخل رجـل يزوره ومعـه شيء من الحـديد لم تعمـل فيه النـار بعد ذلـك، وقد جـربت ذلك فلم يصـح. وكذلك اشتهر أنه إذا دخل شيء من الحيات قبته مات من حينه».

الإمام المؤيد بالله محمد بن القاسم بن محمد (٩٩٠ هـ - ١٠٥٤ هـ)

قال الشوكاني: «قد تقدم تمام نسبه في ترجمة أخيه الحسن. ولد سنة (٩٩٠) تسعين وتسع مئة في رمضان منها، وقيل: في شعبان. وأخذ العلم عن علماء اليمن المشهورين بذلك الزمن، ومنهم والده الإمام. وبرع في عدة علوم، ودرس وأفتى، واشتهر فضله وزهده، وورعه وعفته وحسن تدبيره. ولما مات والده في التاريخ المتقدم أجمع العلماء عليه وبايعوه، وذلك في سنة (١٠٢٩)، ثم كان من التأييد والنصر خروج أخيه سيف الإسلام الحسن ابن الإمام من سجن الأتراك في سنة (١٠٣٠)، وكانت مدة المصالحة التي كانت بين والده وبين الأتراك باقية، لأنهم كاتبوا صاحب الترجمة بتقرير الصلح إلى أن انتهت المدة المعلومة فأجابهم. ولما كان في شهر المحرم سنة (١٠٣٦) أرسل بجيش إلى الحيمة ورئيس ذلك الجيش أخوه العلامة الحسين ابن الإمام. وبث سراياه وكتبه إلى الأقطار اليمنية، وتكاثرت جيوشه حتى حصلت فتوحات في مدة يسيرة، كفتح بلاد المغارب وريمة وعتمة وأصاب وحفاش وملحان وجبل التيه وبلاد خولان. وكان إذ ذاك الحسن ابن الإمام في جهات صعدة مثاغراً لمن هنالك من الأتراك، معاضداً لصنوه أحمد ابن الإمام، فاستأذن أخاه الإمام صاحب الترجمة في الخروج من صعدة والوصول إلى محاربة الأتراك، لعلمهم بشجاعته ورياسته وطاعة الناس له. فوصل إلى نواحي صنعاء وضايق من بها من الأتراك، ووقعت بينهم وبينه ملاحم عظيمة كانت اليد فيها للحسن، ثم وصل إليه أخوه الحسين بجيوشه بأمر صاحب الترجمة، وفتحت جيوشهما في أثناء هذه المدة حصن كوكبان وبلادة وثلا، ثم توجه الحسن بجيوشه إلى اليمن الأسفل واستقر الحسين وأحمد ابن الإمام محاصرين لصنعاء، ففتح الحسن مدينة إب.

وبالجملة فما زال الحسن والحسين يقودان الجيوش العظيمة على من بمدائن اليمن من الأتراك بأمر أخيهما صاحب الترجمة، حتى أخرجا جميع من بها من

جيوش الأتراك، إلا من رغب إلى الجلوس وأطاع الإمام وصار من أجناده. فصفت اليمن من صعدة إلى عدن، واستقل صاحب الترجمة بها جميعها بمناصرة أخويه المذكورين له، وبذلهما الغاية في ذلك بعد ملاحم عظيمة ومعارك شديدة. واشتملت عليها كتب السير الخاصة بصاحب الترجمة وأبيه وإخوته، كسيرة الشريفي وسيرة الحرموزي ونحوهما. ولم تجتمع الأقطار اليمنية بأسرها من دون معارض ولا منازع لأحد من الأئمة قبل صاحب الترجمة.

ومات في يوم الخميس سابع وعشرين رجب سنة ١٠٥٤ أربع وخمسين وألف، وقبر بشهارة بالقرب من والده، وكان مشهوراً بالعدل، والمشي على منهج الشرع، والوقوف عند حدوده، وحمل الناس عليه، مع لين الجانب وحسن الأخلاق، والتواضع والإحسان إلى أهل العلم، والميل إلى الفقراء ووضع بيوت الأموال في مواضعها» ا. هـ.

ويذكر الإمام محمد بن إسماعيل الأمير عن زهد هذا الإمام، أنه كان طالعاً درج بيته ذات يوم، فرأى امرأة تخرق قميصها وبان منه ثديها، فوضع رداءه على وجهه يحسبها أجنبية وهي ابنته، فنادته: أيرضيك هذا الحال يا أبتي؟ فأجابها: إن الرزق الحلال لا يتسع لأكثر من هذا. فانظر إلى هذا الزهد بينما أمر اليمن الطبيعية كافة بين يديه، فرحمه الله وأحسن جزاءه.

الامام الوالي المؤيد محمد بن إسماعيل ابن القاسم بن محمد (١٠٤٤ هـ - ١٠٩٧ هـ)

من صالحي الأئمة في القرن الحادي عشر باليمن. ترجمه الشوكاني فقال: (ولد لسنة ١٠٤٤) أربع وأربعين وألف تقريباً، وقرأ على علماء عصره في أنواع من العلم حتى فاق في كثير من المعارف العلمية، ثم لما مات الإمام المهدي أحمد بن الحسن في سنة (١٠٩٢) بويع هذا بالخلافة، واجتمع عليه رؤساء اليمن إذ ذاك، وهم: السيد علي بن المتوكل، والسيد محمد بن أحمد الذي صارت إليه

الخلافة بعد صاحب الترجمة، والسيد بن الحسين بن الإمام، والسيد القاسم بن المؤيد، والسيد علي بن المتوكل صنو صاحب الترجمة. ولكن كانت البلاد الإمامية مقسمة بين هؤلاء المذكورين، ولم يكن لصاحب الترجمة إلا الاسم والخطبة، وكان من أولياء الله ومن أعدل الخلفاء، ولم يسمع عنه الجور في شيء من أموره. وكان كثير العبادة، كثير البكاء، دائم الخشية لله، لا يأكل إلا من نذور وتصل إليه بعد أن يعلم أنها من جهة تحل له، ولا يتناول شيئاً من بيوت الأموال. ومجلسه معمور بالعلماء والصالحين، وقراءة العلم وتلاوة القرآن. لا يزال رطب اللسان يذكر الله على جميع حالته، وقد صار عدله في الرعية مثلاً مضروباً، وكان أهل عصره يكنونه فيقولون: أبو عافية، لأنه لا يضر أحداً منهم في مال ولا بدن، بل قد يحتاج في بعض الأوقات لنائبة من نوائبه فيسأل أهل الثروة من التجار وأموالهم متوفرة أن يقرضوه، فلا يفعلون، لأنهم لا يخافون في الحال ولا في المستقبل. واستوطن هجرة معبر المشهورة، ومات ليلة الجمعة ثالث شهر جمادىٰ الآخرة سنة (١٠٩٧) سبع وتسعين وألف، وصارت الخلافة بعده إلى محمد بن أحمد المهدي صاحب المواهب كما تقدم ذكر ذلك في ترجمته.

العلامة الرحالة لطف الله الظفيري (٠٠ ـ ١٠٣٥ هـ)

من كبار العلماء في القرن الحادي عشر. قال الشوكاني في ترجمته: «العلامة الشهير المحقق الكبير ترجمه صاحب مطلع البدور ولم يذكر له شيوخاً ولا مولداً، ولم أقف أنا على ذلك، ولعله استفاد تلك المعارف المحققة في رحلته إلى مكة واستقراره هنالك، فإنه لم يكن باليمن إذ ذاك من يبلغ في تحقيق علم المعاني والبيان والأصول والنحو والصرف إلى درجته، فضلاً عن أن يكون شيخاً له. وقد تبحر في جميع المعارف العلمية، وصنف التصانيف المقبولة، كشرح الشافية لابن الحاجب في الصرف، فإنه شرحها شرحاً مختصراً نفيساً اشتغل به الطلبة من عصره إلى الآن. وقد لخص فيه (شرح الرضي على الشافية)، واعتمد كثيراً على

شرح الجاربردي. ومن مصنفاته المقبولة حاشيته لشرح التلخيص المختصر للسعد، فإنها حاشية مفيدة لخصها من حواشي المختصر، كحاشية الخطائي والسمرقندي أيضاً. وكان يحرر ما يحررونه من الاعتراضات على ألفاظ الشرحين، ويجيب عنها بما يجيبون، ويبالغ في الاختصار ولا يأتي بكلام من لديه إلا في أندر الحالات وأقلها، وله كتاب الإيجاز في المعاني والبيان، لخصه من التلخيص للقزويني، ولكنه حذف ما وقع عليه الاعتراض من شراحه وأهل الحواشي، وأبدله بعبارة لا يرد عليها ما أورده، وبالغ في الاختصار من دون إهمال لما تدعوه إليه الحاجة مما في الأصل، وقد شرحه. ولم أقف على الشرح ثم وقفت عليه بعد أيام، وهو شرح مختصر مفيد. ثم شرحه السيد العلامة زيد بن محمد بن الحسن بن القاسم ـ كما تقدم في ترجمته ـ شرحاً نفيساً جداً، واعتمد فيه على حاشية صاحب الترجمة المتقدم ذكرها. وله مختصر في الفقه لخص فيه ما في (الأزهار) للإمام المهدي، وحذف بعضه وزاد فيه قيوداً مفيدة. وله في الطب يد قوية، وكذلك في مثل علم الجفر والزيجات. ويروى أن صاحب الترجمة كان كثير الإنكار على ما يستعمله أهل مكة من اللهو، فوقع معه مرض من نوع السكتة أثر معه تغيراً في حواسه، فقال بعض الأطباء: إن السماع من أدويته، فعرفوه بأن صاحب الترجمة يكره ذلك وينكره، فقال: لا بد من ذلك، ففعلوا، فتحرك لذلك وصح من مرضه، ورجع إليه حواسه، فأمر من صار يعمل السماع عنده بالسكوت. وله تلامذة نبلاء منهم المحقق الكبير الحسين ابن الإمام القاسم. وتوفي رحمه الله في وطنه ظفير حجه في رجب سنة (١٠٣٥) خمس وثلاثين وألف. وقد التمس منه الشريف جعفر صاحب مكة أن يصنف كتاباً في الفقه والفرايض، وكتب إليه في ذلك نظماً فقال:

أيا شيخ لطف الله إني لقائل	بلا شك من سماك فهو مصيب
وإني رأيت اللطف منك سجية	ولله في كل الأمور حبيب
سألتك سفراً تسعين به على	عبادة ربي لا برحت تجيب

فتوضح لي يا شيخنا ما أقوله　　فأنت لداء الجاهلين طبيب
وأنت لنا في الدين عون وقدوة　　بقيت على مر الزمان تصيب

فنظم له الشيخ أبو جوزة في الفرائض، وجمع له مختصراً في الفقه يختص بالعبادات، وأجاب على النظم بقوله:

أمولاي يا من فاق مجداً وسؤدداً　　وما إن له في الخافقين ضريب
أتاني عقد يخجل الدر نظمه　　ويعجز عنه أحمد وحبيب
معان وألفاظ زكت وتناسقت　　فكل لكل من البيان نسيب
وما كان قدري يقتضي أن أجيبه　　ومثلي لذلك السمط ليس يجيب
وقلتم بأن اسمي يشير بأن لي　　نصيباً، وكلا ليس فيه نصيب
أتحسب ما أعطيت من لطف سيمة　　تقصر عنها شمأل وجنوب
تعد إلى مثلي، وإني وكيف ذا؟　　وإني عن أدنى الكمال تسليب
ولكن حويت اللطف أنت جميعه　　فقلت على ذا الباس أنت عجيب
وأمركم ماض، وحظي قبولكم　　وإني على قدر القصور مجيب

قاضي قضاة بني رسول محمد بن عبد الله الريمي (٠٠ ـ ٧٩٢ هـ)

فاتنا إيراده في مكانه فأوردناه هنا. ترجمه الخزرجي ترجمة متعددة في أكثر من مكان من كتابه (العقود اللؤلؤية). ويحسبه أنه تولى القضاء العام بمملكة بني رسول، ومن بعده انتقل القضاء العام إلى المجد الفيروز آبادي صاحب القاموس. وأهم مؤلفات الريمي كتابه (التفقيه) شرح التنبيه في أربعة عشر مجلداً أهداها إلى الملك الأشرف الرسولي، فأمر بحملها على الرؤوس وزفّها مع المؤلف من داره إلى دار الملك الأشرف، وأجازه عليها ثمانية وعشرين ألف درهم. توفي سنة ٧٩٢.

العلامة الكبير عبد الرحمن بن نهشل الحيمي
(٠٠ ـ ١٠٦٨ هـ)

قال صاحب البدر الطالع في ترجمته: «كان من العلماء الجامعين بين علم المعقول والمنقول، وله اشتغال بالتدريس في الأمهات ونشرها، ويمثل العضد وحواشيه والمطول وحواشيه والرضى في النحو وسائر الكتب المفيدة. وقد أخذ عنه الناس، واشتهر من جملة تلامذته العلامة الحسن بن أحمد الحلال وجماعة أكابر، منهم: القاضي أحمد بن سعد الدين المسوري، والقاضي أحمد بن صالح بن أبي الرجال. ولكنه ما سلم من الامتحان من أهل عصره بسبب اشتغاله بالأمهات، علماً وعملاً وتدريساً. وليس ذلك ببدع، فهذا شأن هذه الديار من قديم العصور. ومن مشايخه: السيد الحسن بن أحمد بن شمس الدين، ويحيىٰ بن أحمد الصابوني، والحافظ بن علان.

وبالجملة فصاحب الترجمة من أكابر العلماء المتبحرين في جميع العلوم، وما زال مكباً على ذلك حتى توفاه الله تعالى ٢٧ ربيع الأول سنة ١٠٦٨ بصنعاء ودفن بجربة الروض».

المجتهد الولي صالح بن مهدي المقبلي (١٠٤٧ هـ ـ ١١٠٨ هـ)

هذا الإمام من الذين جمعوا بين العلم والعمل، وتمت له الكثير من الكرامات. ذكر زبارة في ترجمته بالنشر أنه كان يحفظ الأمهات الست متوناً وأسانيداً عن ظهر قلب، وأنه كان يرى النبي ﷺ في الأسبوع أو الشهر فيستفتيه فيفتيه، وأنه كتب لأحدهم البسملة فحفظت متاعة طوال موسم الحج.

وترجمه الإمام الشوكاني فاختصرنا منها الفقرات التالية:

قال: «ولد في سنة (١٤٠٧) سبع وأربعين وألف، في قرية المقبل من أعمال بلاد كوكبان، وأخذ العلم عن جماعة من أكابر علماء اليمن، منهم السيد

العلامة محمد بن إبراهيم بن المفضل، كان ينـزل للقراءة عليـه من مدينـة ثلا إلى شبـام كل يـوم، وبه تخـرج وانتفع. ثم دخـل بعـد ذلـك صنعـاء، وجـرت بينـه وبـين علمائهـا مناظـرات أوجبت المنافـرة، لما فيـه من الحدة والتصميم عـلى ما تقتضيـه الأدلـة وعدم الالتفـات إلى التقليد. ثم ارتحـل إلى مكة، ووقعت لـه امتحانـات هنـالك، واستقـر بها حتى مـات في سنة ١١٠٨ ثـمان وإحدى عشرة مئـة. كتبت مولده فيها ما علق بذهني من كتبه، فإنه ذكر فيها ما يفيد ذلك. وهو ممن برع في جميع علوم الكتاب والسنة، وحقق الأصولين والعربيـة والمعاني والبيـان والحديث والتفسير، وفاق في جميـع ذلك. ولـه مؤلفات مقبـولة كلهـا عند العلماء، محبـوبة إليهم، متنافسون فيها، ويحتجون بترجيحاته وهو حقيق بذلك. وفي عبـاراته قـوة وفصاحة وسلاسة تعشقها الأسماع، وتلتذ بها القلوب، ولكلامه وقـع في الأذهان قلّ أن يمعن في مطالعته من له فهـم فيبقى على التقليد بعد ذلك، وإذا رأى كلاماً متهـافتاً زيفـه ومزقـه بعبارة عـذبة حلوة. وقـد أكثر الحط عـلى المعتزلـة في بعض المسـائل الكـلامية، وعـلى الأشعريـة في بعض آخر، وعـلى الصـوفيـة في غـالب مسائلهم، وعلى الفقهاء في كثير من تفريعاتهم، وعلى المحدثين في بعض علوهم، ولا يبالي إذا تمسك بالدليل بمن يخالفه كائناً من كان، فمن مؤلفاته الفائقة حاشية (البحر الزخار) للإمـام المهدي المسماة بـ (المنار)، سلك فيها مسلك الإنصـاف. ومـع ذلك فهـو بشر يخطىء ويصيب، ولكن قـد قيد نفسه بالـدليل لا بـالقـال والقيل، ومن كان كـذلك فهـو المجتهد الـذي إذا أصاب كـان له أجـران، وإن أخـطأ كان لـه أجـر. ومنهـا (العلم الشـامـخ) اعـترض فيـه عـلى علماء الكـلام والصـوفية، ومنهـا في الأصول (نجـاح الطالب عـلى مختصر ابن الحـاجب) جعله حـاشيـة عليـه، ذكـر فيهـا مـا يختـار من المسـائـل الأصـوليـة، ومنهـا في التفسـير (الإتحاف لطلبه الكشاف) انتقد فيه على الزمخشري كثيـراً من المباحث، وذكـر ما هو الراجح لديـه. ومنها (الأرواح والنـوافخ) و(الأبحاث المسددة) جمـع مباحث تفسيرية وحديثية وفقهية وأصولية».

وقال: «ولما سكن مكة وقف عالمها البرزنجي محمد بن عبد الرسول المدني على العلم الشامخ في الرد على الآباء والمشائخ، فكتب عليه اعتراضات، فرد عليه بمؤلف سماه (الأرواح النوافخ) فكان ذلك سبب الأنكار عليه من علماء مكة، ونسبوه إلى الزندقة بسبب عدم التقليد، والاعتراض على أسلافهم. ثم رفعوا الأمر إلى السلطان الرومي، فأرسل بعض علماء حضرته لاختباره، فلم ير منه إلا الجميل، وسلك مسلكه. وأخذ عنه بعض أهل داغستان ونقلوا بعض مؤلفاته».

وقال: «وكان ينكر ما يدعيه الصوفية من الكشف، فمرضت ابنته زينب في بيته من مكة وكان ملاصقاً للحرم، فكانت تخبره وهي من وراء جدار بما فعل في الحرم، وكان يغلق عليها مراراً، وتذكر أنها تشاهد كذا وكذا، فيخرج إلى الحرم فيجد ما قالت حقاً. وذكر رحمه الله في بعض مؤلفاته أنه أخذ في مكة على الشيخ ابراهيم الكردي».

المحقق عبد القادر البدري الثلائي (١٠٧٠ هـ - ١١٦٠ هـ)

مجتهد تتلمذ على مجتهد هو المقبلي، وناصر مجتهداً هو الأمير. قال الشوكاني: «العلامة المتبحِّر المنتجد في جميع العلوم. ولد سنة ١٠٧٠ وأخذ العلم عن جماعة من أكابر العلماء، كالعلامة المقبلي المتقدم ذكره، وله مسائل ورسائل سلك فيها مسلك المجتهدين، ويحررها تحريراً متقناً، ويمشي مع الدليل ولا يعبأ بما يخالفه من القال والقيل. وكان قاضياً بمدينة ثلا، وامتحن في أوائل دولة الامام المنصور بالله الحسن بن القاسم لسبب مفترىء، وكان قصيراً جداً فحمله بعض العامة، وكان يترقص به ويقول:

متى يا طلعت البدري تواصل مغرمك

فعاقبه الله سبحانه وتعالى وقتل شر قتلة، وسيأتي له ذكر في ترجمة السيد عبد الله الوزير. ومات سنة ١١٦٠ رحمه الله. وولده يوسف من أكابر العلماء

وأفاضل العباد، وحفيد صاحب الترجمة هو أحمد بن يوسف بن عبد القادر، وهو حال تحرير هذه الأحرف قاضي ثلا، وهو من خيرة قضاة العصر وله عرفان تام».

المجتهد المتصوف أحمد محمد قاطن (١١١٨ هـ - ١١٩٩ هـ)

أحد أقطاب الشريعة والتصوف الإسلامي النقي. قال الشوكاني: «كان مولده ليلة أربع عشرة محرم سنة ١١١٨. قرأ في مدينة شبام وحصن كوكبان، وتكسب بالتجارة في مبادىء عمره بشبام مع إشتغاله بالعلم وإكبابه على الفنون. ثم أخذ في صنعاء عن السيد العلامة هاشم بن يحيىٰ الشامي، والسيد العلامة صلاح بن الحسين الأخفش، والسيد العلامة أحمد بن عبد الرحمن الشامي، وطالت ملازمته للثالث، وقرأ عليه في عدة فنون. وبقي في بيته سنين فعاونه عند الإمام المنصور بالله الحسين بن القاسم بن الحسين بن الإمام المهدي. وكان السيد المذكور إذ ذاك متولياً للقضاء الأكبر بصنعاء، فولي صاحب الترجمة القضاء وجعله من جملة حكامها، فاتفقت حادثة كان بسببها عزل صاحب الترجمة مع أن الحق معه. ثم لما كانت خلافة الإمام المهدي لدين الله العباس بن الحسين، ولاه القضاء بمدينة ثلا، ثم جعل إليه ولاية الأوقاف، ثم بعد ذلك اعتقله، وحصلت له محن، وخرب بيته في ثلا، بسبب أن السيد العلامة قاسم بن محمد الكسبي احتسب عليه إذا ذاك أنّ عمره فوق مقبرة، ثم عوضه الله فملكه الإمام المهدي داراً عظيمة بصنعاء، وبها أولاده الآن وسائر أهله، ثم بعد اعتقاله حج، وبعد أيام ولاه الإمام المهدي القضاء الأكبر بمدينة صنعاء، واستمر أياماً وحمدت مباشرته، مع اشتهاره بالعفة والنزاهة وعدم المحاباة في أي شيء من الأمور، لا لصغير ولا لكبير. وكان يكثر الحط والإنكار على بعض المتعلقين بأعمال الإمام المهدي، كالفقيه علي الحرافي ومن يشابهه. فما زالوا بالإمام المهدي حتى اعتقله قبل موته بنحو عام، ثم استمر محبوساً إلى أيام مولانا الإمام المنصور بالله علي بن

العباس ـ حفظه الله ـ، فأفرج عنه، فخرج إلى بيته وقد ثقل سمعه وضعفت قوته لعلو سنه، ومع ذلك فما زال يقرىء من يطلب القراءة عليه. وكان له شغف بالعلم، وله عرفان تام بفنون الاجتهاد على اختلاف أنواعها، وله شيوخ عدة. وقد اختصر (الإصابة)، وكتب مجلداً يشتمل علىٰ أسانيد الكتب العلمية إلى مصنفيها، وترجم جماعة من رجال الإسناد وهو في حكم المعجم، وله كتاب آخر ذكر فيه تراجم لأهل عصره. وكان له عناية كاملة بعلم السنة ويد قوية في حفظها، وهو عامل باجتهاد نفسه لا يقلد أحداً. واستمر مشتغلاً بنشر العلم مجتهداً في الطاعات، حتى توفاه الله في ليلة الجمعة سابع عشر جمادىٰ الأولى سنة (١١٩٩) تسع وتسعين ومئة وألف. وله أولاد أعلمهم عبد الحميد بن أحمد، وله عرفان كامل في علم الاجتهاد مع سمت ووفور عقل وجودة فهم وقوة إدراك، وهو على طريقة والده في العمل بالأدلة. ومولده حسبما ذكر لي بخطه، سابع عشر شهر جمادىٰ الأولى سنة (١١٧٥) خمس وسبعين ومئة وألف، وهو الآن مكب علىٰ طلب العلوم، مشتغل بالنظر في أمر معاشه ومعاده، مقبل على شأنه قد شغلته نفسه عن غيره. ومن شعر والده المترجم له حسبما رأيت ذلك بخطه منسوباً إليه:

يا سارياً لسرى الحسن، كم أسرت ... عيونه من كميّ حارفي حوره
نوافث السحر منها قيدته ضحى ... والله أعلم ما كان انتهى خبره
فاعقل قلوصك واغفل من سريت له ... فإنه الشمس تعشو العين من نظره»

المجتهد المطلق عبد القادر بن أحمد شرف الدين (١١٣٥ هـ ـ ١٢٠٧ هـ)

مجتهد تتلمذ على مجتهد هو الأمير وكان شيخاً المجتهد هو الشوكاني الذي ترجمه: «الإمام المحدث الحافظ المسند المجتهد المطلق. ولد كما نقلته من خطه في شهر القعدة سنة (١١٣٥) خمس وثلاثين ومئة وألف، ونشأ بكوكبان فقرأ على من به من العلماء، ثم ارتحل إلى صنعاء. فأخذ عن أكابر علمائها، كالسيد العلامة

محمد بـن إسماعيل الأمير والسيد العلامـة هاشم بن يحيـىٰ، وغـيرهـم. ثم ارتحل إلى مدينة ذمار وهي إذ ذاك مشحونة بعلماء الفقه والفرائض، فأخذ عن شيوخهـا في الفقه والفرائض، ثم تـزود في جميع مـدائن اليمن وأخذ عن كـل من لقية من العلماء، ثم ارتحل إلى مكة والمدينة فأخذ عن علماء الحرمين. وشيوخه قـد اشتمل عليهم مجلد حافل، ذكر فيه من أخذ عنه ومن أجاز له والأسانيد التي تلقـاها عن شيوخه. وبقي مهـاجراً في الحرمين نحو عامـين، ثم عاد إلى كـوكبان وصنعـاء، ثم استوطن كوكبان واستقر هنالك، ينشر العلم ويفيـد الطالبـين. ومن جملة من أخذ عنه أمير كوكبان إذ ذلك السيـد العلامـة أحمد بن محمـد بن الحسين وجمـاعة كثيرة، منهم السيد العـلامة عـلي بن محمد بن عـلي، ومنهم ولده السيـد العلامـة إبـراهيم بن عبد القـادر المتقدم ذكـره. وكان يفـد إلى صنعاء في الأمـور المهمـة، كـوفوده عنـد موت الإمـام المهدي رحمـه الله لمبايعـة ولده مـولانـا خليفـة العصر المنصـور بالله ـ حفـظه الله ـ. وكـان في مـدة إقـامتـه هنـالـك قـد طـار صيتـه في جميـع الأقطار اليمنية، وأقر له بالتفرد في جميع أنواع العلم كـل أحد بعـد موت شيخـه السيد العلامة محمد بـن إسماعيل الأمير.

وأني أذكر وأنا في المكتب مـع الصبيان أني سـألت والدي ـ رحمـه الله ـ عن أعلم من بالديار اليمنية إذ ذلك، فقال: فلان، يعني صاحب الترجمة.

وأخبرني العالم الفاضل عبد الرحمن بن الحسن الـريمي، أنه حضر في بعض المـواقف بصنعاء وقـد كـان اجتمـع فيـه أكـابـر علماء صنعـاء. قـال: ومن جملة الحاضرين صاحب الترجمة، وهو أصغرهم سناً، وكان ذلك في إحدى قدماتـه إلى صنعـاء. قال: فـرأيتهم يتواضعـون لـه، ويخضعـون لعلمـه، ويستفيـدون منـه ويعـترفون بـارتفاع درجتـه عليهم، وهذا الاجتـماع بينه وبـين قـدوم شيخنـا إلى صنعاء واستقراره فيها سنون كثيرة، فإنـه قدم هـذا القدوم الآخـر الذي استقـر فيه. ولم يبق من أولئك الأعيان الذين كانوا في ذلك الموقف أحد. ثم لما أراد الله إحياء علوم الحديث بل سائر العلوم بصنعاء، جرت بينه وبين أمير كوكبان السيد

إبراهيم بن محمد بن الحسين مناكدة، فأظهر أنه يريد الخروج من كوكبان إلى وادي ظهر للتنزه به أيام الخريف، فأذن له السيد إبراهيم، فخرج واستقر أياماً بوادي ظهر، وما زال يرسل لأهله ولكتبه ولجميع ما يحتاج إليه، ثم كتب إلى الوزير الخطير الحسن بن علي حنش إلى خليفة العصر ـ حفظه الله ـ فأذن بذلك، وأنزله بدار الفرج من بيد العزب، فسكن فيها. ووفد إليه أكابر علماء صنعاء، وأخذ عنه جماعة من أعيانهم» ا. هـ.

هذا طرف قليل من ترجمة تلميذه الشوكاني له. وقد ذكر السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل تلميذ المترجم له بالإجازة، أن مؤلفات السيد عبد القادر تزيد على أربعين مؤلفاً. توفي رحمه الله سنة ١٢٠٧.

إسحاق بن يوسف بن المتوكل (١١١١ هـ ـ ١١٧٣ هـ)

قال الشوكاني في ترجمته:

«ولد حسبما وُجد بخطه في سنة ١١١١، وهو إمام الآداب والفائق في كل باب على ذوي الألباب. قرأ في الآلات، ولم تطل أيام طلبه، بل هو بالنسبة إلى أيام طلب غيره من الطلبة لا تعد، ولكنه نال بقوة فكره الصادقة وجودة ذهنه الفائقة ما لا يناله غيره من أهل الاشتغال الطويل. ثم قرأ في علم الحديث على السيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير، وكان يتعجب من ذكائه. وله مصنفات منها: (تفريج الكروب في مناقب علي بن أبي طالب كرم الله وجهه)، وهو كتاب نفيس. وله رسائل كالرسالة التي سماها (الوجه الحسن المذهب للحزن)، وفيها من البلاغة وحسن المسلك ما شهد له بالتفرد ومضمونها: الإنكار على من عادى علم السنة من الفقهاء الزيدية، وعلى من عادى علم الفقه من أهل السنة. وكان يميل إلى الإنصاف، ولكنه لا يظهر ذلك لشدة الجاحدين من الفقهاء على من أنصف. ولم يتعصب للمذهب، وهو الذي أورد السؤال في المذهب ثم أجاب عليه علماء عصره. وكثرت الجوابات إلى

غاية، وهي مجموعة عند كثير من الناس، ولم يعجب المترجم له شيء منها. ثم إنه رام كشف الأشكال وجمع رسالة سماها (التفكيك لعقود التشكيك، والظاهر أنه قصد بالسؤال ترغيب الناس إلى الأدلة وتنفيرهم من التقليد، يدل على ذلك قصيدته التي أوردها القاضي العلامة أحمد بن محمد قاطن في كتابه الذي سماه (تحفة الإخوان بسند سيد ولد عدنان) وأولها:

تأمل وفكر في المقالات وانصت وعُـدْ عن ضلالات التعصب والفت

توفي سنة ١١٧٣ رحمه الله.

العلامة الزاهد إبراهيم بن خالد العلفي (١١٠٦ هـ - ١١٥٦ هـ)

أحد العلماء المجاهدين أصحاب الكرامات ترجمه صاحب البدر الطالع: «ولد على رأس القرن الحادي عشر تقريباً، وقيل سنة ١١٠٦، أو في التي بعدها. ونشأ بصنعاء، فطلب علم الفروع وحققه، ثم طلب بقية علوم الاجتهاد فشارك فيها مشاركة قوية، واشتهر بصنعاء وبعد صيته، وقصده طلبة علم الفروع فأخذوا عنه، وتنافسوا في ذلك واستفادوا وصاروا أعياناً. وكان يُقصد بالفتاوى من العامة والخاصة، ويعارض باجتهاداته وصحح أنظاره أنظار أكابر علماء عصره، كالسيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير وغيره. وللناس بما يصدر عنه من الفتاوىٰ اشتغال ورغبة عظيمة، وهي مجموعة في مجلد، جمعها العلامة حامد بن حسن شاكر الآتي ذكره. وشرع في جمع حاشية على الأزهار ولم تكمل. وهو ممن يضرب بزهده المثل، ومات ولم يتزوج. وكان موته في وسط القرن الثاني عشر، وأرخه بعضهم في ثامن عشر شعبان سنة ١١٥٦.

ومن مشائخه السيد العلامة هاشم بن يحيىٰ الشامي، والسيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير، والسيد العلامة محمد بن زيد بن محمد بن الحسن بن القاسم. ومولده برداع، ثم هاجر إلى ذمار، وارتحل بعد ذلك إلى صنعاء، واستقر بها حتى مات».

العلامة العامل صلاح الأخفش (٠٠ ـ ١١٤٢ هـ)

قال الشوكاني في ترجمة هذا العالم الربّاني ذكرى لمن كان له قلب: «العالم المحقق الزاهد المشهور المتقشف المتعطف. أخذ العلم عن جماعة من علماء عصره، منهم العبالي المشهور والقاضي محمد إبراهيم السحولي، والقاضي علي بن يحيىٰ البرطي. وبرع في النحو والصرف والمعاني والبيان وأصول الفقه، كان إماماً بمسجد داود ثم بالجامع الكثير، ثم عاد إلى مسجد داود لأمور اتفقت. وكان لا يأكل إلا من عمل يده، يعمل القلانس ويبيعها ويأكل ما تحصل له من ثمنها، ولا يقبل من أحد شيئاً كائناً من كان، وكان للناس فيه اعتقاد كبير وهو ينفر من ذلك غاية النفور، وله في إنكار المنكر مقامات محمودة. وهو مقبول القول، عظيم الحرمة، مهاب الجناب، وله مع الإمام المتوكل على الله القاسم بن الحسين الإمام وولده المنصور بالله الحسين بن القاسم من هذا القبيل أمور يطول شرحها. وكان لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يبالي بأحد مخالف للحق، وله شهرة عظيمة في الديار اليمنية ولا سيما صنعاء وما يتصل بها، فإنه يضرب به المثل في الزهد إلى حال تحرير هذه الأحرف. وله منذ مات بزيادة على سبعين سنة. وكان طلبة العلم في عصره يتنافسون في الأخذ عنه وهو يمتحنهم بالأسئلة، فإذا رأىٰ من أحد فطنة مال إليه وعظمة ونوه بذكره.

وله مؤلف في النحو سماه (نزهة الطرف في الجار والمجرور والظرف) جمع فيه فوائد نفيسة، وشرحه شيخنا السيد العلامة عبد القادر بن أحمد بشرح حافل. وله رسالة في الصحابة سلك فيها مسلك التنزيه لهم على ما فيها من تطفيف لما يستحقونه، ومع ذلك اعترض عليها السيد العلامة عبد الله بن علي الوزير باعتراض هدم ما بناه السيد صلاح من التنزيه للصحابة عن السب والثلب، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وكان بين هذين السيدين منافسة إلى حد الحط على خير القرون فأبعدها الله.

ولصاحب الترجمة نظم فائق، فمن ذلك القصيدة الطويلة الذي ذكر فيها علوم الاجتهاد، وما يرجحه في المقدار المعتبر منها، وتزييف قول من قال أن علم المنطق من جملة علوم الاجتهاد، ولعله يشير إلى السيد عبد الله الوزير المذكور، فإنه كان مشتغلاً بهذا الفن. ومطلع القصيدة:

بتحميدك اللهم في البدء أنطق   وإن لم يقم مني بحمدك منطق

ولم يزل مستمراً على حاله الجميل في نشر العلم وعمارة معالم العمل وإشادة ربوع الزهد، حتى توفاه الله في سنة ١١٤٢ في يوم الأربعاء سابع وعشرين من رجب من هذه السنة، وازدحم الناس على جنازته، وغلقت الأسواق».

عامر الشهيد (٩٦٥ هـ - ١٠٠٨ هـ)

ترددت في كتابة هذه الترجمة لما فيها من بشاعة المثلة التي أصابت صاحب الترجمة فتلقاها صابراً محتسباً، ثم عزمت على إيرادها مستغفراً الله لما يفعله أصحاب الدين الواحد بأبناء دينهم.

قال الإمام الشوكاني: «وقد سبق نسبه في ترجمة الحسن القاسم، وهو المعروف بعامر الشهيد. ولد سنة ٩٦٥، وذكر مقروءاته على الرحمن وعثمان شرف الدين». ثم قال: «ولما دعا ابن أخيه الامام القاسم ببلاد قارة كتب إليه فوصل ثم توجه بجنود، فافتتح من بلاد الأمراء آل شمس الدين كثيراً». وكانوا أعضاء الوزير ثم حسن والكخياسنان فما زال كذلك من سنة (١٠٠) إلى سنة ١٠٠٨، ثم إن جماعة من أهل قساعة غدروا به. وقد كان تزوج بامرأة منهم هنالك، وتفرق عنه أصحابه ولم يبق سواه، فسعوا إلى الأتراك وأخبروهم بتفرده، فأقبلوا إليه وأحاطوا به، ثم أسروه وأدخلوه شبام، فطافوا به في كوكبان وشبام على جمل، وأمر كوكبان يومئذ السيد أحمد بن محمد بن شمس الدين. ثم إنه أرسل به إلى الأتراك مع جماعة إلى الكخيا سنان، وكان في بني صريم، فأمر به أن يسلخ فسلخ جلده وصبر، فلم يسمع له أنين ولا شكوى، بل كان يتلو

سورة الإخلاص، وكان ذلك في يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ١٠٠٨. ثم إن سناناً أملى جلده الشريف تبناً وأرسل به على جمل إلى صنعاء إلى الوزير حسن، فشهده إلى الدائر على ميمنة باب اليمن، ودفن سائر جسده بجمومة من بني صريم، ثم نقل إلى خمر بأمر الإمام. وقبره هناك مشهور مزور. ثم احتال بعض الشيعة فأخذ الجلد ودفنه على خفيه، وعليه ضريح هنالك، وقبة على يمين الداخل باب اليمن.

الولي أحمد الراعي صاحب نقم (٠٠ ـ ١١٥٣ هـ)

ترجمه السيد محمد زبارة في (نشر العرف) فقال: «كان أبوه وإخوته يتعلقون بالتجارة، فنشأ صاحب الترجمة ولازم أهل العلم والصالحين، واشتغل بكتب الرقائق، واظب على الطاعات، ثم اعتزل عن الناس وأقبل على عبادة الله تعالى. وكان يحب الخلوة في جبل نقم المشرف على مدينة صنعاء، وإذا رأى أحداً من الناس فر منه، وربما فاجأه من كان يتصل به في الابتداء، فيعتذر بأن معه علة ويشير إلى بطنه موهماً أن تلك العلة تمنعه الملاقاة. وكان لا يرضى بأكل ما يسد رمقه من عهد إخوته ولبس ما يستر عورته، إلا بعد أن يعمل لهم أشق الأعمال ويتولى غسل ثيابهم وتربية أولادهم، وغير ذلك. واشتهرت عنه كرامات عديدة مع نفوره من الاتصال بالناس، وعمن يريد التبرك به، أو التماس الدعاء منه، أو نحو ذلك.

قال القاضي أحمد بن محمد قاطن: إني حدثت نفسي في بعض الأيام بأن صلاة الجمعة والجماعة لعلها تفوته، ولم يشعر أحد بما حدثت به نفسي، فلم يلبث أن جاء الفقيه أحمد بن سعيد الحطوار وهو رجل فاضل يقرأ علي في النحو، فأخبرني أنه صلى الجمعة في الجامع بجنب الفقيه، أحمد الراعي، وأنه سلم عليه وأمره أن يسلم علي، وأن يقول لي: إنه يحضر الجمعة والجماعة.

قال القاضي: «وأخبرني من أثق به عن بعض أهل صنعاء، أنه دخل من

بير العزب بعد صلاة المغرب وأراد الدخول من باب اليمن أحد الأبواب المعروفة بصنعاء فوجد الباب قد أغلق، فحصل معه قلق عظيم واعترته ذلة ووحشة. فبينما هو يفكر في أمره عن المقابر إذ رأى شخصاً وبيده فانوس وقد جاء من جهة جبال نقم، فأنس به وقصده فإذا هو الفقيه أحمد الراعي، فأخبره أن باب اليمن قد أغلق، فأجاب الفقيه أحمد بأنه مفتوح، وإنما تخيلت أنه قد أغلق، ثم قبض على يده ودخلا جميعاً من باب اليمن ورآه مفتوحاً. فلما فارق الفقيه أحمد رجع إلى الباب لينظره فوجده مغلقاً، فسأل الموكلين به، فأخبروه أن له مدة طويلة حين أغلق، وأنه لم يفتح، ولم يروا أحداً قد دخل منه» انتهى كلام القاضي.

قلت: وسمعت أنه استكتمه ذلك وأمره ألا يخبر به أحداً. وأشهرت عنه كرامات أخرى وتوفي بصنعاء سنة ١١٥٣، وأوصى ألا يعرف أخوه أحداً بموته، ولما شاع خبر موته خرج جميع أهل صنعاء إلى فوق قبره أفواجاً. رحمه الله تعالى ونفعنا به، آمين».

إمام السنة أحمد بن يوسف الحديث (٠٠ ـ ١١٩١ هـ)

قال صاحب البدر الطالع في ترجمته: «المجتهد المحقق المحدث البارع في علم السنة، المشهور بحفظها وحفظ رجالها حتى لقب الحديث لغلبته عليه. وكان عارفاً بفنون الآلة جميعاً، وله يد طولى في علم الأدب وقصائده طنانة، وله تخريج لمجموع الإمام زيد بن علي، نفيس يدل على طول باعه في علم الرواية. وكان مشهوراً بدماثة الأخلاق والتواضع والاحتمال والصبر وسكون الطبع والوقار، وله في ذلك أحوال عجيبة حتى كان إذا تركه أهله من طعامه وشرابه أو شيء مما يحتاج إليه، لا يطلب ذلك منهم ولا يظهر عليه غضب، بل يحتمل كل شيء. وهذا في خواص أهله الذين هم محل تبذيل الإنسان وعدم تحفظه، فما ظنك بسائر الناس؟! فمن قصائده القصيدة الطنانة التي أولها:

أيها القاصر الفعال على اللهو ألما يئن لك الإقصار

قد أتاك المشيب فيه من الله إليك الإعذار والإنذار
فاترك اللهو جانباً واحتشمه فهو صيف قراه منك الوقار
إن سكر الشباب لم يبق منه بعد صحو المشيب إلا الخمار
قد تولى ريعانه وهو ليل وأنار القتير وهو نهار
أضلال من بعد أن وضح الصبح لرائيه فاستبان المنار
ضحك الشيب منه، فابك خطاياك وأقلل، فحتفك الإكثار
ليس خمسون حجة بعدها عزف ولا صبوة ولا استهتار
ذهب المتقون بالله بالعز وذل العصاة، والذل عار

توفاه الله تعالى في أواخر شهر جمادى الآخرة سنة ١١٩١ رحمه الله».

العلامة الزاهد إبراهيم اليعمري (١١٦٤ هـ - ١٢٢٣ هـ)

قال صاحب البدر الطالع في ترجمته: «ولد سنة ١١٦٤، وتلا الكتاب العزيز على شيخ القرآن العظيم صالح الجرادي، وأخذ في الآلات على شيخنا السيد العلامة عبد الله بن الحسن بن علي بن حسين بن علي بن المتوكل، وأخذ الفقه والفرائض على السيد بن حسن الصعدي، وأخذ في علم السنة على السيد العلامة الحسين بن عبد الله الكسبي، وانتفع بعلمه فعمل به، وعكف على العبادة، وتحلى بالزهد، وصار عابد العصر وزاهده، وانتهى إليه الورع وحسن السمت والتواضع والاشتغال بخاصة نفسه. واتفق الناس على الثناء عليه، والمدح لشمائله، فصار المشار إليه في هذا الباب، وانتفع الناس بصلاح دعواته وقصدوه لذلك. وهو الآن حسنة الزمن، وزينة اليمن، مع المحافظة على الشرع والاقتداء برسول الله ﷺ والاستكثار من النوافل والأوراد. وكان جده أحمد على هذه الصفة التي حفيده هذا عليها. زاده مما أولاه ونفع به. ومات رحمه الله لعشرين خلت من شهر شوال سنة ١٢٢٣».

شيخ القراء الهادي القارني (١٦٦٤ هـ - ١٢٣٧)

قال الشوكاني في ترجمته في البدر الطالع: «ولد سنة ١١٦٤ بصنعاء ونشأ بها، فحفظ القرآن ثم تلاه بالسبع على بعض مشائخ صنعاء، فقدم بعض الغرباء المبزرين في القراءات وهو الشيخ علي بن عثمان بن حجر الرومي، فتلاه عليه بالسبع من أوله إلى آخره. وبرع صاحب الترجمة في هذا الشأن، وصار الآن منفرداً بهذا العلم وشيخاً لغالب القراء من أهل صنعاء، منهم من تلا عليه بالسبع، ومنهم من تلا عليه ببعضها، وله خبره كاملة بشروح الشاطبية وغيرها من كتب الفن. وأخذ الفقه عن شيخنا العلامة أحمد بن محمد الحرازي ولازمه مدة، وشاركني في القراءة عليه، فبرع في الفقه أيضاً، وأخذ علم النحو والصرف عن جماعة من مشائخ صنعاء، منهم جماعة من شيوخي، وأخذ علم المعاني والبيان والأصول والتفسير والحديث عن شيخنا العلامة الحسن بن اسماعيل المغربي، مشاركاً له في القراءة عليه وصار مشاركاً لعلماء العصر في فنونهم مع تفرده عنهم بمعرفة القرآن. وهو أحد شيوخي في التلاوة، وأخذت عنه في شرح الجزرية، وقرأت عليه في أيام الصغر في الملحة وشرحها، ثم بعد ذلك أخذ عني مسموعات، منها في شرحي على المنتقى بعد أن كتبه، وقد سمع الآن بعضه، وهو مستمر في السماع، وسمع في بعض البخاري وبعض الأحكام للإمام الهادي. وهو الآن يدرس في عدة فنون، مع دين متين وورع وعفاف وقنوع، ومحبة لمقاصد الخير ونفع الفقراء والاشتغال بخاصة النفس والوقوف على مقتضى الشرع، والانجماع عن بني الدنيا والإقبال على الطاعة والتلاوة والإذكار، والتزود من التودد وحسن الخلق.

وبمجموع ما حواه من خصال الكمال صار محبباً إلى الناس، مقبولاً عندهم، معروفاً بالديانة والصيانة والأمانة. وكثيراً ما يقصدونه في فصل كثير من الخصومات، وتخصيص التركات، فيحكم ذلك غاية الإحكام، ويقنع بما يطيب به نفوسهم، وقد يفعل ذلك بدون أجرة. وكثيراً ما ينوب عني في أعمال شرعية،

فيقوم بها قياماً تاماً، ويفصلها فصلاً حسناً أدام الله النفع به. وتوفي سنة ١١٣٧، رحمه الله».

العلامة المجاهد يحيى بن محمد الحوثي المعروف بابن أبي عروبا (٠٠ ـ ١١٥٢ هـ)

من كبار علماء اليمن المجتهدين المصلحين في القرن الثاني عشر. تتلمذ على الإمام المجتهد محمد بن إسماعيل الأمير أيام هجرته بشهارة، ونال منه أكثر علومه حتى بلغ درجة الاجتهاد، وهو الذي اقترح على الأمير وضع كتابه (التنوير) شرحاً للجامع الصغير سنة ١١٤٢. ولما هاجمت الباطنية مدن تهامة وبيت الفقيه وملحان وحفاش اعترضهم جند الإمام فأخذ منهم ما سلبوه، وعد الإمام ذلك نصراً تدق له الطبول.

وكتب إليه الحوثي رداً على رسالة الإمام ومنها قوله: «خلا أن كتابكم أعلن بما لا يقتضيه الحال والمقام، وإن لكل مقام مقالاً، ولكل مقال حالاً، يعرف ذلك من نظر في علم البلاغة وإن لم يكن من أهل الكمال. دع عنك من صال في ميدان ذلك العلم وجال، والحال يقتضي أن يؤتى بكتاب حادث عظيم وخطب جسيم، وكتاب تعزية بما حصل على المسلمين والضعفاء والمساكين، وما لا قوة من الظلمة والضالين، ثم تأسونا بما آسانا به القرآن، وبما وصانا رسول الرحمٰن ﷺ وعلى آله ما اختلف الملوان وكر الجديدان، وبما قال السلف الصالحون ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا: إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ، وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ وكيف لا وهذه مصيبة في الإسلام، وحادث جلل على الأنام، وقد سبيت كذا وكذا امرأة وكذا وكذا ولداً، وأهلك النفوس المحترمات، وغصبت الأموال المملوكات، واستبيحت الفروج المحرمات، وصار المسلمون خولاً، أموالهم دولاً ونساؤهم كالأماء تباع وتشترى، فخليق بالمسلمين أن يبكوا دماً لا ماءً، وأن يسكبوا الدمع من

العيون، وأن يعزي بعضهم بعضاً، وأن يظهروا التلهف والجزع والنحيب والفزع، لا سيا من أخل بالدفع وهو عليه فرض. فهذا المقال هو الذي يقتضيه الحال، لا ما أشعرتموه من الأبيات المصرعة والفقر المسجعة والألفاظ المصوغة، فهذه البضاعة لا تنفق إلا عند غير أهل هذه الصناعة من الجهلة الأغمار، ولا عند الناظرين بعين اعتبار من ذوي البصائر والأبصار» أين قوله بعد استطراده في تصوير ما حدث بين الباطنية وجند المنصور من التكالب على السلب، وتخلص إلى الرد على ما كان يطلقه المنصور علىٰ جنده من نعتهم بالمجاهدين وهي أكبر من هذا. رحمه الله. توفي سنة ١١٥٢.

الشيخ الولي عبد الله بن سليمان الجرهزي (٠٠ ـ ١٢٠١ هـ)

أحد علماء وأولياء زبيد في القرن الثاني عشر. ترجمه تلميذه السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل في النفس اليماني بما فحواه: أنه كان طوال ساعات نهاره وبعضاً من ساعات الليل يدرس في مختلف العلوم، وكان كريماً بما في يده، غزير الدمعة خصوصاً عند تلاوة القرآن والصلاة. ومن مكاشفاته التي حكاها: أن أحد طلبته جاءه باكياً يشكو فقدان كتبه، فطمأنه الشيخ وأخبره أنه في صلاة التهجير رأى السارق وهو ينقل الكتب، وأمر بالقبض على السارق وتفتيش مكانه، فوجدوها كما ذكر الشيخ، فأعيدت إلى صاحبها. توفي رحمه الله سنة ١٢٠١، وكان قد تلقى العلم في صباه على كبار علماء زبيد وطائفة من علماء الحرمين، رحمهم الله.

الشيخ الولي أحمد بن حسن الموقري (٠٠ ـ ١٢٠١ هـ)

ترجمه تلميذه السيد عبد الرحمن بن سليمان الأهدل بما فحواه: أن موطنه هو موقر من جهة السلفية. قدم إلى زبيد وتعلق بمفتيها السيد يحيىٰ بن عمر الأهدل، ففتح الله له على يديه أبواب العلم والسلوك إلى الله. وأنه ذات مرة كان السيد عبد الباري الأهدل علامة المراوعة، والسيد حسن البحر علامة

المنصورية، والشيخ الولي عبد الله الزواك علامة الضحي، في ضيافة السيد يحيىٰ بن عمر، فطلب من ضيوفه الثلاثة أن يقرأوا الفاتحة داعين له أن يجعله الله من كبار العلماء والأولياء، فاستجاب الله لدعوتهم. وترقى حال الموقري إلى العلم الواسع والولاية الراسخة، وكان أغلب أحواله في ذكر الله والحث على طاعته. توفي رحمة الله سنة ١٢٠١.

علي بن أبي بكر الأزرق (٠٠ ـ ٨٠٩ هـ)

من كبار علماء اليمن الذين جمعوا عدة علوم، ودارت عليه الفتيا في عصره، وممن فصّل أحواله السخاوي الذي توفي سنة ٩٠٢ هـ في ضوئه قال: «علي بن أبي بكر الأزرق بن خليفة بن نوب موفق الدين ونور الدين، أبو الحسن الهمداني الأصل، الحسني اليماني الشافعي، ويعرف بابن الأزرق. تفقه ببلده أبيات حسين على الفقيه يحيىٰ العامري وإبراهيم بن مطير وغيرهما، وقرأ في الفرائض على خاله أبي بكر الزبيدي، وقرأ الجبر والمقابلة على ابن الجلاد إمام أهل الفن في وقته، وحج وأخذ بمكة عن العفيف اليافعي، ثم علا إلى بلده. ومهر في الفقه والحساب، وأكثر من مطالعة كتب المذهب. وفرغه الله من الشواغل، فما كان يبرح مطالعاً أو مدرساً أو مذاكراً أو محصلاً للفائدة أو مصنفاً. ودرس وأفتىٰ نحو خمسين سنة، وتعين في بلده نحو خمس عشرة سنة، وصار المرحول إليه والمعول في الفتوى عليه في تلك الجهات قريبها وبعيدها من الجبال والتهائم، كزبيد وعدن وصنعاء وغيرها، وتفقه به كثيرون من أهل بلده وغيرهم، وألف كتباً مفيدة كنفائس الأحكام، المشتمل على خمسة أقسام: الأول في تخريج المسائل الفرعية على النحوية، الثاني في الفروعية على الأصولية، والثالث في تناقض تصحيح الشيخين، الرابع في المسائل اللغوية، الخامس في مسائل منثرة نفيسة.

قلت: الثلاثة الأول تصانيف للأسنوي، والرابع فلعله من التهذيب

للنووي. واختصر (المهات) للأسنوي في نحو ثلاثة أرباعه مع مناقشات يسيرة، وشرح (التنبيه) في مطول سماه (التحقيق الوافي بالإيضاح الشافي) نحو ثلاثة أسفار، ومتوسط سماه (التحقيق) في جزأين محقق كاسمه، و(شرح الكافي في الفرائض) شرحاً حسناً سماه بغية الحائض في شرح الفرائض، وكذا له نكت على الكافي أيضاً.

وممن أخذ عنه من شيوخنا البدر حسن بن عبد الرحمن الأهدل، وأبو الفتح المداغي قرأ عليه في سنة ٨٨٢ قطعة من أول (نفائس الأحكام) له، والتقي بن فهد قرأ عليه سنة ٨٨٥ من أول شرحه الكبير للتنبيه، وأجاز لهم. ومات في يوم السبت خامس عشر رمضان سنة تسع بأبيات حسين عن نحو ثمانين سنة. رحمه الله تعالى» ا. هـ.

وعلى هذا يكون توفي سنة ٨٠٩ هـ.

الملك الصالح علي بن طاهر (٨٠٩ هـ - ٨٣٠ هـ)

قال السخاوي في ترجمته: «علي بن طاهر بن معوضة بن تاج الدين، الشيخ أبو الحسن. ملك اليمن في عصرنا، ويعرف بابن طاهر. ولد في سنة تسع وثمان مئة، واستولى على مملكة اليمن مملكة بنى رسول بالسيف، وكان تملكه عدن في سنة ثمان وخمسين، وزبيد في التي تليها، وتعز فيما بينهما. وملك حصن حب - وهو حصن الملك ذور عين من ملوك حمير المعقل الذي ليس في اليمن مثله حصانة ومنعة - بعد محاصرته إياه سبع سنين. ودوخ العرب، وضبط اليمن، وأمنت الطرقات، وأحيا البلاد بعد خرابها وأحبه الكافة. وكان ملكاً عادلاً شجاعاً عاقلاً، وللمعروف باذلاً، وعلى الفقراء ونحوهم غيثاً هاملاً، صدقاته ومبراته ومعروفه فوق الوصف.

ومن مآثره إحياء المجرى الذي بزبيد بعد خرابه، وتجديد جامع بيت الفقيه ابن عجيل مع الوقف عليه، ومسجد المدرسة بعدن بعد تزلزله، بل زاد

فيه، وعمل عليها من البساتين والنخيل داخل زبيد وخارجها ما عم الانتفاع به، وأنشأ مدرسة بتعز وأخرى ببلده، ويقال: إنه وقف جميع ما في ملكه من عقار المسلمين، وجعل النظر في ذلك للمتولي من أولاد أخيه» ا. هـ. وكان يرسل لبيت الحرام كل سنة ألف دينار. توفي سنة ٨٣٠ هـ.

عبد الملك بن دعسين القرشي (٩٥٢ ـ ١٠٠٦ هـ)

عبد الملك بن عبد السلام بن دعسين القرشي المخائي من كبار علماء اليمن، ولبني دعسين بقية حتى اليوم بالمخا والخوهة. ولد سنة ٩٥٢، وكانت له يد طولى في جميع العلوم كالحديث والتفسير والفقه والتصوف والأصلين والفرائض، والحساب النحو والصرف وللعروض في اللغة، والمعاني والبيان والهيئة والفلك والشعر والتاريخ والأنساب. وصنف في كثير من هذه العلوم، فمن مصنفاته (منحة الملك الوهاب بشرح ملحة الإعراب) و(شرح معارضة بانت سعاد)، وغيرهما، وكان عاملاً بالكتاب والسنة، حافظاً لكتاب الله، مواظباً على تلاوته، ناصراً لشرع الله، قائماً بما جرى عليه سلفه الصالح، من الأوراد والأذكار، وإكرام الوافدين وبذل الجاه. وكان حسن الأخلاق، عظيم التواضع، سخي النفس. توفي في المخا سنة ١٠٠٦. وله مخطوطة في مناقب آل أبي الحيامن حيس.

موسى بن محمد الضجاعي

ترجمه السخاوي فقال: «هو موسى بن محمد بن موسى بن علي بن محمد بن علي بن هاشم الكمال الضجاعي الزبيدي، مفتيها ومحدثها وخطيبها. أخذ الفقه عن الشهاب أحمد الناشري، وأكثر عن المجد الفيروز ابادي بحيث قرأ عليه كثيراً من الأمهات، وانتفع به في ذلك. أفاده موسى الذؤالي في ترجمة علي بن هاشم من كتابه صلحاء اليمن، وكان من أكبر القائمين على منتحلي ابن عربي في اليمن، وكان الخطيب في جامع زبيد بالمنشور المكتوب بالإشهاد على الكرماني بهجر كتب ابن عربي. قاله الأهدل».

طه عبد الله السادة (۰۰ ـ ۰۰)

ترجمه زبارة فقال: القاضي العلامة الحافظ المحدث طه بن عبد الله السادة اليمن الجبلي الشافعي نشأ بمدينة جبلة من اليمن الأسفل، وأخذ عن الشيخ العلامة علي بن علي المرجوهي المصري ثم اليمني نزيل مدينة المخا، في صحيح البخاري واستجازه منه، وعن القاضي الحافظ محمد بن علي التعزي الشافعي، والفقيه محمد بن زياد الزبيدي والسيد المحدث يحيىٰ بن عمر مقبول الأهدل الزبيدي، والشيخ أحمد السانة وغيرهم، وكان عالماً متفنناً. وأخذ عنه بعد وفادته من ذي جبلة إلى صنعاء في شوال سنة (١١٣٣) ثلاث وثلاثين ومئة وألف، السيد الحافظ هاشم بن يحيىٰ الشامي الصنعاني. وقد ترجمه القاضي الحافظ أحمد بن قاطن في (التحفة) فقال:

القاضي العلامة المتقن، روى عنه سيدي العلامة هاشم بن يحيىٰ الشامي القليل بالسماع والأكثر بالإجازة. وكان حاكماً بذي جبلة يفصل بين الناس الخصومات، ويفيد الطلبة. وأخذ عنه عدة من الطلبة أجلّهم القاضي محمد أشحم، وله جوابات في السؤالات متقنة، رأيت منها جواباً حل به بعض ما أشكل على بعض الطلبة، وحاصل السؤال أنه يقال المقدر كذا لمذهب الشافعي، ثم إن لم يوجد لديه نص، فإن كان المذهب مستنداً إلى قول المجتهد فالتقليد له إلا الشافعي، وإن كان مستنداً إلى قول مقلد فتقليد المقلد غير سائغ. وعرفت وفادة صاحب الترجمة الأخرى إلى صنعاء أول دولة المنصور الحسين بن القاسم بعد الأربعين والمئة والألف. . . الخ.

وذكر زبارة أن نسب آل السادة ينتهي إلى الحسين بن علي.

عبد الله بن محمد بن حسن بن عبسين قاضي الشحر (٠٠ ـ ٩٠٧ هـ)

من مفاخر اليمن في القرن العاشر علماً وزهادة ومجاهدة خلاصة ما ترجمه به صاحب النور السافر أنّه تولى قضاء الشحر وكان ينفق راتبه من القضاء على طلبة العلم ومدرسيهم صادعاً بالحق. حدث أن السلطان عبد الله بن جعفر الكثيري اشترى حصاناً من أحدهم ومطله في الثمن فشكاه إلى صاحب الترجمة فطلب السلطان إلى مجلس القضاء فلم يتركه حتى دفع قيمه الحصان لصاحبه متقشفاً في مأكله ولا يأكل إلا من عمل يده. وكان نساخاً للمصاحف. ربما اكتفى في العام بثوب واحد يئتزر ببعض ويتخذ البعض رداءً سائراً كذلك في الأسواق غير آبه بأحد يسعى في قضاء حاجات الناس المرة بعد المرة ولا ينصرف حتى يقضيها محققاً في فروع الشافعية اختلف مع محمد عمر بحرق حول مسألة فجاءه بالروضة للنووي ودله على قوله في المسألة فرجع بحرق عن قوله ووقف على المنبر خطيباً يعلن للناس أن الحق مع القاضي عبسين. وتلك أخلاق العلماء الربانيين رحمهم الله توفي بالشحر سنة ٩٠٧ هـ.

عبد الرحمن بن عبد الكريم بن زياد الغيثي المقصري العكي (٠٠ ـ ٩٧٥ هـ)

ترجمه صاحب النور السافر بتوسع ونوردها عنه هنا بتصرّف واختصار. ولد بزبيد سنة ٩٠٠ هـ وتتلمذ لأكابر علمائها وقد لازم اثنين منهم أبا العباس الطنبداوي وعبد الرحمن الديبع وكان بالأوّل أكثر تعلقاً. تفنّن في عدة علوم وقصد للفتيا من زبيد وعدن ومكة وغيرها. وكان على سعة علمه وانقطاعه للتدريس مبتلىً بالفقر قالوا إنّه لم يجد ليلة ولادة زوجته سراجاً يضيء لها. كان يجهد نفسه في التحضير لدروسه ويدفع بطلبته لمشاركته في النقاش ويتوقف عن التدريس شهور رجب وشعبان ورمضان حيث يقطعها في قراءة البخاري فجراً

بالجامع الكبير ويكون ختمه يوم التاسع والعشرين من رمضان جرت بينه وبين أكابر علماء عصره مناقشات علمية وضعها في رسائل كما حدث بينه وبين اسماعيل العلوي وابن حجر الهيثمي. توفي رحمه الله بزبيد سنة ٩٧٥ هـ.

عبد الله بن عبد الرحمن بافضل الحضرمي (٠٠ ـ ٩١٨ هـ)

العالم الزاهد المصلح تلقى دروسه على علماء عدن وحضرموت ومكة وغيرها تولى التدريس والفتيا بالشعر وكان عمدة الجهة في عصره مشتغلاً بالعلم والعبادة والسعي في إصلاح ذات البين وهو الذي كثيراً ما أصلح بين سلاطين حضرموت وقبائلها آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر صائماً بالنهار قائماً بالأسحار له مؤلفات من أهمّها: مختصران في الفقه اغتنى بشرحها أحمد بن حجر الهيثمي ومحمد الرملي الشافعي وكان قدومه الى الشعر والاستقرار بها للتدريس والفتيا حتى الوفاة بطلب من قاضي الشعر عبد الله بن محمد بن عبسين توفي فضل سنة ١١٨ هـ.

نقلاً عن النور السافر بتصرّف

صاحب العباب أحمد عمر المزّجّد (٠٠ ـ ٩٣٠ هـ)

رفع نسبه صاحب النور السافر إلى مذحج ومراد وسيف بن ذي يزن ويعرف الواقف على ترجمته هناك أن عطاء اليمن العلمي استمر على زخمه الموسوعي حتى فيما يسميه بعض المؤرخين المسلمين بعصور الجمود. وعن الإمام المزجد أخذ أكابر علماء القرن العاشر بتهامة وعدن وحضرموت كالدبيع وابن زياد الغيثي وبحرق الحضرمي والطبنداوي الزبيدي وهو الامتداد الحقيقي لمدرسة إسماعيل بن أبي بكر المقرىء إذ كان المزجد تلميذاً لعمر الفتى وارث علوم المقرىء. ولد أحمد بن عمر المزجد بالزيدية سنة ٨٤٧ هـ وفيها أخذ عن مريفد ثم أخذ ببيت الفقيه ابن عجيل على ابراهيم بن أبي القاسم جعمان وأخذ بزبيد

عن علمائها وبتعز فاجتمع له الاحاطة بالأصول والفروع وعلوم الأدب إلى زهد بالغ ومجاهدة للنفس عظيمة وتولى قضاء عدن وزبيد وكان من أبرز معارفه بعدن وليها الشهيد أبو بكر العيدروس السقاف العلوي. أشهر مؤلفاته العباب المحيط بنصوص الشافعي والأصحاب جمع فيه مسائل الروض والإرشاد وأضاف إليهما. عني بشرحه أكابر العلماء بمكة ومصر كأبي الحسن البكري وابن حجر الهيثمي ونظم الإرشاد في خمسة آلاف بيت ونيّف. وله تجريد الزوائد وتقريب الفرائد. قال عنه عارفوه لو جاز أن يبعث الله نبياً في عصرنا لكان أحمد المزجد هو ذلك النبي كان يقسم يومه بين العبادة والقضاء والتدريس والتأليف جيد الشاعرية توفي رحمه الله سنة ٩٣٠ هـ.

تابع الباب الرابع
الإشراق اليمني الثاني

٢ ـ عناقيد

فمن القسم الأول من الإشراق الثاني كان لنا تطواف سريع حول أفذاذ هذا الإشراق، وسبق لنا أيضاً في مصطلحنا من كلمة أفذاذ، وهنا ستكون طيافتنا حول العناقيد، ونعني أهم أولئك الذين نبغت بيوتاتهم وتتابعت أجيالهم علماً وعملاً وإصلاحاً، وهم ـ والحمد لله ـ في اليمن كثير وبما أننا لم نقصد بهذا الكتاب الحصر والاستيعاب، وإنما نقصد تقديم الأنموذج والقدوة للناشئة، وتعريف غير اليمنيين باليمن. وسنكتفي بمن تيسر لنا جمعهم والتنويه بهم، معتذرين إلى من فاتنا ذكره أو الإشارة إليه. وكما راعينا الترتيب الزمني للوفاة من الأفذاذ فسنراعي هنا نفس الترتيب قدر المستطاع.

آل زكريا

هـذه الأسرة الكريمـة المنجبة من إحـدى دوحـات العلم بـالشـويـرا من سهـام التي سمقت فروعها، وامتـدت أفنانها حقبـاً، ثم صوّح الـزهد وذبلت الأوراق، وغاب الجذع عن الأنظار، ولكن آثارهم باقية بقاء العلم في هذه الحياة.

وأول من يحدثنا عن آل زكريا هو ابن سمرة في طبقـاته. قـال ص ٢٤٠: «الفقيه الفاضل محمد بن زكريا المـدرس في الشويـرا من نعيمه، وابنـه إبراهيم. قال الفقيه الأحنف: إبراهيم أفقه من أبيه. مات هذا الفقيه محمد بن زكريا أحد أيام التشريق من سنة ٥٨١، وخلفه ابنه إبراهيم في مجلسه، وحكى أن إبراهيم كان يختم في شهر رمضان كل يوم وليلة. تفقه بابن زكريا وبالطويري».

وقـال الخزرجي في العقـود اللؤلئية ص ٧٣: «في سنـة ٦٤٠ تـوفي الفقيـه الفاضل عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن زكريا في بداية الأمر، ثم تلميذه وابن عمه محمد بن يـوسف بن عبد الله بن يـوسف بن زكريـا، فلما تـوفي محمد بن يـوسف خلفه في التـدريس هو وأخـوه، عبـد الله بن محمـد بن إبـراهيم. وكانت وفـاة الفقيه عبـد الرحمن في السنـة المذكـورة، وتوفي ابن عمـه محمد بن يوسف سنة خمس وعشرين وست مئة، والله أعلم.

وأما جده إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن زكريا، فكان فقيهاً عالمـاً محققاً مدققاً ورعاً زاهداً، تفقه بأبيـه عبد الله بن محمـد ثم بالـطويري، وتفقـه بجمع كثير من التهائم والجبال، وهو أكثر الفقهاء المتأخرين أصحاباً حتى نقل الثقة عن الفقيه إسماعيل الحضرمي أنه قال لبني زكريا على غالب فقهاء اليمن منـه، أو كما قال: فإن غالب طرقهم في الكتب المسموعة عليهم. وانتشر عنه الفقه في اليمن انتشاراً متسعاً، فمن أعيان تلامذة الفقيه إبراهيم بن عبد الله المـذكور مـوسى بن عجيـل وعبـد الله بن جعـمان، وعـلي بن قـاسم الحكمي وعـلي بن أبي قـاسم، ومحمد بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن زكريا، وغيرهم.

وكان ورده كل يوم سبعاً من القرآن، واقتدى به في ذلك جمع كثير من أصحابه، وكانت وفاته في سنة سبع وست مئة، والله أعلم[1]. وقال في سنة ٦٤٢ توفي الفقيه الصالح عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن زكريا، وكان فقيهاً ماهراً في التدريس، وهو المشار إليه في العلم والفضل والزهد. ولما توفي في التاريخ المذكور خلفه ابن عمه محمد بن عمر بن يحيى بن زكريا، وكان فقيهاً فاضلاً، وخطيباً كاملاً، ولي خطابة زبيد سنين، وتوفي فيها في السنة المذكورة، والله أعلم». ويقول:

«في سنة ٦٨٨ توفي الفقيه النبيه أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن زكريا، وكان فقيهاً فاضلاً. مولده سنة تسع عشرة وست مئة، وتفقه بابن عمه محمد بن عمر بن يحيى بن زكريا، وأخذ عن صالح بن علي بن الحضرمي، وولي قضاء الكدراء من قبل بني عمران، وقدم فأخذ عنه أبو بكر بن محمد بن عمر كتاب (الوجيز) كانت و فاته في السنة المذكورة، خلفه في القضاء ولده أبو بكر عبد الله بن عبد الرحمن، وكان أحد أجود زمانه، شريف النفس، عالي الهمة. وامتحن في آخر عمره بفقر مدقع، وعزله من القضاء بنو محمد بن عمر بغير وجه يوجب العزل، والله أعلم».

آل الوزير

أسرة مباركة كريمة الأعراق فهي تتصل بالنسب العلوي الفاطمي من فرعه الحسيني. وأول من عرف باسم الوزير هو الإمام محمد العفيف بن المفضل، وكان قد نصب نفسه إماماً ودعا الناس لبيعته سنة ٥٩٩. ولما ظهر أمر البلاد في طاعته، انضم إليه محمد العفيف، وأصبح وزيراً له، ومن يومها عرف بلقب

(١) ذكر الشرجي أن إبراهيم هذا روى عن النبي البشرى المنامية لمن بين المحالب إلى حيس.

الـوزير، وأصبح اللقب إسماً جـامعاً لهـذه الأسرة التي أنجبت كثـيراً من أئمـة العلم والحكم.

وأول من يجدر ذكره منهم هو الهادي بن إبراهيم الذي رضع لبان السنـة، فشب عـلى حبها، وأذهب الله عنـه حميـة العصبيـة والمـذهبيـة، فكـان متمسكـاً بالكتاب والسنة، متتبعاً للدليل، مطرحاً للتقليد. ترجمة الـبريهي في أول طبقاته فقال:

«لـه النظم المعجـز، والنشر الموجـز، وله مصنفـات في سائـر فنون الأدب كأنها عنقود من جمان أو شذور من ذهب.

قلت: والدليل على دخولـه مذهب السنـة ما شـاهدتـه مكتوبـاً بخطه إلى الإمام أبي الربيع سليمان بن إبراهيم العلوي. نفع الله به، آمين.

قـال في أثناء مـا كتبه إليـه: «ثم إني كنت في إبان الحـداثة مـولعاً في علم الكـلام، وفي هذه المرة رغبت عنه إلى علم الحـديث، ورجعت عـما كنت عليـه القهقـرى، وفضلت في الحديث من قـرى، وقلت: الصيد كل الصيد في جـوف الفـرا، وكم بين علم لا تنطق صاحبه عن الهوى معصـوم في جميع أحـواله عن الخـطأ، وقد تلفـع في حضرة القدس بثيـاب النحوي، وكـان من القـرب قـاب قوسين أو أدنى، وأراه الله ثواب نفسه، وبعث النفس في جنة المأوى، وجـاز به، ولم يقف عنـد سـدرة المنتهى ﴿مَـا زَاغَ البَصَرُ وَمَـا طَغَى، لَقَـدْ رَأَى مِنْ آيَـاتِ رَبِّـهِ الكُـبْرَى﴾، وبين ثـارات بـين أهله عجـابـه المراء، فـأغشى أبصـارهم كثـيرمنهم عن طريق الهدى، وأصحـابه أهـل الصراط السوي ومن اهتـدى، أولئك أهـل علم المصطفى المعقود على رؤوسهم تيجان الرضى من الملك الأعلى». وأنشد:

«عليـك بحـبهـم فـاجعـله فـرضـاً ... وقـدِّم حـبـهـم في الـله قـرضـاً

وأمـسـك بـالقـوادم مـن هـداهـم ... وخض في عـلمـهـم تـرضي وتـرضى

أحـب سـماء أرضـهـم، وأرضـاً ... تكـون لهـم سـواد الـعـين أرضـاً

أطـبـاء الـقـلـوب هـم إذا مـا ... غـدت من كـثرة التـدقيق مـرضى»

ثم قال: «وهذه هي الطريقة الجادة، وهي اتباع الكتاب والسنة. وحسبنا ما ورد في آداب القرآن الكريم: ﴿قُلْ آمنَّا بالله وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ الآيات».

وانتهى:

أخبرت أنه حج سنة ٨٠٩، وكان هذا الشريف وزير الإمام الشريف صلاح بن علي ثم لولده علي، فسمي ذا الوزارتين. وله شعر حسن ذكرته في الأصل، فليطالع من هنالك في مكاتبته إلى الفقيه العلامة شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المقرىء في مدينة زبيد، وغير ذلك، منه ما قاله وقد حضر عنده زبيب أبيض استحسنه فقال:

يا أهل صنعاء قد رزقتم جنة
أنهارها تجري بأمر الخالق
ورزقتم فيها زبيباً أبيضاً
من رازق فتنعموا بالرازقي

توفي هذا الشريف بمدينة ذمار بحمام السعيدي سنة اثنتين وعشرين وثمان مئة من دخان الحمام، رحمه الله ونفع به. آمين».

وترجمه الشوكاني في البدر فقال: «ولد يوم الجمعة السابع والعشرين من محرم سنة ٧٥٨ بهجرة الظهر من شظب، ثم ارتحل في طلب العلم إلى صعدة، فأخذ عن إسماعيل بن إبراهيم بن عطية النجداني، ومحمد بن علي بن ناجي والعلامة عبد الله بن الحسن الروادي وعمه السيد أحمد بن علي، وارتحل لسماع الحديث. والملح إلى مكة، فسمع (جامع الأصول) على القاضي العلامة محمد بن عبد الله بن ظهيرة المتقدم، وبرع في عدة علوم، وصنف تصانيف، منها: (كفاية القانع في معرفة الصانع)، و(الطرازين المعلمين في فضائل الحرمين المحرمين)، ورسالة في الرد على ابن عربي، و(هداية الراغبين إلى مذهب أهل البيت طاهرين)، و(كاشفة الغمة عن حسن سيرة إمام الأئمة)، و(كريمة العناصر في

الذب عن سيرة الإمام الناصر)، و(السيوف المرهفات على من ألحد في الصفات)، و(نهاية التنويه في إزهاق التمويه).

وبالجملة فهو من أكابر علماء الزيدية، وله نظم في غاية الحسن. وبينه وبين علماء عصره مراسلات ومكاتبات ومشاعرات، واشتهر ذكره وطار صيته، ومن جملة من كاتبه إسماعيل المقري» ا. هـ.

ومن ولد الهادي هذا كان إبراهيم بن محمد مؤلف (هداية العقول) و(الفصول الأولوية في علم الأصول)، وله مؤلفات غيرهما. توفي سنة ٩١٤ هـ.

ومن بعده أحد أحفاده صلاح بن أحمد الوزير، أحد أنصار الإمام القاسم بن محمد. كان جامعاً للعلوم الشرعية واللغة، وله شعر سائد. توفي سنة ١٠٢٤.

هذا هو مجمل خبر الهادي بن إبراهيم ونسله، ولهم حتى اليوم شأن ومكانة هامة في المجتمع اليمني، وأقربهم إلى الذاكرة هو عبد الله بن أحمد الوزير، الذي تولى الإمامة سنة ١٣٦٧ هـ، وابن عمه علي بن عبد الله الوزير الذي كان رئيساً للوزارة، وكلاهما أطاح به سيف الإمام أحمد حميد الدين سنة ١٣٦٧ هـ. ولعلي بن عبد الله أولاد أربعة حازوا كثيراً من المعارف، واشتهروا بالبلاغة والفضل.

وننتقل بالحديث من الهادي بن إبراهيم وولده. إلى عميد آل الوزير وإمام أئمة اليمن محمد إبراهيم الوزير.

المجتهد المطلق محمد بن إبراهيم الوزير

ولد هذا الإمام الموسوعي الجامع بين رسوخ العلم ومتانة الدين وإشراقات اليقين، سنة ٧٧٥ وتوفي سنة ٨٤٠، فكان مجموع عمره خمسة وستين عاماً. وطاف في طلب العلم أكثر مدائن اليمن. وبلاد الحرمين، وتتلمذ على كبار مشايخ عصره، وفي مقدمتهم شيخه الشهيد محمد بن ظهير. ولما عاد إلى صنعاء

واستقر قراره بها كانت المنغصات التي كابدها طوال إقامته تتمثل في شيئين اثنين، هما: التشيع الغالي والاعتزال، وهما نفس المنغصين اللذين واجههما من بعده الجلال والمقبلي والأمير والشوكاني.

ومما يؤسف له أن الكثيرين حتى اليوم يعتقدون أن زيد بن علي كان داعية للتشيع والاعتزال، ولكن الحقيقة أن ذلك الإمام الكامل الشهير كان مجاهراً بشأنه وحبه للعمرين الصديق والفاروق، رضي الله عنهما. ولأجلهما كان ما كان من أمره مع الرافضة. أما الاعتزال فما أبرأه منه، وما أبعده عنه، كما حققه المحققون، وإنما قدم الاعتزال إلى اليمن مع جعفر بن أحمد بن عبد السلام في القرن السادس، وكان أول من نصره وأعلن به الإمام عبد الله بن حمزة ومن بعده من الأئمة، وليس كلهم بل أغلبهم. وكان من أشد الناس إيذاءً لمحمد بن إبراهيم الوزير، هو شيخه علي بن محمد بن أبي القاسم، وله فيه أقوال أوردها الشوكاني، سنذكرها ضمن ما ترجمه الشوكاني لمحمد بن إبراهيم الوزير. وقد أضطر أخيراً إلى مغادرة صنعاء منادياً في بطون الصحراء وشعاب الجبال، وفي ذلك يقول:

فحيناً بطود تمطر السحب دونه	أشم منيف بالغمام مؤزر
وحيناً شعب بطن واد كأنه	حشا قلم تمسي به الطير تصفر
إذا التفت الساري به نحو قلة	توهمها من طولها تتأخر
أجاور في أرجائه البوم والقطا	فجيرتها للمرء أولى وأجدر
هنالك تصفو لي من يعيش	ورده وإلا فورد العيش رنق مكدر
وإن يبست ثم المراعي وأجدبت	فروض العلا والعلم والدين أخضر
وقد هاجر المختار قبلي وصحبه	وفر إلى أرض النجاشي جعفر

والحديث عن أحوال محمد بن إبراهيم ومجاهداته يطول، فنكتفي بما ذكره البريهي في طبقاته والشوكاني في بدره.

قال البريهي: أخبرت أن مولده في رجب سنة ست وسبعين وسبع مئة وأنه توفي شهيداً من ألم الطاعون سنة أربعين وثمان مئة، وأن هذا الشريف سمع الحديث من جماعة أجلهم شيخ الحرم جمال الدين محمد بن عبد الله بن ظهيرة القرشي الشافعي المكي، وشيخ علماء اليمن تقي الدين سليمان بن إبراهيم العلوي، وشيخ الحديث بصنعاء حسين بن محمد العلفي، وغيرهم ممن عني بمعرفة أحاديث الأحكام، وتمييز الرجال، وما يجب معرفته على المجتهد.

وكان داعية إلى السنة وأكثر تأليفه في ذلك، ككتاب العواصم في أربعة مجلدات، يشتمل على تحقيق مذهب السلف وأهل السنة، والرد على المبتدعة في الذب عن أئمة الفقهاء الأربعة، جود فيه القول في مسألة الأفعال، وما يتعلق بها من مسألة المشيئة والأقدار، وصنف مختصراً في السنة الخالصة عن عبارات المتأخرين عن جميع المذاهب، وهو جزء لطيف. وصنف كتاب (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان في معرفة الله سبحانه وتعالى)، وكتاب (البرهان القاطع في معرفة الصانع)، وله غير ذلك من المصنفات المفيدة. وله شعر رائق، من ذلك ما سنذكره من قصيدة طويلة فيها:

إذا افتتحت أبواب رحمة ربنا ... صغرت لديها موبقات الجرائم
وإن هي لم تفتح ولم تسمع الخطا ... فعد من الهلاك أهل العزائم
وما الربح والخسران إلا لحكمة ... بها جفت الأقلام قبل الخواتم

وله في جمع العشرة رضي الله عنهم في بيت واحد قوله:

للمصطفى خير صحب نصَّ أنهم ... في جنة الخلد نصاً زادهم شرفا
هو طلحة وابن عوف والزبير كذا ... أبو عبيدة والسعدان والخلفا

قلت: شعر الشريف المذكور كثيرة، منه ما قد ذكرته في الأصل، ومنه غير ذلك مما لا ينحصر» ا. هـ.

وترجمة الشوكاني ترجمة ضافية نقطتف منها قوله:

«هو الإمام الكبير المجتهد المطلق المعروف بابن الوزير ولد في شهر رجب سنة (٧٧٥) خمس وسبعين وسبع مئة بهجرة الظهراوين من شطب، وقال السخاوي: إنه ولد تقريباً سنة (٧٦٥) وهذا التقريب بعيد، والصواب الأول.

قرأ في العربية على أخيه العلامة الهادي بن إبراهيم، وعلى القاضي العلامة محمد بن حمزة بن مظفر. وقرأ علم الكلام على القاضي العلامة علي بن عبد الله بن أبي الخير، كشرح الأصول، والخلاصة، والغياصة، وتذكرة ابن مثوية. وقرأ علماء أصول الفقه على السيد العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم، وقرأ عليه أيضاً علم التفسير، وقرأ الفروع على القاضي العلامة عبد الله بن الحسن الدواري وغيره من مشايخ صدة.

ومن مشايخه السيد العلامة الناصر بن أحمد بن أمير المؤمنين المطهر. وقرأ الحديث بمكة على محمد بن عبد الله بن ظهيرة، وفي غيرها على نفيس الدين العلوي وعلى جماعة عدة.

والحاصل أنه قرأ على أكابر مشايخ صنعاء وصعدة، ولسائر المدائن اليمنية، ومكة، وتبحر في جميع العلوم، وفاق الأقران، واشتهر صيته، وبعد ذكره، وطار علمه في الأقطار.

قال صاحب (مطلع البدور): «وقد ترجم له الطوائف، وأقر له المؤالف والمخالف، وترجم له ابن حجر العسقلاني في (الدرر الكامنة) وترجم له مصنف سيرة العراقي علامة وقته بمكة» انتهى.

وما ذكره من أن ابن حجر ترجم له في (الدرر) فلا أصل له، فإنه لم يترجم له فيها أصلاً بل هي مختصة بمن مات في القرن الثامن، ولم يترجم لمن تأخر موته إلى القرن التاسع حتى أكابر مشايخه، كالعراقي والبلقيني وابن الملقن، مع أنهم ماتوا في أول القرن التاسع كما تقدم ذلك؛ وأما صاحب الترجمة فهو

تأخر موته إلى سنة (٨٤٠) أربعين وثمان مئة فكيف يترجم له؟ بل ترجم له الحافظ ابن حجر العسقلاني في أنبائه، وترجم له السخاوي كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، وترجم له التقي ابن فهد في معجمه فقال السخاوي: إنه تعاطىٰ النظم فبرع فيه، وصنف في الرد على الزيدية (العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم)، واختصره في (الروض الباسم)، وروي عن التقي بن فهد أنه أنشد لصاحب الترجمة في معجمه قوله:

العلم ميراث النبي كذا أتى ... في النص، والعلماء هم وارثه
فإذا أردت حقيقة تدري لمن ... وراثه، وعرفت ما ميراثه
ما ورث المختار غير حديثه ... فينا، فذاك متاعه وأثاثه
فلنا الحديث وراثة نبوته ... ولكل محدث بدعة أحداثه

وإنما اقتصر على رواية هذا الشعر مع أن في شعر صاحب الترجمة ما هو أرفع منه؛ بدرجات، لأن لقاءه له كان في سنة (٨١٦)، وقد نظم بعد ذلك نظماً كثيراً جداً وارتفعت طبقته في العلم. وهكذا ابن حجر، فإنه ذكره في أنبائه في ترجمة أخيه الهادي، لأن صاحب الترجمة إذ ذاك كان صغيراً، فقال: «وله أخ يقال له محمد مقبل على الاشتغال بالحديث، شديد الميل إلى السنة بخلاف أهل بيته». انتهى.

ولو لقيه الحافظ ابن حجر بعد أن تبحر في العلوم، لأطال عنان قلمه في الثناء عليه، فإنه يثني على من هو دونه بمراحل، ولعلّها لم تبلغ أخباره إليه، وإلا فابن حجر قد عاش بعد صاحب الترجمة زيادة على اثنتي عشرة سنة، كما تقدم في ترجمته. وكذلك السخاوي، ولو وقف على (العواصم والقواصم) لرأى فيها ما تملأ عينيه وقلبه ولطال عنان قلمه في ترجمته، ولكن لعله بلغه الاسم دون المسمى.

وقال بعد استطراد حول الاجتهاد: «إن صاحب الترجمة لما ارتحل إلى مكة

وقرأ علم الحديث على شيخه ابن ظهير، قال للسيد: أحسن يا مولانا، أنت إلى إمام الشافعي أو أبي حنيفة؟ فغضب وقال: لو احتجت إلى هذا النسب والتقليدات ما اخترت غير الإمام القاسم بن إبراهيم أو حفيده الهادي.

وبالجملة فصاحب الترجمة مم يقصر القلم عن التعريف بما له، وكيف يمكن شرح حال من يزاحم أئمة المذاهب الأربعة؟ فمن بعدهم من الأئمة المجتهدين في اجتهاداتهم، ويتكلم في الحديث بكلام أئمته المعتدين، مع إحاطته بحفظ غالبها المتون، ومعرفة رجال الأسانيد شخصياً وحالاً وزماناً ومكاناً وتبحر في جميع العلوم العقلية والنقلية على حد يقصر عنه الوصف، ومن رام أن يعرف ما له ومقدار علمه فعليه بمطالعة مصنفاته، فإنها شاهد عدل على علو طبقته، فإنه يسرد في المسألة الواحدة من الوجوه ما يبهر لب مطالعه، ويعرفه بقصر باعه بالنسب إلى علم هذا الإمام، كما يفعله في (العواصم والقواصم)، فإنه يورد كلام شيخه السيد العلامة علي بن محمد بن أبي القاسم في رسالته التي اعترض بها عليه، ثم ينسفه نسفاً بإيراد ما يزيّفه به من الحجج الكثيرة، التي لا يجد العالم الكبير في قوته استخراج البعض منها. وهو في أربعة مجلدات، يشتمل على فوائد في أنواع العلوم لا توجد في شيء من الكتب، ولو خرج هذا الكتاب إلى غير الديار اليمنية، لكان من مفاخر اليمن وأهله، ولكن أين ذلك لهم مما جبلوا عليه، من غمط محاسن بعضهم لبعض، ودفن مناقب أفاضلهم.

ومن مصنفاته (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان)، وهو كتاب في غاية الإفادة والإجادة على أسلوب مخترع لا يقدر على مثله الأمثلة، ومنها كتاب (الروض الباسم) في مجلد اختصره من العواصم، وكتاب (إيثار الحق على الخلق) وهو غريب الأسلوب، مفيد في بابه، وله كتاب جمعه في التفسير النبوي. منها مؤلف في (مدح العزلة)، ومؤلف في الرد على المعري سماه (نصر الأعيان على شر العميان)، وله كتاب (التنقيح) في علوم الحديث، وله مؤلفات غير هذه، ومسائل أفردها بالتصنيف. وهو إذا تكلم في مسألة لا يحتاج الناظر

بعده إلى النظر في غيره من أي علم كانت. وقد وقفت من مسائله التي أفردها بالتصنيف على عدد كثير تكوّن في مجلد، وما لم أقف عليه أكثر مما وقفت عليه، وكلامه لا يشبه كلام أهل عصره ولا كلام من بعده، بل هو من نمط كلام ابن حزم وابن تيمية، وقد يأتي في كثير من المباحث بفوائد لم يأت بها غيره كائناً من كان. وديوان شعره مجلد، وشعره غالبه في التوسلات والرقائق، وتقييد الشوارد العلمية، والمجاوبة لمن امتحنه به من أهل عصره، فإنه له معهم قلاقل وزلازل، وكانوا يثورون عليه ثورة بعد ثورة، وينظمون في الاعتراض عليه القصائد، وأفضى ذلك إلى أن اعترض عليه شيخه المتقدم ذكره برسالة مستقلة فأجابها بما تقدم. وكان يجاوبهم ويصاولهم ويجاولهم، فيقهرهم بالحجة. ولم يكن في زمنه من يقوم له لكونه في طبقة ليس فيها أحد من شيوخه، فضلاً عن معارضيه. والذي يغلب على الظن أن شيوخه لو أجمعوا جميعاً في ذات واحدة، ولم يبلغ علمهم إلى مقدار علمه، وناهيك بهذا. ثم بعد هذا الجمع وأقبل على العبادة، وتمشيخ وتوحش في الفلوات، وانقطع عن الناس، ولم يبق له شغله بغير ذلك. وتأسف على ما مضى من عمره في تلك المعارك التي جرت بينه وبين معاصريه، مع أنه في جميعها مشغول بالتصنيف والتدريس، والذب عن السنة، والرفع عن أعراض أكابر العلماء وأفاضل الأمة، والمناضلة لأهل البدع، ونشر علم الحديث وسائر العلوم الشرعية في أرض لم يألف أهلها ذلك، لا سيما في تلك الأيام، فله أجر العلماء العاملين، وأجر المجاهدين المجتهدين ولكنه ذاق حلاوة العبادة، وطعم لذة الانقطاع إلى جناب الحق، فصغر في عينيه ما سوى ذلك.

وقد ترجمه بعض بني الوزير في كراريس، واستوفى أحواله، ولو ترجمه في مجلد لم يكن وافياً بحقه، وترجمه أيضاً جماعة من علماء الزيدية، ومن غيرهم غير من قدمنا ذكره، كالوجيه العطاب اليمني، والشريف الفارسي المالكي في كتابه (العقد الثمين) الذي جعله تاريخاً لمكة، والبريهي. ومدحه غير واحد من أعيان العلماء.

والحاصل أنه رجل عرفه الأكابر وجهله الأصاغر، وليس ذلك مختصاً بعصره، بل هو كائن فيها بعده من العصور إلى عصرنا هذا، ولو قلت إن اليمن لم ينجب مثله لم أبعد عن الصواب، وفي هذا الوصف ما لا يحتاج معه إلى غيره، وما أحسنه قوله في معاتبة شيخه المتقدم ذكره:

عرفت قدري ثم أنكرته ... فما عدا بالله مما بدا

وكل يوم لك بي موقف ... أسرفت في القول بسوء البدا

أمس الثناء واليوم سوء الأذى ... يا ليت شعري، كيف نضحي غدا؟

يا شيبة العترة في وقته ... ومنصب التعليم والاهتداء

قد خلع العلم رداء الهدى ... عليك، والشيب رداء الردى

فصن ردائيك وطهرهما ... عن دنس الإسراف والاعتدا

وكانت وفاته تغمده الله بغفرانه في سابع وعشرين شهر محرم سنة (٨٤٠) أربعين وثمان مئة» اهـ. . .

ولم يحدد الشوكاني مكان وفاته، وذكر السيد محمد صديق خان بهادر في كتابه (التاج المكلل) نقلاً عن السخاوي في (الضوء اللامع): أن محمد بن إبراهيم الوزير توفي بالحرم، ولكن السيد محمد زبارة ذكر في كتابه (نزهة النظر) ضمن ترجمته للسيد أحمد بن محمد الكبسي: أن محمد بن إبراهيم الوزير دفن بمسجد فروة بن مسيك المعروف بصنعاء، ولعل ذلك هو الأقرب إلى الصحة والله أعلم ومثل محمد بن إبراهيم الوزير في غزارة علمه وتأليفه وطول مجاهداته

وكثرة اجتهاداته، كان من حقه أن نعود بكتاب خاص، لولا صعوبة الحصول على مؤلفاته، وندرة المراجع عن حياته، فبعد بحث ومحاولات عديدة لم أحصل من مؤلفاته إلا على (الإيثار) فعسى الله أن يأتي بفتح من عنده، والله المستعان.

آل العلوي

ذكر العلامة أحمد محمد الشرجي في كتابه (طبقات الخواص) أن الأهدل والعلوي والقديمي قدموا من العراق إلى اليمن، وتفرقوا فيها، فاستقر الأهدل بالمراوعة، ومنها انتشرت ذريته المباركة، واستقر القديمي بجهة سردد وما جاورها، أما العلوي فقد تفرقت ذريته في أكثر من مدينة وقرية، من حضرموت إلى زبيد.

وقد ورد في (العقود اللؤلؤية) للخزرجي و(الطبقات للبريهي) و(النفس) للأهدل وكتب زبارة الثلاثة: النشر، والنيل، والنزهة، وفي غيرها، تراجم الكثير من علماء هذا البيت العظيم، نقتصر على الأربعة الكبار منهم:

«أولهم السيد إبراهيم بن عمر العلوي، من علماء القرن الثامن. ترجمة الخزرجي في عقوده فقال: «في سنة ٧٥٢ توفي الفقيه الإمام الحافظ أبو إسحاق إبراهيم بن عمر بن علي بن محمد العلوي، وكان فقيهاً نبيهاً، حنفي المذهب، عارفاً محققاً، وإليه انتهت رئاسة علم الحديث باليمن، وكان أخذه من كبار العلماء، كأبي العباس أحمد بن أبي الخير الشماخي وإبراهيم بن محمد الطبري والحجار، وغيرهم. وعنه أخذ فقهاء العصر، وإليه كانت الرحلة من الآفاق. وحضر مجلسه جلة العلماء، وكان جامعاً بين فضيلة العلم والعمل، وكان متواضعاً سهل الأخلاق، كثير البشاشة، مسموع القول، له قبول عظيم عند الخاص والعام.

درس في مدرسة أم السلطان بزبيد، وهي المعروفة بالصلاحية، وكان

ميلاده سنة ثلاث وتسعين وست مئة، وتوفي وقت صلاة العشاء من ليلة السبت العشرين من ذي الحجة من السنة المذكورة» ا. هـ[1].

وقال البريهي في ترجمة ولده سليمان بن إبراهيم: «مولده بمدينة زبيد، شهر رجب، سنة خمس وأربعين وسبع مئة. وروي أنه لما ولد اختلف الحاضرون في تسميته من الرجال والنساء، وكان والده الإمام برهان الدين غائباً، فلما بلغه الوضع وصل إليهم فقال: سمّوه سليمان، ثم قال: يكون هذا عالماً أو وارثاً لعلمي، فكان كما قال.

وقد كان والده في زبيد إمام الحديث في وقته، وله مكاشفات يضيق عنها هذا المجموع. وقد أثنى العلماء كافة من أهل الوقت على الإمام نفيس الدين، وأجمع من كان من أهل غير وقته من بعدهم، على أنه لم يكن في اليمن أعلم منه في الحديث وطرقه ومعرفة رجاله. وكان من مشايخه الشيخ مجد الدين الشيرازي، وأبو الفضل محمد بن أحمد بن عبد العزيز النويري، ونسر بن عمران المقرىء، وأما تلامذته فكثير كما قال التقي بن معيبد في مرثاه له رثاه بها زيادة على ثلاثين بيتاً، إلى أن قال فيها:

ويكفيه فخراً أن كل مدرس
من العلماء في قطره درسيه

وكان رحمه الله حنفي المذهب، وقد يفتي بمذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، لتحقيقه المذاهب كلها، فهو عالم محقق، وفوائده التي نقلتها عنه العلماء كثرة ولا تنحصر في مجلد، وكانت له الرفعة العظمى عند كافة الناس؛ يجلونه ويحترمونه، ويتبعون أمره، لا يخالفون نهيه. وكان مجلسه يجمع المبتدىء والمنتهي، ويستفيد منه كل مبهم ما يأمل ويشتهي، وكانت الفتاوي ترد عليه من أقطار اليمن وغيره، فيحل مشكلها، ويوضح مبهمها. قلمه يجْري سريعاً بنخب

(١) ذكر الشرجي أنه كان تلميذاً لابن تيمية والذهبي وشيخاً للريمي والجبرتي.

علومه، ولسانه يعبر بأحسن العبارات بما يشفي من منطوق كلام العلماء ومفهومه. اعترف بفضله الموافق والمخالف، من ذلك ما رأيته مكاتبة إليه من بعض فقهاء الزيدية[1]، بما تقربه العيون بما لا يحتمل بسطه هذا المختصر. وكانت مجالسة مشحونة بأهل البر والتقوى، والمراقبة لعالم السر والنجوى.

وأما كراماته فأكثر من أن تحصر، وأشهر من أن تذكر، منها: ما حكى لي الفقيه رضي الدين أبو بكر الصديق بن محمد الوايلي، قال: «اجتمعت بالإمام نفيس الدين العلوي بمدينة تعز، فسألني عن اسمي ونسبي، فأخبرته بذلك، فقال: ما وظيفتك؟ فأعلمته بوظيفتي، فلم يستحسنها، فقلت: أريد أن أنعزل عنها وأتخلى للقراء، فقال لي: عزلتك من وظيفتك كما عزلت خاتمي من يدي، وأخرجه من يده. قال: فرجعت إلى بيتي، وأعلموني بعزلي من والي بلدي، فلحقتني مشقة من ذلك، فرفعت إلى الإمام نفيس الدين وشكوت عليه ضرورتي وما نالني بسبب العزل، فقال: تحب رجوع وظيفتك، فقلت: نعم، فقال: رددتك على وظيفتك كما رددت خاتمي هذا إلى يدي. قال: فعادت إلي وظيفتي، وانتظم أمري».

ومنها ما أخبرني بعض تلامذته أنه كان له أرض يملكها بذي أشرق، وله أعوان يعينونه على عملها، فاتفق عليهم ظلم من بعض أعوان الأمير بدر الدين محمد بن زياد، وتشفع بالإمام نفيس الدين إلى الظالم بإزالة الظلم، فلم يتمثل ولا قبل الشفاعة، ولا سلموا من الظلم. فجاء بعضهم وقال له: الأمير لم يقبل شفاعتك، وكان الإمام نفيس الدين حينئذ بالمدرسة الأشرفية الجديدة بمدينة تعز، فأمر الدرسة بقراءة الفاتحة ودعا على الأمير، وقطرت دمعة من عينه، فعزل السلطان الأمير من ولاية تلك البلد، وجرت عليه أمور صعبة. ولم يزل حاله غير منتظم إلى أن مات.

---

(١) كان من تلاميذه مجتهد اليمن محمد بن إبراهيم الوزير.

وحكى لي القـاضي وجيه الـدين عبـد الـرحمن بن حسن الصبـاحي قـال: «أخبرني الشيخ الصالح عفيف الدين عبد القادر من فقهاء شريـج المهجم، قال: «وفدت إلى مدينة تعز أنـا والفقيه الصـالح عـلي بن عبد الله بـن أبي بكـر بن أبي حربة، ونحن لا نعرف تعز ولا فقهـاءها، فـدخلنا المـدرسة الأشرفيـة الجديـدة، فوجدنا شيخاً مدرساً وحوله نحو أربعين طالباً، فقام ذلك الشيخ المدرس إلينـا، فسلم علينا وآنسنا، وأخبرنا بأسمائنـا وأسماء آبـائنا وبلدنـا، ثم أمر بنـا إلى بيته، فأضافنـا ونحن لا نعرفـه، وسألنـا بعض تلامـذته عنـه، فقال لنـا: هذا الإمـام نفيس الدين سليمان بن إبراهيم، فسألناه عن سبب معرفته لنا، فقال: إن الإمام نفيس الـدين قد يكـاشف بعض الوافدين عليـه بمثـل ذلـك، فيعـرفهم وهم لا يعرفونه». وله غير ذلك من الكرامات مما قد ذكـرت بعضها في الأصـل. وتوفي رحمه الله سنة خمس وعشرين وثـمان مئة، ودفن بـالأجيناد، وقـبره مقصود للتـبرك به. وقضاء الحوائج. رحمه الله ونفع به». ا. هـ[1].

وفي النفس اليمني لعبـد الرحمن بن سليـمان ترجم السيـد حامـد بن عمـر با علوي، أورد فيه الكثير من أحوالـه وأخباره. اقتـطفنا طـرفاً منهـا يلقي ضوءاً عـلى الحياة العلميـة والروحيـة لزبيـد في القرن الثـاني عشر. قال: «وكـان السيد المذكور من الدعاة إلى الذكر والتذكير بالله عز وجل. وله مؤلفات عديـدة كلها في التصوف، وله وصايا فخـمة ولا سيما الـوصية المشهـورة بوصيـة السليماني. أودع فيهـا من النصـائـح الجليلة العجب العجـاب، ودخـل في تـذكـير القلوب بـالله عز وجل من كل باب. وكان من عجيب الاتفاق أن شيخنـا الوالـد جعل وليمـة عـظيمة لموجب ختم (إحياء علوم الـدين) لحجـة الإسـلام الغـزالي، لأن عـادة شيخنا الوالد أن يقرأ في كل يوم في الدرس حصة من الكتاب المذكـور، وذكر لي رحمه الله أن ذلك عن وصية عن مشائخه الأعلام. ولم يتخلف أحـد عن الحضور من علماء ذلك الوقت، فـوفد السيـد المذكـور وهـم مجتمعون قضّهم بقضيضهم،

(١) ذكر الشوكاني أنه عكي أما با علوي من حضر موت وجبلة فحسينيون.

فحصل مع شيخنا الوالد ومع كافة الحاضرين غاية المسرة، لأن السيد المذكور من أكابر العلماء العاملين، ومن المشغولين بهذا الكتاب، أعني كتاب (إحياء علوم الدين)، علماً وتعليماً وعملاً. وحصل مع السيد المذكور أيضاً السرور العظيم، لاتفاقه بعلماء البلد جملة، وكان ذلك بغيته من الوفود إلى البلد:

إذا أذن الله في حاجة أتاك النجاح. بها يركض

«وقد أسند الكتاب المذكور مع الختم سيدي العم العلامة أبو بكر بن عمر، والمجلس غاص بأولئك العلماء الأعلام الذين إذا رأوا ذُكِر الله، ووقعت بعد ذلك ابتهالات إلى الله عز وجل، وتضرعات، ظهرت فيها إمارات الإجابة بفيضان الدموع، وحصول الخشوع من أولئك الأعلام الحاضرين، الذين صفتهم كما قال تعالى: ﴿تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الحَقِّ﴾ حشرنا الله في جملة العارفين به، من الذين أنعم الله عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» ا. هـ.

ومنهم نزيل القاهرة الشيخ الولي عبد الرحمن بن مصطفى بن عيدروس با علوي المتوفي سنة ١٩١٣. ترجمة السيد عبد الرحمن في النفس اليماني ترجمة مستفيضة تقتطف منها نبذة تلقى ضوءاً على الوفرة العلمية التي كانت تزخر بها حضرموت وعدن. قال: «أخذ المذكور عن جم غفير، وعالم كبير من مشايخ العظام، من السادة الكرام وغيرهم، فمن مشايخه جده الجامع بين العلم

والعمل، السيد شيخ بن مصطفى العيدروس الآخذ عن جمل الأكابر، كوالده الولي الكبير محمد مصطفى، وأخيه العلامة المحقق جعفر الصادق، والسيد الإمام المشهور بالأسرار والنور عبد الله بن علوي الحداد، والسيد الجليل الشهير أحمد الهندوان، والسيد العلامة علي بن عبد الله العيدروس، والشيخ العلامة محمد بن سعيد الهندي، والحافظ المسند حسن بن علي العجمي.

ومن مشايخ السيد عبد الرحمن المذكور: والده السيد مصطفى الآخذ كوالده المذكور عن السيد العلامة عبد الله الحداد، ومن مشايخ السيد عبد الرحمن بن عبد الله با فقيه، والسيد مصطفى بن عمر والسيد الولي حسن بن عبد الرحمن با علوي، والسيد الولي عبد الله مدهر، والسيد العارف الكبير مشيخ بن جعفر الصادق با عبود، والسيد العلامة غلام حيدر الحسيني الهندي، والسيد الولي فضل الله بن أحمد الهندي العيدروس، والعارف المربي المكاشف محمد أشرف النقشبندي، والحافظ المسند محمد حياة السندي، وغيرهم. ألف المذكور المؤلفات الواسعة في فنون عديدة، منها (بسط العبارة في شرح ضابط الاستعارة)، وعلى هذا الشرح حاشية عظيمة للعلامة المحقق الحفناوي ورسالة جليلة في شرح المقولات سماها (قطف الزهر شرح المقولات العشر) وله (المنهل العذب في الكلام على الروح والقلب) و (إرشاد ذوي الألمعية في شرح بيتي المعية) للعارف عمر بن عبد الله با مخرمة، وهما:

أعط المعية حقها والزم له حسن الأدب
واعلم بأنك عبده في كل حال وهو رب

وله شرح على بيتي ابن عربي وهما:

إنما الكون خيال وهو حق في الحقيقة
كل من يفهم هذا حاز أسرار الطريقة

وله ثلاثة شروح على (٢٢) بيتاً للسيد الولي الكبير العيدروس[1] صاحب عدن، وأول هذه الأبيات:

---

(١) هو الولي أبو بكر العيدروس المقبور بعدن من رجال القرن العاشر.

هـات يـا حـادي، فقـد آن السلو وتجـلى عـن سـما قـلبـي الـصـدا

وهي من بحر الرمل، غير أن الناظم حدا بها حدو الموشح اليماني، الذي اللحن فيه أعذب، ولـه غير ذلـك من المؤلفات. وجمـع بعض تلاميـذه شعره في ديوان» ا. هـ.

هـذا وفي معجم المقحفي عن صالـح العلوي: أنـه يـوجـد في سمـل بحضر مـوت قـبر الإمـام علوي بن عبـد الله المتـوفى ٤١٢ هـ، وهـو جـد جميـع العلويين الموجودين في حضر موت اليوم. وقد ترجمنا لبعض آل العلوي فيما مرَّ بنا.

آل الحضرمي

كان موطن آل الحضرمي الأمـاثل بـالضحى إحدى قـرى الوادي المبـارك سردد، ويرقى النسابون بنسبهم إلى الملك الشهير والقيل الكبير ذي يزن، وعميد أسرتهم هو قاضي قضـاة تهامـة وكبير فقهـائها ومقـدم أوليائهـا، الفقيه إسـماعيل الحضرمي الذي كان مولده مع مطلع القرن السابع، وكان من أولاده وأحفاده أعلام جمعوا بين العلم والعمل والتعليم، فلا يكاد يخلو عالم من علماء اليمن بين حضر مـوت إلى حرض طـوال القرنـين السابـع والثامن، وإلا ولهـذه الأسرة، يد عليـه أو شأن معه، وسنورد تراجمهم مرتبة بحسب وفياتهم. فأولهم: محمـد بن علي بن إسماعيل حفيد الفقيه إسماعيل. قال الخزرجي:

«في سنة ٦٧٤ توفي الفقيه الفاضل أبو عبد الله محمد بن عـلي بن إسماعيـل الحضرمي، وكان كبير القدر، شهير الـذكر، من كـرام الفقهاء وخيـارهم، وكان جواداً كريماً، يروى أنه ما سأله سائل شيئاً من الدنيـا فرده، وربمـا لقيه السائل فأعطاه بعض ثيابه، حتى إنه كان يأتي عليه وقت يعجز فيه عن الخروج من عدم

الثياب ويروى أنه عاهد الله لا يرد سائلاً أبداً، حكي أنه سأله سائل يطلب شيئاً، فدخل منزله فلم يجد إلا الطعام الذي تطبخه الخادمة، فأخذه بإنائه، وذهب به إلى السائل فأعطاه إياه.

وكان الفقيه إسماعيل يعظمه ويقول: «هو أزهدنا وأعلمنا وأورعنا». وأمتحن بحصر البول، فكان يقل مجالسة الناس كذلك. وكانت وفاته رحمه الله في زبيد، يوم الرابع من محرم من السنة المذكورة».

وهذه ترجمة عميد الأسرة الحضرمية الولي العالم العامل إسماعيل بن محمد الحضرمي، كما أوردها الخزرجي: «في سنة ٦٧٧ توفي الفقيه الشيخ الإمام العارف بالله أبو الفدا إسماعيل بن الفقيه الصالح محمد بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن أحمد بن ميمون الحميري. ولد يوم التاسع من ذي الحجة من سنة إحدى وست مئة وهذه هي تاريخ ميلاد الفقيه إسماعيل ويروى أنه لما تزوج أمه قيل له: يا محمد، يأتيك ابنان، محدَّث، ومحدِث، الأول بفتح الدال، والثاني كسرها. وكان تفقه بأبيه وعمه علي بن إسماعيل، ثم أخذ عن جماعة من الكبار كيونس بن يحيى والبرباني الحصري وغيرهما وكان نقالاً لفروع الفقه، غواصاً على دقائقه، وله مصنفات مفيدة، منها: (شرح المهذب) وغيره. ثم ارتحل إلى زبيد لغرض الزيارة في طلب العلم، فتزوج بابنة الفقيه أبي بكر بن حنكاس المقدم ذكره، وبابنة الفقيه أبي الخير الذي سيأتي ذكره فيما بعد، إن شاء الله تعالى. وغلب عليه حب استيطان زبيد. واجتمع به السلطان الملك المظفر غير مرة، وتسمع عليه البخاري، وولي القضاء الأكبر في تهامة، فأقام فيه نحو سنة، فاستخلف في القضاء من وثق بدينه وورعه، واشترط على كل قاض ألا يحكم إلاّ بمحضر من الفقهاء فيقال: إنه خوطب يا إسماعيل رضيت بالنزول عن التسمي بالفقه إلى التسمي بالقضاء، أو كما قيل. وقيل: بل كان كثير التردد إلى تربة الشيخ الصالح أحمد بن أبي الخير الصياد، وكان قد يجد عندها دليلاً على صلاحة

حاله، فنوجي هنالك. بذلـك، فعزل نفسه من القضاء. ومما يروى عنـه، أنه دخل بيت قاضي زبيـد وكان من خـواص أصحابـه وزوج أخته، فـوجـد في بيتـه ثياباً من الخز، وكان لا يعرف معه شيئاً من ذلك، فقـال له: من أين لـك هذه الثياب؟ فقال له: من بركتك يا أبا الذبيح، فقال: ذبحني الله إن لم أعزلك. ثم عزله وعزل نفسه بعـده. وكان مبـارك التدريس، انتفـع به خلق كثـير من فقهاء اليمن.

ومن عجيب ذلـك مـا روى عن الفقيـه الصـالـح محمـد بن معْـطن وكـان من الفقهـاء الزهـاد. قال: «كنت في بلدي، فعـرض لي أن أقرأ النحـو، فـرأيت في المنـام قائـلاً يقول: إذهب إلى الفقيـه إسـماعيـل الحضرمي واقـرأ عليـه النحـو، فعجبت من ذلـك لأنه لم يشهـد بمعرفـة تامـة في النحـو. ثم قلت: قـد حصلت الإشارة. فعزمت على السفر من بلدي، وهي قرية الـرقبة من قـرى وادي رمع، فسـافرت حتى دخلت الضحي، فـوجدت الفقيـه في حلقة التـدريس، فلما رآني سلمت عليه وقعدت بين أصحابه، فقال لي: يـا فقيه قـد أجزتـك في جميع كتب النحـو، فأخـذت ذلك بقبـول، وعدت إلى بلدي. فـما طـالعت شيئـاً من كتب النحو إلا عرفت مضمونه ببركة الفقيه». قال الجندي: وأخبرني الفقيه عن الفقيه حسن الـترعبي أنه سمعـه يقـول: «رأيت النبي ﷺ في منـامي ليلة من الليـالي، فقلت: يـا رسول الله من أوليـاء الله الـذين لا خـوف عليهم ولا هم يحـزنـون؟ فقال: هم الدرسة. ولما سأله قال: هم درسة الفقـه والتنبيه والمهـذب، فقلت يا رسول الله فدرسه القرآن؟ قال: أولئك أصفياء الله».

وكـانت وفاة الفقيـه يوم التـاسع من ذي الحجـة من السنة المـذكـورة. رحمـه الله تعالى».

ومنهم الفقيـه الصالـح أبـو العبـاس أحمـد بن الإمـام إسـماعيـل بن محمـد الحضرمي المتوفى سنة ٧٢٢. تفقه بأبيه، وكان فقيهاً فاضلاً عارفاً بفروع الفقه، مشهور البركة في التدريس والفتـوى، وهو من جملة الفقهـاء الذين حضروا مقـام

السلطان الملك المؤيد، للنظر في قضية أبي شكليل وأبي بكر بن علي المشير، وكان ذلك في قصر الجند سنة ست عشرة وسبع مئة. وأشار إليه السلطان بالنظر فيها، فلم يفعل، وأشار إلى غيره، فلم يقبل، ويقال: إنهم ما دخلوا مقام السلطان حتى اتفقوا على ما كان منهم، وهو الإشارة بقضاء ابن الأديبة، فكان الأمر كما ذكر. ورجع الفقهاء إلى بلادهم، بعد أن أعطى السلطان للفقيه أحمد المذكور مالاً جزيلاً، لقضاء دين عليه كتب له به إلى عامل المهجم. وكانت وفاته في قرية الضحى لأيام بقين من صفر من السنة المذكورة. رحمه الله تعالى.

وتوفي بعده ابن أخيه الفقيه الفاضل أبو العباس أحمد بن يحيى بن إسماعيل بن محمد الحضرمي، وكان فقيهاً محققاً، تفقه بعلي بن محمد الخلّي وولده محمد بن علي الغلي، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة ٧٢٢.

ومنهم الفقيه الصالح أبو إسحاق إبراهيم بن الفقيه أحمد بن الفقيه إسماعيل بن محمد الحضرمي المتوفي سنة ٧٢٢. وكان فقيهاً محققاً، تفقه بعلي ابن محمد العلي وولده محمد بن علي، وكان صالحاً كثير الملازمة للمسجد، وأقام معتكفاً نحواً من عشرين سنة.

ومنهم الفقيه الإمام العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحضرمي. وكان أوحد أهل زمانه، فقهاً ونسكاً، وهو أكبر فقهاء زبيد في عصره، لا يختلف في ذلك اثنان. وكان مولده في سنة ثلاث وستين وست مئة. وكان تفقه بأبيه ثم بعلي بن إبراهيم البجلي، وبابن ثمامة وبأحمد بن سليمان الحكمي، ثم ارتحل إلى ناحية المهجم، فأقام في بيت ابن أبي الخل، وأخذ عن أحمد بن أبي الحسين، وانتهت إليه رياسة الفتوى في زبيد ونواحيها. وكانت وفاته ليلة الجمعة غرّة شهر رمضان في السنة ٧٤٧. رحمه الله.

ومنهم الفقيه الصالح شهاب الدين أحمد بن الفقيه الصالح رضي الدين أبي بكر بن عبد الله بن محمد بن علي بن إسماعيل الحضرمي. وكان فقيهاً صالحاً

تقياً براً، عارفاً بالمذهب، انتهت إليه رياسة الفتوى في زبيد، وكان تفقه بعمه محمد بن عبد الله وغيره، وتفقه به كثير من الناس، وكان متواضعاً، حسن التدريس، باذلاً نفسه لمن قصده، مختصراً في دنياه كثيراً، وكانت وفاته يوم السادس من رجب سنة ٧٨٧. رحمه الله.

ومنهم من المتوفين بعدن: الفقيه شمس الدين علي بن محمد الحضرمي. أصل بلده حضر موت. قدم إلى اليمن، وسافر إلى مكة المشرفة، فحج وزار قبر النبي ﷺ ثم سافر إلى مصر، فقرأ على فقهائها طرفاً من العلوم، وأجازوا له. ثم وفد إلى مدينة زبيد، فقرأ على القاضي جمال الدين الطيب الناشري، واجتهد بتحصيل العلوم حتى تأهل للتدريس والفتوى، واختصر (شرح المنهاج) للأذرعي، فجعله في مجلدين، ووفد إلى مدينة إب ثم إلى بلد شنين، فلم يصف له بها مشرباً، ثم أقام بالشوافي، وتولى القضاء هنالك أياماً، ثم انتقل إلى دمت، فأحسن إليه السادة بنو طاهر وأقام معهم مرة، ثم أقام بلحج، وجُعل له بها شيء من الأسباب، ثم انتقل إلى عدن فتوفي بها شهر ذي القعدة، سنة ست وستين وثمان مئة. رحمه الله.

آل الأهدل

هذا البيت يكاد يتفرد بالكثرة الكاثرة والخيرية الوافرة، التي ربما لا يساميه فيها سواه، فمنذ سبعة قرون وعلى امتداد سبعة وديان، من مور إلى موزع، وعلماؤه الأعلام وأولياؤه المصلحون يتتابعون في كل جيل وقبيل، ولا عجب، فإنه بيت يرقى إلى سدة النبوة، ويتصل بسماء الرسالة، وما على ذلك مزيد، ولو ذهبنا لذكر كبار رجالات هذا البيت لأتينا بمجلدات، والتزاماً بنهجنا في الاختصار نكتفي بخمسة أعلام، هم أكثرهم ذكراً، وأوسعهم علماً، مبتدئين بجذع دوحتهم وأصل أرومتهم، السيد علي بن عمر الأهدل. ترجمه الخزرجي مختصراً، فقال:

«في سنة ٦٩٠ توفي الشيخ أبو الحسن علي بن عمر المعروف بالأهدل، وكان كبير القدر، شهير الذكر. يقال: «إن جده محمد قدم من العراق إلى اليمن على قدم التصوف، وهو شريف حسيني، فسكن أجواف السوداء من وادي سهام، وأولد هنالك. وكان ابن عمه هذا علي بن محمد على طريقة مرضية، واختلف فيمن أخذ عنه اليد، فقيل: إنه مجذوب، وقيل بل صحب رجلاً سائحاً من أصحاب الشيخ عبد القادر الجيلاني، يقال له محمد بن سنان الأحوزي، وقيل بل رأى أبا بكر الصديق فصافحه وأخذ عنه يد التصوف، وقيل صحب الخضر عليه السلام. قال الجندي: وسمعت بعض أصحابه وذريته يقولون: كان الشيخ يميل إلى تبجيل الأحوزي. ولما توفي على قدم السياحة، إذ لم يزل ذلك دأبه، خرج الشيخ علي بن عمر إلى أصحابه فنعاه إليهم، وأمرهم بالاجتماع للصلاة عليه، فاجتمعوا وصلوا عليه. وكان الشيخ صاحب تربية وكرامات، وأحواله أكثر من أن تحصى، وكانت وفاته في أثناء السنة المذكورة تقريباً، والله أعلم» ا. هـ.

وثانيهم: هو السيد الحسين بن عبد الرحمن الأهدل. ترجمه الشوكاني فقال: «ولد تقريباً سنة (٧٧٩) تسع وسبعين وسبع مئة. قرأ على الزيلعي وعلى الأزرق والرضي الطبري، ومحمد الموزعي، وابن الرداد والناشري، وبرع في عدة علوم وصنف حاشية على البخاري، انتقاها من شرح الكرماني مع زيادة سماها (مفتاح القارىء الجامع البخاري)، و(اللمعة المقنعة في ذكر الفرق المبتدعة)، و(الرسائل المرضية في نصر مذهب الأشعرية)، و(بيان فساد مذهب الحشوية). و(شرح الأسماء الحسنى)، ومؤلف في مروق ابن العربي وابن الفارض وأتباعهما، (وتحفة الزمن في تاريخ سادات اليمن)، وله مصنفات غير هذه.

وهو شيخ عصره بلا مدافع، دارت عليه الفتيا، ورحل إليه الناس للتدريس، واستقر بأبيات حسين، واشتهر ذكره، وطار صيته، ومات بها في

صبح يوم الخميس تاسع شهر محرم سنة (٨٥٥) خمس وخمسين وثمان مئة، ودفن بها. وهو من مشاهير علماء اليمن المبرزين في علم المعقول والمنقول» ا: هـ.

وثالثهم: هو كبير علماء المراوعة ومفتيها السيد محمد بن أحمد بن عبد الباري الأهدل. ترجمه زبارة في نيل الوطر فقال:

«السيد العلامة شيخ الإسلام محمد بن أحمد بن عبد الباري الأهدل الحسيني التهامي. مولده في ذي القعدة سنة ١٢٤١. وحفظ القرآن عن ظهر قلب حفظاً متقناً، وأخذ في فنون العلم عن عمه عبد الباري، وعمه الحسن بن عبد الباري، وعن أخيه عبد الباري بن أحمد وعن السيد عبد الله بن عبد الهادي الأهدل، والسيد محمد بن معوضة الأهدل، والسيد عبد الله بن المساوي الأهدل، وغيرهم.

وحج في سنة ١٢٦٠، فاجتمع بكثير من العلماء والفضلاء بمكة، كالشيخ عبد الله السراج، والشيخ عثمان الدمياطي، والشيخ أحمد الدمياطي، والشيخ إبراهيم الخليل. وأخذ عنهم وعن غير من تقدم ذكرهم من علماء تهامة، واستجاز من بعضهم، وصار إماماً راسخاً في جميع العلوم، وطوداً باذخاً لا يبلغه إلا أرباب الحجى والنهوم. وكان له الباع الطويل في جميع الفنون، لا سيما الفقه والحديث، وألف مؤلفات عديدة منها. حاشية على القطرة، وحاشية على الجامع الصحيح للبخاري سماها (سلم القارىء)، و (هداية العقول إلى ذريعة الوصول)، وشرح على الخصائص الصغرى للسيوطي، و (نشر الأعلام على البيان)، و (الأعلام في الفقه)، و (تدريب المحتاج على المنهاج) و (منحة الوهاب نظم تنقيح اللباب)، و (كشف الهم)، و (منح الفتاح بأركان عقد النكاح)، و (تبصرة المحتاج) و (خلاصة الموسوم)، و (النفحة العطرية)، و (تنقيح الفوائد على أبيات الشواهد)، و (فتح الفتاح العليم شرح بسم الله الرحمن الرحيم)، و (توفيق النظار على حكم ما ينبت في الأرض الموقوفة من الأشجار)، و (دفع الوصمة عمن ثبتت له (العصمة)، و (تهذيب المقالة في أحكام الإقالة)، و (إرشاد

من يهم في تناسب اسمي محمد وإبراهيم)، و(تحذير الإخوان المسلمين في تصديق الكهان والعرافين، والمنجمين)، و(تسديد البيان للمستغلين بحكمة اليونان)، ورسالة فيما يتعلق بمداد العلماء ودم الشهداء، وغير ذلك من الرسائل والحواشي والشروح. وكانت وفاته في شهر المحرم سنة ١٢٩٨ رحمه الله تعالى».

هذا وقد انتقل فرع أهدلي كريم من مساكنهم بالدريهمي إلى زبيد أوائل القرن الثاني عشر، وكان إمام هذا الفرع هو السيد الشهير والعلامة الكبير السيد يحيى بن عمر الأهدل، الذي قام بمنصب الإفتاء بزبيد هو وذريته المباركة من بعده حتى اليوم. وازدهر العلم على يدهم، وصار رباطهم من أهم أربطة زبيد العلمية، ولا يزال حياً حتى اليوم يحتضن الطلبة، ويمدهم بالخير والنور رغم أن الكثير من أربطة زبيد قد ماتت. وسنذكر ترجمة السيد يحيى وولده المتعاقبين بعد ترجمتنا لابن عمه السيد أحمد بن محمد مقبول، الذي ترجمه زبارة فقال:

«ابتدأ طلبه للعلم بمدينة زبيد في سنة ١١٠٩، وأدرك شيخ مشائخه القاضي العلامة أحمد بن إسحاق بن محمد بن جعمان، وأخذ عن خاله السيد الإمام يحيى بن عمر بن مقبول الأهدل، ولازمه وانتفع به، وخلفه في إملاء الحديث في شهر رجب وشعبان في كل عام، بقية البخاري في الجامع الكبير بزبيد، وأخذ عنه في علوم القرآن والتفسير والحديث والرقائق، وغيرها. وأخذ عن الشيخ العلامة الزاهد علاء الدين بن محمد عبد الباقي المزجاجي الزبيدي الحنفي، القراءات السبع والنحو والحساب والفرائض والجبر والمقابلة والتصريح بشرح التوضيح، وأخذ عن الشيخ العلامة المصنف مفتي زبيد، محمد بن زياد الشرعبي الشافعي المتوفى في صفر سنة ١١٣٥، المنهاج وغيره، وعن الشيخ العلامة الصوفي الزين بن محمد باقي المزجاجي الحنفي الزبيدي، التصوف، وتلقن منه الذكر على الطريقة النقشبندية، وأخذ عن العلامة علي بن علي المرجومي المصري، واستجاز منه بزبيد في سنة ١١٣٥، وأخذ عن العلامة الشهير أحمد بن محمد النخلي الملكي المتوفي سنة ١١٣٥ بمكة، أوائل الأمهات

الست، وأوائل عدة من المسانيد والأجزاء والأحزاب والأوراد، وأجازه سنة ١١٢٣ بجميع ما تضمنه كتابه (بغية الطالبين لبيان المشائخ المحققين المعتمدين)، وأخذ بمكة عن الشيخ الإمام عبد الله بن سالم البصري المكي المتوفى سنة (١١٣٤) أربع وثلاثين ومئة وألف، واستجاز منه، وأخذ عن العلامة إدريس بن أحمد بن علي الصعدي المكي كثيراً واستجاز منه، وأخذ عن الشيخ العلامة محمد الأسدي علم الميقات، وعن الشيخ محمد بن إبراهيم بن حسن الكردي الكوراني الشهرزوي ثم المديني، سمع عليه المواهب اللدنية، وكثيراً من البهجة الرضية وشرح الإلفية السيوطية، والأمهات والموطأ، والإحياء للغزالي، واستجاز منه.

توفي سنة ١١٦٣» ا. هـ.

أما ترجمة سيدنا الإمام يحيى بن عمر الأهدل، مرجع الشافعية باليمن ومفتيها، وولده السيد سليمان، فقد أوردها مفصلة حفيده السيد عبد الرحمن بن سليمان في كتابه (النفس اليماني) في إجازة القضاة من آل الشوكاني، كما ترجمه غيره من مؤرخي اليمن. وأكثر التراجم جمعاً واختصاراً هي ترجمة الشوكاني في البدر، فقد جمع فيها تراجم الأب والولد والحفيد. قال:

«أخذ عن جماعة من أعيان بلده، منهم والده، ومحمد بن علاء الدين المزجاجي وغيره. وبرع في العلوم العقلية والنقلية، وعكف على التدريس، فأخذ عنه الطلبة من أهل بلده وغيرهم، وصار محدث الديار اليمنية غير مدافع، ورحل إليه الطلبة من سائر البلاد، وتفرد بهذا الشأن، واجتمع لديه آخر أيامه منهم جماعة وافرة، هو المفتي في الجهات الزبيدية، المرجوع إليه في جميع المشكلات. ولما مات في يوم الجمعة خامس عشر شهر شوال السنة (١١٩٧) سبع وتسعين ومئة وألف، قام مقامه ولده العلامة عبد الرحمن سليمان في وظيفة التدريس والإفتاء، مع حداثة سنه وله شغلة كبيرة بالعلوم العقلية والنقلية، وميل إلى التعبد وأفعال الخير، هو الآن حي وفتاويه تمثل إلينا، وهي فتاوي متقنة ينقل

في كل ما يرد عليه من السؤالات، نصوص أئمة مذهبه من الشافعية. وقد كتب إليَّ معاهدة مشتملة على نشر حسن يدل على تعلقه بالأدب. ووالد المترجم له السيد يحيى بن عمر هو مسند الديار اليمنية، وله مجموع في الأسانيد نفيس، ومن بعده من المشتغلين بعلم الرواية عيال عليه».

آل الهتار

مؤسس هذا البيت الكريم ويعسوب خليته، هو الوالي العالم عيسى بن إقبال الهتار، من كبار علماء وأولياء القرن السابع ومسجده الحاوي لتربته لا يزال عامراً حتى اليوم ـ والحمد لله ـ بقرية التربية شرقي مدينة زبيد. وولده هو الشيخ العارف طلحة المعروف مسجده وضريحه شمال شرقي زبيد، فقد ترجمهم الشرجي في طبقاته والخزرجي في عقوده، والبريهي الذي كان قريب العهد بهم، وذكر أحد أحفاد الهتار المعروف بالغزالي، وهو محمد بن طلحة بن عيسى الهتار، وكان زاهداً عابداً، له القدم الراسخة في التمكن من المعارف، شرب منها الكأس الأوفى والمشرب الأصفى، وأنه لزم ذكر الله تعالى والتلاوة، ومطالعة الكتب الزهدية، والعزلة عن الناس في معظم الأوقات. وقد مدحه الإمام الدماميني ببيتين من الشعر، فأودعهما نوعاً من البديع، فقال:

شيخ روى عن طلحة خبر التقى ... وله أسانيد بذاك عوالي
أحيا به ليلاً بطاعة ربه ... لا ينكر الاحياء للغزالي

وقد أخبرني بعض الثقات أنه اشتهرت له كرامات، وأجمع كل من يعرف هذا الشيخ أنه من الصالحين، ومن العلماء الزاهدين، فكان بيته محترماً بمدينة زبيد، يأوي إليه كل خائف فيأمن، ومن كان له جاراً فلا يهتضم، وكانت

---

(١) هو طلحة بن عيسى بن ابراهيم بن أبي بكر بن عيسى بن إقبال الهتار، هكذا سلسلة الشرجي، ونسبهم إلى صديق بن ذؤال من عك.

الملوك وأعوانهم يجلون هذا الشيخ ويحترمونه لمكانته، ولا يردون شفاعته. ولم يزل على ذلك إلى أن توفي سنة ٨٢٩.

وقال الشرجي: سنة ٩٢٨، وخلفه من بعده ولده الشيخ الصالح عفيف الدين عيسى، نشأ على سيرة شيخه ووالده الشيخ الغزالي في العبادة والاجتهاد بأفعال الخير، مقصوداً للمهمات، وتقضي على يديه الحاجات. وكانت وفاته سنة ٨٤٧» ا. هـ.

ولآل الهتار عقب متصل، وذرية منتشرة بريمة والتربية وحيس، وغيرها. وأشهرهم آل المحنبي من كبار علماء زبيد، منهم الشيخ العلامة الكبير محمد بن إسماعيل المحنبي، من أعيان القرن الرابع عشر. ترجمه السيد إسماعيل الوشلي في كتابه (نشر الثناء الحسن)، وأثنى عليه. وفي بيتهم أكبر مكتبة عرفتها بقضاء زبيد، جمعت أنفس المراجع والكثير من المخطوطات النادرة.

آل العجيل

لعل أحمد بن موسى العجيل هو أشهر علماء وأولياء اليمن، وآية ذلك أني لم أجد في البداية والنهاية لابن كثير ذكراً لواحد من علماء وأولياء اليمن بعد القرن السادس سوى أحمد بن موسى، فقد ذكره في موضعين أو أكثر فيما أذكر، ولا عجب، فإن الشيخ أحمد كان متصل الرحلة إلى الحج، وقد أتى على الناس في اليمن حين من الدهر لم يمكنهم فيه أداء الحج والعمرة إلا بخفارة قافلة ابن العجيل، التي كان يحترمها أمراء المقاطعات، ومشائخ القبائل، حتى قطاع الطرق كانوا إذ سمعوا باسم ابن العجيل أجفلوا وتركوا القافلة تمضي إلى غايتها.

والواقف على سيرة والده الشيخ موسى بن علي بن عمر المعروف بالعجيل[1]

---

(١) هم من المعازبة أحد فروع قبيلة عك.

يرى لهذا البيت عراقة علمية، ومكانة روحية كانت هي المنبت الأنسب لإنبات دوحة الشيخ أحمد، فريد عصره ومصره، ولاية وعلماً. ومما يعطينا مزيداً من معرفة شمائل هذه الأسرة، ما ذكره الشرجي من أن موسى والد أحمد كانت له مودة وثيقة بإمام الحرم المكي، الذي دس به حساده إلى الخليفة العباسي، ناقمين وفرة ما يحمل عليه من عطايا، طاعنين فيه بقلة علمه وعدم أهليته للمنصب وبعث الخليفة من يمتحن علمه، وحار إمام الحرم بهذا الامتحان، ولكن موسى كان مسارعاً في إنقاذ صديقه من مأزقه، فأوعز إليه بالخروج إلى الحرم، ومتى ما قدمت إليه الأسئلة فعليه أن يدفعها إلى موسى، الذي كان قد حضر الجلسة معلناً تلمذته لإمام الحرم. وفعلاً قدمت الأسئلة، فدفعها إليه قائلاً أجب يا موسى، فأصاب في كل أجوبته شاكلة الرمي، وأفحم العراقيين بأسئلة لم يهتدوا لأجوبتها، وهنالك أقر العراقيون بفضل إمام الحرم بناءً على ما لمسوه من غزارة علم تلميذه موسى، وأقروه على عمله، واعتذروا إليه. وما كان موسى تلميذاً له في الواقع، وإنما هي الشمائل الكريمة التي جعلته تقف ذلك الموقف النبيل.

وعلى كل ذلك العلم الواسع والعقل الراجح والخلق الدمث، فإنه كان في مقتبل شبابه وريعان فتوته، إذ توفي رحمه الله قبيل الثلاثين، ولهذا كان يعرف بالشافعي الأصغر. هذه لمحة عن الأب، فماذا عن الابن؟ لنستمع إلى ما قاله الخزرجي عنه.

في سنة ٦٩٠ توفي الفقيه الإمام العلامة قطب اليمن وعلامة الشام واليمن، أبو العباس أحمد بن موسى بن علي بن عمر بن عجيل، وكان مولده في شهر رمضان أحد شهور سنة ٦٠٨، وكان إماماً من أئمة المسلمين، عالماً عاملاً صالحاً، ورعاً زاهداً. لم يكن في الفقهاء المتأخرين من هو أدق منه نظراً في الفقه، ولا أعرف به منه غواصاً على دقائق الفقه، موضحاً لغوامضه، معدوداً تاج للعلماء، وختام أهل الحقائق أجمع على تفضيله المخالف والمؤالف، ولم يتردد في صلاحه وفقهه جاهل ولا عارف. تفقه بعمه إبراهيم بن علي، وبه تفقه جمع

كثير من نواح شتى. وكـان مبارك التـدريس، دقيق النظر فيـه، وإلى ذلك أشـار الإمام أبو الحسن عـلي بن أحمد الأصبحي صـاحب العين، حـين سئل عن شيء من معاني كلامه على بعض مشكلات المهذب، فأجاب عن ذلـك وبيَّنه، ثم أثنى على الفقيه وقال: ما مثلنا ومثل هذا الإمام، إلا كما قال أبو حامد الإسفرائيني في حق ابن سريج نحن نجري مع أبي عباس في ظـواهر الفقـه دون دقائقـه. وكان صاحب كرامات مشهورة، ومآثر مذكورة، يظهر منها ما يظهر عن كـره منه قـال الجندي:

أخبرني والدي عن بعض ثقـات أصحاب الفقيـه أنه قـال: «حضرنا يـوماً جماعة عند الفقيه، فتذكرنا كرامات الصالحين، وربما عنينـاه: على أنـك لم تظهـر شيئاً من ذلك، وضربنا له مثـالاً بأهـل عواجـه، وبالفقيـه إسماعيـل الحضرمي، ومن ماثلهم. فقال: لكل ولي كرامة، أما فلان وما ظهر من كرامـاته فهـو نقص من الإناء، وأحب أن ألقى الله بإناء ملآن».

وكانت الملوك تصله وتزوره، وتعـظيم قدره، وتقبـل بشفاعتـه، ويريـدون مسامحته بما يجب عليه من الخـراج السلطاني، فلا يقبـل ويقول: أحب أن أكـون من جملة الرعية الدّفاعة. وكان كثير الحج إلى مكـة المشرفة، وإذا حـج يحج معـه خلق كثير من أهل اليمن تبركاً به وأنساً، فلا يكاد يتعرض لهم أحد من العـرب بسوءٍ، وإن تعرض أحد له لم يفلح، فكانت القافلة التي تسير إلى مكة في البر في عصره وبعد عصره بدهـر طويـل، إنما يقـال لها: قـافلة ابن عجيل، سـواء سار معها أو سار معهـا غيره من الفقهـاء، وهذا من أعجب الأشيـاء، وما أشبـه هذا بقول الأول:

قـد مـات قـوم ومـا مـاتت مـكـارمـهـم
وعـاش قـوم وهـم في الـنـاس أمـوات

وكان متى دخل مكة اشتغل الناس بالسلام عليه عن كل شيء، ومتى صار

في المطاف أو في الحرم، ترك الناس أشغالهم، وأقبلوا على مصافحته وتقبيل يده تبركاً، فيقول أنتم في بيت الله ومحل بركته ورحمته، وإنما أنا واحد منكم مخلوق مثلكم، فلا يزدادون بذلك إلا إقبالاً عليه. قال الجندي: وحكى بعض الثقات أنه سمع رجلاً من أهل مكة، من أهل الدين والعلم والصلاح يقول لي كذا وكذا سنة، فذكر مدة طويلة قل من يعيشها.

وفي كل سنة يدخل مكة من العلماء جمع كثير، ففيهم من يجاور ويقيم، ومنهم من يذهب إلى بلده، فما رأيت أحداً منهم إلا ونور الكعبة وعظمتها يزيد عليه، إلا ما كان من ابن عجيل، فإنه متى دخل الحرم زاد نوره وعظمته على نور الكعبة، بحيث لا يبقى للناس تعلق بغيره. ثم كان متى قدم المدينة فعل الناس معه كذلك، فيقول لهم: اتقوا الله، هذا نبيكم وهؤلاء صحابته، وإنما أنا رجل منكم. فلا يزداد الناس إلا إقبالاً عليه. وكان إذا ضجر من الناس بمكة والمدينة، يغيب عنهم لقضاء مأربه، من قراءة أو ذكر أو صلاة، وهذا غالب شغله. وكان إماماً في الفقه والأصولين والنحو واللغة والحديث والفرائض، وهو أحسن من ضبط الفنون، وقرت بمذاكرته العيون. قال الجندي: وأخبرني الثقة من فقهاء عصره أنه قال: ارتحلت من بلدي إلى الفقيه أزوره وكنت قد أعددت مسائل فقهية وأصولية وكلامية، فلما وصلت إلى الفقيه وسلمت عليه واطمأن بي المجلس، أقبلت أسأله عن الفقهية وهو يجيبني، ثم عن الأصولية وهو أيضاً يجيبني، ثم عن الكلامية، فقال: أمهلني، فأضمرت في نفسي قصوره عن ذلك. ثم لما انقض المجلس وكان حافلاً، دخل الفقيه منزله، ثم استدعى بي إليه وقال: إن العقول لا تكاد تحتمل جواب ما سألت عنه، وربما حصل بيننا مراجعة واعتراضات تشوش على بعض السامعين، لكن هات السؤال الأول، فأوردته، فجاوب عليه جواباً شافياً، ثم أوردت بقية الأسئلة، فجاوب عليها كذلك، وله مسائل سأله عنها عدة من الفقهاء الأجلاء، فأجابهم بأحسن جواب وأبينه.

ولم يكد يحتاج أحد من فقهاء عصره إلى فقه ومعرفة، ولم يسمع أنه افتقر

إلى معرفة أحد منهم في جواب ولا سؤال. ولم يزل على ما ذكرنا؛ من التدريس، ومجاهدة النفس، إلى أن توفي يوم الثلاثاء بين صلاتي الظهر والعصر، لخمس بقين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة.

وكان الملك الواثق إبراهيم بن الملك المظفر يومئذ في مدينته فشال، وكانت يومئذ إقطاعه من أبيه، وهو على نصف مرحلة من بيت الفقيه تقريباً، فلما علم بوفاة الفقيه وكان من جهلة الغاسلين، ثم حمل إلى تربته كان من جهلة الحاملين، وتولى إنزاله في قبره مع من تولى ذلك، فغبطه على ذلك كثير من أعيان زمانه. وكان للفقيه عدة أولاد، منهم: إسماعيل، وكان فقيهاً مرضياً، توفي سنة سبع عشرة وسبع مئة. وموسى كان فقيهاً خيراً ديناً تفقه بأبيه، وتوفي سادس شعبان سنة عشرين وسبع مئة. وإبراهيم كان فقيهاً ديناً ورعاً، يحب الاعتزال، قل من يجتمع به من الواصلين إليه تفقه بأبيه، وأخذ النحو عن الفقيه عمر بن الشيخ من أهل شريج المهجم. توفي سنة سبع وعشرين وسبع مئة. رحمه الله عليهم أجمعين[1].

في الرابع والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٩٥ توفي القاضي زكي الدين أبو بكر بن يحيى بن أبي بكر بن أحمد بن موسى بن عجيل بمدينة تعز، وقبر في مقبرتها صبح يوم الرابع والعشرين من الشهر المذكور. وكان أوحد زمانه، فطنة وذكاء، لا يوجد له نظير. قرأ كثيراً من فنون العلم، وبرع في كل فن، وأسند إليها السلطان القضاء الأكبر في أقطار المملكة اليمنية، فكانت صلته في القضاء ثلاث سنين، وأربعة أشهر، وثمانية أيام. رحمه الله تعالى» ا. هـ.

ومنهم الفقيه العلامة كمال الدين موسى بن أحمد بن علي بن عجيل المشهور بالمشرع، وليس هو من ذرية المشرع المشهور، بل هو ابن عم أبيه، فجميع أهل هذا البيت يعرفون بني المشرع لفقه هذا الفقيه العفيف الدين... عبد الله

(١) ذكر الشرجي أن إبراهيم من أحفاد الشيخ أحمد، كان يطعم ثلاثة آلاف نفس.

بن أبي القاسم الأكسع، وبالفقيه رضي الدين أبي بكر بن إبراهيم بن جمعان، وغيرهم، وأجاز له، فدرس وأفتى. ثم قرأ على القاضي جمال الدين الطيب بن أحمد الناشري في الحديث والفقه، وسمع عليه، وأذن له بالإفتاء بمدينة زبيد، ثم جرت بينهما أمور تولد منها وحشية بينه وبين بني الناشري، فلما استقام المقام لشمس الدين علي بن ظاهر بملك اليمن، لاذ الفقيه كمال الدين المقرىء بشمس الدين يوسف بن يونس الجبائي، فتوسط إلى المقام شمس الدين بإقامته ببعض الأسبابَ بزبيد، فأقيم له ما كفاه منها بزبيد.

واشتهر له ولد نجيب هو الشيخ الصالح شهاب الدين أحمد، قرأ بالفقه على والده وعلى الفقيه الصديق بن جعمان، وعلى غيرهما. ثم صحب السادة الصوفية هنالك، وقرأ عليهم في كتبهم. كالرسالة للقشيري، (عوارف المعارف) للسهروردي، وقطعة من نوادر الأصول للحكيم الترمذي. ولازم الوقوف عند قبر الإمام أحمد بن موسى بن عجيل، وعد من خواص الفقيه الصالح أبي القاسم ابن جعمان، فلما توفي شيخه ابن جعمان سكن بيت الفقيه ابن العجيل، وتحكم على يده جماعة من الفقراء، وهو لا يرد سائلاً ما بيده، ولو ثيابه التي يلبسها. واجتهد بالعبادة، والقيام بإكرام الضيف، والاجتهاد في قضاء الحاجة التي يحتاجها الناس، فوصلته الهدايا والنذور من بلدان كثيرة، فكل ما اجتمع معه من ذلك فرقه على الفقراء، فإذا فني ما بيده علق الزنبيل بيده، ودار هو وبعض فقرائه يسألون، فلا يردهم أحد فظهرت له كرامات وهو ووالده على قيد الحياة عند جمع هذا المجموع. نفع الله به.

آل الشماخي

يذكر أحمد الشرجي في طبقاته أن نسب الشماخي يتصل بالفرع المذحجي، سعد العشيرة المعروف في اليمن، وأنهم حملوا اسم الشماخي لكونهم عرفوا به في حضر موت، ولا تزال لهذا الاسم بقية من الناس يعرفون به. وقد

طاب لأوائـل الشماخي المقام بزبيد، وتفردوا بعلم الحديث. ترجم الشرجي كثيراً منهم، وأورد الخـزرجي ترجمـة أحد أعـلامهم، منصور بن أبي الخـير الشـماخي، أستاذ المؤيد الرسولي في علم الحديث. قال:

«في سنة ٧٢٩ توفي الإمام أبي الخير منصـور بن أبي الخير الشـماخي، وكان فقيهـاً عالمـاً. وهو شيـخ مشايـخ الحديث بـاليمن، وأحد أعـلام الزمن. وكـان موصوفاً هو ووالده بجودة الضبط والإتقان، وعنهما انتشر علم الحـديث، وسمع عليـه السلطان الملك المؤيد سنن أبي داود سنـة ثلاث عشرة وسبـع مئة، وكـانت وفاته في يوم الثلاثاء خامس عشر ربيع الأول من السنةالمذكورة. رحمه الله.

ومنهم الفقيـه الماجـد رضي الدين أبـو بكـر بن عبـد الغفـار بن الفقيـه بن أحمد بن أبي الخير الشماخي المتوفى سنـة ٧٩٥، وكان رجـل الزمـان، وسيد أهـل بيته كلهم، وأكثرهم مـروءة، وأرجحهم عقلاً، وأكملهم فضـلاً، وكان فيـه نفع كثير لسائر الناس، ومروءة طائلة. رحمه الله. وحضر يوم دفنه خلق كثير، الوزير ومن دونه، يوم الخميس التاسع من شهر صفر. رحمه الله» ا. هـ.

ومنهم الفقيه شهاب الدين أحمد بن الفقيه و جيه الـدين، عبد الـرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبي الخيربن منصور الشماخي، المتوفى غرة شهر ربيـع الآخر سنة ٧٩٧. كان فقيهاً عارفاً متقناً، وحضر دفنه والقراءة عليه جمع كثـير من أهل زبيد وغيرهـم. وكان يوم وفاته يوماً مشهوداً» ا. هـ.

ومنهم الفقيـه وجيه الـدين عبد الـرحمن بن عبد الله بن أحمـد بن أبي الخـير الشماخي، المتوفى في يوم الأحد العـاشر من شهر شعبـان، وحضر دفنه عـالم كثير وكان شيـخ الحديث في مدينة زبيد. رحمه الله تعالى.

آل البريهي

هؤلاء علماء أعلام يتصل نسبهم بكندة، القبيلة اليمنية المنجبة. استقر قرارهم بإب، فكانت عشّ بلابلهم، ووكر عنادلهم، ومطلع أقمارهم، فأحبوها وأحبتهم. ولما وقع الخراب بمدينة إب الخضراء على يد علي بن مهدي توجع سيف السنة البريهي بما أصاب بلده وقال:

خليلي من ذا في الدنا عيشه طابا   فلا تحزنا إن ناب إب الذي نابا

واستمر مددهم العلمي وإشراقهم الروحي، من القرن السابع إلى القرن العاشر، وربما كان آخرهم هو صاحب طبقات صلحاء اليمن، الذي ذكر الأستاذ الحبشي أنه مجهول.

وأول من نذكره من أعلام هذا البيت هو سيف السنة أحمد بن محمد بن عبد الله البريهي، ثم السكسيرة، ثم الكندي سكن في إب، وأفضت إليه الرياسة فيها. جمع بين الزهد والورع، وعلم القرآن والحديث. ارتحل إلى مكة وسمع فيها صحيح مسلم في سنة ثمانين وخمس مئة، ورجع إلى مدينة إبّ، ثم نزل الجند، واجتمع إليه الأصحاب من طباوذي أشرق والشعبانية وأعمال الجند، وغير ذلك، فأسمعهم إياه في رجب بمدينة الجند سنة ٥٨١. ويقال: إنه وردت عليه مسألة نازلة فيمن حلف على مال إمرىء مسلم، فاقتطعه متعمداً، وعلى أمر لم يكن، وقد كان متعمداً لذلك، فأجاب فيها أن ليس عليه إلا كفارة فقط وخالفه فيها الفقيه محمد بن أحمد بن عمر، فتنازعا في ذلك فيقال إن الفقيه أجاز أصحابه كلهم دونه.

ولهذا الفقيه قصائد في الزهد وغيره، فمن قصيدة له قوله:

إن لص عقلي في التشاغل سارق   وقد جاءني بالنعي في اليوم طارق

أتى منذراً لي بارق الموت منذراً   وكل سحاب ممطر فيه بارق

وله أيضاً

أترجو وقد جاوزت ستين حجة لذاذة عيش، إن ذاك من الجهل
يريك الهوى أن القوى فيك كالقوى بمقتبل غض الشبيبة أو كهل

وله أيضاً أيام هدمت مدينة إب:

خليلي من ذا في الدنيا عيشه طابا فلا تحزنا إن ناب إب الذي نابا
فلآم في الفردوس ما طاب عيشه ولا طاب في الدنيا، وإن كان قد تابا

وتفقه به ابنه إسماعيل بن أحمد، ومحمد بن علي بن أسعد المغائي، وغيرهما». ا. هـ.

وإذا كان صاحب البيت أدرى بالذي فيه، فها نحن الآن نصغي إلى ما يرويه لنا البريهي عن أخوين عظيمين من هذه الأسرة المباركة، أولهما: أبو العباس أحمد بن أبي بكر بن أحمد بن محمد بن يحيى البريهي، الذي ما رأت عين أهل وقته أزهد منه في يقظة ولا منام، ولا عاينت أكثر اتباعاً منه لشرائع الإسلام المتلقاة من الشارع، عليه أفضل الصلاة والسلام.

وكان ـ رحمه الله تعالى ـ عابداً صالحاً زاهداً، قرأ على خاله وابن عمه الفقيه صفي الدين أحمد بن حسن البريهي، والفقيه عفيف الدين عبد الله بن محمد الكاهلي، والفقيه رضي الدين الشيبي، والإمام نفيس الدين العلوي، والإمام مجد الدين الفيروز آبادي، والمقرىء ابن عياش الوافد إلى اليمن، والمقرىء عفيف الدين عبد الله بن محمد الشنيني وسافر إلى مكة المشرفة، فأجاز له جماع من الفقهاء والمتحدّثين بالحرمين الشريفين، منهم: المراغي والكازروني والشريف النسيب تقي الدين المالكي، وغيرهم، ولبس الخرقة من الشيخ تقي الدين العراقي.

عاش رحمه الله تعالى على طريقة السلف الصالح، من الاشتغال بالعلم

والعمل، والورع، وبذل نفسه للطلبة. وانزوت عنه الدنيا في شبابه، وكان معظم قوته من أجرته على تحصيل كتاب الله تعالى وكتب الحديث والفقه، فإذا جمع من ذلك ما يسد به خلته، حصل لنفسه كتباً عشرة بخطه. وبورك في عمره، واجتمع له جملة صالحة من الكتب النفسية، كتبها وحشاها وضبطها أحسن ضبط، حتى صارت كتبه أمهات كتب أهل الوقت. وكان معظم أوقاته ينعزل عن الناس، ودأبه الخلوة في بيته وفي مسجد الإمام سيف السنة، يقوم معظم الليل أو كله ابتدأ بالتدريس بعد وفاة خاله وابن عمه الفقيه صفي الدين أحمد بن حسن البريهي، وقام بمكانه، مدرساً نحو ثلاثين سنة، وانتفع به جماعة كثيرون، قلّ من قرأ عليه إلا وانتفع.

وظهرت له كرامات كثيرة، ما أخبرني به بعض أولاده ووجدته بخطه: أنه حمل كتاباً لشيخه المقرىء عفيف الدين الشبنيني بمدينة إب، بعد انتقال المقرىء إلى تعز، وكان واقفاً ببابه، فسمع كأن المقرىء يناديه، قال: فدخل ذلك الصوت بمسامعي وأعضائي، ولزمني شبه الرعدة، وقلت هذا صوت المقرىء لا شك فيه، وأظنه جاء من تعز. وقام الفقيه من ساعته، فنظر عند بابه وحوالي بيته فلم ير أحداً، فرجع إلى بيته. فلما استقر مكانه سمع صوت المقرىء كالصوت الأول، فقال الفقيه لأولاده ومن حضره: هذا صوت المقرىء وقد سمعته مرتين. قوموا بنا حتى ننظره. فاجتهدوا في البحث والسؤال عن المقرىء فلم يروه، فرجع الفقيه إلى بيته، فسمع صوت المقرىء، فرجع الجواب منه يذكر فيه: إني لا أزال أذكرك وأدعو لك، وإني طالعت في الكتاب الذي حصلت لي، فوجدت فيه ثلاث أماكن تحتاج إلى إصلاح، كان ذلك مني في ساعة واحدة، صدر مني ما سمعت.

وكان الفقيه رضي الدين كثير الإخوان والأصدقاء من الأخيار، يوصيهم بالدعاء على ظهر الغيب. فأخبر بعضهم أنه رأى النبي ﷺ في المنام، فقال له: يا سيدي يا رسول الله، إنّ لي صاحباً أو قال صديقاً وقد أوصاني إليك بالسلام،

وهو من حملة العلم الشريف، وحسن الطريقة. يحب الله ويحبك يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: أهو أحمد بن أبي بكر؟ فقلت: نعم. فقال رسول الله ﷺ: اقرئه عني السلام، وأنا راضٍ عليه والله راضٍ عنه لرضا أبويه عنه، وبره بهما، وحسن ظني بما ذكرني عنده، ورأى هو النبي ﷺ أنه يطرد الذباب عنه، وسأله عن أبي سعيد الخدري: أهو منسوب إلى خدرة؟ فقال له: نعم قال: ورأى في لحيته ﷺ شيباً كثيراً، ورأى أنفه ﷺ طويلاً. وللفقيه صفي الدين فضائل ومبشرات وكرامات ذكرت بعضها في الأصل مما لا يحتمله هذا المختصر.

وكان آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، وعمر المساجد والمدارس في المدينة المذكورة عمارة جيدة وهيأ الله له من عانه على ذلك. وكان في القلوب محبة عند الناس وهيبة، وامتحن بالقضاء لمدينة إب بعد شدة امتناعه عن ذلك، فسلك في أهل البلدة مسلكاً حسناً، وسار فيها سيرة السلف الصالح، وتورع عن ما اعتاد القضاء أخذه، ولم يقدم على شيء فيه بشبهة.

توفي رحمه الله من ألم البطن سنة ٨٢٥، ودفن بالمشهد حيث قبر الشيخ العراقي إلى جهة الجنوب، ليس بينه وبينه حائل. أخبر الذي ألحده أنه كان يؤذن عند سد فرج المساهية بالطنين. قال: والفقيه يجيبه من القبر، ويقول كما يقول. وكانت عادة الفقيه في حياته المحافظة على إجابة المؤذن رحمه الله تعالى، ونفع به.

ورأى بعض الفضلاء بعد وفاة الفقيه صفي الدين أنه في الجنة، وأن سبب ذلك جمعه لكتاب (الأربعين النافعة في بيان رحمة الله الواسعة). وقد جمع أيضاً كتاباً على التنبيه سماه (النظائر)، يحتوي على المسائل المشبهة والخلاف المتناظر على التنبيه، وإن كان يحفظه. وشرح خطبة منظومة الحاوي، وجمع مسائل في القرآن، وعلق تعاليق نافعة جمعها من كتب كثيرة، انتفع به الطلبة، رحمه الله ونفع به.

ومنهم أخوه شيخنا القاضي الأجل العلامة، جمال الدين محمد بن أبي بكر البريهي. كان رحمه الله إماماً في علم النحو، ومجوداً في علم الحديث والفقه. وربما متأنياً في الأمور. أخذ الفقه عن ابن عمه و خاله الفقيه أحمد بن الحسن البريهي، والفقيه عبد الله بن محمد الكاهلي، والأمير شمس الدين فيروز، والحديث عن الإمام نفيس الدين العلوي والشيخ مجد الدين الفيروز آبادي، وامتحن بالقضاء بمدينة إب بعد وفاة أخيه، فسلك الطريقة المحمودة التي مضى عليها السلف الصالح. وكان يصدع بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا يلتفت على أهل الرئاسة، ولا يداهن بما يتوجه من الحقوق عليهم. ولقد كنت أحضر مجلس حكمة، فأجد كلامه كله حكماً، ورأيه صواباً، وشوره مغنماً، وعاقبته إلى خير مآل.

عاش رحمه الله تعالى على سجية واحدة، وكان قبل توليته القضاء ملازماً لطلب العلم الشريف، درساً على من هو أفقه منه، وتدريساً لمن هو دونه. وكان غالب قوته من البيع والشراء، مع الصدق والأمانة وتجنب الخيانة، وطيب المعاملة، والورع الذي قد طوى في هذا الدهر بساطه. ولم يزل القاضي جمال الدين المذكور على الحال المرضي مجاب الكلمة، مسموع القول، مقبول الشفاعة، مشاراً إليه بالخير والصلاح والدين الحنيف، إلى أن توفي بشهر رمضان سنة ٨٣٨، وقد قبر بالمشهد بجنب ولده القاضي صفي الدين ملاحقاً له. وقبره معروف هنالك يزار ويتبرك به، رحمه الله ونفع به.

آل الأصبحي

سنعيش في هذه الأسطر مع أسرة أو أسر وحدها الاسم الواحد، إذ أن الأصابح قبيل كبير باليمن تعددت فروعه وتكاثرت بيوتاته. وليس المهم هنا توحد النسب أو تعدده، وإنما المهم هو إبراز الدور العلمي والروحي العظيم الذي تم على أيدي الرجال، الذين سنذكرهم في هذا الموقف؛ إذ أنهم كانوا

كباراً في العلم، ثابتين في الولاية. تخرج على الواحد منهم عشرات العلماء، وامتد نشاطهم من تعز إلى بعدان، ومن أصاب إلى الجند ومشارقة، فأولهم هو أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الأصبحي، ترجمه الخزرجي فقال:

«وفي سنة ٦٩١ توفي الفقيه الإمام الفاضل أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن محمد بن منصور الأصبحي، وكان فقيهاً كبيراً، عالماً عارفاً، محققاً مدققاً، موفقاً في الجواب، مبارك التدريس. تفقه به جمع كثير من نواحٍ شتى، وله عدة مصنفات، منها (المصباح مختصر في الفقه، والفتوح في غرائب الشروح، والإيضاح في مذاكرة التنبيه، والوسائل والترجيح، وفضائل الأعمال، والإشراف في تصحيح الخلاف. وكان الناس قد عكفوا عليه حتى ظهر كتاب (المعين) تصنيف تلميذه أبي الحسن علي بن أحمد الأصبحي، فاشتغل الطلبة وغيرهم بالنظر فيه عن غيره.

وكان هذا الفقيه رجلاً عابداً زاهداً متورعاً، كثير التلاوة للقرآن، وكان راتبه كل يوم من الأسبوع سبعاً من القرآن، وفي شهر رمضان ستين ختمة، يقرأ في كل يوم ختمة، وفي كل ليلة ختمة. فلما جاء شهر رمضان الذي توفي منه عقيبه، ختم خمساً وسبعين ختمة.

وكان شديد الورع من صغره، لا يأكل إلا ما تحقق حله. ولقد أقام في مصنعة سير فوق عشرين سنة لا يأكل طعاماً، إنما يأكل من كيلته من وقف وقفة القاضي أبو بكر بن أحمد على من يدرس في جامع المصنعة، وكان كثير العبادة، وزيارة الصالحين والمساجد المباركة.

وممن تفقه به: الإمام أبو الحسن علي بن أحمد الأصبحي، والفقه عبد الوهاب ابن الفقيه أبي بكر بن ناصر، وعبد الله بن سلم، وأبو بكر بن الليث، ومحمد بن أبي بكر ومحمد ابن عبد الله بن أسعد العمرانيان، وغيرهم. وكانت حلقته تجمع أكثر من مئة فقيه في غالب الأوقات، ثم ضاقت به المصنعة فانتقل

عنها إلى مدينة إب، فتلقاه أهلها بالإجلال والإكرام، واحتملوا من جاء معه من الطلبة، وقاموا بكفاية الجميع ما داموا منقطعين.

وتوفي على أحسن حال، يوم الجمعة السادس من شوال من السنة المذكورة، رحمه الله، وعمره يومئذ تسع وخمسون سنة، وقبر إلى جنب قبر الإمام سيف السنة. ورآه بعض الفقهاء بعد موته في المنام، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: أخذ بيدي وأدخلني الجنة» ا. هـ.

وهذا هو الإمام الثاني الذي تفرد بالتآليف المفيدة والتصانيف النافعة، أبو الحسن الأصبحي. ترجمه الخزرجي فقال: «توفي الفقيه الإمام العلامة أبو الحسن علي بن أحمد بن ألسعد بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن أبي الفتوح بن علي بن صبح الأصبحي. وكان مولده لخمس بقيت من ذي الحجة سنة أربع وأربعين وست مئة، وتفقه بالفقيه عبد الوهاب بن الفقيه أبي بكر بن ناصر، ثم بابن خاله محمد بن أبي بكر، وعليه أتقن الفقه وحققه، فكان غالب قراءته عليه بالمصنعة، يختلف إليه من الذنبتين كل يوم اثنين وكل خميس، وقد يقف في المصنعة الأيام ذوات العدد، ثم لما أكمل الفقه أخذ عنه كتب الحديث أيضاً.

وكان من المحققين للفقه، العارفين به. لم يكن له نظير في عصره، وتصانيفه الموجودة تشهد بذلك. ومن تصانيفه: (المعين)، و(غرائب الشرحين)، و(أسرار المذاهب). وكفى بالمعين شاهداً. وله فتاوى كثيرة مشهورة.

وكان فقهاء عصره جميعاً يرجعون إلى قوله، ويسألونه ويعتمدون جوابه. وكان جميل الخلق دائم البشر، حسن الإلفة، محب الأصحاب، ويتألفهم، ويعجبه اجتماعهم، وله كرامات كثيرة ومكاشفات. وأجمع أهل عصره على ورعه وزهده، ونزاهة عرضه، وأنه يقول الحق ولو على نفسه.

وتفقه به عدة من أهل عصره من نواحي شتى، منهم سعيد بن أبي بكر وسعيد المسعودي، وعمر الجيشي، ومحمد بن جبير وإسماعيل بن أحمد الخلي،

ومحمد بن علي وعمه حسن، وهما من العماكر، وعبد الله بن عمر بن أيمن، وأبو بكر بن المقري من أهل تغر، وأبو بكر بن هاشم السلماني، وأبو بكر المغربي من الجند، ويوسف النعمان، وهؤلاء شهروا، وقد أخذ عنه جمع كثير من غيرهم.

ودرّس في المدرسة المظفرية أياماً قلائل، ثم امتنع من التدريس بها. ومن غريب ما يروى عنه: «أنه خرج يباشر أرضاً له للزراعة وفيها إنسان يحرث على ثورين له، فنظرها ملياً ثم سأل الغلام الذي يحرث له عن الماء، فأشار إلى مكانه، فوجد عنده حنشاً، فقتله الفقيه، وإذا بالفقيه يجد نفسه في أرض لا يعرفها، بين أقوام لا يعرفهم، لهم خلق غريب، ومنهم من يقول للفقيه: قتلت أخي، وبعضهم يقول: قتلت أبي. ففزع الفقيه منهم فزعاً شديداً، فدنا منه شخص وقال له: قل أنا وبالله وبالشرع، فقال: أنا وبالله وبالشرع، فمضى هو وهم حتى أتوا داراً، فخرج إليهم منها شيخ على هيئة الرخمة البيضاء، فقعد على شيء مرتفع، فادعى عليه بعض أولئك، فدنا منه صاحبه الأول وقال له: قل: ما قتلت إلا حنشاً، فقال: ما قتلت إلا حنشاً. قال قاضيهم: سمعت بأذني هاتين من رسول الله ﷺ وهو يقول: «من تشبه من الهوام فلا قود عليه ولا دية. قال: فسقط في أيدي القوم، فتأخروا عنه وتركوه وإذا بالفقيه في موضعه عند الماء الذي يريد أن يشرب منه. قال: فلما رجع إلى الغلام الذي يحرث قال له: إني رأيتك واقفاً عند الماء، ثم لم أرك بعد ذلك، ثم ماعتمت حتى رأيتك الساعة في موضعك، فأين كنت؟ قال: ما كان شيء مما ذكرت، وما كان إلا خيراً، إن شاء الله تعالى[1].

وكان الفقيه مسدد الجواب، موفقاً للصواب، وانتفع الناس بكتبه التي صنعها نفعاً عظيماً، وطارت في البلاد، وارتحل بها إلى الأماكن البعيدة. وكان

(١) ذكر محمد أسد في كتابه (الطريق إلى الإسلام) حادثة مماثلة وقعت لرفيقه زيد بن غانم الشمري ص ٢٥٦.

الملوك يجلونه كثيراً، وسامحه السلطان الملك المظفر في أرض له، ثم سامحه الملك الأشرف بأكثر مما سامحه أبوه.

وكان وجيهاً عند الخاص والعام، وإليه انتهت الرئاسة في اليمن أجمع. وكانت وفاته في ليلة الأربعاء الرابع عشر من المحرم من السنة المذكورة، رحمه الله تعالى» ا. هـ.

أما من ذكره البريهي منهم فعلي بن عمر بن منصور الأصبحي، قال: «حكي أنه خرج من قريته الزريبة هو وأخوه الإمام رضي الدين الآتي ذكره، لطلب العلم في صغرهما. فقصد الفقهاء من أهل (الحرف) في ناحية وصاب، فقرأ على الإمام وجيه الدين عبد الرحمن الحبيشي المقدم ذكره، وعلى ولديه النجيبين محمد وأحمد، فأجازوا لهما، ثم رجعا بلديهما.

فأما المقرىء علي فإنه سكن بالنضارى، فدرس وأفتى وكان يغلب عليه القراءات السبع، وأشهر غاية الشهرة، وألقى الله له المحبة في القلوب، فانقاد له جميع أهل دبعدان وولاة الأمر وغيرهم، فعلت كلمته وامتثل أمره. ولم يزل على الحال المرضي مجتهداً بالعبادة، ناشراً للعلم، إلى أن توفي سنة تسعين وسبع مئة، أو قبلها بقليل أو بعدها بقليل، والله تعالى أعلم.

وأما الثاني فهو الإمام العالم الولي رضي الله أبي بكر بن عمر بن منصور الأصبحي المشهور بالشنيني فقد تقدم من مشائخه عند ذكر أخيه ما يغني عن الإعادة، وقرأ على الإمام العلامة أبي إسحاق علي بن أبي بكر بن شداد المقرىء، وأجاز له ولولده النجيب محمد ثم إنه لزم الإمام جمال الدين الريمي، واجتهد بالقراءة عليه بمدينة زبيد. وبمدينة تعز، وفتح عليه بعلم الفقيه أكثر مما فتح على أخيه، وشارك بغيره من سائر العلوم، فسكن قرية المحفد، المكان الذي تحت جبل عقدة، ووهبه المشائخ بنو ناجي أرضاً جليلة، نافعة وأحسنوا إليه غاية الإحسان. فتصدر للتدريس والفتوى، وأقبلت عليه الدنيا، فلم بقبل منها إلا ما

تحقق حله . ثم انتقل من المحفد إلى قرية شنين ، البلدة المعروفة بالسحول التي نسب إليها ، فهو مشهور بالشنيني ، وليست أصل بلد أبيه وحده كما تقدم . فلما سكن بها تلقاه أهل البلد بالجلالة والاحترام ، فعلم به شيخ بعدان وهو الشيخ أبو بكر بن معوضة ، فنزل إليه إلى مكانه ، وأظهر من الفرح بوصوله ما هو اللائق بحاله ، وزاد في إكرامه . ثم نظر إلى البيت الذي يسكنه فرآه صغيراً غير لائق به ، فبنى له داراً واسعة الأركان على شكل الدار التي يسكنها رضي الدين ، ذلك الشيخ المذكور . فلما فرغ من عمارته حمل إليه كل ما يحتاج ، وملك رضي الدين ذلك الدار وما فيها ، وأطلق يده في الوقف بتلك الجهات فصرفها الإمام رضي الدين في مصارفها ، وواساه من ماله الحلال بما كفاه ، فأقام رضي الدين بشنين يدرس ويفتي ويجتهد في العبادة ، فانتشر ذكره ، وقصدته طلبة العلم الشريف من وصاب ، ومن بيضاحصي ، ومن حضر موت ، ومن المخاليف جميعها . فكان يقرئهم من العلوم ، ويقريهم الطعام . وفتحت له الدنيا ، فكان ملبسه منها إزاراً ورداءً ، فلا يتعمم ولا يتطيلس . زهداً منه . وإذا رأى محتاجاً واساه بما يحتاج إليه ، وإذا دخل سوق المخادر قضى حوائج المسلمين بنفسه ، لمن يعرفه ولمن لا يعرفه وكان ذا جاه عريض ، مقبول الشفاعة عند كافة المشائخ من القبائل بجهاته . واشتهرت له كرامات في حياته وبعد وفاته ، شاهدها كثير من الناس رحمه الله تعالى ونفع به» .

آل اليحيوي

برز من هذا البيت أربعة أعلام جمعوا بين وزارة الدولة والقضاء العام . كان عماد بنائهم أبو بكر بن محمد اليحيوي على جانب من العلم والصلاح ، كما كان من أوائل الواقفين على طريقة ابن عربي بواسطة ابن حسان المقدسي وابن البانة . وعلى كل ما قيل ويقال في طريقة ابن عربي ، فإن المتواتر من أخبار أبي بكر اليحيوي وولده وابن أخيه ، يشهد بصلاح الأعمال ، واستقامة النهج . وقد

كان لأبي بكر هذا علاقة وثيقة بالمؤيد داود بن يوسف الرسولي، ونفور من أخيه الأشرف الأول. ولما تغلب الأشرف على الحكم وتمكن من سجن أخيه المؤيد، لاذ أبو بكر بالجبال فراراً من الأشرف، وبعث إليه قصيدة حارة الأنفاس صخابة الأجراس، أنذره فيها أن حكمه لن يعدوَ عشرين شهراً، وكان الأمر كما قال، فما كاد الشهر العشرون ينتهي حتى صرخ الصارخ بوفاة الأشرف، وأخرج المؤيد من السجن إلى سدة الدولة. والأبيات المعنية هي:

فاحكم بما شئت، إن صبراً وإن عملاً ... فالأمر أقرب من فعل على بال

فليس شهران مما يقتضي عجلاً ... إن كنت تسمع فانظر صدق أقوالي[1]

عشرون شهراً توالي لا تجاوزها ... وليس آخرها يقضي بإكمال

ويدخل الدار من لا ترضيه لها ... فصائح منكم يدعو بأعوال

وخده بالجد، لا هزلاً ولا كذباً ... فليس ذا القول من أقوال هزال

وما ذلك إلا من العلم اللدُّني الذي يؤتيه الله من يشاء من عباده، فسبحان الخبير بخلقه. وإليك ما قاله الخزرجي عن صاحبنا أبي بكر:

«في سنة ٧٠٩ توفي الفقيه الإمام الفاضل رضي الدين أبو بكر بن محمد بن عمر اليحيوي، وكانت وفاته في مدينة زبيد، وكان مولده في شهر رجب من سنة ست وأربعين وست مئة، وكان تفقه بأبيه غالباً، وبغيره كابن البانة وغيره، وحج مكة فلقي فيها جمعاً من الأكابر، وانتسخ كتباً من كلام ابن العربي الصوفي، فعكف عليها واعتقد ما فيها. ثم لما عاد إلى اليمن أقبل عليه أعيان الأمراء والملوك والخواتين، وصار لهم معتقد عظيم. ونقل أصحابه عنه أموراً تدل على صلاحه وجلالة قدره، فحصل بينه وبين الملك المؤيد ائتلاف، وصحبة قبل مصير الملك إليه، اعتقد صلاحه اعتقاداً جاوز الحد. وكان مظهراً لإقامة المعروف والنهي عن المنكر، وإبطال الخمر، وما شابهه. ولم يكن السلطان مغيراً ما

---

(١) يظهر من هذا البيت أن القصيدة نظمت في الشهرين الأخيرين من حكم المؤيد.

فعله اعتقاداً أن ما فعل هو الصواب. وله أشعار معجبة. ويقال: إن بإشارته انتقلت الأوقاف من حكام الشرع إلى أرباب الدواوين، ولم تكن قبل إلا إلى حكام الشرع الشريف. وكان نزوله إلى زبيد في سنة ثمان وسبع مئة، فأقامها إلى أن توفي في ليلة الخميس لعشر بقين من شهر ربيع الآخر من سنة تسع المذكورة. وحضر دفنه أخوه القاضي موفق الدين علي بن محمد بن عمر الصاحب، نزل منزعجاً عليه من تعز فأدركه منزولاً به. وقبر إلى جنب قبر الشيخ الصالح علي بن أفلح في مقابر باب سهام. رحمه الله تعالى» ا. هـ.

وترجم أيضاً لابن أخيه فقال: «في سنة ٧١٢. توفي القاضي جمال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن عمر اليحيوي، وهو الذي كان ينوب عن القاضي موفق الدين الصاحب في قضاء الأقضية، فكان يباشر الأحكام، ويفصل القضاية لا يعارضه أحد، وكان الغالب عليه سلوك طريق الزهد بحيث أن أكثر أهله وأصحابه يقولون عنه إنه لم يكتسب شيئاً من الدنيا. وكان عمه أبو بكر هو الذي يربيه، ولم يصر إليه أمر القضاء والوزارة إلا بعد أن تفقه وتعبد وحج، وجاور في مكة والمدينة، وعرف الناس يمناً وشاماً وحجازاً. ولم يكتسب شيئاً من الدنيا كما اكتسب أهله أجمعون، ولا تزوج امرأة قط، وكانت إشارته من إشارة عمه أبي بكر وعلي، ولم يخالفاه وفي أصحاب عمه أبي بكر جماع يعترفون له بالصلاح، وربما يفضلونه على عمه أبي بكر. وقال الجندي: كانت وفاته يوم الخميس تاسع عشر ذي القعدة من السنة المذكورة، والله أعلم. وفيها توفي القاضي موفق الدين الصاحب علي بن محمد بن عمر اليحيوي المعروف بالصاحب، وكان رجلاً كاملاً رئيساً فاضلاً فقيهاً، نبيهاً فصيحاً شهماً. ولي الوزارة والقضاء في الدولة المؤيدية إلى يوم وفاته، وكانت وفاته يوم الثالث من ذي الحجة من السنة المذكورة رحمه الله» ا. هـ.

«ومنهم الفقيه البارع أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمر اليحيوي المتوفى في سنة ٧٢٧، وكان مولده في السابع عشر من ذي الحجة، من

سنة أربع وسبعين وست مئة. وتفقه وولي قضاء الأقضية في سنة أربع عشر وسبع مئة، فقام كقيام أبيه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وكان عالي الهمة، شريف النفس، يقوم بالمنقطعين من أهل العلم وغيرهم، وعمد في أيامه مآثر جيدة، لم يعملها أحد من أهله ولا من غيرهم، وجلب الماء إلى المدرسة الشمسية بذي عدنية بعد أن انقطع مدة. وتوفي مقتولاً صبراً على يد السبئي في شهر صفر من السنة المذكورة. رحمه الله تعالى» اهـ.

آل الحداد

كما تكاثر آل الأهدل والعلوي في اليمن وانتشروا، تكاثر آل الحداد في بقاع عديدة، منها في الجنوب، ومنها في الشمال، ولا يزالون حتى اليوم حملة علم وينابيع خير. وقد ترجم الشرجي لأبي الحسن علي بن عبد الرحمن الحداد من أهل حلي بن يعقوب، وذكر أغلب من أخذوا طريقه الصوفية في اليمن كانوا تلامذته، وأثنى على علمه وصلاحه وجلالة شأنه، كما ذكر خبر زريع الحداد من أهل النظاري ببعدان، وما كان له من الكرامات الظاهرة، والمناقب المتكاثرة.

وإذا ذهبت إلى بعض قرى زبيد وبعض قرى شمير وبعض قرى إب[1]، فستجد الخير الكثير، والناشئة من آل الحداد.

وأهم رجال هذا البيت المبارك هو الولي المشهور والمصلح المذكور، أبو بكر علي الحداد. توفي سنة ٨٠٠، ومن تأليفاته النافعة (كشف التنزيل في تحقيق التأويل)، يعرف بتفسير الحداد، وشرح منظومه النسفي، وهي منظومة في الخلافيات. وإذا وقفت على قبر أبي بكر الحداد جنوبي مدينة زبيد، فستجده في بطن وادٍ يندفع السيل عليه، ويحيط به من الشمال والجنوب دون أن يضر المسجد

(١) آل الحداد بإب قضاة وغيرهم علويون.

والضريح، وتلك كرامة ظاهرة باقية لذلك العالم الفاضل. ترجمة الشوكاني فقال:

«أبو بكر بن علي الحداد الزبيدي الحنفي. قرأ على والده وعلى علي بن نوح، وعلى علي بن عمر العلوي، وبرع في أنواع من العلم، واشتهر ذكره، وطار صيته، وصنف مصنفات في فقه الحنفية، منها: شرحان لمختصر القدوري، صغير وكبير. وجمع تفسيراً حسناً هو الآن مشهور عند الناس، يسمونه تفسير الحداد، وله مصنفات كثيرة تبلغ عشرين مجلداً. ومات سنة ٨٠٠، وله زهد وورع وعفة وعبادة».

آل سود ومنهم آل أبي حربة

الولي سود بن الكميت من أولياء القرن السابع نسبه في قهب بن راشد من عك، كما ذكره الشرجي. وترجم للعلماء من ذريته، وهم المعروفون بأولاد أبي حربة. كانوا يسكنون بجهة أسماها الخزرجي الواسط بوادي مور، وهو المكان الذي دفن به الولي الصالح أبو بكر بني حربة[1]. ومن آل السودي حسن بن أبي بكر بن حسن السودي. توفي سنة ٧٠٤. ذكر الخزرجي أن آل رسول كانوا يكرهونه لقربه من الإمام محمد بن مطهر، وأنه كان ينقم على الصوفية الرَّقص، ولذلك فقد كان غير محبب لدى الفقهاء والصوفية، أما أبو حربة فهذه ترجمة مختصرة له كما ذكرها الخزرجي. قال:

«في سنة ٧٧٤ توفي الفقيه الصالح المشهور أبو بكر بن محمد بن يعقوب السودي المعروف بابن أبي حربة، كان أحد علماء الحقيقة، ومشايخ الطريقة، عالماً عاملاً، له كرامات مشهورة. وكان فصيحاً يطعم الطعام، ويكفل عدة من الأرامل والأيتام. توفي في جمادي الآخرة من السنة المذكورة، في قرية الواسط من قرى مور، ودفن بها. وكان يوم وفاته ودفنه يوماً مشهوداً. رحمه الله» ا.هـ.

---

(١) وفي الشرجي أنه دفن بالمريخية بوادي مور.

وللشيخ أبي بكر هذا دعاء مبارك، يتداوله علماء وفضلاء تهامة في مساجدهم وأسمارهم عند توديعهم لرمضان. ولست أدري ما إذا كانت النسبة بين أبي حربة وبين من ترجمناه قبله عن الخزرجي، أهي نسبة إلى الجد سود؟ أم إلى السودة من حاشد؟ ونضيف إلى آل السودي الولي المشهور والصالح المصلح عبد الهادي السودي، الذي لا يزال قبره مشهوراً مزوراً بتعز حتى اليوم. قال الشوكاني في ترجمته:

«عبد الهادي بن محمد السودي ثم الصنعاني الصوفي، الشاعر المشهور. ولد في نيف وسبعين وثمان مئة، ونشأ بصنعاء، وقرأ بها الفقه وغيره، ثم لحقته جذبة، فخرج هائماً من صنعاء، وسكن مدينة تعز. وذكر الإمام شرف الدين أنه إنما حصل له الهيام بسبب أكله للقات. وله شعر حسن فمنه:

كيف حاروا فيك واعجباً ... يا منى سمعي ويا بصري
أنت لا تخفى على أحد ... غير أعمى الفكر والنظر
حيرة عمت، وأي فتى ... رام عرفاناً ولم يحر؟!

ومنه:

لا وقد منك معتدل ... عن غرامي فيك لم أمل
ليس لي عطف على أحد ... لا، ولا ميل إلى بدل
بك يا سؤلي ظفرت، فلم ... التفت للدار والطلل

ومنه:

عاذلي في الحب أو خطره ... لست من ليلى ولا سمره
أنا في واد أظنك ما ... قلت في الأفياء من شجره
لا تطل فيه الملام إلى ... أن تذوق الحلو من ثمره
يا حلول الشعب من أضم ... أنشقوني النشر من زهره

وفي هذا الشعر من شعر أبي نواس. وكان صاحب الترجمة في أيام الإمام شرف الدين، ومات سنة ٩٣٢» ا. هـ.

ولم يوضح الشوكاني ما إذا كانت نسبته إلى سود بن الكميت أم إلى السودة المعروفة بحاشد[1].

آل الحكمي

كثيرة هي البقاع التي تحمل اسم قبائل يمنية عرفت بحكم. ذكر صاحب صفة جزيرة العرب أن حكماً توجد بالسودة وبأرحب، وكلاهما همداني. وحكم ـ بإسكان الكاف ـ توجد في بلد بني مجيد جهة موزع والمخا، معروفة حتى اليوم بهذا الاسم. أما الحكم بن سعد العشيرة ـ وهو البطن اليمني المبارك الموجود بجهة المخلاف السليماني وحرض وجازان، وما جاورها ـ فإليه هذا البطن ينسب آل الحكمي، الذين كثر فيهم الأولياء الصالحون العلماء العاملون، وعلى رأسهم أبو الحسن علي بن قاسم العليف الحكمي الحرضي، وقد سبقت ترجمته في الأفذاذ نقلاً عن الخزرجي، ونضيف إليه هنا بعضاً مما ذكر الشرجي في طبقاته. قال:

«كان إماماً كبيراً عالماً عاملاً، تفقه ببلده مدينة حرض، ثم أخذ عن الفقيه إبراهيم بن زكريا مقدم الذكر، ثم لزم الفقيه محمد بن يوسف الضجاعي الضرير. وانتفع به جمع كثير، ونشروا عنه العلم في البلدان. قال الجندي: أخبرني الثقة أنه خرج من درسه ستون مدرساً. وكان يقال له: الشافعي الصغير. وله مصنفات في فنونه من العلوم مفيدة مباركة. وكان ذا زهد وورع وكرامات، لوزم على قضاء زبيد فامتنع من ذلك، ثم لوزم على التدريس في بعض مدارس الملوك فامتنع أيضاً، فرسم عليه في ذلك، وأقام في الترسيم أياماً،

(١) قال صاحب النور السافر: إنه من سودة شضب على ثلاث مراحل من صنعاء وينسب إلى بني شمّر من كندة وقد توسع في خبره وخبر حاتم بن أحمد الأهدل.

ثم استدعاه السلطان ولازمه على التدريس بمدرسته، فكره ولم يفعل، فقال السلطان للمترسمين: اسحبوه، فسحبوه حتى اختنق بقميصه، فقال: يا قميص اخنقه، يعني السلطان، فخنق السلطان. وعرف فضله وصلاحه.

هكذا ذكر هذه الحكاية الإمام اليافعي، ولم يعين السلطان، وأظنه المنصور بن رسول.

وكان الفقيه المذكور كثير التلاوة لكتاب الله. يقال: «إن راتبه كان في كل يوم سبع القرآن، أخذ ذلك عن شيخه إبراهيم بن زكريا» ا. هـ[1]

ومن ترجمه الخزرجي من أهل هذا البيت: الفقيه البارع أبو العباس أحمد بن سليمان الحكمي المتوفي سنة ٧٠٣. وكان مولده سنة خمس وأربعين وست مئة، وتفقه بصالح بن علي الحضرمي والديمي، وكان مشهوراً بالذكاء والفقه التام، وإليه انتهت رئاسة الفتوى في مدينة زبيد وأعمالها، وبه تفقه جمع كثير. وكان مدرس المنصورية بزبيد، ثم عزل عنها في أول سنة سبع وتسعين وست مئة، وذلك في أول الدولة المؤيدية. فلزم بيته، وأقبل على نشر العلم، تارة في بيته، وتارة في الجامع، إلى أن توفي سحر ليلة الاثنين من شهر شعبان من السنة المذكورة» ا. هـ.

ومن بقايا هذا البيت المبارك رجل صالح يدعى (حشيبر الحكمي). كان يقيم بإحدى جهات خبت حيس، تعرف بالمراويد. أخبرني الثقة أنه كان يجلس تحت شجرة، وإذا أصيب شخص بالحكة السوداء في رجله ذهب إلى حشيبر، فيضع على رجله تراباً فيبرأ لوقته بإذن الله. بقي هذا الرجل حياً حتى أوائل الربع الأخير من القرن الرابع عشر.

---

(١) كبير أولياء هذا البيت وهو محمد بن أبي بكر الحكمي صاحب عواجة بسَهام ترجمة الشرجي وأصلهم من مصبار حرض.

آل البجلي

كان يقول بعض شانيء بجيلة القبيلة المذحجية المعروفة:

لولا جرير هلكت بجيلة

نعم الفتى، وبئست القبيلة

وشاء الله أن تتفجر هذه القبيلة بالكثير الطيب من العلماء الأولياء، الذين عرفوا بآل البجلي، وهم جماعة كبيرة يصعب استيعابها، نذكر منهم هنا من يسر الله لنا ذكره، فمنهم كما قال الخزرجي:

«الفقيه الصالح أبو بكر بن يوسف بن عمر بن إبراهيم البجلي، وكان فقيهاً عارفاً فاضلاً محققاً، تفقه في بدايته بجدة على علي بن إبراهيم، ثم بخاله إبراهيم بن علي بن إبراهيم، وبعبد الله بن محمد الأحمر الخزرجي. وكان هو المشار إليه من البجليين بالفقه والتدريس والصلاح، وكانت وفاته في السنة المذكورة، رحمه الله تعالى.

ومنهم الفقيه العالم أبو العباس أحمد بن موسى بن علي الجلاد البجلي الفرضي الحنفي المتوفي سنة ٧٩٢. وكان فقيهاً فاضلاً في مذهب الإمام أبي حنيفة ـ رحمه الله تعالى ـ إماماً في الفرائض والجبر والمقابلة والحساب، له مصنفات مفيدة. أخذ عن والده وعن غيره، وانتفع به خلق كثير، لاسيما في الفرائض والحساب والهندسة. وكانت ولادته في الثامن والعشرين من ذي الحجة في آخر سنة سبع مئة، وتوفي في الثامن عشر من ذي الحجة من السنة المذكورة. رحمه الله تعالى».

وذكر البريهي في طبقاته جمال الدين محمد بن حسين البجلي فقال: «ومن أهل الجند القاضي جمال الدين محمد بن حسين [البجلي]. كان عالماً عاملاً. أصل بلده بجيلة. انتقل لطلب العلم، فقرأ على جماعة من الأئمة، وحضر مجلس التدريس للإمام مجد الدين الشيرازي، والفقيه نفيس الدين العلوي،

فأجازا له. وتولى القضاء بالجند، وكانت سيرته مرضية، وله شمائل مرضية. توفي بالعشر الأول من المئة التاسعة. رحمه الله».

وترجم الشرجي كبير هذا البيت، الولي الفقيه محمد بن حسين البجلي صاحب عواجة، وقال: إن بجيلة بنت عبس بن علك، والصحيح أنها بنت الصعب بن سعد العشيرة من مذحج. ولمحمد بن حمير مدائح كثيرة فيه وفي صاحبه الحكمي توفي البجلي سنة ٦٢١ هـ.

آل النهاري

المقر الأصيل لآل النهاري هو جبل ريمة[1] المبارك، وبه يوجد ضريح جد الأسرة ومؤسسها، الشيخ الولي العارف محمد بن موسى النهاري، من كبار علماء وأولياء القرن الثامن. انتشرت فروعه، وتعددت ذريته في الكثير من مناطق تهامة وغيرها. وأقرب من عرفت من صلحاء هذا البيت هو السيد عبد الوهاب محمود النهاري صاحب جورانة، من جبال شمير تابع ناحية مقبنة، فهو يقطع ليله ونهاره في العبادة وقضاء حاجة الوافدين، وله يد نافعة في تطبيب المجانين. ومن رآه وسمعه وعاش معه، رأى فيه الصورة الحية للأولياء الصالحين. وقد ترجم الخزرجي لكثير من آل النهاري فقال:

«في سنة ٧٤٧ توفي الشيخ الصالح العارف بالله محمد بن عمر بن موسى النهاري المشهور، صاحب الكرامات المشهورة، والمقامات المذكورة. ومن أوحد أهل زمانه علماً وعملاً، وأجمع الناس على صلاحه وزهده، وقلما وصله زائر إلا خاطبه باسمه واسم أبيه، واسم بلاده وأين مسكنه منها.

ومن كلامه رحمه الله تعالى: «الدنيا مدينتي، وجبل قافِ حصني، ومحضري من الفرش إلى العرش[2] والدليل على ذلك أني آتي الناس بأسمائهم

---

(١) قال الشرجي: إن النهاري سكن برع ودفن في ريمة وأنه حسني وأن بني القليص إخوانه أو أبناء عمه.

(٢) للأستاذ سعيد حوى في كتابه: (تربيتنا الروحية) اعتذار حسن عن مثل هذا الكلام.

وأسماء آبائهم، وما احتووه في قلوبهم، وأين مسكنهم. ومن صحبني وصحبته أمن من الفزع الأكبر، وأنا فقير، لا زرع ولا بقر، الماء والمحراب، والرزق على الوهاب.

اللهم خلصنا من المدر، وصفّنا من الكدر، وأنت عنا راض غير غضبان. يا ملك، يا ديان، اللهم هذه الأيادي واصلة متصلة بحبلك المتين الذي لا ينقطع، وحصنك المنيع الذي لا يتطلع، واجعل هذه الصحبة والإخوة في مقعد صدق، عند مليك مقتدر. اللهم من كادنا فكده، ومن تعدى علينا فاهلكه، واحمنا بحمايتك، لا حامي ولا ضائر لنا سواك. بذرنا حبيبات وعليك النبات بيت بيت.

وكان يقول: «وحق الحق، ومن له الحق، ومن سمّى نفسه الحق، صاحب الحوض وعدني بحوض، أشرب منه وأسقي من أحب، ونحن بين الروضة والمنبر». وكانت وفاته يوم الخميس سابع محرم أول شهور السنة المذكورة، رحمه الله تعالى».

آل القديمي

هم السادة الحسينيون المعروفون اليوم بجهة مدينة الزيدية التهامية. وقد ذكر الشرجي في طبقاته السيد إبراهيم بن أحمد القديمي، من كبار علماء وأولياء القرن التاسع، وأن مسكنه بالحرجة من وادي سردد. كما ذكر البريهي في ترجمته للولي الشاذلي صاحب المخا آل البحر المعروفين اليوم بالمنصورية، وبيت الفقيه يعودون لهذا البيت.

وممن ترجمه زبارة من علمائهم وفضلائهم في القرنين الثالث عشر والرابع عشر ثلاثة، أولهم: أحمد بن أبي بكر القديمي. قال: «السيد العالم أحمد بن أبي بكر القديمي التهامي الشقيقي. ينتهي نسب السادة آل القديمي والعلوي إلى الإمام الحسيني السبط ابن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، وجدود أهل هذه الثلاثة البيوت. كان خروجهم من العراق إلى اليمن في عصر واحد.

وصـاحب الترجمـة مـولـده بـالشقيق من تهـامـة الشـاميـة ، ونشـأ بهـا ، مـع أنـه سكن أسلافه وأهله من بيت القديمي في الزيـدية وفي الضحي من تهـامة. قـال عاكش رحمـه الله : وارتحـل صـاحب الـترجمـة عـلى كـبره إلى جهـة اليمن ، فـلاقى شيخنـا الحافظ عبد الرحمن بن أحمد البهكلي، ابتداء وصـوله إلى مـدينة بيت الفقيـه سنة ١٢١٢ ، فتلقاه بأحسن القبول، فأكب على طلب العلم بوفـور رغبة وعلو همـة ، فـبرع في الفقه والحـديث والنحو، وشـارك في سـائـر الفنـون ، وتعلق بـالأدب ، واشتغـل به إلى غـاية ، وكـان مجيداً في النـظم والنثر، وكـاتب بشعره الجيـد ، وكوتب. وما برح ملازماً حضرة شيخنا المذكور، مع قيـامه بـأموره عـلى ما يـروم . وتزوج هنـالك ، وكفـاه مهمات الـدنيا ، وكـان يستنيبه في فصـل كثيرمن القضـايا والأحكـام . وما رأيته يلاحظ أحداً مثل ملاحـظته لـه ، بالإجـلال والإكرام . ومـا زلت ـ أيام حضوري دروس شيخنا المذكور ـ أرى صاحب الترجمة في المقدم في تلك الحلقـة في حل ما أشكل من المسائل، مع أنه يحضر ذلك الدرس جماعة من أهل العلم. وهو من أحسن خلق الله تعالى ذهناً، وألطفهم طبعاً.

وثانيهم: هو السيد العلامـة الأديب الذكي أحمـد بن عبد الـرحمن، صائم الدهر القديمي. وصاحب الترجمة في سكنة مدينة الزيدية. مولده سنـة ١٢١٥ ، وأخـذ عن السيد عبـد الله بن الطاهـر وعن السيد أحمـد بن الطاهـر، في التفسير والفقـه والحـديث والسـير، وعن السيـد أحمــد بـن محسن المكي في العــروض والقوافي، وعن الفقيه عبد الله بن عيسى الدريهمي في النحـو، وبرع في كثـير من العلوم. وقد ترجمه مؤلف (نشر الثناء) الحسن تـرجمة بسيـطة، ذكر فيهـا نبذة من شعره ومقطعاته، وترجمة عاكش فقال: هو أديب الزمن والعـين الناظـرة في بلغاء اليمن، صاحب العجائب والغرائب، الفاتـح للمقفلات، والمبـين للمشكلات. رصف الأقوال، ونمقها، وكاتب أدباء عصره وكـاتبوه، ومـدح ملوك زمانـه برائق نظمه فأثابوه، واشتغل بعبادة ربه.

وكان حسن الأخلاق، شغفاً بنشر الفضائل، ذو مروءة، وسلامة خاطر،

وسعة صدر. سكن آخر مدته بندر الحديدة، وكان منزلـه منزل الأعـلام، ومحط رحال أولي الأفهام. وقـد جالستـه كثيراً أيـام إقامتـه بالبنـدر المذكـور، وذاكرتـه فوجدته الإنسان الكامل.

وثالثهم هو السيد العلامة الحافظ شيـخ الإسلام داود بـن عبـد الرحمن بن قـاسم بن محمد بن أحمـد بن سهمين بن عـلي بن الحسن بن المعافـا بن المـدني بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبكر بن حجر بن الحسن الملقب بالقديمي، الحسيني اليمني الزبيدي.

نشـأ في بلده مدينـة زبيد، وأخـذ عن السيد محمـد بن طـاهـر الأنبـاري، والسيد عبد الهادي بن ثابت النهاري، والشيخ محمد بن ناصر الحازمي، وأخذ في علم الحـديث عن القـاضي محمـد بـن عـلي العمـراني. وقـد تـرجم لـه القـاضي حسن بـن أحمـد عـاكش الضمـدي فقـال: أتقن علوم الآلآت عـلى اختـلاف أنواعها، بذهن مساعد، ورغبة بلَّغته من العلوم المقاصد. وتولى منصب القضـاء بمدينة زبيد مدة فحمدت سيرته، وشكرت في القضاء طريقته، مع ورع وعفاف، ورضا من المعيشة بالكفاف. ووقع عليه من بعض معـاصريه تحـامل، بسبب مـا صدع به من الحق في بعض أمور أوقاف زبيـد، وجرت من المتـولي لذلـك القطر أمـور كدرت منـه البال، فلزم بيتـه، واشتغل بخـويصة نفسـه، وسلم من القيل والقال، ورزق القبول عند أهل جهته، فما زالوا يتواردون إلى مكانه. وبعـد مدة أعيد إلى قضاء زبيد وهو على حاله المرضي؛ من القيام بالحق في فصـل الشجار، وعدم الالتفات إلى من يريد إمالته عن الوجه الشرعي. وصـار المرجـع في فصل القضـايا الشرعيـة؛ لما هـو عليه من التحـري في الأحكـام، والـورع عن تنـاول الحطام، فهو من قضاة العدل؛ صرامـة وورعاً ونـطقاً بـالحق، لا تأخـذه في الله لومة لائم. ولما وصلت إلى بندر الحديدة وهو المتولي للقضاء فيها، حصلت بيننـا وبينه مواقف عظيمة، في أثنائها تحصلت المـذاكرة العلميـة، والبحث عما أشكـل من المسـائل، فعـرفت منه العلم، وجـودة الفكـر. ولكنـه لشـدة ورعـه لا يحـل

الإشكال إلا على سبيل الاستفهام لمن حضر، مع أنه عنده من الواضحات. وما رأيت أخشى لله منه، مع كمال محافظته على صيام الأيام الفاضلات، والمثابرة على وظائف العبادات؛ من تلاوة وذكر، وغيرهما، ولوايح الصلاح على طلعته واضحة. وهو من أهل العقل الراجح، والسكينة والوقار، لا يكاد يخوض فيما لا يعنيه، ولا يساعد أحداً فيما ينافي الشرع. وقد تيسر له الحج والزيارة، والتقى بإمام وقته في التصوف السيد محمد عثمان ميرغني، وهو من أكبر تلاميذ الإمام أحمد بن إدريس المغربي. وقد سمعت شيخنا المذكور يطيل الثناء عليه، ويقول: «بلغ إلى مقام لم يصل إليه أكابر شيوخ الصوفية» ا. هـ.

ومن أعلام هذا البيت الكريم في القرن الرابع عشر السيد عبد الرحمن بن عبد الله بن إبراهيم القديمي. مولده سنة ١٢٥٤ هـ، ونشأ في حجر والده بمدينة الزيدية من تهامة، وقرأ القرآن على الفقيه أبي الغيث بن حسن ناخودة الحشيري، وأخذ عن السيد العلامة عبد الرحمن بن عبد الله الأهدل، في النحو والتفسير والحديث وغيرها. وعن السيد محمد بن عبد الله الزواك، في النحو والحديث والتفسير والفقه وجميع العلوم النافعة، وأخذ عن الشريف متحمر بن ناصر الحازمي، واستجاز منه. وحج سنة ١٣٧٧ حجة ثالثة، وأخذ عن السيد أحمد بن محمد الضحوي، واستجاز منه ومن السيد محمد نوري الإدريسي الحسني، ثم السنوسي المغربي في صحيح البخاري، واستجاز منه، وأخذ عنه، وأخذ عن غير هؤلاء، وقرأ في جميع العلوم النافعة، وصار له في جميعها اليد الطولى، وظهر بين الأنام كالعلم الكافل، واشتغل بمطالعة شرح المنهاج المسمى (تحفة المحتاج) لابن حجر الهيثمي، وقلده شيخه العلامة محمد بن عبد الزواك الفتياء والتدريس في وقت الشبيبة. فما زال يفتي ويدرس والمسائل ترد إليه من جهات شتى، فيجيب عليها بالأجوبة الجامعة والمؤيدة بالكتاب والسنة. وبذل نفسه للتدريس، فقصده الطلبة من عسير وغامد وزهران وبني شهر وغيرها. وقد تخرج على يديه كثير من الطلبة، ولم يكن له نظير في العلم من زبيد إلى مكة» ا. هـ توفي سنة ١٣٣٠ هـ.

آل الحبيشي

في جعار الحرف من بلاد وصاب الأعلى قامت أسرة علمية منتجة من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر، كان أولهم عبد الرحمن بن عمر الحبيشي[1] ناظم التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، الذي قال فيه الأول:

سقيا لمن ألف التنبيه مختصراً ألفاظه الغر، واستقصى معانيه
إن الإمام أبي إسحاق ألفه لله والدين لا للكبر والتيه

وقد اعتنى علماء اليمن بالتنبيه والمهذب واللمع، بين شرح ونظم وتحشيه، والعجيب أن يتسنى لعبد الرحمن الحبيشي نظم كتاب بحجم ودقة التنبيه. وكان آخرهم فيما علمنا شيخ الإسلام عبد العزيز بن محمد المتوفي سنة ١٠٤٢. وله الفتاوى الحبيشية ذات المكانة الفقهية لدى علماء اليمن.

ومن أحفاد عبد العزيز بن محمد: أحمد بن حسين المفتي الشاعر البليغ المشهور. ترجمه زبارة في نيل الوطر، وقد جمع البريهي كبار علماء آل الجبيشي فيما بين القرنين الثامن والتاسع، فقال مبتدءاً بترجمة عبد الرحمن بن عمر.

«نشأ يتيماً في حجر أمه، واشتغل في صباه بالشعر واللعبة، واشتهر بالفصاحة والبلاغة، فكان ينشيء الشعر العجيب وهو صغير حدث السن، ثم اشتغل بالفقه، فقرأ على جماعة من الشيوخ، منهم الفقيه عميد الدين عبد الله بن محمد بن أسعد والفقيه تقي الدين عمر بن عبد الله صالح اليحيويان، والإمام شهاب الدين أحمد بن أبي الخير الشماخي بالمعجمة. واستمر في المدرسة المؤيدية مدرساً في مدينة تعز، فأقام بها أياماً، ثم تركها ورحل إلى بلده، فأقام بها يدرس ويفتي، ثم تولى القضاء هنالك، فكان ـ رحمه الله ـ إماماً محققاً للفنون كلها، كالتفسير والحديث والنحو واللغة والأصول والفروع، وسائر العلوم. وكان

(١) قال الشرجي: إنه نظم التنبيه في عشرة آلاف بيتاً، ونسبهم في مذحج.

صوّاماً قوّاماً، ورعاً، مجتهداً، ألف كتباً كثيرة حسنة منها كتاب بلغة الأديب إلى معرفة الغريب، ومنها كتاب المعتقد بذوي الأبصار، ومنها كتاب الجدل بين اللبن والعسل، ومنها كتاب المعتقد لذوي الألباب والمعتمد في الآداب نظماً قدر ألف وأربع مئة بيت تقريباً، ومنها كتاب زهر البساتين في الدعاء على عدو الدين، ومنها (النظم والتبيان) نظم به كتاب التنبيه في الفقه ولم يكمله، وقيل: أكمله. وله غير ذلك من الخطب والآداب، وله مناقب وفضائل ذكرتها في الأصل مع شعر رائق. توفي رحمه الله تعالى ليلة السبت الثامن من شهر جمادي الآخرة سنة ثمانين وسبع مئة رحمه الله تعالى ونفع به. ودفن في التربة تحت مسجد قرية الحرف.

وانتهى له ثلاثة أولاد نجباء علماء فضلاء، ومنهم الفقيه العلامة الإمام، قدوة الصالحين بوقته وبركتهم، وصفوة العارفين وعمدتهم، السيد الجليل الكبير الشهير جمال الدين محمد بن عبد الرحمن. أُخبرت أنه ممن طابت له المحافد والمغارس، وأنارت بمصابيح علمه المساجد والمدارس. وكان عالماً عاملاً بعلمه، صالحاً جامعاً لأنواع الفضائل، كثير الذكر والاجتهاد. أخذ العلوم من عدة مشايخ، منهم والده المقدم الذكر، ثم الإمام برهان الدين إبراهيم بن عمر العلوي. وكان رحمه الله ذا معرفة قوية في القراءات السبع والتفسير والحديث والفقه واللغة والأدب والحكمة، وله استدراكات وتنبيهات على المواضع المشكلة، وصنف كتباً كثيرة منها: (نشرطيٍّ التعريف في فصل حملة العلم الشريف)، ومنها كتاب (البركة في السعي والحركة)، ومنها كتاب (النورين في صلاح الدارين)، ومنها (التذكير بما إليه المصير)، وكتاب (فرحة القلوب وسلوة المكروب)، وله غير ذلك من الرسائل والمنظومات. ومن شعره ما كتبه إلى ولده عبد الرحمن يحثه على طلب العلم الشريف، القصيدة المعروفة التي أولها قوله:

ما لذة الخلق في الدنيا جميعهم ... ولا الملوك وأهل اللهو والطرب
كلذتي في طلاب العلم يا ولدي ... فالعلم معتمدي حقاً ومكتسبي

وباقي القصيدة مثبتة في الأصل، فمن أراد مطالعتها فلينظرها فيه. توفي هذا الإمام في شهر رجب سنة اثنتين وثمان مئة. رحمه الله تعالى ونفع به.

وله أولاد نجباء علماء، أحدهم يسمى عمر. كان رجلاً فطناً ذكياً فصيحاً، له لسان يضرب به أرنبة أنفه كلسان الشافعي رضي الله عنه، وكان مشاركاً بالعلم. والثاني: أحمد، تفقه بأبيه وجده وغيرهما، فأفتى ودرس. وكان مسموع القول، مطاع الكلمة ببلده، وهو الذي سعى بإخراج الماء الجاري في الجرف والثالث من أولاد الفقيه جمال الدين اسمه عبد الرحمن، كان فقيهاً مؤرخاً، صنف كتاب الاعتبار في التواريخ والأخبار، خصّ بذلك ملوك اليمن، ولم يتعرض لباقي أهل اليمن سوى من عرض ذكره عند ذكر من ذكرهم بكتابه. وتوفي بالعشر الأوائل من المئة التاسعة.

وأما ولد الإمام وجيه الدين الثاني فهو الفقيه العالم صفي الدين أحمد بن عبد الرحمن بن عمر. أخبرت أنه كان إمام الفصحاء، وقدوة البلغاء. يجتني من رياض معارفه العلوم، ويقتطف من أزهارها المنثور والمنظوم. قرأ في الفقه على أبيه وأخيه المقدمي الذكر، ثم على جماعة من علماء وصاب، وعلى الإمام المحدث برهان الدين إبراهيم بن عمر العلوي بتعز، وعلى غيرهم. وسافر إلى مكة المشرفة، فحج وزار قبر النبي ﷺ، وقرأ على الأئمة هناك، فأجازوا له. وكانت له فطنة وفادة طبيعية منقادة، وكان حلو الكلام، محبباً إلى الناس، مقرباً محدثاً فقيهاً، نحوياً لغوياً، لبيباً مهيباً، لطيفاً طريفاً حافظاً، لاقطاً محققاً، شاعراً فصيحاً، جامعاً لجميع فنون العلم. اشتهر بذلك مع وجود أبيه وأخيه، وصنف كتباً كثيرة منها (الارشاد في سباعيات الأعداد) وهو كتاب عجيب مفيد، ومنها كتاب (تحفة الطالبين وتذكرة السالكين)، ومنها (كتاب رياضة النفوس الزكية في فضل الجوع وترك اللذائذ الشهية)، ومنها كتاب (التعريف في بيان أحكام التأليف)، ومنها جزء مختصر في مدح الطول وذم القصر، وله غير ذلك من المصنفات، وله ديوان شعر ضخم» ا. هـ

آل جعمان

ينتهي نسب آل جعمان - كما ذكره الشرجي - إلى صريف بن ذؤال. وذؤال - كما ذكره الهمداني في (صفة جزيرة العرب) وحققه القاضي محمد علي الأكوع - وادٍ يشرف عليه بيت الفقيه والقحمة، وقد ذكر الشرجي في طبقاته كثيراً من فقهاء جعمان[1]، فقد كانوا من فضلاء القرن الثامن فما بعده، وتفرق نسلهم بين بيت الفقيه وزبيد وحيس، ولا يزالون حتى اليوم جامعين بين العلم وصلاح الحال.

ومن كبار علمائهم شيخ الحديث في القرن الحادي عشر إسحاق بن محمد جعمان، ومن أبرز تلامذته السيد الهادي بن أحمد الجلال. وبعد وفاة الشيخ قام بالفتيا والتدريس ولده أحمد الذي تخرج على يده اثنان من كبار علماء زبيد في القرون المتأخرة، هما: مفتي زبيد أحمد بن عبد الله السانة، ومفتيها أيضاً السيد يحيى بن عمر بن مقبول الأهدل. ترجمه السيد محمد زبارة في النشر فقال:

«القاضي العلامة شيخ الإسلام أحمد بن إسحاق بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم بن إسحاق بن إبراهيم بن أبي القاسم بن عبد الله بن جعمان اليمني الزبيدي الشافعي العدناني العكي الصميعي. مولده بمدينة زبيد، نشأ بها في حجر والده، وتخرج به في علم الحديث والفقه، وغيرهما، وأخذ عن الفقيه العلامة المقرىء علي بن محمد الديبع الشيباني، وغيره، وعنه القاضي إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم بن عبد الله جعمان، والسيد يحيى بن عمر بن مقبول الأهدل، والقاضي عبد الرحمن بن محمد جعمان، والفقيه أحمد بن عبد الله السانة، وغيرهم».

وترجمة القاضي أحمد قاطن الصنعاني في تحفة الاخوان فقال: «كان عالماً

---

(١) قال الشرجي: إن أبرزهم هو أبو القاسم بن إبراهيم جعمان، وهو شيخ المزجد في القرن العاشر.

جليلاً، وعلماً نبيلاً. انتهت إليه رئاسة الحسن في عصره، مع مشاركة تامة في سائر الفنون. ولما توفي والده سنة ١٠٩٦ خلفه على القيام بجميع وظائفه، من إفتاء وقضاء وتدريس وإملاء للحديث النبوي وغير ذلك، وحصل له من القبول في قلوب العالم والمحبة ما يليق بعظيم ماله من الرتبة، فكان مرجع زبيد وإمامها، وعدتها وهمامها، ومحط معضلاتها وأحكامها. وأخذ عنه جمع من الفضلاء، وكان على جانب عظيم من التنسك والعبادة، ورعاً، زاهداً، لا يكاد يمر عليه وقت في غير طاعة، وله أوراد من التهجد بالليل، وقراءة القرآن، ومحاسن كثيرة سلك فيها مسلك أسلافه من بني جعمان الذين هم، كما يقول أبو الحسن البكري فيهم:

من سره طيب الحياة، فلا يزل في مجلس من صالحي جعمان
الخاضعين الخاشعين لربهم القائمين بشرعة الرحمن

وكانت وفاة صاحب الترجمة بزبيد في يوم السبت سادس ربيع الآخر سنة ١١١٠، وعظم أسف الناس عليه، ولهجوا بالثناء والترحم عليه، وشيع جنازته جمع عظيم. رحمه الله وإيانا والمؤمنين.

وترجم زبارة في ذيل (البدر الطالع) إسحاق بن محمد بن إبراهيم بن أبي القاسم بن إسحاق جعمان اليمن الزبيدي الشافعي. مولده بمدينة زبيد سنة ١٠١٤، وأخذ عن والده وعن عمه الطيب بن أبي القاسم، وغيرهما. وبرع وفاق أقرانه، وحج، وأخذ عنه بمدينة زبيد وبالحرمين جماعة من العلماء. ومن مؤلفاته: (الحاشية الأنيقة على مسائل المنهاج الدقيقة)، ومن شعره قصيدة، أولها:

نفحت نفحة العبير وريا مندل الحب أوصلتها شمول
سحراً، والرفاق من سكرة النـ ـوم على أظهر النجائب ميل
فنشقنا نوافح الطيب منها إذ شذاها على الخيام دليل
وابتسام المهاة في حندس الليل أضاء الدجى، فبان السبيل

وهي قصيدة عامرة. ومات بزبيد في ربيع الثاني سنة ١٠٩٦. رحمه الله تعالى. ولعلَّ محمد بن أحمد طاهر جعمان قاضي حيس في القرن العاشر هو أول القادمين إليها من هذا البيت».

آل الناشري

الناشرية قرية من قرى وادي مور، خرج منها وانتسب إليها علماء آل الناشري، وكانوا قضاة عصرهم، وعلماء مصرهم. تولى بعضهم القضاء الأكبر في مملكة بني رسول، فكان لهم أثر حميد في التأليف والتدريس. وأهم من نذكره منهم: قاضي القضاة الطيب بن علي الناشري، وحُمزة الناشري.

ترجم للأول تلميذه البريهي فقال: «الإمام العلامة العامل المجمع على فضله وتضلعه في العلوم. قرأ على ولي الله القاضي شهاب الدين أحمد الناشري، ثم على غيره من فقهاء مدينة زبيد وغيرهم، بجميع فنون العلم، وأجاز له الشيوخ الكبار في مكة المشرفة والمدينة الشريفة عندما سافر للحج والزيارة، وأجاز له الشيخ مجد الدين الشيرازي والشيخ شمس الدين الجزري. وقد جمع المشايخ الذين قرأ عليهم وأجازوا له كراسةٍ جعلها عنده. واشتهر بحسن التدريس، والصواب في الفتوى، وناب لعمه القاضي شمس الدين علي الناشري بالقضاء الأكبر، ثم استقل به بعد موت عمه، ورزق الجاه الكبير عند الخاص والعام، ورفعه السلطان الظاهر على جميع الناس بما يستحقه من فضل العلم، مع ورعه وزهادته المجمع عليه، وأحبه الناس، وانتفعوا به انتفاعاً كثيراً، وقصد للمهمات، وأطاعوه. وامتثلوا أمره.

وصنف كتاباً مفيداً، هو شرح للحاوي الصغير سماه (الإيضاح) نحو مجلدين أتى فيه بمعظم الغرائب والنكت على بعض ألفاظ الحاوي، وجمع فيه متفرق الكلام، كالتحرير لأبي زرعة، والمفتاح لابن كبن والأذرعي، والجواهر

والمهمات، وشرح الحاوي، وغير ذلك من كلام المتأخرين من أهل العصر، وغيرهم.

وقد اشتهر وانتشر، وتلقاه الناس عامة في اليمن ومكة والشام بالقبول، ومدحه بعض الفضلاء فقال: «هو كتاب عدم نظيره في ما مضى من الأيام، وعز وجوده مثله في الدهور والأعوام. لم ينسج على منواله، ولا يتصدى أحد من العلماء لمثاله، فما لمثله في الوجود وجود، كما أن نظير مؤلفه في العالم مفقود». وزاد على ذلك شيئاً كثيراً مما قد ذكرته في الأصل.

وقد مد الله في عمر هذا الإمام، وبارك له فيه حتى نيف على ثمانين سنة، ورزقه الله أولاداً نجباء، وقد قال الأول:

نعم الإله على العباد جليله وأجلهن نجابة الأولاد

وهم جماعة كثيرة، أكبرهم الفقيه شهاب الدين أحمد. قرأ على والده في الفقه والنحو والحديث، وقرأ على غيره فأجازوا له، واجتهد حتى برع وكمل، وأفتى ودرس. ثم صنوه الفقيه عفيف الدين عبد الله قرأ أيضاً على والده بالفقه والحديث والنحو، وقرأ بالقراءات العشر على المقري شمس الدين علي بن محمد الشرعبي، وعلى غيره، من أئمة القرآن، وقرأ بفن الأدب على أئمة من أهل الوقت، فنجب وأعجب، ودرس وأفتى، وله الشهرة في ذلك زيادة على أخيه المقدم الذكر. ثم صنوهما الفقيه وجيه الدين عبد الرحمن. قرأ على والده بالفقه والحديث، ثم على غيره. وله الذكاء، والذهن الصافي، والنظر التام في المسائل الدقيقة، يتكلم على ما فيها، ويشفي في الجواب عليها من النصوص الاستنباط العجيب. ولم يزل باذلاً نفسه للطلبة وكثير أوقاته في خدمة العلم الشريف، وهو آخذ بالترقي إلى المراتب العلية. وكل واحد من هؤلاء الثلاثة كامل عارف، عالم عامل، لا يجري أحد من أهل وقتهم في ميدانهم بما بفضلهم فيه، وكفوا والدهم عند عجزه جميع ما أهمه في جميع الأمور، فبقي بينهم في أهنيء عيش وأرغده،

وصـارت الرئاسة لهم في وقتهم، ورثوا ذلك كابراً عن كابـر. وتوفي الإمـام جمال الدين الطيب الناشري بشهر شوال سنة أربع وسبعين وثمان مئة. رحمـه الله ونفع به» أ.هـ.

وترجم الشوكاني لثانيهما فقال: هـو حمزة بن عبـد الله بن محمد بن عـلي بن أبي بكر التقي الناشري الزبيدي الشافعي.

ولد في ثالث عشر شوال سنة (٨٣٣) ثلاث وثلاثين وثمان مئة بنخل وادي زبيـد، ونشأ بـزبيد، فحفظ القـرآن، والشاطبيـة، وألفية ابن مـالـك، وبعض الحاوي، وتلا بالسبع على محمد بن أبي بكر المقرىء، وقـرأ على جمـاعة من علماء زبيد في فنون من العلم، وأجاز له آخرون من جهات..

ومن جملة مشايخه صديق بن أبي الطيب والـزين الشرجي، والتقي بن فهد وابن ظهـيرة. وتردد إلى مكـة، وأخـذ عن السخـاوي، ونـاب في قضـاء زبيـد، وأفتى، ونـظم وألف مؤلفـات، منهـا (مسـالـك التبحـير في مسـائـل التكبـير)، و (البستان الزاهـر في طبقات ابن نـاشر)، و (انتهاز الفـرص في الصيد والقنص) ألفه للملك المظفر، وألفية في غريب القرآن.

وكان كثير الزواج، ورزق كثيراً من الأولاد، ومـات غالبهم، وطـال عمره حتى قـارب المئة، وهـو متمتع بحـواسه يستفض الأبكـار. ومات في صبـح يـوم الخميس تـاسع عشر ذي القعـدة سنة (٩٢٦) ست وعشرين وتسـع مئـة، ودفن بقرية سلفه في باب سهام»[1].

أمـا ثالث رجـالات هذا البيت فهـو الذي تـرجمه زبـارة في كتابـه (نـزهـة النظر)، وأوضح في آخره تفاصيل نسب آل الناشري الـذين في تهامـة والذين في صنعـاء، فقـال: الفقيـه العـلامـة عبـد الـرحمن بن محمـد بن عبـد الـرحمن بن

(١) ومنهم أبو بكر بن علي الناشري قـاضي حيس الزاهـد صاحب القصـة مع الخزب التي ذكرهـا الشرجي دفن بسلامة حيس سنة ٧٧٢ هـ.

إبراهيم بن عبد الرحمن الناشري. نشأ بمدينة باجل، ورحل إلى المراوعة، فأخذ بها عن السيد حسن بن عبد الباري الأهدل، ثم رحل إلى مدينة زبيد، فأخذ عن السيد محمد بن عبد الرحمن الشرفي، وغيره، وعن الفقيه أحمد بن ناصر الزبيدي، وعن أخيه محمد بن محمد الناشري. وقد ترجم له صاحب (نشر الثناء الحسن) فقال:

«كان يلقب بالغزالي تشبهاً له بالإمام الغزالي لكثرة علمه. ولما مات صنوه العلامة محمد بن محمد سنة ١٢٧٨ بطريق المدينة، تولى صاحب الترجمة بعده القضاء في مدينة باجل، بنزاهة وورع وعفاف، والقضاء بالحق والصدع به، لا يخاف في الله لومة لائم، إلى أن دخلت الرسوم في اليمن، فعزل نفسه خوفاً من الوقوع في المهلكات. ثم ما زال بعد ذلك ساعياً في مصالح الناس، كثير الإصلاح بينهم، مع التواضع وحسن الأخلاق، حتى توفي سنة ١٣٠٨».

قال مؤلف تاج العروس: «والناشريون فقهاء زبيد باليمن، هم أكبر بيت في العلم والفقه والصلاح، وينتسبون إلى ناشر بن تميم من سملقة، بطن من عك بن عدنان، وإليه نسب حصن ناشر باليمن. وحفيده الناشر الأصغر بن عامر بن ناشر نزل أسفل وادي مور، وابتنى بها القرية المعروفة بالناشرية في أوائل المئة الخامسة. ومن متأخريهم الفقيه الشهير إبراهيم بن عبد الرحمن الناشري صاحب قرية الغانمية، بين القطيع وباجل. وفاته في شعبان سنة ١١٨٣ هـ.

أما السادة بيت الناشري بصنعاء وبلادها، فينتسبون إلى السيد الهادي الملقب بالناشري، من ذريه الإمام المتوكل على الله المطهر بن يحيى، ومنهم السيد العلامة التقي عبد الرحمن بن عبد الرحمن بن الحسن الأهدل، قاسم بن هاشم ابن محمد الهادي الناشري وإخوته بصنعاء».

آل الشرجي

والشرجة اسم يطلق على قريتين بتهامة، أولاهما بجهة حرض، وإليها ينسب الإمام إسماعيل بن أبي بكر المقري الشاوري الشرجي. والثانية بين زبيد وحيس، وإليها ينسب كبار علماء الشرجي، ومنهم نحوي اليمن عبد اللطيف الشرجي، وحفيده أحمد بن أحمد صاحب الطبقات، وغيرهما.

أما عبد اللطيف فهو عبد اللطيف بن أبي بكر بن أحمد بن عمر السراج الشرجي. ولد سنة ٧٤٠ بقرية الشرجة بين حيس وزبيد، ثم ارتحل إلى زبيد، وأخذ علومه العربية، فعين مدرساً بالمدرسة الصلاحية، وانتشر ذكره في اليمن، فقصدته الطلبة من كل جهة. وتنقل في عدة مدارس، يدرس بها علوم العربية والفقه. وفي سنة ٧٨٢ استدعاه الملك الأشرف، فكان يقرأ عليه في بعض كتب العربية، وأكرمه غاية الإكرام. توفي ٨٠٣.

ومن مؤلفاته: (شرح ملحة الإعراب) و (نظم مختصر الحسن بن عباد في النحو) ومختصر، وكتاب (المحرر في النحو والأعلام بمواضع اللام في الكلام)، ونظم مقدمة ابن بابشاذ في علم النحو في نحو ألف بيت، ومقدمة في علم النحو (نقلاً عن المصادر للحبشي).

أما حفيده أحمد بن أحمد المعروف بالزين، فمن مؤلفاته: الحديث، الفوائد في الصلات والعوائد، والمختار من مطالع الأنوار. ذكر زبارة أنه جمع فيه أربعين حديثاً، وأورد عقب كل حديث حديثاً في الطب، وفائدة من كتاب الله وغيره، وحكاية لطيفة رويت عن النبي ﷺ. وقد ترجمه السيد عبد الرحمن بن سليمان في آخر كتابه (النفس اليماني)، فقال:

«أحد الحفاظ هو أحمد بن زين العابدين بن الإمام العلامة شهاب الدين أحمد بن الإمام الكبير سراج الدين عبد اللطيف بن أبي الشرجي. أخذ عن جماعة، منهم الحافظ الجزري والحافظ النفيس سليمان بن إبراهيم العلوي،

والشيخ أحمد الرداد وأبو الفتح ابن الإمام زين الدين المراغي، والقاضي بدر الدين محمد بن أحمد الفاسي. ويروي بعموم الإجازة عن الشيخين الكبيرين: قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزابادي، والشيخ الإمام أبي بكر بن حسين المداعني. وألف المؤلفات العديدة منها: (طبقات الخواص أهل الصدق والإخلاص)، ومنها (الطرق الواضحة لأسرار الفاتحة)، ومنها مختصر صحيح البخاري المسمى (بالتجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح)، وله غير ذلك من المؤلفات. توفي شهر ربيع الآخر من سنة ٨٩٣».

آل أبي الخل والزيلعي وأبي الحيا

الذين سنتناولهم في هذه الوقفة ثلاثة بيوتات عريقة في العلم والصلاح، جمعهم الله بناحية حيس، فكانوا أقمار أسحارها وشموس نهارها. أولهم: آل أبي الخل. وأصلهم من بلاد المهجم جهة وادي سردد[1]. كانوا حفاظاً للقرآن، مقبلين على العلم، قائمين بالعبادة. بلغ عددهم فيما ذكره الشرجي في بعض العصور ثلاث مئة وستين حافظاً، يجتمعون صباحاً، فتسمع منهم دوي النحل وهدير الشلالات وهم يتلون كتاب الله، ثم انتقل كبيرهم الشيخ الولي أحمد بن الحسن بن أبي الخل إلى حيس حين استدعاه المظفر لتوليته القضاء العام، فأباه، وقضى نحبه بحيس شهيداً، وبها مسجده وضريحه. وكان لأهل هذا البيت صلة تعليمية بفقيه اليمن ووليها أبي الفداء إسماعيل الحضرمي، كما ذكره الخزرجي.

أما البيت الثاني فهم آل الزيلعي. ينتهي نسبهم إلى عقيل بن أبي طالب، وقد امتلأت الصفحات بصالحي هذا البيت، وأهمهم أبو بكر الذيلعي صاحب المدرسة بسلامة حيس، وقد كانت له إقبالات على طاعة الله، وانفاقات واسعة على المتعلمين.

(١) ذكر الشرجي أنهم قدموا إلى سردد من مسكنهم الأصلي بمأرب.

أمـا البيت الثالث فهـم آل أبي الحيـا الأشعري. ولئن تكن كتب التـاريـخ أغفلتهـم فقد قيض الله لهم من أفرد كتـاباً بمنـاقبهم، هو المؤرخ: عبـد الملك بن دعسين المخاوي، وضع مؤلفاً أسماه (إتحاف الأذكياء بمناقب آل أبي الحيـا) وقفت عليه مخطوطاً، فاخترت منه ما سنورده لك في آخر هذه الوقفة بعد كلامنا عن آل أبي الخل وآل الزيلعي مرتباً.

قال الخزرجي في ترجمته لأحمد بن حسن بن أبي الخل: «في سنة ٦٩٠ توفي الفقيـه البـارع أبـو العبـاس أحمـد بن الحسن بن أحمـد بن محمـد بن يـوسف بن أبي الخل. كان مولده ليلة الأربعاء السادس عشر من شوال سنة ٦٤٨، وتفقـه بعمه صالح وتزوج ابنته، وغالب تفقهه بـالإمام إسـماعيل بن محمـد الحضرمي. وكان فقيهاً محجاجاً غواصاً على دقائق الفقه، عارفاً بـأخبار المتقـدمين، صـاحب فنون متسعة. ولما تحقق الملك المظفر كمـالَه ونبلَه وفضلَه وعلمـه، وأنه يصلح لقضـاء الأقضيـة استـدعـاه إلى تعـز، فلما وصـل تعـز استـدعـاه السلطان إلى مقـامـه، واستحضره فرأى رجلاً كـاملاً، فسـأله أن يـلي قضاء الأقضيـة بتهامـة فاعتـذر، وسأل من السلطان العودة إلى بلاده فأذن له، فسافر من فوره. وكان قد اعترضه ألم، فلم يصـل إلى حيس إلا وقد أشفي فتـوفي بها. وقـبر في مقـبرة حيس الشرقيـة عـلى يمين الخارج من حيس إلى قرية السلامة، وكانت وفاته يوم الأربعـاء السادس من شـوال من السنة المـذكورة. رحمـه الله تعالى. ويقـال: إنه مـات مسمومـاً. والله أعلم.

ومنهم عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمـد بن أبي الخل المتـوفي سنة ٧١٨. كـان فقيهاً، عـارفاً بـالتفسير والحـديث وعلم الحقيقة. طلع إلى تعـز مع جماعة من أهله يشكون من بعض عمال المهجم إلى الملك المؤيد، فأشكاهـم بعض الأشكاء، ثم رجعوا قـاصدين بلدهم، فمـرض في الطريق، فـوصلوا به حيس، وقد توفي في أثناء الطريق، فقبر عند ابن عمه أحمد بن الحيس، وكـانت وفاتـه في السنة المذكورة رحمه الله تعالى.

ومنهم الفقيه الصالح صالح بن أحمد بن محمد بن يوسف ابن أبي الخل المتوفى سنة ٧٠٧، وكان فقيهاً كبيراً، عالماً عاملاً، ورعاً، كثير الصيام والقيام، وكان يقول لدرسته: لا تأتوني إلا في وقت كراهة الصلاة؛ لأنه لا يمل الصلاة ليلاً ولا نهاراً. تفقه بعمر بن علي السباعي، وكان غالب أيامه صائماً لا يفطر غير الأيام المكروهة للصوم، وكان راتبه في كل يوم وليلة ألف ركعة، وامتحن بآخر عمره بالعمى، فكان يعرف الرجل الداخل عليه قبل أن يتكلم، وكانت وفاته في السنة المذكورة بعد أن جاوز رحمة الله تعالى» ا: هـ.

أما آل الزيلعي فكثيرون، منهم سلامة في حيس، ومنهم باللحية وغيرها. ننقل تراجم بعضهم عن العقود للخزرجي:

«الفقيه الصالح أحمد بن عمر الزيلعي الجبرتي المتوفى سنة ٧٠٤ هـ. . ، وهو الذي يعرف بصاحب المحمول. نسبه إلى مسجد على ساحل المحالب، وكان فقيهاً كبير القدر، مشهور الذكر، معروفاً بالعلم والعمل، صاحب كرامات ومكاشفات. قال الجندي:

«أخبرني الفقيه أبو بكر بن أحمد بن عبد الله بن محمد الخلي ـ وكان قدم علينا الجند ـ قال: قدمت عليه زائراً، فبينا أنا عنده إذ قدم عليه جماعة يزورونه، ومعهم دراهم قد جاؤوا بها فوضعوها بين يديه، فجعل يقلبها بمسواك في يده درهماً درهماً، خرج منها ثلاثة دراهم فردها على شخص، وستة عشر درهماً ردها على شخص، ثم أمر الخادم بقبض الباقي، فداخلني من ذلك تعجب كثير، فخلوت ببعضهم فسألت عن سبب رد الفقيه الدراهم التي ردها، فقال: أنا الذي جئت بالثلاثة الدراهم، وليست مني بل أعطتنيها عجوز تحت يدها أيتام، ولم يمنعها من الوصول إلا خشية أن يعرفها الفقيه فيردها عليها، وقد جعلتها بين دراهم مني، فانتقاها الفقيه فأخرجها بأعيانها كأنه قد عرفها، وأما الست عشر درهماً فاسأل عنها صاحبها، فهو ذاك الرجل. فأتيت الرجل الذي

أشار إليه، وسألته عن قصة رد الدراهم، فقال: هي من شيخ الصميين، كان مرض له فرس فنذرها للفقيه إن شفي فرسه، فلما شفي وعلم أني واصل إلى الفقيه أمر بها معي لعلمه أن الفقيه لا يقبلها منه. فلما اجتمعت جماعة معهم دراهم متح ناولهم إياها، فجعلوها بين دراهمهم، فأخرجها الفقيه بأعيانها وأعادها إليَّ كما رأيت». قال الجندي: «وسألت هذا الذي أخبرني عنه بقصة الدراهم عن سيرته، فقال: إنه كان لا يكتسب بحراثة ولا زراعة ولا دروزة، ومتى علم بأحد من أصحابه أنه يدروز طرده وكرهه». وتوفي في قرية اللحية، تصغير لحية الرجل، وكانت وفاته في السنة المذكورة. رحمه الله تعالى.

ومنهم الفقيه أبو الحسين علي بن أبي بكر بن محمد الزيلعي المتوفى سنة ٧٢٩ هـ، العقيلي نسبة إلى عقيل بن أبي طالب صاحب قرية السلامة من وادي نخلة. وكان أصل بلدهم بطة، قرية من قرى الحبشة، ولذلك يقال لهم بنو الزيلعي.

وكان أول من قدم منهم قرية السلامة جدهم محمد، فتأهل بها فظهر له أبو بكر، ثم تأهل أبو بكر بامرأة من أهل العقيلية فظهر له علي المذكور وإخوة أيضاً، وهم بيت صلاح وعلم. وكان علي بن أبي بكر فقيهاً ناسكاً، كثير إطعام الطعام، وكان كثير الحج، وكذلك كان والده. وتوفي بمكة المشرفة آخر شهر الحجة من السنة المذكورة. رحمه الله تعالى.

ومنهم الفقيه الفاضل أبو الحسن علي بن عبد الله الزيلعي المتوفى سنة ٧١٤ هـ. ، الفرضي شهر بذلك لإحكامه علم الفرائض والحساب، مع أنه كان مشاركاً في العلوم الدينية مشاركة مرضية، لاسيما الفقه والحديث والتفسير والنحو. وكان تفقهه بالفقيه أبي العباس أحمد بن موسى بن عجيل، وأخذ الحديث على الإمام أبي الخير بن منصور، وانتفع به جمع كثير من زبيد وغيرها، وكان من خيار الفقهاء، واستمر مدرساً في المدرسة التاجية بزبيد من قبل بني

محمد بن عمر، وتوفي على ذلك. وكانت وفاته في أثناء السنة المذكورة. رحمه الله تعالى.

ومنهم الفقيه الصالح محمد بن علي الزيلعي المتوفى سنة ٧٣٠ هـ. ويروى عنه أنه كان يقول إنه شريف حسيني، وكان فقيهاً متقناً صالحاً ورعاً، تفقه بإسماعيل الحضرمي وبعلي بن صالح الحسيني، وأخذ عن عمر السروي وغيره، وكان معروفاً بالفقه والصلاح، وأصاب الفتوى وشرح اللمع شرحاً مفيداً. وكانت وفاته في السنة المذكورة. رحمه الله تعالى».

أما آل أبي الحيا فيرجع نسبهم إلى الأشاعر قبيل الصحابي الجليل أبي موسى الأشعري. كان جدهم الأول الذي انتقل إلى حيس من قرية الهرمة بزبيد في القرن السابع الهجري تقريباً، مع ابن خالته أبي الحسن علي بن الغريب المدفون بالسلامة. وترجمه البريهي في طبقاته.

كان ذلك الرجل هو الولي الصالح أحمد بن عمر بن عبد الصمد بن حسن بن أبي الحيا المعروف بركيز، وكنيته أبو العباس. يسكن بقرية الحرابة جنوبي مدينة حيس، ولم يعمر أكثر من ثلاثين.

ومن بعده ولده أبو بكر صاحب الاسم الأعظم. قدم المظفر الرسولي بجنده إلى حيس، وأخذ بعض الجند من قصب أبي بكر، فلم تنهض الجمال بحملها. ولما شكوا إلى أبي بكر ما وقع لجمالهم أخبرهم أنها لن تنهض حتى يضعوا عنها القصب، وينفضوا عنها التراب اللاصق بجلدها من تراب ملكه، فكان كما قال. ولما علم المظفر بذلك أوقف عليه وعلى ذريته ثمانية أمداد طعام سنوياً - المد الواحد اثنان وثلاثون ثمناً، والثمن خمسة أقداح صنعاني - مقابل قيامهم بالخانقاه التي بناها المظفر بحيس، وإنفاقهم على طلابها.

وتزوج علي بن عثمان بن أبي بكر بن أحمد بن علي حفيدة الملك المجاهد علي بن داود الرسولي، وكانت تعرف بجهة سكن.

أما عالم الأسرة وفقيهها وأستاذ الطب فيها فهـو العفيف عبد الله بن محمـد ابن عثمان بن أبي بكر. حج خمساً وعشرين مـرة ماشيـاً. توفي سنـة ٨٩١. وكان إماماً في العلوم الشرعيـة، وشيخاً كبـيراً في الطريقـة الصوفيـة، وله مشـاركة في الشعر إلى جانب مهارته في الطب. وفي عصره دمرت قـرية الحـرابة فـانتقلوا إلى المحل غربي حيس.

وولـده هو الشيـخ أحمد المشعف، عـالم شاعـر، صاحب كـرامـات. كـان يستسقى به في الصغر. توفي سنة ٩٢٢. وبعـده ولده أبـو بكر محمـد المحجب. توفي سنة ٩٨٩، وكان ماهراً في الطب. ومن بعـده خاتمـة من ترجمهم دعسـين، الشيـخ عبد اللطيف بن أبي الحيـا. كان عـالماً، شـاعر متقنـاً، متمكناً في العلوم الشرعية واللغوية والصوفيـة، أما من كـان معاصراً للشيـخ العفيف أبي الحيا من أولياء حيس، فهو الشيخ الولي الصالح أبو عبود عمر الخامري. ترجمه الديبع في بغية المستفيد، وأرخ وفاته سنة ٨٨٢.

ومن أوليـائهـا أبـو بكـر بن محمـد بن إبـراهيم بن أبي بكـر السراج من الأقحوز، قريته الحمرانية جهة شمـير، كما ذكـره الشرجي، وهو المحكم للشيـخ إسماعيل الجبرتي، وذريته إلى الآن بسـلامة حيس. ومن أوليـائها بنـو الهليبي[1]، جدهم عبد الله الهليبي.

آل المزجاجي

ظهرت مشاركة آل المزجاجي في الحياة العلمية إبان احتـدام النزاع بـين أبي بكـر المقري والشيـخ أحمد الـرداد في القرن التـاسـع، حيث انتصر المـزجـاجي للصوفية ضد الفقهاء. وقد حفلت كتب التراجم بالكثيرين من أعلام هذا البيت الذين ذكر زبـارة أنهم كانـوا يعرفـون أولاً بآل السني، ثم عـرفوا من بعـد باسم المزجاجي نسبة إلى قرية استوطنوها بوادي زبيد.

---

(١) بنـو الحشاش سـادة بفواهة حيس قال الشرجي: إنهم من ذريـة علي بن يـوسف وابن عمه أبي الخير صاحبي المجربة، جهة جبل البرشا جنوبي حيس بسادة علويين.

ومن أهم معارفهم التي توارثوها وعرفوا بها: هي حفظ السنة ونشرها خصوصاً في المناطق الجبلية، التي كانت شبه محرومة من منهل السنة العظيم.

فمن وافديهم إلى صنعاء: عبد الخالق بن الزين المزجاجي. تتلمذ عليه إمام السنة محمد بن إسماعيل الأمير وهو فوق الخمسين، بينما شيخه المزجاجي في الثامنة والثلاثين من عمره، وعبد الخالق بن أبي بكر المزجاجي، وصديق بن علي المزجاجي، ويوسف بن محمد المزجاجي. وكان هذان الأخيران ممن أجازوا إمام السنة محمد بن علي الشوكاني. وأول من ورد ذكره هو عبد الباقي المزجاجي المتوفى ١٠٧٤. ذكره في ذيل البدر، كما ترجم في الذيل لعبد الخالق بن الزين المتوفى ١١٥٢، وترجم الشوكاني لصديق بن علي ويوسف بن محمد السالفين، وترجم السيد عبد الرحمن بن سليمان لشيخه أمر الله المزجاجي ولعبد الخالق بن علي وسنبدأ بما ذكره زبارة في النشر من ترجمته للزين بن محمد، فإنها على طولها جامعة نافعة. قال:

«الشيخ الإمام العلامة الزين بن محمد باقي بن الزين بن إسماعيل بن الشيخ محمد بن محمد أبي القاسم[1] بن محمد بن عبد الله بن يوسف السني الصوفي المزجاجي الحنفي الزبيدي. وبنو المزجاجي بيت مشهور في نواحي زبيد، بالعلم والفضل والتصوف، وقد خرج منهم عدة علماء وفضلاء، وكانوا يعرفون ببيت السني حتى انتقل جدهم محمد بن أبي القاسم إلى قرية المزجاجة بأسفل وادي زبيد، فعرفوا ببيت المزجاجي. وكان سكنى جدودهم قبل ذلك بمدينة الهرمة في وادي زبيد، فخربت وتفرق أهلها.

وصاحب الترجمة مولده بزبيد سنة ١٠٥٣، وأخذ عن أبيه محمد باقي وعن أخيه عبد الله بن محمد باقي في علم الحديث، وعن الشيخ العلامة عبد

---

(١) محمد المزجاجي الجد ترجمه الشرجي ونسبهم في بني النمر من الأشاء، وقريتهم الهرمة ثم المزجاجية.

الهادي بن عبد الجبار القرسي الدعيني، والشيخ أحمد البنا الدمياطي، وبه تخرج في علم العربية وغيرها، وجوَّد عليه القرآن وعرضه حفظاً، وكان به شديد الاعتناء. وأخذ عن السيد العلامة أبي بكر بن علي بن محمد بن يوسف بن أحمد البطاح الأهدل المتوفى سنة ١٠٩٩، وهو الذي أشار إلى أن صاحب الترجمة من المجددين على رأس القرن الثاني عشر، ولما حج توفي سنة ١٠٧٦.

أخذ بالحجاز عن الشيخ العلامة أحمد بن محمد النخلي، والشيخ العلامة الحسن بن علي العجيمي، وأخذ في محرم سنة ١٠٧٧ عن الشيخ المسند إبراهيم بن حسن الكردي، وأجازوا له ولأخيه علاء الدين ولأولادهما.

وقد ترجمه القاضي أحمد قاطن في التحفة فقال: «الشيخ الإمام العلامة الهمام عمدة أهل الفضل والزعامة، المتحلي بملابس التقوى، والمتجلي عن كل مريد بما يهوى، والمتخلي عن السوء والأهواء. إمام العلوم الشرعية، ومدقق الفهوم المصطفية، سلطان الطريقة وإمام أهل الحقيقة، الراقي إلى أعلى درجات الكمال، والسامي إلى رتبة أهل الأفضال، البارع في العلوم الظاهرة والباطنة بلا نزاع».

وممن أخذ عنه العلوم العقلية والنقلية والتصوف ولده شيخنا الولي عبد الخالق بن الزين، وأما الآخذون عنه الطريقة فأمم لا يحصون. وكان كثير الصمت والتواضع للخلائق، شديد الغيرة في حقوق الله تعالى، يصدع الحق غير هائب لأحد. وسخر الله له القلوب، فترى الخلائق له ممتثلين. واشتهر صيته في الآفاق، وأحبه الخلق على الإطلاق، وكان كثير العبادة والتلاوة للقرآن، وكثير القراءة لعلم الحديث والفقه والتفسير، وكتب الرقائق، وأما النحو وغيره فقليل. وسأله فقيه وهم على مائدة طعام فقال: يصح أكلي الطعام؟ فقال صاحب الترجمة: يصح. قال: كيف إعرابه. فقال صاحب الترجمة: الطعام فاعل، فقال: ما الدليل على ذلك؟ قال صاحب الترجمة: ورد في الحديث أن العبد إذا

أكل الطعام ذاكراً لله فقد أكل الطعام، وإذا كان غافلاً فالطعام أكله، والحديث بمعناه. فعجب الحاضرون من سرعة فهمه.

وله في علم التصوف عجائب وغرائب وأجوبة سؤالان عن طريق القوم مع موافقة طريق السنة، وترجمته تحتمل كراريس. وتوفي رأس سنة ١١٣٨ عن خمس وثمانين سنة، واستخلف ولده العلامة الولي عبد الخالق بن الزين المتوفى بصنعاء سنة ١١٥٢، وله من العمر يوم وفاة والده إحدى وعشرون سنة. ولولده عبد الخالق أرجوزة في مسند طريقة الصوفية، منها:

قال الفقير أحقر الخلائق	نجل الحبيب الزين عبد الخالق
بحمد ربي يفتح الكلام	بشكره يستنزل الغمام
ثم صلاة الله والسلام	على الذي أضاء به الإسلام
محمد وإله سفن النجاة	وصحبه والتابعين والهداة
وهذه من أنفع الوسائل	نظمها في السادة الأماثل
وسيلة حافظة للسلسلة	أرجو بها حبهم مع الصلة
في سحر من ليلة غراء	ألهمنيها عالم السراء
من غير وزن بل أتت سليقة	فمن رآها فليصن صديقه
مقدماً لوالدي المعظم	الفارق، البحر الخضم، العلم
زين الملأ في حضرة المعالي	ومن به أشكو إليه حالي
وشيخه الكيس غوث الزمن	من سره سار لكل موقن

إلى آخرها. وستأتي ترجمة ولده عبد الخالق، رحمهما الله تعالى وإيانا والمؤمنين، آمين» ا. هـ.

وذكر السيد عبد الرحمن بن سليمان في نفسه اليماني ترجمة ممتعة لشيخه أمر الله المزجاجي اشتملت على الكثير من أخبار آل الأهدل وآل الأمير. قال فيها: «شيخنا ولي الله تعالى الخوجة أمر الله ابن ولي الله الخوجة العلامة عبد الخالق بن

ولي الله الخوجة الزين بن ولي الله الخوجة محمد باقي المزجاجي، نسبة إلى المزجاجية، قرية من قرى الوادي زبيد، قال المدهجن: فيها بنو المزجاجي أشاعرة.

كان شيخنا المذكور له اليد الطولى في مكارم الأخلاق، وتلقي الأضياف بالرحب والسعة، لا تراه إلا هشاشاً، منبسط الخاطر، متجمل الحال مع ما هو فيه باطناً من الفاقة، فلسان حاله ينشد:

وإني لأخفي باطني وهو ظاهر ... وينظر مني ظاهري وهو ضاحك
وأسأل عن حالي وبي كل فاقة ... فاتهم أني للعراقين مالك

كان رحمه الله متطلعاً على أحوال العلماء لاسيما الذين كانوا في عصره، ولاسيما آباؤه ومشايخهم وتلاميذهم، ولاسيما من وفد إليهم من الآفاق من الأولياء والعلماء، من الحرمين ومصر والشام والهند والجاوة وغيرها. فإن منازلهم كانت محط رحال الأولياء والعلماء، كالإمام المقري المشهور أحمد بن محمد الدمياطي. ذكر لي شيخنا أمر الله أنه أكمل كتابه المشهور في القراءات المسمى (إتحاف البشر في القراءات الأربعة عشر) تأليفاً في منازلهم، ونزل الشيخ أحمد المذكور على الشيخ الولي محمد باقي المزجاجي، بأهله وأولاده، وأقام عند الشيخ المذكور مدة ثلاث سنين. وكان من مشايخ ولده الولي الزين بن محمد باقي في علم القراءات.

وكالسيد الولي يحيى الشظبي التعزي، الذي قال في حقه السيد الإمام إسحاق بن يوسف: «لقد رأيت منه إنساناً ما وقع إنساني على مثله، وعلمت من حاله ما لم أكن أظن وجوده في العصر الأخير، وإني لا أجد عبارة تفي بما هناك، بل لا أفوه لما رأيت من عجيب صفته، فإنها مما لم تقبلها العقول. وقد كنت في سالف الأيام أطلع على شيء من أحوال السلف الماضي، فربما استبعدت شيئاً من تلك الصفات والأحوال حتى منه، ما لم يكن يخطر على بال، فعلمت صحة ذلك، بل رأيته عياناً» انتهى كلام سيدي إسحاق.

وذكر شيخنا أمر الله أن السيد يحيى المذكور قعد عند جده الشيخ الزين ابن محمد باقي نحو سنتين أو أكثر، ودخل خلوة الأربعينية هو وجماعة، فما خرجوا إلا وهم من أهل الكشف.

وكسيدي الجد رحمه الله، فإنه كان كثير التردد إلى منازلهم، وهم كذلك يزاورونه لما بينهم من كمال المودة والصداقة، وكذلك شيخنا الوالد رحمه الله، كان لا يترك الوصول إلى تلك المنازل. وأذكر مرة أظنها في سنة إحدى وتسعين ومئة وألف، خرج شيخنا الوالد وشيخنا السيد العلامة إبراهيم بن الأمير، رحمهما الله، وكان المذكور نازلاً عند شيخنا الوالد إلى قرية التحتيا، مزاورين لشيخنا أمر الله المذكور، وقعدوا أيام الضيافة، فما زلت أتذكر بهجة الأنس والسرور عند اجتماعهم. فمما اتفق أن شيخنا أمر الله قدم إليهم وقد صليا صلاة الظهر رطباً وكان أيام الرطب، فلما أخذا في الأكل سألت شيخنا الوالد ـ رحمه الله ـ عن الرطب الذي تساقط على مريم، من أي أنواع التمر هو؟ فتبسم شيخنا الوالد وقال: لا أدري، اسأل سيدي إبراهيم وسيدي أمر الله؟ فابتسما وقالا: ليس المسؤولون بأعلم من السائل. ثم إني بعد وفاتهم رحمهم الله تعالى.

أفادني بعض فضلاء الحضارم أنه اطلع على قراءة شاذة: «تساقط عليك رطباً جنياً هجرياً»، وذكر أنه نسب إلى رطب هجر، قرية من قرى حضرموت. هكذا أفادني هذا.

ومما رأيته بخط شيخنا أمر الله المزجاجي المذكور، نقله من خط سيدي السيد العلامة إبراهيم الأمير ـ رحمه الله ـ ما صورته «دخل رجلان في أم القرى على رجل من أهل السياحة لا يعرفهما ولا يعرفانه، فنظر إليهما فقال: لا يصلان سواء؛ فإن هذا يأخذ الميزان حق الذهب، ويرن به جبل أبي قبيس، يفني العمر وما كمل بعض الجبل. والتفت إلى الرجل الآخر وقال: هذا يجعل جبل أبي قبيس لقمة واحدة، ثم قال: هات الجبال.. هات البحار.. نجعلها لقمة

واحدة». والرجلان هما سيدي سليمان بن يحيى بن عمرو إليه الإشارة بقوله: «يأخذ الميزان حق الذهب»، والرجل الآخر: إبراهيم بن محمد الأمير وإليه الإشارة بقوله: «هذا يجعل أبا قبيس لقمة واحدة»، والرجل المكاشف: سليمان الرومي تلميذ الولي الكبير عبد الغني النابلسي.

هذه الفائدة نقلتها من خط سيدي إبراهيم بن محمد الأمير، كتبها بخطه في حضرة سيدي سليمان بن يحيى، كتبه الفقير إلى الله تعالى أمر الله المزجاجي هذا.

وأذكر أني وصلت سنة اثنين بعد المئتين فيها أظن وأحسب، لمزاورة شيخنا المذكورة أنا وسيدي الفقيه العلامة الولي سعد الدين بن سعيد القرواني رحمه الله، وقعدنا لديه أيام الضيافة، ولم يزل يملي علينا في تلك الأيام ولياليها من القضايا المطربات المعجبات، مما يطرب الطباع، ويشنف الأسماع، لاسيما من أحوال آبائه ومشايخه ومن وفد عليهم، بحيث مضت الثلاثة الأيام كأنها لحظة من شدة الأنس والسرور، ومما نشاهد من شريف أحواله، وشيم أخلاقه، وعذوبة لفظه. ولعمري إن مثل هذا من أندر النوادر، فإن الحال العام إنما هو كما قال المعري:

كلام أكثر من تلقي ومنظره: مما يشق على الأسماع والحدق؟ وفي هذه الثلاثة الأيام قرأنا عليه ما يسره الله من كتب الحديث والتصوف، ولقننا الذكر على طريقة القادرية جهراً، ثم لقننا الذكر على النقشبندية سراً. وكان أخونا الحاج الصالح الفاضل محمد بن عبد الفتاح الحضرمي ثم الحبشي مشاركاً لنا في جميع ذلك، وأجازنا أجمعين إجازة مطلقة شاملة في كل ما تجوز روايته وتحق درايته».

آل الجلال

ينتهي نسب آل الجـلال إلى الحسن بن علي بن أبي طـالب، كما ذكـره الشوكاني ومسكنهم الأصلي رغافة، بلد من جماعة شمالي غربي صعدة على مسافة يوم، كما ذكره الأكوع في صفة الجزيرة. وما أشبه حال الحسن بن أحمد الجلال كبير هذه الأسرة وعميدها، بحال محمد بن إبراهيم الوزير الذي مرت بنا ترجمته، وما أشبه حال أخيه الهادي بحال الهادي بن محمد الوزير في كثير من الأمور، وقد ذكر ذلك الحسن بن أحمد الجلال في كثير أقواله. ونبدأ بما ترجمه الشوكاني للهادي وهو أكبر سناً والأقدم وفاة. قال:

«السيد الهادي بن أحمد الجلال أخو السيد الحسن بن أحمد المتقدم ذكره. أخذ العلم عن جماعة، منهم علي بن محمد العقيني. رحل إليه إلى مدينة تعز، وسمع عليه الصحيحين، وغيرهما، ورحل إلى عبد القادر بن زياد الجعاشني في سنة ١٠٦١، فسمع منه صحيح البخاري، وسمع سنن أبي داود على إسحاق بن إبراهيم بن جعمان. وكان صاحب الترجمة عالماً محققاً مائلاً إلى الخمول، له مصنفات منها (شرح الأسماء الحسنى)، وله مصنف سماه (نور السراج) جعله على أبواب الفقه، واستكمل فيه البخاري. توفي في سنة ١٠٧٩، رحمه الله تعالى» ا. هـ.

وترجم لأخيه الإمام المجتهد الحسن بن أحمد الجلال فقال بعد ذكر نسبه: «ولد في شهر رجب سنة ١٠١٤ أربع عشرة وألف بهجرة رغافة، بضم الراء المهملة بعدها غين معجمة وبعد الألف فاء، قرية ما بين الحجاز وصفته. ونشأ بها ثم رحل إلى صنعاء، وأخذ عن أكابر علمائها وما حولها من الجهات، ومن جملة مشايخه القاضي عبد الرحمن الحيمي والعلامة الحسن بن القاسم بن محمد، والعلامة محمد عز الدين المفتي، وسائر أعيان القرن الحادي عشر. وبرع في جميع العلوم العقلية والنقلية، وصنف التصانيف الجليلة، فمنها (ضوء النهار) جعله

شرحاً للأزهار للإمام المهدي وحرر اجتهاداته على مقتضى الدليل، ولم يعبأ بمن يوافقه من العلماء أو خلافه أو يخالفه وهو شرح لم تشرح الأزهار بمثله، بل لا نظير له في الكتب المدونة في الفقه، وفيه ما هو مقبول وما هو غير مقبول، وهذا شأن البشر، وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا المعصوم، وما أظن سبب كثيرة الوهم في ذلك الكتاب إلا أن هذا السيد كالبحر الزخار، وذهنه كشعلة نار، فيبادر الى تحريم ما يظهر له، واثقاً بكثرة علمه وسعة دائرته وقوة ذهنه. ولا أقول كما قال السيد العلامة صلاح بن الحسين الأخفش في وصفه لبعض مصنفات صاحب الترجمة، أنه عظام لا لحم عليها، بل أقول: هو بحر عجاج متلاطم الأمواج.

وله في أصول الدين (شرح الفصول)، و (شرح مختصر المنتهى)، وفي المنطق (شرح التهذيب)، وفي أصول الدين (عصام المتورعين)، وغير ذلك من المؤلفات في غالب الفنون، وله حاشية كمل بها حاشية السعد على الكشاف، وحاشية على (شرح القلائد)، ومجموعات مفيدة، ورسائل عديدة. وله القصيدة التي سماها (قيض الشعاع) أولها:

الدين دين محمد وصحابه ... يا هائماً بقياسه وكتابه

وشرحها شرحاً نفيساً فيه فوائد جمة، ولي كثير من المناقشات في ترجيحاته التي يحررها في مؤلفاته، ولكن مع اعترافي بعظيم قدره، وطول باعه، وتبريزه في جميع أنواع المعارف.

وكان له مع أبناء دهره قلاقل وزلازل، كما جرت به عادة أهل القطر اليمني، من وضع جانب أكابر علمائهم المؤثرين لنصوص الأدلة على أقوال الرجال. وقد كان الإمام المتوكل على الله إسماعيل بن القاسم المتقدم ذكره يجله غاية الإجلال، ولا يعرف أهل الفضل إلا أهله.

واستوطن الجراف ومات فيه وقبر هناك، وكان موته ليلة الأحد لثمان بقين

من ربيع الآخر سنة ١٠٨٤ أربع وثمانين وألف، وكان جيد النظم. وما أحسن قوله في القصيدة التي تقدمت الإشارة إليها مخاطباً للرسول ﷺ:

«وقل ابنك الحسن الجلال مباين ... من قذغلا في الدين من تلعابه
لا عاجزاً عن مثل أقوال الورى ... أو هائباً من علمهم لصعابه
فالمشكلات شواهد لي أنني ... أشرقت كل محقق بلعابه
لولا محبة قدوتي بمحمد ... زاحمت رسطا ليس في ابوابه»ا. هـ

وهذه مقالات رجالات هذا البيت وإن كانوا من فضلائهم وعلمائهم من الكثرة حيث لا يحصون ترجمه الشوكاني فقال: «السيد علي بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن حسن الجلال، الصنعاني المولد والدار والنشأة. ولد في شوال سنة ١١٦٩، وقرأ على علماء صنعاء، كالسيد العلامة إسماعيل بن هادي المفتي، وشيخنا العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وشيخنا العلامة السيد عبد القادر بن أحمد، وله مشايخ في فنون عديدة. وبرع في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والحديث والتفسير، وشارك في الفروع مشاركة قوية، وتتبع الأدلة فعمل بها ولم يقلد أحداً، وانتفع به الطلبة في جميع الفنون، وأخذوا عنه جميع علوم الاجتهاد، ومنهم من النبلاء جماعة كثيرة، وهو من محاسن العصر وأفراد الدهر، مكب على العلوم في جميع الأقات، قوي الحفظ، سريع الفهم، صحيح الذهن، مع مزيد من التواضع والتودد والبشاش، وحسن الأخلاق والسكينة والوقار، ورصانة العقل وصيانة الدين والتعفف.

وفي عام تحرير هذه الأحرف جعله مولانا الإمام المنصور بالله من جملة قضاة صنعاء وعظّمه بما يستحق بعد أن عرفته بجلالة صاحب الترجمة، وأشرت عليه بنصيبه، فباشر القضاء مباشرة حسنة مشكورة، وابتهج الناس بقوله ذلك، وأثنوا على الخليفة ـ حفظه الله ـ بانتخاب مثله، فإنه من أكابر علماء العصر، وأفاضل أبناء الدهر، والحمد لله رب العالمين.

وهو مع اشتغاله بمنصب القضاء، لم يدع الاشتغال بالعلم، بل هو مستمر على التدريس للطلبة في الكتب الحافلة. وقد دار بيني وبينه مباحثات نافعة، ومراجعات جيدة، وترافقنا في القراءة على شيخنا المغربي الكشاف، وفي شرح بلوغ المرام».

آل أبي الرجال

ينتهي نسب آل أبي الرجال إلى الفاروق عمر بن الخطاب، كما ذكره الشوكاني. ومسكنهم الأول بالأهنوم، ومنها انتقلوا إلى صنعاء. وأول رجالات هذا البيت العلامة المؤرخ أحمد بن صالح بن محمد بن أبي الرجال، مؤلف مطلع البدور. من مشائخه الإمام الزاهد المؤيد محمد بن القاسم، وكانت وفاته سنة ١٠٩٢، أما حفيده فهو العلامة الكبير والمحقق الشهير أحمد بن صالح بن محمد بن أحمد ابن صالح بن أبي الرجال. ترجمه الشوكاني فقال:

«ولد يوم السبت خامس شهر محرم سنة ١١٤٠، ونشأ بصنعاء فقرأه على جماعة من أعيانها، منهم: القاضي العلامة أحمد بن زيد الهبل، والسيد العلامة محمد بن إسماعيل الأمير، والسيد العلامة محسن بن إسماعيل الشامي، والسيد العلامة عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن المهدي، والسيد يوسف العجمي، والسيد العلامة محمد بن زيد بن محمد بن الحسين بن الإمام القاسم، وبرع في جميع المعارف. وهو شيخ مشايخنا، وله يد طولى في النحو والصرف والمعاني والبيان والأصول والتفسير، ومشاركة فيها ما عدا ذلك. وقد عكف عليه جماعة من الأعيان، وأخذوا عنه في فنون متعددة، وتخرجوا به، وصاروا أعيان عصرهم، فمنهم شيخنا العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، ومنهم شيخنا العلامة عبد الله بن الحسن بن علي الأبيض، ومنهم شيخنا علي بن هادي عرهب، والسيد العلامة إسماعيل المفتي، وسيأتي ذكرهم إن شاء الله تعالى.

وقد اتصل المترجم له بالإمام المهدي العباس بن الحسين رحمه الله،

ليقرىء أولاده في ما يحتاجون إليه من العلم، ثم ارتفعت درجته عند الإمام، وكان يجالسه ويحادثه، ويأخذ عنه فوائد كثيرة، وأركبه الخيل، واختصه، ورفع منزلته، حتى كان تارة بمنزلة الوزير، وأخرى بمنزلة المشير، ومع ذلك فلم ينقطع عن نشر العلم بحسب الطاقة

ولم يزل على حاله الجميل حتى مات سنة إحدى وتسعين ومئة وألف. وله حواش على شرح الغاية والكشاف، وحواشيه مفيدة جداً، في غاية الدقة والتحقيق، نقلها عنه شيخنا المغربي المتقدم في كتبه» ا.هـ.

وأثنى الشوكاني على بلاغة أخيه محمد بن صالح وغيرته، وحسن محضره، وأورد له مقطوعات شعرية تذكرك بشعر إبراهيم بن العباس الصولي. وقد مر على قوم ينقبون جبل المشرف على صنعاء من الشرق على أمد أن يظفروا بعين ماء منه، فقال:

سألوا من جبل صلد الصفا
نهراً يجري عليهم فنهر
وتراءت عينه غامضة
فقفوا في طلب العين الأثر
نحتوا أحجارهم فاعجب لهم
يشتهون الماء من عين الحجر

وتأخر مدة عن ركب الإمام فلم يتمكن من السلام عليه إلا بعد صلاة الجمعة، فقال معتذراً:

مولاي رقك إن تأخر
فهو تالي من تقدم
إن فاز من جلى بصحبتكم
فقد صلى وسلم

توفي رحمه الله تعالى سنة ١٢٢٤ هـ، ولا يزال بيت آل أبي الرجال حتى اليوم ـ والحمد لله ـ حافلاً بالفضلاء.

آل الشامي

من أسباب اللبس في اسم الشامي: أن أسراً يمنية كثيرة تعرف بهذا الاسم، منها في صنعاء وكوكبان وخولان ووادي بنا، وفي غيرها. وفيهم السادة، وفيهم القضاة. والمقصودون بهذه الوقفة هم السادة المتصل نسبهم بالحسن محمد بن صلاح الحسني، الذي انتقل من مذران جُماعة شمالي صعده إلى هجرة البياض بمسور خولان الطيال، ولذلك لقب بالشامي. ومن أبرز ذريته العلامة الكبير والولي الصالح قاضي القضاة السيد هاشم بن يحيى الشامي. كان من كبار أنصار السنة وحماة الحقوق، مع زهادة وعبادة ومكانة راسخة في العلوم، وهو جد إبراهيم بن محمد بن إسماعيل الأمير من جهة أمه. توفي سنة ١١٥٨، وتولى القضاء العام من بعده أحد أولاد الشامي، وهو العلامة الكبير والمصلح الشهير السيد أحمد بن عبد الرحمن الشامي، جمع بين القضاء والوزارة، وكان من كبار أنصار محمد بن إسماعيل الأمير في إصلاحاته. وبلغ من حلمه أن رجلاً دس له السم في التمر، ولما أكله أصيب بسيلان الدم لمدة سنة، وعرف خصمه ولكنه كتمه، ولما شفي كان أول عمل بدأه هو أن قضى حاجة ذلك الذي سمّه. ولما توفي رحمه الله أوصى بتركته إلى الإمام العباس، فجعلها الإمام بنظر قريبه السيد الحسن بن زيد الشامي، الذي كان محباً للفقراء، ساعياً وسعه لنشر الدعوة، وسد حاجة المحتاجين. توفي السيد أحمد بن عبد الرحمن سنة ١١٧٢.

وإليك ترجمة الحسن بن زيد، ففيها الصورة السامية للداعية، كيف يكون؟ ولحب الخير للناس إلى أي مدى يسمو؟

قال المؤرخ زبارة في النشر مترجماً، منها: «السيد العلامة الحسن بن زيد الحسين بن هادي بن السيد الحافظ أحمد بن علي بن الحسن بن محمد

الشامي الحسني اليماني، المسوري الولادة والوفاة، الصنعاني النشأة. وفي ترجمته بنفحات العنبر، وفي ترجمة السيد الحافظ أحمد بن عبد الرحمن الشامي السابقة بقية هذا النسب، وأخذ صاحب الترجمة بصنعاء عن المولي هاشم بن يحيى الشامي، ومن في طبقته من علماء صنعاء». وترجمه الشوكاني في البدر الطالع فقال:

«برع في علم الحديث، وشارك في غيره من الفنون مشاركة قوية، ونشر العلم، وأتعب نفسه في الإرشاد إلى الحق من العمل بالدليل، وأقبل عليه الخاص والعام، وأخذوا عنه، وتخلقوا بأخلاقه، ومشوا على طريقه، وكان لا يمل من ذلك في جميع الأوقات. فظهرت بركته، وعم النفع به، فإنه سكن في صنعاء فصار له أتباع لا يعملون إلا بالأدلة، ثم سكن هجرة سناع فصار أهلها جميعاً مشتغلين بالطاعة، مواظبين على الجمعة والجماعة، وكذلك سكن في ذهبان وصار أهله كذلك، وله في حسن التعليم طريقه لا يقدر عليها غيره. وكان مقبول الكلمة عند الإمام المهدي العباس بن الحسين وعند وزيره أحمد بن علي النهمي، فنفع جماعة من المحاويج، وصار يبذل جاهه لهم، فيجلب خيراً ولا يأخذ لنفسه شيئاً، مع كونه فقيراً. وكان هذا دأبه طول حياته، ولا مطمع له في مواصلة أرباب الدولة إلا ذلك. وله في الزهد والتقشف وكثرة العبادة وظائف لا يقدر عليها غيره، مع قيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والترسلات في ذلك على الإمام. فمن دونه الإرشاد إلى الرفق بالرعية. ولقد كان خيراً كله، ولم أعرفه، ولكنه أخبرني بأخباره كل من يعرفه. وما زال مستمراً على ذلك حتى مات في جمادى الأولى سنة ١١٩٦. وأرخ وفاته جحاف في (درر نحور الحور العين) في جمادى الأولى سنة ١١٩٥ بمسور خولان». وترجمه صاحب نفحات العنبر فقال: «هو إمام السنة الجليل الورع الزاهد، قدوة العاملين، ورأس العابدين. كان عارفاً بالعلوم العربية والشرعية، جيد المذاكرة، حسن الاستنباط للأحكام، وله اليد الطولى في تعليم الطالبين، والعناية التامة في تفهيمهم،

وإرشادهم إلى الطريق القويم، والصبر على ذلك، وتوضيح المسالك، والمحبة لهدايتهم. فصلح على يديه خلق من العامة، وأقبل على تدريسه والأخذ عنه كثير من الخاصة، مع حسن نية وسلامة طوية، وإقبال على المتكلم بكليته، وتبليغه أقصى أمنيته، ومعاونته للصغير والكبير، وإبلاغ جهده في الأمر والنهي للمأمور والأمير. وكان كثير الاتصال بالوزير صفي الدين النهمي ومخدومه الإمام المهدي العباسي، فإنه كان يعظم صاحب الترجمة، ويقبل قوله في مناصحته ورسائله، وكثير من مشوراته. وقرر المهدي بنظره للفقراء سبعين قرشاً حجراً في كل شهر من غير ما كان يستخرجه من الوزير وغيره، وله شغلة كبيرة بمعاونة الفقراء، وتحصيل مآربهم، والسعي في مصالح الضعفاء والمساكين، والحض على صلتهم ومواساتهم، وقضاء حوائجهم. وكان يتعب نفسه في ذلك، حتى قال له شيخه المولى هاشم بن يحيى الشامي: هون عليك التعب، أتريد أن تغني من أراد الله فقره؟ فقال له: قد أمرنا بالسعي، فقال: لكن بالتي هي أحسن. فقال: لا أحسن من هذا» ا. هـ.

وقال حجاف في ترجمته له:

«كان رحمه الله تعالى عالماً عاملاً محدثاً، له بصر بتعليم الجهلة من الناس، وحسن مقصد في مساعي الخير. سكن ببلده مسور فهدى الأكثر، ثم سكن بهجرة سناع فصلح به عالم من الناس، وسكن ببير العرب فانثال عليه أهلها، وسكن بالجراف، وحبب إليه الخير والصلاح، واتصل بالمهدي العباس، فأحبه وقبل شفاعته. وكانت مهمته السعي في الصدقات وقضاء الحاجات، فكان يقصد الناس إلى بيوتهم ليبين لهم وجوه الحلال والحرام، وكان إذا لقي المرأة في الطريق دعاها، وبين لها حكم الحيض وكيفية العمل فيه، ويأمرها أن تعلم نساء آل فلان وآل فلان، ويقول لهذه: إذهبي إلى أهل حافتك فعلميهم كذا، ويأخذ عليهن ألا يغتبْن رجلاً ولا امرأة، ويحذرهن وينذرهم أهلاً لقبول الكلمة، يتواصون بقصده، ويتواعدون لزيارته، فيداويهم من مصائبهم بحريته. وكان لا

يدع الاغنياء من الموعظةا الحسنة، فيستخرج بها منهم ما أمكن للضعفاء والمساكين.

ترجمة القاضي أحمد بن محمد قاطن في كتابه التحفة فقال: «هو المحقق الذي لا تفوته دقائق العلوم، والمدقق الذي توضح من مشكاته حقائق الحدود والرسوم، والقانت الأوّاه، والفائت أهل زمانه إيمانه وتقواه، والبصير بالتربية لمن أراد السلوك إلى الطريق المحمدية، والنصير لكل مظلوم يدفع الشكوك عن التهم بكل قضية. شغلته خدمة الفقراء، والإشفاق عليهم، والتذكر بهم، والإحسان إليهم، وبذل طاقته في النصيحة لأئمة المسلمين، والهداية للمسترشدين، وموالاة الصالحين، والإعراض عن الدنيا بجملتها، والمواصلة لإخوانه. والإشفاق على خلانه. وله طريق في الصبر على المتعلمين عجيبة الأسلوب، وتحقيق لهم يقرب فيه غاية المطلوب، مع ورع صحيح ومتجر في كل الخيرات ربيح. كل من عرفه أحبه، ومن جانبه وقع في قلبه من رهبة فيه، من الأخلاق النبوية المماثلة التامة، والمشابهة العامّة، حتى قال القاضي رحمه الله تعالى: «فهو بحر العلم المتلاطمة أمواجه الواضحة فجاجه، يلتقط الدر من بيت شفتيه، وتستفاد الفرائد بين يديه، لا تراه إلا في إحياء العلوم، والعبادة للحي القيوم. وله نفس لطيفة، ودعايات شريفة، وآيات في الكرم بينه، وسمات في الظرف حينه، وله في المرأى اعتقاد وعلى منكرها انتقاد».

إلى أن قال القاضي:

«ومع كمال أمانته وديانته وحسن نيته وصيانته، فكلمته مقبولة، وعلى العيون محمولة عند المأمون والأمير، واسع الجاه على الإطلاق، لا يقدح فيه إلا حاسد، ولا ينتقص منه إلا معاند. وأخذ عنه عدة من الناس لا يأتي عليهم العد. ولما مات العلامة أحمد بن عبد الرحمن الشامي وكانت وصيته غير مسنده إلى أحد، أناطها الإمام المهدي العباس بالمترجم له، ففرح بها فرحاً شديداً، إذا كان فيها وصية للفقراء وأهل الحاجات، فخزل منها أموالاً واسعة، وأعطاها

جماعة من المساكين، وقدر قواعد ما لهم ليستغلوها، فعني بذلك عالم كانوا في صباح يومهم فقراء وأمسوا أغنياء، وجعل لهم مسودة حافلة يحفظها من البيع، وأخذ على من هي في يده إقامة الرقبة، وكان يتعب نفسه في السعي للفقراء، وكان ـ رحمه الله تعالى ـ قد قام وقعد عند دعوة محمد بن إسحاق، وظن الظنون في الخير. فلما رأى الحال أنكره. وكان لا يدع الترسل على المهدي العباسي، ويدفع إليه ما تشكوه الرعايا من الولاة، وكان المهدي يقرأ ما جاء منه، ويعتذر إليه ويشكو عدم المعين على الخير. وما زال بالمهدي حتى جعل إسماعيل بن محمد حنش على الخزان، ليقبض من الرعايا الحقوق الواجبة، فأسعفه وقصده الفقيه إسماعيل بن محمد حنش، فقال: تعلم أن الزكاة صائرة إلى من لا تحل له. فقال المترجم له: المراد صيانة الرعايا».

قال جحاف: وأخبرني الوزير حسن بن علي حنش أنه كان يتولى لإسماعيل بن محمد حنش أعمالاً للزكاة، فيشترط عليه ما اشترطه المترجم له، من أن الطائفي والقباض لا يزاد في الإقامة لهما على دجاجة تذبح في وقت العشاء، ومنع المكيال الذي يطفف به أهل المخازن. وورد عليه بهجرة سناع رجل صالح جراب تمر يأكل منه وقت فاقته، فاستدعاه، فامتنع، فقال: احضر ولا تأكل معنا، فحضروا أكل تمرات، ثم عرف صاحب الترجمة الإمام المهدي بمحل الرجل، فأرسل له بعشرة قروش فرانصة، فلما رآها كرهها وقال: للحسن بن زيد: افتح الطاق، ففتحه فرأى على الأرض ذهباً واسعاً، فطمع فيه للفقراء، فنزل إلى الأرض فلم يجد شيئاً، فعاد متعجباً وقال له: أعطنا من هذا الذي أريتنا لنعطي منه ضعفاء الناس، فقال: لو أذن لنا في التصرف لأعطيناك. وحدث بتلك القضية المهدي العباس فقال: أما أنت فمأذون لك، فأعطاهما مئتي قرش فرانصة يفرقها على ضعفاء العباد.

وكان يعد النوائب والخطوب عقوبات، فإذا وقعت له نكبة قال: هذه جزاء العمل السيىء الفلاني. وامتحن ـ مع علمه بالسنة ـ بالشك في الوضوء،

وتحدث بأن تلك سيئة. وترقب نائبة فابتلى بسلس البول، فكان يقول عقوبة الشك السلس. وكان إذا رأى المبتلى بالشك في الوضوء أمره بالاستعاذة بالله تعالى من الوسوسة، وهو في حديث عند أبي داود عن ابن عباس: تعوذوا بالله من وسوسة الوضوء. وانكسرت رجله بخزائن مطهر في الجراف، فقال: هي عقوبة لترك الورد في الصباح، وأنه كثيراً ما قال في يومه: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق. وكان المجبر يأتيه مع اشتداد ألم الكسر، وكان أثقله عليه حين يفك الأعضاء التي عليها العصابة. قال: فسألت الله تعالى اللطيف، فكان يلقي علي النوم حال مباشرة العمل».

آل الأمير

ينتسب هذا البيت إلى الأمير يحيى بن حمزة بن سليمان من أعلام القرن السابع، وحفيده تاج الدين محمد ابن أحمد بن يحيى، وهو الذي استوطن كحلان الواقع شمالي غربي صنعاء، ومن يومها عُرفت بكحلان تاج الدين. وقد استقرت الأسرة في ذلك الجبل الشامخ حتى سنة ١١١٠، حيث انتقل كبير الأسرة السيد الصالح إسماعيل بن صلاح الأمير إلى صنعاء بعائلته، وكان ابنه الكبير الإمام محمد بن إسماعيل الأمير في الثانية عشرة من عمره، وتلقى دراسته بصنعاء على كبار مشائخها، وأخذ ما عندهم في كل معارف عصره؛ من علوم القرآن والفقه والأصول واللغة، ولكنه شغف بعلوم السنة، وإذْ حصل في صباه على زاد المعاد لابن القيم، وبهجة المحافل للعامري، أكب عليهما وانتسخهما على ضوء القمر حين أعوزه السراج، وهيأ الله له السبيل إلى تحصيل علوم السنة على يد علماء الحرمين الشريفين، فحج سنة ١١٢٢، والتقى بكبار مشيخة الإسلام، كالبصري والسندي والشلبي، وغيرهم. وتتابع حجّهُ وزيارته مرات كان آخرها سنة ١١٣٩، وتوفر له زاد ضخم من السنة، وأصبح راسخ القدم في علومها؛ إذ كان مشغوفاً بحبها من صباه:

سلام على أهل الحديث فإنني
طبعت على حب الأحاديث من مهدي

ومضى يواصل نشر السنة؛ تعليماً وافتاءً وخطابة، وأقبلت أفواج المعجبين بعلمه، الراغبين في السنة. وانعقدت الجلسات، وتكاثرت الحلقات، فأبى المتعصبون أن يستمر الخير وينتشر النور، فضايقوه لدى الأئمة؛ تارة بأنه يكره مذهب أهل البيت، وتارة بأنه غير موال للسلطة. ولقي من ذلك عنتاً كثيراً، ومع ذلك فهو يواصل التعليم والإفتاء والخطابة وتأليف الكتب القيمة، سواء وهو مقيم بصنعاء أو مهاجرٌ بشهارة، أو بين بين.

من أهم مؤلفاته (التنوير) و (شرح الجامع الصغير) و (العدة على شرح العمدة)، و (سبل السلام على بلوغ المرام)، و (منحة الغفار على ضوء النهار). وبلغت مؤلفاته وأبحاثه ورسائله قرابة المئتين، كما ذكره الأستاذ الحبشي. وتم على يده خير كثير، إذ أنه تناول بإصلاحاته كل مجالات الحياة؛ فقد عمل على أخذ الزكاة، فأخذها الشرعي، وصرفها الشرعي، وعمل على حفظ أملاك الوقف من أن تنالها يد الطامعين بالبيع والتحايل، كما عمل على حفظ غلاتها، وانفاقها في مبراتها المنصوصة، وعمل على رفع المظالم الشائعة، كالمكوس والأودوبات والرسامة وغيرها. وعمل على نشر التعليم الديني في صفوف الأمة على نفقة الدولة، وعمل على حفظ العملة من عبث اليهود وتلاعب الطامعين، فكان بذلك عبقري الإصلاح الذي لم يسبق في ميدانه. وقد أفردنا له ولأبيه ولأولاده وأحفاده كتاباً مستقلاً بسطنا فيه القول بما يكفي ويشفي، وسنورد هنا لقطات مما ترجمه الشوكاني وزبارة، وغيرهما، مختصرين في ذلك كل الاختصار؛ إذ أن تاريخ هذه الأسرة فريد في مجمله وتفصيله، فبمقدار ما يبهرك سعة علمهم، يعجبك سمو تقواهم، وتتابع أجيالهم في نسق مضيء. وقد تم لهم بفضل الله الجمع بين العلم والتعليم والتأليف، والإصلاح، والمجاهدات، التي

يعجز الكثير عن بعضها، فرحمهم الله ورفع درجاتهم، وجمعنا بهم في مستقر رحمته.

قال الشوكاني في البدر مترجماً للسيد محمد بن إسماعيل الأمير: «الإمام الكبير المجتهد المطلق صاحب التصانيف. ولد ليلة الجمعة نصف جمادى الآخرة سنة ١٠٩٩ بكحلان، ثم انتقل مع والده إلى مدينة صنعاء سنة ١١٠٧، وأخذ عن علمائها، كالسيد العلامة زيد بن محمد بن حسن، والسيد صلاح بن حسين الأخفش والعلامة عبد الله بن علي الوزير، والقاضي العلامة علي بن محمد العنسي. ورحل إلى مكة، وقرأ الحديث على أكابر علمائها وعلماء المدينة، وبرع في جميع العلوم، وفاق الأقران، وتفرد برئاسة العلم في صنعاء، وتظهر بالاجتهاد، وعمل بالأدلة ونفر عن التقليد وزيف ما لا دليل عليه من الآراء الفقهية.

وجرت له مع أهل عصره خطوب ومحن، منها في أيام المتوكل على الله القاسم بن الحسين، ثم في أيام ولده المنصور بالله الحسين بن القاسم، ثم أيام ولده الإمام المهدي العباس بن الحسين. وتجمع العوام لقتله مرة بعد أخرى، وحفظه الله من كيدهم ومكرهم، وكفاه شرهم وولاه الإمام المنصور بالله الخطابة بجامع صنعاء، فاستمر كذلك إلى أيام ولده الإمام المهدي.

واتفق في بعض الجمع أنه لم يذكر الأئمة الذين جرت العادة بذكرهم في الخطبة، فثار عليه جماعة من آل الإمام الذين لا أنسة لهم بالعلم، وعضدهم جماعة من العوام وتواعدوا فيما بينهم على قتله في المنبر يوم الجمعة المقبلة، وكان من أعظم المحشدين لذلك السيد يوسف العجمي الإمامي القادم في أيام المنصور بالله والمدرس بحضرته، فبلغ الإمام المهدي ما قد وقع التواطؤ عليه، فأرسل لجماعة من أكابر آل الإمام وسجنهم، وأرسل لصاحب الترجمة أيضاً وسجنه، وأمر من يطرد السيد يوسف المذكور حتى يخرجه من الديار اليمنية،

فسكنت عند ذلك الفتنة، وبقي صاحب الترجمة نحو شهرين، ثم خرج من السجن، وولي الخطابة غيره، واستمر ناشداً للعلم؛ تدريساً وافتاءً وتصنيفاً، وما زال في محن أهل عصره. وكانت العامة ترميه بالنصب مستدلين على ذلك بكونه عاكفاً على الأمهات وسائر كتب الحديث، عاملاً بما فيها، ومن صنع هذا الصنع منه العامة بذلك، لاسيما إذا تظهر بفعل شيء من سنن الصلاة كرفع اليدين وضمهما ونحو ذلك، فإنهم ينفرون منه ويعادونه، ولا يقيمون له وزناً».

وقال: «وقد كان كثر أتباع صاحب الترجمة من الخاصة والعامة، وعملوا باجتهاده، وتظهروا بذلك، وقرؤوا عليه كتب الحديث ومنهم جماعة من الأجناد، بل كان الإمام المهدي يعجبه التظهر بذلك، وكذلك وزيره الكبير الفقيه أحمد بن علي النهمي، وأميره الكبير الماس المهدي. وما زال ناشراً لذلك في الخاصة والعامة، غير مبال بما يتوعده به المخالفون له. ووقعت في أثناء ذلك فتن كبار وقاه الله شرها.

وله مصنفات جليلة حافلة، منها (سبل السلام) اختصره من (البدر التمام) للمغربي، ومنها (منحة الغفّار) جعلها حاشية على ضوء النهار للجلال، ومنها (العدة) جعلها حاشية على شرح العمدة لابن دقيق العميد، ومنها (شرح الجامع الصغير) للأسيوطي في أربعة مجلدات، شرحه قبل أن يقف على شرح المناوى، ومنها (شرح التنقيح في علوم الحديث) للسيد الإمام محمد بن إبراهيم الوزير، وسماه (التوضيح)، ومنها (منظومة الكافل) لابن مهران في الأصول، وشرحها شرحاً مفيداً، وله مصنفات غير هذه. وقد أفرد كثيراً من المسائل بالتصنيف بما يكون جميعه في مجلدات. وله شعر فصيح منسجم جمعه ولده العلامة عبد الله بن محمد في مجلد، وغالبه في المباحث العلمية، والتوجع من أبناء عصره والردود عليهم.

وبالجملة، فهو من الأئمة المجددين لمعالم الدين، وقد رأيته في المنام في سنة ١٢٠٦ وهو يمشي راجلاً وأنا راكب في جماعة معي، فلما رأيته نزلت وسلمت

عليه، فدار بيني وبينه كلام حفظت منه أنه قال: دقق الإسناد، وتأنق في تفسير كلام رسول الله ﷺ. فخطر ببالي عند ذلك أنه يشير إلى ما أصنعه في قراءة البخاري في الجامع، وكان يحظر تلك القراءة جماعة من العلماء، ويجتمع من العوام عالم لا يحصون. فكنت في بعض الأوقات أفسر الألفاظ الحديثية بما يفهم أولئك العوام الحاضرون، فأردت أن أقول أنه يحضر جماعة لا يفهمون بعض الألفاظ العربية، فبادر وقال: قبل أن أتكلم قد علمت أنه يقرأ عليك جماعة وفيهم عامة، ولكن دقق الإسناد، وتأنق في تفسير كلام رسول الله ﷺ. ثم سألته عند ذلك عن أهل الحديث: ما حالهم في الآخرة؟ فقال: بلغوا بحديثهم الجنة، أو بلغوا بحديثهم بين يدي الرحمن الشك مني. ثم بكى بكاءً عالياً وضمني إليه وفارقني، فقصصت ذلك على بعض من له يد في التعبير وسألته عن تأويل البكاء والضم، فقال: لا بد أن يجري لك شيء مما جرى له من الامتحان. فوقع من ذلك بعد تلك الرؤيا عجائب وغرائب، كفى الله شرها. وتوفي رحمه الله سنة ١١٨٢. في يوم الثلاثاء ثالث شهر شعبان منها، ونظم بعضهم تاريخه. هكذا: محمد في جنان الخلد. ورثاه شعراء العصر وتأسفوا عليه.

وله تلاميذ نبلاء علماء مجتهدون، منهم شيخنا عبد القادر بن أحمد، وأحمد بن محمد قاطن، وأحمد بن صالح بن أبي الرجال، والعلامة الحسن بن إسحاق بن المهدي، والعلامة محمد بن إسحاق بن المهدي، وقد تقدمت تراجمهم، وغيرهم، مما لا يحيط بهم الحصر. ووالده كان من فضلاء الزاهدين في الدنيا، الراغبين في العمر، وله عرفان تام، وشعر جيد. ومات في ثلاث من ذي الحجة سنة ١١٤٢، وكان ولده صاحب الترجمة إذ ذاك بشهارة» اهـ.

وترجم ولده عبد الله فقال: «قرأ على والده وعلى السيد العلامة قاسم بن محمد الكبسي، وعلى السيد العلامة محسن بن إسماعيل الشامي، وعلى العلامة لطف الباري بن أحمد الورد خطيب صنعاء، وعلى السيد العلامة إسماعيل بن

الهادي المفتي، وعلى شيخنا العلامة السيد عبد القادر بن أحمد، وشيخنا العلامة علي بن الهادي عرهب وعلى غير هؤلاء. وبرع في النحو والصرف والمعاني والبيان والأصول والحديث والتفسير، وأخذ علماء العصر المفيدين، العاملين بالأدلة، الراغبين عن التقليد، مع قوة ذهن، وجودة فهم، وذكاء، وحسن تعبير، وخبرة لمسالك الاستدلال، ومحبة للفقراء، وعناية في إيصال الخير إليهم بكل ممكن، ومتانة دين وإشتغال بالعبادة، ودراية كاملة بمؤلفات والده ورسائله وأشعاره، وهو الذي جمع شعره في مجلد. وبلغني أنه نظم (بلوغ المرام)، وأنه الآن يشرحه. وله جوابات في مشكلات وفتاوى. وقد تخرج به جماعة، العلامة عبد الحميد بن أحمد قاطن، ولا شغلة له بغير العلم، والإكباب على كتب الحديث، وتحرير مسائله وتقرير دلائله» ا. هـ.

وترجم أيضاً لعلي بن إبراهيم، وضمنها ترجمة أبيه إبراهيم بن محمد بن إسماعيل، وأخيه يوسف بن إبراهيم قال: «ولد شهر القعدة سنة ١١٧١، وقرأ في العربية والحديث، واستفاد في أسرع مدة مع أنه لم يشتغل كثيراً، ولكنه مفرط الذكاء، سريع الفهم، قوي الإدراك، جيد الفطنة، يتوقد ذكاء، فصيح العبارة، فايق النظم والنشر. وله مصنفات منها (السرّ المصون)، و (رسالة في تحريم تحلية السلاح بالذهب)، و (تأنيس أرباب الصفا في مولد المصطفى)، و كتاب (النفحات الربانية واللمحات الرحمانية في إحرار ذخاير الصلات بأبرار ضماير الصلوات)، و (الفتح الإلهي بتنبيه اللاهي)، وكلها حسنة.

وحج مرات، وتردد ما بين صنعاء ومكة، ومال إلى الأدب، واشتهرت أشعاره، وطارت في الأقطار اليمنية، واشتغل بها الناس وكتبوها وحفظوها. وكان يكثر من مطارحة الأدباء، ومجالستهم، ومجاذبتهم للطايف وفنون الأدب، ثم انجمع إلى نفسه وترك الشعر، والتفت إلى العبادة والإذكار والوعظ وتعليم العامة أمور الدين، فعقد مجالس بجامع صنعاء وبغيره من مساجدها، وبجامع الروضة. وكان يجتمع عليه جمع جم، ورغب الناس إليه، وأقبلوا على وعظه،

وكان يتحدر عندما يتكلم عن الناس من أول المجلس إلى آخره، ولا يتلعثم في عبارة، ولا يتردد في لفظ، كأنه يملي من كتاب، ويستطرد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، ويسرد من ذلك شيئاً كثيراً، بعبارة حسنة، ومسالك مستحسنة وجمع مجاميع حسنة، منها رسالة في تفسير ألفاظ الآداب، وأخرى في تحريم التخلي بالذهب. وله من ذلك أشياء نفيسة، وله فصاحة وبراعة، وقوة نفس وعفة، وإنكار للمنكر بما يستطيعه وتبلغ إليه قدرته. وكثيراً ما يصل إليَّ وإذا حدث شيء من ذلك ولا يزال، حتى أساعده على القيام، في دفع ذلك الحادث. وأحواله كلها حسنة، وله في الذب عن الغيبة والنميمة غاية كاملة لا يدع أحداً يذكر أحداً بسوء في مجلسه، وله أذكار وصبر على تعليم العامة ما يهمهم من أمر دينهم، وهو الآن مستمر على هذه الأحوال الجميلة. وللناس به انتفاع كثير، ومع هذا فلم يسلم من المنافسة له، والمبالغة في الحط عليه، والتظهر بثلبه، وهو صابر محتسب. وقد كتب إلى أبياتاً بعد تركه لنظم الشعر، وهي:

طبل شيطاني ومزمار الهوى ... ضربا، والنفس باتت ترقص
ورياض القلب قد أهملها ... عدم التقوى فباتت تنقص
أعرب اللفظ بقرآني وكم ... ألحن المعنى، فهل لي مخلص؟
يا لقومي! لم أجد محتسباً ... فاضلاً عن منكراتي يفحص
فعسى ربي بجاه المصطفى ... يذهب الدا فتزول الغصص

فأجبته عنه بقولي:

قد شفقت الطبل والمزمار ... مثلك اليوم لزمر يرقص
وكذلك النفس قد ألجمتها ... بلجام الزهد، وهو المخلص
أنت لا تفحص عن عيب أمرأ ... من ظل لعيب يفحص
فرض النفس إذ زاد الهوى ... فهو إن ما رضتها ينتقص

يا لحلم الله أناساً، كلما لاح للأطماع برق بصبصوا
وإذا نال الفتى مكرمة كان من ذاك لديهم غصص

وهو الآن ما بين الأربعين والخمسين من عمره، فعمَّتْ فوايده، ثم مات رحمه الله في شهر ذي الحجة سنة ١٢١٩. ووالد المترجم له هو من أعيان العلماء وأكابر الفضلاء، جامع بين الشريعة والطريقة، عارف بفنون من العلم، لاسيما الحديث والتفسير، وله من التصرف والتسليك يد طولى. قرأ على والده وعلى غيره، وأقرأ في جامع صنعاء في صحيح البخاري وغيره، وله في الوعظ يد طولى. وقد قعد كذلك في مواطن فانتفع به الناس، ثم رحل إلى مكة واستوطنها، بسبب أمور جرت له مشتملة على الامتحانات، وهو الآن مقيم هناك، وقد رغب عن الرجوع إلى اليمن، وهو وافر الجاه عند أهلها، عظيم الحرمة، رفيع الدرجة، وصار هنالك مأوى لمن دخل مكة للحج من أعيان أهل اليمن. وقد كتب إلي كتاباً يتضمن المعاهدة ولم يكن قد عرفني قبل ارتحاله إلى هنالك؛ لأنني كنت إذ ذاك في أيام الصغر، وأنا رأيته مرة واحدة يصلي بالناس في بعض المساجد بصنعاء، فسمعت قراءة فايقة بصوت مطرب، مع هيئة جميلة وشيبة منورة. وله مصنفات في الوعظ والرقايق والتصوف، وهي مشحونة بالفصاحة والبلاغة، وهو كان يستحق إفراده بترجمة، ولكن اكتفيت بذكره ها هنا. ومات ثاني عشر شوال سنة ١٢١٣، ومولده سنة ١١٤١.

ومن مصنفاته (الفلك المشحون) و (شرح أسماء من يقول للشيء كن فيكون)، وشرح للأربعين الجوهرية، وله تفسير غريب الأسلوب سماه (مفاتح الرضوان في تفسير القرآن بالقرآن) كتب منه مجلداً ضخماً، وجمع مجموعاً في ترجمة والده، ذكر فيه مؤلفاته وتلامذته، وقد وقفت على جميع ذلك.

وولده يوسف بن إبراهيم ساكنه عنده هنالك، وهو من المشتغلين بالعلم والزهد وسلوك طريق الخير والعبادة، والاشتغال بأمر الآخرة. وله في الأدب

مسرح قـوي، وهو أصغـر من أخيه عـلي المترجم لـه. وقـد خـرج إلى صنعـاء، وسمعت تلاوته، وهي تلاوة فايقة بنغمات رايقة، ورأيته يقـرأ على عمـه عبد الله ابن محمـد المتقـدم ذكـره في مـدرسـة الإمـام شرف الـدين بصنعـاء في صحيـح البخاري. توفي سنة ١٢٤٤. رحمه الله تعالى».

آل الورد

أسرة يمنيـة كريمـة نشـأت في ثـلاء، شـمال غـربي صنعـاء، ثم انتقلت إلى صنعاء واستقرت بها. ترجم الشوكاني لعميدها لطف الباري الورد وأبيه، فقال: «خطيب صنعاء، وواحد مشاهير علمائها. نشأ بثلاء وأخـذ العلم عن جماعـة من أهلهـا، ثم ارتحل إلى صنعـاء وأخذ عن جمـاعة من العلماء، وأكـثر من مـلازمـة السيد العلامة القاسم بـن محمد الكبسي، وبه انتفع. وأخذ عن القـاضي العلامـة أحمد بن محمد قاطن، وبرع في جميع العلوم لاسيما علم الحـديث والتفسير، فـإنه فيهما من المبرزين وبعد إرتحاله إلى صنعاء جعله الإمام المهدي العباس بن الحسن خطيباً بجامع صنعاء، فاستمر على ذلك حتى مات الإمام المهدي، ثم استمـر في خلافة الإمام مولانا خليفة العصر المنصور بالله ـ حفظه الله ـ إلى أن مات في يوم السبت سادس شعبان سنة ١٢١١ إحدى وعشرين ومئتين وألف، فأقام مولانا في الخطابة ابن صاحب الترجمة العلامة الخطيب المصقع أحمد بن لطف الباري، كـما تقدم في ترجمته.

وكان صاحب الترجمة متفـرداً في أمور، منهـا الورع الشحيـح، والاشتغال بخاصة النفس، والإقبال على العبـادة، والاستكثار من الـطاعة، وحسن الخلق، والتواضع، والبشاش، والانجماع عنـه الناس إلا فيـما لا بد منـه، وحفظ اللسان عن الهفوات والكبوات، لاسيما بما فيه تبعة، كالغيبة والنميمة، فإنه لا يُحفظ عنه في ذلك شيء، بل لا ينطق لسانه إلا بذكر الله والتذكير، أو بإمـلاء تفسير كتـاب الله وأحاديث رسول الله، وليس لـه التفات إلى شيء من أحـوال بني الدنيـا، ولم

يكن له شغل سوى أعمال الآخرة. ولوعظه في القلوب وقع، لكلامه في النفوس تأثير، مع فصاحة زايدة، وحسن سمت، ورجاحة عقل، وجمال هيئة، ونور شيبة، وملاحة شكل، وكمال خلقه.

والحاصل، إنه من محاسن الدهر، ولم يخلق بعده مثله في مجموعة، وله أتم عناية وأكمل رغبة بالعمل بما جاءت به السنة، والمشي على نمط السلف الصالح، وعدم التقليد بالرأي، وله في حسن التعليم مسلك حسن لا يقدر عليه غيره. وقد تخرج به جماعة من أكابر العلماء، كشيخنا العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والسيد العلامة عبد الله بن محمد الأمير، وولده العلامة أحمد بن لطف الباري، وغير هؤلاء من علماء الحصر. وأنا سمعت مجالس تفسيره القرآن ومواقف إملائه للحديث، ولكن كان ذلك حضوراً فقط. وكان يبذل نفسه في قضاء حوائج من يستعين به ويبالغ في ذلك، ولم يترك طريقاً من طرق الخير إلا سلكها، وفاق فيها.

ووالد صاحب الترجمة كان من أكابر العلماء، أخذ عن جماعة من أهل العلم، منهم المحدث الكبير عبد الرحمن بن محمد الحيمي المتقدم ذكره، والمحقق العلامة صالح بن مهدي المقبلي. وكان يحيي الليل بدرس كتاب الله، وإذا غلبه النوم نام متكئاً قليلاً ثم يعود للتلاوة. وحصل بخطه كتباً في عدة فنون، وكان يخطب بمدينة ثلا، واستمر على ذلك حتى توفاه الله تعالى» ا. هـ.

وترجم لولده أحمد فقال: «خطيب صنعاء وابن خطيبها. ولد في شهر رمضان سنة ١١٩٢ اثنتين وتسعين ومئة وألف، وولاه الإمام المنصور بالله علي بن العباس الخطابة مكان والده العلامة التقى الفاضل الورع الزاهد المسند، وكان كل أحد من الناس لا يظن أنه يلحق به في الخطابة أحد، فلما مات استشرف للخطابة، وكان سن صاحب الترجمة إذ ذاك ثمان عشرة سنة، فقام بالخطابة قياماً لا يقوم به أحد، وفاق والده عن قرب، وهو الآن مستمر على ذلك. وله شغلة بطلب العلم كبير مع ذهن وقّاد، وطبع منقاد، وفهم سليم، وفكر مستقيم. وقد

صار معدوداً من العلماء مع حداثة سنه. قرأ عليَّ شرح الجلال المعروف بضوء النهار، وفي شرح جمع الجوامع للمجلي، وهو الآن مستمر على ذلك، وعمره عند تحرير هذه الأحرف نحو العشرين سنة.

ومن أعلم مشايخه الذين تخرج بهم والده، منهم السيد العلامة إبراهيم ابن عبد القادر، والسيد العلامة محمد بن يوسف بن أحمد بن يوسف.

وبالجملة، فهو من محاسن الزمن في غالب أوصافه، بحيث يقصر عن حسن سمته، ورصانة عقله، وطهارة لسانه، وعفته ونزاهته. كثير من أهل الأسنان العالية انجمع واعتزل الناس؛ إما زهداً، أو فراراً من الخطبة، كما يفعله كثير من عباد الله الصالحين والعلماء العاملين».

آل الكبسي

الكبس هجرة علمية أنجبت الفطاحل الأفذاذ، والجهابذة الأعلام. تقع بجهة خولان الطيال، شرقي صنعاء. امتلأت كتب التراجم بعلمائها وفضلائها. والسادة آل الكبسي يلتقي نسبهم لدى علي بن معتق، وهم من الفرع الحسني المبارك. وإذا ذهبنا لاستقصاء عدد نجبائهم لطال بنا البحث، فنكتفي بثلاثة من كبارهم، أولهم: العلامة الزاهد المجاهد عبد الله بن لطف الباري الكبسي. قال الشوكاني في ترجمته:

«ولد في سنة ١١١٣، وهو أحد علماء صنعاء المبرزين في علم القراءات والآلات والحديث والتفسير. وكان يقرىء في جميع هذه العلوم، وله تلامذة صاروا علماء نبلاء.

وهذه جملة من قرأ عليه الإمام المهدي العباس بن الحسين قبل مصير الخلافة إليه. وكان زاهداً، متقللاً من الدنيا، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، وله في ذلك مقامات جليلة. وكان مقبول الكلمة عند الإمام المهدي، لا ترد له

شفاعة كائنة وما كانت لمزيد ورعـه، وعدم طمعـه في شيء من الدنيـا، وكذلـك سائر أرباب الدولة كانـوا يحبونـه ويهابـونه. وكـان يعمل بـالأدلة ويـرشد النـاس إليها، وينفرهـم عن التقليد، وله في نهي المنكر عناية عظيمة.

أخبرني بعض الثقات أنه مشى معه في بعض شـوارع صنعاء، فـرأى رجلاً جندياً وقد أراد الفاحشة من امرأة، أو صار يفعل الفاحشة بهـا، ففرق صـاحب الترجمة بينهما، فسبه ذلك الجندي سباً فظيعاً، فمر ولم يلتفت إلى ذلك، فقال لـه الـذي كان معـه: لو تـدعني أعرف هـذا الجنـدي حتى تـرفـع أمـره إلى الـدولـة ليعاقبوه، فقال: الذي وجب علينـا من إنكار المنكـر قد فعلنـاه لله، ولا أريد أن أفعل شيئاً لنفسي. دعه يسبني كيف شاء. وكـان لا يسمع بمنكـر إلا أتعب نفسه في القيام على صاحبه حتى يزيله، وإذا أصيب رجل بمظلمة فـر إليه، فيقـوم معه قومة صادقة حتى ينصف له، فرحمه الله وكافـأه بالحسنى، فلقـد كان من محـاسن الدهر، وما زال كذلك حتى توفاه الله في سنة ١١٧٣ ثلاث وسبعين ومئـة وألف» ا. هـ.

وترجم زبارة للقاسم بن محمد الكبسي فقال: «مولده سنة ١١١١، ونشـأ بصنعاء، فتخرج بالسيد الحافظ هاشم بـن يحيى الشامي، وأخذ عنه وعن السيد محمد بن إسماعيل الأمير، والمولى محمد بن إسحـاق بن المهدي، والسيـد أحمد بن عبد الرحمن الشـامي، والسيد صـلاح بن الحسين الأخفش، والفقيـه إبراهيم بن خالد العلفي، وأخـذ عن الشيخ عبـد الخالق بن الـزين المزجـاجي الزبيـدي في الأمهات، واستجاز منه، وأسمع كتب الحديث وتلقاها عن أهلها، وأجازه السيد محمـد بن إسماعيـل الأمير وغـيره. وعنه أخـذ جمـاعـة لا يحصـون، منهم السيـد محمد بن يحيى بن أحمد الكبسي، والقاضي الحسن بن إسماعيل المغربي، وعـلي بن إسماعيل النهمي، وغيرهم.

وقد ترجمه الشوكاني فقال: برع في العلوم ولاسيما علم الحديث، فإنه صار فيه إماماً كبيراً، وأخذ عنه الناس في صنعاء طبقة بعد طبقة، وانتفعوا بـه. وكان

يتولى في بعض الأوقات، فتولى وقف ثلا، وبقي هناك أياماً وعاد إلى صنعاء، واستمر على نشر العلم. وطال أجوبة مفيدة.

وترجمه مؤلف النفحات فقال: إمام السنة والأصول المحقق في المعقول والمنقول، له أنظار ثاقبة في كتب العلوم، ورسائل نفيسة، وحواش متفرقة وأبحاث كثيرة. وكان مائلاً إلى الإنصاف، محبوباً عند الخاص والعام، معظماً عند الصغير والكبير. وله شكل عجيب، وجمال بديع، وسمت ووقار، وحسن تودد إلى الناس، وبشاش، وخلق عظيم. وكان عابداً أواهاً، يقطع ليله بعبادة الله تعالى، ونهاره بنشر العلوم» ا. هـ.

وترجم زبارة أيضاً للسيد المحقق أحمد زيد الكبسي، وهو خاتمة كبار علماء هذا البيت، فقال: «مولده في شهر رجب سنة ١٢٠٩، وأخذ عن القاضي العلامة الحسن بن محمد العنسي الصنعاني، جميع شرح الغاية في الأصول الفقهية للحسين بن القاسم، والمطول، والشرح الصغير وحواشيه، والعضد، وشرح العمدة، وسائر مصنفات ابن دقيق العيد، والمناهل الصافية، وشرح الجاهي، ومغني اللبيب، وغير ذلك، له منه إجازة عامة.

وأخذ عن السيد الحافظ الشهير عبد الله بن محمد بن إسماعيل الأمير صحيح البخاري، وجميع مسموعاته، وله منه إجازة عامة في جميع ما اشتمل عليه مؤلف شيخه المذكور المسمى (شفاء العليل بالسند الجليل).

وأخذ عن السيد العلامة محمد بن عبد الرب بن محمد بن زيد بن المتوكل، جميع الأساس للإمام القاسم بن محمد في أصول الدين، وشرح التجريد للمؤيد بالله، وشفاء الأمير الحسين في الحديث وإحكام الإمام الهادي، وغير ذلك من كتب الأئمة الفقهية والحديثية، وله منه إجازة عامة.

وأخذ عن القاضي العلامة عبد الرحمن بن حسين المجاهد الصنعاني في الفقه والفرائض.

وأخذ عن القاضي العلامة محمد بن علي الشوكاني جميع الكشاف، وفي المطول وحواشيه، وشرح الرضي على الكافية، وفي نيل الأوطار، وغيره من كتب الحديث وشروحها، وله منه إجازة عامة.

وأخذ عن السيد العلامة القاسم بن محمد بن إسماعيل الأمير، والقاضي العلامة محمد بن علي العمراني، وغيرهم من أكابر علماء صنعاء بعصره، حتى برع في جميع الفنون، وصار أحفظ أهل عصره للمعقول والمنقول، وإمامهم في النحو والصرف، والمنطق، والمعاني والبيان، والفروع والأصول، وواعظهم المؤثر في الصدور، ومرجعهم لحل المشكلات والمبهمات.

ومن أكابر من أخذ عنه من العلماء الأعلام: الإمام محمد بن عبد الله الوزير، والسيد الحافظ إسماعيل بن محسن بن عبد الكريم بن إسحاق، والقاضي المحقق الزاهد أحمد بن عبد الرحمن المجاهد، والقاضي العلامة عبد الملك بن حسين الآنسي الصنعاني، وغيرهم.

وقد ترجمه العلامة الشجني في التقصار فقال: بلغ في التحقيق إلى الغاية، وصار مرجعاً للطلبة في نحو وصرف، ومنطق، ومعان وبيان، وأصول، وغير ذلك، مع فهم تام، وكمال إدراك، وقوة حافظة، وصدق تصور، وإتقان متون الفتون، وملازمة درسها، وقل من يبذل نفسه من مشايخ العصر لنفع الطلبة مثله. توفي سنة ١٢٧١ ا. هـ».

آل حنش

بيت قديم في العلم، بداية ذكره في القرن السابع الهجري، وله إلى مجده التليد مجد جديد، فلا يزال في أحياء عصرنا من يعرف من أهل هذا البيت بفضل أو علم، أولهم العلامة محمد بن يحيى بن حنش المتوفى سنة ٧١٩. ذكر الشوكاني أنه بلغ رتبة الاجتهاد من مؤلفاته؛ التمهيد والتفسير لفوائد التحرير في

الفقه، والغياصة على الخلاصة للرصاص في الأصول، والقاطعة في الرد على الباطنية، مجلدين.

ثم علي بن قاسم حنش المتوفى سنة ١٢١٠. أثنى عليه الشوكاني فقال: بعد ذكر علمه وكثرة تحصيله، وتجواله في البلاد، حتى عرف اليمن كله، أو أكثره. وحج فتعرف على علماء الحرمين، ثم وصل صنعاء فأنس به المهدي العباس، ثم حبسه لوقيعة حاسديه به.

قال الشوكاني ضمن ترجمته: «هو من نوادر الدهر في جميع أوصافه، لا تخفى عليه من أحوال أبناء الدهر في زمانه خافية، ولا يسمع متكلماً يتكلم في علم أو أدب وتاريخ من تقدم أو تأخر، إلا ويجري معه ويحكي مثل حكايته. وله في العلم حظ وافر،وفي الأدب سهم قاهر، وفيه كرم مفرط، يجود بموجوده مع قلة ذات يده، وقد يتصدق في بعض أوقاته بثيابه، ولا يمسك شيئاً وقد كان يصل إليه عند اتصاله بالإمام المهدي شيء واسع، فينفقه ولا يدخر منه شيئاً، وهو من رجال الدهر قد حنكته التجارب، وحلب الدهر أشطره، ومارس ما لم يمارسه غيره، من محبوب ومكروه، وصديق وعدو، ويسر ورخاء. وهو من أسرع الناس جواباً في كل ما يرد عليه لا يعجم ولا يتلعثم، ولا يعتريه خوار، وكثيراً ما يتفرس في الحوادث قبيل وقوعها، فيتفق وقوعها في الغالب كما يحدس. وله اتصال بأكابر الناس وأصاغرهم، قد استوت لديه طبقاتهم، كما استوت لديه الشدة والرخاء، والإقبال والإدبار والمكروه، قد رأى نفسه أميراً كما رآها فقيراً، ورآها تارة في البقاع وتارة في أخفض البقاع، وهو الآن في الحياة قد جاوز السبعين ولم يفتر نشاطه، ولا خفّ ضبطه، ولا تكدرت أخلاقه. وبالجملة فهو قليل النظر في مجموعة.

ومن محاسن كلامه الذي سمعته منه: ««الناس على طبقات ثلاث، فالطبقة العالية العلماء الأكابر، وهم يعرفون الحق والباطل، وإن اختلفوا لم تنشأ

عن اختلافهم الفتن لعلمهم بما عند بعضهم البعض. والطبقة السافلة: عامة على الفطرة، لا ينفرون عن الحق، وهم أتباع من يقتدون به؛ إن كان محقاً كانوا مثله، وإن كان مبطلاً كانوا كذلك. والطبقة المتوسطة: وهي منشأ الشرّ، وأصل الفتن الناشئة في الدين، وهم الذين لم يمعنوا في العلم حتى يرتقوا إلى رتبة الطبقة الأولى، ولا تركوه حتى تكونوا من أهل الطبقة السافلة، فإنهم إذا رأوا أحداً من أهل الطبقة العليا يقول ما لا يعرفونه مما يخالف عقائدهم التي أوقعتهم فيها القصور، وجهوا إليه سهام التقريع، ونسبوه إلى كل قول شنيع، وغيروا فطر أهل الطبقة السفلى عن قبول الحق تمويهات باطلة، وعند ذلك تقوم الفتن الدينية على قدم وساق». توفي سنة ١٢١٩ هـ».

وثالثهم هو الوزير العالم المحسن الصالح الحسن بن علي حنش من تلامذة محمد بن إسماعيل الأمير جمع كثيراً من العلوم، وأفاض الشوكاني في ذكر دراسته وولايته ومكانته لدى المهدي العباس، وولده المنصور علي. ثم قال: «وغالب ما يتحصل له ينفقه على العلماء ويواسي به الفضلاء والفقراء على وجه لا يحب أن يطلع عليه أحد. وما زال على هذا نحو ٢٣ سنة وهو لا يزداد إلا خيراً وإنفاقاً على من يستحق ذلك. وهو في هذه الخصلة منقطع القرين، عديم النظير، لاسيما في هذا العصر، فإنه قد يعطي بعض المحاويج الذين لا يتصلون به عطاء يجاوز الوصف في الكثرة، ويشتري البيوت ويهبها لمن لا بيت له، ويعين من أراد أن يشتري بيتاً إذا كان مستحقاً لأكثر الثمن أو كله، وقد صنع هذا المصنع مع أناس كثيرين وهو يكره ظهور ذلك وإطلاع الناس عليه، وذلك دليل الخلوص.

وإني لأكثر التعجب من كثرة صدقاته التي منها ما يبلغ المئة القرش وفوقها ودونها، بل أخبرني بعض العلماء أنه أطلع على مواهبه لبعض العلماء، وكانت جملته ألف قرش دفعة واحدة، وأخبرني آخر أنه بلغ إعطاؤه لعالم آخر ألفاً ومئتي قرش دفعةً واحدة، وناهيك بهذا، فإن عطاء الملوك في عصرنا يتقاصر عنه. ويزداد التعجب من استمراره على ذلك، كيف قدر على القيام به مع أن غيره ممن

ينظره أعمال أكثر من أعماله ومدخولات أوفر من مدخولاته، قد لا يقوم ما يتحصل له بما يستغرقه لخاصة نفسه وأهله، فضلاً عن غير ذلك؟ ثم أذكر قول الله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾، وقول النبي: «أنفق ينفق عليك»، فاعلم عند ذلك السبب.

ومع هذا فهو في عيش فائق، مترف في ملبوسه ومأكوله، ومسكنه ومركبه، وجميع أحواله على حد يقصر عنه أمثاله. قد جمع الله له من نعم الدنيا ما لا يدركه غيره، وأعطاه الكمالات ما لا يوجد مجتمعاً في سواه، فإنه مع إحكامه لما يتعلق به من الأعمال الدولية، معدود من العلماء، مذكور في الفرسان، مشهور بحسن الرماية. جيد الخط، قوي النثر، حسن الأخلاق. وكان بشوشاً متواضعاً، سيوساً، جليلاً وقوراً ساكناً، عفيفاً، ومواظباً على الجمعة والجماعة، كثير الأذكار، محباً للفقراء، ولاسيما إذا كانوا من أهل بيت النبوة، راعياً في الخير، كافاً لنفسه من الشر، معظماً للشرع. توفي سنة ١٢٢٥هـ».

آل زبارة

هم من البيت الهادوي الحسني، وعرفوا باسم زبارة. سكناهم جبل بمسور خولان العالية، يعرف بهذا الاسم. وأول من سكنه من أجدادهم هو الأمير الحسين بن علي، وبه كان يدعى. وأول من نذكره هو العلامة المسند الحسين ابن أحمد الذي يعد في طبقة محمد بن إسماعيل الأمير، وهاشم بن يحيى الشامي. وسند الإمام الشوكاني يتصل به من طريق والده يوسف عن عبد القادر بن أحمد. ترجمه الشوكاني فقال:

«وأخذ عن العلامة علي بن يحيى البرطي، وعن السيد العلامة السيد زيد بن محمد، وسائر أعيان ذلك الزمان. وبدع في جميع المعارف، وله عناية كاملة بأسانيد مسموعاته وغيرها. وكان له بالسيد يوسف بن المتوكل اتصال ومحبة ومعاضدة، وولاه الإمام المتوكل القاسم بن الحسين بضوران، وكان يتخوف قبل

من المهدي صاحب المواهب، بسبب صحبته ليوسف بن المتوكل إسماعيل. وهو من أكابر العلماء وأنا.

روى عن شيخنا العلامة عبد القادر بن أحمد بن يوسف بن صاحب الترجمة عنه. توفي في سنة ١١٤٣» ا. هـ.

ولعل العلم كان في حفيديه أحمد وحسن أظهر وأكثر منه في ولده والديهما يوسف، فإن شيخ الإسلام الشوكاني عني بترجمة أحمد بن يوسف، وأدرج فيها شيئاً من خبر أبيه، وأورد السيد محمد زبارة ترجمة هنا فيه للحسين بن يوسف هذا.

ومما يجب التنبيه عليه والاعتراف به، هو اليد الطولى والخدمة الجلّى التي قدمها العلامة المؤرخ محمد بن محمد زبارة للتاريخ اليمني بأسناده المتعددة، وموسوعته التاريخية القيمة، التي جمع فيها أخبار وأحوال وأنساب رجالات اليمن وبيوتاتها، من أقصى جنوب اليمن إلى أقصى شماله، وعلى امتداد خمسة قرون انتشر منها من الضياع الكثير والكثير، وأتم الله به حلقة تراجم رجال اليمن حتى اليوم. وقد وردت ترجمة له في كتابه (نزهة النظر) أهملت الكثير من جوانبه، ولا يغفر ذلك التقصير إلا ما ورد في مقدمة الكتاب من التفصيل والاستيعاب لأحواله. رحمه الله.

قال مترجمه في (نزهة النظر): «مولده بصنعاء سنة ١٣٠١ هـ، ونشأ بها، وطلب العلم بجد ونشاط، وشغف بالأدب والاطلاع على الأخبار والتاريخ، وأخذ عن السيد العلامة محمد بن قاسم الظفري سابق الذكر، والعلامة محمد بن محمد السنيدار، والقاضي علي بن حسين المغربي، وغيرهم.

وله مؤلفات كثيرة في التاريخ اليمني، منها (تحفة المسترشدين في الأئمة المجددين)، و (نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف)، و (نيل الوطر في رجال اليمن في القرن الثالث عشر ومن ذلك هذا الكتاب المسمى (نزهة النظر).

وكان من أيام سابقة قد جمع تراجم الكثير من علماء القرن الرابع عشر، وعاقه الحمام قبل طبعه وتهذيبه. وقد طبع من مؤلفاته (تحفة المسترشدين)، و (نشر العرف)، و (نيل الوطر).

وقد قام برحلات في نشر العلم إلى مصر والعراق وإيران والحجاز، وحج عدة مرات، وأشرف على طبع كثير من كتب العلم النافعة، منها (فتح القدير في التفسير) لشيخ الإسلام القاضي محمد بن علي الشوكاني، و (الروض النضير شرح مجموع الإمام زيد بن علي للقاضي حسين السياغي وتحفة الذاكرين) و (شرح عدة الحصن الحصين)، و (البدر الطالع) للشوكاني. وكثير من الرسائل اليمنية. وقد أخذ بالإجازة عن مشائخ اليمن وغيرهم، ومنهم المولى الحسين بن علي العمري. وخلف أولاداً نجباء أكبرهم السيد العلامة أحمد بن محمد، وقد سبقت ترجمته في حرف الهمزة، ومنهم السيد إبراهيم بن محمد، وأمين بن محمد، وعبد الله، فتح الله عليهم. ومن حفدته السيد أحمد بن علي، فتح الله عليهم».

آل الشوكاني

تنتسب هذه الأسرة إلى هجرة شوكان من خولان العالية شرقي صنعاء، وشاء الله أن تكون هذه الأسرة هي المنجبة لأكبر شخصية علمية في تاريخ اليمن الإسلامي، وهو إمام السنة محمد بن علي الشوكاني المولود سنة ١١٧٣، المتوفى سنة ١٢٥٠. عاش بين أبوين كريمين ميسوري الحال يعيشان في بيت متواضع بالإيجار في مدينة صنعاء، وكان الأب القاضي علي بن محمد الشوكاني محباً للعلم، متعلقاً بالمساجد، حريصاً على البعد عن أبواب الكبراء والأمراء. وشب فتاه محمد مفتوح الذهن، شغوفاً بالتاريخ والأدب، مطبوعاً على البحث والاستقصاء وحرية الفكر وحب الإنصاف. سأل أباه ذات يوم وهو يدرس عليه: لماذا يقلد الناس مؤلف كتاب معين بذاته؟ فأخبره أبوه: إنها لعادة استقرت بذلك، فأجاب الفتى: أهو أعلم الناس؟ عندها أدرك الأب شغف الابن بالإنصاف والغوص

على الحقائق، أجابه برفق: ستعرف ذلك يا بني حين تكبر.

ومضى الفتى يستوعب علوم عصره بنهم لا يشبع، وعطش لا يرتوي. ولما بلغ العشرين كان قد حفظ الكتاب الكريم، وأهم متون اللغة بعلومها الخمسة، والحديث والأصول والفروع والمنطق. ودرس شروحها، وتمكن من قواعدها وتفريعاتها، فأصبح مؤهلاً للإفتاء باعتراف شيوخه الذين كانوا معجبين به، ويحيلون السائلين إليه، بل إن بعضاً من شيوخه عادوا يدرسون عليه، كما فعل أبوه والسيد أحمد بن يوسف زبارة. وتزامل مع شيوخه كما فعل مع القاسم بن يحيى الخولاني، ومات قاضي صنعاء الأكبر يحيى بن صالح السحولي، فأصبح منصب القضاء العام شاغراً، ولم يجد المنصور علي بن الحسين من يملأ هذا المنصب بعد طول بحث غير ابن السادسة والثلاثين، محمد بن علي الشوكاني العاكف في جامع صنعاء على التعليم والإفتاء والتأليف فتقلد منصب القضاء العام استجابة لإلحاح كبار مصلحي صنعاء، المشفقين من صيرورة هذا المنصب الخطير إلى غير ذي أهلية له.

واستمر في القضاء من سنة ١٢٠٩ إلى وفاته سنة ١٢٥٠ لثلاثة أئمة: المنصور علي، وولده المتوكل أحمد، وحفيده المهدي عبد الله. واشترط عند قبوله هذا المنصب أن يخصص أياماً من الأسبوع لمواصلة التدريس والتأليف، وجمع إلى القضاء العام منصب مستشار الإمام، فكان مرجع الدولة في كبار الأمور. وبحكمته وحنكته وتقواه عمل على إلغاء المكوس (الضرائب)، والتقيد بالنصوص الشرعية في أخذ الزكاة وصرفها، ومنع الغرامات والمظالم المالية، ونشر التعليم الديني على نفقة الدولة. وكان أهم أهدافه تطهير القضاء من المرتشين والمقلدين، فعمل على اختيار القضاة المؤهلين للاجتهاد، المستقيمي السلوك، الطاهري اليد والجيب. وتم له خلال فترة حياته نشر المدرسة الاجتهادية في اليمن، تعليماً وقضاءً، إذ كانت له مدرسة تربوية فصلنا خطوطها العريضة وتنظيماتها المنهجية ضمن ما فصلناه من أحوال آل الشوكاني؛ ولديه علي وأحمد وأخيه قاضي القضاة

من بعـده يحيى بن علي الشـوكاني، في كتـابنا عن شيـخ الإسـلام محمـد بن عـلي الشوكاني.

وكان له إلى جانب ذلك كله ذوق أدبي رفيـع، وموهبـة شاعـرية خصبـة، وإحاطة موسوعية بالتاريخ الإسلامي، تناولناها كلها في كتابنا الآنف. وسنقتصر هنا على ذكر علومه التي تلقاها من مشائخه، ثم ذكر مؤلفاته كما ذكرها في تـرجمته لنفسه، وكما أضاف إليها زبارة. وإليك ما قاله عن علومه ومشائخه:

«قرأ القرآن على جماعة من المعلمين، وختمه على الفقيـه حسن بن عبد الله الهبـل، وجوّده عـلى جماعـة من مشائـخ القرآن بصنعـاء (حفظ الأزهار) لـلإمـام المهـدي، و (مختصر الفرائض) للعصيفـري، و (المحلة للحريـري)، و (الكافيـة والشافية) لابن الحـاجب، و (التهذيب) للتفتـازاني، و (التلخيص) للقزويني، و (الغاية) لابن الإمام، وبعض (مختصر المنتهى) لابن الحاجب، و(منظومة الجزري)، و(منظومة الجزاز) في العروض وآداب البحث للعضد، و(رسالة الوضع) له أيضاً. وكان حفظه لهذه المختصرات قبل الشروع في الطلب، وبعضها بعد ذلك تم قبل شروعه في الطلب.

كان كثير الاشتغال بمطالعة كتب التواريخ، ومجاميع الأدب، من أيام كـونه في المكتب، فـطالع كتبـاً عدة، ومجـاميع كثـيرة، ثم شرع في الطلب، وقـرأ على والده ـ رحمه الله ـ في شرح الأزهار، وشرح الناظري لمختصر العصيفري، وقرأ في شرح الأزهار أيضاً على السيد العلامة عبـد الرحمن بن قـاسم المداني، والعـلامة أحمـد بن عامـر الجدائي، والعـلامة أحمـد بن محمد بن الحـرازي، وبه انتفـع في الفقه، وعليه تخرج. وطالت ملازمته له نحو ثلاث عشرة سنة، وكرر عليه قراءة شرح الأزهار وحواشيه، وقرأ عليه بيان ابن مظفر، وشرح النـاظري وحـواشيه. وفي أيام قراءته في الفروع شرع في قراءة النحو، فقرأ الملحة وشرحها على السيـد العـلامة إسـماعيل بن الحسـين بن أحمد بن الحسن بن الإمـام القاسم بن محمـد،

وقواعد الإعراب وشرحها للأزهري والحواشي جميعاً على العلامة عبد الله ابن إسماعيل النهمي، وشرح السيد المفتي على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والعلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، وأكمله من أوله إلى آخره على كل واحد منهما. وقرأ شرح الحبيص على الكافية وحواشيه على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي، من أوله إلى آخره، وكذلك قرأه من أوله إلى آخره على شيخنا العلامة القاسم ابن يحيى الخولاني، وقرأ شرح الجامي من أوله إلى آخره، وقرأ شرح الرضي على الكافية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، وبقي منه بقية يسيرة. وقرأ شرح الشافية للطف الله الغياث جميعاً على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، وقرأ شرح إيساغوجي للقاضي زكريا على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي جميعاً، وشرح التهذيب للشيرازي واليزدي على شيخه العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، من أولها إلى إسماعيل المغربي. واقتصر على بعض من ذلك. وشرح التخليص المختصر للسعد وحاشيته للطف الله الغياث على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني جميعاً، ما عدا بعض المقدمة فعلى العلامة علي بن هادي عرهب. والشرح المطول للسعد التفتازاني أيضاً، وحاشية للشريف ولتلبي ما تدعو إليه الحاجة. وقرأ الكافل وشرحه لابن لقمان على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي جميعاً، وشرح الغاية على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، وحاشيته لسيلان، وشرح العضد على المختصر وحاشيته للسعد، وما تدعو الحاجة إليه من سائر الحواشي. وكمل ذلك على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وشرح جمع الجوامع للمحلي وحاشيته لابن أبي شريف على شيخه السيد الإمام عبد القادر بن أحمد، وكذلك شرح القلائد للنجري، وشرح المواقف العضدية للشريف، واقتصر على البعض من ذلك. وقرأ شرح الجزرية على العلامة هادي بن حسين القارني، وقرأ جميع شفاء الأمير الحسين على العلامة عبد الله بن إسماعيل النهمي وسمع أوائله على العلامة عبد الرحمن بن الحسن الأكوع، وقرأ البحر الزخار وحاشيته وتخريجه، وضوء النهار على شرح الأزهار،

على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، ولم يكملا. وقرأ الكشاف وحاشيته للسعد وبعد انقطاعها حاشيته للسراج، مع مراجعة غير ذلك من الحواشي على شيخه العلامة الحسن ابن إسماعيل المغربي، وتم ذلك إلا فوتاً يسيراً في آخر الثلث الأوسط. وسمع البخاري من أوله إلى آخره على السيد علي بن إبراهيم بن عامر، وسمع على السيد عبد القادر بن أحمد جميع مسلم والترمذي، وبعض سنن ابن ماجة وشفاء القاضي عياض، وغيرها. وسمع هنا بعضاً من جامع الأصول، وبعض سنن النسائي، وبعض المعالم للخطابي، وبعض شرح ابن رسلان على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وكذلك بعض المنتقى لابن تيمية على السيد عبد القادر بن أحمد، وكذلك سمع شرح بلوغ المرام على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وفاته بعض من أوله، وكذلك سمع على العلامة عبد القادر بن أحمد بعض فتح الباري، وعلى الحسن بن إسماعيل المغربي بعض شرح مسلم للنووي، وبعض شرح العمدة على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والتفتيح في علوم الحديث على العلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، والتحفة وشرحها على العلامة القاسم بن يحيى، وبعض ألفية الزين العراقي وشرحها له على العلامة عبد القادر أحمد، وجميع منظومة الجزار وجميع شرحها له في العروض على شيخنا المذكور، وشرح آداب البحث وحواشيه على العلامة القاسم بن يحيى الخولاني، والخالدي في الفرائض، والضرب في الوصايا، والمساحة، وطريقة ابن الهايم في المناسخة، على السيد العارف يحيى بن محمد الحوشي، وبعض صحاح الجوهري، وبعض القاموس على السيد العلامة عبد القادر بن أحمد، مع مؤلفه الذي سماه (فلك القاموس).

هذا ما أمكن سرده من مسموعات صاحب الترجمة ومقروءاته. وله غير ذلك من المسموعات والمقروءات. وأما ما يجوز له روايته بما معه من الإجازات، فلا يدخل الحصر كما يحكي ذلك مجموع أسانيده» ا. هـ.

أما مؤلفاته فكما فصلها هو قال: «وصنف تصانيف مطولات ومختصرات،

فمنها: (شرح المنتقى)، كان تبييضه في أربع مجلدات كبار، أرشده إلى ذلك جماعة من شيوخه، كالسيد العلامة عبد القادر بن أحمد، والعلامة الحسن بن إسماعيل المغربي، وعرض عليه بعضاً منه، ومات قبل إتمامه. ومنها: (حاشية شفاء الأورام) في مجلد، الدرر البهية وشرحها (الدراري المضيئة) في مجلد: (الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة) في مجلد. وهذا الكتاب في مجلد.

ومن المختصرات: (الإعلام بالمشايخ الأعلام والتلامذة الكرام) جعله كالمعجم لشيوخه وتلامذته، وقد ذكر أكابرهم فيها في ما يتقدم ويأتي من هذا الكتاب، و (بغية الأريب من معنى اللبيب) نظم ذكر فيها ما تمس الحاجة إليه وشرحه، ونظم (كفاية المختظ) ولم يبيض، وكان نظمه لهاتين المنظومتين في أوائل أيام طلبه، و (المختصر البديع في الخلق الوسيع) ذكر فيه خلق السموات والأرض والملائكة والجن والإنس، وسرد غالب ما ورد من الآيات والأحاديث، وتكلم عليها فصار في مجلد لطيف، ولكنه لم يبيضه و (المختصر الكافي من الجواب الشافي)، و (طيب النشر في جواب المسائل العشر)، و (عقود الزبرجد في جيد مسائل علامة ضمد)، و (الصوارم الهندية المسلولة على الرياض الندية)، ورسالة في أحكام الاستجمار، ورسالة في أحكام النفاس، ورسالة في كون تطهير الثياب والبدن من شرائط الصلاة أم لا، ورسالة في الكلام على وجوب الصلاة على النبي ﷺ، ورسالة في صلاة التحية، والقول الصادق في إمامة الفاسق، ورسالة في أسباب سجود السهو، وتشنيف السمع بإبطال أدلة الجمع، والرسالة المكملة في أدلة البسملة، وإطلاع أرباب الكمال على ما في رسالة الجلال في الهلال من الاختلال، ورسالة في وجوب الصوم على من لم يفطر، إذا وقع الإشعار في دخول رمضان في النهار، ورسالة في كون أجرة الحج من الثلث، ورسالة في كون الخلع طلاقاً أو فسخاً، ورسالة في كون إرضاع الكبير يقتضي التحريم لعذر، وفيما يقتضي التحريم في الرضاع، ورسالة في من حلف ليقضي دينه غداً إن شاءالله، ورسالة في بيع الشيء قبل قبضه، و (تنبيه ذوي الحجا في

حكم بيع الـرجـا)، وشفـاء العلل في حكم زيـادة الثمن لأجـل الأجـل، ورسـالـة في الهيئـة لبعض الأولاد، ورسالـة جـواز استنـاد الحـاكم في حكمـه إلى تقـويم العـدول، ورسـالـة في الـوصيـة بـالثلث ضراراً، ورسـالـة في حكم بيـع المـاء، ورسـالـة عـلى مسائل من السيد العلامـة علي بن إسـماعيل، ورسـالة في حكم الجهـر بالـذكر، ورسالة في لحوق ثواب القراءة المهداة من الأحياء إلى الأموات، ورسالة في حكم المـولد، وإرشـاد المستفيد إلى رفـع كلام ابن دقيق العيـد في الإطلاق والتقليـد، والقـول الجلي في لبس النسـاء الحلي، والأبحـاث البديعـة في وجوب الإجـابة إلى أحكام الشريعة، والقول المفيد في حكم التقليد، والوشي المرقوم في تحـريم حليه الـذهب على العمـوم، وإرشاد السـائل إلى دلائل المسائل، وكشف الـرين عـلى حديث ذي اليدين، وهداية القاضي إلى نخوم الأراضي، وإيضاح القول في إثبات القول، واللمعة في الاعتـداد بركعـة من الجمعة، وأدب الطلب ومنتهى الأرب. وقد يعقب هذه المصنفات مصنفات كثيرة يطول تعدادها[1].

وهو الآن يجمع تفسيراً لكتاب الله جامعاً بين الدراية والرواية، ويرجو الله أن يعين على تمامه، بمنّه وكرمه وفضله. ثم منّ الله ـ وله الحمد ـ بتمامه في أربعـة مجلدات كبـار، وشرع في كتاب أصـول الفقه سـماه: (إرشاد الفحـول إلى تحقيق الحق من علم الأصول)، وهو الآن في عمله، أعان الله على تمـامه. ثم تم ذلـك بحمد الله من مجلد.

وقد جمع من رسـائله ثلاث مجلدات كبـار، ثم لحق بعد ذلـك قدر مجلد، وسمى الجميع (الفتح الرباني في فتوى الشوكـاني)، وجميع ذلـك رسائـل مستقلة وأبحاث مطولة.

وأمـا الفتـاوي المختصرة لا تنحصر أبـداً، وهـو الآن يشتغـل بتصنيف الحاشية التي جعلها على الأزهـار، وقد بلغ فيهـا إلى كتاب الجنـايات، وسـماها:

---

(١) سقط عند النقل الكثير من الرسائل وهي مثبتة في البدر الطالع.

(السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار)، وحاشية هذا الكتاب إن أعان الله على تمامه، فسيعرف قدره من يعترف بالفضائل، وما وهب الله لعباده من الخير» ا. هـ.

وأضاف زبارة محقق البدر إلى ذلك: «كتاب (تحفة الذاكرين) وشرح عدة الحصن الحصين، وكتاب قطر الولي على حديث الولي، و(نثر الجوهر) شرح حديث أبي در، و(در السحابة في فضائل القرابة و الصحابة)، و(إرشاد النقاد إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والمعاد)، و(النبوات) جعله رداً على موسى بن ميمون الأندلسي في زعمه أن شرائع الأنبياء مختلفة، وأثبت اللذة النفسانية، ونفى اللذة الجسمانية. و(الطود المنيف في الانتصار) للسعد على الشريف، و(شرح الصدور في تحريم رفع القبور) ا: هـ.

هذا وقد تعرض في كثير من الأحيان لهجمات الحاقدين وخصومه المتعصبين، فاحتمل ذلك محتسباً في سبيل الله. وأشد ما تعرض له هو ما حدث سنة ١٢٠٨ حين وضع كتابه، (إرشاد الغبي إلى مذهب أهل البيت في صحب النبي)، إذ هوجم من قبل الكثيرين، ونيل في عرضه منهم، وسعوا به إلى الإمام المنصور لإخراجه من صنعاء أو سجنه، فكفاه الله شر ذلك. وكذا ما وقع سنة ١٢١٦ حين كان يقدم دروساً في الحديث بالجامع الكبير، فحاولوا الاعتداء عليه، ودخلوا مسلحين إلى الجامع، فلم يأبه بهم، واستمر في درسه، فوقاه الله شر ما مكروا. وقد مات ولده الأكبر علي قبل وفاته بقليل، وتولى مكانه القضاء أخوه يحيى، ثم ولده شيخ الإسلام أحمد الذي ورث عن أبيه علمه وعزمه، رحمهم الله ورفع درجاتهم.

آل الديلمي

يسكنــون ذمـار، وينتهي نسبهم إلى أبي الفتــح الــديلمي، الــذي قتله الصليحي في القـرن الخـامس. ومن أهم فضـائـل هـذا البيت أنهم نشروا علوم السنة في ذمار. وأكـبر علمائها هـو جدهم الأول حسين بن يحيى الديلمي. أثنى الشوكاني على سعة علمه، وتعدد معارفه، لولا ما كان منه في المحنـة التي امتحن بهـا الإمام الشـوكاني سنـة ١٢٠٨، حين أصـدر كتـابـه (إرشـاد الغبي) ذبـاً عن الصحابة الكرام.

ومن أهـم من يجب العـرفـان بحقـه من رجـالات هـذا البيت: هـو رئيس محكمة الاستئناف زيد بن علي الديلمي، الذي كـان له مـوقف محمود من رجـال الإصلاح في اليمن، وعلى رأسهم الشهيـد المجاهـد محمد محمـود الزبـيري. وقد فصلت ـ والحمـد لله ـ موقف هـذا الرجـل في كتـابي عن الـزبـيري. تـرجمـة زبـارة في (نزهة النظر) فقال:

«السيـد العـلامـة المحقق زيـد بن عــلي بن حسن بن عبـد الــوهـاب بن الحسين بن يحيى بن إبراهيم الديلمي الفتحي، نسبه إلى أبي الفتـح، الناصر بن حسـين الديلمي. مـولـده بـذمـار في ليلة النصف من شعبـان سنة ١٢٨٤ هـ. واشتغل بطلب العلم، فأخذ عن علماء ذمـار، ومنهم والده السيـد علي بن حسن في الفقه والأصول، ومؤلفات جده الحسن بن عبـد الوهـاب، وجده الحسـين بن يحيى مؤلف (العروة الوثقى)، وأخذ عن القاضي أحمد بن أحمد العنسي في الفقه والتفسـير، وعن القـاضي يحيى بن محمــد العنسي في النحـو والأصــول، وعن القاضي عبد الله بن أحمـد المجاهـد في الفقه والفـرائض، وعن القاضي محمـد بن عبد الله العنسـي، وعن القاضي علي بن حسين المغربي عندما تولى القضاء بمدينـة ذمار، وأخذ بمدينة جبلة عندما هاجر إليها عن القاضي عـلي بن يحيى المجاهـد، وقد أجاز المترجم له عدة من مشائخه.

وقـد أخذ عنـه كثير من طـلاب العلم، ومنهم أولاده، وهو من المحققـين للفنون، نحواً وصرفاً وفقهاً، ومال إلى السنة، وترجيح الدليل. ولـه همة سـامية عليّة، وذكاء متوقد المعية وفطانـة. وهو حسن الأخـلاق لطيف الشـمائل، كـامل المروءة، كثير المحفوظات، أديباً ناظماً بليغاً، وتولى القضاء بمدينة يـريم في محرم سنة ١٣٢٣ هـ، من لدن الإمام يحيى.

ولما كان التعجرف من والي الأتراك محمد علي باشا، أمـر بالقبض عليـه، واودع الحبس بقصر صنعـاء سنة ١٣٢٩ هـ. وأطلق بعـد وصول البـاشا عـزت صنعاء. وفي سنة ثلاثين تعين صاحب الـترجمة حـاكماً بصنعـاء، فسلك المسلك الذي أجرى به الأمور على أفضل أنواعها، وهابه أهـل البطالات. وكـان الإمام يحيى يشد أزره، ونصبه الإمام يحيى سنة ١٢٥٠ هـ رئيساً للمحكمة الاستئنـافية بصنعاء. وكانت وفاته بصنعاء في ذي الحجة سنة ١٣٦٦ هـ.

وسبق ذكـر بعض أولاده وهمـا: أحمـد بن زيـد والحسن بن زيـد. ومنهم: عبد الله بـن زيد رحـل إلى مصر وأخذ بهـا عن علماء الأزهر، ولـه أولاد نجباء. ومنهم لطف الله بن زيد، وهـو من المدرسـين في مدينـة ذمار، ولـه أولاد نجباء، منهم السيـد أحمد وعبـد الوهـاب. ومن أولاد صاحب الـترجمة السيـد عباس بن زيد، وهو من النجباء، وقام ببعض الأعمال الحكومية.

آل المغربي

كان حقهم التقديم، إذ أن جـدهم الأول الحسين بن محمـد المغربي مؤلف (البدر التمام) كان من كبار علماء القرنين الحـادي عشر والثاني عشر، وقـد ترجمـة الشوكاني فأثنى عليه، وأدرج فيه ترجمة أخيه الحسن.

وينسب هذا البيت إلى المغربي، لكـونهم من سكنه لاعـة مغرب صنعـاء، كما ذكره في نزهة النظر.

ومن كبار رجال هذا البيت المبارك الحسن بن إسماعيل المغربي شيخ الإمام الشوكاني:

هو شيخ شيوخ العصر. ولد بعد سنة ١١٤٠ أربعين ومئة وألف، ونشأ بصنعاء كسلفه، وقرأ على الجماعة من أعيان علماء صنعاء، منهم العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال، والعلامة محسن بن إسماعيل الشامي، وغير واحد في عدة فنون، كالنحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان، والحديث والتفسير والفقه، وانتفع به الطلبة في جميع هذه الفنون، وأخذ عنه أعيان العلماء، وتخرجوا به، وصاروا مبرزين في حياته. يرحمه الله.

وكان زاهداً ورعاً عفيفاً متواضعاً متقشفاً، لا يعد نفسه في العلماء، ولا يرى له حقاً على تلامذته فضلاً عن غيرهم، ولا يتصنع في ملبوس، بل يقتصر على عمامة صغيرة وقميص وسراويل وثوب يضعه على جنبيه، وتارة يجعل إزاراً مكان الثوب، ويقضي حاجته من الأسواق بنفسه، ويباشر دقيقها وجليلها، ويحمل على ظهره ما يحتاج إلى العمل منها، ويقود دابته ويسقيها بنفسه، ولا يتصدر لما يتصدر له من هو معدود من صغار تلامذته من تحرير الفتاوي ومما رآه أهل العلم، وجل مقصوده نشر العلم أو القيام بما لا بد منه من المعيشة، يكتفي بما يحصل له من مشت غلاته التي ورثها عن سلفه الصالح من حقارتها. وخطب للقضاء في أيام شبابه فلم يساعد، بل صمم على الامتناع بعد أن رغبه شيخه أحمد بن صالح المتقدم ذكره.

والحاصل أنه من العلماء الذين إذ رأيتهم ذكرت الله عز وجل، وكل شؤونه جارية على نمط السلف الصالح. وكان إذا سأله سائل أحاله في الجواب على أحد تلامذته، وإذا أشكل عليه شيء في الدرس أو فيما يتعلق بالعمل، سأل عنه غير مبال، سواء كان المسؤول عنه خفياً أو جلياً، لأنه جبل على التواضع. ومع هذا ففي تلامذته القاعدين بين يديه نحو عشرة مجتهدين، والبعض منهم يصنف في أنواع العلوم إذ ذاك، وهو لا يزداد إلا تواضعاً». ا. هـ.

ومن أواخر علمائهم الحافظ علي بن حسين المغربي. ترجمه زبارة في النزهة فقال: «مولده بالروضة سنة ١٢٦١ تقريباً، ونشأ مجداً في طلب العلم والمعارف، وأخذ عن القاضي أحمد بن عبد الرحمن المجاهد، والسيد العلامة قاسم بن حسن المنصور، ورئيس العلماء السيد أحمد بن أحمد الكبسي، والقاضي المفتي محمد بن أحمد العراسي، والسيد عبد الكريم بن عبد الله، وأبو طالب والقاضي حسين بن عبد الرحمن الأكوع، والشيخ الماس بن عبد الله، والسيد محمد بن إسماعيل عشيش، والقاضي محمد بن أحمد سهيل، والقاضي عبد الملك بن حسين الآنسي، والعلامة أحمد بن محمد السياغي، وغيرهم. وتبحر في العلوم حتى كان علامة عصره وزينة دهره. وقد أخذ عنه أهل العلم طبقة بعد طبقة، فمن أخذ عنه شيخنا المولى الحسين بن علي العمري، والمولى شيخ الإسلام القاضي علي بن اليماني، والسيد عبد الله بن إبراهيم، والعلامة أحمد بن عبد الله الجنداري، والسيد علي بن أحمد السدُّمي، والقاضي صفي الدين أحمد بن محمد الجرافي وولده القاضي أحمد الجرافي، وولد صاحب الترجمة القاضي حسين بن علي، وكاتب الأحرف، وآخرون لا يحصون. وتولى القضاء في بلاد يريم، وفي مدينة ذمار، ومدينة الطويلة وحجة وصنعاء، وكان مشغوفاً بالعلم لا يترك التدريس ولا يمله، وكان المرجع في الفنون، وجواباته شافية، وكان عظيم الحفظ، واسع الاطلاع، حلو العبارة، حسن المحاضرة، كريم الخلق، وانتخب للمسير إلى الآستانة في طائفة من أعيان اليمن، للخوض في الإصلاح وسلامة اليمن من القلاقل والفتن توفي سنة ١٣٣٧ هـ.

آل لقمان

هم هادويون حسنيون، وأولهم في الذكر السيد العلامة أحمد عبد الله لقمان شارح الأساس والكافل، من أعيان القرن الحادي عشر، ومن قواد الجيوش أيام الإمام العادل المؤيد محمد بن القاسم. ترجمه الشوكاني في البدر وأثنى على علمه وفضله، كما ترجم لأحد أحفاده وهو القاسم بن أحمد لقمان أحد أحباء الإمام

الشوكاني، وألصقهم به طوال خمسة عشر عاماً. ذكر زبارة في (النيل) أنه كان يقيم بمنزلة مجاورة لمنزلة الشوكاني أيام الطلب، بجوار مسجد مدرسة الإمام شرف الدين. وخير من يحدثنا عنه هو شيخه وصفيه الإمام الشوكاني. قال:

«ولد في سنة ١١٦٦ بموضع يقال له (صنعة)، بضم الصاد المهملة وسكون الموحدة ثم مهملة. وهي قرية بقرب مدينة زبيد، فيها جماعة من السادات آل لقمان. ثم انتقل صاحب الترجمة إلى مدينة ذمار، فقرأ على جماعة من مشايخ الفقه، كالسيد العلامة أحمد بن علي بن سليمان، والفقيه العلامة محسن بن حسن الشويطر، وغيرهما. وبرع في علم الفروع، وقرأ هنالك في علم النحو، ثم ارتحل إلى صنعاء لسبب اقتضى ذلك، فوصل إليها في سنة (١١٩٣)، وقرأ في العربية والأصول على جماعة، وأخذ عني في العربية، وحضر في دروسي العربية وحضر دورسي الحديثية. وهو مفرط الذكاء، سريع الفهم، قوي الإدراك، استفاد بدرايته أكثر مما استفاد بروايته، ونظم الشعر الفائق، وطارح بشعره جماعة من الأدباء، واستقر بصنعاء وتزوج بها وأضرب عن العودة إلى وطنه. وله همة عالية وشهامة علوية، ونفس أبيه، وسيادة هاشمية لا يخضع في مطلب من مطالب الدنيا ولا يدنو لأربابها، يكتفي منها بما يصل إليه من أموال له ورثها عن أبيه، وقد يثوب في الأعمال الشرعية إذ عول عليه من يألفه من القضاة، فيفصلها على أحسن أسلوب، مع عفة ونزاهة. وهو أجل من كثر من قضاة العصر، بل يصغر عن عظيم قدره القضاء، وتحريراته في القضايا الشرعية مقبولة عند الخاص والعام، مرضية عند الصغير والكبير، يقنع بها المحكوم عليه، كما يقنع بها المحكوم له. وبيني وبينه مودة أكيدة، ومحبة قوية. وهو لا يهمل جليسه، ولا يستوحش أنيسه، لما جبل عليه من لطف الطبع، وكمال الظرف. وقد استمر الاتصال بيني وبينه زيادة على خمس عشرة سنة، قل أن يمضي يوم من الأيام لا نجتمع فيه، ويجري بيننا مطارحات أدبية في كثير من الأوقات ومراجعات علمية في عدة مسائل، منها ما هو منظوم ومنها ما هو منثور» ا. هـ.

آل الأكوع

الذين ينتسبون إلى بيت الأكوع كثيرون، منهم في ذمار، ومنهم في صنعاء، ومنهم في الأهنوم. ونقل زبارة عن لطف جحاف صاحب (درر نحور الحور العين): أن نسب آل الأكوع والقضاة آل جحاف يلتقي في وهبة بن بكيل. وقد كان منهم وزراء الدولة القاسمية الثانية في القرن الثالث عشر أيام المنصور والمهدي العباس. ومنهم عبد الرحمن بن حسين الأكوع وأخوه، ترجمها الشوكاني في البدر، ومنهم القاضي الصالح زيد بن عبد الله الأكوع المتوفى سنة ١١٦٦، وقد ذكر زبارة كرامة حديث عند سفره إلى الحج، إذ أن رفاقه من الحجاج وجدوا رواحل تحملهم إلى الحرمين، ولم يجد زيد إلا جملاً هزيلاً. تحاماه الناس لصرع كان يصيبه، فقبله زيد بعلته ودفع لصاحبه كراه، ووضع عليه متاعه، فأوصله إلى منتهى الحج ولم يصب بشيء. ومنهم القاضي حسن بن حسن الأكوع الذي ترجمه زبارة في النزهة وظهر من ترجمته أنه كان بينه وبين آل الشونكاني قرابة، إذ ذكر أن شيخ الإسلام أحمد بن شيخ الإسلام الشوكاني كان خاله، وفي سياق ما قاله زبارة: أنه لما توفي شيخ الإسلام أحمد بن محمد بن علي الأكوع بالروضة سنة ١٢٨١، تولى بعده المترجم له الافتاء والقضاء العام، ويظهر من ذلك خطأ، ولعله سبق قلم، إذ أن الصحيح هو أحمد بن محمد بن علي الشوكاني - وليس الأكوع - نبهنا عليه دفعاً للوهم. قال زبارة مولده في ذي القعدة سنة ١٢٣٨ هـ، وقيل سنة ١٢٣٤ هـ، وأخذ عن القاضي صالح بن رزق الشوكاني، والقاضي أحمد بن محمد الشوكاني في علم العربية والأصول والمعاني والبيان واللغة والصرف، وفي الكشاف وفي الحديث وفي البحر الزخار، وأصول الأحكام والأمهات وفي السنن، ومؤلفات القاضي شيخ الإسلام الشوكاني مثل (نيل الأوطار)، وغيره. وأجازه شيخه في جميع ما شمله إتحاف الأكابر، وأخذ صاحب الترجمة عن القاضي أحمد بن عبد الرحمن المجاهد في الحديث والأصول، وأسمع على شيخ الإسلام محمد بن الشوكاني في تفسير فتح القدير، وتحفة الذاكرين،

وفي سنن أبي داود وسنن الترمذي، وعمر صاحب الترجمة يومئذ نحو ثلاث عشرة سنة. وأخذ عن السيد العلامة الحسين بن أحمد الظفري، وعن العلامة الحسين بن أحمد الجزائري، وعن العلامة محمد بن محمد العمراني. وممن أخذ عن المترجم له: شيخه السيد العلامة عبد الكريم بن عبد الله أبو طالب ـ رحمه الله ـ جميع صحيح مسلم ومعظم صحيح البخاري، وفي الشرح الصغير لسعد الدين ونخبة الفكر.

وقال القاضي المؤرخ محسن بن أحمد إسماعيل الجزائري في تاريخه وفي الرياحين: إن صاحب الترجمة نشأ لدى خاله القاضي أحمد بن محمد الشوكاني، وعنه أخذ العلم، وتخلق بأخلاقه، واكتسى بحلية أدبية، وهو من آل الأكوع الكتاب مع آل القاسم، والمتعلقين بالخدمة للدولة، وأنه لما كانت وفاة شيخ الإسلام أحمد بن محمد بن علي الأكوع في شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨١ هـ بالروضة، كان دخول صاحب الترجمة في يوم عشرين جمادى الآخرة من السنة المذكورة إلى صنعاء، فنصب للقضاء، ولقب شيخ الإسلام، واستمد من الإمام الولاية للحكام بفصل الخصام، وجمع الشريعة، وأرشدهم إلى الأفعال الحسنة. وبعد وصول الأتراك إلى صنعاء كان تنصب المترجم له للفتوى، واستمر على ذلك حتى كانت وفاته بالروضة في سابع ذي الحجة سنة ١٣٠٧ هـ.

آل المجاهد

مسكنهم الأصلي ذمار، ومنها تفرقوا إلى جبلة التي انتقل إليها محمد المجاهد الجبلي أيام المهدي العباسي، أواسط القرن الثاني عشر. وإلى تعز حيث انتقل أحمد بن محمد المجاهد التعزي أيام المهدي العباسي وولده المنصور علي، أما الذي انتقل إلى صنعاء فهو عبد الله بن حسين المجاهد المتوفى ١٢١٤، ولعل أكبر علماء هذا البيت هو حفيده أحمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن حسين المجاهد. ترجمه زبارة في نيل الوطر فقال: «مولده في شهر ربيع سنة ١٢٢٤

بمدينة صنعاء، وبها نشأ في حجر والده الآتي ذكره، فحفظ القرآن غيباً عن ظهر قلب، وحفظ بعض المختصرات من المتون، كالأزهار، وكافية ابن الحاجب، وغيرهما، وقرأ على والده في شرح الأزهار والفرائض، ثم قرأ على السيد العلامة المحقق أحمد بن زيد بن عبد الله الكبسي الصنعاني، في النحو والصرف والمعاني والبيان، قراءة بحث وتحقيق، وقرأ على السيد العلامة علي بن أحمد بن الحسن الظفري الصنعاني في الحديث وغيره، وله منه إجازة عامة في الأمهات الست، وموطأ الإمام مالك، وقرأ على السيد العلامة محمد بن عبد الرب بن محمد بن زيد بن المتوكل في كتب التفسير وغيرها، وأخذ أيضاً عن السيد العلامة علي بن إسماعيل بن يحيى بن حسيب بن حسين بن المهدي، وأحمد بن الحسن بن القاسم بن محمد الصنعاني المتوفى سنة ١٢٥٨، وعن غير من ذكرنا من أكابر علماء صنعاء حتى تبحر في جميع الفنون، وبلغ إلى درجة المذاكرين والمخرجين للمذهب الشريف، وفي علم التفسير إلى درجة تلحق بجار الله الزمخشري، وأمثاله.

ولما مات شيخه المولى أحمد بن زيد الكبسي ـ رحمه الله ـ انتهت إلى صاحب الترجمة رياسة التدريس في فنون العلم و الفتيا بصنعاء، وصار المرجع في تقرير كلام أهل المذهب والإمام المتقدم في علم السنة والأصول والفروع. وكان كثير الملازمة لجامع البيان من كتب التفسير، وشرح العمدة لابن دقيق العيد من كتب الحديث، وكان عالماً زاهداً عابداً فاضلاً، حسن الأخلاق، لطيف الطباع، كثير التواضع، كثير الطاعات، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، متمسكاً بالسنة النبوية، آية في الحفظ يملي من حفظه الكراريس.

وقد ا نتفع به وأخذ عنه عدة من أكابر العلماء الأعلام كالإمام المنصور بالله أحمد بن هاشم بن محسن، وسيدي العلامة القاسم بن الحسين بن المنتصر، والإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين، والقاضي العلامة علي بن حسين بن الحسن المغربي الصنعاني، وغيرهم من أكابر العلماء والأعلام.

وله رحمه الله مؤلفات نافعة، وأبحاث وأنظار ثاقبة، ورسائل جامعة، فمن مؤلفاته: (نيل المنى في شرح أسماء الله الحسنى، شرحاً بسيطاً في مدة ستة عشر يوماً)، وله مؤلف في أصول الدين انتزعه من إيثار الحق على الخلق للسيد الإمام محمد بن إبراهيم الوزير، ومن الأساس للإمام القاسم بن محمد، وله البدر الساري، ومقدمة في علم التفسير سماها (فتح الله الواحد على عبده أحمد المجاهد)، ومؤلف في مناسبة الآي، بلغ فيه إلى آية الكرسي. وله الروض المجتبى في تحقيق مسائل الربا».

آل العمري

من بيوتات السنة المعروفة بصنعاء، وأنبغ نوابغهم وأعلم علمائها هو عميد الأسرة القاضي الحافظ حسين بن علي العمري، المولود سنة ١٢٦٦، المتوفى سنة ١٣١٦. وقد كان هذا العلم من أعمدة العلم الذين حفظوا علوم الإسلام، ونشروها في أبناء العصر. وهو في الحقيقة الامتداد الطبيعي لمدرسة الإمام الشوكاني، وقد أمد الله في عمره، حتى تحقق على يده صلح دعان، بين الدولة العثمانية الحاكمة لليمن وبين الإمام يحيى حميد الدين سنة ١٣٢٩. وهو أول رئيس لمحكمة الاستئناف العليا في عهد الإمام، كما أن ولده عبد الله بن حسين أول وزير للإمام، وأول من سعى وباشر تنظيم أجهزة الدولة. ويعد ولده محمد بن عبد الله العمري من كبار رجال السياسة في اليمن، وله اليوم أحفاد ميامين يشاركون في خدمة اليمن.

قال زبارة مترجماً لشيخه حسين بن علي العمري: «مولده بصنعاء في سنة ١٢١٦ هـ، وتوفي ١٣٦١ هـ وهو صغير السن، ونشأ بحجر عميه: الفقيه قاسم بن محمد، واسماعيل بن محمد، وتخرج بهما في تجويد القرآن، وفي مبادىء علوم العربية، وحفظ المختصرات عن ظهر قلب.

ومشايخه كثيرون، منهم القاضي العلامة جمال الإسلام علي بن حسين بن

المنصور وقد لازمه مدة طويلة، وأخذ عنه الكثير الطيب، من ذلك: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وجامع البيان في التفسير، وشطراً من الكشاف. كما أخذ عن العلامة القاضي محمد بن أحمد العراسي في شرح الأزهار، وشفاء الأمير حسين، وشطراً من الاعتصام. وعن القاضي الزاهد عبد الملك بن حسين الآنسي في شرح الأزهار، والثمرات، وسبل السلام، وجميع سنن أبي داود، وضوء النهار، وأصول الأحكام، وغير ذلك. وعن العلامة أحمد بن محمد الساعي في شرح الأزهار وشطراً من الاعتصام. كما أخذ عن الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين في الأساس والفرائض، ومجموع السيد حميدان، وفي الخبيصي، وغير ذلك من الفنون.

ومنهم السيد محمد بن إسماعيل عشيش في بيان ابن مظفر، وعن الشيخ الماسي بن عبد الله في الخبيصي. ومنهم السيد إسماعيل بن محسن بن عبد الكريم ابن إسحاق صحيح مسلم وغيره، وعن السيد أحمد بن محمد الكبسي في البحر الذخار، والمهذب، والعضد، وتصنيف شيخه في المنطق المسمى (شمس المقتدي)، وغير ذلك، وله مشائخ آخرون.

وما زال صاحب الترجمة في طلب العلوم وتحقيق منطوقها والمفهوم، حتى فاق في جميع العلوم الشرعية والآلية والعقلية، واعتنى بالسنة النبوية، رواية ودراية، علماً وعملاً، وسلك الطريق التي لا يسلكها إلا القانت الأواه، ممن علم وعرف. وكان فاضلاً عفيفاً عابداً، عاملاً ورعاً زاهداً، تقياً حافظاً ذكياً، وقوراً رصيناً ألمعياً، حرياً بما قاله له بعض تلامذته الأعلام في نعته وتحقيقه لبعض أحواله:

حجة الله في الزمان يقيناً ... وملاذ الورى لمحو الوبال
الحسين الحسين آية ربي ... في الحجا، والتقى، وبيض الفعال
والإمام الإمام للسنة الغراء ... وآي الكتاب والإرسال

فهو قطب الوجود بين البرايا والصراط السوي في الانتحال
من يراه يرى المحامد والسؤدد قد صورت بأحلى مثال
ويرى طلسم العناية فيه مخبراً عن خوارق الأحوال

وقد أجاز للمترجم له جماعة من مشائخه الأعلام، وغيرهم من أكابر علماء الإسلام. وبذل نفسه للتدريس في فنون العلم، فانتفع به وبعلمه النافع الكثير من أكابر العلماء بعصره، ونبلاء الطلبة بقطره ومصره، فممن أخذ عنه وتخرج به: ولده العلام بدر الدين، والغرة الشادخة في العلماء العاملين الأقطاب الزاهدين، محمد بن الحسين بن علي رضي الله عنه، والقاضي الحافظ محمد بن عبد الملك بن حسين الأنسي، والسيد العلامة زيد بن علي بن الحسن الديلمي، وعبد الخالق بن حسين الأمير، وعلي بن عبد الله الأمير، وغيرهم».

آل العمراني

بيت كريم توارث حب السنة ونشرها ونصرها، أولهم العلامة الشهيد المحقق محمد بن علي العمراني من تلامذة الشوكاني. قتل مظلوماً ببيته بزبيد أيام هجوم الباطنية عليها سنة ١٢٦٤.

ومن بعده ولده عبد الرحمن. راسخ القدم في العلوم عامة، والسنة خاصة. وهو الذي اختصر (السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار) للإمام الشوكاني، وله مؤلفات غيره. توفي رحمه الله سنة ١٢٧٣.

وولده الثاني المتأخر في الزمان، المتقدم في العلوم، هو المجتهد الرحالة محمد بن محمد بن علي العمراني. ويعد هذا الرجل إحدى الحلقات المضيئة لمدرسة الشوكاني، التي نقلت علوم السنة لعلماء القرن الثالث عشر ومطلع القرن الرابع عشر. نورد ترجمته بنصها كما ذكرها زبارة في (النزهة) وضمنها أشعار له، أردنا من تقديمها اطلاع القارىء على مكانته في العلو، وموهبته في الشعر. قال:

«القاضي العلامة الحافظ الضابط الرحالة المسند، محمد بن محمد بن

علي بن حسين بن صالح بن شائع العمراني اليمني الصنعاني مولده تقريباً سنة ١٢٢٠ هـ، ونشأ في حجر والده الحافظ الكبير محمدعلي، وأخذ عنه صحيح مسلم، وسنن أبي داود وسنن النسائي وسنن الترمذي وسنن ابن ماجة، وموطأ مالك، ومسند الدارمي ومسند أحمد بن حنبل، وسنن الدارقطني، ومستدرك الحاكم، والكشاف وحواشيه، وغير ذلك.

وأخذ عن شيخ الإسلام القاضي محمد بن علي الشوكاني بعض مؤلفاته، والمسلسلات بالأولية، بالفقهاء بالمصافحة وبالمحبة وأوائل الأمهات، وجميع صحيح البخاري وصحيح مسلم. وأجازه عامة، وألبسه خرقة الصوفية السيد العلامة عبد الله بن محمد بن إسماعيل الأمير. وأخذ عن السيد علي بن أحمد الظفري، عن القاضي الحافظ محمد بن مهدي الضمري، وعن السيد الكبير أحمد بن زيد الكبسي، وعن غير هؤلاء.

ورحل مع والده إلى مدينة زبيد، وأخذ عن السيد عبد الرحمن بن سليمان المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ، وأخذ عن السيد الطاهر بن أحمد الأنباري الزبيدي، وعن مفتي الحنفية بزبيد العلامة إبراهيم بن محمد المزجاجي، وعن غير هؤلاء.

وبعد استشهاد والده الحافظ محمد بن علي العمراني سنة ١٢٦٤ هـ. . بمدينة زبيد عندما دخلت إليها قبائل أيام، رحل صاحب الترجمة إلى مكة المكرمة، وأسمع بها على الشيخ العلامة عبد الله سراح المكي، وعلى الشيخ إبراهيم الطياطي، وكان قد جاور مع والده بمكة سابقاً ثلاث سنين، وأخذ عن الشيخ محمد عابد السندي في سنة ١٢٥١ هـ.

وبالجملة، فإن صاحب الترجمة جد واجتهد في طلب العلم، وخفف ودقق مفهومها ومنطوقها، وقد تتلمذ به وأخذ عنه بعد رجوعه إلى صنعاء جماعة من أكابر العلماء في القرن الرابع عشر، وممن أخذ عنه السيد العلامة علي بن أحمد الشرفي والقاضي الحافظ محمد بن عبد الملك الآنسي، والقاضي الحسن بن حسن

الأكوع، والقاضي إسحاق بن عبد الله المجاهد. وقد تولى أوقاف مدينة ثلا مدة من الزمن، ثم نظارة الأوقاف الخارجية. وكان عالماً عاملاً، ورعاً فاضلاً وقوراً، حسن الأخلاق والسيرة. وقد أجاز تلميذه السيد علي بن أحمد الشرفي إجازة مطولة في شعبان سنة ١٢٩٦ هـ، وأجاز تلميذه القاضي محمد بن عبد الملك الآنسي في محرم سنة ١٢٩٦، وكتب إلى تلميذه المذكور مع الإجازة هذه الأبيات:

أهدي إليك سلاماً يعطر الكون نشره
ولم يزل مستجداً على الأصائل بشره
أذكى من المسك عرفاً قد زين الدهر زهره
يعلو على كل ودٍ وداده، بل وقدره
راياته خافقات ونظمه زان دهره
أودعته صدق ودي ينبيك عن ذاك نثره
فاسلم لك الخير تسعى في موكب أنت بدره

وبعده نثر لطيف. فأجاب القاضي محمد رحمه الله تعالى إرتجالاً قبل أن يتحقق أن أبيات شيخه مضمومة الراء فقال:

أهديت لي يا إماماً ما جاوز النعم قدره
من بحر نظمك دراً لا يدرك الناس سره
أنّى وكيف؟ ومن ذا يدري من الميم قعره؟!
تركت رب القوافي في سكرة ثم فكره
فما أرى صردر لديك قد صر دره
والمهرق الفرد قدجا وخطه زان سطره
فزاد قدراً على ما قد كان في البارسبره
ولم يدع لي مراداً إلا ووفاه ذكره

لله بحراً حواه من شيخنا الفذ صدره
وما حوى من مديحي فلست أهلاً لدره
ولست أنفك أدعو لما ينالك خيره
ثم السلام عليكم أبهى من الروض نضره
ما خر في الأرض نهر وما على الأرض خضره
وأعذر فديتك أني قابلت دراً ببعرة
وأسبل لك الفضل ستراً بيوت نظمي عورة

وكتب القاضي محمد في سلخ صفر سنة ١٣٠١ إلى شيخه صاحب الترجمة هذه الأبيات، يطلب منه سماع موطأ مالك برواية يحيى بن يحيى وسنن ابن ماجه:

سقى الرضى دهراً حباني ... وصال أحبتي فلبست تاجه
وكنت أنا النديم لأهل ودي ... أقضي من جنائي كل حاجة
وأحلى مسمعي درراً، وأجلي ... بوجه البدر عن عيني عجاجة
وما أعني سوى بدر المعالي ... قرين السعد محمود اللجاجة
رضيع العلم والتقوى صغيراً ... ومن كفلاه قد صار أمزاجه
ومولى المكرمات فقير برع ... إذا أبدت به العياء نفاجه
أبن لي أيها المولى أيقضي ... لنا الدهر الذي أبدى اعوجاجه
بجمع الشمل والمقصود وقت ... لإملاء الموطأ وابن ماجة
ونحي زهر روضٍ العلم غضا ... ونسلك في الحديث بي فجاجة
ونحيي للقاء بيتاً قديماً ... ونوسع من تدانينا شجاجة
فهب لي منك في الأسبوع يوماً ... يدير الأنس فيه لنا زجاجة
ودم قطباً لأهل العلم نوراً ... يقوي الناس ما أضوى سراجه

فكان تعيين صاحب الترجمة بعد صلاة الجمعة من كل أسبوع لدرس

الموطأ، وبعد إكماله كان الشروع في درس ابن ماجة، حتى عاق صاحب الترجمة الحمام عن التمام، وكانت وفاته بصنعاء في شعبان ١٣٠٢ عن نيف وثمانين سنة، وقبر في مقبرة السعدي جنوب مدينة صنعاء. رحمه الله».

آل الإرياني

ينتسبون إلى يحصب الحميري السبئي. وإريان: معقل حصين عرفوا به لسكناهم فيه، ومنهم خلق كثير يسكنون صنعاء وتعز وغيرهما. وعميد هذا البيت هو قاضي القضاة المرحوم يحيى بن محمد الإرياني، الذي تشهد سيرته بحسن سريرته وفضله، ولا نزكي على الله أحداً. ولقد تكاثر ثناء رجال الإصلاح عليه وفي مقدمتهم المجاهد الشهيد محمد محمود الزبيري، الذي رثاه بقصيدة هي من غرار المراثي سنة ١٣٦٢.

والناس أكيس من أن يحمدوا رجلاً
حتى يروا عنده آثار إحسان

ترجمه زبارة فقال: «القاضي العلامة الحافظ الشاعر البليغ الجهبذ، يحيى بن عبد الله بن علي بن الحسين الإرياني ثم الصنعاني. مولده بهجرة إريان من بلاد يريم في جمادى الأولى سنة ١٢٩٩، وأخذ عن أبيه محمد بن عبد الله، وعن عميه: الحسين بن عبد الله وعلي بن عبد الله، وعن القاضي العلامة إسماعيل بن عبد الله العنسي الذماري، والمولى سيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين، والمولى الحسين بن علي العمري، والسيد سليمان بن محمد الأهدل، والعلامة محمد بن إسماعيل المتار، وغيرهم.

وبرع في فنون العلم، من أصول وفروع ومعقول ومنقول في الحديث، وقام بالتدريس بمدينة يريم، وحج لنفسه في سنة ١٣٤٥، وعينه الإمام يحيى حاكماً بمدينة إب، فأبان عن كفاءة ومكانة عالية من العلم والسياسة. واستمر

في القضاء تسع سنوات، وانفصل عن إب سنة ١٣٤٥ ، وعكف على التدريس بوطنه. وفي سنة ١٣٥٠ ، طلبه الإمام يحيى إلى صنعاء، وعينه عضواً في محكمة الاستئناف برئاسة السيد العلامة زيد بن علي الديلمي، فقام بذلك أحسن قيام، وشكر سيرته المأموم والإمام، وقام بالتدريس بصنعاء، وأخذ عنه جماعة من الأعلام في الحديث والتفسير والفقه، ثم أنيطت به رئاسة محكمة الاستئناف، فقام بأعمالها مع التدريس.

تحمل أعباء الرئاسة ناهضاً بها، كاشفاً للمعضلات العظائم
وما زال في نشر العلوم مستمراً بهمة صنديد، قوي العزائم

وكان في مدة بقائه بصنعاء يحضر في ديوان المؤلف السيد العلامة محمد بن محمد زبارة للسمر في ليالي شهر رمضان، وأملينا البخاري حتى كمل في خمس سنوات، آخرها سنة ١٣٥٨ هـ. وكان يحضر المجلس كثير من طلاب العلم، ومنهم كاتب الأحرف عبد الله بن عبد الكريم الجرافي، والسيد العلامة أحمد بن محمد زبارة.

ومن الكتب التي درست: (الهدى النبوي لابن القيم)، و(تحفة الذاكرين) شرح عدة الحصن الحصين، وغيرذلك بمسجد الفليحي في (الروض النضير)، و(الكشاف)، و(ضوء النهار)، وغير ذلك.

وكانت وفاته في تاسع ذي الحجة سنة ١٣٦٢هـ. وقال قبل وفاته:

أيا رب، قد عمرت بستين حجة وزدت ثلاثاً، وهي عمر محمد
فهب لي ختاماً صالحاً ثم خذ يدي إليك، وكن يوم القيامة منجدي

وله أشعار وفصائل طنان، من ذلك ما كتبه إلى الإمام يحيى بعد أن نهبت قبائل برط مدينة يريم سنة ١٣٢٩ ، وهي قصيدة بليغة مطلعها:

على رسلكم أهل المحابر والقلم بذا خبروا، فلينقل النظم من رقم
قفوا ريثما أملي عليكم رسالة لها الصدق خال وابن خال لها دعم

منـــزهـــة عن ذكـــر لـيـــلى وزيـنـب ومشغـولـة عن ذكـر سلمى وذي سلم
مـــبرأة عـن ريـبـــة في حـــديثـــهـــا ومـــا ربهـــا فـيـــما تـقـــول بمـتـهـــم

ومنها:

ومـا كـان حقـــاً في يـريم ومـــا جـرى من القـوم مما أوقـع الـطفل في الهـرم
ولم يعـلمـــوا والله أن لـــيس مـسـلـم بـذا قابـلاً. يـا قبـح ذلـك من وهـم!
وحـاشـاً، وكـلاً، أن يكـون أمـــامنـا بـــذا آذنـــاً، أو راضيـــاً للذي ظـلـم»

آل الرباعي

من بيوتات صنعاء الكريمة المعروفة بنصرة السنة النبوية ونشرهـا، ولا تزال لهم بقية حتى اليوم. وأهم رجالهم هو العلامة الحسن بن أحمد بن يوسف الرباعي مؤلف (فتح الغفار بجمع أحكام سنة المختار) أورد فيه أحاديث زيادة على مـا في (المنتقى) و(نيل الأوطار) كما ذكره زبارة.

وقد ترجمه شيخه الشـوكاني فقـال: «ولد تقـريباً عـلى رأس القرن الثـالث عشر، وقـرأ على جمـاعة من شيـوخ العصر، كالسيـد العـلامـة الحسن بن يحيـى الكبسي، والقاضي العلامة محمد بن أحمـد السودي، وغـيرهما. واستفـاد في جميع العلوم الآلية، وفي علم السنـة المـطهـرة، ولـه فهم صـادق وإرادة قـــوية، وتصـــور صحيح، وإنصاف، وعمـل بما. تقتضيـه الأدلة. ولـه قراءة عـليّ في علم المعاني والبيان، وفـي علم التفسير، وفي الصحيحين والسنن، وفي مؤلفـاته هـو الآن من أعيـان أهل العـرفان، ومحـاسن حملة العلم بمـدينـة صنعـاء» ا. هـ. تـوفي سنـة ١٢٧٦.

آل الجرافي

ضبطه صاحب نزهة النظر بكسر الجيم، وقال: إنه منسوب إلى الجراف من بلاد حاشد. انتقلوا منها في القرن الحادي عشر إلى إب، ثم انتقل جدهم الأعلى علي بن حسن الجرافي إلى صنعاء في القرن الثاني عشر أيام المهدي عباس، وبها استقروا. وقد برز من هذا البيت علماء ووزراء وقضاة ولا يزالون، ومنهم الأستاذ عبد الله بن عبد الكريم الجرافي. شارك بمؤلفات قيمة في تاريخ اليمن. وأهم رجالهم هو العلامة الصالح أحمد محمد الجرافي، الذي بلغ كثيراً من العلوم، وعرضت عليه المناصب الحكومية فأباها آثر الانقطاع للعلم والإصلاح والعبادة. ترجمه السيد محمد زبارة فقال:

«العلامة الحافظ النقي أحمد بن محمد بن أحمد بن علي بن حسين الجرافي الصنعاني مولده في ذي القعدة سنة ١٢٨٠ بمدينة صنعاء، ونشأ بها وحفظ القرآن، ثم صرف همته السامية إلى طلب العلم النافع، فأخذ عن السيد العلامة الكبير أحمد بن محمد الكبسي في كثير من الفنون: الفروع والأصول، وعلم العربية، وأجازه إجازة عامة في سنة ١٣١١. واستمرت ملازمته إلى عام وفاة صاحب الترجمة. وأخذ عن السيد العلامة عبد الكريم بن عبد الله أبو طالب في الثمرات، والاعتصام، وأحكام الإمام الهادي، وشفاء الأمير الحسين، وغير ذلك. وأجازه بإجازة عامة في ذي القعدة سنة ١٣٠٤، وأخذ عن الإمام المنصور بالله محمد بن يحيى حميد الدين في مغني اللبيب، وعن شيخ الإسلام القاضي علي بن علي اليماني في المغني أيضاً، وأخذ عن العلامة أحمد بن محمد السياغي، والعلامة أحمد بن رزق السياني،ة وأجازه بما شمله إتحاف الأكابر. وأخذ عن السيد المؤرخ محمد بن إسماعيل الكبسي في شرح التجريد، وأجازه بإجازة عامة مطولة. وأخذ عن القاضي العلامة علي بن حسين المغربي سنن أبي داود، وسبل السلام، وشرح العمدة، وغير ذلك. وأخذ عن العلامة محمد بن أحمد العراسي

شرح الأزهار بكامله، وبيان ابن مظفر، وعنه هؤلاء الأعلام. واستجاز من القاضي علي بن أحمد الشامي الشهاري، كما طلب الإجازة من الإمام محمد بن عبد الله الوزير.

وله مؤلفات نافعة، منها (النصح النافع عند الفجر الساطع) أنكر فيه التقديم بالأذان، والاعتماد في صلاة الفجر على الطالع والغارب والمتوسط قبل ظهور المنتشر، وأبان أن الذي يجب اعتماده هو الفجر المستطير الذي لا يخفي عن ذي العينين. وقد قرض هذه الرسالة السيد العلامة حمود بن محمد شرف الدين فقال:

لقد نصح الأقوام أحمد إذ أتى	بتبليغ أحكام الرسول المكرم
مزيلاً هدى جهل طرى في مقالة	مخالفة نهج الدليل المقوم
كلوا واشربوا حتى يبين بياضه	بصيغة تفعيل الإيضاح مبهم
فرد عليهم بالدليل كأنه	نجوم أضاءت جنح ليل معتم

وله شرح على مرقاة الطلاب في علم الإعراب، ورسالة توضيح الدليل والرد على شفاء العليل في تحليل زكاة حاشد وبكيل للهاشمي، ومنها القول المستوفي في تحريم الغناء وله جوابات مفيدة على مسائل كثيرة وشرع في جمع كتاب في الترغيب على منهج المنذري. وراسل صاحب الترجمة من الأدباء والعلماء، أمثال السيد عبد الوهاب بن أحمد الوريث من مدينة ذمار، وكان من أعيان آل القاسم، وكان يجيب عليهم في مسائل علمية وأدبية، غير أنه لا يقول الشعر. أما كلامه المنثور فجيد. ولم يتطلع صاحب الترجمة إلى وظائف الدولة بعد عرضها عليه، وقد أخذ عنه جماعة من الأعلام، منهم: الحاج الفاضل علي بن حسن شهوب، والقاضي لطف بن محمد الزبيري، والسيد قاسم بن حسين العزي أبو طالب، وغيرهم ومات يوم السبت عشر أيام رجب سنة ١٣١٦، ورثاه كثير، منهم السيد عبد الوهاب بن أحمد الوريث بقوله:

ألم بـنـا خـطب، ألم فـأوجـعـا | وأجـرى من الآفـاق في الخـد أدمعا
وأضنى جسـومـاً لا تـلين لحـادث | وفـتـت أكـبـاداً وأحـرق أضلعـاً
وصـدع من حـزن قلوبـاً سليمـة | يـعـد محـالاً قبـله أن تـصـدعـا
وفـاة وحيـد المتـقـين وخـيرهـم | أجـل فتى منهـم إلى الخـير أسرعـا
تمسك بـالتقـوى وحـاد عن الهـوى | فلم نـره يـومـاً إلى غـيرهـا سعى

إلى آخرها. وخلف نجله القاضي العلامة أحمد بن أحمد الجرافي، وسبقت ترجمته.

آل البهلكي

مساكنهم بواد ضمد ثم مدينة صبيا المعروفة اليوم، والموجودة في ما كان يسمى بالمخلاف السليماني. وأسرة البهلكي عصامية علمية، نبغ فيها أكثر من مجتهد وأديب وعالم عامل، يجتمعون في حسن بن علي البهلكي. وشبيه حال هذه الأسرة التهامية العلمية بأسرة المزجاجي تحقيقاً للعلوم، ورحلة في طلبها ونشرها.

وأهم رجال هذا البيت على كثرتهم هو عبد الرحمن بن أحمد بن حسن البهلكي زميل الشوكاني وتلميذه. موسوعي في العلم، وفحل مجيد في الأدب وقرض الشعر، ومؤرخ تاريخ، وقاض عادل. قال الشوكاني: أنه كان بينهما من المودة ما هو فوق مودة الشقيقين. وأطنب في ترجمته، وترجمة أبيه العالم، وعمه الفاضل، وخاله الحافظ، وإخوته الميامين. ورأيت الاكتفاء بما ترجمه زبارة لاشتماله على بعض أقوال الشوكاني وعلى مؤلفاته. قال:

«القاضي العلامة الحافظ عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن بن علي البهلكي الضمدي ثم الصبائية التهامي اليماني. مولده سنة ١١٨٢ بمدينة صبيا، وأخذ عن والده في المختصرات وغيرها، وأخذ عن القاضي أحمد بن عبد الله الضمدي حتى برع في الفقه والنحو والأصول، ورحل إلى صنعاء في سنة ١٢٠٢، فأخذ

بها عن السيد عبد القادر بن أحمد الكوكباني والسيد علي بن عبد الله الجلال والسيد عبد الله بن محمد الأمير، والقاضي الحسن بن إسماعيل المغربي، والسيد عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن المتوكل، والقاضي علي بن هادي عدهب، والقاضي محمد بن علي الشوكاني في فنون متعددة ثم عاد إلى وطنه بتهامة وقد برع في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والحديث والتفسير، وعرف طبائع أهل صنعاء وعاشرهم، مع حسن تودده ولطافة طبعه، وكرم أخلاقه، وملاحة محاضرته، وحسن فهمه، وجودة تصوره، وفصاحته، ورجاحته، واستحضاره لرائق الأشعار وفائق الأخبار. ثم عاد من وطنه إلى صنعاء في سنة ١٢٠٩ ورجع إلى وطنه، ثم عاد إلى صنعاء مرة ثالثة سنة ١٢١١، وعينه المنصور علي بن المهدي العباس حاكماً في مدينة بيت الفقيه، فباشر القضاء مباشرة حسنة بعفة ونزاهة وحرمة. وقد أجازه الشوكاني بجميع ما تجوز له روايته.

وأشعاره كثيرة، وإجادته في النثر أكثر من إجادته في النظم. ومن مؤلفاته (تيسير اليسرى بشرح المجتبى من السنن الكبرى) للنسائي في مجلدات وروايتان بمعرفة طبقات رجال الأمهات و(الأفاويق بتراجم البخاري والتعاليق)، و(نفح العود بذكر دولة الشريف حمود) ذكر فيه الحوادث التهامية إلى سنة ١٢٢٥، وقد ذيل من هذا الكاتب القاضي حسن بن أحمد عاكش إلى سنة ١٢٣٣ بذيل سماه (نزهة الظريف بدولة أولاد الشريف) قال عاكش: وكان لصاحب الترجمة والسيد الإنعام التام على من يصل إليه، من الطلبة والأرحام والمحبين من الأنام، وفي آخر مدته أضافه من كان يظنه صديقاً له، وجعل له سماً في مشروب، فحصل معه الضعف الموجب لعدم الحركة من يومئذ إلى أن توفاه الله تعالى. وقال في ذلك مورياً:

سألت الناس هل سمّي طبيبي لعلتي التي أضنته مما
وما النوع الذي أضنى عظامي وقد وهنت فقال الناس: سما

ومن شعره موريا بكتاب الأطراف للحافظ المزي في الحديث:

لا تلمني إذا احتجبت عن الناس وفارقت كل خل مصافي
وعصمت اللسان عن كل عرض وجعلت الحديث للأطراف

وأشعاره كثيرة. توفي ليلة الأربعاء ١٨ شعبان سنة ١٢٤٨ عن ٦٦ سنة رحمه الله».

آل النعمي

وآل النعمي كغيرهم من سادة تهامة يرقى نسبهم إلى الفرع الحسيني، وهم منتشرون في عدة بقاع يمنية، وإن كان محتدهم الأول بالمخلاف السليماني، ومنهم إلى اليوم بيوتات باللحية وزبيد وبيت الفقيه وحيس وعدن وصنعاء. وقد نبغ فيهم الكثير من العلماء والبلغاء، في قرية مثل الأوشج على الساحل جهة الخوخة، وكان يوجد بها شعراء من آل النعمي في القرن الثالث عشر. وأهم من نذكره من آل النعمي شخصيتان، لأولهما علاقة بمصلح اليمن محمد بن إسماعيل الأمير، ولثانيهما لها علاقة بإمام السنة محمد بن علي الشوكاني، ونبدأ بالأول وهو:

السيد العلامة النبيل التقي. الفهامة الحسين بن مهدي النعمي التهامي ثم الصنعاني. وفد من مدينة صبيا بتهامة إلى صنعاء لطلب العلم، فأخذ بها في العلوم العقلية والنقلية والفروعية منها والأصولية.

ترجمه القاضي أحمد قاطن فقال في الدمية: «وفد إلى صنعاء وتزوج بها، ولما بنى المهدي العباس مسجد القبة أسفل صنعاء جعله إماماً للصلاة فيها، فأقرأ بالقبة في كتب السنة، وكثر الآخذون عنه من الخاصة والعامة، وعملوا بالسنن من رفع وضم وتأمين وغيره في الصلاة، فحسده بعض الفقهاء، ودسوا إلى قبائل حاشد وبكيل وقاضيهم حسن أحمد البرطي أنه والسيد البدر محمد بن إسماعيل الأمير خالفا المذهب. فوصلت رسالة منهم إلى المهدي وإلى بعض الحكام،

وعرضت على علماء صنعاء وعلماء ذمار وحوث، فأجاب العلماء في المدن المذكورة بجوابات مقنعة، وأعظمها جواب السيد إمام العلوم زيد بن يحيى بن أمير الدين عالم حوث، والمرجع فيها. ثم وبخهم أن يصلحوا أنفسهم عن خروجهم من بلادهم لنهب الرعايا والمحارم، وحرر البدر الأمير رسالة ذكر فيها من قال بالتأمين من أهل البيت، وأجاب صاحب الترجمة عن المعترضين، وأطال الكلام، فقنعوا بالجواب مدة، ثم بدا للمهدي أن يرضي حسن أحمد البرطي لكثرة الخوض منه بمنع التأمين، فأمر المهدي متولي وقف صنعاء الشيخ عبد الله محيي الدين العراسي، أن يأمر المؤذن بجامع صنعاء أن يعلم الناس بذلك، ومنع عامة الناس بصنعاء حتى الشافعية والحنفية فقلت له في ذلك، فقال: من كان من مذهبه قولها قالها سراً. فتحزب الناس حزبين ثم استمر المترجم له على الإقراء في كتب السنة والعمل بها مجللاً محترماً، ونزل إلى أبي عريش للإصلاح بين شريفها والمهدي، وعاد إلى صنعاء واستمر على حاله الأول، وكان المهدي فأذن له في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإن كان من خاصة المهدي وقرأ على المترجم أياماً في شرح العمدة لابن دقيق العيد، ومات صاحب الترجمة سنة ١١٨٧، رحمه الله».

وثانيهما: هو السيد محمد بن عز الدين النعمي التهامي. قال الشوكاني: «ولد تقريباً سنة ١١٨٠ بالعذير، بفتح المهملة وكسر المعجمة وسكون المثناة من تحت ثم راء مهملة، وهي بقرب بندر اللحية من بنادر تهامة. ثم ارتحل إلى صنعاء فقرأ في علم الفروع على شيخنا العلامة أحمد بن محمد الحرازي وغيره، ولازمني مدة طويلة، فقرأ عليّ في النحو والصرف والمنطق والمعاني والبيان والأصول والحديث والفقه، وتميز في جميع هذه العلوم، وصار أحد العلماء المشار إليهم، مع العقل الوافر والسكون والتواضع، والعفة والشهامة، والإقبال على العلم بكليته، والملازمة للطاعة، والانجماع عن الناس.

ولما نال ما كان سبباً للإرتحال عاد إلى دياره في تهامة. وهو بلا مدافع أعلم

الموجودين من السادة النعامية، وكثيراً ما يكتب إليّ من تلك الجهات فيـما يعرض لـه من المهمات، وهـو حتى الآن ينتفع بـه أهل تلك الـديار ويـرجعون إليـه فيـما ينـويهم من المسائـل الشرعية، مـع مزيـد تحسره وتأسفـه عـلى مفـارقـة صنعـاء، وانقطاع ما كان فيه من الطلب لعلوم الاجتهاد. ولكنـه عاقـه عن العود احتيـاج أهل بلده إليه، خصوصاً قرابته بعد موت أخيه أحمد بن عز الدين»أ. هـ.

والمؤسف أن أخا المترجم وهو إسماعيل بن عز الـدين النعمي، كان القـائم بإثارة الغوغاء على الشوكاني، بسبب نشره لعلوم السنة، وذبه عن صحابة الـرسول الله ﷺ. وقـد أشـار الشـوكـاني في أدب الـطلب إلى مـا صنعـه السيـد إسماعيل، وقد قبض عليه الإمام المنصور علي وأرسله مع المشاركين في الفتنـة إلى جـزيرة زيلع فهلك فيهـا، وتلك هي جنايـة التعصب المقيت. غفر الله لأحيـائنا وأمواتنا أجمعين.

آل إسحاق

كان حقهم التقديم في مكانهم التاريخي بجـوار آل الأمير، الـذين تجمعهم بهم أكـثر من آصـرة، وأهمهـا: اشتراكهم في حب السنـة ونصرها ونشرهـا. وقد أكثرت الكلام عنهم في كتابي عن الإمام محمد بن إسماعيل الأمير، إذ كـان الإمام محمـد بن إسحـاق بن أحمـد بن الحسن بن القـاسم بن محمـد، وولـده إسـماعيـل (شارح الكافل في الأصول)، وأخوه الحسن بن إسحاق نـاظم ربع العبـادات من زاد المعـاد، من أخص خواص الأمـير. و الحق أن مما يـذكر لهـذا البيت، حبهم للسنة وتعلقهم بنصرتها، وإجـادتهم المشهورة في الأدب، حتى أن لهم المقـطعات القيمة التي لا يلحقهم فيها غيرهم، وعلى كـثرة رجالهم، ووفـرة مواهبهم، فقـد رأيت الاكتفـاء هنا بترجمة أحـدهم، وهو الصـالح المصلح الـزاهـد إبـراهيم بن محمـد إسحاق، الذي كانت بينه وبـين شيخ الإسـلام الشوكـاني مثل مـا كان بـين أبيه وبين شيخ الإسلام الأمير، وهو الذي دعا له الشوكاني بأن يمد الله عمره فوق المئة،

فاستجيبت الدعوة، فلم يمت إلا بعد أن جاوز المئة سنة.

فعش رافلاً ما شئت في حلل التقي
من فوق جسر للهنيدة، فاعبر

ترجمه زبارة وضمنها ترجمة الشوكاني له بعد دراسته ومشائخه: «له راغبة في المباحثات العلمية شديدة، واشتعال بالعلوم والعبادات، والقيام بوظائف الطاعات، وقضاء حوائج المحتاجين، والسعي في صلاح المسلمين. وله في المكارم مسلك لا يقدر عليه غيره، وفي حسن الأخلاق وتفويض الأمور إلى المهيمن الخلاق أمد عجيب. ورغب عن الرياسة الدنيوية، فاستبدل بالخيل والخول الزهد والتقشف، وترك زي أبناء جنسه من بيت الخلافة والمملكة. ومع هذا فله إجلال في القلوب، ونبالة في النفوس، وضخامة رائدة عند جميع الناس وإذا مر به راكب من آل الإمام، أو من أكابر الوزراء والأمراء والقضاة، ترجل له وسلم عليه. وما رأيت مولانا الخليفة يجل أحداً كإجلاله له، وهو حقيق بذلك.

وفي النفحات «أن والد المترجم له فوض إليه أحكام السياسة في بلاده، وكان يحبه ويميل إليه أكثر من سائر إخوته، وجعله وصياً له في أهله، وولياً على ما أوصى به من ماله، فتعلق بالرياسة، ثم تركه وأقبل على العبادة، ومجالسة الفقراء وأهل الصلاح، والزهد في الدنيا، والمعاملة لها على مقتضى استحقاقها، وعدم الاشتغال بالأعراف والعادات التي يعتادها أبناء جنسه، غير مبال بملبوس ولا غيره. وكان كثير الضيافات، واسع النفقات، ومحله مجمع الأعيان ومحط رجال الأعلام، وله خلق عظيم، وتودد باهر، ولين جانب، وميل إلى العمل بما صح من الأحاديث النبوية، واشتغال بالمذاكرة والمراجعة في مشكلات من العلوم. ولا يخلو موقفه من المسائل، ومن الخوض في طرائف الأخبار ولطائف الأشعار. وجمع شعر والده في مجلد سماه (سلوة المشتاق بشعر المولى محمد بن

إسحاق)، ورتبه على الحروف. وكان باراً بوالده، مطيعاً له في كل ما يرومه في أمره. وناله بسبب ذلك امتحانات» انتهى. ومن شعره في الصلاة عن النبي ﷺ.

أما الصلاة على النبي فإنها
تنفي الهموم وتذهب الأخلاطا
وبها الصلاة من السلام فقم بها
إن خفت من كل الهموم شطاطا
فاملأ بها الأكوان تحظى بالذي
ترجوه من حي أحاط وحاطا
تكفى بها في الدين والدنيا، وفي
أخراك، فالزمها تزدك نشاطا
وكذا الشفاء بها. فطوبى للذي
جعل الصلاة إلى النجاة سراطا

توفي سنة ١٢٤١».

آل جحاف

وهم قضاة ينتسبون ـ كما قال زبارة ـ إلى جحاف بن مرهبة بن بكيل، غير السادة آل جحاف الحسنيين. من رجالهم لطف الله بن أحمد جحاف صاحب دُرر نحور الحور العين في التاريخ، والمرتقى إلى المنتقى في الحديث، وغيرهما.

ترجمه شيخه الشوكاني فقال بعد ذكر مقروءاته ومشائخه والثناء على أخلاقه: «وله ملكة في المباحث الدقيقة مع سعة صدر، إذ رام من يباحثه أن يقطعه في بحث لم ينقطع، بل يخرج من فن إلى فن، وإذا لاح له الصواب انقاد له. وفيه سلامة صدر زائدة، بحيث لا يكاد يحقد على من أغضبه، ولا يتأثر لما يتأثر غيره بدونه، وهو الآن من محاسن العصر وله إقبال على الطاعة وتلاوة

القرآن بصوته المطرب وفيه محبة للحق، لا يبالي بما كان دليله ضعيفاً، وإن قال به من قال، ويتقيد بالدليل الصحيح وإن خالفه من خالف. وهو الآن يقرأ عليّ في صحيح البخاري، وفي شرحي للمنتقى. وقد سمع مني غير هذا من مؤلفاتي وغيرها، وقد اختص بالوزير العلامة الحسن بن علي حنش، وصار لديه بمنزلة ولده. توفي سنة ١١٢٣».

آل الأنباري

من بيوتات تهامة الكريمة، ينتهي نسبهم إلى المساوى بن الطاهر بن عطيفة الحسني. وأول من لقب منهم باسم الأنباري هو جدهم المكرم وعميدهم هو طاهر بن أحمد بن المساوى بن يحيى بن القاضي عبد الله بن المكرم. وترجمه زبارة فقال:

«وهؤلاء السادة بيت الأنباري الذين بمدينة زبيد، فرع من السادة آل المساوي سكان حرض ووعلان والرباط وضحيان من أعمال تهامة، والجامع لهم جميعاً.

هو المساوي بن الطاهر العطيفة والجامع لبيت الأنباري هو السيد المكرم بن يحيى وصاحب الترجمة مولده سنة ١١٦١ تقريباً، وأخذ بزبيد عن السيد سليمان بن يحيى الأهدل، والشيخ عمر بن عبد الله الخليل، والشيخ عثمان بن علي الجبيلي، والشيخ عبد الله بن سليمان الجوهري، وغيرهم.

وقد ترجمه تلميذه عاكش فقال: «كان من العلماء المحققين، والفضلاء السابقين، متفرغاً للتدريس والعبادة، مرجوعاً إليه في المشكلات، متفرغاً، مؤثراً للخمول، لابساً للخشن من الثياب، تاركاً للفضول، حسن الأخلاق. قرأت عليه في المعاني والبيان والمنطق، وأسمعت عليه في الحديث». انتهى. وممن أخذ عن المترجم له واستجاز منه في سنة ١٢٥٠ القاضي محمد بن مهدي الضمدي. وقال القاضي الحافظ عبد الرحمن بن محمد بن علي العمراني

الصنعاني: «إن صاحب الترجمة لم يفتر عن التدريس حتى توفي سنة ١٢٥٢ عن سن عالية. رحمه الله».

آل الجنداري

والجندار في اللغة من معانيه حرس الأمير، والجنداريون من صنعاء، أهل علم وصلاح. مقدمهم في الذكر هو العالم الأصولي المحدث الزاهد العابد أحمد بن عبد الله الجنداري المولود بصنعاء سنة ١٢٧٩. أخذ عن كبار علماء صنعاء حتى صار في مقدمتهم، انتقل إلى الأهنوم سنة ١٣١٠، وبها انقطع للعبادة والتعليم والتأليف.

ذكر زبارة مقروءاته ومشائخه وتلاميذه، ثم قال: «وكان إماماً متبحراً في علم أصول الدين بحيث لم يلتق في عصره بالبلاد اليمنية من يضاهيه فيه، ثم مال إلى علم السنة النبوية وترجيح الدليل، وانتهت إليه رياسة المعرفة بعلوم الحديث وعلله ورجاله وأحوال رواته، في الاعتقادات والديانات، والصدق والأمانة، والجرح والتعديل، ومعرفة الوفيات، مع اليد الطولى في علم التفسير وحفظ أقوال المفسرين من الصحابة والتابعين، فحقق ودقق واجتهد وراجع وقرر وانتقد. وكان أكثر تدريسه في الأصولين والحديث والتفسير، وكانت له اليد الطولى في علم الطب، وله الأشعار الرائعة والمؤلفات العديدة، والأنظار الثاقبة. و كان آية زمانه في الورع والعفة والزهادة والعبادة، والقناعة والسخاء والرأفة والشفقة والتواضع، والمحافظة على الأوقات، والملازمة لتلاوة القرآن والأذكار، والتهجد في الليل، مع البعد عن الولاية، وقصر أوقاته على الدرس والتدريس والذكر والتصنيف.

ومن أشهر مؤلفاته في أصول الدين: حاشية على العقد الثمين، وسمط الجمان شرح الرسالة الناصحة للإخوان، ونور الصباح على الإيضاح، وشرح أبيات الصاحب بن عباد، وآخر شرح على قصيدة للسيد محمد بن عبد الله

الضحياني، وشرح على نكث الفرائد، وانتقاد القريحة من ينابيع النصيحة. وفي علم الحديث والرجال: البرق اللموع في الجمع بين الأمانيين، والمجموع وحاشية على أمالي الإمام المرشد بالله، وحاشية على أمالي أبي طالب، ورحيق الأزهار في تراجم رجال شرح الأزهار، وتحفة الإخوان بنظم تاريخ قرناء القرآن، والجامع الوجيز بذكر وفيات العلماء ذوي التبريز، بدأ فيه من الهجرة إلى وقته سنة ١٣٠٥ هـ، ومبير الأحزان بذكر أحوال أولياء الرحمن، وإبانة الشفاعة في النهي عن تفريق الجماعة.

وقال: «وكتاب صاحب الترجمة (مبير الأحزان بذكر أحوال أولياء الرحمن) في مجلد ضخم، وفرغ من جمعه في ربيع الآخر سنة ١٣٢٦ هـ.

ومما قاله في خطبته ما نصه: «وبعد، فإني له وقفت على كتاب (جلاء قلوب العارفين) لأبي القاسم محمد بن الشقيق الزيدي، وعلى (تزيين المجالس) للإمام المهدي، وفيه من حكايات الصالحين والزهاد ما يبصر العاقل، ويذكره بيوم المعاد. وفي الأول مئتان وعشرون، وفي الثاني ستون، وهما متداخلان، ومستمد الجميع (إحياء علوم الدين) وأحببت أن أجمع ذلك ما يصيرهما نحو الألف، وأورد من الكرامات للصحابة والأئمة ما يجل عن الوصف، ومن الأخبار النبوية والآثار الصحابية ما يليق بالمطلوب، والله الموفق والغافر للذنوب. وقد جعلت الرواية للحكاية أولها إلا ما كان خبراً عن المختار فتخريجه آخرها، وسميته (مبير الأحزان لأهل الإيمان بذكر أحوال أولياء الرحمن) ثم أذكر الحكايات إلى الحكاية الموفية إحدى عشرة مئة، ثم تراجم من أجل نقل من كتبهم، ثم ذيل ذلك بإحدى وعشرين حكاية أخرى». كما في النسخة التي بقلمه من هذا المصنف المفيد. توفي سنة ١٣٣٧».

الضمديون

ضمد وادٍ مبارك يقع بجوار صبيا، وينسب إلى يزيد بن الحارث بن وعلة بن مذحج. خرج منه علماء كبار اختار منهم ثلاثة:

أولهم: محمد بن عبد الله بن عبد العزيز الضمدي. توفي سنة ١٢٢٣. كان من كبار علماء التفسير والحديث والأصول، وغيرها. جاور بمكة، وأخذ عن كبار مشائخها ومشائخ اليمن.

وثانيهما هو محمد بن مهدي الضمدي المتوفى سنة ١٢٦٩. كان من حفاظ الحديث وعلماء الأصول والتفسير. أخذ عن كبار علماء بلده، وهاجر إلى صنعاء، فأخذ عن كبار مشائخها، ومنهم الشوكاني. وهو الذي اختلف مع الشريف حسن بن خالد الحازمي حول الجر بالبسملة في الصلاة خلافاً لقول الشريف بتركها، فأوجب الأمر إلى نزوحه عن بلده فراراً من فتك الشريف به، رحمهم الله. واستقر بصنعاء مع عائلته حتى توفي.

وثالثهم هو العلامة الكبير المؤرخ حسن بن أحمد بن عبد الله بن عبد العزيز الضمدي المعروف بعاكش ابن أخي الأول. توفي رحمه الله سنة ١٢٨٩ بعد أن رسخ في العلوم بأنواعها، ووضع المؤلفات النفيسة التي تزيد على سبعة كتب ترجمه زبارة، فذكر من مشائخه ومقروءاته في قوله:

«قرأ القرآن على القاضي أحمد بن عبد الله بن علي بن إبراهيم النعمان الضمدي، وأخذ عنه في الفقه والفرائض والنحو والصرف والمنطق والمعاني والأصول، ثم ارتحل من وطنه في سنة ١٢٣٨ إلى تلميذ والده القاضي عبد الرحمن بن أحمد بن الحسن البهلكي، فأخذ عنه في مدينة بيت الفقيه ابن عجيل من تهامة، مؤلفه تيسير اليسرى شرح المجتبى من السنن الكبرى للنسائي. ومؤلفه (الأفاويق) بما في صحيح البخاري من التراجم والتعاليق،

وكثيراً في الأمهات الست، والعلل للترمذي، وتفسير القرطبي، والكشاف للزمخشري، والفرات النمير تفسير القرآن المنير للقاضي مطهر بن علي النعمان الضمدي، وغير ذلك. وأخذ عن القاضي محمد بن أحمد بن إبراهيم النعمان الضمدي في النحو والفقه والفرائض، وعن السيد الحسن بن محمد بن علي الحازمي في العربية والفقه والأصول، وعن القاضي محمد بن يحيى بن عبد الله بن حسين بن الحسن بن الحسن في النحو وغيره، وعن الشيخ إبراهيم بن أحمد الحفظي في الحديث، وعن الشريف بشير بن بشير بن مبارك الحسين، والقاضي الحسن بن أحمد بن علي البهلكي، والسيد أحمد محمد النعمي الشرفي، في النحو والحديث، وعن السيد إبراهيم بن عبد الهادي زبيبة والقاضي عبد القادر بن علي بن حسن العواجي والقاضي يحيى بن إسماعيل النجم في النحو، وعن السيد علي بن محمد عقيلي الحازمي والسيد محمد بن حسن بن موسى الحازمي في الحديث، وعن القاضي أحمد بن سالم حابس الصعدي في الفقه.

وهاجر إلى مدينة زبيد، وقرأ بها على السيد عبد الرحمن بن سليمان بن يحيى الأهدل جميع صحيح البخاري وبعض صحيح مسلم وأوائل الأمهات الست وزوائدها، والمسانيد والمجاميع، وشرح ابن دقيق العيد على العمدة، وأخذ عنه في النحو والبيان والأصول وعلم الطريقة وفي التفسير، وأجازه وأرشده إلى شرح منظومة المدخل في المعاني والبيان. وأخذ أيضاً عن السيد عبد الرحمن ابن محمد الشرفي الزبيدي في النحو والفقه والشاطبية وشرحها في علم القراءات، وعن السيد الطاهر بن أحمد بن المساوي الأنباري في المعاني والبيان والمنطق والحديث وأجازه. وأخذ عن السيد أحمد بن إدريس المغربي ماله من الأوراد والأحزاب، والمواعظ والرقائق، والحكم العطائية، ورسالة القشيري، وطريقة الصوفية. وأجازه فيها، وألبسه الخرقة. وأخذ عن الشيخ أحمد بن عطاء الله الهندي التهامي في النحو والصرف، وعن الشيخ محمد عابد بن أحمد علي السندي المكي في البخاري وشمائل الترمذي، وعن السيد محمد بن المساوي بن

عبد القادر الأهدل في علم البيان وفي العروض والقوافي وبعض الأمهات الست، وله منه إجازة مطولة». ا. هـ. والترجمة أطول من ذلك.

آل با مخرمة

أسرة حضرمية منجبة، أولهم هو عبد الله بن أحمد بن علي بن مخرمة صاحب شرح الملحة و الرسائل في الهندسة. مفتي عدن، ولد وتوفي بها سنة ٩٠٣. وعبد الله بن الطيب با مخرمة صاحب السنة إلى المواضع والبلدان وقلادة النحرفي وفيات أعيان الدهر. ولد بعد أن توفي بها سنة ٩٤٧. وعمر بن عبد الله با مخرمة. توفي بسينون سنة ٩٥٢، وهو صاحب الوارد القدسي في تفسير آية الكرسي. وعبد الله بن عمر بن عبد الله، وهو أكثرهم علماً. درس بحضر موت وزبيد والحرمين. له (حقيقة التوحيد في الرد على ابن عربي)، و(اللمعة في الفلك)، و(ذيل طبقات الأسنوي) وغيرها. توفي بعدن سنة ٩٧٢. نقلاً عن (الأعلام).

نازحون

لن نسترسل في ذكر النازحين من اليمن من كبار العلماء والفضلاء في هذا الإشراق، حتى لا يتضاعف حجم الكتاب، وسنكتفي بأهم النازحين مقتصرين على أفراد قلائل منهم هم فيهم أعلامهم، وقبل ذلك نضع في ذهن القارىء خطرات يلحظها المتمعن في تاريخ اليمن خلال هذا الإشراق، فإذا كنا قد رأينا اليمن في الإشراق الأول تحتل الريادة الجهادية والعلمية على يد أبنائها النازحين قبل الإسلام، والوافدين بعد الإسلام، والذين كان منهم غالبية جيش الفتح في مشارق الأرض ومغاربها، فإن النازحين في الإشراق الثاني كان دافعهم الغالب للنزوح، هو العبادة لحج وعمرة وزيارة وطلب العلم، ونادراً ما يكون النزوح لدافع سياسي، كما حدث لعمارة بن علي بن زيدان الحكمي الذي احتوشته السياسة فمات مشنوقاً بسببها، وكما فعل الإمام الطموح عبد الله بن حمزة أواخر

القرن السابع، إذ بعث دعاته إلى جيلان والديلم كسباً للأنصار، ومن أهم أولئك الدعاة: محمد بن أسعد المرادي وقاسم بن بصير.

ولقد كانت أرض الحرمين همزة وصل لالتقاء علماء اليمن بعلماء الشام ومصر وسائر الأمصار، فكانت الوفادات إلى اليمن عن طريقها والنزوح عن اليمن إليها ومنها إلى غيرها. وقد فصل البريهي في كتابه وفادات كبار علماء وأولياء ما قبل القرن العاشر، وفي مقدمتهم الحافظ بن حجر العسقلاني، وشيخ القراء محمد الجزالي الشاذلي، والولي الصالح محمود الجيلاني، والولي المصلح أحمد ابن عمر المعروف بالشاب التائب، والزين المراغي، وعلي بن يوسف الغزولي الذي بهره كتاب عنوان الشرف الوافي للمقري، فحرص على مضارعته، فجاء بكتابه شرف العنوان.

أما أهم المهاجرين فعبد الله بن أسعد اليافعي، ومحمد بن إبراهيم الوزير، وعبد الله النجري، ولطف الله الظفيري. النجري أول من أدخل كتاب (مغني اللبيب) لابن هشام إلى اليمن في القرن التاسع، كما قاله الشوكاني، أو أحمد اليريمي كما قاله البريهي، وهو أيضاً من أهل القرن التاسع.

وكان من نتائج تلك الرحلات والوفادات وجود أعلام يمثلون مدارس مستقلة بأسلوبها وأتباعها، ففي حرض يحيى العامري، وفي أبيات حسين علي الأزرق وحسين الأهدل، وفي الجبال عبد الله النجري، وفي زبيد إسماعيل المقري وتلميذه: عمر الفتى، ومحمد النهاري، وفي تعز الجمال بن الخياط، وفي عدن قاضيها الصالح محمد أبو حميش الذي أثنى عليه السخاوي في أكثر من مكان في (الضوء اللامع).

ولقد لاحظت من خلال تأملاتي لليمن في الإشراق الثاني أن القرون، السابع والثامن والتاسع، كانت فترة تألق علمي وروحي في تهامة وتعز وإب وحضر موت، كما كانت القرون، الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر، فترة

تـألق علمي واجتهادي في صنعـاء وما جـاورها، إذ أن الشـوكاني ذكـر تـرجمته للطف الله الظفيري المتـوفى سنة ١٠٣٥[1]، أنـه حقق برحلتـه خارج اليمن علوم البيان والبديع، والنحو والصرف والأصول، وهي التي لم يكن حينذاك في الجبال من يتقنها، وكذلك الشأن في علوم الحديث. كما ذكرت محمد بن إبـراهيم الوزيـر في (الـروض البـاسم) ومحمـد بن إسـماعيـل الأمـير في ديـوان شعـره. والحق أن السخاوي بضوئه حفظ الكثير من علماء اليمن وصلحـائه في القـرن التاسـع، بل إنه حفظ لنا أسماء كثيرات من صالحات وعالمات وفضليـات نساء اليمن، أمثـال زينب بنت عبـد الله اليـافعي المتـوفـاة سنـة ٨٤٦، استجـازت من كبـار علماء عصرها، وأجازت لهم. وعائشة بنت عبد الوهاب بن فلاح المتـوفاة سنـة ٨٦٦، كان الإمام السخاوي أحد تلامذتهـا ومنصورة أم منصـور الحرازي المتـوفاة سنـة ٨٥٧، كان السخاوي أيضاً من تلامذتها. وأم الحسن بنت أحمد المذحجي المتوفاة أواخر القرن التاسع، كان البقاعي أحـد تلامـذتها المجـازين منها مشـافهة. أمـا دهماء بنت المرتضى فقد ترجمها الشوكاني وذكر شرحها لكتاب أخيها (الأزهار) في أربعة مجلدات. توفيت سنـة ٨٣٧. نورد هـذا ليعلم المطلع مـا كانت تـزخر بـه اليمن من نشاط علمي فيما قبل الألف، أما مـا بعد الألف فـإن زينب الشهاريـة الشاعرة المجيدة التي ترجمها زبارة في النشر، تستحق الإفراد بترجمة، لولا أن هذا الكتاب معني بغير الشعراء بعد هذا الاستطراد ننتقل إلى ذكر أهم النازحين:

عبد الرحمن بن خلدون (٧٣٢ ـ ٨٠٨ هـ)

يحـرص الكثيرون عـلى تجريـد اليمن من أبنائهـا وسبقها العلمي والإيمـاني وريـادتها الجهـادية، وفي مقـدمة أولئـك الجاحـدين الدكتـور (طه حسـين) الذي حرص في كتابـاته عـلى نفي عروبـة لغة اليمن قبـل الإسلام، ونفي فضـلائها، ومنهم ابن خلدون الذي أصر على كونه بربرياً. وكما صنـع طه مـع ابن خلدون

(١) سبقت ترجمته ص ٦٧٨.

صنع غيره مع طارق بن زياد، إذ أصر على بربريته خلافاً للمصادر الموثوقة، كابن الأثير وغيره، الذي صرح بأنه صدفي والصدف قبيل من اليمن، ورغم كل ذلك فإنَّ الزبد يذهب جفاء ويبقى ما ينفع الناس في الأرض، فها هو الإمام السخاوي يؤكد في (الضوء اللامع) حضرمية ابن خلدون، وبالتالي يمنيته، ويثني في ترجمته لسعد بن عبد الله الحضرمي ص ٢٤٨ المجلد الثاني، على جد أهل حضر موت ومجاهداتهم، ويذكر في ص ٤٥ في المجلد الأول عند ترجمته لأحمد بن علي الصعدي العدني رئيس تجار اليمن في عصره، اتصال عبد الرحمن بن خلدون به، ومتابعته عن طريقه لأوضاع اليمن. هذا - وكأي عظيم - كان لابن خلدون منافسوه والطاعنون في علمه وفضله ولسنا بصدد الذب عنه والتزكية له، فالعلم عند الله ولا نزكي على الله أحداً، وإنما نقول إن الواقف على المقدمة التي ابتكرها ذلك العبقري، لا يملك إلا أن يعجب بموسوعية معرفته وسلامة منطقيته، ويكفينا في تعريفنا به أن نذكر مقروءاته، كما أوردها السخاوي. قال:

«عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الرحيم، ولي الدين أبو زيد الحضرمي من ولد وائل ابن حجر[1] الإشبيلي الأصل، التونسي ثم القاهري المالكي. ويعرف بابن خلدون، بفتح المعجمة وآخره النون.

ولد في أول رمضان سنة ٧٣٢ بتونس، وحفظ القرآن، والشاطبيتين، ومختصر ابن الحاجب الفرعي، والتسهيل في النحو وتفقه بأبي عبد الله محمد بن عبد ربه الحيان، وأبي القاسم محمد بن القصير، وقرأ عليه التهذيب لأبي سعيد البرادعي، وعليه تفقه، وانتاب مجلس قاضي الجماعة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام، واستفاد منه، وعليه وعلى أبي عبد الله الوادياشي سمع الحديث، وكتب بخطه أنه سمع صحيح البخاري على أبي البركات البلقيني، وبعضه

---

(١) قال الزركلي: إن خالد بن عثمان هو الذي عرف بخلدون وهو من أحفاد وائل بن حجر.

بالإجازة، والموطأ على ابن عبد السلام، وصحيح مسلم على الوادياشي». ا. هـ.

وأخذ القراءات السبع إفراداً أو جمعاً، بل قرأ ختمه أيضاً ليعقوب عن المكتب أبي عبد الله محمد بن سعد بن نزال الأنصاري، وعرض عليه الشاطبيتين والتقصي والعربية عن والده وأبي عبد الله محمد بن العربي العصائري وأبي عبد الله بن بحر، والمقرىء أبي عبد الله محمد بن الشواس الزواوي وأبي عبد الله ابن الفضار، ولازم العلاء أبا عبد الله الإشبيلي وانتفع به، وكذا أخذ عن أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي، وأبي عبد الله محمد بن إبراهيم الإبلي شيخ المعقول بالمغرب، وآخرين. واعتنى بالأدب وأمور الكتابة والخط، وأخذ ذلك عن أبيه وغيره، ومهر في جميعه وحفظ المعلقات وحماسة الأعلم، وشعر حبيب بن أوس، وقطعة من شعر المتنبي، وسقط الزند للمعري. توفي سنة ٨٠٨ هـ.

عبد الوهاب بن عبد الله اليافعي (... ـ ٨٠٥ هـ)

كان لآل اليافعي فضل كبير بأرض الحرمين، عبادة وعلماً، وظهر منهم رجال كثيرون ونساء مباركات، وها هو أحدهم، واسمه عبد الوهاب بن عبد الله ابن أسعد اليافعي المتوفى سنة ٨٠٥. ترجمه ابن حجر في الأنباء المقريزي في (العقود)، وبسط السخاوي ترجمته فقال: «ولد سنة ٧٥٠ بمكة، وسمع بها من أبيه وخالتيه، أم الحسن وأم الحسين ابنتي أحمد بن الرضي، والطبري والجمال الأميوطي، وأبي الفضل النويري القاضي، ومحمد بن أحمد بن عمر بن النعمان في آخرين، وبدمشق من ابن زميلة البعض من الترمذي، ومن مشيخة الفقيه. وتفقه بالأميوطي والأبناسي وغيرهما، وتميز، وأذن له الأبناسي بالإفتاء والتدريس سنة ٨٠١، وتصدى للإشتغال في المسجد الحرام مدة سنتين، وأفتى قليلاً لكن باللسان غالباً، وكان ذا فضيلة في الفقه، وعبادة وديانة وآداب حسنة، مع مزيد ورع وسيرة جميلة».

مؤذن الحرم المكي أحمد بن عمر السحولي
(٧٣٢ ـ ٨٠٧ هـ)

من فضائل هذا الإمام آذانه بالبيت العتيق، وتفرده بكتاب الشفا للقاضي عياض، ومشيخته لحافظ الأمة ابن حجر العسقلاني. توفي رحمه الله سنة ٨٠٧.
قال السخاوي في ترجمته: «ولد في ليلة السبت مستهل رمضان سنة ٧٣٢ بمكة، كما ذكر. وقول شيخنا في أنبائه «سنة إحدى» سهو. وأحضر في آخر الخامسة بالمدينة على الزبير الأسواني الشفا، وسمع من علي بن عمر بن حمزة الحجار، والفخر التوزري، والعز بن جماعة، والجمال المطري، وخالص البهائي، وأجاز له الجمال الأقشهري وعيسى اللحجي، والشهاب الحنفي والزين أحمد بن محمد الطبري، وغيرهم. وحدث سمع منه الأئمة ولا سيما الشفا، وحدث به غيره مرة لتفرده به في الدنيا، ممن سمع منه شيخنا، وذكره في معجمه، والتقي بن فهد. وقدم القاهرة والشام غيره، وكتب الخط الحسن، ونظم الشعر الجيد، وأذن بالمسجد الحرام المكي على زمزم دهراً وكان من فقهاء مدارسه، على أذانه هيبة».

محمد بن عبد الله البعداني

قال السخاوي في ترجمته:
«محمد بن عبد الله بن زكريا اليمني البعداني، بموحدة ثم مهملتين وآخره نون، بلدة من مخلاف جعفر باليمن، الشافعي، نزيل الحرمين. قال الفاسي كان خيراً صالحاً مؤثراً، منور الوجه، كثير العبادة، له إلمام بالفقه والتصوف. جاور الحرمين نحو ثلاثين سنة على طريقة حسنة من العبادة، وسماع الحديث، والاشتغال بالعلم، وتمشيخ على الفقراء برباط دكالة بالمدينة، وعمره بمال سعى فيه عند بعض بني الدنيا، وبها توفي في العشر الأخير من ذي الحجة سنة عشر، ودفن بالبقيع وهو في عشر الستين. وكان من وجوه أهل بعدان أصحاب الشوكة بها» وذكره المقريزي في عقوده. رحمه الله وإيانا».

علي بن زيد الردماوي (٧٤١ ـ ٨١٣ هـ)

ممن جالوا في الأمصار طلباً للعلم ونصراً لدين الله. توفي رحمه الله بمصر سنة ٨١٣. قال السخاوي في ترجمته: «علي بن زيد بن علوان بن صبرة بن مهدي بن حريز، أبو الحسن اليمني الردماوي الزبيدي ـ بالضم ـ القحطاني. قال فيه شيخنا في أبنائه تبعاً للمقريزي: يكنى أبا زيد، ويدعى عبد الرحمن أيضاً. ولد بردما ـ وهي مشارف اليمن دون الأحقاف في جمادى سنة إحدى وأربعين وسبع مئة، ونشأ بها، وجال في البلاد، ثم حج وجاور مدة، وسكن الشام، ودخل العراق ومصر، وسمع من اليافعي والشيخ خليل وابن كثير وابن خطيب يبرود، وبرع في فنون، من حديث وفقه ونحو وتاريخ وأدب، وكان يستحضر كثيراً من الحديث والرجال، ويذاكر بكتاب سيبويه، ويميل إلى مذاهب ابن حزم، مع كثرة تطوره، وتزيِّيه في كل قليل بزي غير الذي قبله، وخبرته بأحوال الناس. ثم تحول إلى البادية فأقام به يدعو إلى الكتاب والسنة، فاستجاب له حَيار بن مهنا والد نعير، فلم يزل عنده حتى مات، ثم عند ولده نعير، بحيث كان مجموع إقامته عندهما نحو عشرين سنة».

عبد الرحمن اليافعي (٨٠٠ ـ ٨٢٧ هـ)

هو عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن عبد الله بن سعد اليافعي. قال السخاوي في ترجمته: «ولد في مستهل المحرم سنة ثمان مئة، وحفظ القرآن والأربعين والمنهاج وألفية النحو، وعرض على جماعة، أولهم في سنة تسع، وسمع على الزين المراغي، وأجاز له خلق باستدعاء ابن موسى، وعني بالأدب والشعر، ونظر في دواوينه، وفهم، وحفظ أشياء حسنة، بل نظم ونقد، وتردد لليمن بالشعر للاسترزاق، ودخل مصر، وناب في الإمام بالمقام عن عبد الهادي الطبري. وفيه كياسة ومروءة، وحسن عشرة ومذاكرة. مات بمكة في جمادى الثانية سنة سبع وعشرين وثمان مئة».

ولي الله عمر العرابي (... - ٩٢٧ هـ)

في ترجمة هذا الشيخ الصالح المصلح ما يشهد أن الله يهدي بالفرد الواحد جيلاً كاملاً، بل أجيالاً. قال السخاوي في ترجمته: عمر بن محمد بن مسعود بن إبراهيم الشاوري اليماني نزيل مكة، ويعرف بالعرابي، بالتخفيف والإهمال أخذ باليمن عن أحمد العرضي المقيم بأبيات حسين ونواحيها، وكان من جلة أصحابه، وعن غيره من صلحاء اليمن. ثم قدم مكة في سنة إحدى عشرة فاستوطنها حتى مات، لم يخرج منها إلا لزيارة المدينة النبوية غير مرة ومرة في سنة تسع عشرة إلى اليمن، ورزق حظاً وافراً من الصلاح والخير والعبادة، وتزايد اعتقاد الناس حتى صاحب مكة حسن بن عجلان فيه، بل كان يكثر من زيارته ويرجع إليه في بعض ما يقوله. واتفق في سنة ست وعشرين أنه خالفه في شيء، وبلغني تغير خاطره، وأنه فهم أنه بذلك تتغير حاله في ولايته، فبادر إلى استعطافه، فقال له: قد فات الأمر، فلم يلبث أن عزل في أوائل السنة التي تليها، بل ما تمت السنة حتى مات الشيخ في آخر يوم الأربعاء السابع عشر من رمضان سنة سبع وعشرين، ودفن من الغد بالمعلاة، وازدحموا على نعشه.

وكان منور الوجه، حسن الأخلاق والمعاشرة، مقصوداً بالزيارة والفتوح من الأماكن البعيدة. وتاب على يده من الجبال وتهامة وغيرها من اليمن فوق مئة ألف، وابتنى داراً بمكة على المروة قبل موته بسنين، وبه كانت وفاته يرحمه الله وإيانا. ذكره الفاسي في مكة والتقي بن فهد في معجمه».

الولي الكبير أحمد بن إبراهيم اليمني الرومي (... - ٩٣٠ هـ)

هذه سيرة عابد عالم سافر والده من اليمن إلى بلاد الروم، وطاف كثيراً من الأمصار، كما طاف ولده من بعده، فحباه الله العلم الواسع واليقين الناصع، حتى أصبح قطباً ربانياً. نورد ترجمته بكاملها عن السخاوي. قال:

أحمد بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن عرب الشهاب أبو العباس،

اليماني الأصل، الرومي الزاهد، نزيل الشيخونية، ويعرف بابن عرب. أصله من اليمن، ثم انتقل أبوه منها إلى بلاد الروم، فسكنها، وولد له صاحب الترجمة بها فنشأ بمدينة برصا، فكان يقال له ابن عرب على عادة الروم والترك في تسميتهم من لم يكن منهم عربياً، وكانت نشأته حسنة على قدم جيد، ثم قدم وهو شاب القاهرة، ونزل في القاعة التي استجدها أكمل الدين صوفياً الشيخونية، وقرأ على إمامها خير الدين سليمان بن عبد الله وغيره، ونسخ بالأجرة مدة، واشتغل، ثم انقطع عن الناس. فلم يكن يجتمع بأحد، بل اختار العزلة مع المواظبة على الجمعة والجماعات، ويبكّر إلى الجمعة بعد اغتساله لها بالماء البارد شتاءً وصيفاً، ولا يكلم أحداً في ذهابه وإيابه، ولا يجترىء أحد على الكلام معه لهيبته ووقاره، وأمره، في الورع والعبادة إلى الغاية. وكان فيما بلغني يراجع الشمس البيجوري الشافعي نزيل الخانقاة الشيخونية - فيما يشكل عليه - فإذا أوضح له ما أشكل عليه فارقه ولم يكلمه بكلمة بعد ذلك، ولذا قيل إنه شافعي المذهب، ورأيت بخطي وصفه بالحنفي وما علمت مستندي فيه. وكان مع ذلك يدري القراءات، واقتصر على اللباس الحقير الزائد الخشونة، ولذا كان يقنع باليسير من القوت، وتورع جداً بحيث إنه لم يكن يقبل من أحد شيئاً، ومتى علم أن أحداً من الباعة حاباه لكونه عرفه لم يعد إليه، وللخوف من ذلك كان يتنكر ويشتري بعد العشاء قوت يومين أو ثلاثة، وكان الناس يبيتون بالشيخونية رجاء رؤيته. وأقام على هذه الطريقة أكثر من ثلاثين سنة. وكراماته كثيراً، وكان فريداً فيها، لم يكن في عصره من يدانيه في طريقته. قال العيني: وثبت بالتواتر أنه أقام أكثر من عشرين سنة لا يشرب الماء أصلاً، وكان يقضي أيامه بالصيام، ولياليه بالقيام.

مات في ليلة الأربعاء ثاني ربيع الأول سنة ثلاثين، وتقدم العيني الناس في الصلاة عليه. قال شيخنا: ومن عجائب أمره أنه لما مات كان الجمع في جنازته موفوراً، وأكثر الناس كانوا لا يعلمون بحاله ولا بسيرته، فلما تسامعوا بموته

هرعوا إليه، ونزل السلطان من القطعة فصلى عليه بالرميلة، وأعيد إلى الخانقاه فدفن بها بجوار أكمل الدين، وحمل نعشه على الأصابع وتنافس الناس في شراء ثياب بدنه واشتروها بأغلى الأثمان. فاتفق أن جملة ما اجتمع من ثمنها حسب، فكان قدر ما يتناوله من العلوم من أول ما نزل بها إلى أن مات لا يزد ولا ينقص، وعد هذا من كراماته. رحمه الله ونفعنا به».

وممن ذكره المقريزي في عقوده:

الولي الكبير علي البعداني (٠٠٠ - ٩٣١ هـ)

نعرف من حياة هذا الرباني كيف تجتمع الأمة على اختلاف طوائفها وتعدد راياتها في حب الفرد، المتجرد لله القائم بأمره، المتحقق باطناً وظاهراً بالعبودية له، وإخلاص السريرة، واستقامة السيرة. كما نعرف من حياة هذا العالم العامل كيف قامت اليمن خلال هذا الإشراق بخدمة الحرمين والمجاورين بهما أتم قيام، واضعين في الذهن أن الكثيرين من علماء وعباد اليمن لم يكونوا أفراداً قلائل، بل هم العشرات، اكتفينا بذكر مقدمهم، مثل سيدنا علي البعداني الذي قال السخاوي في ترجمته:

«علي بن محمد بن يحيى الشيخ الصالح نور الدين البعداني اليمني المكي، قطنها أكثر من أربعين سنة، وأجاز له في سنة ثمان إبراهيم بن أحمد بن عبد الهادي، وأحمد بن أقيرص، وعمر بن محمد بن أحمد بن عبد الهادي، والمحب بن صنيع وجماعة.

وكان صالحاً مديماً للعبادة، يعتمر كل يوم من الأشهر الثلاثة مرتين ويحيى الليل بالطواف والصلاة والتلاوة، وينام في الربع الأخير منه، قائماً بحوائج من يقصده زائد الاحتمال، كثير السخاء والبشاشة لا سيما لأهل الحرمين بل أهل المدينة بحيث يكون يوم قدومه على أهلها عندهم كالعيد، وزاد في بدايته صحبة صاحبه الشيخ عمر العرابي من طريق الماشي ما كان قوتهما إلا ورق الشجر،

وهـو السبب في نقله عمر من اليمن لمكـة. واشترى لـه داراً بالمـروة وبناهـا لـه، وأخـرى لولـده محمد، وزوجـه ابنته، وزار القـدس واعتمر فيـه، وهـو القـائم بعـمارة الرباط المشهور به لجهة فـدجان امرأة الأشـرف بن الأفضـل، بل صـارت ترسـل إليه في كل سنـة بوقر جلبة من الـطعام والـطيب والفرش والشمـع والسليط وما يحتـاج إليه، فيعمـل للفقراء الأسمـطة في رمضان وربيـع والأعياد، بـل شرع في عـمارة مـا تقــدم من مسجـد الخيف، ثم في بنـاء بئـر التي بـدرب المـاشي وكـانت قـد انهدمت. كـل ذلـك مـع الكـمال في لبـاسـه وربحـه وطعـامـه، ونحـافـة جسمـه وشدة ورعه، وهو كلمة اتفـاق معتقد بـين سلاطـين اليمن وشرفاء صنعـاء ومكة وأمراء مصر، بل بينه وبين أبي فـارس صاحب المغـرب مكاتبـة وصحبة. بحيث كان يرسل إليه للبيمارستان كل عام مبلغاً جيداً.

وأمـا صاحـب مكـة حسن بن عجلان فكـان يجله ويعظمـه حتى قـال: مـا رأيت في المشـائخ أعـرف بأحـوال الـطوائف عـلى اختـلاف طبقـاتهم منـه. وتـرجمتـه محتملة للتـطويل. مـات في شـوال سنـة إحـدى وثـلاثـين، وقيـل في التي قبلهـا. ودفن بالشبكـة ـ أسفل مكة ـ. بوصية منه. رحمه الله وإيانا.

العلامة الرحال علي بن إبراهيم الإبي (٧٩٠ ـ ٨٥٩ هـ)

قال السخاوي في ترجمته: «عـلي بن إبراهيم بن عـلي بن راشد المـوفق أبو الحسن الإبي بكسر الهمزة ثم موحدة مشددة اليـماني ثم المكي الشافعي، ويعـرف بالإبي. ولد قبيل ٧٩٠ بتعز من بلاد اليمن ونشأ بهـا، فحفظ القرآن، وصـلي به على العادة وهو ابن ثمان، وانفرد في تلك النواحي بصـلاته في هـذا السن، وكذا حفظ (الملحـة) و (التنبيه) إلا اليسـير من آخـره، ونحـو أربعـين مقـامـة من مقـامـات الحـريري. ولازم الفقيـه عبد المـولى بن محمد بن حسن الخولاني حتى قرأ عليـه (التنبيـه) و (مختصر الحسن) و (الجمل) للزجـاجي، وفد مكـة مراراً للحـج أولها سنـة خمس، وجاور بهـا في كثير منهـا، وكذا زار النبي ﷺ غـير مرة، أولهـا سنة

ثـمان. ولقي بها جمعاً من الأعيـان، فكـان ممن لقيـه بمكـة: الـزين أبـو بكـر المـراغي، والجمال بن ظهـيرة وقريبـه الخطيب أبـو الفضل بن ظهـيرة، والشهاب أحمد بن إبراهيم المرشدي، والزين الطبري وابن سـلامة في آخـرين، وبالمـدينة: المـراغي أيضاً والـزين عبـد الـرحمن بن عـلي بن يـوسف الـزرنـدي ورقيـة ابنـة يحيى بن مزروع، فأخذ عنهم وعن غيرهم بقـراءته وقـراءة غيره، وحضر دروس العلم منهم.

ولقي بزبيد المجد الشيرازي والشرف بن المقري، فانتفـع بهما، وارتحـل في مـوسم سنة أربـع عشرة رفيقـاً للجـمال بن مـوسى المـراكشي الحـافـظ صحبـه الـركب الشـامي، فسمعا بـالمدينـة، ثم بدمشق وحلب وحمص وحمـاة وبعلبك، والـرملة وبيت المقـدس والخليل والقـاهرة ومصر والإسكنـدريـة، فكـان ممن سمـع عليـه بدمشق عائشة بنة عبد الهادي وعبد القادر بن إبراهيم الأرموي، وعبد الرحمن بن طلويغا والحفاظ الثـلاثة، ابن حجى والحسبـاني وابن الشرائحي، والشمس بن المحب، وخلق. وبحلب، حـافظهـا الـبرهـان والعـز الحـاضري والشهـاب ابن الـديم، وطائفة. وبحمص، خطيبها الشمس محمد بـن محمد بن أحمد السبكي، والبـدر العصياني، وغـيرهما. وبحـماة الغلاء بن المغـلي، والشهاب بن الـرسـام، والشرف بن خطيب ونحوهم وببعلبك محدثها التاج بن بـروس وغيره. وبـالرملة، الـزاهد الشهـاب بن رسـلان، وبيت المقـدس الـبرهـان بن الحـافظ أبي محمـود، والشمس محمد بن أبي بكر بن كـريم، والبدر حسن بن مـوسى، وجماعـة. وببلد الخليـل أحمد بن مـوسى الحـبراوي، والعـماد إسمـاعيـل بن إبـراهيم بن مـروان، وغـيرهما، وبـالقاهـرة، ذا الشرف بن الكويـك، والعز بن بن جمـاعة، والجـلال البلقيني، والولي العراقي وشيخنا.

ومما أخذ عنـه، النخبـة وشمس بـن الـزراتيني وابن رقـاعـة، وغـيرهم. وبالإسكندرية التاج محمد بن التنسي والكمال بن خـير والبدر بن الـدمامـين. ورجع من هذه الرحلة بمسموع كثير وشيوخ جلة، وفوائد جملة.

واستوطن مكة في أثناء سنة أربعين، وبرع في فنون خصوصاً الأدب، وطارح شيخنا وغيره، وجمع مجاميع حسنة وفوائد مهمة، وكتب بخطه الحسن كثيراً لنفسه وغيره، وحدث، وسمع منه الفضلاء، وأخذ عنه الكثير بجدة ثم بمكة ومنى.

وكان إماماً مفنناً، أديباً بارعاً، متواضعاً، حسن الهيئة والمحاضرة، جميل الصورة والعشرة، كثير الفكاهة والنوادر والاستحضار، صبوراً على الإسماع، حسن الود والمذاكرة، سريع النادرة وعلى ذهنه فضائل وفوائد، مع الاجتهاد في الطواف، ومداومة التلاوة، وغيرهما من أسباب الطاعة. لكنه كان كثير النعاس، وأظنه من السهر. مات في ذي الحجة سنة تسع وخمسين بمكة، وصلى عليه من الغد، ودفن بالمعلاة، رحمه الله وإيانا. ومما كتبه عنه من نظمه:

إذا العشرون من رمضان ولت فواصل ذكر ربك كل حين
ولا تغفل عن التطواف وقتاً فأنت من الفراق على يقين»

العلامة الرحال محمد بن أحمد الشوائطي

والشوائط جهة معروفة تابعة لقضاء العدين لواء إب قال السخاوي في ترجمة محمد بن أحمد الشوائطي: «محمد بن أحمد بن علي بن عمر بن أحمد بن أبي بكر بن سالم الجمال، أبو الخير ابن الشهاب أبي العباس الكلاعي الحميري الشوائطي نسبة لشوائط بلد بقرب تعز اليماني المكي الشافعي، الماضي أبوه وأخوه علي. ولد في جمادى الأولى سنة ثماني عشرة بمكة ونشأ بها، فحفظ القرآن وتلا به بالسبع والعشر على والده، و(أربعين النووي)، و(الملحة)، و(مساعد الطلاب في الكشف عن قواعد الإعراب) للنجم المرجاني، و(البردة)، و(الشاطبتين) و(ألفية النحو والحديث) و(تلخيص المفتاح)، و(إيساغوجي)، و(النخبة) لشيخنا، و(المنهاج الأصلي) و(البهجة الوردية) و(عروض ابن الحاجب)، وتتمة الشاطبية في القراءات الثلاث للواسطي، و(ثلاثة أرباع تخبير التنبيه) للزنكلوني.

وسمع بمكة منه وبالمدينة من الجمال الكازروني، وتفقه فيها بـه، وفي مكة بأبيه، بحث عليه التنبيه، و (الوجيز) للغزالي، و (بالشهاب المزاسي اليماني حيث كـان مجاوراً بمكـة، بحث عليه البهجـة وبإبـراهيم الكردي الشـوساري، وإمـام الدين أحمد بن عبد العزيز الشيرازي، بحث عليهما مفترقين نحو الربع الأول من (الحاوي الصغير) وأخذ (الأصول) عن الكردي المذكور والنجم الواسـطي، وقرأ عـلى كل منهـما منهاج البيضـاوي، وسمع عـلى ثانيهـما بقـراءة أبيـه، شرحـه لـه وأجازهما بإقرائهما، وقرأ على إمام الـدين المشار إليـه قطعـة من منهاج البيضـاوي وغـالـب التلخيص وشيئاً من الكـافيـة في النحـو، وعـلى السيـد الشريف أصـول الـدين، قرأ عليـه رسالـة الزين الخـوافي وعقائـد النسفي وشرحها للسعـد التفتازاني، وشيئاً من الطوالع للبيضاوي، وأجاز له.

وتوجه إلى الديار المصرية في أثناء سنة خمس وأربعين، فأخذ عن جماعة من أعيـانها كـالتقي الشمي والشرف المنـاوي، وإمـام الكـامليـة، وقـرأ عـلى شيخنـا النخبة وشرحها، في مجالس آخرها سابع صفر سنة أربعين وأذن له في إفادتها لمن أراد. ووصفه في مراسلة عزى فيها أباه به، بـأنه أسبق عليـه كل من عـرفه، لما انطوى عليه، منه الخير والعبادة، وطلاقة الوجه، وحلاوة اللسان، وقلة الفضول وكثرة الاحتمال، والإقبال على الاشتغال بحيث أنه لا يتفرغ لتناول ما يسد رمقه. مات بالقاهرة في رمضـان سنة بضـع وأربعين، ودفن بـالزيـادة من حوش سعيـد السعداء، وفجع به والده. عوضهما الله الجنة».

العلامة أحمد الشوائطي (٧٨١ - ٨٦٣)

تـرجمه السخـاوي فقال: «أحمـد بن علي بن عمـر بن أحمد بن أبي بكـر بن سالم، الشهاب الكلاعي الحميري الشـوائطي اليمني، ثم المكي الشـافعي، والد الجمال محمد وعلي. ولد في العشر الأخـير من رمضان سنـة إحدى وثـمانين وسبـع مئة بشوايط، بمعجمة ثم مهملة. بلده بقرب تعـز، ونشأ بهـا فحفظ القرآن، ثم

قدم تعز بعد التسعين فحفظ بها الشاطبية، وتلا على الشيخ عبد الله البنبي ختمة جمع فيها بين قراءة قالون عن نافع وابن كثير وأبي عمرو، بل وجمع عليه للسبع، من أول القرآن إلى ﴿ويسألونك عن الأهلة﴾. ثم تلا ختمه للسبع على المقري عبد الرحمن بن هبة الله الملحاني، ثم انتقل إلى مكة سنة ثلاث وثمان مئة فقطنها حتى مات. وسافر منها إلى الزيارة النبوية غير مرة، ولذا تردد إلى اليمن مراراً، ولقي بحران من بلادها محمد بن يحيى الشارفي الهمداني شيخ الملحاني المتقدم، فتلا عليه أيضاً للسبع، وذلك في سنة تسع وثمان مئة، وكذا تلا في حال إقامته بمكة على ابن سلامة ختمة للسبع، ثم أخرى للثلاث، ثم على ابن الجزري ختمة للعشر، وأذنوا له في الإقراء.

وتفقه في المدينة بالجمال الكازروني، بحث عليه من التنبيه أيضاً، والمنهاج، وسمع بمكة على الشريف عبد الرحمن الفاسي وابن صديق، والمراغي والجمال بن ظهيرة والزين الطبري، والولي العراقي حين قدمها، وعلي بن مسعود بن علي بن عبد المعطي في آخرين. وبالمدينة على المراغي أيضاً والرضي أبي حامد المطري، ورقية ابنة ابن مزروع وجماعة.

وكتب بخطه الكثير لنفسه ولغيره، وأقرأ الأطفال مدة، وعكف بالمسجد الحرام يقرىء ويدرس ويفيد، فعم الانتفاع. وباشر مشيخة الباسطية هناك حين أعرض عنها الشيخ عمر الشيبي، بعد أن كان أحد صوفيتها. وحدث. سمع منه الفضلاء.

وممن قرأ عليه شيخنا الأمين الأقصرائي، تلا عليه لأبي عمر وفي بعض مجاوراته، ولقيته بمكة فحملت عنه الكثير. وكان إماماً فاضلاً مفنناً، خيراً، ديناً، ساكناً، متواضعاً، ذا سمعة حسنة، ونسمة لطيفة بالجرم، وانجماع، وملازمة للعبادة، والإقراء، والطواف محباً إلى الناس قاطبة، مبارك الإقراء. وقد وصفه شيخنا بالشيخ القدوة، الفاضل، الأوحد، الفقيه.

مـات في صبح الأربعـاء رابع عشر ذي القعـدة سنة ثـلاث وستين بمكـة، ودفن بالمعلاة رحمه الله تعالى. وإيانا».

ولي الله عبد الكبير الحضرمي (٧٩٤ ـ ٨٦٩ هـ)

قال السخاوي في ترجمته:

(عبـد الكبير بن عبـد الله بن محمد بن أحمـد بن علي بن أحمـد بن محمد بن عبـد الله. أبو حمـير الأنصاري، من ذريـة أبي حميد الصحـابي الحضرمي اليماني، نـزيل مكة ووالد يس الآتي. ولد تقريباً سنة ٧٩٤ بحضرموت ونشأ بها، ولقي جماعة كأبي علوي عبد الرحمن الشريف، وأبي بكر وعمـر وأبي حسن، وكان منهم يقـال لـه: أبو علوي وكعبـد الرحيم وأحمـد بن عبد الـرحمن، ويقال لكـل منهـما: أبـو وزير.

وســاح في الــبراري والقفــار نحــواً من عشرين سنــة، واجتمــع بحــرض الشريف الميدومي، وباللُّحيـة بأبي بكـر بن موسى الـزيلعي، وبزبيـد بصديق بن إسماعيل الجبرتي. وحج في سنة إحدى وعشرين، ولقي عمـر العرابي، وأبجـد، وزار النبي ﷺ في سنة سبع وعشرين، وعاد لبلده على طريق بجيلة، واجتمع في الخلف والخليف، بمـوسى بن عيسى، وقـدم مكـة في أثنـاء سنـة ٤٩ فحـج ورجـع إلى بـلاده في السنة التي تليهـا، ثم في سنة ٥٢، وانقـطع بها حتى مـات، قـالـه ابن فهد، وصدر ترجمته بالشيخ الصالح العابد المسلك والعارف بالله صاحب الأموال والكرامات والمشاهدات.

ورأيت بخـطي أنه صحب جمـاعة من شيـوخ بلده، فكان انتفـاعـه ـ كـما ذكر ـ بثلاثة، منهم موسى وصاحب الخلف والخليف، والشريف أحمد المسـاوي، وأبـو بكر بن محمـد الزيلعي صـاحب الخال، بـالمعجمة. وقـدم زبيد غـير مرة، وأقبل عليه الناس، ثم استوطن مكة وابتنى بها زاوية، وصارت لـه وجاهـة عند

صاحبها وقاضيها، فمن دونهما اشتهر أمره، وانتشر، وعظم جاهه، ولم يكن الناس فيه سواء.

وبلغني أنه قال: «طالعت النصوص من أوله إلى آخره فما أعجبني، وما أترك ذكر هذا الناس إلا مخافة أن يقبحوه»، أي يشتموه مات وقد زاد على السبعين بمكة بضحى يوم الخميس ثامن عشر شعبان سنة ٦٨، ودفن بباب الشبيكة في المكان المعروف به، وشيعه خلق، ولم يلحق نعشه إلا بمشقه، وكان يوماً مشهوداً. وممن كان زائد الاعتقاد فيه عبد الأول المرشدي، وعمر الشيبني، والشيخ أبو سعاد الهاشمي بحيث أسند وصيته إليه، وأن يأخذ من كتبه ما أحب، فاختار أشياء منها. بل أقر أبو سعد بديون له تكون مستغرفة في الزائد على إرث أخته، فرد الشيخ ذلك عليها.

ولم يكن الشيخ يجل أحداً كإجلاله له، حتى إنه قرأ عليه في (التنبيه) رحمهم الله وإيانا. ويحكى أن أبي الخير بن عبد القوي قال له حين قدومه من سفره البلدة: يا عبد الكبير: ما الذي جئتني به من بلادك هدية؟ فقال: نصف اسمها، فلم يلبث أن مات».

ولي الله محمد البعداني (٨٦٤أو ٨٦٥ - ... هـ)

ترجمه السخاوي فقال: «محمد بن محمد بن عبد الله الشمس البعداني، اليماني الأصل، المدين الشافعي ابن العوض، الماضي أخوه عبد الوهاب، ويعرف كأبيه وجده. بالمسكين وهو حفيد زينب بنة محمد بن صالح أخي عبد الوهاب. ولد في سنة أربع أو خمس وستين وثمان مئة بالمدينة ونشأ بها، فقرأ القرآن، وأربعين النووي، ومنهاجه، وجمع الجوامع، والإلفيتين، الحديثة والنحوية، والشاطبية. وعرض على أبي الفرج المراغي وفتح الدين بن تقي، وابن يونس، والأيشيطي، ولازمه، فقرأ عليه من تصانيفه شرح خطبة المنهاج، ومناسبات أبوابه، وتخميس «يقول العبد». ويسمع عليه في الفرائض والحساب والفقه

وأصول العربية، وغير ذلك الشيء الكثير. وقد قرأ على أبي الفرج المذكور الشمائل، وسمع عليه جملة. وكان أدرى القراء في تقسيم الشرف عبد الحق التنبناطي للمنهاج حيث كان بالمدينة، وسمع عليه ألفية النهمي وغيرها، وقرأ الشمائل بحضرته على الشمس السنباطي بالمدينة، وأكثر عن أبي الفضل ابن الإمام الدمشقي بحيث استوفى عليه الكتب الستة، بل قرأ عليه بحثاً قطعه من المنهاج، وقسماً من ألفية النحو، مع سماع باقيها وقطعه من جمع الجوامع عني في مجاورتي بالمدينة، أشياء بقراءته وقراءة غيره، ومن ذلك في الثانية مناقب العباس، وفي الأولى جل القول البديع وغيرذلك، بل قرأ عليّ بمكة الثلاثيات وغيرها، وعلى النجم ابن فهد أشياء، ولازم الشريف السمهودي في قراءة الكثير من تصانيفه وغيرهما من الفقه وأصوله، والعربية في التقسيم، وغيره. والقاضي صلاح الدين بن صالح، وكذا قرأ على الشريف المحيوي الحنبلي والشمس البليسي، والنور المحلي، وغيرهم من الغرباء والقاطنين، فكان منهم النور الطتدائي قرأ عليه مجموع الكلائي. واختص بصحبة الأمير شاهين حيث كان شيخ الحرم، وقرأ بحضرته كتباً كثيرة، وصار يكتب عنه المراسيم والمطالعات، ونحوها. وتميز في ذلك فكان موقع البلد، بل قرأ أو سمع على عبد الله بن صالح، وفتح الدين بن علبك وجدته لأبيه المشار إليها، ولم يخرج من بلده لغير الحج».

أحمد بن محمد الأنصاري (٠٠٠ ـ ١٢٥٣ هـ)

هو العلامة الرحال أحمد محمد علي الأنصاري الشهير بالشرواني. كان صاحب الترجمة عالماً متفنناً، أديباً أريباً، شاعراً، ناثراً، سكن الحديدة ومدينة زبيد، وغيرهما من جهات تهامة. وله مؤلفات، منها نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن، وحديقة الأفراح لإزاحة الأتراح، رتبه على ستة أبواب:

الأول في لطائف لطفاء اليمن. الثاني: في لطائف نبغاء الحرمين

الشريفين. الثالث: في لطائف بلغاء مصر والشام والعراق. والرابع: في لطائف نبهاء الروم والمغرب. الخامس: في لطائف أذكياء البحرين وعمان. السادس: في لطائف أدباء الهند والعجم.

وله مراسلات شعرية مع يوسف بن إبراهيم الأمير والحسن بن أحمد البهلكي» نقلاً عن نيل الوطر لزبارة. ولم يذكر صاحب نيل الوطر تاريخ وفاته، ولكن صاحب الأعلام خير الدين الزركلي ضبط وفاته في سنة ١٢٥٣. وقد وقفت في هامش ديوان الإمام محمد بن علي الشوكاني عند ذكر أحمد محمد الشرواني ما يفهم منه أنه خال الشوكاني، ولم أعثر على مرجع آخر يؤكد ذلك.

لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ ـ ٧٧٦ هـ)

أحد نوابغ الأمة المقتولين ظلماً، وهو محمد بن عبد الله بن سعيد المشهور بابن الخطيب. يرقى سنة إلى التابعي عبيدة بن سلمان المرادي السابقة ترجمته. ترجمه الشوكاني فقال:

«ولد في الخامس والعشرين من رجب سنة (٧١٣) ثلاث عشرة وسبع مئة بلوسة، وكان سلفه قديماً يعرفون ببني وزبير، ثم صاروا يعرفون ببني خطيب نسبة إلى سعيد جده الأعلى، واشتهر صاحب الترجمة بلسان الدين بن الخطيب. ونشأ، فقرأ القرآن والعربية على أبي القاسم بن جزي، وأبي عبد الله بن النجار، وسمع من أبي عبد الله جابر وجماعة عدة، وتأدب بابن الجناب، وأخذ الطب والمنطق والحساب عن يحيى بن هزيل الفيلسوف. وبرز في الطب، وتولع بالشعر فبرع فيه، وترسل فأجاد وفاق أقرانه. واتصل بالسلطان أبي الحجاج يوسف بن أبي الوليد بن نصر الأحمر، فمدحه وتقرب منه، واستكتبه من تحت يد أبي الحسن بن الجناب إلى أن مات أبو الحسن في الطاعون العام، فاستقل بكتابة السر، وأضاف إليه رسوم الوزارة، واستعمله في السفارة إلى الملوك واستنابه في جميع ما يملكه.

فلما قتل ابن الحجاج سنة (٧٥٥) وقام ابنه محمد استمر ابن الخطيب على وزارته، واستكتب معه غيره، ثم أرسله إلى أعيان المرسى بفاس ليستنجده، فمدحه فاهتز له وبالغ في إكرامه. فلما خلع محمد وتغلب أخوه إسماعيل على السلطنة قبض على صاحب الترجمة بعد أن كان أمنه واستأصل نعمته، ولم يكن بالأندلس مثلها من المستغلات والعقار والمنقولات. وسجن، واستمر مسجوناً إلى أن وردت شفاعة أبي سالم بن أبي عيان فيه، وجعل خلاصه شرطاً في مسالمة الدولة، وكذلك خلاص السلطان محمد بن أبي الحجاج من السجن. فخلص، وانتقلا إلى أبي عيان، فاستقرا في مدينة فاس، وبالغ في إكرامهما. ثم نقل صاحب الترجمة إلى مدينة مراكش فأكرمه عمالها، ثم شفع له أبو سالم مرة ثانية فردت عليه ضياعه بغرناطة إلى أن عاد السلطان محمد إلى السلطنة فقدم عليه صاحب الترجمة بأهله، فأكرمه وقلده ما وراء بابه، فباشر ذلك مقتصراً على الكفاية، راضياً بالدون من الثياب، هاجراً للتأنق في جميع أحواله، منادياً بالحق. وعمر زاوية ومدرسة، وصلحت أمور سلطانه على يده. فلم يزل على ذلك إلى أن وقع بينه وبين عثمان شيخ القراء ما أوجب نفي السلطان لعثمان». ا. هـ.

ثم فر من الأندلس إلى المغرب، فلاحقه أعداؤه حتى أمكن لهم الحكم بقتله، فخنق بمحبسه، وحرق بقبره سنة ٧٧٦ هـ.

ومن مؤلفاته: «التاج) و (الإكليل) و (الطرفة) و (الإحاطة) و (اليوسفي في الطب)، وغيرها.

بحرق

ترجمه الزركلي في الأعلام فقال:

«محمد بن عمر بن مبارك الحميري الحضرمي الشهير ببحرق. فقيه، أديب، باحث، متصوف. نعته الزبيدي بعلامة اليمن ولد بحضر موت وأخذ بها وبزبيد ومكة والمدينة عن علمائها، ونبغ وولي القضاء بالشحر، ثم استقال ورحل إلى الهند فأكرمه السلطان مظفر، وأقام إلى أن مات في أحمد آباد».

وهو من أكابر مدرسة ابن المقرىء إذ أن شيخه أحمد عمر المزجد أخذ عن عمر الفتى الآخذ عن إسماعيل بن أبي بكر المقري.

من مصنفاته (تبصره الخضرة الشاهية الأحمدية بسيرة الحضرة النبوية)، و(نشر العلم في شرح لامية المعجم)، وأرجوزة في الطب وشرحها وأرجوزة في الحساب وأشرحها، ورسالة في علم الميقات، و(العروة الوثقى) و(فتح الرؤوف في معاني الحروف). توفي سنة ٩٣٠.

العيدروس

عبد القادر بن شيخ بن عبد الله العيدروس، مؤرخ باحث من أهل اليمن، سكن حضر موت وانتقل إلى احمد آباد فتوفي فيها. من كتبه (النور السافر عن أخبار القرن العاشر)، و(تعريف الأحياء بفضائل الأحياء)، و(الدرر الثمين في بيان المهم من علوم الدين)، و(الفتوحات القدسية في الخرقة العيدروسية) و(الأنموذج في مناقب أهل بدر)، و(الروض الأريض). مجموع منظوماته وغيرها. توفي سنة ١٠٣٨ هـ.



الإشراق اليمني الثالث



إذا كان محك اختبار أمانة المؤرخ وتجرده للحق وشجاعته في الصدع به، هو تناوله لقضايا عصره وأوضاع معاصريه، فإنني لا أخفي تهيبي لخوض غمار هذا الباب، والإشفاق من التعرض لأشواكه، بل ألغامه التي يعتبر الاقتراب منها فضلاً عن السير فوقها ضرباً من الانتحار، ولكن كثرة الغبار المثار حول أحداث العصر، وتشويه خيره، وتزيين شره، إلى جانب ضرورة وقوف الجيل على الحقيقة في كل ذلك، جعلني أتكل على الله في خوض هذا الباب الشائك، مستعرضاً وبإيجاز وموضوعية الفخاخ التي نصبها الأعداء، والحبائل التي حبكوها لاقتناص عالم الإسلام بمن فيه وما فيه، مشيراً إلى المعاناة المريرة التي تجرعها المسلمون طوال القرن الرابع عشر ومطلع هذا القرن الخامس عشر، نتيجة انخلاعهم من مقوماتهم الذاتية وتبعيتهم الهوجاء لعدوهم الراصد الكائد شرقاً وغرباً، ثم ما أفرزته هذه المعاناة المريرة من قيادات منقذة أنبتتها اليقظة الإسلامية، وأخرجتها من خيرة صفوف الأمة وأوساط الشعب، حين نامت القصور وتخدر الحاكمون، معتمداً في هذا الباب على ما تيسر لي من مراجع إسلامية وأجنبية، إلى جانب تنقيبي الشخصي مع الثقات من معارفي، حول تراجم المعاصرين. ولكون الشعب اليمني يزخر والحمد لله بالكثير من أعلام الخير والهدى، فقد رأيت الاقتصار على من تيسر لي معرفة جمعه بين الإيمان والعلم والإصلاح، حتى يصدق عليهم عنوان الكتاب بأنهم كواكب يمنية في سماء الإسلام.

وقبل الدخول في التراجم سنضع بين يدي ذلك المامة قصيرة بأوضاع المسلمين في القرن الرابع عشر، سياسياً وثقافياً، وفاءً بما سبق أن وعدنا به،

وإكمالاً للفائدة، إذ أن ذلك هو الإطار العام والمحضن الطبيعي للشخصيات التي نشأت فيه، وتأثرت به، وأثرت في إحداثه واتجاهاته.

(المسلمون والقرن الرابع عشر)

كان القرن الرابع عشر يهل على العالم شاهداً احتضار أطول امبراطورية إسلامية حكمت عالم الإسلام، هي دولة الخلافة والسلطنة العثمانية، التي ولدت أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن، وارثة الدولة السلجوقية، وظلت تتوسع ذات اليمين وذات الشمال، حتى خفقت أعلامها في مشارق أوروبا وأواسطها، ومشارق آسيا ومغارب إفريقيا.

وكان لها من عباقرة القادة الفاتحين ما تشمخ به في سماء الفتوحات العسكرية العالمية، كمحمد الفاتح وسليمان القانوني، وسليم الأول الذي ورث لقب الخلافة الإسلامية من آخر خليفة عباسي بالقاهرة سنة ٩٢٣، ودانت له مصر وما جاورها، ثم تقلص ظل هذه الأمبراطورية الواسعة الأرجاء شيئاً فشيئاً، وتكالب عليها الأعداء الأوروبيون، يثيرون الأقليات الدينية، وينفخون النعرات القومية فيها، فتتابعت الثورات هنا وهناك، وتغلغل النفوذ الأجنبي داخل البلاط العثماني حتى رأينا السلطان عبد المجيد الأول يستعين بالأوروبيين ضد إبراهيم بن محمد علي باشا، ويمنح الإنجليز فرمانات ببعض الثغور الإسلامية، كما صنع مع الإنجليز في عدن.

وأخيراً سرت إلى صفوف الجيش والمثقفين العثمانيين فكرة الحكم الديمقراطي السائد في أوروبا الغربية، وتكونت جمعية الاتحاد والترقي في سلانيك[1]، وكان ليهود الدونمة والماسونية العالمية أصابعها الخفية في إشعال نار

---

(١) اطلعت مؤخراً على بحث لمصطفى طوران ترجمه إلى العربية كمال خوجة يشهد على الاتحاديين بارتكاب فظائع كان المؤلف فيها شاهد عيان.

النقمة على السلطان، والحدّ من سلطاته، وعزز ذلك كله النفوذ النسائي المنتشر داخل البلاط، رغم حرص السلطان عبد الحميد الثاني على الحد منه، إذ أن الأوروبيين الكائدين للإمبراطورية كانوا يرسلون جواسيسهم للتغلغل داخل البلاط، من ثم التحكم في مقدرات الأمة، حتى إن السلطان عبد الحميد نفسه روى حادثة طريفة وقعت له مع أولئك الجواسيس، فقد ذكر أن ثلاث رسائل وصلت إليه في أسبوع واحد بلغة رقيقة، يطلب أصحابها عملاً في القصر حتى ولو حرساً للحريم. وكانت الرسالة الأولى من موسيقي فرنسي، والثانية من كيميائي ألماني، والثالثة من تاجر سكسوني. وعلق السلطان على ذلك بقوله:

«من العجب أن يتخلى هؤلاء عن دينهم وعن رجولتهم في سبيل خدمة الحريم»، فهؤلاء وأمثالهم كانوا يصلون إلى رئاسة الوزارة، ولذا فقد قال خالد بيك مبعوث أنقرة في المجلس العثماني بهذا الصدد: «لو رجعنا إلى البحث عن أصول الذين تولوا الحكم في الدولة العثمانية، وارتكبوا السيئات والمظالم باسم الشعب التركي، لوجدنا تسعين في المئة منهم ليسوا أتراكاً».

ويذكر مؤرخو الدولة العثمانية أن مطالب البلاد تستغرق ثلث واردات الأمبراطورية. وإذا كنا نذكر بإجلال السبق الصناعي والعسكري لعظماء سلاطين آل عثمان، فإن ذلك السبق أخذ يختفي، وحل محله الجمود والتقوقع، حتى إن المطبعة التي صنعت سنة ١٤٦٨م في ألمانيا، لم تصل إلى الدولة العثمانية إلا سنة ١٧١٢ م، وأثيرت ضجة حول جواز استعمالها. يقول الدكتور إحسان حقي ـ وهو المحقق لكتاب تاريخ الدولة العلية العثمانية ـ : «إنه لما أراد أحدهم إنشاء مطبعة في إستانبول ووجد معارضة من قبل علماء الدين، لجأ إلى السلطان وإلى حاشيته يطلب إليهم أن يقنعوا هؤلاء الجهال بفائدة المطابع، فأمر السلطان شيخ الإسلام بأن يفتي بأن المطبعة نعمة من نعم الله، وليست رجساً من عمل الشيطان، كما أفتى العلماء من قبل. فأفتى شيخ الإسلام بجواز إنشاء مطبعة شريطة ألا تطبع القرآن الكريم، ولا كتب التفسير والحديث والفقه» ا. هـ.

وإلى جانب ذلك كله، كانت ثلاثة مليارات من الديون المتراكمة على الدولة ترهق كاهلها، وتثقل خطاها، وتشل قواها. وبعد مقاومة عنيدة استسلم السلطان عبد الحميد وأعلن الدستور، وصفا الجو للاتحاديين، وكان القول متضارباً حول شخصية ذلك الرجل الذي كان آخر سلاطين العثمانيين الأقوياء، واليوم أصبح الحديث عنه موضوعاً تاريخياً مجرداً، فإن كيل المدح له أو تسليط سياط الذم عليه لا يفيد شيئاً.

وصفوة القول فيه أنه كان ينظر إلى موقعه بمنظار عصره فهو يعتبر السلطنة فوق كل الانتقادات، كما ينظر إلى ما يقترحه المقترحون من الإصلاحات الدستورية الحادّة من سلطته بمثابة الدسيسة الأوروبية، لانتزاع الحكم منه، وإزالة إمبراطورية آبائه وأجداده، وعلى كثرة الروايات عن مذابحه في الأرمن وإيقاعه بمدحت أبي الدستور، إلا أن المنصف يجد بواعث قوية جعلته يلجأ إلى ذلك المسلك العنيف، فإن مدحت هو المسؤول عن إراقة دم سلطانين من أسرته، هما: مراد وعبد العزيز. كما أن فتكه بالأرض يرجع إلى حرصه في قطع الطريق على تلك القوى الهمجية لهم، والمتآمرة من خلفهم.

ولقد كان من حسناته تشبثه ببلاد الإسلام، وحفاظه على بقائها كريمة حصينة في وجه الأوروبيين، وحيلولته الصارمة بين اليهود ومطامعهم في فلسطين، وحرصه الدؤوب على تقريب المواهب العربية والكفاءات الإسلامية من بلاطه، وتقديمهم في حاشيته. وخير من يحدثنا عنه هو مصلح الشرق جمال الدين الأفغاني قال:

«إن السلطان عبد الحميد لو وزن بأربعة من نوابغ هذا العصر لرجحهم ذكاء. ودهاءً وسياسةً. فلا عجب إذا رأيناه يذلل ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب. إنه يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدولة الغربية، وهو معه لكل هوة تطرأ على الملك مخرج وسلم. وأعظم ما أدهشني ما أعداه من خفي

المسائل، وأمضى العوامل كي لا تتفق أوروبا على أمر خطير في الممالك العثمانية، كان يريها عياناً محسوساً. إن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن أن تتم إلا بخراب الممالك الأوروبية بأسرها، وكلما حاولت دول البلقان الخروج عن الدولة بحرب، كان السلطان يسارع بدهائه العجيب لحل عقد ما ربطوه وتفريق ما جمعوه»ا. هـ.

أمَّا ما حدث للاتحاديين من النكبة فخبرها طويل، فقد تفرقوا شراذم لاجئة هنا وهناك، وتساقطوا الواحد بعد الآخر بيد أعدائهم، وكان أحقهم بالذكر والتنويه هو بطلهم أنور باشا.

أنور يقود ثورة بخارى ضد الروس

كثير من المثقفين يعرفون بما صنعه الاستعمار بأرض الهلال الخصيب. وشمال إفريقيا، ولكنهم يجهلون ما صنعه الروس القياصرة والروس البلاشفة شمال شرق آسيا المسلمة، إنساناً ووطناً، فتلك صفحة لم تنشر بعد كما يجب، ويتجاهل الكثير من الجامعات والأكاديميين العرب أمرها والإشارة إليها.

ومن الحقائق المذهلة المخفية عن الأمة، أن المساحة التي ابتلعها الروس، قياصرة وبلاشفة، تشكل تسعة أعشار مساحة الاتحاد السوفييتي، وسكانها المسلمين يشكلون ربع سكان الاتحاد، وإلى جانب الثروة الزراعية والمعدنية التي تفيض بها تلك البلاد.

كما أننا نجهل حتى اليوم الصفحات المضيئة من جهاد القرم والقوقاز دفاعاً عن دينهم ووطنهم، ولعل الأقلية المثقفة منا هي التي تعرف ما قدمته طشقند المسلمة درة البحر الأسود، وبخارى، من ضحايا عديدة وعزيزة. ونقول هذا بين يدي حديثنا عن أنور، ذلك الضابط الاتحادي الذي ربما كان أفضل نماذج الاتحاديين، وأكثر تصويراً لسطحية خبرتهم السياسية، وكرامة غيرتهم الوطنية، أما السطحية السياسية فإنه فارق زملاءه الذين جاؤوا إلى الألمان، ورأى لجوءه

إلى الروس سبباً للحصول على دعمهم له، ليعيد كرامة وطنه التي داسها الأوروبيون، ولم يعلم أن البلاشفة الحمر الذين استضافوه وأغدقوا النعم عليه، هم أشد حرصاً على تفتيت كيان تركيا المسلمة، وأشد حرصاً لتمكين أتاتورك من محو وجودها الإسلامي.

أما كرامة الغيرة الوطنية فتتجلى في ذلك الموقف المقتحم الذي قدم عليه أنور في عقر بلاد الروس، فبعد أن استيقن أنور باشا أن صداقة الروس كانت خداعاً وملقاً، وأنه وقع في شركهم، رأى من العار أن يعود خاسئاً ويستجدي الحياة استجداء، وصمم على أن يستمر في خطته حتى ينال إحدى الحسنيين، فإما النصر، وإما لقاء الله. فكتب رسالة إلى جمال عزمي بك والي طرابزون السابق - وهو غير عزمي بيك - إلى بيروت يوصيه بزوجته، ودخل بخارى يسانده الحزب الأميري، فيها وبطش بدعاة الشيوعية وأعوانها ولا سيما بحزب مجددي في الشيوعي، وحارب الروس وانتصر عليها في معارك كثيرة. تناقلت الأنباء العالمية أخبارها. فلما رأى الروس ذلك، ورأوا أن الحماسة قد اشتدت ضدهم، وأن العاقبة قد تكون وخيمة عليهم إذا تهاونوا بالأمر، جمعوا جيوشاً كبيرة لمقاومة هذه الثورة الهائجة، التي لو كتب لها النجاح لكانت قضت على الامبراطورية الروسية، وأرجعتها إلى حجمها الحقيقي، وهو إمارة موسكو.

ويحدث في ١٤ أوغسطس سنة ١٩٢٢ أنه بينما كان أنور باشا في قرية بالجوال شرقي بخاري وقد تفرق الجند بسبب عيد الأضحى، هاجمه الروس بأعداد كثيرة، فخرج إليهم بنفسه، وظل يقاتلهم حتى قتل.

عدو الإسلام رقم (١) في العصر الحديث

كان ذلك الضابط العثماني المدعو مصطفى كمال المنهزم أمام الإنجليز في

(١) هكذا في الأصل عن تاريخ الدولة العثمانية.

فلسطين، والمنتصر على اليونان في الأناضول[1]، والذي يصفه عارفوه بأنه شب كارهاً للدين، ماقتاً للتقاليد، مطبوعاً على نزوة الإضرار بالآخرين، والتعالي على الزملاء، كان ذلك الشخص هو الذي تم إلغاء الخلافة العثمانية على يده، وأنهى علاقة دولته بالإسلام والأمة العربية، ثقافياً وسياسياً، وضرب بأخطر معول بنيان الإسلام. وبذلك استحق أن يدعى عدو الإسلام رقم واحد في العصر الحديث.

ولنقتبس فقرات من كلام مؤرخ أوروبي أوردها الأستاذ أبو الحسن الندوي في كتابه (الصراع بين الفكرة الإسلامية والفكرة الغربية). قال: «إنه حطم فعلاً النسيج السياسي القديم، ونقل السلطنة إلى ديمقراطية، وحول الإمبراطورية إلى قطر فحسب، وجعل الدولة الدينية جمهورية عادية إنه طرد السلطان [الخليفة]، وقطع جميع الصلات عن الإمبراطورية العثمانية، وقد بدأ الآن في تغيير عقلية الشعب بكاملها، وتصوراته القديمة، وعاداته ولباسه وأخلاقه وتقاليده، وأساليب الحديث، ومناهج الحياة المنزلية التي تربطه بالماضي وبالبيئة الشرقية. لقد كان ذلك أصعب بكثير من تكوين الجهاز السياسي من جديد، وكان يشعر بصعوبة هذه العملية، فقد قال مرة: «انتصرت على العدو، وفتحت البلاد. هل أستطيع أن أنتصر على الشعب». إنه انتصر على الشعب حقاً، فقد جعل الدولة علمانية، ليس الإسلام دينها الرسمي، وأحدث الفصل بين الدين والسياسة، وقرر أن الدين قضية شخصية بكل فرد، يختار له ديناً ويدين به من غير أن يكون له دخل في السياسة والإدارة، وألغى المحاكم الشرعية، وقوانين الشريعة الإسلامية، وقرر العمل بالقانون المدني السويسري، والقانون الجنائي الإيطالي، والقانون المدني الأوروبي، ومنع التعليم الديني وعطل مراكزه، ومنع الحجاب، وقرر السفور والتعليم المختلط، وألغى الحروف العربية وأبدلها

---

(١) ذكر محمد أسد في (الطريق إلى الإسلام) أن أحمد شريف السنوسي كان له باع في انتصار الأتراك على اليونان.

بالحروف اللاتينية، ومنع الأذان بالعربية وجعله بالتركية، وغير اللباس وألزم لبس القبعة.

وبعبارة موجزة «قد حطم الأساس الديني وغير وجهة نظر الشعب التركي والحكومة التركية». ا. هـ.

ونقدم للقارىء لقطات من خطاب أتاتورك الخطير نقلاً عن الكتاب الآنف: «إن الامبراطورية العثمانية قامت على أساس الإسلام. إن الإسلام بطبيعته ووضعه عربي، وتصوراته عربية، وهو ينظم الحياة من ولادة الإنسان إلى وفاته، يصوغها صياغة خاصة، ويخنق الطموح في نفس أتباعه ويقيد فيهم روح المغامرة والاقتحام. والدولة لا تزال في خطر ما دام الإسلام دينها الرسمي» ا. هـ

ويذكر مؤرخوه أنه أوصى ألا يصلى عليه عند وفاته، ولولا نواح أخته وضراعتها لما صلّى عليه المسلمون.

تداعي الأكلة إلى قصعتها

رغم أن أمة الإسلام تعرضت في تاريخها لجائحتين خطيرتين، هما: جائحتا الصليبيين والتتار، فإن الحديث الشريف عن تداعي الأمم لالتهام بلاد المسلمين تداعي الأكلة إلى قصعتها، كان أكثر وضوحاً وأشد بروزاً حين آذنت شمس الإمبراطورية العثمانية للأفوال، وجنحت الخلافة الإسلامية للغروب، فرأينا بلاد أوروبا المسلمة تتهاوى فريسة لمخالب الشيوعيين (كأنور خوجة في ألبانيا) و (جوزيف بروزتيتو في يوغسلافية)، ورأينا الجناح الشرقي الآسيوي من بلاد المسلمين كالهند بما فيها الباكستان الشرقية والغربية، وإيران وأفغانستان يرزح تحت الإنجليز فالأمريك فالروس. وجزر أندونيسيا وماليزيا بيد هولندا أما بلاد الهلال الخصيب وشمال إفريقيا، فغنيمة تتوزع أشلاءها إنجلترا وفرنسا وضيفتهما إسرائيل.

وتشهد الشمس والقمر عالم الإسلام طوال عقود متتابعة من القرن الرابع عشر، وهي ممزقة الأشلاء، نازفة الجراح، في براثن أعداء قساة لا تعرف الرحمة إلى قلوبهم سبيلاً.

ولما مزقوا أشلاء الجسد الإسلامي فإنهم عملوا على تشويه فكره، وغزو ثقافته، ومسخ تكوينه الروحي ببرامجهم الثقافية والتعليمية والترفيهية ولا يزال جهدهم متصلاً وشواهد تخريبهم بارزة ومنتشرة في كل الأرجاء وعلى مختلف الأصعدة، الثقافية والاقتصادية والسياسية والعسكرية. والله من ورائهم محيط.

طلائع منقذة

ومما عرفه الأعداء والأصدقاء في تكوين الدين الإسلامي وأمته، أن روحه تغالب الأرزاء وتجالد المحن، ثم تتغلب عليها وتقهرها. فبرغم الوهن البالغ الذي أصاب الأمة إلا أن روح المقاومة ظلت كامنة، وحين دق ناقوس الخطر وانتشرت السكاكين في الجسد الجريح، هبت القوة الكامنة والمذخورة في أعماق الأمة، ورأى التاريخ المجاهد والمسلم أبا الكلام أزاد المتوفى سنة ١٣٧٧ هـ صاحب تفسير القرآن مترجم معانيه بالأردية، والذي سجنه الإنكليز إحدى عشر عاماً، فلم يتوقف لحظة عن فضح مخازيهم في الهند وهو صاحب الدور الكبير في حركة التحرير الوطني الهندي، فقد رأس حزب المؤتمر الهندي قبل الاستقلال، ورأس البرلمان الهندي بعد الاستقلال، وكان مستشاراً للبانديت نهرو.

وأقول رأي المؤرخ هذا المجاهد المسلم وهو يقف أمام المحكمة الإنكليزية التي تحاكمه، ويقذف في وجه رئيسها وأعضائها بخطاب ناري طويل، نكتفي منه بالجملة التالية:

«ألا فلتعلم الحكومة الإنكليزية أن المسلم الذي أمره ربه أن يرحب بالموت الأحمر، ويتغلغل في لجج الدواهي والكوارث، ولا يقبل السكوت عن الحق، لا يخيفه قانون (١٢٤) من العقوبات الهندية، ولا يرده عن دينه وأداء فريضته».

ولا تزال شبه القارة الهندية مدانة بالجميل لآل الندوي، وفيلسوف الإسلام محمد إقبال، وأمير الجماعة الإسلامية أبي الأعلى المودودي. أما أفغانستان فأبرز مجاهديها في القرن الثالث عشر، فهو الإمام أحمد بن عرفان الشهيد، وفي الزمن المعاصر: هو المجاهد عبد رب الرسول وصحبه الميامين، وفي إيران نواب صفوي مؤسس فدائيان، وفي تركيا بديع الزمان صاحب رسائل النور الولي سعيد النورسي. فإذا خرجنا إلى بلاد العرب الآسيوإفريقية، فنجد في العراق أمجد الزهاوي، ومحمد رضا الشبيبي وفي الشام، وما أكثر أعلامها ومجاهديها! أمثال: عز الدين القسام بطل المعارك المظفرة ضد الإنجليز في فلسطين، ويوسف العظمة بطل يوم ميسلون ضد الفرنسيين، ومصطفى السباعي، ومحمد بهجت البيطار، وآل الحسيني في فلسطين.

أما في مصر فأعلام طوقوا بجهادهم وعلومهم أرجاء الإسلام، أمثال: الإمام محمد عبده وتلميذه صاحب المنار رشيد رضا، والإمام حسن البنا واضع ومنفذ أنجح منهج إسلامي معاصر، والشهيد سيد قطب.

وفي السودان المهدي محمد أحمد موحد السودان قاطبة، والذي استطاع أن يقود خمسين ألف سوداني في معركة واحدة.

وفي ليبيا السنوسيون الكرام، وبطل الجبل الأخضر عمر المختار الذي قاد وهو في السبعين من عمره مئتي وثلاث وستين معركة. غير ما سبقها ضد الإيطاليين.

وفي تونس عبد العزيز الثعالبي، وفي الجزائر بعد المجاهد عبد القادر الجزائري أئمة أعلام، أمثال: عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي والفضيل الورتلاني الذي ربما أنصفناه في حديثنا عن اليمن. وفي المغرب: ملكها الصالح سيدي محمد بن يوسف، وبطل الريف عبد الكريم الخطابي، ديوان أبيض كريم نسجت حروفه أشعة الشمس، وسطرتها أنامل الإسلام:

ولا أزيــدك بــالإســلام مــعــرفــة
كــل المــروءات في الإســلام والحـــســب

ولا تـزال ملاحم القيـادات المسلمة قـائمة في كـل جنبات السـاحـة ضـد الغـازي الدخيـل وذيـولـه وزعـانفـه والله غـالب عـلى أمـره ﴿وَلَيَنصُـرنّ الله مَنْ يَنْصُره﴾.

الجزر اليمنية والمطامع الأوروبية

بينما كان العثمانيون يقودون جيوشهم الضـارية في أواسط أوروبـا في القرن التاسع، كـان القوط وجحـافل النصرانيـة تزحف عـلى ما بقي بيـد المسلمين من الأندلس. وما كادوا يستولون عليها كـاملة حتى هب البرتغـاليون في جمـوح عارم يقتحمون أثباج المحيط الأطلسي ورأس الرجاء الصالح، متجهين شرقاً تلقاء بلاد العرب والهند. وأعانهم بغير قصد أمير البحر وخرِّيته الماهر، أحمد بن ماجد عـلى معرفة المسالك البحـرية، فنحـا نحوهـا. ووصلت طلائعهم إلى الجـزر اليمنية، وحـاولوا دخـول عدن في القـرن الثاني عشر، فصـدتهم القوة العثـمانية ومـراكبها البحرية وصمود أبناء الشعب.

حاول الفرنسيون احتلال المخاء في نفس القرن وضربوها بمدافعهم، ولكن الفـرنسيين والـبرتغاليـين لم يظفـروا بطائـل، وجاء الإنجليـز بدهـائهم وخـبرتهم الاستعمارية، وحاولوا أن يجدوا لهم موطأ قدم عبر جزيرة ميون اليمنية الواقعـة في المـدخل الجنـوبي للبحر الأحمـر. ويروي خـبر ذلك العـلامة المؤرخ ذو الاطـلاع الواسع على التاريخ العربي، ويجيد ثمان لغـات شرقية غـربية أوروبيـة إلى جانب العربية، وهو الأب أنستاس الكرملي عضو مجمع فؤاد الأول اللغوي.

ميون

قـال في ملحقـاتـه عـلى مسـك الختـام شرح بلوغ المرام للقـاضي حسـين العـرشي، بعد أن استعـرض اهتمام الإنجليـز بالجـزيرة من أيـام غـزو نـابليـون لمصر،

وبعد أن استعرض صعوبة الإقامة فيها قال: «. . . إلا أن لها حسنة تنسي جميع ما فيها من المساوىء، وهي أنها قائمة على طريق الهند، وقد أصبحت غصة في حلق البحر، وقد مررت بها مراراً عديدة، وآخر مدة كانت في ٢٩ تشرين الثاني من السنة الماضية (١٩٢١). فلما وصلنا إليها ذكر لي أحد ضباط المركب هذه الحكاية، وأنا أترك العهدة عليه، قال: «في سنة ١٧٩٩ واجه ربابنة البحر من الإنكليز رباناً فرنسياً في عدن، ولم تكن هذه يومئذ للإنكليز، فقال البريطاني الفرنسي: إلى أين المسير أيها المستر الصديق الحميم، والزميل الفاضل. إلى جزيرة صغيرة قريبة من باب المندب، وهي شجاً في حلق البحر الأحمر، وقد بلغت أن أحتلها باسم حكومتي. حسناً تعمل، وهل أنت متأكد أنها خالية من كل إنس؟ نعم، ليس فيها أحد. لعلك واهم، فما عسى أن يكون اسمها؟ بريم، فإذا كنت متحققاً أمرك فما عليّ إلا أن أشجعك في سعيك المشكور. ثم عاد كل واحد إلى مركبه، وكان قد علم الربان الإنكليزي ساعة إقلاع المركب الفرنسي من [عدن أبين] فسبقه البريطاني إلى الجزيرة بعدة ساعات، فلما وصل الربان الفرنسي إلى ميون، رأى في أعلاها العلم البريطاني يخفق، فسقط في يده ولات ساعة مندم».

عدن

ويقول المصدر نفسه عن قصة احتلال الإنجليز عدن: «فإن التاريخ ينبىء أن الإنكليز كانوا يبحثون عن مستودع للفحم، يكون على نصف الطريق إلى الهند، ويكون في البحر الأحمر لتزود منه بواخر الشركة الهندية الشرقية ما تحتاج إليه من الوقود. فرأى رجال الشركة أن أحسن ثغر لهذه الغاية هو (عدن)، فبقوا نحواً من عشرين عاماً، يحومون عليها عكفاً، حومان الطير الجارح على فريسته، فسعوا لهذا الغرض بالمعاهدات، ومن بعد لأي منح السلطان عبد الحميد الفرمان الذي كانوا يتشوقون إليه. ولكن (شركة الهند الشرقية) تعلم العلم اليقين، أن السيادة الحقيقية في عدن ليست للعثمانيين بل للعرب، وأن الفرمان

وحده لا يقيد فتيلاً، فبحثوا عن سبب يتوسلون به بلوغاً لهذه الأمنية، فوقعت لهم حادثة بررت عملهم وهي: كانت البواخر الإنكليزية يومئذ تمر بعدن للتجارة، فحدث ذات يوم أن سفينة شراعية غرقت في جوار الثغر، فسطا عليها العرب ونهبوها، فبعثت إدارة الشركة الربّان هنسر على مركب حربي وعليه ٣٠٠ جندي طالباً التعويض. فنزل في عدن، وفاوض سلطان (لحج) وكان يومئذ فيها فأبى، لأن اللصوص يكونون في جميع بلاد الله من غير أن يكون الحاكم مسؤولاً عما يفعلون، فاحتج الإنكليز بالفرمان، فاستشاط غضباً سلطان (لحج) وقال: «ومن هو سلطان العثمانيين؟ وهل يهب بلاداً ليست له». فلما خذل الربان في مسعاه أرسل على عدن شواظاً من نار، وكان ذلك في ١٩ (يناير) كانون الثاني سنة ١٨٣٩ م، فأمر صاحب لحج الحامية بالدفاع، فتقاتل الفريقان، ثم كتب النصر للإنكليز، فسلم العرب لهم. ولكن ازدراء سلطان لحج للخط الهمايوني ومقاومة الفاتحين لأهل البلاد، بلغا إلى عقد معاهدة بين الطرفين، وحفظ بعض الحقوق لصاحب لحج، وعاهده الإنكليز أن يدفعوا إليه تعويضاً عن الاحتلال ستة آلاف ريال مسانهة، فكانت بداءة تلك المشاهرات التي تبلغ اليوم نحو مئة ألف ربية على حساب الليرة الإنكليزية ١٢٠روبية ونصف. فاحتل الإنكليز قسماً من عدن يسمى (التواهي) باسم (شركة الهند الشرقية). ولم يكن فيها يومئذ سوى أكواخ للعرك لصيادي السمك، لا يتجاوز نفوس أهلها ست مئة. ولم يظل السلطان فيها الإمدة قصيرة، إذ لا تحتمل السلطة الإنكليزية أن يكون بجنبها سلطة أخرى، وطنية أم أجنبية. فتراخت العلاقات بين السلطان ووكيل بريطانية، كما هو المنتظر، ووقع قتال ثان رغب فيه الإنكليز كل الرغبة، إذ هي مقاومة ضعيف لجبار عنيد، فكتب لهم الظفر ثانية، فأخرجوا السلطان من (التواهي) واستولوا على عدن استيلاءً مطلقاً، ولم يأذنوا لأولئك السلاطين أن يكون لهم بيت فيها، وإن صغيراً.

كمران وفرسان

في ثلاثينات القرن الرابع عشر الهجري إبان اشتعال الحرب العالمية الأولى وتزايد ضغط قوة الحلفاء على الدولة العثمانية، كانت جزيرتا كمران وفرسان خاليتين من الشخصيات العسكرية، فاهتبل الإنكليز تلك الفرصة السانحة واحتلوا كمران دون مقاومة تذكر. وذكر السيد إسماعيل الوشلي في ذلك نشر الثناء الحسن، أن العثمانيين سمحوا لزملائهم في حرب الألمان بالنزول في جزيرة فرسان ليعززوا من وجودهم في البحر الأحمر، وليتمكنوا من الضغط على قوات الحلفاء. وهكذا كان استيلاء الأوروبيون على هاتين الجزيرتين، فأما كمران فقد انتهى احتلال الإنكليز لها سنة ١٣٨٧، وأما فرسان فقد انسحب منها الألمان بعد انتهاء الحرب العالمية.

الشيخ سعيد وزقر

قصة الفرنسيين مع منطقة الشيخ سعيد طويلة، ذيولها وخلاصتها، أنهم بدأوا احتلالها في القرن الثاني عشر الهجري، وظل وجودهم بها بين اتصال وانقطاع بحسب الحاجة، حتى الخمسينات من القرن الرابع عشر، حيث كان الصراع بين الفرنسيين والطليان على أشده. وقد استغل الإمام يحيى تنازع تلك الدولتين حول الشيخ سعيد، فطلب إنهاء تواجدهم فيها تجنيباً لليمن أذى الدولتين الأوروبيين. ووافق الفرنسيون على ذلك حين زارهم الحسين بن الإمام يحيى سنة ١٣٥٨، ولكن الموقف اليحيوي المتصلب في وجه الفرنسيين لان وتنازل أمام هذي الطليان، وأعطاهم تسهيلات نزولهم في جزر زقر، كما ذكر ذلك أنستاس في المصدر السابق.

من مخازي الرجل الأبيض

كانت حضر موت أواخر القرن الثالث عشر الهجري وأوائل القرن الرابع عشر، خاضعة لنفوذ أسرتين قويتين، هما: آل الكثيري وآل القعيطي، وإلى

جانبها النقيب عمر صلاح الكسادي اليافعي سلطان المكلأ وما والاه. وكان لآل القعيطي بحكم وجودهم في الجيش بالهند، وبحكم سلطنتهم بحضر موت، اتصالات وثيقة مع الإنجليز الذي اتفقوا معه على إعطائه اتفاقية حماية لحضرموت، أثار القعيطون دعوى لدى الإنجليز من إقناع الكسادي بتحكيمهم، فكيف كان الحكم؟ لنستمع إلى ما يقوله أنستاس قال:

«فسافر القعيطي السلطان عوض بن عمر إلى عدن، وأخذ يشكو أمير المكلأ ودسائسه لدى الإنكليز، فتمكن بدهائه من أن يجلب قلب ولاة الأمير إليه، فتوسطت محكمة عدن في الصلح بعد أن رضي الخصمان بحكمها على أي حال، فكتبت المحكمة صورة ذلك التوسط، ووقع عليه الثلاثة، أي الأميران ومحكمة عدن، فصدر الحكم على غير ما يوده الكسادي، إذ خيرته بين إحدى ثلاث، إما أن يستلم من السلطان عوض بن عمر القعيطي مئتي ألف ريال ـ وهو مبلغ الدين الذي كان في ذمته ـ ويتخلى عن الإمارة كلها، وإما أن يدفع المئة الألف في الحال، وإما أن يتسلم مئة ألف أخرى، ويتنازل عن إمارة المكلأ فينتقل هو إلى (بروم) التي تبعد عن (المكلأ) بنحو من ٤ أميال.

فرفض الأمير الكسادي هذا الحكم، ورمى المحكمة بالميل والتحزب والمحاباة للقعيطي في ما قطعت به، ثم رحل إلى (المكلأ) غاضباً أسفاً. وما هي أسبوع على إبراز الحكم إلا جاءته بارجة حربية إنكليزية تتبختر في سيرها، ونزل منها ضباط إنكليز، وساروا إلى الأمير (عمر صلاح الكسادي)، وأنذروه بأنه إذا أبى الإذعان فإنهم يضطرون إلى ضرب المكلأ بالمدافع، وأمهلوه ثمانية أيام للتدبر وليعد أهبته للسفر. أما أمير الكسادي فلم يتزعزع، ورفض حكم المحكمة بإباء وعزة نفس، وحاول أن يقاوم ابنا بريطانية، ولكنه رأى نفسه وثغرة (المكلأ) بين نارين، نار أبناء البيون، ونار القعيطي، إذ بعث ألفاً وخمس مئة راجل إلى (البقريت) لمحاصرته، فأذعن مرغماً.

وفي اليوم الثامن وهو اليوم الأخير من الإنذار، شحن أمواله وأمتعته في

١٣ مركباً شراعياً، وأبحر إلى عدن بأهل بيته، وقامت البارجة الألبيونية فشيعته وفيها ٥٠٠ من رجال القعيطي. وحينما مروا أمام بروم طلب الإنجليز إلى الكسادي أن يأمر نائبه بالتخلي عن ذلك الثغر، فأبى وقال: تأبى ورجاله أمامكم فأخرجوهم إن شئتم. فأنذروا حاكم (بروم) بالتخلي، فأجابهم بإطلاق مدافعة على بارجتهم، فأجابه الإنجليز بالمثل، وأخربوا حصنه، ثم نزل يافع أصحاب القعيطي من البارجة وزحفوا إلى (بروم) واحتلوها، ثم استأنفت البارجة سيرها إلى (عدن)، فاحتج الأمير الكسادي على المحكمة وتظلم إليها من القعيطي ورجا منها أن تحكم عليه المبلغ تقسيطاً فلم تعره المحكمة التفاتاً، لأنه قاومها بما كان في طاقته. ومن هنالك أبحر إلى زنجبار دون أن يقبض شيئاً من القعيطي، وكان هذا في سنة ١٢٩٩ هـ، (سنة ١٨٨١ م) ا. هـ.

وواقعة أخرى تشهد بعنف وجفاف عواطف المستعمر الأوروبي، هي تلك التي رواها السيد إسماعيل الوشلي في ذيل نشر الثناء الحسن، وكان حدوثها في شعبان سنة ١٣٣٤.

قال: «جرى في المراوعة أمر هائل عظيم، وخطب قاسم للظهور، مقعد مقيم، هو أنه في العام الماضي كان للدولة العثمانية جبخانة في بندر الحديدة، مستعدة لحرب الدولة الكفرية إذا قصدوا البندر، والعياذ بالله من الحرب. وهي عدة عظيمة للمدافع والبنادق، على اختلاف أنواعها نارية، وفيها خمس مئة برميل مملوءة بالبارود.

ثم إنه لما انتقض الصلح بين الدولة العثمانية وبين الإنكليز، وما زالت الإنكليز تهجم بالبوابير الحربية والبحرية على البندر، لقصد إثارة الحرب على من فيه من العساكر العثمانيين، فتخوفوا من وقوع رمية في الجبخانة المذكورة، تذر البندر كأن لم يكن. فنقلوها إلى المراوعة ووضعوها في الجامع الذي بناه السلطان عبد الحميد بجانب جامع الأهدل الكبير. ثم في هذا التاريخ ما شعروا إلا وقد صعد منها دخان أسود عم جميع البلد، حتى كان الشخص لا يرى شيئاً من شدة ظلمته، ثم التهبت ناراً قدحت آلة المدافع والبنادق، فأهلكت ما حولها، وقلعت الجامعين من أصلهما، ومات فيها نحو مئة

وعشرين شخص من طلبة العلم والترك الذين يحرسـون الجبخانـة، ودكت السوق والحجر وأحرقت القشاش، فأهلكت من المدينة نحو الثلثين. وقد حصر من مات من بني آدم بالهدم والحرق نحو أربع مئة نفر من أهل المراوعة ما عدا الغرباء، وفيهم من السادة الأهدليين خمسة وعشرون نفراً ما بين رجل وامرأة وصبي، منهم السيد العلامة عبد الله جمالي. ولولا أن الله أكرم سائر السادة وبعض بيوتهم بالسلامة من ذلك، ما نجا منهم ولا من غيرهم من أهل البلد أحد، من عظم وقوع هذا الحادث العظيم الهايل.

وقد سمعت حركـة ذلك من البلدان البعيـدة كالـرعد القـاصف، وارتفع الدخان في الجو حتى أظلمـت منه الأرجاء، وفي مثل هذا يقول القائل:

لهبت نارها فألبست الجو دخاناً من حلةٍ سوداء

ولقوة البارود كان يحمل بعض الأشياء ويلقيها بالبلدان البعيدة سالمة على ما هي عليه.

وبالجملة، فشرح هذه القضية يطول، وتحقيقها إلى كثرة الأحزان يؤول. وقد اضطربت أقوال الناس في السبب الذي أثار الجبخانة المذكورة ولم يوفق على قول صحيح؛ فبعض الناس يقول: إن ذلك أمر سماوي، وبعضهم يقول: إنها خيانة وقعت بوضع نار بين البارود فالتهب، وبعضهم يقول: إنه عمل الطيارة أرسلها الإنجليز من عدن، فألقت عليها من الجو شيئاً التهب به.

وأقرب الأقوال الأخيرة، لقرائن قامت على ذلك، وعند الله حقائق الأمور.

اليمن من مطلع إلى منتصف قرن الزوابع

كان (الهلال) راية العثمانيين يسود الجزيرة مطلع القرن الرابع عشر، ما عدا زواياها القصية جنوباً وشرقاً، التي كان الإنجليز قد أقام حمايته عليها، وعلى كثرة الشخصيات ذات النفوذ في الجزيرة إلا أن أربع شخصيات هي الأكثر قوة، والأشد أهمية، شخصيتان منها تعيشان في الأعماق، هما: سيد نجد القوي عبد العزيز آل سعود، وإمام الزيدية يحيى حميد الدين. وشخصيتان أخريان تسيطران على الواجهات البارزة من الجزيرة، هما الشريف الحسين بن علي أمير مكة والحجاز، والسيد محمد علي الإدريسي صاحب النفوذ الروحي في أبي عريش وصبيا.

أما الأولان، ابن سعود وابن حميد الدين، فقد كان في نزاع تقليدي ضد العثمانيين، وأما شريف مكة والإدريسي فقد كانا محل اهتمام الغربيين. ومن هنا كان اتصال الانجليز بشريف مكة، وأمكن لهم إقناعه بالخروج على العثمانيين تحت إغرائه بالخلافة الإسلامية، والتمكين لولديه، عبد الله وفيصل من حكم الأردن والعراق. وبينما كان يعد ثورته على العثمانيين ليعلن نفسه أميراً للمؤمنين، إذا بالقدر يضرب ضربته، فيفقده عرشه، ويصبح منفياً بقبرص.

ونفس الدور قام به الطليان مع الإدريسي ليساعدهم في شغل العثمانيين بالحرب إبان معركة الطليان مع آل عثمان بطرابلس الغرب. ولما انتهت حرب طرابلس قلبوا له ظهر المجن، فاضطر للتحالف مع الإنجليز.

وكما نجح ابن سعود في الاستيلاء على آل رشيد وأشراف مكة، نجح الإمام يحيى على منافسه إمام صعدة الحسن بن يحيى الضحياني سنة ١٣٢٨.

وبعد المعارك الدامية التي خاضها الشعب ضد العثمانيين، خصوصاً معركتي الظفير سنة ١٣٠٩، وشهارة سنة ١٣٢٣، أبرم الإمام يحيى اتفاقية الصلح مع العثمانيين في دعان سنة ١٣٢٩، وتحول الإمام من عدو للعثمانيين إلى

نصير لهم في حربهم ضد الانجليز. ووصل الجيش اليمني والأتراك إلى الشيخ عثمان سنة ١٣٣٦، ثم جاء الأمر باستسلام القوات العثمانية للانجليز بعد هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى، ودخل الإمام يحيى صنعاء سنة ١٣٣٧.

وحين مات محمد بن علي الإدريسي سنة ١٣٤١ استولى الإمام على الجهات التابعة له بتهامة سنة ١٣٤١، ثم كانت حرب الزرانيق التي انتهت سنة ١٣٤٨.

وخلال سني الأربعينات كانت قوات الإمام بقيادة عبد الله الوزير والشريف الضمين، قد استولت على مناطق البيضاء والضالع والشعيب، والقطيب وحريب وبيحان ومأرب والجوف. ثم قدم أحمد ابن الإمام يحيى إلى مناطق حاشد وسفيان وبرط وشطر من نجران، فأخضعها خلال سنتي ١٣٥٠ وسنة ١٣٥١. وهنا ثارت الحرب بين سعود والإمام حول نجران وعسير، وكل ما يتشبث به ابن سعود في نفوذه واستيلائه عليها، أنه الوصي الإدريسي، مع أن محمد بن علي الإدريسي كان يحرص على ربط المخلاف السليماني بتهامة اليمن، ويطمع في الاستيلاء على ما سواها من مناطق اليمن. ويكفيك أن مجلس شوراه وخاصة سره كان يحوى كبار علماء حضرموت، كيحيى باصهي والعطاس وباعلوي، ممن فصلهم ذيل نشر الثناء الحسن.

وهناك شخصية ذات مكانة فكرية رفيعة كان لها شأن في الأحداث، وسنفصل الحديث عنها في النقطة التالية، ونعني بها سلطان لحج أحمد بن فضل.

التقليدية اليحيوية والانبهار الحضاري

هذا القرن أعني القرن الرابع عشر الهجري الذي لا تعرف البشرية فيما روى التاريخ المكتوب مثيلاً لفتوحاته العلمية، في الكهرباء والذرة والكمبيوتر والفضاء، ولا مثيلاً لأهواله الحربية، فقد وقعت فيه الحربان العالميتان، وما شابهها، أو قاربها من الحروب الطاحنة، ولا مثيلاً لوسائله الإغرائية، منظورة ومقروءة ومسموعة.

القرن السابح في الأعماق، السارح في الآفاق، المالىء موجات الأثير أشعة وأصواتاً وصوراً، ذلك القرن شهد الإمام يحيى حميد الدين ينتقل من الأدغال والأغوار ليدخل صنعاء سنة ١٣٣٧ ـ وهي واجهة اليمن الأولى وملتقى أفكاره وقواه ـ وليتعامل مع قرن الزوابع بالمنهج المألوف، والتقليد المعروف لدى أجداده من الأئمة. فهل كان ذلك ممكنا؟

لقد كان إلى جواره سلطان صغير الإمارة، ولكنه واسع الاطلاع، متفتح الإدراك، لماح البصيرة، هو سلطان لحج أحمد بن فضل المتوفى سنة ١٣٣٢. كان أول زعماء العرب إدراكاً لأفول نجم العثمانيين، فاتصل بشريف مكة وغيره من زعماء العرب؛ لعقد مؤتمر يجمع أمرهم بعد جلاء العثمانيين. وكان على إدراك بقرب تسلط الإمام يحيى على أمور اليمن، فحصل منه على إعتراف بسلطنة لحج، وكان يسعى لإقامة سكة حديد تصل عدن بلحج وتعز، وغيرها من الشمال، واستطاع تنظيم إدارة لحج، وتحسين أوضاعها الزراعية. وعلى عكس هذا التفتح والاستيعاب لمطالب العصر، كان الإمام يحيى رحمه الله، فقد كانت سياسته الداخلية تقوم على أربع نقاط:

١ ـ تمكين أولاده وأصفيائه من السلطة.

٢ ـ نصب العمال الأكفاء بجمع الواجبات (الزكاة).

٣ ـ نصب الحكام للفصل في القضايا الشرعية، وطبقاً للمذهب والاختيارات الإمامية.

٤ ـ التقيد بالنظام التركي في الإعداد العسكري، وعدم تجاوزه.

وتقوم سياسته الخارجية على:

١ ـ الحياد الأخرس. وأقرب مثال على هذا الصمت المتصل الذي كان ملزماً به وزير خارجيته السيد حسين الكبسي في اجتماعات الدول العربية وغيرها، حتى أصبح ذلك الصمت نكتة تتندر بها أم كلثوم.

٢ ـ حل الخلافات الحدودية بالوسائل التفاوضية، حتى ولو أدت إلى انتزاع بعض المناطق اليمنية. ومن هنا كان تعلقه بالسيد عبد الله الوزير، ومنافرته لعامل الضالع السيد محمد بن محمد الشامي.

٣ ـ الموافقة على الاتفاقيات غير العملية، كاتفاقيات الاعتراف والصداقة. وكانت أول اتفاقية وقعها هي تلك التي كانت بينه وبين الروس سنة ١٣٤٧.

٤ ـ تجميد كل الاتفاقيات العملية لاستخراج الثروات المعدنية، وإصلاح الطرقات، وإقامة المشاريع الزراعية والصناعية. وأقرب مثال على هذا: زيارة ولده الحسين لليابان سنة ١٣٤٦ التي أبدت فيها اليابان استعدادها للتعاون في كل المجالات. ولما وصل الحسين مستأذناً في إبرام الاتفاقيات، أبقاه والده لديه وترك زميله حسين الكبسي في اليابان لمدة سنة كاملة، اضطر بعدها للعودة خاوي الوفاض.

ولعل المعاناة القاسية التي مرت به في حروبه ضد الاتراك، جعلته يحرص على جمع الأموال واختزانها. كما أن ما رآه من هزيمة العثمانيين وكانوا في نظره قوة عظمى على يد الحلفاء، جعله يتخوف من الدول الغربية، ويحذر من الدخول معها في صدام. ولقد كان بعض أنصاره في الشمال وشيعته في حضرموت يحرضه

على محاربة الإنجليز. فلا يجدون منه أذناً صاغية. وهو القائل في جواب لـه على السيد قاسم العزي بن أبي طالب قائد جيشه في لحج: «أما مدافع الإنجليز فليس لها غير الله دافع».

كما أن تجربته مع الإيطاليين الذين باعوا عليه بعض الطائرات وبعض المصانع، وأخذوا منه مالاً طائلاً، ولما اختبروها وحاولوا تركيبها وجدوها عتيقة مهدمة أضف إلى ذلك كله أن زوار اليمن من رجالات السياسة والأدب العرب الذين اصطلوا بنار الاستعمار، كانوا يعجبون باستقلاله ويحبذون مسعاه، فصادفت هوىً في النفس، وكانت بمثابة الفتوى والإقرار لما يفعل.

ومن الإنصاف أنه كانت له حسنات تذكر، منها: دار العلوم بصنعاء، والمدرسة العلمية، ومدرسة الأيتام، وعلى رأسهم جميعاً المكتبة الكبرى التي أقامها بجامع صنعاء، فحفظ بها تراث اليمن العلمي والأدبي. ولو كان ذلك الإمام وجد في قرن من القرون السالفة، لعد من كبار أئمة اليمن، ولكن رياح الحضارة وزوابع العصر طغت وطمت، وبعثت في شعبه بل وفي أبنائه وأقرب خاصته، تذمراً من الأوضاع وضيقاً بقسوة الظروف، إذ كانت المجلة والإذاعة قد انتشرت، وأخذت تغزو كل البقاع.

وكان للبعثة العسكرية التي أوفدها إلى العراق، والبعثة الطلابية التي أوفدها إلى لبنان، والبعثات إلى مصر. كل هذه كانت تعود إلى اليمن مبهورة بما رأت وقرأت وسمعت، وتصطدم بالواقع الكئيب الذي تعيشه اليمن.

وإذا تجاوزنا المثقفين إلى غيرهم من رجالات الدولة وأبناء الإمام، نجد كزازة يد الإمام غفر الله له، سبباً مضاعفاً للنقمة والتذمر. خذ مثلاً على ذلك أحمد الحضراني، وهو الشاعر البليغ والمقاتل الجرىء، فقد كان بالبيضاء سنة ١٣٤٤ حين كانت طائرات الإنكليز تقصف المنطقة، وتمكن من إسقاط إحداها ببندقيته. ولما وصل إلى الإمام ومعه برنيطة الطيار الإنجليزي وجد صعوبة في

الإذن بالدخول إلى الإمام، وبقية الخبر يرويه لنا زبارة قال: «وفي ذي الحجة سنة ١٣٤٦ هـ، كان الأمر له بالبقاء بصنعاء كغيره من المأمورين الأكفاء الرماة فيما حول دار الإمام بصنعاء لرماية طيارات الإنكليز، إن كان وصولها - كما يزعمون - إلى صنعاء. وقال: أنه حاول إسعافه بتحويل سترة يلبسها، ولما لم يتم إسعافه بتحويلها مع حقارة قيمتها، قال في ذلك:

«حتام أطلب ستره منكم وما عانيت ستره
فندمت من طلبي لها ورجوت رب الخلق ستره»

قال: «وبعد رجوعه إلى بلاد (عنس)، وعرضه الإمام في شأن المقدر له، كان الأمر إلى ذمار بقطع مصروفه إلى عند تعيينه. وفي سنة ١٣٤٩ هـ وجدته بعدن عند رحلتي الثانية إلى الديار المصرية، فشكا لي ما كان له، وقطع مصروفه، ونحو ذلك، مما أوجب استعطافي لسيف الإسلام محمد ابن الإمام يحيى، وكتابتي إليه في عطف نظره على المذكور، وتعقب ذلك سفري على البابور قبل رجوع جواب سيف الإسلام، وكان قد رجع التحويل له بما يحسن، واسترجاعه من عدن للبقاء بحضرته. ولكنه تقدم عزم صاحب الترجمة إلى جاوة، ووصلت رسائل من حضرة العلامة الشهير علوي بن طاهر الحداد العلوي من جاوة، يستعطفني وغيري للقيام بما يجب» ا. هـ.

البوتقة واتحاد الأضداد

مع أوليات النصف الثاني من القرن الرابع عشر، تعالت تذمرات المثقفين وكبار رجال الدولة، وبدأت التجمعات في بعض المدن، كإب وتعز وصنعاء، بمختلف الأسماء والعناوين. وعند قدوم محمد محمود الزبيري من دراسته في القاهرة سنة ١٣٦١، قدم للإمام منهجه الإصلاحي باسم (برنامج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وألقى خطبته المدوية بجامع صنعاء، على مسمع الإمام في يوم الجمعة.

وانتشرت بعض المنشورات المندّدة بالأوضاع، فأمر الإمام بسجن مجموعة من شباب صنعاء، وتتابعت الجهود التي كانت تعلق أملها في الإصلاح على ولي العهد أحمد أمير تعز، الذي سعى لدى والده لإطلاق الزبيري وزملائه. والتف دعاة الإصلاح حول أحمد حيناً، ثم لجأ بعضهم إلى عدن وشكلوا هنالك حزب الأحرار اليمني سنة ١٣٦٤ هـ، ثم الجمعية اليمنية الكبرى. وانضم الى صفوف المعارضة إبراهيم ابن الإمام يحيى، وحاول أخوه إسماعيل اللحاق به إلى عدن، فقبض عليه وأعيد إلى أبيه. ثم وصل المجاهد الجزائري الفضيل الورتلاني، لتأسيس الشركة اليمنية للتجارة، وبدأت خلايا التنظيم تتكون وتباشر عملها داخل صنعاء.

ويقول الأستاذ أحمد محمد الشامي في كتابه (رياح التغيير) إنه شكل هو ومجموعة من زملائه هيئة حزب الدستور، وإن بعض الأسر الحاكمة، كيحيى بن الحسين ابن الإمام يحيى، وحسن العمري ابن أخ رئيس الوزراء، كانوا يعملون جميعاً بتوزيع المنشورات، والمطالبة بالإصلاح.

وأفلح الورتلاني في التقريب بين الأسر ذات النفوذ، كآل الوزير وآل المتوكل، وآل شرف الدين وآل نعمان، واتفقوا على الميثاق الوطني المقدس الذي يقول الشامي: «إن المرشد العام للإخوان المسلمين حسن البنا والفضيل

الورتلاني، هما اللذان وضعا خطوطه الكبرى وأغلب مواده، حرصاً منهما على إصلاح الأوضاع، وتجنيب اليمن ويلات الحزبية والانقسام». وعلى الجانب الآخر كان الضابط العراقي جمال جميل قد جمع حوله نخبة من الشباب المدرب القوي، والمزوّد بالأسلحة، المشبع بالروح الوطنية. فكانت كل هذه القوى الموجودة في عدن وصنعاء متفقة على الميثاق، وإقامة دولة الدستور التي تمثلت أخيراً في وزارة ربيع الآخر سنة ١٣٦٧. ولولا ما شابها من قتل الإمام المسن، والذي لم يكن في نية أغلبية رجال الإصلاح قتله، وكذا الكشف المبكر عن أسماء رجال دولة الدستور، لكانت الحركة ـ ربما ـ أكثر توفيقاً ونجاحاً.

وعلى كل فقد استطاع الإمام أحمد أن يحبط جهود أعدائه، ويقودهم إلى معتقل حجه، ومنهم من قطع رأسه، ومنهم من سجن سنوات، ثم أطلق.

غير أن نهب صنعاء الفظيع سنة ١٣٦٧ هـ، وتصلب الإمام أحمد في استمرار الأوضاع على ما كانت عليه في عهد والده، وانتشار الأفكار الحزبية والدعوات القومية الطبقية، واستمرار المعارضة الرئيسية في القاهرة من قبل رجال الاتحاد اليمني، الذي كان يرأسه الزبيري، وما حصده سيف الإمام أحمد من رؤوس حاشد وبكيل وخولان وغيرها من القبائل اليمنية، كل هذا الخلط جعل الأوضاع في اليمن تغلي غلياناً متصلاً طوال حكم الإمام أحمد، الذي نجا من حركة ألف وثلاث مئة وخمسة وسبعين، سنة ١٩٥٥ م، بزعامة أخيه عبد الله بن الإمام يحيى، ولكنه سقط صريعاً برصاص العلفي سنة ١٣٨١ هـ، ولبث بعدها يعاني جراحه حتى توفي سنة ١٣٨٢ هـ. وقام بعده ابنه محمد البدر إماماً لمدة أسبوع، فقامت الثورة في ربيع الآخر سنة ١٣٨٢ هـ، سبتمبر سنة ١٩٦٢، وأعلنت الجمهورية».

الثورة وليد يمني لا وليد لقيط

مما يؤسف له أننا حين نسمع كبار مفكرينا وأساتذتنا يتكلمون عن الثورة فإنهم يصرون على تقييماتهم المستحدثة حول مصطلح ثورة انقلاب حركة، ويثيرون من الصراعات ما الله به عليم حول سنة ١٩٤٨، حيث يعدها بعضهم انقلاباً، وبعضهم حركة، ويتفقون على أنها لا تستحق أن يمنحوها تكريمهم الأكاديمي لها بإطلاق مصطلح ثورة عليها، معتبرين أن مصطلح الثورة لا يمكن أن يطلق إلا على الحدث التغييري، المنطلق عن إيدلوجية ذات مفاهيم سياسية واجتماعية محددة، وكأنهم بهذا الصراع الذي استحدثوه لأنفسهم، يقولون للدنيا جمعاء: إن ما حدث سنة ٦٧ وسنة ٤٨ م ليس إلا فقاعة امتصتها الأشعة، وذهبت بها النسمات، وإن تلك الضحايا العزيزة التي سقطت فيها، ليست إلا دماء نعاج وأرواح حيوانات لا يؤبه لها، ولا يلتفت إليها. مع أنها الثورة الأم التي اشترك فيها الشعب بأعز رجاله وأغلى مواهبه، فذهب فيها رجال العلم، ورؤساء القبائل، وكوكبة الأدباء والمثقفين، والنخبة من العسكريين والتجار ورجال الأعمال. فهل كل هؤلاء ليسوا شيئاً؟

إذ أنهم بحسب تعريفاتهم الإيدلوجية، من الطبقات الفوقية التي لا وزن لها في إنجيل الماديين، ولو أنهم أنصفوا وطنهم ودينهم لعرفوا أن ثورة سنة ٦٧ وسنة ٤٨ م، كانت لا لتحل أسرة محل أسرة، ولا إماماً محل إمام، وإنما قامت وانعقد الجمع عليها؛ لأنها تقوم على الأمر الجامع لشؤون هذه الدنيا كلها، والمحقق لخيرها وقيمها، وهو شريعة الله التي يتفرع منها المطلبان الرئيسيان للشعب اليمني المسلم أمس واليوم وغداً، وهما:

تحقيق العدل القضائي والاجتماعي ومبدأ الشورى في الحكم. فهل هذان المطلبان الجامعان يستحقان في منطق الإيدلوجيين وميزانهم اهتماماً وتقديراً؟

وأحسب لـولا أن العهد قـريب بثـوار سبتمـبر سنـة ١٩٦٢ ، لشملهم من تكريم هؤلاء الإيدلوجيين ما شمل آباءهم وإخوانهم سنـة ١٩٤٨ ؛ إذ أن ضباط سبتمبر في مجموعهم أبناء علماء ومشائخ وتجار وزراع وحرفيين.

وإنني لأتسـاءل مع المـلايين: أهكـذا يكون التكـريم والتقديـر لمن فتحـوا بجماجمهم نوافذ النور في ذلك السور المظلم الرهيب؟ هـذه نفثة أمـلاها الألم بـين يدي حديثنا عن الثورة اليمنية سنة ١٩٤٨ وسنـة ١٩٦٢ ، ونحن هنا لا نهتم إلا بإلقاء الضوء النقي على الحقـائق القائمـة في مجرى أحـداث الوطن طـوال القرن المنصرم.

وحتى لا نـدخل في أي جـدال أو مماحكـة، نطرح للقـارىء نصوصـاً من مـطالب الشعب التي رفعها الـزبـيري رئيس الاتحـاد اليمني وزميله النعـمان، إلى الإمـام أحمد سنـة ١٩٥٦ ، ونصوصـاً من مواد مؤتمـر عمران الـذي أجمعت عليه كلمـة الشعب سنة ١٩٦٣ ، وهي وحـدها كـافية لتحـديد مسـار الثـورة اليمنيـة شباطية وأيلوليـة، بغير خـلاف؛ إذ أنها ملك الشعب اليمني، والموقـف التـاريخي الذي صنعه الوطن لإصلاح أوضاعه بمحض اختياره، ومن منطلق دينه وواقعه.

وسنعقب عـلى ذلك كله بفقـرات من الميثاق الـوطني الذي أقـره الشعب اليمني، واجتمعت عليـه كلمته بفضـل الله وتوفيقـه، ثم بجهـد الأخ رئيس الجمهـوريـة والقائد العام للقوات المسلحة، العقيد عـلي عبد الله صـالح، والمخلصـين لأبناء الشعب.

يقول الميثاق الوطني المقدس سنـة ١٩٤٨ في ديباجتـه: «لما صـارت أحوال اليمن منحـطة إلى حد بعيـد في أمور الـدنيا والـدين، بسبب الاستبداد والأنـانية اللذان اشتهر بهما الإمام يحيى بن حميد الـدين، حتى صار الغـرض المطلوب من الإمامة معـدوماً في كـل ناحيـة، ولم يبق غير مـظاهر خـادعة كـاذبة لا تتفق مـع موجبات الشرع الشريف، ولا تصون اليمن من أسوأ العواقب في المستقبل.

وقياماً بالواجب لله تعالى وللمسلمين، وطلباً للسلامة في الدين والـدنيا من العقـوبة من الله تعـالى، ولحفظ شرف اليمن واستقلالـه.. اجتمع ممثلو الشعب اليمني على اختلاف طبقاتهم في هيئة مؤتمر، للنظر في وضع نظام شرعي صالح، وإقامة من ينفذه، ويحفظ الأمن، ويضبط مصالح الأمة، ويقوم بكل واجب ديني ودنيـوي لليمن وأهله عند وفـاة الإمـام الحـالي فقد رأوا بـالإجماع مـا يـلي وذكـر مـواد البيعة، ثـم ذكر المادة الثالثة:

يكـون نـظام الحكم شـوريـاً دستـوريـاً بمـا لا يخـالف الشريعـة السمحـة الصحيحة من كتاب الله وسنة رسوله».

وننتقل إلى ما قدمه رئيس الاتحاد اليمني محمد محمود الزبيري، من القاهرة بمصر إلى الإمام أحمد حميد الدين بتعز في ١٩٥٦/٦/٢١ م، وقد كـان ذلك حـين أنس الزبيري من الإمام أحمد تفهماً لمطالب الشعب، ورغبة للتوصل إلى حل مع المعارضة.

وضع الزبيري والنعمان[١] نظام حكم الشورى، وحددا مطالب الشعب بوضوح وتفصيل، ونكتفي بالمقدمة. وهي على طولها ضرورية الاثبات هنا لنعلم منها مدى تمسك ذلك الرعيل بالشريعة والشورى، فإلى المقدمة:

«في فجر اليوم الذي صنعناه من أنفاسنا وعرقنا، ومن ذروة الشـوامخ التي شيدناها بكفاحنا وسواعدنا، وعلى مقربة من حرم الغـاية المقـدسة التي أنفقنـا في

(١) في كتابنا (النعمان دعوة إصلاح وبطولة استقلال) توضيح لظروف صدور هذا البيان.

طريقها العمر، واستهلكنا في سبيلها الحياة، نزف إلى الملايين من أبناء اليمن السائرين في بيدائه، الكادحين في سهوله ووديانه، القابعين في كهوفه وأكواخه، المبعثرين الحائرين».

وتستطرد المقدمة في نسق انشائي مفعم بالاستبشار قائلة: «وإلى مئات الألوف من اليمانيين المنتشرين في مشارق الأرض ومغاربها، الباحثين عن الحياة، المكافحين في سبيل البقاء، المجاهدين في سبيل العزة والكرامة والطمأنينة، الطائرين في كل سماء، السابحين في كل بحر، المتوغلين في كل شعب، المقتحمين لكل صعب، إلى الذين عاهدوا الله أن يعيشوا كراماً أحراراً، وأن يظلوا أوفياء لمبادئهم، يتمسكون بها إلى آخر رمق في الحياة. إلى هؤلاء جميعاً نزف بشرى نجاحهم، وانبلاج مبادئهم، وظهور الفجر الصادق الذي تسجوا أشعته من أطباق أرواحهم.

هذا هو اليوم الذي آن فيه لمبادئنا أن تظهر، ولجراحنا أن تجبر، ولأمانينا أن تنصر، هذا هو اليوم، وهذه هي المبادىء والأهداف التي سعينا لأجلها طويلاً، وحملنا ثقيلاً، وجوزينا عليها جزاء جميلاً، فقد تم التفاهم والاتفاق بين أبناء اليمن على تحديد أهدافهم وغاياتهم، وعلى التكتل والتضامن حول هذه الأهداف والغايات، بحيث يكون أبناء اليمن الأبرار على قلب رجل واحد، تحكمهم المثل الوطنية العليا، وتساوي بينهم على اختلاف طبقاتهم وقبائلهم ومشاربهم، بحيث يثبتون ثبات الجبال أمام الرياح الهوج، ويلتقون حول مبادئهم المقدسة الخالدة التي استنبطوها من أحاسيس الشعب، واستلهموها من شرائع السماء والأرض.

وقد كان لا بد من هذا الاتجاه، فإن اليمن اليوم تكتنفها الأخطار، وتحاك حولها المؤامرات، وتهب من حولها الأعاصير، وتمتد إلى مروجها الخضر وكنوزها البكر أعناق الطامعين، فلو لم يجتمع رجال اليمن حول هذه المبادىء، وأن يؤمنوا

بها إيماناً صادقاً عميقاً قائماً على أساس الفهم والإدراك، وأن يجندوا أنفسهم لنشرها وشرحها، والتبشير بها، وأن يتأكدوا أن هذه المبادىء الثورية مأخوذة من صميم الشريعة الإسلامية، وأن يضع كل منهم يده في يد أخيه في حب وثقة وإيثار وتضحية، لا من أجل شخصه، ولكن من أجل هذه المبادىء، ما دام يعتنقها ويؤمن بها، ويدفع ضريبة الإيمان بها جهاداً بالنفس والمال.

وإننا إذ ندعوا الناس إلى الإخاء والتضامن والتكتل على أساس هذه المبادىء الثورية، التي يكون الحكم فيها للشعب، فإنما نحاول إنقاذ اليمن من التيارات الشخصية الخطيرة التي بدأت تعصف بأبنائنا ذات اليمين وذات الشمال، فهذا يعطي اليمن لزيد، وذاك يهبها لعمرو، وهذا يضعها في المزاد بسوق الطامعين والمستعمرين، أما المبادىء والغايات المقدسة فلا تكاد تذكر أو تعتبر، لكأن الشعب اليمني بوطنه العظيم وكنوزه الغالية، وعروبته العريقة وإنسانيته، إنما هو سلعة حقيرة تباع وتشترى لذلك.

فإن (الاتحاد اليمني) وكل من ينتهي إليه أو يؤمن معه بهذه الفكرة، وبهذه المبادىء الثورية الخالدة التي جاهدنا من أجلها طويلاً، يعلن أن هذه المبادىء الوطنية هي المحور الذي تتجه إليه قلوبنا، وترتبط به مصائرنا. لأجلها نغضب، ولأجلها نرضى، باسمها نحب، وفي سبيلها نكره، نسالم من سالمها، ونحارب من حاربها.

وإن الشعب نفسه ليعلم أننا لسنا طلاب جاه ولا مال، وإنما نحن أصحاب عقيدة ملكت علينا حياتنا ومشاعرنا وأهواءنا، وشردتنا عن أوطاننا. ولا حقداً ولا ضغينة على أحد. لذلك فإنا ندعو الشعب كله حكاماً ومحكومين، أن يبدؤوا عهداً جديداً من الود والصفاء على أساس هذه المبادىء، التي هي جديرة أن تعطي كل ذي حق حقه، كائناً من كان. يا أبناء الشعب، إن الوطن شيء كبير ضخم، أكبر من أشخاصنا، وأكبر من خيالاتنا، وأجل منا ومن شهوتنا

وأغـراضنا. إنـه أكبر من الحكـومات، وأكـبر من الحُكـام، وأقـوى من الجيـوش والأسلحـة، وأقوى من الحيـاة، وأقوى من المـوت. لذلـك فمبادئنـا المشرعة من كيان هذا الوطن العظيم، هي التي يجب أن تقـدس، وهي التي يجب أن ترهـب، وهي التي يجب أن تكون معياراً للخير والشر، ومقياس الوفاء والخيانة والإحسـان والإساءة، وميزان العدل والظلم والنقص والكمال.

وإذن فـلا جرم أن نقيس الأشخـاص على أسـاسهـا، وأن نعـطيهـا من نصرتنـا وحبنا وتقديرنا، على قدر ما أعطوا هذه المبادىء من رعـايتهم وإيمانهم ونصرتهم. فأية شخصية حكوميـة أو شعبية، آنسنـا منها الإيمـان لهذه المبـادىء والتقيد بهـا، فإننـا سنرتبط بها برباط الوفاء والصدق، ونسير معهـا في طريق الهـدف المشـترك، لا نألوا في ذلك جهداً، ولا نغمط حقاً، ولا ننحرف قيد شعرة عما رسمنا لأنفسنا، وأنفقنـا فيـه أعـمارنـا، من منهـاج واضـح مستقيم: «سعـادة الشعب، وحكم الشعب، وحرية الشعب، والمساواة بين أبناء الشعب، والعمل بشريعة الله الذي أكرم الله بها هذا الشعب». ﴿فِطْرَةَ اللهِ التي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَـا، لا تَبْدِيـلَ لِخَلْقِ اللهِ. ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾.

فإلى أبناء اليمن جميعـاً نتقدم بنـظام الشورى الـذي جاء بـه دين محمد بن عبد الله، عليه أفضل الصلاة والسلام» ا. هـ.

وبعـد قيام الثـورة في سبتمبر سنـة ١٩٦٢، أثيرت حـولها زوابـع الفـرقـة والانقسـام نتيجة للتـدخل الأجنبي، وحـين أدرك المجاهـد الشهيد محمـد محمود الـزبيري والمخلصـون من أبناء اليمن، بـوادر الفرقـة والخطر، دعـوا كـل فئـات الشعب إلى مؤتمر يجمع شملها ويجدد ملامح مستقبلها، فانعقد مؤتمر عمـران سنة ١٩٦٣، وخرج بقرارت هامة هذه مقدمتها:

«نحن معشر اليمانيين القادمين من كل أنحاء اليمن، المثلين لكل مناطقها وفئاتها وقبائلها، والمعبرين عن شرفها وكرامتها، المتطلعين إلى مستقبلها الصاعـد

المشرق، والمودعين لظلام ماضيها العاجز الحزين. . . نقسم بالله العلي العظيم وبكل مقدساته، إنا قد صممنا بعد هذا المؤتمر التاريخي الأكبر، أن نصبح إخوة متعاونين، وأن نحافظ على وحدة الوطن، ونحارب كل أنواع الانقسام والتمييز، وأن نحتكم إلى شريعة الله وإلى المؤتمر الشعبي فيما شجر بيننا، أن نجعل الدين الإسلامي أساساً لحياتنا الخاصة والعامة، ومصدراً للتقنين والتشريع، ومعياراً للسلوك الفردي والجماعي، ونوراً في طريقنا الثوري التقدمي الصاعد. وأن نلتف حول جمهوريتنا حتى آخر قطرة من دمائنا، وأن نكون متضامنين في سبيل تنفيذ كافة قرارات المؤتمر الشعبي، وأن ندفع عنه كلما يتعرض لأي أذى من الأعداء؛ بسبب حضوره وعمله في المؤتمر، وأن نقوم بكل واجب وجهتنا إليه قرارات المؤتمر الشعبي. ونحن المؤتمرين نقرر على بركة الله وبهدايته وتوفيقه، أننا شعب يدخل أبواب التاريخ من جديد، وهو متحمل تبعات جساماً، من أجل تطوره والتقدم الثوري.

وإنه إذا كان أرغم على التوقف عن أعمال الجباة دهراً طويلاً، فإنه يشعر أن عليه أن يعوض ما فاته من تقدم ورقي، وأن يلحق بركب الحياة، مستمداً قوته من ماضيه العريق وطاقاته الكامنة، ومن سره الأنظمة الجماعية التعاونية والتي جاء بها الإسلام وأقرتها الأمم التقدمية الحديثة.

وسوف يعمل المؤتمر على إرشاد الجماهير الشعبية وتوجيهها، لكي تبنى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والتعليمية والصحية والدفاعية، بناءً جماعياً تعاونياً، يساعد الحكومة على تحقيق أهدافها الثورية في أوساط الشعب بيد الشعب، كما يساعد الشعب على تنفيذ أهدافه في أوساط الأجهزة الحكومية» ا. هـ.

ويأتي الآن دور الميثاق الوطني الذي يعتبر بحق الخلاصة الناضجة للفكر اليمني المعاصر، والمنهج الإصلاحي السليم، والذي يحق لليمن أن تفاخر به كل الدول العربية والإسلامية القائمة.

وبعد المقدمة القيمة نقف أمام الباب الأول منه، وهو بعنوان (الإسلام عقيدة وشريعة): «إنّ الإسلام بالنسبة لشعبنا اليمني، كان وما يزال أساس تكوينه الفكري والروحي، فهو بمبادئه وقيمه الأخلاقية ضمير شعبنا، الذي يستحيل تجاهله أو استبداله بضمير آخر. ذلك أن النظرة الإسلامية للكون والإنسان تتميز بالشمول بكل جوانب الحياة المادية والروحية، هذا الشمول هو جوهر الإسلام، وهو شمول مرن لا يصب الحياة في قوالب جانبية متحجرة ضيقة، ولكنه يضعها في إطار سماوي لا أصل له بالعقلية الكهنوتية، ثم يترك للعقل في هذا الإطار حرية الانطلاق والاجتهاد، والبحث والاستنباط، واستحداث النظم والأساليب وتغييرها انطلاقاً من المنهج الإسلامي الشامل، لتتلاءم مع ظروف الحياة المتطورة، فالتشريعات الإسلامية تتسم بالقدرة على استيعاب الحياة وحل مشاكلها المتجددة، والقدرة على تنظيم الحياة في كل زمان ومكان.

إنه منهج للبشرية جمعاء، أرسىٰ مقدرة الإله في قواعده وأصوله؛ من سعة الآفاق، وكلية الإحاطة. مما جعله عالمياً قادراً على الحياة والعطاء والإبداع.

ومن خصائص المنهج الإسلامي أيضاً: ثبات قواعده وأصوله، ومرونة فروعه ووسائله وأساليبه. وهذا ما أعطاها القابلية، والقدرة على استيعاب الحياة وقيادتها إلى الأفضل في أية مرحلة من مراحلها. وهو إلى جانب ذلك، منهج يعتمد على رقابة الضمير قبل رقابة السلطة.

ولقد فهم آباؤنا اليمنيون الإسلام بهذا الشمول فاعتنقوه، وارتبط تاريخنا بتاريخه. وآمالنا بروحه. وعندما أصبنا بالذي أصيبت به البلاد الإسلامية، من تفكك وانحطاط، وجهل وظلم، ظل الإسلام القوة التي واجه الشعب بها جبروت الطغاة، وحملات الغزاة.

ونحن ـ بحمد الله ـ شعب مسلم موحد العقيدة، ارتضىٰ الإسلام شرعه ومنهاج حياته.

ومن ثم فإن معالجة الميثاق قضايا الحياة معالجة إسلامية، يعتبر السبيل الوحيد للتعبير عن ضمير الشعب وإرادته، وللحفاظ على كرامتنا وكياننا المستقل، وشخصيتنا المميزة.

وفي إطار المفاهيم العظيمة للإسلام نستطيع أن نتعامل مع التقدم الفكري والعلمي، أخذاً وعطاء، دون أن نكون نهباً للأفكار، والنظريات المتصارعة الفردية والجماعة.

وإذا كان تصور الفكر المادي للإنسان والحياة تصوراً ضيقاً يتجاهل المعاني الروحية، ويجعل هذه الحياة هي البداية وهي النهاية وهي الغاية ـ وبذلك تبقى الغرائز في الإنسان مشدودة إلى حيوانيتها، بدلاً من السمو بها إلى آفاقها الإنسانية ـ فإن التصور الإسلامي الشامل للإنسان والحياة، يربط المادة بالروح، ويربط الحياة الدنيا الزائلة بالحياة الخالدة التي هي الغاية. وبذلك يربط الإنسان بالله، وتسمو غرائزه، ويعود إلى الصورة المثالية التي أرادها الله له، ويستقيم في كل عمل يعمله.

﴿لقدْ خلقْنا الإنْسان في أحْسن تقْويم، ثُمّ رددْناهُ أسْفل سافِلِين، إلاَّ الّذين آمنُوا وعملُوا الصّالحات فلهُمْ أجْراً غيْر ممْنُونٍ﴾ (التين). ﴿والعصْرِ إنّ الإنْسان لفي خُسْرٍ، إلاّ الّذين آمنُوا وعملُوا الصّالحات، وتواصوْا بالحقّ وتواصوْا بالصّبْر﴾ (العصر). ﴿يومئذٍ يصْدُرُ النّاسُ أشْتاتاً ليروْا أعْمالهُمْ، فمنْ يعْملْ مثْقال ذرّةٍ خيْراً يرهُ، ومنْ يعْملْ مثْقال ذرّةٍ شرّاً يرهُ﴾ (الزلزلة) ا. هـ.

ومن أنسب المصادفات وأوفقها، أني إذ أحرر هذا وأنا أتابع ما كتبه الأستاذ أحمد محمد الشامي في كتابه (رياح التغيير في اليمن) وبالذات، وهو يقص خبر الرعيل الأول من هذا الجيل الذي تسابق أفراده إلى ميدان الشهادة ساحة (حورة) بمدينة حجة سنة ١٣٦٧. وهم بين راكع قبل أن يقضي نحبه، كعبد الله بن أحمد الوزير، وتال: ﴿يا أيّتها النّفْسُ المُطْمئنّةُ ارْجعي إلى ربّك

رَاضِيَةً مَرْضِيَةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ كعبد الوهاب نعمان، ومنشد: «غداً ألقى الأحبة محمداً وصحبه» كحسين بن محمد الكبسي، ومرسل مصحفه إلىٰ الإمام أحمد، وأن هذا المصحف هو الحكم بينهما، والشاهد عند رب العزة يوم القيامة، كما صنع علي بن عبد الله الوزير، والخارج إلى ساحة الإعدام صياماً عصر رمضان، كجمال جميل العراقي.

وتساءلت مع نفسي وأنا أتابع. ذلك الشريط الروحاني، والنقاء النوراني لذلك الجيل المسلم، فقلت: كم هو الفرق بعيد بين جيل قرآني كذلك الجيل، وبين أجيال لاحقة أنكدها الفسوق وشوهها العقوق، ونشأت على النظريات الالحادية، وتشبعت بالدعوات الفاسقة، فخسرت بذلك الدنيا والآخرة، وجنت على نفسها وقومها وعالمها.

روافد علمية وثقافية

بإمكان المتتبع للخط الاجتهادي الذي تركته مدرسة الأمير والشوكاني لا حب الجنبات، ممهد المسالك، أن يرى ذلك الخط متصلاً في القرن الرابع عشر بأفذاذ مجتهدين، وإن كانوا قلة إلا أنهم كانوا مباركين في العطاء والإنجاب المستمر حتى اليوم، فقد كان أهم من تذكرهم من حلقات الاتصال بين القرنين الثالث عشر والرابع عشر من أقمار تلك المدرسة الأميرية الشوكانية، هو محمد ابن أحمد العراسي، وإسماعيل بن محسن بن إسحاق، وحسن بن حسن الأكوع سبط شيخ الإسلام الشوكاني، وكلهم أخذوا عن شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني، ونقلوا تراث مدرسته الاجتهادية إلىٰ رجال أعلام، هم: أحمد بن رزق السياني الذي كانت له مدرسة اجتهادية بجهة صعدة، ومن أبرز تلاميذها الإمام الحسن بن يحيىٰ الضحياني، الذي تولىٰ الإمامة بصعدة وما جاورها، من سنة ١٣٢٢ إلىٰ سنة ١٣٢٨.

والعلم الثاني الشامخ الناشر للتراث الاجتهادي في القرن الرابع عشر

بصنعاء وما إليها، هو الحسين بن علي العمري الآخذ لعلومه عن عبد الكريم عبد الله أبو طالب، وإسماعيل بن محسن بن عبد الكريم، ومحمد بن أحمد العراسي.

وبورك للحسين العمري في العلم، وأنسىء له في العمر حتىٰ أخرجت مدرسته الاجتهادية أمثال زيد بن علي الديلمي في الشيوخ، وأحمد بن عبد الوهاب الوريث في الشباب.

أما في تهامة وما جاورها من الهضبات الوسطى والجنوبية، فأبرز علمائهم حينذاك إلى جانب آل الأهدل والمزحاحي بزبيد، هو عبد الرحمٰن بن عبد الله القديمي، الذي يقال: إنه لم يكن في عصره من هو أعلم منه، من زبيد إلى مكة، وعبد الرحمن بن علي الحداد، ويحيىٰ بن محمد إلى الإرياني.

كما أن حضرموت كان لها خلال القرن الرابع عشر علماء رحالون، تنقلوا من جنوب آسيا إلى اليابان إلى بلاد الحرمين إلى مصر إلى غيرها، أمثال أبي بكر العلوي الحضرمي (ت ١٣٤٦)، وأحمد بن شهاب الدين العلوي (ت ١٣٠٨) ومحمد بن عقيل الحضرمي (ت ١٣٥٠). وقد مر بنا تراجم بعض أولئك الأعلام في الإشراق الثاني، وسنأتي على تراجم الآخرين في هذا الاشراق الثالث بعون الله.

وهناك رافد آخر اعترف منه علماء اليمن كغيرهم من علماء العروبة والإسلام، هو مدرسة مصلح الشرق جمال الدين الأفغاني وتلميذه شيخ الجامع الأزهر محمد عبده، وصاحب المنار رشيد رضا، وعلامة الشام وثائرها عبد الرحمن الكواكبي.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد أكرم مصر بالأزهر الشريف، فإن حكم محمد علي باشا، ذلك الذي كان يحب العربية رغم عجمة جنسه حباً جماً ويلزم ممثلي الدول الأوروبية بمصر التكلم بلسان العرب، والتأليف بها، بل الالتزام

بالزيّ العربي، وكذلك ولده إبراهيم من بعده. فإن مثل هؤلاء الحكام كان لهم جهدهم المشكور في تفخيم شأن العربية ونشرها، ونالت مصر من ذلك الخير الكثير.

وإلى جانب الأزهر فهناك مدرسة دار العلوم المصرية، التي أنجبت من أفذاذ مصر أمثال: الإمام حسن البنا والشهيد سيد قطب.

ومن أفذاذ اليمن المجاهد الشهيد محمد محمود الزبيري.

ووراء هذه المدارس العلمية المنوعة الثمار، والمباركة النماء، مدرسة أخرى أدبية كان لها دورها الذي لا يمكن أن ننساه في هذه العجالة، فمع أن أدباء اليمن وعلمائها كانوا يعدون نهج البلاغة ومقامة الحريري، وتفسير الزمخشري الذي هو مع اعتزاله رفيع الذرا في المجال البلاغي الفني، ودواوين المتنبي والبحتري، وغيرهما.

فقد أضيفت إلى جانب هذه الخميلة زهور شذية الأريج، زاهية الألوان، هي تلك التي جاءت بها مصر في شعر شوقي والبارودي وحافظ إبراهيم، وفي نثر الرافعي والعقاد والزيات وطه حسين.

وسنقف ـ إن شاء الله ـ على شيء من التفصيل عن كل ذلك فيمن نلم بهم من أعلام هذا الباب، وسيكون أهم مراجعنا في التراجم التالية: (نزهة النظر) للمؤرخ السيد العلامة محمد بن محمد زبارة، والأعلام لخير الدين الزركلي، إلى جانب مراجع أخرى يمنية وعربية. وما وقفنا عليه من حقيقة المترجم تهم بالخبرة الذاتية، أو خبر الثقات، والله المستعان.

صاحب الحكمة أحمد بن عبد الوهاب الوريث (١٣٣١ هـ - ١٣٥٩ هـ)

أحد مفاخر الإشراق اليمني الثالث ترجمه زبارة في نزهة النظر: «السيد العبقري العلامة الشاب التقي أحمد بن عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن يحيى بن أحمد الوريث بن محمد بن حسين بن إسماعيل بن علي بن عبد الله بن الإمام القاسم بن محمد. مولده في شهر رمضان سنة ١٣٣١ هـ بمدينة ذمار، ونشأ بها في حجر والده، وتخرج به وأخذ عنه في (صحيح البخاري) و (شرح العمدة)، و (الجامع الصغير). و (بلوغ المرام) و (الروض النضير)، وفي (شرح الغاية)، وفي النحو وأصول الفقه. ومن عبد الله السوسوة في النحو والمعاني، وعن القاضي علي بن محمد الأكوع في (المناهل)، وعن السيد حمود بن حسين بن قاسم الدولة في علم الكلام. وانتفع بمراجعة والده الجهبذ الكبير عبدالوهاب بن أحمد في كثير من الفنون، وقد أجازه والده إجازة عامة مطولة قال في آخرها هذه الأبيات:

أبني، خذ عني مقالة ناصح ... تهدي نصيحته الى إرشاد
الزم عرى التقوى، وعض على العلا ... بنواجذ، واحرص على الاسناد
متثبتاً عن كل تصحيف وعن ... غلط، بفهم ثاقب منقاد
وانهض لحل المشكلات إذا أتت ... حلاً تعد به من النقاد
حتى تكون جلياً وتحوز من ... رتب المعالي رتبة الأمجاد
ولقد أجزتك يا بني رواية ... ودراسة بتثبت وسداد
فارو الدفاتر مسنداً، لا سيما ... في سنة المختار طه الهادي
من كتب أهل البيت سادات الملا ... فعلومهم تروي غليل الصادي
والأمهات، وغيرها، يا حبذا ... الإسناد، لا تنظر ملام معادي
والله عونك في أمورك كلها ... وبعونه يأتيك كل مراد

إلى آخرها.

وقد حقق الله أمل المجيز في ولده، فإنه بلغ على حداثة سنه في فنون العلم إلى محل أسمى، وحقق ما بَعُدَ، ومال إلى ترجيح ما صح له دليله من الأحاديث النبوية، واجتهد، وعمل بما رجحه من الضم والرفع والتورك، وغيره في الصلاة، ورد على مخالفيه من الفقهاء بقصيدة مطلعها:

كتب الإمام محمد الشوكاني   في غاية الإحكام والإتقان

حتى قال في آخرها:

فلا سمت بي عقوة علوية   إن كنت للتقليد ذا إذعان
ما مذهبي إلا الكتاب وسنة   المختار، لا قول بلا سلطان

وأشعاره رائعة كثيرة.

ولما حج في سنة ١٣٥٥ اجتمع في (مكة) المكرمة بجماعة من أكابر علماء (الحجاز) وسائر الأقطار، وباحثهم وراجعهم في فنون من العلم. وقد عكف على التدريس والإفتاء بمدينة (ذمار)، كما عكف على التدريس لبعض الطلبة النجباء بصنعاء في المعاني والبيان والنحو والصرف وأصول الفقه.

ولما ظهر نبوغه وبراعته ونبله، أمر الإمام يحيىٰ بانضمامه إلى هيئة التأليف ولجنة التاريخ بصنعاء، فانتقل إليها بأهله في أول سنة ١٣٥٧ هـ، وقام بما عهد إليه، وكتب نبذة في تاريخ ما قبل الإسلام بعبارة شيقة، كما قام بتحرير مجلة الحكمة اليمانية، وصدر أول عدد وبها استمر على الإفادة حتى وافاه الحمام، ومات بصنعاء في محرم سنة ١٣٥٩، عن سبع وعشرين سنة، ودفن جوار والده، وعظم المصاب بفقده، وحزن الصغير والكبير، ورثاه جماعة من الشعراء. وأول من لقب بالوريث جده أحمد بن محميد، سمي بذلك لأنه ورث جماعة من أقاربه، وكانت وفاة جده في شهر رمضان سنة ١٢٠٩» ا. هـ.

وقد وقفت على شيء من نثره، وهو متأثر إلى حد بعيد بـالأسلوب الأفغاني ومحمد عبده والكواكبي.

أحمد بن أحمد سلامة (١٣٣٥ هـ - ١٤٠٧)

قـال زبارة في تـرجمته بنـزهة النـظر: «القاضي العـلامـة صفي الـدين أحمـد بن أحمد سلامة. مولده بمدينة زمار سنة ١٣٣٥هـ، وهو الخـطيب المصقع. أخـذ في علم الفقه والحديث والعربية من علماء ذمار، ومن مشائخه السيد العـلامة النبيـه أحمـد بن أحمد بن عبـد الوهـاب الـوريث. وقـد وصـل مـدينـة صنعـاء، وتـولى التدريس في بعض المعاهد، وقام بالإرشاد في مسجد (الصياد)، كما قام بالخطابـة في جـامع صنعـاء. وله ملكـة في حسن الإرشاد، واستحضـار الآيات القـرآنيـة والأحـاديث النبويـة بلسـان منطقتـه، وأسلوب حسن، وقـد فـاق من سبقـه من الخطباء، وعنده قوة جأش وعارضه أحوذي. زاد الله من أمثاله.

وسابقاً جرىٰ له من الامتحان ما يكـدر البال، بسبب الـوشايـة من بعض معاصريه بمخالفة المذهب. وكان اتجاهه إلى حمام الشفاء أيام الإمام أحمد، فقوبل بالاحترام. ورحل إلى مكة المكرمة، ودرس هناك، وأخذ عن علماء الحرمين، ثم عاد إلى وطنه. ورحل إلى صنعاء، وقام بالتدريس، وهو أمين (الجمعية العلمية) ا. هـ.

وقد سمعت الكثير من خطاباته المؤثرة. وهو يستحوذ على قلوب سامعيـه، ويفعم عواطفهم، حباً بالإسلام وحمـاسة لتنفيـذ ما جـاء به الـدين الحنيف. وقد منع من خـطابـة جـامـع صنعـاء في عهـد المقـدم إبـراهيم الحمـدي عـلى إثـر خطبة لاذعة. وهو الآن ـ طالت أيامه ـ من كبار مدرسي المعهد العـالي للقضاء بصنعـاء توفي (١٤) جمادىٰ الآخرة سنة ١٤٠٧ هـ.

عبد الواسع الواسعي (١٢٩٥ هـ - ١٣٧٩ هـ)

قال زبارة في ترجمته:

القاضي العلامة الرحالة الوجيه عبد الواسع بن يحيىٰ بن حسين بن عبد الله بن ناصر بن جابر الواسعي الصنعاني. مولده بمدينة صنعاء في جمادىٰ الأولى سنة ١٢٩٥ هـ، خمس وتسعين ومئتين وألف، وبها نشأ وأخذ في الفقه والصرف والنحو والحديث على مشائخه الأعلام، وهم كثيرون في اليمن وخارج اليمن، فمنهم: القاضي محمد بن علي زيد، والعلامة أحمد بن محمد السياغي، والعلامة عبد الرزاق بن محسن الرقيحي، ومحمد بن عبد الملك الآنسي، والمفتي محمد بن محمد جغمان، وأحمد بن علي الطيب، والسيد أحمد بن علي الشرفي، والعلامة اسماعيل الريمي، والعلامة محمد بن أحمد حميد، ومحمد بن يحيى الأكوع. وفي علم الأوقات، كالقاضي العلامة علي بن حسين المغربي، والمولى الحسين بن علي العمري، واستجاز منهما، فأجازاه إجازة عامة فيما شمله كتاب (الإتحاف) لشيخ الإسلام الشوكاني، وغيره من كتب الإسناد. ثم رحل صاحب الترجمة إلى مكة للحج سنة ١٣٢٩ هـ، لتسع وعشرين وثلاث مئة وألف، وأخذ عن علمائها. ومنهم: الشيخ أحمد خطيب بن عبد اللطيف الشافعي، وأجازه إجازة عامة، ومنهم كذلك الشيخ الحافظ الضرير محمد بن سليمان بن حبيب الله، المكي الشافعي المتوفىٰ سنة ١٣٣٣ هـ، ثلاث وثلاثين وثلاث مئة وألف، والشيخ عبد الحميد بن محمد بن علي قدس المتوفى سنة ١٣٠٥، خمس وثلاث مئة وألف. ومنهم السيد العلامة الحسين بن محمد بن حسين بن عبد الله الحبشي العلوي المتوفىٰ بالطائف سنة ١٣٣٠ هـ، ثلاثين وثلاث مئة وألف، وغير هؤلاء.

وأخذ صاحب الترجمة بمدينة حلب سنة ١٣٣٣ هـ، ثلاث وثلاثين وثلاث مئة وألف عن الشيخ أحمد الزرقاني مفتي حلب، ومن مدينة دمشق عن السيد بدر الدين، وغير هؤلاء من علماء مصر والشام ومكة.

وقد قام صاحب الترجمة بجولات في البلدان الإسلامية، وتردد كثيراً إلى

مصر والحجاز، وبذل مجهود في خدمة العلم وإنعاش الكتب اليمنية، وطبعت لحسن سعيه عدة من كتب الزيدية، منها: مجموع للإمام زيد بن علي، وصحيفة علي بن موسى الرضا، وشرح الأزهار، طبع مرتين، وكذلك المختصر للإمام المهدي أحمد بن يحيىٰ، وشمس الأخبار في الحديث، وكنز الرشاد في الزهد.

وطبع من مؤلفاته المختصر، والترغيب والترهيب، وشرح الأربعين المسألة، وفرجة الحزن في تاريخ اليمن، ومنها الدر الفريد المفترقات الأسانيد، ذكر فيه مشائخه وإجازاتهم، وذكر المسلسلات. وقد قرضه الأمير الشهيد شكيب أرسلان فقال:

هذا كتاب مفرد درسه ... يلذ للقارىء والسامع
إن شئت أن تأتي على فضله ... يوماً بحد جامع مانع
فقل: كتاب حسن. إنه ... تأليف عبد الواسع الواسعي
تاهت به صنعاء على غيرها ... سقياً له من عالم نافع

كما قرضه أيضاً القاضي العلامة يحيى بن محمد بن عبد الله الإرياني بقوله:

سلاسل إسناد العلوم تنظمت ... جواهرها في سمط هذا المؤلف
أقول لنفسي إذ وقفت مخاطباً ... على روضة الإسناد: يا هذه قفي
وسيري على أسلاك إسناد ... سادة لكي تقفي إن سرت في خير موقف
وفي روضها إن رمت روحاً تنزهي ... لكي تسمعي تغريد كل مصنف
أقول لعمر الحق والحق واضح ... لمن صح إبصاراً بغير تكلف
بأن وجيه الدين حاز فضيلة ... يبز بها الأقران في كل مزحف

وتوفي صاحب الترجمة في شهر رجب سنة ١٣٧٩ هـ عن أربع وثمانين سنة، ورثاه غير واحد رحمه الله ا. هـ

وقد أخبرني الأخ الأستاذ علي بن عبد الله الواسعي رئيس مجلة الإرشاد،

أن منشأهم الأول بجهة آنس، وأن نسبهم يرتفع إلى الخليفة الثاني الفاروق.
وعلىٰ هذا، فآل الواسعي، كآل أبي الرجال وآل السرحي عمريون عدويون.

عبد الرحمن بن محمد الأهدل (١٣٠٧ هـ ـ ١٣٦٧ هـ)

قال زبارة في ترجمته: السيد العلامة التقي عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن الحسن الأهدل مولده في شهر شوال سنة ١٣٠٧ هـ بالمراوعة، وأخذ بها عن والده محمد وعن السيد الحسن بن عبد الباري الأهدل، والسيد محمد معوضة والسيد عبد الله بازي، ولازم شيخ الإسلام محمد بن أحمد الأهدل.

وترجمه ولده السيد محمد طاهر وأثنىٰ عليه، وقال:

«حصل كتب كثيرة بقلمه، وكتب كتباً كثيرة في الفنون، وكان يقرأ في منزل الشيخ الأهدل بعد الظهر بحضور والده وسيدي سليمان بن عبد الباري وسيدي شيخ الإسلام محمد بن أحمد، في الدر المنثور وإحياء علوم الدين وصحيح مسلم وتفسير الرازي، وغير ذلك.

وفيه ورع شديد، وله أوراد وأذكار لا يتركها حضراً ولا سفراً، وله معرفة بالطب، وله معرفة تامة بالفقه والتفسير والحديث والنحو والسير. وتوفي في شعبان سنة ١٣٦٧ بجبل نعمان من حفاش عن ستين سنة، وقبره هنالك» ا. هـ.

وقد تولىٰ القضاء بالمراوعة، وانتدبه الإمام لتولي بعض القضايا بمدينة حيس، وأخبرني من رآه بشدة تحريه الحق وزهده..

ومن أخبار هذه المستفيضة أنه كان يضع على فم حماره كمامة تمنعه من أكل الزرع إذا مر بها في أملاك الناس رحمه الله.

عبد الرحمن بن علي الحداد (١٢٩٣ هـ - ١٣٤٠ هـ)

قال صاحب نزهة النظر في ترجمته: «القاضي العلامة عبد الرحمن بن علي بن ناجي الحداد الشافعي اليمني الإبي. مولده بمدينة إب سنة ١٢٩٣ هـ، وأخذ عن أبيه في فقه الشافعية (المنهاج) و (فتح الوهاب) مع شروحها، (المحلي) و (التحفة) و (النهاية) وحواشيها. وفي (البيضاوي) و (الكشاف) وحاشية الجمل في التفسير، وفي النحو في ألفية ابن مالك، وبعض شروحها، وغيرها في صحيح البخاري ومسلم وبسنن أبي داود والجامع الصغير، وغيرها. ألفية السيوطي والتلخيص، وغيرها في المعاني والبيان.

وأخذ عن السيد محمد بن داود حجر، ووالده داود بن عبد الرحمن حجر، وعن الشيخ العلامة عبد الواحد المصنف أجل علماء بلاد جبلة، وعن القاضي محمد بن عبد الله السادة من علماء صهبان.

وبعد وفاة والده سنة ١٣١١ هـ. تعين للفتوىٰ بمقامه في مدينة إب، واستمر فيها، مع قيامه بالإرشاد نحو ثماني عشرة سنة، وتعين حاكماً في تعز.

وكان من أعيان البلاد اليمنية الذين أوفدهم والي اليمن المشير أحمد باشا سنة ١٣٢٥ هـ. إلىٰ السلطان عبد الحميد، واستمر من بعد عودتهم حاكماً ببلاد تعز، وتعين رئيساً للمجاهدين اليمنيين عند قدومهم في سنة ١٣٣٣ بمعية سعيد باشا وجنود الأتراك على بلاد لحج واستيلائهم عليها. هذا وحين استولىٰ الإمام يحيىٰ على اليمن بعد الأتراك، عهد إليه بالقضاء في تعز ورئاسة المحكمة الاستئنافية بها.

وله مؤلفات، منها الإرشاد في الحث على الجهاد، وأورد فيه ما كان الإدريسي ومن شابهه من المستعينين بإمدادات النصارىٰ لإضلال العباد، وهو مؤلف جليل. وله تحف الأصفياء في إثبات كرامات الأولياء، وتحفة الإخوان بنظم ملوك ال عثمان، ورسائل متعددة أخرها نظم الاختيارات الإمامية

المتوكلية، وشرحها بالانتصارات، وشرح منظومة الاختيارات، وجمع فيه الأدلة والتعليلات والترجيحات. وله باع طويل في السياسة وحسن البيان، حتى قرر فيه أكابر علماءوقته بأنه لو سلم من الاشتغال بالفتاوى والوظائف للدولة، لبلغ مبلغ السيوطي وأمثاله في علوم الاجتهاد.

وما زال في محكمة اللواء حتى مات في شهر ذي القعدة سنة ١٣٤٠ هـ، ورثاه كثير من العلماء. وكان مع مزيد حظه لم يدخر من الدنيا ولا منزلاً لأولاده، ورعاً وزهداً، واعتماداً على فضل الله سبحانه. وموته عن سبع وأربعين سنة وأشهر. رحمه الله تعالى».

صالح بن محمد البيحاني (١٣٣٤ هـ - ٠٠)

ممن ترجمهم زبارة فقال:

«العلامة الواعظ صالح بن محمد بن عبد الله بن عنقا البيحاني الشافعي. مولده في صفر سنة ١٣٣٤ هـ بوطنه في بيحان، من مشارق صنعاء على مسافة نحو سبعة أيام.

وبيحان اسم ناحية كثيرة مشتملة على قرى عديدة، وطول مساحتها من الجهة الشمالية إلى أقصى جنوبها نحو سبعة أيام، وعرضها من الشرق إلى الغرب ثلاثة أيام. وجميع أهلها على مذهب الشافعي، وفيها من أشراف السادة الحضارمة العلوية الحسينية جماعة من آل العطاس، وغيرهم. وكان من النواحي التي أدعى الإنكليز أنها مشمولة بحمايتهم. وفيها مطارات، وأطرافها متصلة بناحية حريب من البلاد الأمامية.

وصاحب الترجمة نشأ بوطنه ثم هاجر إلىٰ مدينة تريم من بلاد حضرموت، وأخذ بها عن السيد العلامة عبد الله بن عمر الشاطري، وعن أخيه السيد أحمد بن عمر، وعلىٰ مفتي البلاد الحضرمية الأخ العلامة الشهير عبد الرحمن بن عبد الله العلوي الحضرمي.

ثم هاجر إلى مكة المكرمة فأخذ بها عن شيخنا أبي السمح مدير مدرسة دار الحديث النبوي، وخطيب الحرم المكي وإمامه، وعن الشيخ محمد بن عبد الرزاق المدرس، بدار الحديث والحرم المكي في تفسير ابن كثير وغيره، وأخذ بالمدينة المنورة عن الشيخ العلامة المحقق عبد الرؤوف المصري. ثم رجع إلى وطنه في بيحان، وعكف على التدريس به يومياً في (سبل السلام) شرح بلوغ المرام، وفي تجريد صحيح البخاري، وفي تفسير البغوي، مع الوعظ والإرشاد للناس.

واتصل بعامل الإمام على ناحية حريب، الأخ العارف أحمد بن يحيىٰ بن حسن الكحلاني، حاكمها الأخ العلامة يحيىٰ بن محمد أحمد بن حسين الكبسي الحمزي الحسيني. ووصل إلى الروضة من أعمال صنعاء الإمام في شهر شعبان سنة ١٣٦٠ هـ، حاملاً الكتب إلى الإمام من عامله وحاكمه على ناحية حريب، وقام عقيب صلاة الجمعة بالروضة في يوم ١٣ شعبان واعظاً للناس، والإمام وأولاده الحسين والقاسم وعبد الله وعباس وإبراهيم وإسماعيل ويحيىٰ ومحسن، والألوف من المصليين، بوعظ عظيم وأسلوب جميل بليغ، وإيراده حيناً جملة من الأيات القرآنية والأحاديث النبوية، في معنىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والعدل في الرعية، ونحو ذلك، مما أعجب به الكثير من السامعين النابهين العارفين، مع ما هو مع المعلوم للعموم، من نصح الناس من الظلم، ومناقضة الأحكام والارتشاء، ونحوه.

ومما أورده من الايات: ﴿لُعِنَ الَّذينَ كَفَروا مِنْ بَني إِسْرَائِيلَ﴾ الأية، ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَةٌ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ ونحوها.

ومن الأحاديث النبوية: «من ولي شيئاً من أمور المسلمين لم ينظر الله في حاجته حتى ينظر في حوائجهم»، «ما بعث الله من نبي ولا استخلف من خليفة، إلا كانت له بطانتان: بطانة تأمره بالمعروف وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالمنكر وتحضه عليه، والمعصوم من عصمة الله» وأمثالها.

مع ذكره من فضائل الإمام، ووجوب طاعته ما لم يأمر بمعصية الله، وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ا. هـ.

ومما استفدته منه، أنه في مدينة تريم بحضرموت أربع مئة مسجد، منها جامعان كبيران، والأخرى مساجد صغيرة جميعها عامرة مقامة. وهذا القول يخالف ما كان أخبرني به شيخنا الوالد محمد بن عقيل العلوي في سنة ١٣٤٦، من أن مساجدها نحو مئة وثلاثين مسجد فقط.

محمد بن سالم البيحاني (١٣٢٦ هـ - ١٣٩٠ هـ)

مؤسس المعهد الإسلامي ترجمه زبارة فقال: «الشيخ العلامة الخطيب الواعظ عزّ الإسلام محمد بن سالم البيحاني. مولده في رجب سنة ١٣٢٦ في مدينة القصاب عاصمة بيحان، وكف بها بصره وهو في السادسة من عمره، ونشأ في حجر أبويه، وأخذ مبادىء القراءة في بلده عن والده، وفي أول سنة أربعين رحل هو وإخوانه إلى رباط تريم حضرموت، ومكث هناك خمس سنوات، وأخذ عن عبد الله بن عمر الشاذلي وعلوي بن عبد الله بن شهاب، وعبد الله بن عيدروس، وحسن بن محمد الفقيه، وكلهم من علماء تريم.

ومنهم السيد عبد الرحمن بن عبد الله السقاف، وعلوي بن عبد الله السقاف، ومحمد بن علي الحبشي، من علماء سيون.

ثم رحل إلى عدن واستوطن الشيخ عثمان، وأخذ عن الشيخ أحمد بن محمد العبادي، وسافر إلى مصر في بعثة علمية في نادي الإصلاح العربي الإسلامي، ومكث بها ثلاث سنوات في الأزهر تحصل منها على الشهادتين: الأهلية والعالمية، والتحق بكلية الشريعة، وعاد إلى عدن، وتولى الإمامة والخطابة في مسجد العسقلاني من سنة ١٣٦١ هـ إلى سنة ١٣٩١ هـ، وشارك في أعمال كثيرة، من بناء المساجد، وفتح المدارس، وأهمها: المعهد الإسلامي الذي يضم خمس مئة طالب وعشرين أستاذاً.

وقد حج صاحب الترجمة ثمان مرات، وتزوج بعدة نساء، ولم يعقب. وصنف كتباً نافعة، منها أرجوزة في تربية البنين تبلغ خمس مئة بيت، وبغية القاصد في أحسن المقاصد، فيه نحو مئة قصيدة، وأطيب الكلام في سيرة سيد الأنام، وغير ذلك.

وقد أجازه جماعة من الأعلام، منهم الشيخ محمد حامي التقي، والسيد محمد بن محمد زبارة، والقاضي عبد الله بن علي اليماني، وغيرهم.

وقد سافر للحج من عدن سنة ١٣٩٠ هـ، ووصل عند عودته إلى صنعاء في محرم سنة ١٣٩١، وخطب بمسجد الفليحي خطبة بليغة. ولكلامه تأثير في النفوس. وهو حسن الإلقاء، كثير المحفوظات. وانتقل من صنعاء إلى تعز في طريقه إلى عدن، محل إقامته الأولى، ولم يصل إلى عدن، فقد وافته المنية بتعز من السنة المذكورة. رحمه الله» ا. هـ.

ويعد الشيخ البيحاني من أعلام اليمن في القرن الرابع عشر، وحين أمر الامام أحمد بإعدام وسجن ثوار سنة ١٣٦٧ وصل إلى بيحان، ومدحه بمدحة بليغة، وسعى لإطلاق السجناء، فأثمرت جهوده، وأطلق بعض المساجين بشفاعته.

وله مؤلفات غير ما سبق ذكرها الأستاذ عبد الله محمد الحبشي في كتابه (المصادر) هي: (الفقه البسيط) طبع في عدن، (عبادة ودين) طبع في عدن، (كيف تعبد الله) طبع في عدن، (أستاذ المرأة) طبع في مصر، (شفاء المصاب من شعات العود والرباب)، (زوبعة في قارورة) طبع عدن، وله رباعيات شعرية، يصدر كل مقطوعة منها بآية أو حديث، طبعها أحد أفاضل الخليج».

أبو بكر بن شهاب العلوي الحضرمي (١٢٦٣ هـ - ١٣٤٦ هـ)

وهـذا عمـلاق رحـال من علماء اليمن في أرجـاء المعمـورة، يتصـل نسبـه بالعلويين الحضارم، الذي خرج جدهم الأعلى أحمد بن عيسى الجعفـري الحسني من العراق سنة ٣١٧ هـ، وهو من مفاخر اليمن ومشاهيرها. ترجمه زبارة فقال:

«أبو بكر بن عبد الرحمن بن محمد العلوي الجعفري الحسيني. مولده بقرية (حصن آل فلوقة) من أعمال تريم في سنة ١٢٦٣ هـ، ونشأ بمدينة تريم في حجـر والده، وتحت رعاية أخيه الأكـبر عمر الملقب بـالمحضار، وشرع في تعلم القـرآن والكتابة، فتلقى فنون العلم، وأخذ عن والده وأخيه، وغيرهما، كالسيد محمد بن إبـراهيم با لفقيـه العلوي، والسيـد حسن بن حسـين الحـداد العلوي، والسيـد عـلي بن عبد الله بن شهـاب الـدين العلوي، والسيـد حـامـد بن عمـر بـا فـرج العلوي، والسيـد محسن بن علوي السقـاف، والسيـد أحمـد بن محمـد المحضـار العلوي، والشيخ عبد الله با سودان الكندي، وغيرهم.

وكـان جميل الـوجه والصـورة، معتـدل القـامـة، حسن السمت، لـطيف الأخـلاق، فصيح النـطق، بليغ التعبيـر. وكان يؤثـر الخمول ويحب المسـاكين، ويقوم بقضاء حوائجهم، وله مساع محمودة في إطفـاء الفتن وحقن الدمـاء، وله فتاوي وتعليقات.

نظم في أيام صغـره منظومـة في الفرائض سـماها (ذريعـة الناهض إلى علم الفرائض)، وعمره نحو ١٨ سنة.

ورحل إلى الحجاز سنة ١٢٨٦، وأقام بمكة، واتصل بالسيد العـابد فضـل بـاشا العلوي، وأخـذ عن الشيخ الشهـير أحمد زيني دحـلان، ثم عاد إلى تـريم وأقام بها إلى سنة ١٢٨٨ هـ. ورحل إلى عـدن وما جـاورها من اليمن، واتصـل بسلاطين الحج ورجال تلك الجهات، فعرفوا فضله وانتفعوا به، ورغبوا في إقامته لديهم فلم يقبل، وتوجه إلى الشرق الأقصى، ودخل إلى الكثير من المـدن، وأقام

بجزيرة (جاوة)، وتعاطى فيها التجارة، ونجح فيها، ثم عاد إلى وطنه سنة ١٢٩٣، واشتغل بالتدريس والإفتاء والدعوة إلى مذهب السلف، وسعى في إخماد نار الحرب التي اشتعلت بين سلطان (الشحر) وسلاطين (تريم) آل كثير. ثم فارق وطنه في سنة ١٣٠٢، وطاف في بلاد (عدن) و (لحج) و (مكة) و (الحجاز) و (المدينة) وزار (مصر) و (الشام) و (القدس) و (الأستانة)، وواجه سلطان آل عثمان بالأستانة، وأنعم عليه، ثم سار إلى (حيدر أباد) بالهند، وتولى التدريس بها بالمدرسة النظامية، وتردد من الهند إلى جاوة.

وكان يحل المشكلات العلمية، وصحح عدداً مما طبع من الكتب، وتزوج في حيدر أباد، وعاد إلى وطنه سنة ١٣٣١ هـ، وأقيمت له الحفلات، وقوبل مقابلة عظيمة بعد غيبة نحو ثلاثين سنة. ثم عاد إلى حيدر أباد ناوياً الرجوع إلى وطنه بعد قطع علاقاته بها، فعاقه الحمام، ومات بحيدر أباد في ليلة الجمعة عاشر جمادى الأولى سنة ١٣٤٦ هـ. وقد رثاه جماعة من الأعلام.

بعض مؤلفاته: له نحو ثلاثين مؤلفاً في الأصول والفقه والمنطق والطبيعة والكيمياء والفلك والحساب والأدب، منها:

- ذريعة الناهض، منظومة في علم الفرائض.
- ديوان شعر، مطبوع.
- إقامة الحجة في نقد بديعية ابن حجة، وغير ذلك.

وقد أخذ عنه جماعة من أهل العلم، منهم السيد محمد بن عقيل العلوي مؤلف النصائح الكافية.

ومن شعره قوله مقتبساً:

لقد جمع الله في اية من الذكر دونه كل طب
يقول الحكيم كلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب

وله أيضاً:

لقد قيل لي من خبيث الورى ولـلمقت والـطرد يستوجب
فقلت: المسيء إلى محسن إليه.. الخبيث الذي تطلب

وله:

ثلاثة أسماؤهم تقرع الأسماع والكتب بها طافحة
واليوم لا عين تراهم ولا تشم في الأرض لهم رائحة
ذي الورع العاجز والحاكم العادل والانسانة الصالحة

وله:

أنفق تجد خلفاً وتحمد، إنما يسري الفساد إلى العقيق لماكبث
والبس، فقد نطق الحكيم مبشراً مال البخيل لحادث أو وارث

وله:

سيد الناس من يجد ويسعى في رقي العباد دنيا وأخرى
يخدم الشعب، فهو يجلب نفعاً مستجداً لهم، ويدفع شراً
والسخيف الذي تصدر بالمال أو العلم، فازدرى الناس كبرا
حاسباً أن من سواه تراب وهو من بينهم تكون تبرا
ليت هذا السخيف كان حماراً للنبيل الذي تقدم ذكرا

ومن جميل شعره قوله:

ولا تنس قط عيوب نفسك، واذّكر ودع الخليقة تحت سر الخالق
فتتبع العورات أخبث خلة تهوى من يعتادها من حالق
إن التجسس واغتياب الناس من شيم المنافق والخليع الفاسق

وفي المشيب وصباغه يقول :

يقولون : خضبت المشيب تصابيا ... وفيك شهود أن دعوى الصبا إفك
فقلت : سترت العيب لا الشيب إنه ... من العار شيب ليس يصحبه نسك

وله في حصر الحمقى :

إن كنت لا تعرف بين الورى ... حمقى وهم في صفة العاقل
فانظر إلى تسعة رهط هُمُ ... حقيقة أبلد من باقل
من صدق المرأة فيها مضى ... أو الذي تضمر للقابل
ومن بلا علم ولا حجة ... يدفع قول العارف العاقل
ومن تصدى حاكماً وهو لا ... يميز بين الحق والباطل
والمرتجى الثروة عفواً بلا ... سعي لخير الدر في الساحل
والعاتب الأمر على غيره ... وهو به ملتحف الكاهل
والعالم الأنف عن قول لا ... أعلم، في معضلة السائل
والمبتغى بالكيميا الغني ... بشره بالإفلاس في العاجل
والشائب المختال زهواً لكي ... تهواه حور الملعب الحافل
والتاجر الراغب في الربح لا ... يضبط قدر الخارج الداخل»

أحمد بن صالح الوشلي (١٢٩٦ هـ - ١٣٣٧ هـ)

ترجمه صاحب نزهة النظر فقال :

«العلامة الرحالة أحمد بن صالح بن صالح الوشلي. مولده سنة ١٢٩٦ هـ بقرية الوشل الواقعة بين بلاد عنس وجبان. درس على كبار علماء عصره بصنعاء والأهنوم، ثم رحل في شوال تلك السنة لتأدية فريضة الحج. وبعد أن تم له ذلك سافر من جدة مع رفيقه السيد صالح الصليمي الحسني، إلى الديار المصرية، فوصلا إلى عاصمتها القاهرة المعزية سابع جمادى الأولى سنة ألف

وثلاث مئة وتسع عشر، ١٣١٩ هـ، وأقام بها صاحب الترجمة نحـو ست سنين، وأخذ فيها عن جماعة من علمائها الأزهريين في عـدة كتب، النحو المنطق والمعاني والبيان والحديث، وغيرها.

ومن مشايخه بمصر الشيخ العلامـة محسن أحمد نـاصر الحضرمي الشافعي، والشيـخ علي البيجـوري، والشيخ أحمـد الرقـاعي، والشيـخ أحمـد صـالـح بـا معـلي الحضرمي، والشيخ أحمد الشافعي المحلي، والشيـخ أمين الإسكنـدراني الحنفي، والشيـخ علي خـاطر الـزقازيقي الشـافعي، والشيخ مصـطفى الحكيم، والشيخ عـلي الجيـزاوي، والشيـخ محمـد بن عـلي بن إبـراهيم، والشيـخ محب الـدين محمـد الجيزاوي، والشيخ عبد الغني محمود، وغيرهم.

ثم عـاد إلى اليمن وقصد مـدينة شهـارة، وأخذ بهـا على أكـابـر العلماء في الحـديث والفرائض والفـروع، وأصول الفقـه والمنـطق، واستجـاز من القـاضي العـلامة عبـد الله بن أحمد المجـاهد، وابن أخيـه القاضي عبـد الوهـاب في جميع مقروءاته.

وكان صاحب الترجمة من العلماء النبـلاء، له معـرفة تـامة وذاكـرة قويـة، وفـطرة سليمة، وذهن كشعلة نـار، ولـه في العـربيـة يـد طـولى وسـمات كثـير الإقبـال على ما يعنيه تاركـاً ما لا يعنيـه، كثير الـطاعة، قليـل الفضول، صلب الـديانـة تعـتريه حـدة لاسيما إذا شـاهد شيئـاً من المنكرات، قـوال بالحق، معتمـداً عـلى الصدق، لاهجاً باللغة العربية، لطيف الطبع، جميل المـذاكرة، حسن العبـارة، مليح النادرة، كثير التواضع والتقشف والبشاش، مجالسه روضة للأذهـان لحفظه للأخبار، وجولاته في الأقطار، وتشنيفه لـلأسماع بـرقائق الأشعـار وفكاهـات البلدان البعيدة، وبحثه عن حقائقها ودقائقها وأهلها.

وكان حفاظة نسابة، وله محصلات في التاريخ وأنساب بني هـاشم وغيرهم من العلماء، هـذبهـا ونقحهـا بعـد البحث عن جليهـا ودقيقهـا، وعـاد في سنـة

١٣٢٦ هـ إلى قرية الوشل موطنه، وعكف على التدريس بها في الفروع والفرائض.

وممن أخذ عنه السيد العلامة أحمد بن يحيى بن أحمد بن صالح الوشلي، وكان صاحب الترجمة يتولى القضاء في بلاد زبيد بضم الزاء من قضاء ذمار، فيقصده لذلك وللفتوى القريب والبعيد، ولهم إقبال على ما يصدر منه في الفتوى. توفي سنة ١٣٣٧ هـ».

أحمد بن عبد الواسع الواسعي (١٣٢٦ هـ ـ ١٤٠٥ هـ)

قال صاحب نزهة النظر في ترجمته:

«هو القاصي العلامة أحمد بن عبد الواسع الواسعي، وقد مر بنا قريباً بترجمة أبيه. ولد بصنعاء، في ذي الحجة سنة ١٣٢٦ هـ، وأخذ عن أبيه الشيخ عبد الواسع في شرح الأزهار، والإتقان، والتهذيب، وتحفة الذاكرين، في العروض والقوافي والمسلسلات من الأحاديث. وأخذ عن عمه العلامة حسين بن يحيى في (شرح الأزهار) و(مغني اللبيب)، وفي علم الأوقات، وعن مشايخ المدرسة العلمية، وعن المولى الحسين بن بن علي العمري في صحيح البخاري ونيل الأوطار للشوكاني، وعن القاضي لطف الله بن محمد الزبيري، والقاضي العماد يحيى بن محمد الإرياني، وغيرهم. وقد أجازه كثير من مشايخه.

وقد كان تعيينه للتدريس ونظارة دار المعلمين بمدينة صعدة، فأقام بها مدة طائلة، ثم قام. بمديرية دار العلوم بصنعاء، وهو مستمر على التدريس والإفادة. وألف كتباً مختصرة للطلاب في التفسير وغيره.» ا. هـ.

والمترجم له أحد النفر من العلماء الذين أشرفوا على نقل رفات شيخ الإسلام محمد بن علي الشوكاني من ضريحه الأول، الذي كان مرور الرصيف عليه، فتشرف المترجم له بوضع رأس الشوكاني في ردائه، ووضعوه مع بقية

الرفات بمسجد الفليحي المعروض بصنعاء. وقد نعاه تلفاز صنعاء مساء الجمعة ٢٠ شعبان سنة ١٤٠٥ هـ. رحمه الله.

حسين بن عبد الله الأهدل (١٢٨٧ هـ - ١٣٥٢ هـ)

ترجمه صاحب نزهة النظر فقال:

«هو العلامة السيد حسين بن عبد الله الأهدل الحسيني المروعي. مولده سنة ١٢٨٧ هـ، وأخذ عن السيد محمد بن عبد الرحمن بن حسين بن عبد الباري الأهدل، وعلى السيد محمد طاهر بن عبد الرحمن الأهدل، والسيد سليمان الزبيدي الأهدل، وأجازه إجازة عامة. وأخذ عن العلامة عبد الحميد الشرواني محشي التحفة، وأجازه، وأخذ عن السيد أحمد زيني دحلان بمكة وأجازه، وترجم له صاحب (نشر الثناء الحسن)، وعدد من مشائخه السيد شيخ الإسلام محمد بن عبد الباري الأهدل، ومفتي بيت الفقيه محمد بن حسن فرج إلخ.

وترجم له بعض العلماء من سادات المراوعة، فقال أحدهما: «كان وحيد العصر في العلوم، له دراية بمنطوقها، والمفهوم، والقدح المعلى في تحقيق فروع المذهب، واليد الطولى في علم الحساب. والفرائض، والجبر والمقابلة والمساحة، وله في علوم الآلة مشاركة جيدة، ومباحث مهمة».

وبالجملة فقد ضرب بسهم باهر وحظ وافر، وكان سيداً فاضلاً، وعالماً عاملاً محققاً مدققاً، وعابداً صالحاً على الطاعات، وأنواع العبادات، محافظاً على الصلوات جماعة، متردداً لذلك المساجد، حافظاً لكتاب الله عن ظهر قلب، لا يكاد ينسى منه حرفاً، عارفاً حق المعرفة تفسيره وقراءته وأداءه، دائم التلاوة والذكر، وله الشعر الحسن والخطب العجيبة.

وهو على جانب عظيم في المثابرة على الذكر، والمجالسة والخير والمواصفة.

وأخذ عنه أناس لا يحصون كثرة من أماكن شتى، فدرس مدة مديدة.

ومن أجل تلامذة والده السيدان العلامة الأديب عبد الرحمن بن حسن، والسيد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن الاهدل، وغيرهما. ولم يزل يلازم التدريس والإفتاء حتى توفاه الله ليلة السبت لستة عشر من صفر ١٣٥٢ عن خمس وستين سنة».

الشهيد البدر محمد بن يحيى حميد الدين (١٣١٦ هـ - ١٣٥٠ هـ)

اخترنا ترجمة هذا من بين سائر إخوته لنشره كتب الشوكاني. قال زبارة في ترجمته: «هو الأمير المحسن الشهيد محمد بن يحيى حميد الدين مولده ليلة النصف من شهر رمضان سنة ١٣١٦ هـ، ست عشرة وثلاث مئة وألف، ونشأ بمقام جده وأبيه بقفله عذر، وحفظ القران الكريم والمختصرات، وأخذ في علم النحو والفقه عن العلامة أحمد بن قاسم الشمط، والقاضي عبد الوهاب بن محمد المجاهد، والسيد حسين بن محمد والقاضي إسحاق بن عبد الله المجاهد، وشيخ الإسلام القاضي علي بن علي اليماني، واستجاز منه ومن والده الإمام يحيى، ومن السيد العلامة زيد بن علي الديلمي، ومن المولى الحسين بن علي الحمدي بن سيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين، فاجازوه. كما طلب الإجازة من علماء الأقطار النائية، كالأستاذ محمد حبيب الله الشنقيطي المغربي نزيل القاهرة، والسيد أحمد بن محمد الخماري الحسيني، وغيرهما.

وكان يتوقد ذكاء وفطنة، مع كرم وأخلاق وتواضع، وصفاء سريرة وشرف نفس، وعلو همة.

كان سرياً ماجداً، وولاه والده الإمام يحيى على بلاد الشرف، ثم على لواء تهامة، وبعثه في جماعة من الأكابر إلى روما سنة ٤٦. وكان شاعراً فصيحاً بليغاً، وله مساع حميدة ومبرات.

ومن مآثره الخالدة: إجراء الماء في بئر عابدين في صنعاء إلى مسجد

الحلقة، وشروعه في ساقية بئر الأبهر التي تممها والده الإمام يحيى، وهي محسنة انتفع الناس بها. وعمَّر في العديدة بستان الخير وما حوله، وجعله مفتوحاً للناس، وعمر مسجداً بالقرب من الدار التي بناها بالحديدة. وكان كثير الإنفاق على أهل الحاجة، وكانت له آمال في نهوض الشعب اليمني ورقيه. وتوفي غريقاً في بحر الحديدة لطلبه إنقاذ بعض حاشيته في ذي الحجة سنة ١٣٥٠. وقد رثاه كثير من شعراء اليمن، وغيرهم، ومنهم أمير الشعراء أحمد شوقي، فقال قصيدته التي نشرتها الصحف المصرية، وهي:

مضى الدهر بابن إمام اليمن ... وأودى بزين شباب الزمن

وباتت بصنعاء تبكي السيوف ... عليه، وتبكي القنا في عدن

وأعول نجد وضج الحجاز ... ومال الحسين فعزى الحسن

وغصّت مناجاته في الخيام ... وغصت مآتمه في المدن

ولو أن ميتاً مشى للعزا ... مشى في مآتمه ذو يزن

عبد الرحمن بن عبد الله العلوي (١٣٠١ هـ - ١٣٧٥ هـ)

من أكابر حضر موت في القرن الرابع عشر. ترجمه زبارة فقال:

«السيد العلامة عبد الرحمن بن عبد الله بن محسن بن علوي بن سقاف بن محمد بن عمر الصافي العلوي، الحسين اليمني الحضرمي. مولده سنة ١٣٠١ هـ، ونشأ بحجر والده، وتخرج به، وشيخه السيد عيدروس بن عمر الحبشي مؤلف (عقد اليواقيت الجوهرية)، واستفاد بذهنه الوقاد وكثيراً من الفنون، ونظم الشعر الحسن، وسكن مدينة سئيون من حضر موت، ودرس بها، وأرشد وأفتى. وله مكانة في العلم، ووجاهة كثيرة عند الأمراء (آل كثير) وغيرهم، وله ديوان شعر في مجلد، وله كتاب (الإماميات) وقد طبع له بمصر سنة ١٣٤٥ هـ على نفقة بعض الحضارمة.

وكان بين صاحب الترجمة والإمام يحيى بن محمد حميد الدين مراسلات شعرية. ومن جيد شعر صاحب الترجمة قصيدته الرائية التي بعث بها من حضرموت إلى الإمام يحيى، يبثه فيها أشجانه وسيحثّه على العمل الجاد في تخليص بلده حضر موت من قبضة الاستعمار البريطاني، ومطلعها:

أليس لهذا الليل في سره فجر ... أم أسود وجه الصبح أم خانني الصبر

إلى أن يقول:

ولي وطن منذ ألف عام وأرضه ... لزهر الهدى أوج وللأولياء وكر

أترتاح نفسي بعدما أوثقت به ... حبائل في طياتها الغدر والمكر

تغار من الأمر اليسير مناله ... فكيف وفي استعماره استشرق الكفر

وبي فرق من أن تلين حماته ... إذا زوقت سا بين أيديهم الصفر

فهل سن خلاص هل لنا من وسيلة ... يزداد بها عن قطر منا الطاهر البشير

وقد رد عليه الإمام يحيى برسالة مشفوعة بقصيدة من نفس البحر والقافية، وفي الرد شيء من التسويف والمماطلة. وفي آخر الرد ما نصه: «ولو تم لنا وجود الأسباب لما وسعنا التأخير عن إجابة النداء إلا ريث ما توضع الرجل على الركاب، ولكنا الآن مشغولون بتقرير قواعد البلاد الدانية حتى يتم التمكن من الالتفات إلى القاصية».

وفي شهر محرم سنة ١٣٤٩ وصل صاحب الترجمة إلى مدينة صنعاء لزيارة الإمام يحيى، وغمرت مجالسه بالمذاكرة، ولبث بصنعاء نحو شهرين زار فيها السادة والوجهاء، وكان يحضر صلاة الجمعة في الجامع الكبير بصنعاء، وأعجب الناس به لما هو عليه من الزهد والتواضع. وقد عاد إلى حضرموت ووصل برسائله إلى الإمام أحمد، وله ولد نبيل شاعر كأبيه اسمه حسن».

قال الزركلي توفي سنة ١٣٧٥ هـ.

عبد الرحمن بن يحيى المعلمي (... ـ ١٣٨٦ هـ)

من صلحاء اليمن في القرن الرابع عشر ترجمه زبارة: فقال:

«هو عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، الصديقي نسباً، العتمي بلداً. نشأ بقرية الظفر على وزن زحل، وهي قرية من أعمال جبل عتمة. وأخذ عن الفقيه أحمد بن محمد سليمان المعلمي في الفقه القاسمي شرح أبي شجاع، مع مراجعة حواشي الباجوري يمليه والمنهاج للنووي، وغير ذلك. وفي النحو المتممة وشرحها، والفواكه الجنية، والكواكب الدرية والمغني، والبحرق، والأزهري، والكفراوي. وفي المعاني والبيان: المفتاح للسكاكي، وله منه إجازة عامة عن غيره من مشائخ جهة زبيد».

وقد ترجم له صاحب (نشر الثناء الحسن)، فقال: «وفد إلى بلدة (المنيرة) في شهر ربيع الأول سنة ١٣٣٦ هـ، وعلي قدم التجريد قاصداً زيارة النبي ﷺ، وزيارة جده أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فرأيته فقيهاً نحوياً لطيفاً شاعراً فصيحاً. وقد ذكر لي السيد الباعث على التوجه والزيارة فقال لي: «لما كانت ليلة الاثنين عاشر ربيع الأول سنة ١٣٣٦ هـ، رأيته ﷺ رؤيا منامية، كأنه في مسجد لا أعرفه وحوله جماعة، فدخلت المسجد فقبلت يده الشريفة وقلت له: يا رسول الله إني أحبك فالتفت إلى رجل واقف عن يمينه وقع في ذهني أنه الصديق رضي الله عنه فقال: أنشد البيتين، فقال:

لا يمنعنك من بعد زيارته ... وحال من دونه حجب وأستار
زر من تحب، وإن شطت بك الدار ... إن المحب لمن يهواه زوار

فالتفت ﷺ فقال: هل سمعت، ثم انتبهت، فتقوت النية» ولصاحب الترجمة شعر لطيف، منه هذه الأبيات قالها عند قدومه بلدة المنيرة:

نزه العين في الروابي النضرة ... واملأ الجفن من تراب المنيرة
واسع، في سوحها المقدس، واخلع ... عنك نعليك فهي في الأرض خيرة

وقد سكن المترجم له ببلاد الهند سنوات، وصحح بعض الكتب المطبوعة هناك، ثم اجتمعت به في شهر ذي الحجة سنة ١٣٧٣ هـ وبالحرم المكي، وقد عين في مكتبة الحرم المكي». ا. هـ. وقد وفقت على نسخة من تذكرة الحفاظ الذهبي بتصحيح المترجم له في ١٥ شوال سنة ١٣٧٤ هـ[1].

محمد بن أحمد الحجري (١٣٠٧ هـ - ١٣٨٠ هـ)

من مفاخر اليمن في القرن الرابع عشر. ترجمه زبارة فقال:

«القاضي العلامة الزكي الحفاظة محمد بن أحمد بن علي بن علي بن مثنى بن أحمد بن محسن الحجري. مولده تقريباً في ذي الحجة سنة ١٣٠٧هـ بقرية ذي أشرع، من خبان تابع بلاد يريم. وأخذ عن والده وعن عمه صالح بن علي الحجري، وعن القاضي علي بن حسين الأكوع الذماري وعن السيد يحيى بن علي الذاري، وعن القاضي محمد بن أحمد الأكوع، وعن القاضي يحيى بن محسن العنسي، وعن السيد عبد الوهاب بن أحمد الوريث.

وهاجر إلى القفلة وجبل الأهنوم، وأخذ عن شيخ الإسلام القاضي علي بن علي اليماني، وعن العلامة أحمد بن عبد الله الجنداري، وأخذ بصنعاء عن السيد محمد بن عبد الله الديلمي، والسيد حسين بن محمد أبي طالب، وغيرهما، واستفاد، ونظم الشعر الحسن.

وفي سنة ١٣٤٤ هـ أرسله حسين بن علي عبد القادر لحضور المؤتمر الإسلامي بمكة في ذلك العام، وصحب السيد عبد الله بن أحمد الوزير سنة ١٣٤٣ هـ إلى بلاد حاشد لإصلاحها، ثم إلى تهامة، ثم إلى بلاد الجوف. وعينه الإمام يحيى مراقباً على العائدات ببندر الحديدة، كما عينه في أمور أخرى.

وفي سنة ١٣٥١ هـ أرسله الإمام مع عامل الزيدية السيد يحيى بن أحمد

(١) ذكر الزركلي وفاته سنة ١٣٨٦ وستة مؤلفات له مات وهو يقرأ كتاباً.

الكبسي إلى العراق، وعاد إلى الحديدة للمراقبة على العائدات، وما زال بها حتى كانت الحرب الضروس بين حكومتي الإمام يحيى والملك عبد العزيز آل سعود سنة ١٣٥٣ هـ، فانسحب إلى عدن قبل دخول الأمير فيصل إلى الحديدة. وقد تولى رئاسة المحاسبة بصنعاء مدة من الزمن. وله مؤلفات منها: معجم البلدان اليمنية وقبائلها، ومنها تاريخ مساجد صنعاء، وفهرست مكتبة جامع صنعاء، وقد طبع. كما عمل فهرست لكتب الإمام يحيى، وله مختصر في تاريخ اليمن، وله شعر حسن. ومن شعره هذه الأبيات في تشبيه شرعة الأعناب على ساحة بعض المفارج اليمنية مع مظلة الشاذروان، وقد أبدع وأجاد:

كأنما شرعة الأعناب إذ نشرت ... أوراقها فوق سور الروض والشجر
ريش الطواويس في سلك منظمة ... على سحاب من الإستبرق النضر
والشذروان وقد دارت مظلته ... بين الرياض وبين المجلس العطر
رحى من الماس في أرض مرجحة ... ترمي الجهات بمنثور من الدرر
وحوله قضب البلور أعمدة ... مقرطقات بدر غير منحصر
وساق حر على أعواده منبره ... خطيب قوم دقيق الفكر والنظر
ومجلس القوم أفق، والذين به ... كواكب، ورئيس القوم كالقمر

وكان هذا المفرج هو الملك السيد جمال الدين علي بن علي زبارة، ورئيس القوم الذي كان حاضراً هو شيخنا المولى القاضي حسين بن علي العمري، رضي الله عنه. ومن شعر صاحب الترجمة في قوله في وصف الببغاء في برجها:

لله من منظر في الببغا حسن ... يحار في وصفه ذو المنطق الطلق
كأنها في عمود البرج واقفة ... تصوب الفكر في الآفاق والطرق
مهندس يعمل الأفكار في عرض ... أو فيلسوف يراعي النجم في الغسق
أو بنت ملك تجلت بعدما لبست ... من القطايف ألواناً على نسق
من أحمر ناصع، وأخضر نضر ... أو أصفر فاقع، أو أبيض يقق
على الصفى راها فاستهل بها ... فيروزة الصبح أم ياقوتة الشفق

وقد سار القاضي محمد الحجري مرافقاً للقاضي عز الإسلام محمد بن عبد الله العمري إلى روسيا في طريقهما إلى الصين، بمناسبة دعوة من هنالك، ولما ركب الطائرة من روسيا احترقت بهما، وحملا إلى صنعاء، وقبرا بخزيمة في صفر سنة ١٣٨٠ هـ.

والحجري بفتح الحاء المهملة وسكون الجيم، وقيل بالنسبة راء والشين إلى إب لهم من ذي رعين» ا. هـ. وذكر السيد أحمد الشامي في كتابه رياح التغيير في اليمن طرفاً من أخباره.

السيد العلامة محمد حسن الوادعي (١٢٩٢ هـ - ١٣٦٩ هـ)

قال صاحب نزهة النظر في ترجمته:

«هو السيد العلامة محمد بن حسن الوادعي القاسمي الحسني. ولد بمدينة وادعة حاشد في سنة ١٢٩٢ هـ، وحفظ القرآن والمختصرات، ثم أخذ عن السيد العلامة سيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين، وشيخ الإسلام القاضي علي بن علي اليماني، ورحل لطلب العلم إلى صنعاء واستقر بها مدة، ثم رحل إلى جبل الأهنوم، فأخذ عن القاضي عبد الله بن أحمد المجاهد، وقرأ على ابن أخيه القاضي عبد الوهاب بن محمد المجاهد في الفقه والأصول والمعاني والبيان، وأخذ عن العلامة صفي الدين أحمد بن عبد الله الجنداري في الحديث وأصول الفقه، وعن العلامة لطف الله بن محمد بن شاكر في النحو والصرف. ولم يزل مكباً على طلب العلم حتى حقق المفهوم والمنطوق، وصار علماً من الأعلام، وأكب على المطالعة بذكاء ونشاط ونظر في الأدب، واستجار من علماء كثيرين، منهم سيف الإسلام محمد بن الهادي، وسيف الإسلام أحمد بن قاسم حميد الدين، والسيد العلامة قاسم بن الحسين أبو طالب وعن الحسن بن علي العمري في صحيح مسلم وغيره، والقاضي محمد بن عبد الله الغالبي، وشيخ الإسلام القاضي علي بن علي اليماني.

وولاه الإمام يحيى في سنة ١٣٢٧ هـ القضاء بمدينة خمر ببلاد حاشد، ثم نقله الإمام إلى بلاد خولان الشام عاملاً مؤيداً لسيف الإسلام محمد بن الهادي إلى الأهنوم قام صاحب الترجمة بجميع الأعمال المهمة، واستقر بساقين وشمر لإصلاح الأطراف وعمارة الحصون وتوطيد الأمن في البلاد. وفي سنة ١٣٤٨ استفتح بلاد منه والعرو، وأرسل منهم المرشدين، وكانوا في جاهلية، فعرفوا معالم الدين وعمروا المساجد. وأزال العادات القبيحة.

ولما كانت الحرب بين حكومة الحجاز والإمام يحيى في سنة ١٣٥٤ سار إلى بلاد ابن سعود رئيساً للوفد اليمني السعودي بظهران، لإزالة الخلافات الناشئة بين المملكتين من أجل الحدود.

في سنة ١٣٥٦ هـ سار إلى مكة للحج وكان مرامه الاختفاء عن الملك، فلم يتم، وأعجب به الملك عبد العزيز. وبعد عودته من الحج استقر بحصن السنارة وحصنه، وعمر فيه مسجداً عجيباً، وفعل بجنبه سداً للماء عظيماً.

وفي سنة ١٣٦٧ هـ طلبه الإمام يحيى إلى صنعاء لتولي رئاسة الاستئناف، فعرج على وطنه مدينة وداعة، وفاجأه خبر مقتل الإمام يحيى. ولما أخذ الإمام أحمد بثأر والده وسكنت الفتن، ولاه الإمام أحمد رئاسة الاستئناف، فأقام بها أحسن قيام، وقد بين العلم والرئاسة وحسن الخلق. وكانت له عظمة في الصدور وحب عند الجمهور، وكان لين الجانب، سهل الحجاب. وله (بهجرة وادعة) مصالح عظيمة، منها إصلاح المناهل وعمارة المساجد وإصلاحها. وتوفي في ذي القعدة سنة ١٣٦٩ هـ.

الواعظ محمد بن قاسم أبو طالب (١٣٢٠ هـ - ...)

ترجمه صاحب نزهة النظر فقال:

«هو العالم الواعظ السيد محمد بن قاسم بن أحمد أبو طالب القاسمي الحسني. ولد بالروضة سنة ١٣٢٠ هـ ونشأ بها وحفظ القرآن عن ظهر قلب، وحفظ المختصرات، وأخذ في علم العربية والفقه والحديث. ومن مشائخه السيد العلامة أحمد بن علي الكحلاني، والسيد عبد الله بن عبد الكريم أبو طالب، والسيد أحمد بن عبد الله الكبسي، وغيرهم.

وهو خطيب واعظ فصيح، قام بالخطبة في جامع صنعاء وجامع الروضة طيلة أيام، ورافق السيد العلامة محمد بن محمد زبارة المؤلف إلى العراق لزيارة المشاهد.

ولما ندد في خطبته بحكومة الإمام يحيى حبسه الإمام يحيى مع القاضي محمد بن محمود الزبيري في الأهنوم مدة من الزمن.

وهو إمام مسجد قبة المهدي عباس، وله صوت حسن، وأخلاق فاضلة، وتواضع وزهادة. ملازم للطاعة وقراءة القرآن الكريم، وله خط حسن. حصل كثيراً من الكتب المفيدة» ا. هـ.

هذا وقد أخبرني أحد أقربائه أن المترجم له توجه بعد الثورة في طريقه إلى مدينة تعز، لزيارة ولده الذي كان موظفاً بها، وفي أثناء الطريق دخل إلى مسجد الإمام يحيى بن حمزة بمدينة ذمار، لأداء الصلاة وبينما هو ساجد وافاه الأجل المحتوم خلال سجوده، رحمه الله.

حسن بن أحمد السياغي (١٣٢٦ هـ - ١٤٠٧ هـ)

ممن ترجمهم صاحب النزهة فقال:

«هو القاضي العلامة حسن بن أحمد بن أحمد السياغي. مولده في شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٦ هـ، ونشأ بصنعاء، وتخرج على والده سابق الذكر في علم العربية والفقه، وأخذ عن العلامة أحمد بن سعد مهدي، وعن السيد العلامة أحمد بن علي الكحلاني، وعن السيد محمد بن زيد الحوثي والعلامة إسماعيل بن علي الريمي والحاج حسن السرجي، كما أخذ عن شيخ الإسلام القاضي علي بن علي اليماني ونجله القاضي عبد الله بن علي اليماني، وأخذ أيضاً عن المولى الحسين بن علي العمري في شرح الأزهار وبهجة المحافل وبهجة الزمان لمحمد بن يحيى بهران، وجميع صحيح البخاري وسنن النسائي وصحيح مسلم، وشرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد، والروض النضير شرح مجموع الفقه الكبير للإمام زيد بن علي، تأليف القاضي حسين بن علي أحمد السباعي.

ومنهم القاضي العلامة يحيى بن محمد الإرياني، ومنهم السيد العلامة العباس بن أحمد بن إبراهيم، ومنهم السيد العلامة زيد بن علي البرطي.

وقد شاركه كاتب الأحرف في أكثر هذه المقروءات، وقد قام صاحب الترجمة بوزارة الأوقاف في عهد الجمهورية، وعمل مبرات كثيرة بهمة ونشاط، وكان في أيام وزارته للأوقاف قد ضم جانباً من صرح الجامع الكبير إلى مؤخرة الجامع، فكانت من الحسنات لكثرة المصلين كما قام في أيام وزارته ببناء كثير من الدكاكين التي ينتفع بها الناس، وتعود مصالحها لأهل العهد القائمين بإحياء المساجد في العاصمة وخارجها.

وصاحب الترجمة ذو أخلاق كريمة، ونشاط في تحصيل المعلومات التاريخية وغيرها» اهـ وهو الآن يشغل عمل وكيل رئيس المجلس الأعلى للقضاء.

محمد بن عبد الله العمري (١٣٣٤ هـ ـ ١٣٨٠ هـ)

ترجمه صاحب النزهة فقال:

«العلامة الأديب محمد بن عبد الله بن حسين علي العمري. مولده في جمادى الأولى سنة ١٣٣٤ هـ، ونشأ في حجر والده وجده المولى الحسين ابن علي، وحفظ القرآن عن ظهر قلب، وأخذ في كل من النحو والفقه والحديث، وتحلى بالأخلاق الفاضلة والشمائل الحميدة. لين الجانب، كريم الخلق.

وكان جده يتوسم فيه النجابة من صغره، وأجازه إجازة عامة. وانخرط في سلك السياسة، وقام برحلات إلى خارج اليمن، وتولى منصب رئاسة الديوان للإمام الناصر أحمد، ووزارة الخارجية. وكان ميالاً إلى نشر العلم، واشترك مع سيف الإسلام وعبد الله ابن الإمام يحيى في طبع مجموعة من الكتب النفسية، وكان قد شرع في تأليف كتاب سماه (ديوان الأدب اليمني العصري)، ونفحة من نفحات أدب اليمن). وتوفي في صفر سنة ١٣٨٠ هـ بحريق الطائرة وهو في طريقه مع القاضي محمد الحجري إلى الصين».

السيد العلامة حسين بن علي الويسي (١٣٣٠ هـ ـ ...)

قال صاحب النزهة في ترجمته:

«هو السيد العلامة حسين بن علي الويسي. مولده بقرية ويس تابع قضاء كوكبان، في شهر رمضان سنة ١٣٣٠ هـ الموافق سنة ١٩١٠، وهاجر إلى صنعاء، وأخذ عن السيد أحمد بن علي الكحلاني، وأخذ عن مدينة الطويلة عن السيد علي بن حمود شرف الدين، والشيخ أحمد الشيخ، وتولى أعمال الكتابة في مقام الإمام، وعين مندوباً في عدن أيام الإمام يحيى، ورافق البعثات الواصلة إلى اليمن للتفتيش عن المعادن، وألف كتاب (اليمن الكبرى) وقد طبع في القاهرة، وتولى أعمالاً كثيرة ذات أهمية.

ولما مات الإمام أحمد كـان القبض عليه إثـر الانقلاب (ثـورة ٢٦ سبتمبر) وكان من المعدومين، وعمره ٥٢ سنة. رحمه الله». ا هـ.

والحق أن هذا الرجل كان من نوابغ اليمن المعدودين، وآية نبوغه أنـه من خـلال مطالعـاته ومـرافقاتـه لبعض البعثات الجيـولوجيـة العاملة في شمال اليمن وجنوبه، تمكن من معرفة ذلك العلم، وألف فيه كتـابه اليمن الكـبرى، وعندي الجزء الأول منه. وهويشهد بمقدار تمكنه في الجيولوجيا، إلى جانب ما كان له من العلوم الشرعية والأدبية والتاريخ والأنساب.

العلامة الشهيد محمد محمود الزبيري (... - ١٣٨٥ هـ)

أجهر أصوات الإصلاح باليمن في القرن الرابع عشر قال صاحب النزهة:

«القاضي العلامة محمد محمود الزبيري. مولده بصنعاء، ونشـأ بحجر والـده القـاضي محمود، وأخـذ عن الأعلام، وحفظ القـرآن عن ظهـر قلب، ومـال إلى الأدب، وقال الشعر الجيد، من ذلك قوله متوسلاً:

يا رافع السبع السموات الطباق العالية
يا ملجأ العبد المكبل في البلاد القاصية
يا سامع الوقع الخفي من الدموع الجارية
يا من يرى الكبد الممزق والجروح الدامية
يا جابر العظم المهيض من الضلوع البالية
رباه مالي لم أزل في محنة متوالية
إما غريباً شارداً أو موثقاً في هاوية
رباه عبدك واقف لك في الليالي الداجية
يدعوك بالنفس المبلبل والدموع الجارية
أنت الرحيم، فليس إلا أنت تكشف ما بيه
أنت العليم فليس يخفى عنك مني خافية

ونسب إليه هذان البيتان:

يقولون لي ما بال رأسك أبيض　　فقلت شعاع الفكر ليس بمستور
وكيف يكون الشعر أسود فاحماً　　ومنبت ذاك الشعر من منبع النور

ومن شعره وخياله الذي كتبه إلى أهله وهو في القاهرة سنة ١٣٥٩ هـ قوله:

إليكم أيها الأحباب مني　　تحية قادم بعد اغتراب
وها هي صورتي وافت إليكم　　وفازت باللقاء والاقتراب
تكاد لشوقها تفتر شوقاً　　وتمعن في التحدث والخطاب
ولما لم أجد للوصل باباً　　أتيت أزوركم طي الكتاب
وليتك أيها الرسام تفضي　　لأحبابي ما فعل النوى بي
أتحكي البشر في عيني زوراً　　وتغمل عن دموعي وانتحابي
فلو نفدت رسومك في ضلوعي　　عثرت بها على قلب مذاب
ولو صورت يا فنان وجدي　　عرضت على الورى صور العذاب

وقد ألمّ في هذه الأبيات بما يدل على شاعريته الفذة، وقد بذل كل مجهوده في طلب الإصلاح في شعره وخطبه. ولما كانت الثورة اليمنية سنة ١٣٦٧ هـ ضد الإمام يحيى وفشلت بقيام الإمام أحمد، فر صاحب الترجمة إلى الهند مرافقاً السيد عبد الله بن علي الوزير فتوفي هنالك، وعاد صاحب الترجمة إلى اليمن بعد الانقلاب الأخير. ولما لم يكن الأمر كما يراه خرج في جماعة منهم القاضي عبد الرحمن الإرياني، والأستاذ أحمد نعمان إلى برط، فكان هنالك اغتياله في غرة ذي الحجة سنة ١٣٨٤ هـ، في محل ارجوزة من جبل برط، وكان المباشر للاغتيال بعض بني نوف، ونقلت جثته إلى صنعاء، وقبر جنوب المدينة، وحزن عليه كثير من الناس، ورثاه كثير من الشعراء، واختلفت الأوهام في منشأ المؤامرة على اغتياله.

وله قصائد طنانة في مناسبات كثيرة، ونالته متاعب في سبيل مطالبته

للإصلاح، وحبس بالأهنوم أيام الإمام يحيى، وكانت وفاة والده سنة ١٣٤٧ هـ. عن خمس وأربعين سنة، ومولده بصنعاء.

وكان سخي النفس، محمود السجايا، وولاه الإمام يحيى القضاء في بلاد حيس والمخاء، وتولى بعض أعمال التجارة.

وجده القاضي أحمد بن لطف الباري كان من بلغاء اليمن في آخر القرن الثالث عشر، وقد ترجم له السيد العلامة محمد بن زبارة في نيل الوطر، وذكر بعض أدبه ولطائفه وشعره.

ولصاحب الترجمة ولد صغير اسمه عمران جبر الله مصابه بوالده. وممن رثى صاحب الترجمة الولد عز الدين محمد بن عبد الله الجرافي بأبيات، منها:

ثوت الزعامة فهي جسم يقبر ... وحشاشة عثر السما تخطر
وقضى الزبيري في أرجوزه نحبه ... برصاص بغي، كسرها لا يجبر
الله أكبر، كيف أودع في الثرى ... وتراجعت عنه الجموع تكبر؟!
ومضى كأن كفاحه أسطورة ... بسجل تاريخ السعيدة ينشر

إلى آخرها» ا. هـ.

هذا، ويعد المجاهد الزبيري إحدى الشخصيات المركزية التي تعودت اليمن أن تنجبها في قرونها الإسلامية فإذا كان الشوكاني هو شخصية القرن الثالث عشر، والأمير في القرن الثاني عشر، والوزير في القرن التاسع، فالمجاهد الزبيري هو أبرز الشخصيات الإسلامية في اليمن في القرن الرابع عشر، وقل أن توجد شخصية نابهة معاصرة له إلا ولها به اتصال، ومعه شجون وشؤون.

وجماع القول فيه، أنه أذاب أيامه وأعوامه منذ بلغ رشده في خدمة دينه ووطنه، عن طريق المطالبة بأمرين أساسيين، هما صلاح الدين والدنيا الأول هو تحكيم الشريعة الإسلامية في شؤون الحكم والإدارة وحياة المجتمع والثاني هو

فرع نابع من الأول جعل الحكم شورى، والاستفادة من إنجازات العصر، صناعياً وزراعياً وصحياً.

هذان هما المطلبان اللذان من أجلهما عاش، ولهما كافح، وعنهما نافح طوال حياته، ففي سنة ١٣٦٠ هـ قدم برنامج الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للإمام يحيى، فسجنه تسعة أشهر بجهة الأهنوم، ومن سنة ١٣٦٣هـ إلى سنة ١٣٦٧ لبث يطالب بتطبيق الشريعة في الزكاة، إيراداً ومصرفاً، ثم بتطبيق الميثاق الوطني الذي شارك في صياغته الإمام حسن البناء والفضيل الورتلاني، كما ذكره الشامي في كتابه (رياح التغيير في اليمن).

ولم تكن نية الزبيري. ولا اتجاهه قتل الإمام يحيى، ولكن للمشرع من بعض المشاركين في الحركة دفع بالأحداث في غير اتجاهها المقصود، فكان قتل الإمام يحيى، ثم كانت انتكاسة ثورة الدستور.

ولجأ الزبيري إلى جمهورية باكستان، واستمر بها من سنة ١٩٤٨ إلى سنة ١٩٥٢ مدرساً بجامعة العباسية (بلاهور)، ومذيعاً بصوت باكستان العربي، ومشاركاً في المؤتمرات الإسلامية المنعقدة بها، واستطاع أن يكسب الكثيرين لنصرة قضيته. وكان انتاجه الشعري حين ذاك مشبعاً بالروح الإسلامية، مما يجعله متميزاً عن شعره قبل ذلك وبعده.

وفي سنة ١٩٥٢ لجأ إلى مصر يجدد قيام ثورتها، وعمل على قيام الاتحاد اليمني بالقاهرة، وقام من أجل ذلك لزيارتها إلى السودان، لكسب انضمام المغتربين اليمنيين، وشرق إفريقيا ونجح في تنظيم الاتحاد، وإعادة المعارضة السياسية في تنظيم أفضل.

واستمر يواصل نشاطه حتى سنة ١٩٦٢، حين قامت الثورة اليمنية بسبتمبر، فعاد إلى الوطن، وعمل على تشكيل مجلس الشيوخ كنواة للمجلس الشورى، وعقد مؤتمر نمران سنة ١٩٦٣، وحاول إقناع الملكيين بقبول الوضع

الجمهوري في مؤتمر الكويت في السودان، وعمل على وضع الدستور اليمني الأول، وأسس الجيش الشعبي الذي كان يقوده بنفسه في بعض المعارك، وشغل عدة مناصب وزارية، ثم استقال في يناير سنة ١٩٦٤ نتيجة لظروف سياسية أهمها تدخل القوات المصرية في شؤون الإدارة اليمنية. وأسس حزب الله في جبل برط، واشتهر في ٩ ذي الحجة سنة ١٣٨٥هـ. وقد أفردت كتاباً مشتملاً في تاريخ حياته[1].

زيد بن علي الموشكي (١٣٣٣ هـ - ١٣٠٦٧ هـ)

قال صاحب النزهة في ترجمته:

السيد العلامة الشاعر الأديب زيد بن علي, محمد الموشكي. لم يذكر المؤلف المصدر الذي نقل عنه. مولده بمدينة ذمار سنة ١٣٣٣ هـ تقريباً، ونشأ بحجر والده، وأخذ عن علماء ذمار وصنعاء، ودرس بها، وتعين مدرساً في هجرة السرمع أنجال الإمام يحيى، ورحل إلى تعز، واتصل بمقام الإمام أحمد، ولم يطلب له المقام فرحل إلى عدن مع بعض الأحرار، فكان هدم بيته بذمار.

وساند الثورة سنة ١٣٦٧ هـ ضد الإمام يحيى، فكان القبض عليه، وأعدم بحجة مع غيره من القائمين بالانقلاب.

وكان كريم الأخلاق، جيد الحافظة، وله شعر حسن. والموشكي بالشين المعجمة وآخره بالنسبة إلى موشك عزله من مغرب عنس». ا. هـ.

وظهر من إفادة خاله القاضي عبد الله عبد الوهاب الشماحي. بمركز الدراسات، أن الموشكي ولد بشهارة سنة ١٣٢٩ هـ، ودرس بذمار، ثم بدار العلوم بصنعاء، وتخرج منها بتفوق. وغالب شعره يفيض بحدة الشعور الإصلاحي، ومن منطلق إسلامي، والسمة البارزة في نفسيته الجرأة والصراحة. ويذكر الأستاذ أحمد الشامي أنه أيام سجنه بحجة كان عاكفاً على كتاب الله. رحمه الله. وقد نشر مركز الدراسات بصنعاء طائفة من شعره.

---

(١) وله كتب ثلاثة نثرية مطبوعة، وطبع من شعره ثلاثة دواوين.

حسين بن محمد الكبسي (١٣١١ هـ - ...)

أحد نوابغ اليمن في القرن الرابع عشر الهجري ترجمه صاحب النزهة فقال:

«هو العلامة السياسي المحنك حسين بن محمد بن عبد الله مولده في شهر ربيع الأول سنة ١٣١١ هـ بقرية نيعان من بلاد خبان، وأخذ عن أخيه الحسن بن محمد، وفي ذمار عن الفقيه صالح بن أحمد الحودي، والقاضي علي بن محمد الأكوع، والسيد حسن بن زيد الديلمي. ورحل إلى صنعاء فأخذ عن السيد حسين بن محمد أبو طالب سالف الذكر، والعلامة إسماعيل بن علي الريمي، والسيد العلامة محمد بن زيد الحوثي، والقاضي عبد الكريم بن أحمد مطهر، والمولى الحسن بن علي العمري.

وكان ذا ذكاء وفطنة، ودرس بجامع صنعاء، وبالمدرسة العلمية، وتولى أوقاف الترب، ورافق سيد الإسلام الحسن بن الإمام يحيى إلى أوروبا سنة ١٣٥٦ هـ، ثم رافقه أيضاً إلى اليابان، وزار بلاد الصين، وعاد وقد توسعت مداركه. وتولى فصل الخصومات، ولازم ديوان الإمام يحيى.

ولما كان اغتيال الإمام يحيى وقلب نظام الحكم، كان من المتهمين بذلك، وحبس بحجة وأعدم هناك مع آخرين» ا. هـ.

ولقد أثنى محمد محمود الزبيري في كتاباته الكثيرة على علم الكبسي واستقامته، كما أورد الأستاذ أحمد محمد الشامي خبراً طريفاً عما حدث للكبسي في اليابان أيام زيارته لها مع حسين ابن الإمام يحيى، وكان الكبسي يومها وزيراً للخارجية. ويتجلى من هذا الخبر كياسته وحنكته، ولولا طوله لأوردناه.

كما ذكر الشامي أيضاً أن الكبسي كان يردد عند خروجه إلى ساحة الإعدام: «غداً نلقى الأحبة محمداً وصحبه»، وأنه كان لقتل الكبسي والحورش والسراق ومحيي الدين العنسي، وقع أليم في نفوس الأهلين، وعز ذلك وقوع

صواعق مخيفة مساء قتلهم وصلبهم مما اضطر نائب الإمام بحجة إلى المسارعة بدفنهم.

راجع ما كتبناه في ترجمة الحورش الآتية عن استشهاد الكبسي وزملائه الثلاثة.

المؤرخ محمد بن علي الأكوع (١٣٢١ هـ - ...)

محقق تراث اليمن التاريخي. قال صاحب النزهة في ترجمته:

«هو القاضي المؤرخ النسابة محمد بن علي الأكوع. مولده بمدينة ذمار سنة إحدى وعشرين وثلاث مئة وألف، وبها نشأ وأخذ عن والده وعن علماء ذمار، ثم انتقل إلى مدينة إب للتدريس، وتخرج به عدد كبير، وأخذ في مطالعة كتب العلم والأدب والتاريخ، وزار محلات متعددة في أرجاء اليمن قاصداً زيادة معارفه ومعلوماته التي انتفع بها في التاريخ.

وفي سنة ١٣٣٦ هـ كان صاحب الترجمة من الجماعة الذين أسسوا الجمعية الوطنية، وأطلقوا عليه (جمعية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)[1] ومن أجل ذلك حبسه الإمام بحجة حتى سنة ١٣٦٣هـ، فأطلق.

ولما كان الانقلاب ضد الإمام يحيى الذي قتل فيه الإمام يحيى، كان القبض عليه مرة أخرى سنة ١٣٦٧ هـ. وبقي مسجوناً بحجة حتى سنة ١٣٧٥ هـ، فأفرج عنه، وعين حاكماً بذي سفال.

ولما كانت ثورة اليمن الأخيرة وأعلنت الجمهورية، استدعي إلى صنعاء للمساهمة مع زملائه في بناء الدولة الجديدة، فعين نائباً لوزير العدل ووزارة الأوقاف. وبعد برهة من الزمن أقيمت لجنة لوضع التأليف والتاريخ اليمني، وكان صاحب الترجمة رئيس اللجنة».

(١) الجمعية التي أسسها الأكوع هي (جمعية الإصلاح).

وله مشاركة كبيرة في تحقيق كتب التاريخ اليمني، كالمفيد لعمارة، وقرة العيون للديبع، والإكليل للهمداني، وصفة الجزيرة أيضاً له.

ولولا مغالاته في قحطانيته، مما يجعله يتحامل أحياناً على بعض العلويين، ويدافع أحياناً عن مثل الأسود العنسي وعلي بن الفضل، لكان فضله عظيماً.

علي بن علي اليماني (١٢٧٢ هـ - ١٣٥٠ هـ)

هو شيخ الإسلام في عصره، علي بن علي اليماني. وكان من حقه التقديم على غيره لتقدمه العلمي والزمني، ولكن فاتنا ذلك.

قال صاحب النزهة:

«مولده بصنعاء في تاسع صفر سنة ١٢٧٢ هـ. قرأ القرآن وجوده على كثير من المشائخ، وحفظ المختصرات عن ظهر قلب، منها: الأزهار، والغاية، والشافية، والتلخيص، والكافية، وغيرها. وأخذ عن مشائخ عصره في جميع الفنون والفقه والأصول والنحو والتفسير، وغير ذلك، منهم: العلامة عبد الرازق ابن محسن الرقيحي، والعلامة أحمد بن رزق السياني، والعلامة الزاهد أحمد بن علي الطير، والعلامة أحمد بن محمد السياغي، والقاضي جمال الدين علي بن حسين المغربي، والمولى الحسين بن علي العمري، ورئيس العلماء السيد أحمد بن محمد الكبسي، وللسيد الحافظ إسماعيل بن محسن بن إسحاق، والشيخ الماسّ المهدي، والسيد العلامة قاسم بن حسين بن المنصور.

وفي حال الأخذ عن هؤلاء المشائخ، كان يدرس لله أهل العلم في جامع صنعاء، حتى صار علم الاجتهاد، وعمدة النقاد، وخلاصة الحفاظ.

وكان عالماً عاملاً، وزاهداً فاضلاً، كثير التلاوة لكتاب الله، ملازماً

لـلأذكار، منـظوراً بعين الرعاية، معظمـاً عند أولى التقـوى والديـانة. وكـما قيـل:

يـدع الـكـلام فـلا يـراجـع هـيـبـة
والحـاضرون نـواكس الأذقـان

أدب الـوقـار، وعـزّ سـلطان الـتـقـى
فـهـو المـطاع ولـيس ذا سـلطان

وقـد أجازه كثير من مشائخـه، منهم القـاضي محمـد بن أحمـد الحـراسي، ورئيس العلماء السيـد أحمـد بن محمـد الكبسي، والسيـد الحـافظ إسـماعيـل بن محسن بن إسحاق، وغيرهم.

وهـاجـر من صنعـاء سنـة ١٣٠٩ هـ إلى الإمـام المنصـور محمـد بن يحيى حميـد الدين وهو بالأهنـوم، فقابله بـالإجلال والتعـظيم، ونصبه للقضـاء العـام والتصدر على عموم الحكام، ولقبه بشيخ الإسلام. واستمر مرجحاً لـلأحكام، ولازم الإمـام في الفلوات والهضاب عنـد خروج الأتـراك لقصـد الإمـام إلى بلد حاشد.

ولما توفي الإمام المنصور محمد بن يحيى وقام ابنـه المتوكـل على الله يحيى، لازمه صاحب الترجمة في جميع حركـاته. وكـان يتردد إلى أهله بخيـوان، فلما كان الصلح بين الإمام يحيى والأتراك عـاد صاحب الترجمة إلى صنعاء، واستقـر بها، وصار مرجعـاً للأعـلام في طلب العلم، وأخذ عن الأكـابر في التفسـير والحديث والأصول.

وممن أخذ عنه: والده القاضي العلامة عبـد الله بن علي، والسيـد العلامـة أحمد بن علي الكحلاني، والسيد العـلامة محمـد بن أحمد بن قـاسم حميد الـدين، والقاضي عبد الله بن محمد السرجي، والسيد العلامة قـاسم بن إبراهيم. وأخـذ عنـه كاتب الأحـرف عبد الله بـن عبـد الكريم الجـرافي في جميع سبـل السـلام، وسنن أبي داود، وشطر من مغني اللبيب، وغير هؤلاء.

وممن أخذ عنه سابقاً: الإمام يحيى، والقاضي الصفي أحمد بن محمد الجرافي، وسيف الإسلام محمد بن الهادي شرف الدين، وغيرهم.

وكان صاحب الترجمة قد حصل بخطه كثيراً من كتب العلم، فكتب تفسير الكشاف ومغني اللبيب، وكل منهما نسختان، وكتب غير ذلك، وله شعر حسن.

وفي سنة ١٣٤٠ كلفه الإمام يحيى بالاتجاه إلى مدينة تعز لحل بعض مشاكلها، وفصل الخصومات بين أبنائها، وذلك في الأموال والخيول الموقوفة على المساجد والمدارس في لواء تعز ولما تأكد من صحة وقف بعض الخيول على المساجد والمدارس، أصدر حكماً جازماً بوقفيتها وقال في ذلك:

قد صح لي ما به حكمت على ... عينين نضاختين من صبر
إحداهما عين حشية، وكذا ... المدعو عند الأولى بالسور
بوقف كل على المساجد والمدارس ... الدراسات فأعتبر
بأوجه نيرات اعتمدت ... لدى أئمتنا بلا نكر

وكانت وفاته بمدينة صنعاء في شوال سنة ١٣٥٠ هـ».

أحمد بن أحمد المطاع (١٣٢٥ هـ - ١٣٦٧ هـ)

أحد نوابغ اليمن في القرن الرابع عشر. قال صاحب النزهة:

«هو السيد الشهيد أحمد بن أحمد المطاع، ذكر زبارة أنه عباسي علوي، أي ينتسب إلى العباس بن علي بن أبي طالب. ولد بصنعاء سنة ١٣٢٥، وبها تلقى علومه القرآنية والفقهية واللغوية التاريخية، ونشأ محباً للأدب والتاريخ.

اشترك مع القاضي عبد الكريم أحمد مطهر في تحرير صحيفة الإيمان وكان عضواً في لجنة تأليف التاريخ اليمني، التي شكلها الإمام يحيى برئاسة المؤرخ السيد محمد زبارة، وكان المطاع موجوداً بميدى سنة ١٣٤٤، وله مراسلات

شعرية مع السيد محمد حيدر النعمي أحد فضلاء تلك الجهة».

ذلك مجمل ما ذكره عنه صاحب نزهة النظر. وذكر الدكتور عبد العزيز المقالح ضمن دراسته عن حياة الشهيد أحمد الحورش، أن المطاع كان يعمل بالجيش، ولم يوضح طبيعة هذا العمل. أما القاضي عبد الله عبد الوهاب المجاهد الشماحي زميل المطاع، فإنه يذكر أن المطاع كان مستشاراً للمعارف والصحافة سنة ١٣٥٣، وأنه استغل منصبه هذا للقيام بجولة شاملة في اليمن باسم تنظيم المدارس، بينما كان غرضه الأساسي الاتصال بالشخصيات الهامة في المناطق، وترتيب الخطة لقيام تنظيم يربط رجال الإصلاح خارج صنعاء بالمصلحين داخلها. وكانت وسيلة النقل هي بغلة قطع بها الجبال والسهول، من صنعاء إلى ذمار فإب فتعز فزبيد فالحديدة فحجة، وذلك أقصى ما يمكن لجوال أن يبلغه حين ذاك في حواضر اليمن وأريافها.

وبعد تمام الجولة تم قيام التنظيم الذي عرف بهيئة النضال، وكان المطاع رئيساً له سنة ١٣٥٤. ثم أمر الإمام بسجنه مع مجموعة، من أهمهم: القاضي عبد الله بن محسن العزب بقصر غمدان سنة ١٣٥٥، وبعد سنوات أطلقوا. وعمل المطاع مع أحمد بن عبد الوهاب الوريث في تحرير مجلة الحكمة، وعمل الإمام على تفريق أعضاء الهيئة، فعين العزب حاكماً لو صاب، والشماحي حاكماً لحيس.

ويذكر الشماحي أيضاً أنه بعد قيام ثورة سنة ١٣٦٧ هـ حاول بعض الثوار الأخذ من خزينة الدولة ألف جنيه في تكاليف بعثة إلى الخارج، وكانت الخزينة مغلقة بالبناء في حياة الإمام يحيى، فأصر المطاع الذي كان وزيراً للتجارة والصناعة في حكومة الثورة، على تدبير ذلك المبلغ من جهة أخرى، حتى لا تفتح الخزينة، وتتسلل إليها أيدي العابثين. وقد أعدم رحمه الله بحجة سنة ١٣٦٧ هـ.

عبد الله بن محسن العزب (١٣٢٢ هـ ـ ١٣٦٤ هـ)

هو العلامة الكاتب البليغ والشاعر المجيد، عبد الله ابن محسن العزب. ولد بقرية آل السفياني من بلاد الحيمة الداخلية، ويرجح الأستاذ عبد الرحمن قاضي في مقال كتبه عنه أنه ولد سنة ١٩٠٣م يتيماً فرعاه عمه، فتلقى دراسته الأولية بمركز العر بالحيمة الداخلية، ثم انتقل به حين استبان نبوغه إلى صنعاء، حيث التحق بدار العلوم. ويقال: «إنه كان يستوعب منهج السنتين في سنة واحدة.

وكان من أبرز زملائه زيد بن علي الموشكي، الذي كان على تعاطف فكري وأدبي معه.

وعند التخرج من الدراسة عين أستاذاً، ثم مفتشاً بوزارة المعارف. وكان من أبرز أعضاء هيئة النضال التي يرأسها المطاع، ودخل معه السجن سنة ١٣٥٥، ثم أفرج عنهم بعد سنوات.

ولعل الإمام يحيى رغب في إبعاده عن صنعاء، وتفريق جماعة المطاع، فعينه حاكماً لوصاب السافل، ثم حاكماً لحيس التي مكث بها يواصل اتصالاته بزملائه بصنعاء وكانت موضوعاته الأدبية من أجمل ما تفخر به مجلة الحكمة، وعرفت من والدي رحمه الله ـ وكان كاتبه الخاص ـ أنه كان يزمع تأليف كتاب في الأدب، وحين فتكت مجاعة سنة ١٣٦٣ باليمن، عمل على شراء كميات من الطعام ثم يبيعها وينفق أرباحها في إطعام الجائعين بحيس، وكان ينفق قدحين يومياً طوال خمسة أشهر أو ستة، إلى جانب شراء أكفان للموتى الذين لا يوجد من يكفنهم، وتلك مأثرة كبرى نسأل الله أن يثيبه عليها خيراً.

وقد أصيب في آخر أيامه بمرض أوجب نقله إلى تعز، فقضى بها نحبه سنة ١٣٦٤.

وإن الشذرات المفرقة من شعره ونثره تشهد أنه القلم الأول في جيله.

والمؤسف أن يتبدد تراثه القيّم، وفي اليمن اليوم المؤسسات الأدبية التي تعني بما هو أقل جدوى وأضعف مكانة.

ومن جميل ما أحفظه له قوله ـ رحمه الله ـ في رثاء صديق ـ وما أكثر رثاءه ووفاءه لأصدقائه:

بعدت وأنت قريب المقر وغبت وأنت أمام النظر
فبيني وبينك بعد السما وبيني وبينك مرمى الحجر

أحمد حسن الحورش (... ـ ١٣٦٨ هـ)

هو الأستاذ المربي الشهيد أحمد حسن الحورش، من أسرة فقيرة مغمورة بشارع عقيل، أحد شوارع صنعاء القديمة. ذكر الدكتور عبد العزيز المقالح في دراسته عنه، أن بطاقته تحدد ميلاده سنة ١٩٢٠. تلقى دراسته الأولى بمدرسة الأيتام بصنعاء وتوجد في قصة هذا اليمني أسرار أول بعثة يمنية طلابية تغادر مملكة الإمام يحيى إلى الخارج، وأسرار بواكير الثقافة العصرية المتسللة إلى اليمن من ثقوب ضيقة وأبواب خلفية، فقد وصل السيد حسين الحبشي الحضرمي ـ رحمه الله ـ إلى صنعاء قادماً من جاوة الأندونيسية، واستقر بها، ورغب في تعليم أولاده وأولاد أخيه بالخارج، فاتصل باللواء محمد شائع سري، أحد أعلام اليمن في القرن الرابع عشر، ولعله كان قد تلقى دراسته باستانبول. فاتصل شائع بصديقه العراقي داود الوتري نائب رئيس مجلس الأعيان ببغداد، الذي حصل على منحة دراسية لأولاد الحبشي، وأولاد أخيه الأربعة، وستة يمنيين معهم. وكان من هؤلاء الستة أول عسكريين يمنيين يتخرجون من بغداد.

وأعادت حكومة بغداد الكرة، ومنحت لمجموعة أخرى من اليمنيين منحة دراسية، كان من أعضائها هذه المرة أحمد حسن الحورش، الذي كان وقتها مدرساً بالحديدة، ومنها سافر على باخرة إلى البصرة فبغداد. وكان ضعف قوته البصرية سبباً في منعه عن الالتحاق بالدراسة العسكرية، فألحق بدار المعلمين

العليا ببغداد. ويقول زميله الأستاذ زيد عنان: إنه كان متفوقاً على زملائه، ولم يكتف بمنهج الدار، وإنما كان يقبل على المكتبات فيعب منها في غير ارتواء، وكان يدخر مرتبه لشراء أكبر كمية ممكنة من الكتب، وقد عاد بألف كتاب، كما يقولون. وعلى يده دخلت كتب الكواكبي والعبيدي من رواد الصحوة الإسلامية، وكتب الفلسفات الأوروبية.

ويظهر أن همه الشاغل معرفة الوسيلة لإصلاح أوضاع وطنه، ولعله انضم إلى جماعة المطاع، ولبث أستاذاً بالمدرسة الثانوية بصنعاء، حتى اعتقل مع المطاع والعزب سنة ١٣٥٥. وبعد الخروج شارك بموضوعات تربوية في مجلة الحكمة، ثم غادر مع زميله محيي الدين العنسي إلى مصر، ثم عاد منها.

ويقول الدكتور المقالح: «إنه بعد قيام ثورة سنة ١٩٤٨ أودع لدى الشيخ علي الجبلي بعدن متاعه، وفيه قصاصات من أفكاره، وحين دخل سجن حجة سلم الجبلي الوديعة إلى الإمام أحمد، فكانت سبباً في قتله». ويذكر الأستاذ أحمد الشامي - زميله في السجن - أنه في فجر يوم استشهاده استيقظ الحورش، وأخبرهم أنه رأى تفاصيل مصرعه وزملائه الثلاثة، وحددهم بأسمائهم قبل أن يعلن السجان أسماءهم، وهم: الشهيد حسين الكبسي، الشهيد محيي الدين العنسي، الشهيد أحمد البراق، ورأى من النعيم الذي أعده الله لهم ما هون عليهم هول الموت. فاغتسلوا وتطهروا، وبعد حين نادى السجان بأسمائهم كما حددتها الرؤيا. رحم الله أولئك الرجال، وغفر لنا ولهم ولسائر المسلمين.

وكان استشهادهم بعد مرور عام على الثورة بميدان حورة سنة ١٣٦٨ هـ.

ومما يذكر عن الحورش، أنه كان يتردد على جامع صلاح الدين بصنعاء، ويدرس سبل السلام لمحمد بن إسماعيل الأمير، وتفسير محمد عبده للقرآن الكريم. أما كتاب النواة الأولى لمحمد حبيب العبيدي الذي كان الحورش يحث طلابه على استنساخه، فإنه من الكتب التي لا تشيب. وليت أبناء الجيل

يدرسونه، فإن مؤلفه هو مفتي الموصل الذي رفض مرتّب الإفتاء من الإنجليز.

أحمد محمد خليل الزبيدي (... ـ ١٤٠٣ هـ)

هو العلامة أحمد محمد خليل الزبيدي خطيب الجامع الكبير بزبيد. كان ـ رحمه الله ـ جامعاً لكثير من العلوم الشرعية واللسانية والطبيعية، ويقال: إنه كان يجمع عشرين علماً.

وأهم العلوم التي اشتهر بتحقيقها: علوم المساحة والفلك والرياضيات، من جبر ومقابلة وهندسة، وهي العلوم التي اشتهر بها أسلافه من آل الخليل، وفي مقدمتهم الشيخ أحمد عمر خليل الذي ترجمه الأهدل في النفس اليماني. ومشايخ المترجم له كثيرون، في مقدمتهم الشيخ حسين محمد الأصابي صاحب (التحفة)، و (الرحال في طلب العلم إلى الحرمين والشام ومصر)، وغيرهما، والألسن مجتمعة على فضل المترجم له، علماً وعملاً.

وكان شديد التواضع، وكثيراً ما كان يلبس لباس العامة حافي القدمين، يحسبه من رآه من دهماء الناس. وهو المحقق المتضلع في مختلف معارف العصر، ويكاد يندر وجود مثله اليوم.

مكث خطيباً لجامع زبيد عدة سنين حتى توفاه الله عن قرابة ثمانين عاماً في رجب سنة ١٤٠٣، كما أخبرني به الأخ العلامة محمد سعيد السحاري الزبيدي، وهو أحد تلامذة المترجم له.

عبد الله بن أحمد الحجري (... ـ ١٣٩٦ هـ)

هو القاضي عبد الله بن أحمد الحجري، سبق ذكر نسبهم في ترجمة أخيه محمد. وهو أحد رجالات اليمن المشهورين بالنزاهة والصرامة في الحق، والتقشف في العيش. وقد تولى عدة مناصب داخل اليمن وخارجها.

وبعد قيام الثورة في سبتمبر سنة ١٩٦٢ م، وبعد تحقيق المصالحة بين

اليمنيين، انضم إلى حكومة الثورة، وكان عضواً بالمجلس الجمهوري. وتولى رئاسة الوزراء، فكان أول رئيس وزراء يمني يضع في بيان وزارته قسطاً من الزكاة للفقراء، وفي مصارف الخير، ولما استقال المجلس الجمهوري عهد إليه برئاسة مجلس القضاء الأعلى، فقام بمهماته في نزاهة ويقظة.

ويذكر عنه عارفوه أنه إذا بلغه وقوع مظلمة على ضعيف، أو تراخ في إقامة حد، فربما كان يصل بنفسه إلى الجهة ويباشر القضية، وأخباره في ذلك كثيرة.

ثم عزم إلى بريطانيا لعلاج بعض أهله وهناك فاجأه بعض المجرمين بإطلاق الرصاص عليه، فسقط شهيداً ـ رحمه الله ـ سنة ١٣٩٦ هـ. وله مواقف مشكورة في قمع رؤوس الفساد في البلاد.

أحمد بن عبد الله الكهالي (... ـ ١٤٠٤ هـ)

هو القاضي الزاهد أحمد بن عبد الله الكهالي، نسبة إلى كهال، إحدى مناطق النادرة، وادي بناتابع لواء إب الأخضر.

ولآل الكهالي رجال في العلم والعمل، أبرزهم في عصرنا هذا هو المترجم له، فقد كان على جانب كبير من الزهد وتحري الحق وتولى بجهة الخوخة من سنة ١٣٦٤ إلى سنة ١٣٧٠، فشاع خبر عفته وتشدده في الحق، وقد عرفته شخصياً بعد قيام الثورة.

وهو أحد أعضاء المحكمة الاستئنافية العليا بصنعاء ومشاركاً اللجان الحكومية التي تنتدبها الدولة في الجهات، فوجدت نزاهته كلمة إجماع بين ليمنيين. توفي رحمه الله سنة ١٤٠٤ هـ.

أحمد محمد سعيد الأصنج (... ـ١٣٩٤ هـ)

آل الأصنج أسرة معافرية اشتهرت بالتجارة في عدن أيام احتلال الإنجليز لها. نبغ منهم عبد المجيد محمد سعيد الأصنج، كان له يد في مساعدة اليمنيين الشماليين خلال مقاومتهم لحكم آل حميد الدين، وهو الذي عناه السحولي بقوله:

يقول لي عبد المجيد الأصنج　　أين أبي؟ فأستحي وأحرج

وله شعر جيد في تقريض الوتر المغمور لعلي محمد لقمان، يدل على موهبة شعرية راقية.

أما سيد آل الأصنج فهو الصالح المجاهد أحمد محمد سعيد الأصنج، الذي كان له شأن في مقاومة الإنجليز، والتعاطف مع الحركات الإسلامية في أرجاء العالم. يقول عنه الأستاذ أحمد محمد الشامي في كتابه (رياح التغيير في اليمن):

«وفي اليوم التالي زرت الأستاذ أحمد سعيد الأصنج الذي كان معتقلاً، أو على الأصح يقيم إقامة جبرية في بيته، ولا يسمح له بمغادرة (عدن)، (كرتير)، والحرب العالمية لا تزال قائمة، والأستاذ الأصنج كان يرأس حزب الإصلاح، وينادي بالإستقلال وجلاء بريطانيا، ويدعو إلى الوحدة. وكان على صلة بزعماء المسلمين والعرب في مصر والسودان والهند والشام، وله رسائل ومؤلفات. وكان يكتب تلك الأيام كتاباً اسمه (الشمس في رائعة النهار)، وقد كلفني بكتابته».

ومن كلامه مخاطباً رجال الإصلاح اليمني المقيمين يومها بعدن، ما نقله الشامي، قال: «إنكم مقدمون على خوض تيارات مضطربة الأمواج من أجل محاربة الجهل والفقر والمرض والظلم في بلادكم. وكل ما أحذرك وإخوانك منه، هو التورط في ما ينشر من قريب أو بعيد إلى تحبيذ الوجود الاستعماري البريطاني في (عدن).

إنّ الاستعمار حيثما كان إنما هو قوة (صليبية) تعمل بكل وسيلة لإبادة الإسلام وشعائره ولغته العربية، لغة القرآن الذي بدونه لم يكن العرب، ولن يكون المسلمون شيئاً مذكوراً».

ثم قال: «أنا أقدر مشاعركم وما تعانون، ولو كنا أحراراً لساعدناكم بما يجب وبما نستطيع. ولكن الإنكليز هنا مثل إخوانهم الفرنسيين والطليان والروس والأمريكان، يكرهون الإسلام، ويخشونه، ويحاربون لغة القرآن وعلومه».

ثم استعرض ما يقوم به الغربيون من التبشير في أبناء المسلمين ا. هـ.

وأخيراً ذكر الشامي مكرمة للأصنج فقال: «وقد أطلق سراح الأصنج عندما لاحت علائم النصر للحلفاء ومما يجب أن أشيد به وأذكره أنه هو الذي كان سبباً في إنقاذ الأمير عبد الكريم، بطل الريف، من براثن النفي والسجن، فقد صادف أن مر على باخرة فرنساوية من عدن، في طريقه من منفاه القديم في إحدى جزر المحيط الهندي إلى منفاه الجديد في (فرنسا)، وكان معه أخوه وأولادهم وعوائلهم، فعرف الأستاذ أحمد سعيد الأصنج ذلك، وكتب برقيات إلى كل من محمد علي الطاهر، وعبد الرحمن عزام، ومحمد الخضر حسين، ومصطفى النحاس، يخبرهم فيها بأن الباخرة التي تقل بطل الريف وسائر عائلته، ستمر من قناة السويس وترسو في الميناء في اليوم الفلاني، وأن يعملوا جهدهم لإنقاذه.

وقد رتب شيخ الجامع الأزهر وحسن البنا وعزام والطاهر والنحاس باشا، خطة محكمة لتهريب بطل الريف مع أهله، والتجأ بقصر الملك فاروق فأجاره في قصة مشهورة.

ولقد قال لي الأستاذ محمد علي الطاهر قبل وفاته ببضعة أشهر سنة ١٩٧٥ م/ سنة ١٣٩٤ هـ: أتدري من الذي أنقذ بطل الريف من حبس الفرنساويين؟ قلت: لا، قال: إنه الأستاذ أحمد سعيد الأصنج، وروى القصة» ا. هـ.

وقد زارني الأخ عبد الرقيب علي محمد نعمان في رجب سنة ١٤٠٦ هـ، وأخبرني أن وفاته كانت قبل خمسة عشر عاماً من الآن بعدن، أي في سنة ١٣٩١ هـ تقريباً، وأوقفني على كتاب له صدر بعنوان (نصيب عدن) يفيض حماساً إسلامياً ووطنية مستبصرة، أوردت منه شذرات في كتابي (النعمان دعوة إصلاح وبطولة استقلال).

محمد علي لقمان (١٣١٤ هـ - ١٣٨٥ هـ)

وآل لقمان أسرة يمنية عدنية، تمتاز بوفرة أعلامها المتفننين في المجالات الثقافية المتعددة، ففيهم الصحفي والمؤرخ والباحث والشاعر. وأهم رجالهم هو الأستاذ محمد علي لقمان المولود سنة ١٣١٤، المتوفى سنة ١٣٨٥ هـ.

قال الزركلي في ترجمته: «مؤسس النهضة الأدبية في عدن، وأول عدني احترف المحاماة. أديب صحفي، أنشأ جريدة (فتاة الجزيرة) سنة ١٩٤٠، وبعدها مجلة (عدن كرونكل) باللغة الإنكليزية سنة ١٩٥٢، وكان من الأعضاء التنفيذيين في حزب مؤتمر الشعب العدني، وصنف كتاب (بماذا تقدم الغربيون)، وقصد الحج، فلما وصل إلى جده توفي ودفن بها».

وقد أورد الدكتور أحمد عبد الله السومحي في كتابه عن علي أحمد با كثير، طرفاً من محاسن لقمان، وإحسانه إلى دعاة الإصلاح ورجال الفكر والأدب.

علي أحمد با كثير (١٣٢٨ هـ - ١٣٨٩ هـ)

هو الأستاذ الشاعر الناثر القصصي علي أحمد با كثير، الحضرمي الأصل، الأندونيسي المولد؛ إذ ولد بسور إبايا من أندونيسيا سنة ١٣٢٨، المصري الوفاة، إذ توفي بها سنة ١٣٨٩ هـ.

وعلى كثرة مؤلفاته فلم أقف منها إلا على رواية (وإسلاماه)، وهي شاهدة بتعلقه بأمجاد الإسلام، وحرصه على نفخها في أبناء الجيل وكذا روايته عن حمدان

قرمط، أو الثائر الأحمر، وهي على جودة بنيانها القصصي وعرضهـا التاريخي، إلا أنها خالية من المـراجع التي أخـذ عنها حقـائق أبطال روايتـه، وخصوصـاً حمدان قرمط الذي ذكر توبته وخروجه على فكـرة الإمام المستـور، مع إصفـاق المراجـع القديمة على إدانته، وعدم ذكر توبته، والعلم عند الله.

ولـو لم يكن لبا كثـير إلا ملحمته الإسـلاميـة الكـبرى (عمـر) والتي بلغت تسعة عشر جزءاً، لكفاه.

قال الزركلي في ترجمته: «علي بن أحمد با كثير، شاعر قصصي حضرمي ولد في سوريا إبايا بأندونيسيا من أبوين عربيين، وأرسل إلى حضر موت صغيراً لينشأ في وطن آبائه، كما هي عادة الحضارمة في المهاجر. وتزوج، وفجع بـوفاة زوجتـه حوالي ١٩٣١، فهاجر من حضر موت وطاف بأطـراف اليمن والصومـال واستقر مـدة في الحجاز، وانتقـل إلى مصر (١٩٣٣)، فدخـل كليـة الآداب قسم اللغـة الإنكليزية، ثم معهد التربية للمعلمين، وتخـرج (١٩٤٠)، وعمل في التـدريس (١٤) عاماً، وعين في قسم الرقابة على المصنفات الفنيـة في وزارة الثقافـة بمصر، وقام برحلات مع بعض البعثات إلى فرنسا والاتحاد السوفياتي، وسواهما.

ونبغ في كتابه (القصة)، ولا سيـما المسرحيات الشعـرية، ولـه من المطبـوع منها (همام)، أو (في عاصمة الأحقاف)، و (قصر الهودج) و (أخناتون ونفرتيتي).

ومن مسرحياته النـثرية المـطبوعـة (الفرعـون الموعـود) و(عودة الفـردوس) و (سر الحاكم بأمر الله) و (أبو دلامـة)، و (مسمار جحـا)، و (مسرح السياسـة)، و (إمـبراطـوريـــة في المـزاد)، و (حمــدان قـرمط)، و (دار ابن لقـــمان)، و (إلـه إسرائيل).

وكتب عدة قصص طويلة، وكتـاباً سـماه (فن المسرحية من خـلال تجاربي الشخصية)، وكلها مطبوعة. توفي بالقاهرة. ولعمر محمد با كثير كتاب (مـع علي أحمـد با كثير) وفيه أخبار عن صـاحب الترجمـة بخط مؤلفـه، وبمنـزلـه في سيـون

(حضر موت) ا. هـ. وقد بسطت الكلام عنه في كتابي (غمامات قزحية من مجمع البحرين).

صاحب السلام عبد الله بن علي الحكيمي (١٣٢٩ هـ ١٣٨٣ هـ)

نحن في هذه الترجمة أمام أول داعية عربي مسلم في بريطانيا بالعصر الحديث فيما أعلم. ولم يؤخر حديثي عنه إلا ندرة المراجع، وعدم تواجد المطلعين على سيرته. وبعد بحث طويل أهداني أحد الفضلاء بعض المراجع عنه، كما التقيت بأحد بعض معارفه الذي أخبرني بطائفة من أخباره، وعلى هذا فمراجعي عنه تتكون من كتابه بعنوان (أسئلة وأجوبة)، وتقديم عثمان عبد الله الأزهري له، وكتاب (دعوة الأحرار) الصادر عن مركز الدراسات بصنعاء، وفيه مقدمة لولده عبد الرحمن بن عبد الله، ونبذة مما كتبه المؤلف البريطاني الفريد هوليداي، تعريب سلطان ناجي، وبعض معلومات عارفيه.

ونبدأ فنقول: هو الداعية المجاهد عبد الله بن علي الحكيمي. ولد سنة ١٩٠٠ م بالأحكوم، من ناحية الشمايتين، قضاء الحجرية، المعافر قديماً. وتلقى دروسه الأولى باليمن، ثم التحق جندياً بعدن أيام الاحتلال الإنجليزي، ثم عمل بحاراً بإحدى السفن الفرنسية. وخلال تنقله بالموانىء الفرنسية منها موانىء الجزائر التي كانت يومها مستعمرة فرنسية ـ وقف على أخبار الشيخ الولي أحمد مصطفى العلوي بمدينة مستغانم، صاحب المنح القدسية في التصوف، المتوفى سنة ١٣٥٣ هـ. فانضم إليه، وأخذ عنه طريقته في التصوف. وبعد وفاته توجه إلى ساوث شيلد سنة ١٩٣٦ م، وتمكن من إقناع بعض نساء الإنجليز بالإسلام، فأسلمن وتزوجن ببحارة يمنيين، ثم انتقل إلى مدينة كارديف حيث يتوفر جمع كبير من المغتربين اليمنيين والصوماليين وفور وصوله عمل على تجهيز الموتى بالطريقة الإسلامية وحصل على مقبرة خاصة بالمسلمين، وعمر مسجد نور

الإسلام، ومدرسة إلى جواره لتعليم الدين واللغة العربية لأبناء الجالية و الداخلين في الإسلام من الأوروبيين، وبنى أربعة منازل جعل إيجارها وقفاً لصالح المسجد والمدرسة، ثم بعد أربع سنوات توجه بأول بعثة علمية من أبناء المسلمين اليمنيين، وبعضهم أمهاتهم انجليزيات مسلمات. وكان في استقباله بميناء الإسكندرية الأستاذ أحمد محمد نعمان. وأقام محمد مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر حفلاً لتكريمه بالأزهر، أعرب فيه عن سَبْق الحكيمي للأزهر، الذي كان يعتزم نشر مبعوثيه بأوروبا، فسبقه الحكيمي، وجاء بالباكورة الجنية متمثلة في البعثة العلمية التي التحقت بالأزهر.

والتقى بالجاليات اليمنية في السودان وكينيا وأثيوبيا، ووصل عدن وبنى مدرسة بالشيخ عثمان. وكان من مدرسيها الشيخ عثمان عبد الله الأزهري وزملائه من الأزهر. ثم انتقل إلى الحجرية لزيارة الأهل، وبنى فيها أول مدرسة من نوعها ذات أربعة فصول ومسجد.

ولعل ولي العهد أحمد أوجس منه شيئاً، فاستقدمه إلى تعز، وعهد إليه بالإرشاد العام، وألزمه بالإقامة في تعز وهناك تعرف على المجاهد محمد محمود الزبيري، ومنصور عبد العزيز نصر، والمجاهد زيد الموشكي، وتكرر لقاؤه بالمجاهد أحمد محمد نعمان الذي كان يومها مديراً لمعارف تعز. ولم ينجح في الإفلات من قبضة أحمد، إلا بعد أن سقط عن ظهر حماره وأصيب برضوض في جسمه، فوافق أحمد على عزمه إلى عدن للعلاج، وبقي بها.

وبعد حين انضم إليه الزبيري والنعمان ودماج ثم الموشكي والشامي، وقامت المعارضة اليمنية في حزب الأحرار، ثم باسم الجمعية اليمانية الكبرى. وفي سنة ١٩٤٦ عاد إلى كارديف.

وبعد فشل ثورة الدستور سنة ١٩٤٨ وسقوط رجالها بين شهيد وسجين وشريد، قام الحكيمي بإصدار صحيفة السلام أواخر سنة ١٩٤٨، في فترة عصيبة

صمتت فيها الأفواه والأقلام، وصدر منها مئة عدد وسبعة أعداد، إلى (مايو) سنة ١٩٥٢، حين ا ضطرته معارضة الشيخ حسن إسماعيل مفضل الشميري، وابتعاد الجالية اليمنية عنه، لخوفهم من بطش الإمام بأقاربهم، فودع بريطانيا بالعدد الأخير من السلام الذي أصدره باللغة الإنجليزية، وعاد إلى عدن ماراً بالجاليات اليمنية في أوروبا وإفريقيا.

وبعد أيام اعتقله الإنجليز، وقدموه للمحاكمة بتهمة لم أعرف تفاصيلها، وحكموا عليه بالسجن والأشغال الشاقة. وبعد سنة تمكن من نقض الحكم بمحكمة نيروبي في كينيا، وأفرج عنه، وطالبه زملاؤه برئاسة الاتحاد اليمني. ولعل الزبيري كان حينذاك لما يحصل على سماح ثورة مصر له بالدخول.

ومما يلقي الأضواء على مكانته العلمية وحركته الإصلاحية هو نقل أهداف صحيفة السلام التي أصدرها، وهي كالتالي:

١ ـ الدعوة للرجوع إلى مبادىء الإسلام القويمة، إلى المبادىء التي صهرت العرب وصفتهم، وخلقت منهم أمة واحدة، حضارة وتاريخاً. ثم سمت، فجعلت منهم مناراً للإنسانية في عصورها المظلمة، وملجأ تلوذ به من الطغيان.

الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي في كل مناحية، الإصلاح الذي يعمل على التقارب بين الطبقات، وإن شئت فقل على إزالة الفوارق، التي تقف عقبة كأداء في سبيل تفاهم الطبقات المختلفة وتعاطفها وتعاونها.

٣ ـ الدعوة إلى نشر الثقافة العلمية، حتى لا ينالها غني لغناه، ويحرم منها فقير لفقره، ندعوه إلى الثقافة العامة بأوسع معاني الكلمة، لأنها كانت وما وما زالت عدّة المرء في سعيه، والسلاح الوحيد الذي تتفاضل به الشعوب، من يمتلك الثقافة والعلم يسعد ويسبق ويسد، ومن تخطئه الثقافة والعلم يشقى ويتخلف ويستعبد.

٤ ـ الدعوة إلى تدعيم الجامعة العربية، وزيادة الدعوة للوحدة والاتصال

بين الشعوب. إن سلامة الأمم والاحتفاظ بكيانها وبقائها يدعو هذه الأمم حتى الكبير منها ـ إلى التكتل. ولدينا الكتلة الغربية والكتلة الشرقية والإسلامية للشرق العربي، إلا إذا ظهرنا في شكل كتلة تعمل بقلب واحد، وتصدر بسياسة واحدة، ذلك هو ضماننا في البقاء في عالم تكتنفه الأعاصير والأنواء.

الدعوة إلى أن تقوم سياستنا الداخلية على أسس من الديمقراطية الصحيحة، على أن تكون سياسة مبادىء لا مصالح، للفقير فيها مثل ما للغني من حقوق ومنافع، الغني فيها مثل ما على الفقير من واجبات والتزامات.

٦ ـ الدعوة إلى عرض أدبنا العربي في وضعه الصحيح. لقد كان أدبنا العربي في عصوره الأولى تشع منه نسائم الحرية والقوة والشهامة والمروءة والفن الأصيل. لِمَ لمْ نعد في نتاجنا الفكري إلى عناصر أدبنا الأصيل؟ دعوا نسائم الحرية والقوة والشهامة والمروءة تطالعنا من نتاجنا العصري، وكفى دموعاً ونحيباً وميوعة، تضاؤلاً وضعفاً، نحن إلى أدب الحرية والقوة ندعو» ا. هـ.

ونشرت مجلة الهلال القاهرية بهذا الصدد في عدد يناير ١٩٧٢ م، بحثاً عن المسلمين القاطنين في بريطانيا تحت عنوان (طاقات واسعة لخدمة قضايا الإسلام والعروبة، مليون مسلم يعيشون في قلب المجتمع البريطاني) كتبه الأستاذ (إبراهيم البعثي) جاء في البحث «في كارديف أنشأ أبناء الجالية العربية الإسلامية صحيفة عربية باسم (دار مطبعة وجريدة السلام). ولم يكن نشاط هذه الدار مقصوراً على إصدار الصحفية، بل كانت تصدر كتباً إسلامية توضح للأجيال الجديدة من المسلمين في بريطانيا، دقائق الدين الإسلامي الحنيف. وكان القائم على هذا النشاط الإسلامي الكبير رجل عربي مخلص لدينه وعروبته، وهو الشيخ عبد الله الحكيمي الذي نجح في إقامة مسجد ومدرسة للمسلمين هناك، أحاطها بخمسة منازل خصص إيرادها للإنفاق على المسجد والمدرسة».

وقد انتقل رحمه الله إلى جوار ربه في أغسطس سنة ١٩٥٤ م، وقبر بمدينة الشيخ عثمان.

قال ولده عبد الرحمن: «إنه لم يكن لديه يوم وفاته ما يجهزونه به، فتحمل زملاؤه الخيِّرون ذلك». رحمه الله، وأجزل مثوبته.

ثم عرفت بعد ذلك أن التهمة التي حوكم من أجلها هي حيازة السلاح، ولم يكن له من سلاح غير مسدسه الشخصي.

الفضيل الورتلاني (... - ١٣٧٨ هـ)

كثيراً ما هجس في النفس حافز تسجيل حياة هذا المجاهد الفضيل الورتلاني الجزائري ويثنيني عن المضي في ذلك عدم يمنيته، وإن كان قد ارتبط بتاريخ اليمن المعاصر في أهم أحداثه سنة ١٩٤٨.

ثم وقفت على مقال لفهمي هويدي بمجلة الدوحة القطرية، يتساءل ضمن حديثه عن الشيخ محمد عبده، عن العلاقة التي ربطت الورتلاني باليمن، فقوي العزم على تسطير هذه الترجمة، خصوصاً وأن الرجل ضحّى من أجل اليمن حتى قضى نحبه.

وأهم ما كان يشغل النفس، ما إذا كانت له مشاركة فعلية في مقتل الإمام يحيى حميد الدين. وقد جلّى كلام للقاضي الرئيس عبد الرحمن الإرياني، في كتاب عن ثورة سبتمبر ١٩٦٢ م ذلك الغموض، حيث أوضح أن الأستاذ حسن البنا والسيد الفضل الورتلاني، كانا يحرصان على تطوير اليمن وإصلاح أوضاعها، ولم تكن لهما مشاركة في مقتل الإمام يحيى.

ومجمل ما ترجمه فتحي يكن في موسوعته الحركية، أنه ولد بالجزائر، ودرس على عبد الحميد بن باديس، ووفد إلى باريس سنة ١٩٣٦ ليربط العمال الجزائريين بدينهم ولغتهم ووطنهم، وأنشأ باسم جمعية العلماء الجزائريين أحد

عشر نادياً. ثم وفد إلى مصر سنة ١٩٣٨، فاتصل بـالإخوان المسلمـين، وانتقل من مصر إلى اليمن. ثم لجأ بعد مقتل الإمام يحيـى سنة ١٩٤٨ إلى لبنان بموافقة رئيس وزرائها رياض الصلح، واتصل بجمعية عباد الرحمن. وذكر أنه كـان يأتي عليه نهار وليل لا يذوق طعاماً ولا مناماً، حتى اعتلت صحته.

وفي كتاب (علماء ومفكرون عرفتهم) للشيخ محمد المجذوب بمعرض ترجمته للدكتور محمد عبدالقادر المبارك، أن المبارك وهو جزائري الأصل استفاد أيام دراسته بباريس من نوادي الورتلاني.

وفي ترجمة الزركلي للورتلاني في أعلامه، أوضح أنه ولد في بني الورتـلاني. دائرة سطيف بالجزائر، وأنه أصدر كتاباً بعنوان (الجزائر الثائرة)، وأنه قضى نحبه بمدينة إسامبول سنة ١٣٧٨، مضافاً إلى ما ذكره يكن عنه.

وأكثر اليمنيين معرفة له واتصالاً به وإشادة بشأنه هو الأستاذ أحمد محمد الشامي. قال عنه بعد أن ذكر في أكثر من موضوع، علويته واتساع علمه وبلاغته الخطابية التي يملك بها سامعيه: «وفي اعتقادي أن العالم المجاهد الجزائري السيد الفضيل الورتلاني، هو الذي غير مجرى تاريخ اليمن في القرن الرابع عشر الهجري، العشرين الميلادي، وأنه حين وضع قدمه على أرض اليمن، كأنما وضعها على « زر دولاب تاريخها، فدار بها دورة جديدة في اتجاه جـديـد، لأن ثورة الدستور (١٣٦٧هـ/١٩٤٨) هي من صنع الورتلاني، واقع اليمن حين قدمها:

«نعم، لقـد كـانت هنـاك معـارضـة في عـدن، ومنـاشـدة بـالإصـلاح في الداخل، وكان هناك نقد وتبرم ومنشورات ضد الدولة، وكانت هناك طمـوحات وزعامات وتحفزات. وكل ذلك يصلح أن يكون وقوداً لثورة ما، ولكن المعارضة كانت بلا تنظيم، واتجاهات زعمائها مختلفة ومتباينة، والمناشدون بالإصلاح ودعاة التغيير والتطوير لا توحدهم رابطة، والنقد والتبرم غير موجهـين توجيهـاً سياسيـاً هادفاً بناءً، والطمـوحات تتنـافس فيما بينهـا، وكل مـتربص بالآخـر، وينتظرون موت الإمام يحيـى الذي جاوز الثـمانين، أو كـاد، والزعـامات العلميـة والدينيـة

والسياسية وقد خدرها الوهن، وجمدتها الأطماع. والتحفزات الوطنية ليس لها زعماء أكفاء ذوو مؤهلات قيادية. فلما جاء السيد الفضيل الورتلاني عمل ما لم يعمله أحد من اليمنيين؛ فوحد شتات المعارضة في الداخل والخارج، وأرشد المطالبين بالإصلاح والمناشدين بالتغيير والتطوير إلى طرق العمل، وجمعهم في رابطة وطنية، وقارب بينهم وبين أرباب الطموحات السياسية والزعامات العلمية والدينية والقبلية والتحفزات الإصلاحية، من الناقدين والمتبرمين، وصهر مجهوداتهم وأهدافهم، واتجاهاتهم وآصالهم وأمانيهم في بوتقة الميثاق الوطني المقدس» ا. هـ.

(عن كتاب رياح التغيير في اليمن).

الشهيد سبع الليل أحمد الأحمدي

استقيت معلومات هذه الترجمة من أحد أعداد مجلة (البنيان المرصوص) الصادرة عن حركة الجهاد الأفغاني تناولت بالتفصيل معركة قلعة جاجي، ومن شريط كاسيت ضم شهادة الدكتور عبد الله يوسف عزام، ولفيفاً من المجاهدين والأطباء العرب المشاركين في الجهاد الأفغاني ضد الشيوعية والغزو السوفيتي.

ومجمل ذلك، هو أن صاحب الترجمة يعرف باسم أحمد الأحمدي، من لواءات قضاء العدين كان شاباً في مقتبل العمر، لم يتزوج بعد. التحق بالجهاد الأفغاني متطوّعاً. ويقول الدكتور عزّام: أنه رابط معه ثلاثة رمضانات، كان غاية في الشجاعة واقتحام المخاطر، وإحياء الليل، عبادة أو جهاداً، فأطلق عليه زملاؤه لقب سبع الليل.

شارك في معركة قلعة جاجي التي استمرت من ٢٦ رمضان ١٤٠٧ هـ حتى ١٧ شوال من نفس السنة. وآخر مهماته أنه قام بنقل رسالة من الأفغان إلى المهندس حكمت يار والشيخ برهان الدين رباني، استمداداً للسلاح. وكانوا مقيمين ببيشاور خلال احتدام المعركة في أيامها الأولى، فذهب وعاد خلال يومين،

والتحق بالأصمة التي كانت بيد المجاهدين، يطلق قذائفها على العدوّ. وأصابته شظية صباحاً فلحق بربه. ولعل استشهاده كان آخر أيام رمضان.

وقد حشد العدوّ لهذه المعركة ثلاث فرق أفغانية، وخمس كتائب روسية، وكتيبة كوماندوز انتحارية، إلى جانب قواته الجوية الضاربة.

ورغم ذلك، فقد اندحر العدوّ مهزوماً، وخسر ألفاً وخمس مئة قتيل من رجاله، غير عشرات الدّبابات والناقلات والآليات والطائرات التي خسرها، وعدا الجرحى الذين أصيبوا بينما لم يخسر المجاهدون غير ستين شهيداً، كان أحدهم سبع الليل أحمد الأحمدي أول شهيد يمني بجهاد الأفغان.

وقد أمر الشيخ سياف عبد ربه الرسول القائد العام للجهاد الأفغاني، بدفن جثمان الأحمدي بمقبرة بابي إلى جوار إخوانه من شهداء العرب في جهاد الأفغان.

ولمثل هذا فليعمل العاملون، وفي هذا فليتنافس المتنافسون. أحيانا الله سعداء، وتوفانا شهداء، آمين.

(محمد سعيد الشيباني)
(١٩٣٠م - ١٩٨٧م)

هو العلامة الداعية محمد سعيد الشيباني.

ولد بدبع الداخل وهي منطقة تابعة للحجّرية سنة ١٩٣٠م تقريباً ومنها انتقل مع بعض أهله إلى عدن، بحيث فقد بصره في العام الثامن من عمره، وقد أعاضه الله عن ذلك بحافظة واعية، فالتحق بمعهد المكفوفين في عدن، ودرس بطريقة اللمس، وأمكن له هنالك إجادة اللغة الإنجليزية، وطاف على علماء عدن بمساجدها، فأخذ عنهم ثقافته الإسلامية. ومن أبرز مشايخه: الحافظ الداعية محمد سالم البيحاني، ومحمد حزام المقرمي، والغرباني، ثم كان خطيباً لجامع الروضة بحارة القلوعة من عدن، وأسسَّ مدرسة تحفيظ القرآن، وعقد حلقة تعليم العلوم الإسلامية، وحثّ المواطنين على مقارعة المستعمر الإنجليزي حتى تمَّ الاستقلال

سنة ١٩٦٧م. واحتجاجاً على سوء الأوضاع التي منيت بها البلاد بعد ذلك نزح إلى الشمال، واستقر بالحديدة، حيث كان من أبرز المؤسسين لمعهد النور العلمي بها، ولبث خطيباً لمسجد العمال حتى وافاه الحق فجر يوم الأحد ٢١ جمادى أولى سنة ١٤٠٨هـ.

من أبرز مناقبه أنّه لإتقانه الإنجليزية كانت تستدعيه الاتحادات الطلابية الإسلامية والجاليات العربية والإسلامية بأوروبا وأمريكا، فكان بارعاً في ترجمة المواعظ إلى الإنجليزية.

رحمه الله وجزاه عن الإسلام خيراً.

(المؤرخ محمد يحيى الحداد)
(١٣٤٣هـ - ١٤٠٨هـ)

هو العلامة المؤرخ محمد بن يحيى بن علي الحدّاد. وأسرته مشهورة بعراقة العلم والأدب في رجالها، وقد مرَّ بنا بعض تراجمهم. ولد بمدينة إب سنة ١٣٤٣هـ، وبها تلقى علومه الشرعية والأدبية. ومن أهم مشايخه والده مفتي إب يحيى بن علي. والمؤرخ اليمني محمد بن علي الأكوع وغيرهما، وقد انتقل في صباه من مدينة إب إلى مدينة تعز، حيث التحق طالباً بالمدرسة الأحمدية التي أنشأها ولي العهد أحمد يحيى حميد الدين، وهنالك تلقى الكثير من دراسته وثقافته. ومن أبرز مشايخه بها زيد بن علي الموشكي، ومفتي الجمهورية الآن أحمد محمد زبارة. الذي درس عليه في أمهات الحديث الستّ، وتفسير الكشاف للزمخشري، كما تلقى دراسته في القراءات السبع للقرآن الكريم من شيخه محمد بن محمد بن إسماعيل المنصور. ولما تولى الإمام أحمد مقاليد الأمر بعد أبيه عمل عضواً بالديوان الملكي بتعز، وأولى عنايته بالدراسات التاريخية منذ شبابه حتى الوفاة. وكان أحد المؤرخين اليمنيين القلائل الملمِّين بالمسند الحميري، فأعانه ذلك على اكتشاف الكثير من حلقات التأريخ اليمني قبل الإسلام، وشغل بعد ثورة سبتمبر منصب وزير الأوقاف، وكان له خلال ذلك منجزات حسنة، أقربها إلى علمي إنشاء معهد علمي بمدينة زبيد، وهو ما يعرف اليوم بمعهد المقري. انقطع خلال العشر سنوات الأخيرة من حياته لتأليف كتابه الهامّ: (تاريخ اليمن العامّ) في خمسة أجزاء، وقفت عليه،

وكانت لي ملاحظات بشأنه، نشرتها في كلمة ضافية بصحيفة الصحوة الأسبوعية الصادرة بصنعاء. وقد أجاب الفقيد على كثير من ملاحظاتي في عدد لاحق من الصحوة، نشر قبل وفاته بأيام قلائل. وقد زادني ردُّه الرصين إعجاباً بأسلوبه الرقيق في الحوار، وعرضه العلمي للنقاش، فبعثت إليه رسالة وأهديته نسخة من ديواني (أجراس) بواسطة ابن عمه المدير العام لناحية عيسى الأستاذ الشاعر محمد أحمد الحداد. ولكنها للأسف وصلت وقد لحق بربِّه، حيث نعاه تلفاز صنعاء مساء الجمعة ٣ جمادى الآخرة ١٤٠٨هـ.

(حمود محمد إسماعيل المحنبي)
(١٣٢٤ هـ - ١٤٠٩ هـ)

هو شيخنا العلامة المفنّن حمود محمد إسماعيل المحنبي الهتاري، الساكن بقرية التريبة، الواقعة شرقي زبيد، تصغير تربة. وهي في مصطلح تهامة مثوى الرجل الصالح. وهذه التريبة تعود في وضعها إلى الوليّ الصالح عيسى بن إقبال الهتار، الجدّ الجامع لآل الهتاري، المتفرقين في تهامة اليمن وجبالها. سبقت ترجمته في عناقيد مع الأعلام من ذريته. ولد شيخنا حمود بالتريبة كما أخبرني من لسانه سنة ١٣٢٤هـ، وتلقى كلّ علومه من أبيه وشيخه كبير علماء زبيد في عصره محمد بن إسماعيل المحنبي، تتلمذ له أكابر من فضلاء اليمن، كيحيى بن محمد الإرياني رئيس المحكمة الاستئنافية بصنعاء، وأحمد محمد نعمان رئيس وزراء اليمن السابق، كما أخبرني بذلك ولده المترجم. وذكره الوشلي في كتابه (نشر الثناء الحسن) وذيله. كما ذكره زبارة بنزهة النظر في ترجمته ليحيى بن محمد الإرياني.

وقد توسع شيخنا حمود في الأخذ عن والده لكثير من العلوم الشرعية والأدبية وغيرها، كعلم المساحة الذي هو المهنة المتداولة في بيت آل المحنبي منذ أجيال، وأخذ أيضاً على جهة التبرك من علماء زبيد كآل الأهدل وغيرهم.

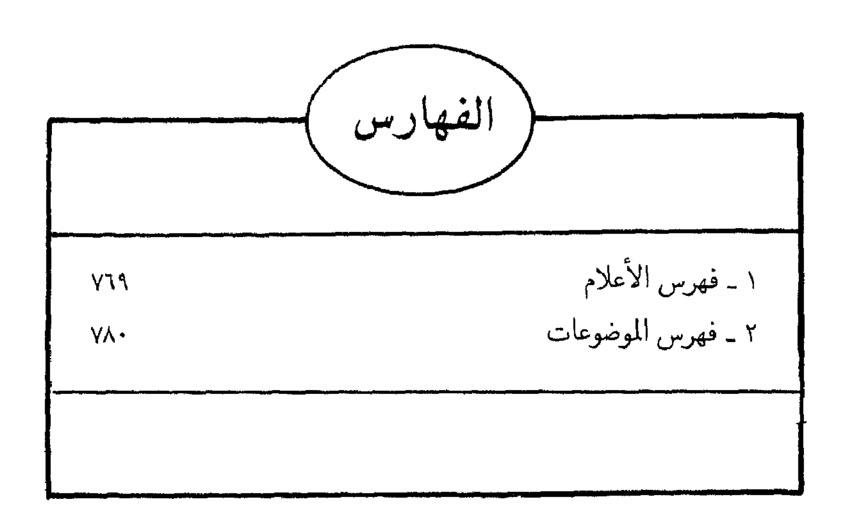
وقد درست عليه معظم مقروؤاتي في فروع الشافعية كالمنهاج، وفي النحو الكواكب شرح المتممة للأهدل، وفي كتب الحديث كصحيح البخاري، ولازمته فترةً غير قصيرة، واستفدت منه خيراً كثيراً، جزاه الله عني خير الجزاء، وكان وهو فوق الثمانين متمتعاً بالحوّاس البصرية والسمعية والذوقية، مستظهراً لكثير من

المتون في شتى الفنون. ولا يكاد يفارق الكتاب في حضر ولا سفر، عاكفاً على مكتبته الكبرى التي لا أحسب مكتبة خاصّة في لواء الحديدة تدانيها، وفيها مخطوطات نادرة لآل الأمير اقتناها أسلافه، كما أخبرني من لسانه. وقد حجّ عدة مرات، واعتمر وزار، وعلى تعدد معارفه وطول باعه في التفسير والحديث والأصول والفروع وعلوم اللغة فقد كان شديد التعصب لمذهبه، والتمسك به في غير تجنٍّ على الآخرين. وحين توفي صديقه العلامة الأديب حاكم حيس عبد الله بن محسن العزب سنة ١٣٦٤هـ عرض عليه القضاء بحيس، فأصرَّ على الرفض إيثاراً للدعة وبراءة الذمة وملازمة المكتبة، وكان رحمه الله غايةً في التودد والعطف على الضعفاء وإيواء المحاويج، وكانت له سليقة مؤاتية في النظم.

انتقل إلى جوار ربّه فجر يوم الخميس الثامن من ربيع الثاني سنة ١٤٠٩هـ؛ وله أولاد ذكور ثلاثة هم محمد وعبد الرحمن وعبد السلام، وقد أقيم له حفل تأبيني بمسجد عيسى الهتار مساء الأحد الحادي عشر من الشهر نفسه، شارك في التأبين فيه العلامة إبراهيم محمد المشرع من بيت الفقيه، والأستاذ عبد الله محمد عطية من زبيد. وقام بإلقاء قصيدتي التي نظمتها في تأبينه الأخ كاتب محكمة حيس العزي طيب بعكر. وهي موجودة بكاملها في ديواني الثاني (أنفاس).

المصادر والمراجع

١ ـ أخبار قضاة مصر ـ لابن زولاق .
٢ ـ أخبار الوزراء .
٣ ـ الاختصاص ـ لنظام الدين العرشاني .
٤ ـ الاستيعاب ـ لابن عبد البر .
٥ ـ الإشارات ـ لابن سينا .
٦ ـ الإصابة ـ لابن حجر العسقلاني .
٧ ـ الأعلام ـ لخير الدين الزركلي .
٨ ـ الإكليل ـ للهمداني .
٩ ـ البداية والنهاية ـ لابن كثير .
١٠ ـ البدر الطالع ـ للشوكاني .
١١ ـ تاريخ ابن صنعاء ـ للرازي .
١٢ ـ تاريخ الفلسفة في الإسلام ـ ت . ج . دي بور .
١٣ ـ تذكرة الحفاظ ـ للذهبي .
١٤ ـ التفسير والمفسرون ـ للذهبي .
١٥ ـ التنبيه على حدوث التصحيف ـ حمزة الأصبهاني .
١٦ ـ تهذيب الأسماء ـ للنووي .
١٧ ـ رجال الدعوة والفكر ـ أبو الحسن الندوي .
١٨ ـ رياح التغيير في اليمن ـ أحمد محمد الشامي
١٩ ـ السلوك ـ للجندي .
٢٠ ـ صفة الصفوة ـ لابن الجوزي .
٢١ ـ الصلة ـ أبو القاسم بن بشار .
٢٢ ـ الضوء اللامع ـ للسخاوي .
٢٣ ـ الطبقات ـ للأسنوي .
٢٤ ـ طبقات ـ البريهي .
٢٥ ـ طبقات ـ ابن سمرة .
٢٦ ـ طبقات الخواص ـ للشرجي .
٢٧ ـ علماء ومفكرون عرفتهم ـ محمد المجذوب .
٢٨ ـ العقود اللؤلؤية ـ للخزرجي .
٢٩ ـ قرة العيون وبغية المستفيد ـ للديبع .
٣٠ ـ الكامل ـ لابن الأثير .
٣١ ـ مختصر تاريخ العرب ـ لسيد أمير علي .
٣٢ ـ معجم البلدان ـ لياقوت الحموي .
٣٣ ـ معجم الأدباء ـ لياقوت الحموي .
٣٤ ـ نشر العرف ونيل الوطر ونزهة النظر ـ محمد زبارة .
٣٥ ـ النفس اليماني ـ للأهدل .
٣٦ ـ النور السافر ـ للعيدروس .
٣٧ ـ الوفيات ـ لابن خلكان .



الفهارس



فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

فهرس المواضيع

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة







